مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرّابعُ والأَرْبعُونَ

سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّد الرّابعُ والأَرْبعُونَ

سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2025

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م

الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الحَادِي وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ لُقمَان

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإِصْرارُ عَلى الضَّلالِ مَعَ إيضاحِ البَراهينِ

لَمّا ذكَر اللهُ سُبْحانَهُ المُجادِلَ بغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنيرٍ، وكان هَذا المُجادِلُ تابعًا لِهَواهُ مُقَلِّدًا مثلَه، وكانَ حالُ المُجادِلين هَذا لِظُهور أدلَّةِ الوَحْدانيَّة عَجَبًا؛ ذكرَ اللهُ تعالى مِن حالِهم أمْرًا آخرَ عَجيبًا؛ وذلكَ بِإقامَتِهم عَلى الضَّلال معَ إيضاحِ الأدِلَّة والبَراهينِ والحُجَجِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدۡنَا﴾: (وجد) تدورُ تَصْريفاتُه على تحصُّلِ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منهُ، كالمالِ، والضّالَّة، ومِنْ صوَرِه: العثورُ على الشَّيءِ في الحَوْزةِ دونَ معرفةٍ مُسْبَقَةٍ بذلكَ، ويُقال في فعلِه: وجَدَ وِجْدانًا، بمعنَى: حصّلَه وألْفاهُ، وبمَعْنَى: ظَفَرَ به، ويرِدُ الفعلُ وجَدَ؛ بمَعْنى العِلْم، أي: وُجودِ الشَّيء على صفَةٍ أو حالٍ فيتعدَّى إلى مفعولينِ، ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾(2).

2) ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾: (دعو) تدلُّ اشتقاقاتُه على مَيلِ الشَّيءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أدْعو دُعاءً، والدَّعْوَةُ إلى الطَّعامِ بالفَتْحِ(3)، والدُّعاء إلى الشَّيء: الحَثُّ على قَصْدِه(4).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وجد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(4) الراغب، المفردات: (دعا).

والمعنى المحوَريُّ له هوَ جَذْبُ الشَّيءِ أو مُحاولَةُ ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، وكلُّ ما عُدّيَ بـ (إلى) أو باللّام؛ فهو منَ الدَّعوة إلى دينٍ أو عملٍ، وبعضُ ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسِه[1]، ويصْدُقُ ما تقدَّم على معنى اللَّفظ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لأنَّ المرادَ دَعْوَتُهم إلى العمَلِ الموجِبِ دُخولَ النّار.

3) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: (سعر) تدُلُّ تَصريفاتُه على اشْتِعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، من ذلك السَّعيرُ: وهو سعيرُ النّار، واسْتِعارُها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الذي يُسْعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النّار[2]، وسَعَرْتُ النّار وأسعرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[3]، والسَّعيرُ: النّارُ المُسَعَّرَةُ، أي: المُلتهبةُ، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: إنَّ الشَّيْطان يَدْعوهُم إلى موجِباتِ دُخولِ عَذابِ السَّعير وهو نارُ الآخِرَة[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إصْرارُ المُجادِلينَ عَلى تَقْليدِ آبائِهِمْ رُغْمَ وُضوحِ الحَقِّ

وإذا قيلَ لَهُؤلاءِ الذين يُجادِلون في توحيدِ اللّهِ سُبحانَهُ جَهْلًا مِنْهُم بعظمَةِ اللّهِ ﷻ وعنادًا: اتَّبعوا أيُّها النّاسُ ما أنزلَ اللّهُ تعالى عَلى رَسولِه، وصَدِّقوا به؛ فإنَّه يُفَرِّقُ بين المُحِقّ منّا والمُبْطِل، ويَفْصِلُ بينَ الضّالِّ والمُهْتَدي، فقالوا: بَل نَتَّبِعُ ما وجَدْنا عليهِ آباءَنا منَ الشِّرْكِ؛ أيَفْعَلون ذلكَ ولَو كانَ الشَّيْطانُ يَدْعوهُم بتَزْيينِه لَهُم سوءَ أعْمالِهم وكُفْرَهُم باللّهِ تَعالى إلى عذابِ النّار المُشْتَعِلَةِ المُلْتَهِبَة؟[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

التَّعْجيبُ مِنْ تَرْكِ الحَقِّ واتِّباعِ الهَوى

(الواوُ) في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ عاطفةٌ، فقد عَطَفَت

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سعر).
(4) جلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، ص: 543.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 149، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

الجُملةَ بعدَها عَلى صلَةِ (مِنْ) في قول اللّه سُبْحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، أي: (مَنْ حالُهُم هَذا وذاك)، والتَّقديرُ: (ومِنَ النّاس مَن إذا قيلَ لَهُم ... إلخ)[1].

فالآيَةُ امْتدادٌ في الحديثِ عَنِ الُمجادِلينَ في اللّهِ سُبْحانَهُ؛ لأنَّ الُمجادِلَ في توحيدِ اللّه ﷻ بغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتاب مُنيرٍ؛ مُتَّبعٌ لهَواه قطعًا، فكانَتْ في الآيَةِ تَعْجيبٌ بعدَ التَّعجيبِ الُمتقدِّمِ[2]، كما أشارَ العطفُ إلى أنَّ كلامَ الُمعاندينَ جِدالٌ وكلامَ المؤمنين معهم قولٌ وحوارٌ هادئٌ، لا يتّسِمُ بالخصومةِ والقوَّةِ والعُنف.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِـ (إذا) دونَ (إنْ):

الإِصْرارُ عَلى العِنادِ والإِسْتِكْبارِ عَلى الحَقِّ

جاءَ التَّعبيرُ بـ (إذا) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ دون (إنْ)؛ لأنَّ (إذا) تَدُلُّ في الأصْلِ على الجَزْم والقَطْع بوُقوعِ مَدْخولِها، بخِلاف (إنْ)؛ فإنَّها تدُلُّ عَلى الشَّكِّ في وُقوعِه، فَيكونُ في الآيَةِ إشارَةٌ إلى تحقُّق دَعْوَتِهم إلى اتِّباع ما أنزلَ اللّهُ سُبْحانَهُ، وفيهِ أيضًا دِلالَةٌ عَلى تحقُّقِ الجَوابِ الذي يُقابلُونَ بهِ الدّاعي لَهُم إلى الحقِّ، وذلك يدُلُّ على غايَةِ الاسْتِكْبارِ والعِنادِ[3].

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿قِيلَ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ:

وُجوبُ اتِّباعِ الحَقِّ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الدّاعي إلَيْهِ

بُني الفعل ﴿قِيلَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه؛ للدّلالةِ على العُموم، أي: وإذا قيل لَهُم مِن أيِّ قائلٍ كانَ[4].

وفي بِناء الفِعْلِ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ هو تحقيقُ الغَرَضِ بالفِعْلِ مِن غَيْرِ توقُّفٍ على الفاعلِ، فاتِّباعُ الحقِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 176.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.
(3) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 378.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

لا ينبغي أنْ يتوقَّف على شُهْرَة الدّاعي أو مكانتهِ أو صِفَتِه، وإنَّما يُقْبَلُ الحقُّ لأجلِ الحقِّ[1]، كما أنَّ مَناطَ الكلام ومَقصدَهُ بيانُ القولِ وموقفِ المُعانِدِ منه دونَ بيانِ القائلِ ومَوقفِهم منه.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿لَهُمُ﴾:

مُراعاةُ اللَّفْظِ والمَعْنى في الضَّمير

الضَّمير في ﴿لَهُمُ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ راجعٌ للمُجادلينَ الجدالَ المذكور قبلُ؛ وهو الحاصلُ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنير.

وجيءَ بالضَّمير في ﴿لَهُمُ﴾ مجموعًا مراعاةً لمَعْنى ﴿مَن﴾، بَعْدَ إفرادِهِ قبلُ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ مراعاةً لِلَفْظِها[2]، وإنَّما روعي اللَّفظُ في الجدال لأنَّهم مُنحصِرونَ في أوجُه الجدال السّابقة فكأنَّهم شيءٌ واحدٌ ومجادلٌ واحدٌ، وإنَّما رُوعيَ المعنى عندَ التكلُّم معهم وبيانِ موضعِ غلَطِهم؛ لأنَّهم مُخاطَبون بذواتِهم استقلالًا.

دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

اتِّباعُ ما أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى أوجَبُ الواجِباتِ

فِعْلُ الأمْرِ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ مِن قولِ الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ دالٌّ على النُّصحِ والإرشادِ؛ لِما فيه مِن تحقيقِ مصالحَ أُخْرَويَّةٍ بالأصالَةِ ومَصالحَ دُنْيَويَّةٍ بالتَّبَعِ، ولا يُنافي أنْ يكونَ ذلكَ واجبًا؛ فإنَّ اتباعَ ما أنْزَلَ اللَّهُ تَعالى عَلى رُسُلِهِ أوجَبُ الواجِباتِ، والأمرُ بالاتّباع يتضمّنُ إعمالَ العقلِ والاجتهادِ؛ لأنَّ ممّا أنزلَهُ الله الأمرَ بالتّفكيرِ في المُسخَّر والنِّعَمِ للوصولِ إلى المُنعِم، وليس المُرادُ به التّقليدَ المحضَ، وكأنَّ المعنى: أعمِلوا عقولَكم في الأدلَّةِ والبراهينِ والآياتِ التي أنزلَها اللّه، فيكونُ في الكلامِ إيجازٌ دلّ عليه ذكرُ (التّسخيرِ والإسباغِ).

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 378.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 74، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 292.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ الموْصولِ وصِلَتِهِ:

شَناعَةُ الإعْراضِ عَـنْ آيـاتِ اللهِ تَعالى

المُرادُ بـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: آياتُ الكتابِ العَزيزِ وبراهينُها الواضحةُ البيّنة، وعُدِل عَنْها إلى التَّعبير بالمَوْصولِ وصِلَتِه؛ لِما في الصِّلة من ذِكْرِ الإنْزال مُسْنَدًا إلى الاسْمِ الأحْسَن ﴿ٱللَّهُ﴾، فكانَ فيهِ إشارَةٌ إلى عِلَّة اتِّباع الآياتِ، كما أنَّها تُضْفي على الآياتِ رَوْعَةً وجَلالًا، وفي التَّعبير بالمَوْصولِ وصِلَتِه أيضًا تَشْنيعُ الإعْراض عنِ الآياتِ؛ لأنَّ ذلك إعراضٌ عَمّا أَنْزَلَهُ اللّهُ سُبحانَهُ الّذي له جَميعُ صِفاتِ الكمالِ والجَلال والجَمال[1]، وفي إبهامِ المُنَزَّل إشارةٌ إلى علوِّ شأنِهِ وفَخامةِ أمرِهِ.

بَلاغَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

إدْخالُ المَهابَةِ في قُلوبِ المُخاطَبينَ مِنْ جَلالَةِ الآياتِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛ إذْ مُقْتَضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أَنْزَلَه) بالإضْمار؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ اسْمِ اللّه سُبْحانَه قبلُ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، ولكِنْ أُظْهِر لإدخالِ المَهابَةِ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، وزيادَةِ تَشْنيعِ مُخالفَةِ ما أَنْزلَهُ سُبْحانه[2]، وإظهارِ التّعجيبِ مِن شَأنِهم في تركِهم للنّازلِ مِنَ المُنعِمِ الحقيقيّ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

بَيانُ بُعْدِهِمْ عَنْ طَريقِ الحَقِّ

الاتِّباع: سَيْرُ الرَّجُلِ وأنتَ تَسيرُ وراءَهُ، وبِناءً عَلى هَذا فَيكونُ في قَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ اسْتِعارَةٌ تَصْريحيَّة تَبَعيَّة؛ إذْ شُبِّه فيها الإيمانُ بما أَنْزَلَ اللّهُ سُبْحانَهُ والاهتِداءِ بِهِ بالسَّيرِ الحِسّيِّ خَلْفَ خَبيرِ الطُّرُقِ في أرضٍ كثيرَةِ المَهالك.

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 379 - 380.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 187.

واسْتِعارَةُ الاتِّباعِ للإيمانِ بما أَنْزَلَ اللّهُ تَعالى يُصَوِّرُه في صورَةِ الهادي الخَبيرِ بالطَّريق، كَما يدُلُّ على ما هُم عليهِ مِنَ الانْحِرافِ والضَّلال، وبُعْدِهم عَنِ الطَّريقِ الموصِلَةِ إلى النِّهايةِ والغايَةِ[1]، وبهذه الاستعارةِ يتحوَّلُ الإيمانُ والتّصديقُ الَّذي هو أمرٌ عقليٌّ إلى اتّباعٍ وسَيْرٍ حسّيٍّ، لبيانِ أنَّ الإيمانَ اتّباعٌ واقتداءٌ لئلّا يضِلَّ العقلُ في التّفكيرِ وصاحبِه عنِ الصَّواب.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ﴾:

بَيانُ مَوْقِفِ المُجادِلينَ بالباطِلِ

فُصِل قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا؛ إذْ هذهِ الجُمْلَةُ وارِدَةٌ جوابًا عَن سُؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الّتي قَبْلَها، وذلكَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يَبْعثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ وهو: ما جوابُهُم عمّا قيلَ لَهُم؟ فجاءَ الجَوابُ في قولِه ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾؛ ففيه شبهُ كمالِ الاتّصال.

مَعْنى ﴿بَلۡ﴾ ودِلالَتُها:

بَيانُ مَوْقِفِ المُجادِلينَ في تَمَسُّكِهِمْ بالباطِلِ

﴿بَلۡ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ للإضْرابِ، والانْتِقالِ مِنَ الدَّعْوَةِ إلى ما أَنْزَلَ اللّهُ ﷻ إلى بيانِ مَوْقِفِهم المُعانِدِ في تَمَسُّكِهم بما وَجَدوا عليهِ آباءَهُمْ[2]، ونلحظُ في هذه الأداة ردًّا عنيفًا على الدَّعوة إلى الإيمانِ بما أنزلَ اللّه؛ إذ حرفُ الإضرابِ يُبطِلُ ما تقدَّمَه ويُثبتُ ما يأتي بعدَه، ممّا يدلُّ على شدَّةِ تمسُّكِهم بالباطل.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نَتَّبِعُ﴾:

بَيانُ شِدَّةِ عِنادِهِمْ في إعْراضِهِمْ عَنِ الحَقِّ

عُبِّرَ عنِ الاتِّباعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ بالفعلِ المُضارعِ ﴿نَتَّبِعُ﴾، وذلك للإيماءِ إلى الاسْتِمْرارِ

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 379.
(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 380.

والدَّوام، وهذا يَقْتَضي شدَّةَ عنادِهم واسْتِمْساكِهم بباطِلِهم في مُقابلَةِ دَعْوَتِهم إلى الحقِّ، كما دلّتِ الصّيغةُ الصَّرفيّةُ (افتعلَ) على مُبالغتهم في اعتقادِهم الباطلِ، وبهذا يتكاملُ الردُّ على الأمر (اتَّبِعوا) فقد اختاروا نفسَ الصّيغة للرّدِّ والإبطال.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿نَتَّبِعُ﴾:

تَصْويرُ ما هُمْ عليه مِنَ الضَّلالِ والانْحِرافِ

في ﴿نَتَّبِعُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ اسْتِعارَةٌ تَصريحيَّة تَبَعيَّة؛ إذْ شُبِّه فيها استمساكُهم بما عليهِ آباؤُهم مِنَ الدّينِ والاقتداءُ بهم في ذلك بالسَّيرِ الحِسّيِّ خَلْفَ خِرّيتٍ خَبيرٍ بِالطُّرق ومسالكِها في أرضٍ مَهْلَكَةٍ.

واسْتِعارَةُ الاتِّباعِ لاسْتِمْساكِهم بما عليهِ الآباءُ يُصَوِّر ما هُم عليهِ مِنَ الغَيِّ والضَّلال، وانْقيادِهم لغيرِهم من غَيْرِ بَصيرَةٍ.

مَعْنى ﴿مَا﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ ودِلالَتُها:

بَيانُ عَماهُمْ عَنِ النَّظَرِ إلى الحَقِّ

﴿مَا﴾ في قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ اسمُ موصولٌ بِمَعْنى (الّذي)، أي: نَتَّبِعُ الّذي وجَدْنا عليهِ آباءَنا، وذلكَ دالٌّ على العُموم، أي: إنَّهم يَتَّبِعونَ جميعَ ما وجَدوا عليهِ آباءَهُم، وهذا يَقْتَضي عَماهُم عنِ النَّظر إلى الحقِّ، وعِظَمَ عنادِهم باتِّباعِهم جميعَ ما تلَقَّوْهُ عنِ الآباءِ ولَو كان ظاهِرَ الغلطِ والبُطْلانِ، كما دلَّ عمومُ ﴿مَا﴾ على رفضِهم الكاملِ الخروجَ عمّا كانوا عليه من مُعتقَدات، ودلّتِ الصِّلةُ على تعليلِ رفضِهم الانصياعَ للحقِّ مُعلِّلينَ ذلك بما وجدوهُ وعَرفوه من آبائِهم، فهم يُؤمِنونَ بالموروث ويقتدونَ به على حسابِ الحقِّ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿وَجَدْنَا﴾:

تَـقْـلـيـدُهُـمُ الأعْمى وجُمودُ فِكْرِهِمْ

في التَّعْبيرِ بـ ﴿وَجَدْنَا﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ دلالةٌ على أنَّ اتِّباعَهُم لِما عليهِ آباؤُهُم لَم يَكُنْ عَن تَعَقُّلٍ وتَبَصُّرٍ، بَلْ كانَ تَقْليدًا مَحْضًا، فَهُم ورِثوا حالًا متقدِّمَةً دون

تَمْحيصٍ وتَحْقيقٍ، فكانَ الّذي اتَّبعوه من حالِهِم بِمَنْزِلَةِ الأمر الذي يُعْثَر عليهِ من غيرِ اخْتبارِ صِحَّته.

وفي التَّعبير بـ﴿وَجَدۡنَا﴾ أيضًا دِلالَةٌ على عدَمِ تَغْييرِهم ما وقَفوا عليهِ من حالِ آبائِهم، لا لأنَّ تلك الحالَ بالغَةُ الإتقانِ! بل هيَ بِضِدِّ ذلك، ولكنَّ ذلك مُشيرٌ إلى جُمودِ فِكْرِهم، وانْحِباسِ تَأمُّلِهم؛ بِحَيْثُ تَقودُهُم الأباطيلُ ويَنْقادونَ لَها، وكأنَّهم ردّوا أنَّ جدالَهم في الآيات لم يكُنْ عن هُدى، بل اهتداؤُهم بآبائهم وتقليدُهم لكُبرائهم هو الَّذي دفعَهم إلى الجدال، فيكون جوابُهم نَقْضًا لِما اتُّهموا به.

نُكْتَةُ تعْدِيَةِ ﴿وَجَدۡنَا﴾ بِحَرْفِ الاِسْتِعْلاءِ:

تَصْويرُ شِدَّةِ ما هُمْ عليه مِنَ الضَّلالِ

عُدّي الفعلُ ﴿وَجَدۡنَا﴾ بحرفِ الجَرِّ (على) من قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وهو دالٌّ على الاسْتِعْلاءِ؛ لِما في ذلكَ مِن تَصْويرِ تمَكُّنِ القَوْمِ ممّا كانوا عليهِ مِنَ الانْحِرافِ والضَّلال، وأنَّهم صاروا فَوْقَهُ، فكأنَّهُم لِشِدَّة ضَلالِهم صاروا هُم مَن يوَجِّهُ الضَّلالَ ويقودُهُ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

التَّعَصُّبُ لِلباطِلِ المَوْروثِ عَنِ الآباءِ مِنْ أعْظَمِ ما يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ الواقعُ مفعولًا ثانيًا ﴿عَلَيۡهِ﴾ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ على المفعول الأوّل ﴿ءَابَآءَنَآۚ﴾، وأصلُ النَّظْم: (بَل نَتَّبِع ما وجَدْنا آباءَنا عليه)، وهَذا التَّقديم دالٌّ على القَصْرِ والحَصر، وفي ذلك إشارَةٌ إلى تَعَصُّبِهِم للباطِل، ولِلمَوْروثِ عَن آبائِهم، كأنَّهُم قالوا: على طريقةِ آبائنا لا طريقةِ غيرِهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ غيرَ آبائِهم كانوا على طريقةِ الهِداية، فقَصَروا الاتّباعَ على هُدى آبائهم دونَ هُدى غيرِهم.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ اتِّباعِهِمْ مَوْروثاتِهِمْ بِـ﴿ءَابَآءَنَآۚ﴾:

تَعَطُّلُ فِكْرِهِمْ عَنِ النَّظَرِ في أدِلَّةِ الحَقِّ

في التَّعبير عنِ اتِّباعِهِم مَوْرثاتِهم باتِّباعِ الآباءِ في قول اللّه ﷻ: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ إيماءٌ إلى شِدَّة تَمَسُّكِهم

بِمَوْروثاتِهم القَديمَةِ والانْقيادِ التّامِّ لها؛ إذْ لَفْظُ (الآباءِ) يُشيرُ إلى سَطْوَةِ الآباءِ والتَّقاليد، مِمّا يُسْتَشَفُّ منه حالُ الإصرار على الباطِلِ وعدَمِ التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في أدلَّةِ الحقِّ.

وفي المفعولينِ الأوّلِ والثّاني اللّذينِ أصلُهما المبتدأُ والخبرُ، أي الجملةُ الاسميّةُ الدّالّةُ على الثّبوت استعارةٌ تمثيليّةٌ؛ إذ شبَّهَ النّظمُ الكريمُ ما عليهِ آباؤُهُم مِنَ الدّينِ الباطلِ بِحالِ مَنِ اعْتَلى شَيْئًا ورَكِبَهُ[1]؛ للدّلالةِ على عدمِ انحرافِ الآباءِ عنِ التّقليدِ المحضِ الخالي مِنَ الدَّليلِ الإجماليِّ أوِ التّفصيليّ، وهُم على آثارهم مُقتدونَ.

عِلَّةُ الاستئناف في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ﴾:

بيانُ المتّبَعِ الحقيقيِّ دعوةٌ لإعمالِ العقل

بعدَ أنْ قالَ لهمُ الدّاعي مِنَ اللّه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الآيات البيِّنات والبراهينِ القاطِعات، ورَفَضوا إعمالَ العقلِ والانصياعَ لتلك المُعجزات، وتعلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ أي بعكوفهم على ما عليهِ آباؤُهم مِنَ المنهجِ والطَّريقة؛ أتى النّظمُ الكريمُ بواو الاستئناف في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لبيانِ حقيقةِ المتّبَعِ وهو الشّيطان، الّذي يَدعوهم كما دعا آباءَهم إلى الضَّلال والكُفر، المُؤدّيَين بهم إلى عذابِ السَّعير، فكانتِ (الواو الاستئنافيّة) مُشيرةً إلى إكمالِ عمليَّةِ الحوار؛ بأنَّ سببَ ضلالِهم وضلالِ آبائهم هو الشّيطانُ، وهم لا يَتَّبِعونَ آباءَهم في الحقيقة كما ادّعَوا بل يخضعونَ هم وآباؤُهم أجمعونَ للشَّيطان.

أوِ الواوُ عاطفةٌ لنهايةِ الحِوار على أوّلِه؛ لإكمالِ الحُجَّة والدّليل وبيانِ مَناط الاشتباه.

عِلَّةُ الاستفهامِ في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوۡ﴾:

التَّعْجيبُ مِنْ شَناعَةِ ضَلالِهِمْ وانْحِرافِهِمْ

الهَمْزَةُ في ﴿أَوَلَوۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 380.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للاستفهام، وهَذا الاسْتِفْهامُ لا يُرادُ حقيقَتُه من إرادَةِ طلَبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَم يَكُنْ معلومًا من قبلُ، وإنَّما المرادُ به التَّعجيبُ منهم أوِ الإنكارُ عليهم؛ إذْ كيفَ يُتصوَّرُ أن يَتَّبعوا سبيلَ الشَّيطان وهو يَدْعوهُم إلى العذابِ، ويَتْرُكوا اتِّباعَ ما أنزَلَهُ اللهُ سُبْحانَه وهو يَدْعوهُم إلى الثَّوابِ؟! ففيهِ تَعْجيبٌ مِن فَظاعَةِ ضَلالِهِم وانْحِرافِهِم[1]، أوِ المرادُ إنكارُ اتّباعِهم آباءَهم، بل هم في الحقيقةِ يتّبعونَ الشَّيطانَ الَّذي أضلّ آباءَهم، وهم يُتابِعونَ آباءهم على ذلك الإضلالِ الشّيطانيِّ؛ فصاروًا مَحَلًّا للإنكارِ عليهم مقولتَهم، وإنّما أُخرج التّعجيبُ والإنكارُ بأسلوبِ الاستفهامِ لتحريكِ عقولهم، وليَتشكَّكوا من مقولتِهم باتّباعِ آبائِهم، وليُعمِلوا النّظرَ في حقيقة ما عليه آباؤُهم من أوهامٍ وتصوُّرات باطلةٍ.

مَعْنى (لَوْ) وتَقْديرُ جَوابِها:

المُبالَغةُ في تَصْويرِ أقْصى رُتَبِ الجَهْلِ والانْحِرافِ

(لو) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تَحمِلُ مَعْنى الشَّرط، وجوابُها محذوفٌ، والتَّقدير: أوَلَو كانَ الشَّيطان يَدْعوهُم إلى عذابِ السَّعير؛ فيَتَّبِعونَهُ عَلى ذلكَ[2]، ولَم يُنَصَّ على الجَواب؛ ليَذْهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ في تَصَوُّرِ أقْصى مَراتِبِ الجَهْلِ والضَّلال.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

دَعْوَةُ الشَّياطينِ إلى الباطِلِ إمّا مُباشَرَةً وإمّا بالواسطةِ

(أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مِنْ قول اللّه تَعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تدُلُّ على الجِنْسِ، المُفيدَةِ استغراقَ جميعِ الأفرادِ المُنْدَرِجَة تحتَهُ، فتَشْمَلُ كُلَّ شَيْطانٍ دَعاهُم إلى ذلكَ.

ويَجوزُ أنْ تكونَ (أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للعَهْدِ العلْميِّ، والمُراد به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 125، والقِنوجي، فتح البيان: 10/ 293، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 176.
(2) القِنوجي، فتح البيان: 10/ 294.

الشَّيطانُ الأَكْبَرُ وهو إبْليسُ، إمّا عَن طَريقِ الدُّعاءِ المُباشِرِ مِنْهُ، أو عَن طريقِ بَعْثِهِ جُنودَهُ مِنَ الشَّياطين، وإنَّما عدلَ النّظمُ الكريم عنِ (الآباء) إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، فلم يقل: (أوَلو كان آباؤهم يَدعونَهم إلى عذابِ السَّعير)؛ لبيانِ أنَّ عملَ الآباءِ كان إضلالًا شيطانيًّا، فنسبَ الدّعوةَ إلى عذابِ السّعيرِ إلى المُسبِّبِ الأصليِّ لضلالِ آبائهم وضلالِهم معًا، وأنَّهم عندما يُتابعونَ آباءَهم فهم يتّبعونَ الشّيطانَ في الحقيقة؛ وكانَ إبرازُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بدلًا مِنَ (الآباء) إشارةً أيضًا إلى مُسبِّبِ الضَّلالِ الأكبر، كما أنَّ نسبةَ الدّعوةِ إلى (الآباء) محلُّ إنكارٍ منهم أوِ انزعاجٍ، فَنَسبها إلى الشّيطانِ دونَ الآباء، وذلك العدولُ يُناسبُ الاستفهامَ الدّاعيَ إلى التّفكيرِ في طريقةِ آبائهم التي وجدوها، بأنَّها طريقةٌ شيطانيّةٌ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾:

جَلَدُ أهْلِ الباطِلِ في إضْلالِ الخَلْقِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارعِ ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإيماء إلى اسْتِمْرارِ دُعاءِ الشَّيطانِ لَهُم إلى أسْبابِ العَذاب، وجَلَدِه في إضلالِ الخلقِ[1]، وذلك التّعبيرُ يتناسبُ مع فعلِ (الكون) الدالِّ على تحقُّقِ تلك الدَّعوة، والاتّصافِ بها على سبيلِ الدّوامِ في الماضي؛ فهو لم ينفكَّ عن دعوةِ آبائِهم إلى الضَّلال.

دلالةُ الضَّميرِ البارزِ في ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾:

الإيجازُ في البيانِ أبلغُ في الإقناعِ

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالضَّميرِ البارزِ (هم) الرّاجعِ بحسبِ الظّاهرِ إلى (الآباء)، والشّاملِ بطريقِ الإيجازِ للمُخاطَبين مِنَ (الأبناء)، لبيانِ أنَّ إضلالَ الشّيطانِ للآباءِ ودعوتَه لهم إلى الكُفرِ والشِّرك دعوةٌ للأبناءِ أيضًا في حالِ المُتابعةِ لهم والاقتداءِ بهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 188.

بَلاغَةُ المَجازِ:

عَـمـى أهْـلِ الـبـاطِـلِ عَـنِ الـنَّـظَـرِ في مَصالِحِهِمْ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ مجازٌ، وذلك لأنَّ الشَّيطان يَدْعوهُم إلى أسبابِ العَذاب بِتَزْيينِها لَهُم، فعَبَّر النَّظم القرآنيُّ عَن أسبابِ العَذاب بالعَذاب نَفْسِه[1]، فيكونُ مجازًا مُرْسَلًا، علاقتُه: المُسَبَّبيَّة؛ إذْ أُطْلِقَ المسبَّب والمرادُ السَّبَبُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عَماهُم عنِ النَّظر في مَصالحِهِم؛ بحيثُ لَو أنَّه دَعاهُم إلى عينِ عذابِ السَّعير لأجابوهُ.

نُكْتَةُ إضافَةِ العَذابِ إلى السَّعيرِ:

تَـهْـويـلُ سـوءِ مَـصـيرِهِـمْ وتَفْظيعُهُ

أُضيفَ العَذابُ إلى السَّعير في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ لإرادة التَّهويل والتَّفْظيع مِن سوءِ مَصيرِهِم؛ إذِ المُرادُ بِالسَّعير هو النّارُ المُتَقدَةُ المُلْتَهِبَة، وذلكَ دالٌّ عَلى عَظَمَتِها[2]، والإضافةُ إنْ كانت على معنى اللّام؛ فيكونُ للسَّعيرِ عذابٌ يختصُّ به غيرُ العذابِ الأصليِّ، ففي النّظم الكريم استعارةٌ مكنيّةٌ بتشبيهِ السَّعير بمالكٍ له عذابٌ يُنسَبُ إليه؛ للدّلالة على شدّة العذاب وصُعوبتِه، ويحتملُ أنْ تكون الإضافةُ بيانيّةً بمعنى أنَّ العذابَ هو السّعير، ويمكنُ أنْ يكونَ الإسنادُ مجازًا عقليًا من إسنادِ السَّعير إلى ضميرِ العذاب؛ للدّلالة على شدَّة العذاب حتى إنَّ العذاب يستعِرُ ويتّقِدُ من شدَّته، مع أنَّ الذي يستعِرُ فيه المُعذّبون.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ وصيغتُه:

الـسَّـعـيرُ إذا أُطْـلِـقَـتْ في خِطابِ الشَّرْعِ؛ أُريـدَ بِـهـا نـارُ جَهَنَّمَ

(أل) في ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يُراد بِها العَهْدُ العِلْميُّ، والمرادُ: جهنَّمُ، كما ورَدَ ذلكَ في آياتٍ مِنَ القُرآن الكريم، كقَوْلِه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 33.

(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 380.

﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء: 10]، وإنَّما عدلَ النّظمُ الكريمُ عن (جهنَّم) إلى (السَّعير) لإفادةِ شدَّةِ العَذابِ وفَضاعتِه، إذ يوحي الوصفُ (سعير) الَّذي على وزنِ (فعيل)؛ بأنَّه شديدُ الاشتعالِ والاستعارِ والاتّقاد، وإضافةُ العذابِ إليه يدلُّ على تسعُّر العذابِ فضلًا عنِ المعذَّبين به.

بقي أنَّ النّظمَ الكريمَ نفى عن هؤلاءِ المُجادِلينَ العلْمَ والهُدى والكتابَ المنير في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، فأجابوا نقضًا لذلك النّفي بإثباتِ أنّهم على هُدى في تقليدِ آبائهم وكُبرائِهم في قوله: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، ومن ثمَّ نفى الهُدى عن آبائِهم الَّذين اعتقَدوا أنَّهم على هُدىً، فكيفَ يكونونَ على هُدى وهُم يرمونَ بأنفسهم في النّار بسببِ الكُفر والشِّرك!.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(وَجَدَ) و(ألْفى):

(وَجَدَ) أعَمُّ مِنْ (ألْفى)

(ألْفى) و(وجَد) بمعنًى متقاربٍ، وجعلَهُما الرّازيُّ بمعنى واحدٍ، فقال: "(ألْفَيْنا) بِمَعْنى (وَجَدْنا)، بِدَليلِ قَوْلِه تَعالى في آيةٍ أُخْرى: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾"(1).

وفرَّق بينَهُما ابْنُ عرَفَة على أنَّهما مُتبايِنانِ؛ وجعَل الوِجْدان ما يَكونُ اتِّفاقا على غَفْلَةٍ مِن غير قصدٍ، واسْتَأنَس بقَوْلِهم: وِجْدانُ الضّالَّة(2)، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ اللّه سُبْحانَهُ قالَ: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ [النساء: 43]، والمُسْلِمُ يَقْصِدُ إلى طلَبِ الماءِ، لا أن يَتَرَبَّص حتّى يَجِدَهُ مُصادَفةً!.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 188.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 203.

والأَظْهَرُ أنَّ (ألْفى) أخَصُّ من (وجَد)؛ إذْ هو يدُلُّ على وُجودٍ على هيئةٍ خاصَّة[1]، بخلافِ الوُجودِ فهو أعَمُّ، أي: إنَّ (ألفى) مختصٌّ بالوِجدان عن قصدٍ، بخلافِ الوِجدانِ الّذي يكونُ بقصدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ.

(1) الفيومي، المصباح المنير: (لفي).

﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ [لقمان: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

فَضيلَةُ المُنقادينَ إلى شَرْعِ اللهِ سُبْحانَهُ

لَمّا ذكَر اللهُ تَعالى مَن يُعرِضُ عَنِ اتِّباع ما أنْزَلَهُ، ويُجادِلُ في اللهِ وآياتِه، ويَتَّبِعُ ما وجدَ عليه الآباءَ مِنَ الدّين الباطِل، وكانَت تِلْكَ الحالُ مِنْهم تَقْتَضي أنَّه لا مُتَمَسَّك لَهُم؛ عَطَفَ عليه حالَ أضْدادِهِم وهُمُ المُنْقادونَ إلى شَرْعِ اللهِ تَعالى، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسۡلِمۡ﴾: (سلم) تَدُلُّ تَصْريفاتُه على الصِّحَّة والعافيَة، ومنهُ السَّلامةُ؛ وهو أن يَسْلَمَ المَرْءُ من عاهَةٍ أو أذًى[2]، وأسلَمَ أمرَهُ إلى اللهِ تَعالى: انْقادَ وخَضَعَ لهُ، ومن قولِ الله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: مَنْ يَخْضَعْ لديهُ ويَنْقَدْ له بفِعْلِ الشَّرائع مُخْلِصًا له دينَهُ[3].

2) ﴿مُحۡسِنٞ﴾: (حسن) يدلُّ على ضدِّ القُبْحِ[4]، والمَحاسِنُ مِنَ الأعمال: ضدُّ المَساوِئ، ومِنْهُ سُمّيتِ الجنَّةُ: الحُسْنَى؛ ضدُّ السّوأى وهي النّارُ[5].

والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، والحَسَنةُ يُعَبَّر بها عَن كُلّ ما يَسُرُّ مِن نعمةٍ تَنالُ العبدَ في نفسِه أو بدنِه ونحو ذلكَ، والسَّيِّئَةُ ضدُّها[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 650.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (حسن).
(6) الرّاغب، المفردات: (حسن).

والإحْسانُ: ضدُّ الإساءَة[1]، وحدُّ الإحسانِ شرعًا - كما قالَ النَّبيُّ ﷺ -: «أنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأنَّكَ تَراهُ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ؛ فَإنَّهُ يَراكَ»[2].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ معناه: أخْلَصَ في عِبادَةِ رَبِّه وعَمِلَ صالِحًا، وكانَ في ذلك مُحْسِنًا أي: موافِقًا الشَّرعَ؛ وذلك باتِّباع النَّبيِّ ﷺ[3].

3) ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: (عروى) تدُلُّ تَصْريفاتُه على أصْلَيْن كُلِّيَّين؛ أحدُهما: الثَّبات والمُلازمَةُ، والآخَرُ: الخُلُوُّ والمُفارَقَة[4]، فمِنَ الأوَّلِ: العُرْوَةُ؛ وهوَ ما يُتَعَلَّقُ به ويُتَمَسَّكُ به بقَصْدِ النَّجاةِ؛ يُجْعَلُ كالحَلْقَةِ في طَرَفِ شَيْءٍ لِيُقْبَضَ عَلى ذلكَ الشَّيْءِ مِنْهُ، فالعُرْوَةُ: مَوْضِعُ شَدِّ الأيْدي[5]، وتُطْلَقُ العُرْوَةُ على الشَّجَر الذي لا يزال باقيا في الأرْض لا يذهَبُ، وجَمْعُها: عُرًى[6].

والعُرْوَةُ الوُثْقى في الآيةِ: إخْلاصُ العَمَلِ للّهِ تَعالى، وإحْسانُهُ بأنْ يَكونَ موافِقًا للشَّرْعِ؛ وهُما المذكورانِ في قولِه قَبْلُ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

4) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) تَدُلُّ اشتقاقاتُه على تَأخيرِ شَيْءٍ وإتْيانه بَعْدَ غَيْرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ آخَر فَهو عَقيبُه[7]، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ الرِّجل[8]، والعاقبَةُ آخِرُ الأمْر، وأثَرُ عمَلِ العامِلِ، فعاقِبَةُ كُلِّ أمرٍ ما يَنْجَلي عنهُ، ويَظْهَر في آخرِهِ من أثَرٍ ونَتيجة[9].

والعاقِبَةُ والعُقْبَى لفظانِ مُخْتَصّان بِالثَّوابِ عند الإطلاقِ، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالتَّقْييد قَدْ يرِدُ في العُقوبَةِ أيضًا، كما قال اللّهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 10]، وسُمّيَت بِذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ[10].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسن).
(2) رواه البخاري في صحيحه (برقم: 50)، ومسلم في صحيحه (برقم: 9).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/ 385، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 62.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عروى).
(5) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 267.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (عرى).
(7) الخليل بن أحمد، العين: (عقب)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(8) الراغب، المفردات: (عقب).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/ 92.
(10) الراغب، المفردات: (عقب).

وعاقِبَةُ الأُمورِ في الآيةِ: مَرْجِعُها ومُنْتَهاها، فَيَحْكُم في عِبادِهِ، ويُجازيهِم بِما آلَت إِلَيْهِ أَعْمالُهُم[1].

التَّسليمُ للهِ تَعالى سَبيلُ التَّمَسُّكِ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

ومَن يُخْلِص عِبادَتَهُ للهِ ﷻ وقَصْدَه إلى رَبِّه تَعالى، وهو مُحْسِنٌ في أقْوالِه، مُتقِن لِأعْمالِه، فَقَدْ أخَذَ بِأوثَق سَبَبٍ موصِل إلى رِضْوانِ اللهِ وجَنَّته، وإلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ تَصيرُ الأُمورُ كُلُّها، فيُجازي المُحْسِنَ على إحْسانِه، والمُسيءَ على إساءَتِه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَناسُبُ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾:

(الواوُ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عاطفةٌ، عطفَتِ الجُمْلَةَ بعدَها على جملةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[3]؛ إذِ الجُمْلَتانِ مُتَّفِقتانِ في الخبَريَّة، وبينَهُما مناسبةٌ لفظيَّة وأُخْرى مَعْنَويَّةٌ، فأمّا اللَّفظيَّةُ فاشْتِراكُهُما في الاسميَّة، وأمّا المَعْنَويَّةُ فما بينَهُما مِنَ الجامِعِ الوَهْميِّ وهوَ التَّضادُّ؛ فإنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمّا بيَّنَ المُجادِلَ في توحيدِه بغَيْرِ علمٍ ولا هُدًى ولا كتاب مُنيرٍ، وذلك يَقْتَضي أنَّه لا مُتَمَسَّك لهُ؛ ذَكَر مَن يُسْلِمُ وجهَه إلى اللهِ تَعالى وهو مُحْسِنٌ ورتَّب عليهِ وصْفَهُ بالاسْتِمْساك بالعُرْوَةِ الوُثْقى[4].

المُسْتَمْسِكُ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى حَقًّا مَنْ داوَمَ عَلى إسْلامِ الوَجْهِ للهِ سُبْحانَهُ

مَعْنى (مَنْ) في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾:

(مَنْ) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٌ في محلِّ رفع مبتدأ؛ لأنَّ الفعلَ بَعْدَهُ ﴿يُسۡلِمۡ﴾ متعدٍّ قد

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 650.
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 176.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 188.

استَوْفى مفعولَهُ، فتكون جُملَةُ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ اسميَّةً، وهي مفيدَةُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، أي: أنَّ الذي يُسْلِمُ وجهَه إلى الله تعالى بالإخلاصِ والطّاعة على وجهِ الدّوامِ؛ هو المُسْتَمْسِكُ حقًّا بالعُرْوة الوُثْقى، واسمُ الشّرط دالٌّ على العموم؛ ليكونَ مُقابلًا للعموم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾، وهذانِ العمومانِ دالّانِ على كلِّ فردٍ يتّصِفُ بالجدالِ ويتّصفُ بالتّسليمِ والخضوعِ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِلفِعْلِ ﴿يُسۡلِمۡ﴾:

كُـلُّ مُـسْـلِـمِ الوَجْهَ للهِ تَعالى مُحْسِنٍ في عَمَلِهِ شَديدُ التَّمَسُّكِ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى

الفِعْلُ ﴿يُسۡلِمۡ﴾ من قولِ الله تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مجزومٌ بـ (مَنْ) الشَّرطيَّةِ على أنَّه فِعْلُ الشَّرْط، وجُمْلَةُ ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ في مَحَلِّ جزم جوابُ الشَّرط وجَزاؤُه، ففيه صِلَةٌ وتَرابُطٌ وثيقٌ بينَ الشَّرط والجزاءِ؛ فكُلُّ مُحَقِّقٍ لإسْلامِ الوَجْهِ إلى اللّهِ تَعالى حالَ إحسانِهِ موصوفٌ بالتَّمَسُّك الشَّديد بالعُرْوة الوُثْقى.

بلاغةُ الطِّباق:

الجدالُ المَقوتُ والإسْـــلامُ المَمدوح

اشتملَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المعطوفِ على قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ على صنعةِ الطّباق؛ وفُهِم مِنَ التّضادِّ بين الفريقينِ أنَّ الجدالَ المذمومَ هو الّذي لا يكونُ عن علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ مُنير، وأنَّ الإسلامَ الممدوح هو الّذي يكونُ عن علمٍ بالدّليل وهُدى بالأنبياءِ والصّالحين، واطّلاعٍ على الكتابِ المُنير.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّمْثيليّة في ﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾:

تَـصْـويـرُ حـالِ المُسْلِمِ وجْهَهُ إلى اللهِ سُبْحانَهُ

إسلامُ الوَجْهِ للّهِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مُسْتعارٌ للقَصْد؛ لأنَّ القاصِدَ للشَّيءِ يكونُ مُسْتَقْبِلًا إيّاه بِوَجْهِه[1]، فيكونُ في الآيةِ تَمْثيلٌ لإفرادِ اللّه تَعالى بالعبادةِ، وتسليم

(1) ابن عطية، المحرر: 4/ 353.

الأُمورِ جميعِها إليه، والإقبالِ التّامِّ عليهِ سُبْحانَه، كأنَّه لا يُقْبِلُ بوَجْهِه عَلى غيرِهِ تَعالى[1].

وهذا تَمْثيلٌ بديعٌ؛ إذْ صُوِّر الإقْبالُ المعنويُّ بتَسْليم الوَجْهِ لله تَعالى وهو صورَةٌ مَحْسوسَةٌ بحسَبِ اللَّفْظِ، كأنَّ المُؤْمِنَ يُفَرِّغُ قلبَهُ وكُلَّ تَوَجُّهاته للّهِ ﷻ وحدَهُ، فَلا يَرى إلّا ما يُرْضيهِ ولا يَسْعى إلّا لِما أمَرَهُ بِهِ، فإنْ كان الكافرُ يُجادِلُ في اللّه ويُخاصِمُ الآياتِ؛ فإنَّ المؤمنَ بعدَما يرى الآياتِ لا يَسَعُهُ إلّا القَبول والرِّضا، فيُقبِلُ على اللّه تعالى بكلّيَّته ولا يكونُ الإقبالُ إلّا بالوجهِ، فيُسلِمُ قلبَهُ ويَخضَعُ لمولاهُ ويَعترِفُ بأنَّه الحقُّ سُبحانَه.

نُكْتَةُ التَعْديَةِ بـ ﴿إِلَى﴾:

التَّسْليمُ للهِ تَعالى كَمالُ الإخْلاصِ لَهُ والاعْتِمادِ عليه

يُعَدّى الفعلُ ﴿يُسْلِمْ﴾ باللّام؛ لأنَّ المرادَ أنَّه جعَلَ وجْهَهُ وقَصْدَهُ خالِصًا للّهِ تَعالى، فَهو لا يوَجِّه نيَّتَه وعبادَتَهُ لأحَدٍ إلّا للّهِ سُبْحانَهُ، وهذا دالٌّ على الإخلاصِ التّامِّ في عبادةِ اللّهِ ﷻ.

بخلافِ تَعْديَةِ الفِعْلِ بـ ﴿إِلَى﴾ الواردِ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ المرادَ تسليمُ الذّاتِ إلى اللّهِ سُبْحانَه كَما يُسلِّمُ الشَّخصُ متاعًا أو أمانَةً لآخرَ، وفي هذا دِلالَةٌ عَلى الاعْتِمادِ الكامِلِ على اللّهِ ﷻ في الأمورِ كُلِّها[2].

فالتَّعديةُ باللّام تَعْبيرٌ عَنْ إخلاصِ النّيَّةِ والتَّوَجُّه، والتَّعديةُ بـ ﴿إِلَى﴾ تَعْبيرٌ عَنِ الثِّقة والتَّوكُّل والاعتمادِ الكلي؛ لأنَّ ﴿إِلَى﴾ لانتهاءِ الغاية، فتفيدُ كمالَ الإقبالِ وحطَّ الرِّحالِ عندَ ذي الجَلال، وبهذا التّسليم والإذعانِ تحصُلُ الرّاحةُ الرّوحيّةُ والسَّعادةُ الأبديَّة، في حينِ يَقضي المجادلُ حياتَه بالإرهاقِ النَّفسيِّ والألمِ القلبيِّ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 176.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 499 - 500.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾:

التَّلازُمُ بَيْنَ إخْلاصِ القَصْدِ وإحْسانِ العَمَلِ

الواوُ في ﴿وَهُوَ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ للحال، والجملَةُ بعدَها في محلِّ نصبِ حالٌ[1]، وفيه إيماءٌ إلى التَّلازم بينَ إخْلاصِ القَصْدِ للّهِ تَعالى وبينَ إحْسانِ العمَلِ عَلى وفْقِ الشَّريعة؛ لأنَّ الأصلَ في الحالِ أن يُقارِنَ عامِلَهُ في الزَّمَن، وبذكرِ العمَل حالًا منَ الإيمانِ دليلٌ على أنّ كمالَ الإيمانِ بإردافِه بالعملِ الصّالح، وإنْ كان المُجادِلُ المكذِّبُ مُتّبِعًا في أعمالِه لآبائِه الَّذين لم ينفكَّ الشّيطانُ عن إضلالِهم؛ فإنَّ المؤمن باللّه تعالى قد أتبعَ إيمانَه بما يجعلُهُ متَّصِفًا بالإحسانِ منَ الأعمالِ الطيِّبة، والخِلالِ الجميلةِ والخِصالِ الحَميدة.

فائِدَةُ التَّقْييدِ بالحال:

وُجوبُ الجَمْعِ بَيْنَ إتْقانِ الباطِنِ والظّاهِرِ

قُيِّدَ إسلامُ الوجهِ للّه بـ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ للدّلالةِ عَلى الجَمْعِ بينَ إتْقانِ الباطن والظّاهر؛ فكما أتْقَن باطِنَهُ بإخْلاصِ القَصْدِ للّه سُبْحانَهُ؛ فهو قد أتْقَن ظاهِرَهُ بإحْسانِ العمَل عَلى وفْقِ الشَّرْعِ المُنَزَّل[2]، وفي توصيفِ صاحبِ العملِ بـ﴿مُحۡسِنٞ﴾ وهو اسمُ فاعلٍ منَ الفعل (أحسنَ) إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ الحقَّ هو الَّذي يكونُ عملُهُ موصِلًا له إلى درجةِ الإحسان، سواءٌ كانَ إحسانُهُ لنفسِه أو لغيرِه، فالمؤمنُ خاضعٌ لمولاه مُحسِنٌ لنفسِه ولغيرِه، فهو سعيدٌ بخضوعِه مُحسِنٌ بأعمالِه.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

لُزومُ المُداوَمَةِ عَلى الإخْلاصِ للّهِ تَعالى والمُتابَعَةِ لِلشَّرْعِ في كُلِّ عَمَلٍ

الجُمْلَةُ الحاليَّة: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ جملةٌ اسْميَّةٌ، وجاءَ التَّعبيرُ بها للدّلالة عَلى الثُّبوت واللُّزوم، فالإحْسانُ - وهو موافقةُ الشَّرع - لازمٌ لِكُلِّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 189.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 189.

عملٍ يَعْمَلُهُ مَن أسلَمَ للّه تَعالى، فيكونُ الإِخْلاصُ والمُتابعةُ مُلازِمَيْنِ لِكُلِّ أعْمالِه، كما أسهمَ تنكيرُ (الخبر) في بيانِ كمالِ إحسانِهِ وشدَّتِه، وتعدُّدِ صُوَرِ الإحسانِ فيه حتى لا تخلوَ حركةٌ من حركاتِهِ عن سِمةِ الإحسانِ والحُسنِ والجمال.

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَقَدِ﴾:

تَعْجيلُ الجَزاءِ الحَسَنِ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ

الفاءُ في ﴿فَقَدِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ رابِطَةٌ لجوابِ الشَّرط، وهيَ مفيدةٌ تحقُّقَ الجَواب بوُجود شَرْطِه، كما أنَّ في (الفاءِ) دِلالةً على التَّعْقيبِ؛ فتَلَبُّسُ العَبْدِ بالإخْلاصِ والإحْسانِ؛ يتَرَتَّب عليهِ جَزاؤُهُ مِن اسْتِمْساكِهِ بالعُرْوَةِ الوُثْقى مِن غَيْرِ مُهلةٍ بَيْنَهُما، ودلّ جوابُ الشّرط هنا على مفهومِ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ في قوله قبلُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

نُكْتَةُ التَّوْكيدِ بِـ (قَدْ):

تَعْزيزُ الطُّمَأنينَةِ في قَلْبِ المُؤمِنِ

أُكِّد قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بـ (قَدْ)؛ للدّلالة عَلى تحقُّق الجزاءِ، ويُقَوّي ذلكَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، وذلكَ مُفيدٌ أنَّ الاسْتِمْساكَ بالعُرْوة الوُثْقى أمْرٌ مُحَقَّق وثابتٌ، وهذا يَقْتَضي تعزيزَ الطُّمَأنينةِ في قَلْبِ المُؤمِنِ المُسْلِم وجْهَهُ إلى اللّهِ تَعالى، ولا نَنْسى أنَّ الإخبارَ بذلك قد يتردّدُ الذهنُ في قبولِه، فأردفَهُ بالتّوكيدِ المُحقِّقِ له المُزيلِ الشّكَّ عنه.

دِلالَةُ السّينِ والتّاءِ في ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾:

قُوَّةُ التَّمَسُّكِ والثَّباتُ عليه

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ دون (مَسَكَ)؛ للدّلالَةِ عَلى الإمْساكِ بغايَةِ ما يُقْدَرُ عليهِ مِنَ القوَّة[1]، وذلكَ يَقْتَضي ثباتَ ذَلِكَ الإمْساكِ ورُسوخَهُ واسْتِمْرارَهُ، وتنبئُ الصّيغةُ عن أنّ التّمسُّكَ بالحقِّ يحتاجُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 189.

إلى مبالغةٍ ومجاهدةٍ مُستمرَّةٍ للنّفس وأهوائها والشّيطانِ وإغوائِه، وما ذاك الاستمساكُ إلّا بالمواجهاتِ معَ المُكذِّبينَ المُناوئين للحقِّ المُجادلينَ في الآياتِ.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾:

ارْتِباطُ المُؤْمِنِ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى لا انْفِكاكَ لَهُ

(الباءُ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ تَدُلُّ على الإلْصاق، فَهيَ تُفيدُ الاتّصالَ الشّديد والتّمسُّك الرّاسخ، كأنَّ المُؤْمِنَ قَدِ ارْتَبطَ بالعُرْوَة الوُثْقى بِرِباطٍ لا يَنْفَصِمُ، واتَّحد بِها اتِّحادًا لا انْفِكاكَ فيه.

دِلالَةُ وصْفِ (العُرْوَةِ) بِـ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾:

ثَباتُ العُرْوةِ الوُثْقَى ومَتانَتُها

في وصْفِ (العُرْوة) بِكَوْنِها (وُثْقى) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ دِلالَةٌ عَلى غايَةِ دَرَجاتِ القوَّة والثَّبات؛ إذِ الوُثْقى تأنيثُ الأوثَق، وذلكَ يَقْتَضي قوَّةً شديدَةً وإحْكامًا مَتينًا، فَهيَ عُرْوَةٌ لا يَتَأتّى مِنْها انْقِطاعٌ أو ضَعْفٌ، وإذا كانَت العُرْوةُ قَويَّةً مُحْكَمةً في نفسِها، فذلكَ يدُلُّ على أنَّ المُتَمسِّك بها مُتَمَسِّكٌ بأمْرٍ ثابتٍ لا يَزولُ ولا يَتَهاوى، فـ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ اسمُ تفضيلٍ جاءَ على غيرِ بابه، إذ ليس هنالكَ عُروةٌ في غيرِه، فضلًا عن أنْ تكونَ وثيقةً، أي: فهي العروةُ الوثيقةُ المتينةُ، وما عداها ليس بعُروة أصلًا، أو أنَّ إسلامَ الوجه وحدَهُ عُروةٌ، واستصحابَ العملِ الصّالح يجعلُها وُثقى مَتينةً؛ بقي أنَّ إسنادَ الوثاقةِ والمتانةِ للعُروة مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ المفعوليَّةُ، فهي موثوقةٌ محكمةٌ من صاحبِها وليست مَتينةً في نفسِها؛ إلّا أنّه تُجُوِّزَ فيها فأُسندت الوثاقةُ للعروةِ نفسِها.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيليّة:

الإخْلاصُ والإحْسانُ يوصِلانِ صاحِبَهُما إلى دُخولِ الجَنَّة

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ استعارةٌ تَمْثيليَّة؛ إذْ مُثِّل حالُ مَن أسْلَم وجهَهُ إلى اللّهِ سُبْحانَه بحالِ مَن كانَ في بِئْرٍ أو أرادَ أنْ يَرْقى شاهقًا؛ فدَلّى لهُ صاحِبُهُ حَبْلًا ذا عُرًى،

فأخَذَ الرَّجُلُ بأوثَقِها، فهو يَعْلو بِهِ إذا جَرَّه صاحبُه مِن غيرِ انْفصام؛ لأنَّ ما يُتَمَسَّك بِهِ في غايةِ الإحْكام، فَيَصِلُ بذلكَ إلى مُبْتَغاهُ، وكذلكَ مَن أخْلَص وجهَهُ للهِ تَعالى وأحْسَنَ العملَ على وفْقِ الشَّرْعِ المُنَزَّل؛ فإنَّه لا يَزال يَسيرُ إلى اللهِ تَعالى مُسْتَمْسِكًا بأقْوى سبَبٍ يوصِلُه إلى الغايةِ في الدّارِ الآخرةِ بدُخولِ الجَنَّةِ(1).

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ:

النّاسُ صِنْفانِ مُتَمَسِّكٌ بالأوهامِ ومُسْتَمْسِكٌ بالحَقِّ

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ مقابِلٌ لِقَوْلِه سُبْحانَهُ قبلُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ... ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فذَكَرَ اللهُ ﷻ مَنِ اتَّبع ما وجَدَ عليه الآباءَ مِنَ الشِّرك على غَيْرِ بَصيرَةٍ، فَوَقَعوا في العذابِ المُهين، وذكَر بَعْدَهُم مَن أسلَمَ وجْهَهُ للّه تَعالى بانْقيادِهِم وإخْلاصِهِم لله سُبْحانَهُ معَ إحْسانِ العَمَلِ عَلى وفْقِ الشَّريعة، فاسْتَحَقّوا النَّعيمَ المقيم، والأوَّلون تَمَسَّكوا بالأوهامِ إرْضاءً للأهْواءِ، والآخِرون اسْتَمْسَكوا بالحَقِّ إرضاءً للّهِ تَعالى(2).

ونلحظُ ظاهرةَ (الاحتباك) بينَ صورةِ المكذِّبِ المُجادلِ وصورةِ المؤمنِ الصّالح؛ فقد ذكر أنَّ جدالَ الكافرين يقومُ على عدمِ العلمِ والهُدى والكتابِ المُنير، وحذفَهُ منَ الثّاني الَّذي يكون إسلامُ وجهِهِ للّه عن علمٍ وهُدىً وكتابٍ منير، وذكرَ في الثّاني أنَّ المسلمَ وجهَهُ للّه العاملَ الصّالحاتِ متمسِّكٌ بالعُروةِ الوُثقى، وحذفَ ذلك منَ الأوّلِ الذي فُهِم منه أنَّه مُتمسِّكٌ بالوَهمِ والظُّنونِ الفارغةِ والأفكارِ المَريضة.

مَعْنى الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾:

الوَعْدُ بالكَرامَةِ في الدّارِ الآخِرَةِ

الواوُ في ﴿وَإِلَى﴾ من قولِ الله تَعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ عاطفةُ الجُمْلَةِ بعدَها على جُمْلَةِ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَهُما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 189، والقنوجي، فتح البيان: 10/ 294.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 176.

مِنَ الاتّفاق في الخبَريَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ لفظيَّة وأُخْرى مَعْنَويَّة، فأمّا اللَّفظيَّةُ فاشْتِراكُهُما في الاسميَّة، وأمّا المَعْنَويَّةُ فما بينَهُما مِنْ ذِكْرِ نَيْلِ الكَرامَة؛ ففي الأولى ذِكْرُ اسْتِمْساكِهِم بالعُرْوَةِ الوُثْقى، وفي الثّانية ذِكْرُ رجوعِ الأمورِ إلى اللّه تَعالى، وذلكَ يَقْتَضي وعْدَهُم بلِقاءِ الكرامة عندَ اللّهِ سُبحانَهُ في آخِرِ أمْرِهِم وهو الدّار الآخِرَةُ[1]، وبذلك تكتملُ المقابلةُ مع عاقبةِ المُجادلينَ الّتي كانت دعوةً شيطانيةً إلى عذابِ السَّعير، في حين أنَّ عاقبةَ الأمورِ للّه تعالى، وما عاقبةُ المخلصينَ إلّا جنّاتُ النَّعيم.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ (إلى اللَّهِ):

مَصيرُ الأُمورِ إلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ (إلى اللّه) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ لإرادَةِ الاهْتِمام بالمُقدَّمِ والتَّنبيهِ على أنَّ الرّاجِعَ إليه سُبْحانَهُ يُلاقي جَزاءَهُ وافيًا[2].

وفي التَّقديمِ أيضًا مَعنى القَصْرِ؛ أيْ: إنَّ مصيرَ الأُمور إلى اللّهِ سُبْحانَهُ وحدَهُ دونَ ما سِواهُ[3].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾:

مُجازاةُ اللهِ سُبْحانَهُ أهْلَ الإسْلامِ الجَزاءَ الأوفى

اللّامُ في ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ يُراد بها الاسْتِغْراقُ والعُموم، أي: إنَّ جميعَ الأمورِ مَوْكولةٌ نِهاياتُها إلى اللّهِ سُبْحانَهُ، ومِنْها: أُمورُ المُسْلمين؛ فيُجازيهِم اللّهُ خيرًا عظيمًا بما يُلائِمُ عظمَةَ المُجازي سُبْحانَهُ[4].

بَلاغَةُ الإيماءِ والتَّعْريضِ:

التَّعْريضُ بأهْلِ الباطِلِ وأنَّ لَهُمُ الخِزْيَ والهَوان

خُتِمَتِ الآيةُ الكَريمةُ بقَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾، وهذا تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المَثَل؛ لاسْتِقْلالِه بِنَفْسِه وعَدَم افْتِقارِه إلى ما قبلَهُ في كَشْفِ تمامِ المُراد منه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 189، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 294.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.

وجُمْلَةُ التَّذييل فيها إيماءٌ بوَعْدِ اللّهِ تعالى للمُسْلِم وجهَهُ لَهُ المُحْسِنِ في عمله بأنَّ له كرامةً عظيمةً عند اللّه سُبْحانَهُ في الدّار الآخرة[1]، وفيها تعريضٌ بالمُجادِلينَ في توحيدِ اللّه تعالى بغَيْرِ عِلْمٍ بأنَّ لَهُمُ الخزيَ والهوانَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العاقِبَة والمَرْجِع والمَصير:

العـاقِـبَـةُ عِـنْـدَ الإطْلاقِ مُخْتَصَّةٌ بالخَيْرِ

المَرْجِعُ: انْقِلابُ الشَّيءِ إلى حالٍ قد كانَ عَلَيْها، بخلافِ المَصيرِ فَهو انْقِلابُ الشَّيءِ إلى خِلافِ الحالِ التي هو عَلَيْها، نَحْوُ قولِهِم: صارَ الطّينُ خَزَفًا، ولا يُقال: رجَعَ الطّينُ خزَفًا؛ لأنَّه لَم يَكُنْ قبلُ خَزَفًا.

ولا يَتَنافى هَذا معَ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾ [الصافات: 67 - 68] مع أنَّهُم لَم يَكونوا قبلُ في الجَحيم حتّى يُقال: رَجَعوا إليها؛ لأنَّنا نقول: إنَّه رويَ أنَّ أهلَ النّار يورَدونَ الحَميمَ لِشُرْبِه كما تورِدُ الإبلُ الماءَ، ثُمَّ يُرَدّون إليها، كَما يَدُلُّ لذلكَ قَوْلُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن: 44][2].

وأمّا العاقبةُ؛ فَهي نتيجَةُ أفعالٍ مُتَقَدِّمة، سواءٌ أكانت خيرًا أم شَرًّا، إلّا أنَّ العاقِبَةَ تَخْتَصُّ بالخيرِ عِنْدَ الإطْلاقِ، وأمّا إذا قُيِّدت فَهيَ بحسَبِ ما تُقَيَّدُ بهِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 492.
(3) الراغب، المفردات: (عقب).

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: 23 - 24]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ذِكْرُ حالِ الكافِرِ بَعْدَ ذِكْرِ حالِ المُسْلِمِ

لَمّا ذكر اللهُ تَعالى المُسْلِمَ وجهَهُ بقولِه: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ ذكَرَ ما يُضادُّ ذلكَ وهو الكافرُ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡزُنكَ﴾: (حزن) تَدور تَصْريفاتُه على مَعْنى خُشونة الشَّيءِ والشِّدَّةِ فيهِ[2]، ومِنْهُ: الحَزَنُ؛ وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[3]، والحُزْنُ؛ وهو ضدُّ الفرحِ والسُّرور؛ لأنَّه شدَّةٌ تَعْتَري قَلْبَ الإنْسانِ[4]، وحقيقَةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[5]، وهو المُرادُ منَ الآية.

2) ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾: (متع) تدلُّ اشْتِقاقاتُه على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[6]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[7]، والمَتاعُ: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به ويُتبلَّغُ بِهِ ويُتزَوَّدُ[8].

والتَّمتيعُ: الإمْهالُ[9]، والمقصود بالتَّمتيع في قولِه: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ نُمْهِلُهُم في هذه الدُّنيا مُدَّةً يَسيرةً يَنْتَفِعون بأعْراضِها الزّائلة[10].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(5) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 4/ 462.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (متع).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 150.

3) ﴿غَلِيظٍ﴾: (غلظ) تدُلُّ تَصْريفاتُه على عِظَم الجِرم وتجسُّمه مع صلابَةٍ، ويَلْزَمُ مِنْهُ الشِّدَّة والقوَّة والحِدَّة[1]، والعَذابُ الغَليظُ: هوَ شَديدُ الألَم، وغَلُظَ الرَّجُلُ: إذا اشْتَدَّ، فهو غَليظٌ، وفيه غِلْظَةٌ، أيْ: شِدَّةٌ واستِطالَةٌ، فهو غَيْرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ[2]، والتَّغْليظُ: التَّكْبيرُ والتَّعْظيمُ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهْدٌ غليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[3].

والعَذابُ الغَليظُ: الشَّديدُ الإيلامِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الصَّبْرُ عَلى كفرِ الكفّارِ وانْتِظارُ الجَزاءِ في الآخِرَةِ

ومَن كَفَر باللّهِ سُبْحانَهُ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُه، ولا تَذْهَب نَفْسُك عليهِم حَسْرَةً؛ لأنَّك أدَّيْتَ ما عليكَ مِنَ الدَّعوة والبَلاغ، فإنَّ مَرْجِعَهُم ومَصيرَهُم يومَ القيامة إلَيْنا، ونحنُ نُخْبِرُهُم بأعْمالِهِم الخَبيثَةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ثُمَّ نُجازيهم عَلَيْها، إنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ ذو عِلْمٍ بما تُكِنُّه صُدورُهُم مِنَ الكُفْرِ باللّهِ ﷻ، وإيثارِ طاعَةِ الشَّيطانِ.

نُمْهِلُهُم في هذه الدُّنيا مُدَّةً يسيرةً يَتَمَتَّعون فيها، ثُمَّ نُلْجِئُهم يومَ القيامة إلى عذابٍ فظيعٍ شديدِ الإيلامِ، وهوَ عذابُ النّارِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

تَـنـاسُـبُ الجُمْلَتَيْنِ لَفْظًا ومَعْنًى

(الواوُ) في ﴿وَمَن﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ عاطفةٌ، عطفَتِ الجُمْلَةَ بعدَها على جملةِ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَهُما مِنَ التّناسُبِ؛ إذِ الجُمْلَتانِ مُتَّفِقتانِ في الخَبَرِيَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ لفظيَّة وأُخْرى مَعْنَويَّة، فأمّا اللَّفظيَّةُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غلظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(3) الخليل بن أحمد، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 150، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

فاشْتِراكُهُما في الاسميَّة، وأمّا المَعْنَويَّةُ فما بينَهُما مِنَ الجامِعِ الوَهْميِّ وهوَ التَّضادُّ؛ فإنَّ اللّه سُبْحانَهُ لَمّا ذكَر مَن أسْلَمَ وجهَهُ إليهِ تَعالى؛ ذَكَر ما يُقابِلُه وهو الكافِرُ.

مَعْنى (مَنْ) ومَوْقِعُها الإعْرابيُّ:

قيامُ النَّبيِّ ﷺ بِالبَلاغِ أتَمَّ قيامٍ

(مَنْ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٍ في محلِّ رفعٍ مبتدأً؛ لأنَّ الفعلَ بَعْدَهُ ﴿كَفَرَ﴾ لازِمٌ، فتكون جُمْلَة ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ اسْميَّةً، وهيَ مفيدَةٌ الثُّبوتَ والدَّوام، أي: إنَّ الذي ثبتَ له الكُفْرُ ودامَ له هذا الوصفُ لا يَنْبَغي أن يَحْزُنَ النّبيَّ ﷺ كفرُهُ، فمَن كانَ كُفْرُه عارضًا من بابٍ أولى أن لا يكونَ سببًا لحُزْنِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه قام بالبَلاغ أتَمَّ قيامٍ وأكملَه، واسمُ الشّرطِ مُفيدٌ للعموم، فيكونُ بمثابةِ القاعدةِ الكليَّة، أي: كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالكفر لا تحزَنْ أيُّها النّبيُّ الكريمُ عليه، وفُهِم منهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ كان يفرَحُ ويُسَرُّ بمَنْ يُسلِمُ وجهَهُ لله وهو مُحسِنٌ، وذلك الانفعالُ لم يرِدْ فيه نهيٌ ممّا يدلُّ على رِضا اللّه تعالى به، وفي ذلك غِبطةٌ للمُحسنينَ بأنَّ النّبيَّ ﷺ يفرَحُ بهم ويَرضى اللّه عنهُ، كما فُهِم بدلالةِ المُقابلة أنَّ الكافرَ لم يَستمسِكْ عندَ الكُفر بعُروةٍ فضلًا عن أنْ تكونَ وُثْقَى.

المغايرةُ بينَ الفِعلَين:

الإسلامُ حركةٌ متجدِّدةٌ والكفرُ حالةٌ سُكونيّةٌ

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن حالتَي الكُفر والإسلام المُتَقابلتَين بالفعلِ المُضارع تارةً، فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ والفعلِ الماضي أُخرى فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، للدّلالةِ على أنَّ إسلامَ الوجهِ لله وممارسةَ العملِ الصّالحِ والإحسانِ مُجاهدةٌ مُستمرّةٌ وعملٌ دَؤوب، فعبَّرَ عنه بالفعلِ الدّالِّ على التّجدُّدِ الاستمراريِّ، وأنَّ الكفرَ باللّه ورفضَ الانصياعِ للحقِّ حالةٌ باتّةٌ وقرارٌ ثابتٌ متحقّقٌ حتى صار صفةً سكونيّةً لا تقبلُ النّقاشَ ولا الدّعوةَ، فعبّر عنه بالفعلِ الماضي الدّالِّ على الثّبوتِ

والتّحقُّقِ وعدمِ التّزحزُحِ عنه، بخلاف (مَن يكفر) فإنَّ هنالك مَجالًا لدعوتِهِ والحزنِ على قرارِه، والتّأسُّفِ على صدورِ ذلك الحدثِ منه.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

وُجوبُ تَرْكِ التَّحَسُّرِ عَلى كُفْرِ الكافِرينَ

(الفاءُ) في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ رابِطَةٌ لجوابِ الشَّرط، وهيَ مفيدةٌ تحقُّقَ الجَواب بوُجود شَرْطِه، أي: إنَّ الكُفْرَ إذا تُحُقِّقَ صدورُه؛ فيَنْبَغي إحداثُ الجوابِ وهو مُباعدةُ الحُزْنِ والتَّحسّر على كُفْر مَن كفَرَ.

غَرَضُ النَّهْيِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

تَأثُّرُ النَّبيِّ ﷺ بِأحْوالِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ

النَّهيُ في ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ يُراد به النُّصحُ والإرْشادُ؛ لِمَا فيه من تَحْقيقِ مَصالحَ دُنْيَويَّةٍ وأُخْرَويَّةٍ، ولا تَمْنَعُ هذهِ الدّلالَةُ من وُجوبِ الامْتِثالِ لمَضْمونِ النُّصحِ شَرْعًا؛ لِصُدورِ الأمْرِ منَ اللّهِ تَعالى.

ووَجْهُ النَّهْيِ في هذا: أنَّ نَفْسَ الرَّسولِ ﷺ، وإنْ بلغَتْ أعْلى درجاتِ الكَمالِ؛ فإنَّه يَعْتَريها أحيانًا أحوالُ النُّفوسِ البَشَريَّة، فقَد تَتَأثَّر في أوقاتِ الشِّدَّة بمَظاهِرِ الأسْبابِ، وتَنْتَظِرُ حُدوثَ المُسَبِّباتِ المُعْتادَةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿يَحْزُنكَ﴾:

النَّهْيُ عَنْ مُطْلَقِ الحُزْنِ عَلى كُفْرِ مَنْ كَفَرَ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَحْزُنكَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ للدّلالَةِ على الدَّوام، والمُرادُ: دوامُ النَّفْيِ واستمرارُه لا نَفْيُ الدَّوامِ؛ إذْ ليسَ المُراد أن يَصْدُرَ منهُ حُزْنٌ مّا ولَكِنْ لا يدومُ عليه، وإنَّما المَعْنى أنْ لا يَصْدُرَ الحُزْنُ منهُ أصْلًا.

المَوْقِعُ النَّحْوِيُّ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾:

مُهِمَّةُ النَّبيِّ ﷺ هيَ الدَّعْوَةُ والبَلاغُ

(الفاءُ) في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ رابطَةٌ لجوابِ الشَّرط، وهيَ مفيدةٌ تحقُّقَ الجَواب بوُجود شَرْطِه، والجملةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 173.

بعدَه في مَحَلِّ جَزْم جوابُ الشَّرْطِ وجزاؤُه، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ مُهِمَّة النَّبيِّ ﷺ هي الدَّعْوَةُ والبلاغ، لا الحُزْنُ على كُفْر الآخرين؛ إذِ الهدايةُ بيَدِ الله تَعالى وحدَهُ، ومن ثَمَّ لا يبعُدُ أنْ يكون النّهيُ عنِ الحُزن كنايةً عنِ النّهي عن عدمِ التّبليغ واليأس من صلاحِ المدعوّينَ؛ إذ من لوازم الحُزن اليأسُ من هِدايتهم، فيتوقّفُ المرشدُ عنِ التّبليغ والإرشاد؛ لأَنَّ الحُزن أمرٌ نفسيٌّ لا يَردُ النّهيُ عنه لذاته؛ لكونه غيرَ مقدورٍ عليه، بلِ المقدورُ عليه الاستمرارُ في الإبلاغ والدَّعوة.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليّ في قَوْلِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾:

قَطْعُ الفِكْرِ بِالحُزْنِ لِكُفْرِهِمْ؛ يَنْفي الحُزْنَ رَأْسًا

أُسْنِد النَّهْيُ عنِ الحُزْنِ إلى كُفْرِهم دونَ الفاعلِ الحقيقيّ في قولِ الله تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ من بابِ المجازِ العَقْليِّ؛ لأنّهُ السّببُ للحُزن عليهم والباعثُ للفاعلِ إلى الاتّصافِ بالحُزن؛ ولنَهْي النَّبيِّ ﷺ عَن إدامةِ الفِكْرِ بالحُزْنِ لأجْلِ كُفْرِهم؛ وذلك لأنَّه إذا قَلَع ذلكَ مِن نَفْسِه؛ انْتَفى حُزْنُه بسبَبِ كُفْرِهِم[1].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قَوْلِه: ﴿يَحۡزُنكَ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ نافعٌ ﴿يُحْزِنكَ﴾، ومُضارِعُه: أَحْزَنَ المتعدّي، ومعناهُ: جعلَهُ حزينًا، وقرأ باقي العشرَةِ: ﴿يَحۡزُنكَ﴾[2]، ومضارِعُهُ (حَزَنَ) المتعدّي بالمَعْنى المُتَقدِّم، وهُما لُغَتان من لُغاتِ العرَبِ، أولاهُما لُغَةُ تَميم، والثّانيةُ لغَةُ قُرَيْشٍ، وكلاهُما فَصيحٌ[3]، ولعلَّ في التّعديةِ بالهمزةِ مبالغةً في إيصالِ الحُزنِ وقوَّتِه في نفسِ الحزينِ، بقي أنَّ الحُزن الَّذي قامَ بالنّبي ﷺ مُحتملٌ الحُزنَ عليهم والحُزنَ مِنهم، فيكونُ النّهي عن كِليهما، وإنْ كانَ يترجّحُ لدينا أنَّ الحزنَ بسبب الكُفر كونُه منهم في جنب الله؛ لقوله: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ الدّالِّ على وقوعِ العذاب عليهم عندَ الرُّجوع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 177.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 244.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 178.

علّةُ التّصريحِ بالفاعل:

تحديدُ سببِ الحُزنِ بيانٌ للمُراد

آثرَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ فاعلِ الحُزن والإحزان، وهو السّببُ في اتّصاف النّبيِّ ﷺ بالحُزن على الكافرين؛ فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ولم يكتفِ بالضّمير؛ للدِّلالة على أنَّ سببَ الحُزنِ على الكافرينَ هو اتِّصافُهم بالكفر دونَ ذواتِهم، وأنَّ الكفرَ وعاقبتَهُ الوخيمةَ هي التي توجِبُ الحُزن، ولو تُركَ الفاعلُ اتّكاءً على الضّمير لتوُهِّم رجوعُهُ إلى الموصولِ (من) دون قيدِ الصِّلة وليس هو المُراد، ورُبَّما يشعرُ إظهارُ الفاعلِ المسبّبِ للحُزن أنَّ النّهيَ مُتسلِّطٌ على اليأسِ منَ الدّعوة والإرشادِ؛ لأنّ كُفرَ الكافرينَ داعٍ للقنوطِ دونَ ذَواتِهم.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾:

التَّمْهيدُ لِوَعْدِ اللهِ سُبْحانَهُ بِالاِنْتِقامِ مِنَ الكافِرينَ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ عمّا قَبْلَه؛ لِوُقوعِها مَوْقِعَ التَّعليل للنَّهْي المُتَقَدِّم في قَوْلِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾، فالاستئنافُ بيانيٌّ لشبهِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ توجّهَ سؤالٌ ضمنيٌّ منَ الرَّسولِ ﷺ عن علّةِ النَّهي بالكفِّ عنِ الحُزن على كُفرهم والاكتفاءِ بالتّبليغ والإرشادِ فأجابَ بذلك، وهي أيضًا تمهيدٌ لِوَعْدِ اللّه تَعالى لنَبيِّه ﷺ بأنَّه يتولّى الانتِقامَ مِنْهُم، الذي دلَّ عليهِ لازمُ قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ مُفرَّعًا على جُمْلَةِ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾[1].

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَيۡنَا﴾:

المَصيرُ إلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡنَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ لإرادةِ الاهْتِمامِ بالمُقدَّم، وللدّلالةِ علَى مَعنى القَصْرِ؛ أيْ: إنَّ مَرجِعَهُمْ إلى اللّهِ سُبْحانَهُ وحدَهُ دونَ ما سِواهُ[2]، ودلّ القصرُ على سرِّ الاكتفاءِ بالتّبليغ؛ لأنَّ الرُّجوعَ للحِساب أمرٌ مختصٌّ باللّه تعالى، لا يتولّاه أحدٌ من خلقِهِ، فهو العالمُ بكُفرهم ويُحاسِبُهم عليه، فلِمَ يَحزُنُك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 178.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 190.

كفرُهم والحالُ أنّ رجوعَهم للحسابِ مختصٌّ بنا، ونُجازيهم على ذلك الكُفر بالعذاب الغليظ؟ بقيَ أنَّ (المرجع) إمّا مصدرٌ ميميٌّ بمعنى (الرُّجوع) أو اسمُ مكانٍ دالٌّ على وقوعِ الرُّجوع فيه، وبتحديدِ انتهائِهما باللّه تعالى كنايةٌ عن عدمِ الإفلاتِ من قبضةِ الحسابِ على ذلك الكُفر والصدِّ عنِ اللّه تعالى وآياتِه، فلا موجِبَ للحُزن منهم حينئذٍ.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾:

(الفاءُ) في ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ مِن قولِه تَعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ عاطفةٌ تدلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيب، وفي ذلك إشارَةٌ إلى التَّعجيلِ بعَذابِهم عقبَ رُجوعِهم إليه سُبْحانَهُ[1].

دِلالَةُ عطفِ الفعليَّة على الاسميَّة:

تَصْويرُ المُسْتَقْبَلِ في صورَةِ الحالِ أشَدُّ في التَّرْهيبِ

في التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ دلالةٌ على اسْتِمْراريَّة الفِعْل وشُمولِه لِكُلِّ تَفاصيل أعْمالِهم، وفيه تَصْويرٌ للمُسْتَقْبَلِ في صورةِ الحاصِل الآن، وذلك أدْخَلُ في التَّرهيب وأشَدُّ، وبذلك التّعبير وقعَ عطفُ النّظمِ الكريمِ الجملةَ الفعليَّةَ على الجملةِ الاسميَّة؛ لأنَّ الإنباءَ يدلُّ على تفصيلِ أحوالِهم وأعمالِهم وصوَرِ صُدودهم، بخلاف الرّجوعِ إليه فإنَّه أمرٌ ثابتٌ، فناسبَ المقامُ كلًّا منَ الجُملتَين.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾:

كِتابَةُ الأعْمالِ أبْلَغُ في إقامَةِ الحُجَّةِ عَلى العِبادِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ كنايَةٌ عَن صفةٍ، وهي المُجازاةُ على الأعْمال؛ فقَد أُطْلِقَ الإنْباءُ وأُريدَ بِهِ لازِمُهُ، وليسَ هَذا مَجازًا مُرْسلًا بعلاقةِ الملزوميَّة؛ لأنَّ المَعْنى الأصليَّ وهوَ الإنباءُ حاصِلٌ غيرُ مُنْتَفٍ.

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.

وفي التَّعبير بالإنباءِ كناية عنِ المُجازاةِ والعذابِ إيماءٌ إلى أنَّ ما عَملوه مكتوبٌ ومحفوظٌ؛ ليكونَ أبلَغَ في إقامَةِ الحُجَّة عليهم(1).

مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾:

إبْـراز شُـموليَّةِ الإنْباءِ

(الباءُ) في ﴿بِمَا﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ والمُصاحبَة، والمَعنى: أنَّ اللّهَ ﷻ سَيُخبِرُهم بِما عَمِلوا مِنْ أعمالٍ؛ صَغيرِها وكَبيرِها، وفي ذلكَ إبرازٌ لشُموليَّة الإنباءِ ودِقَّته؛ حيثُ تكونُ أعمالُهُم مُصاحَبَةً صُحْبَةً وثيقَةً بالإخْبارِ الذي سَيواجِهونه يومَ القيامَة، كما أفادتِ (الباءُ) تقويةَ التّعديةِ تحقيقًا لتقريرِ المعنى في قلوبِ الشّاكّين.

مَعْنى (ما) ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها:

تَفْظيعُ جُرْمِهِمْ وتَشْنيعُهُ

(ما) في (بِما) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ اسمٌ موصولٌ، والجُمْلَةُ بعدَهُ صِلةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعْراب، وفي التَّعبير بالمَوْصولِ وصِلَته إيماءٌ إلى اسْتِهْجانِ إعادَةِ ذِكْرِ الكُفْرِ مرَّةً أُخْرى؛ إذْ كانَ مُقْتَضى الظّاهر: فَنُنَبِّئُهُم بِما صدرَ منهُم من كُفرٍ، ولَكِنْ عُدِلَ عَن ذَلِكَ اسْتِقْباحًا لِلمَعْدولِ عَنْهُ، كما أنَّ فيه تَفْظيعًا لجُرْمِهِم، وتَعْميمًا للمُنَبَّأ به، فهو يَشْمَلُ الكُفْرَ وغَيرَهُ(2)، وتحتملُ (ما) أنْ تكونَ مَوصولًا حرفيًّا، وهِي معَ ما بعدَها مصدرٌ مُؤوّلٌ، والتّقديرُ: (فَنُنبئهُم بعَمَلِهِم)، وعدلَ عنِ (الكفر) إلى (العمل)؛ لأنَّ كُفرَهم مُستتبَعٌ لأعمالِ العَداوةِ والإيذاء، وليكونَ في مُقابلةِ العمَل في صورةِ المُؤمنِ المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾.

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعولِ العَمَلِ:

حَـذْفُ الـلَّـفْـظِ اقْـتِـصـادًا واخْتِصارًا

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ على أنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ، وذلكَ بِحَذْفِ العائدِ، والتَّقديرُ: فَنُنَبِّئُهُم

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.

(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 395.

بِما عَمِلوهُ، فحُذِفَ اختِصارًا للكَلامِ مِن غَيْرِ أن يَنْقُصَ مِنَ المَعْنى المُرادِ شَيْءٌ.

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾:

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِكُلِّ مَعْلومٍ ظاهِرًا كانَ أو باطِنًا

فُصِل قولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه تَعْليلًا للتَّنْبِئَةِ المُعَبَّرِ بها عنِ المُجازاةِ، والمَعْنى: أنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يُجازيهم عَلى أعْمالِهِم؛ لأنَّه ﷻ عَليمٌ بالضَّمائرِ، فَما الظَّنُّ بغَيْرِها مِمّا هو أظْهَرُ؟!(1).

بَلاغَةُ الِالتِفاتِ في الآيَة:

إدْخالُ الرَّهْبَةِ والجَلالِ بِذِكْرِ الاسْمِ الأحْسَنِ (اللهِ)

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التِفاتٌ من أسلوبِ التَّكلُّمِ الواردِ في قولِه سُبْحانَه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ إلى الغَيْبَةِ؛ إذْ كانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ: (إنّا عالِمون بذاتِ الصُّدور)، ولَكِنْ عُدِلَ عَن ذلك إدخالًا للرَّهْبَةِ والجَلال بذِكْرِ الاسمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾(2)، وليكونَ علّةً - لكونِه مُستجمِعًا لجميع صفات الكمالِ - للخبرِ.

دِلالَةُ التَّأكيدِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

تأكيدُ شُموليَّةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى

صُدِّرت جملةُ التَّذييل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالحَرْفِ الدّالِّ على التَّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ شُموليَّةِ عِلْمِ اللّه سُبْحانَهُ بجَميعِ ما في صُدورِ العِبادِ مِن نَوايا وخواطِرَ، وفيهِ تحذيرٌ وتهديدٌ لِلعِبادِ عَلى أنَّ المُحاسبَةَ والمُجازاةَ لا تَقْتَصِرُ على الأعمالِ الظّاهِرةِ، بَل عَلى المَقاصِدِ والنَّوايا المُنجّزةِ، وذلكَ يَقْتَضي الدَّعوةَ إلى تَصْحيحِ الأعْمالِ وتَحْسينِ النَّوايا.

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بِصِفَةِ العِلْمِ:

كَمالُ عَدْلِ اللهِ سُبْحانَهُ في حُكْمِهِ

في تذييلِ قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بصِفَةِ العِلْمِ إيماءٌ إلى أنَّ مُجازاةَ اللّهِ سُبْحانَهُ العِبادَ مَبْنيٌّ على عِلْمٍ مُحيطٍ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 74، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 94.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 191.

بأفْعالِهم الظّاهِرَة والباطِنَة، وذلك مِن مُقْتَضيات العَدْلِ في الحُكْم، كما أنَّ التّنبئةَ تقتضي العلْمَ بتفاصيلِ ما عملوه وما أضمَروهُ مِن نيّاتٍ سيّئةٍ سَعَوا إلى تحقيقِها.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ودِلالَةُ صيغَةِ المُبالَغَةِ:

تَعظيمُ عِلْمِ اللهِ تَعالى وبيانُ إحاطتِه

نُكِّر لفظُ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعظيمًا لعِلْمِ اللّه تعالى، وبيانًا لسَعَتِه وإحاطتِه، ويُؤَكِّد هذا المَعْنى التَّعبيرُ عَنِ العِلْمِ بِالصِّفةِ المشبَّهة ﴿عَلِيمٌ﴾ الدّالّةِ على الثُّبوتِ واللُّزومِ وعدمِ الانفكاك.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

(الباءُ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تدلُّ على الإلْصاقِ مع تقويةِ التّعدية، وهذا يَعْني أنَّ عِلْمَ اللّه سُبْحانَه مُلازِمٌ لِما في صُدورِ النّاس، لا يَعْزُب عنهُ شيءٌ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في التّذييل:

دقّةُ الحساب لكمالِ العِلْمِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايَةٌ عن دقّةِ الحِسابِ وكَمالِ التّنبئةِ بما عَمِلوه، وأنَّ كلَّ ذلك مُحاسَبونَ عليه، ويلزمُ منه زيادةُ التّخويفِ والتّهديد لهم، معَ التّسليةِ للنّبيِّ ﷺ على عظيمِ حُزنِه بكُفرهم باللّه تعالى وسوءِ مُعاملتِهم له وللدَّعوة التي أتى بها، وذاتُ الصُّدورِ خَفاياها ونَواياها وحقائقُها التي لا سبيلَ للاطّلاعِ عليها إلّا مِن خالقِها.

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

التّنبئةُ عنِ الأعمالِ الصّادرةِ منهم دونَ النّيّات

آثَرَ النّظمُ الكريمُ إيرادَ (المجازِ المُرسَل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ إذ أطلقَ المحلَّ وأرادَ به الحالَ وهو القلبُ، وإنّما لم يقل: (عليمٌ بالقلوب) لأنَّ الصّدورَ توحي بما يصدرُ عن القلبِ مِن نيّات وخَفايا يَصدّونَ بها عن سبيلِ اللّه وآياتِه، ويُمارسونَه بأعمالٍ يُحاربونَ بها اللّه ورسولَه، فيكونُ مُناسبًا لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم

﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾؛ إذِ العملُ يصدرُ عنهم فيكونُ ذكرُ الصُّدور أنسبَ، بخلاف القلبِ فإنّه أمرٌ خفيٌّ لا يتّصفُ بالصُّدور عنه.

مَعْنى (أل) في: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

الإيماءُ إلى سَعَةِ عُمومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ

(أل) في ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دالَّةٌ عَلى الاسْتِغْراقِ، والمَعْنى أنَّ اللّه تَعالى عالِمٌ بكُلِّ ما في صُدور جميعِ النّاس، وهذا فيهِ إيماءٌ إلى سعَةِ عُموم عِلْم اللّه سُبْحانَه وإحاطتِه بكُلِّ معلومٍ.

دلالَةُ جمعِ: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

شُمولُ عِلْمِ اللهِ تَعالى لِجَميعِ أحْوالِ القُلوبِ

جُمِعت كلمَةُ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ للدّلالة على شُمول عِلْم اللّه تَعالى لجَميعِ القُلوب، وأنَّ عِلْمَ اللّهِ سُبْحانه ليسَ مُنْحَصِرًا في حالٍ واحدَةٍ أو فَرْدٍ واحدٍ، بل يَشْمَلُ النّاسَ كافَّةً بمختلِفِ أحوالِهم وأسْرارِهم وأفْكارِهم.

عِلَّة فَصْلِ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾:

أثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

فُصِل قولُ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ عمّا قبلَه؛ لِوُقوعِه استِئْنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ قولَ اللّه تَعالى: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ يبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا عَن عدَمِ تعجيلِ الجَزاء عليهم، فبَيَّن اللّهُ سُبْحانَه أنَّه يُمْهِلُهُم زمنًا ثُمَّ يوقِعُهُم في عذابٍ لا يَجِدونَ منهُ مَخْلَصًا[1].

فائِدَةُ الالْتِفاتِ في: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾:

إبْرازُ العَظَمَةِ المُقْتَضيَةِ إذْلالَ العَدوِّ وإعْزازَ الوَلِيِّ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ التفاتٌ من أسلوبِ الغَيْبَةِ الوارِدِ في قولِه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إلى أُسْلوبِ التَّكلُّم، وذلك لإبرازِ مَظْهَرِ العظمَةِ التي من مُقْتَضياتِها إذلالُ العَدوِّ وإعزازُ الوَليّ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 179.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 191.

نُكْتَةُ إسْنادِ التَّمْتيعِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ:

تَمْتيعُ اللهِ تَعالى العِبادَ لِحِكَمٍ يَعْلَمُها سُبْحانَهُ

أُسْنِدَ فعلُ التَّمْتيعِ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ إلى ضميرِ العظمَةِ في قول اللّه تَعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ للدّلالة على عظمَةِ اللّه سُبْحانَهُ وجلالَةِ قُدْرتهِ وإرادَته في مَنْحِ النِّعَم لِعبادِهِ وتَمْتيعِهِم بها لحِكَمٍ يعلَمُها ﷻ.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ مادّةً وصيغةً:

شِدَّةُ وقْعِ العَذابِ بَعْدَ طولِ مُدَّةِ التَّمْتيعِ بِالنِّعَمِ

في التَّعبير بصيغةِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ دلالَةٌ عَلى أنَّ تَمْتيعَهُم بالنِّعَم أمرٌ مُتَجَدِّدٌ؛ ليَعْظُمَ رُكونُهم إلى هذه النِّعم، فإذا جاءَهُم العذابُ كان أشَدَّ وقعًا عليهِمْ، ومادّةُ التَّمتُّع تدلُّ على حصولِ تلذُّذٍ وانتفاعٍ مؤقّتٍ، فما هي إلّا مُتعةٌ عابرةٌ مهما طالَتْ وتجدّدتْ.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿قَلِيلٗا﴾ ودِلالَتُهُ:

نَعيمُ الدُّنْيا مَهْما عَظُمَ حَقيرٌ بِالنِّسْبَةِ لِنَعيمِ الآخِرَةِ

﴿قَلِيلٗا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ يجوزُ أن يكون ظرفًا، والمعنى: نُمَتِّعُهُم زمانًا قليلًا، ويجوز أن تكونَ صِفَةً لَمصْدَرٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: نُمَتِّعُهم متاعًا قليلا[1].

وفي التَّعبير عنِ التَّمتيع بالقِلَّةِ ظرفًا أو وصفًا؛ تهوينٌ مِن أمرِه وتَحْقيرٌ لشأنِه، وقِلَّته بالنِّسبة إلى ما يَفوتُهم في الآخرة مِن نَعيم مُقيم، أو بالنِّسبة إلى قِلَّةِ مُدَّتهِ في الدُّنيا؛ وهي تلك المُدَّةُ التي يُمَكِّنُ للإنسانِ أن يَلْتَذَّ فيها بالمَرْغوباتِ دونَ مُنَغِّصات[2]، والغرضُ منه ردعُ المُتمتّعينَ بتنغيصِهم بالمدَّة القصيرةِ، وتسليةُ المُؤمنينَ بالصَّبرِ على مشاقِّ الدَّعوةِ وبعضِ المُتعِ المُحرَّمة؛ لأنَّها زائلةٌ مُقابلَ النَّعيمِ المُقيم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿قَلِيلٗا﴾:

مَحْدوديَّةُ متاعِ الدُّنْيا

نُكتَةُ تَنْكيرِ ﴿قَلِيلٗا﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ المبالغةُ في شأنِ القلَّةِ والتّكثيرِ لدرجاتِها وكميَّتِها القليلة، ففيها دلالةٌ على أنَّهُ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 554.

(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 397.

تمتُّعٌ محدودٌ ومُؤَقَّتٌ للغاية، ويلزمُ مِن كونِ مُتَعِ الدّنيا قليلةً لهم أنَّهم مَحرومونَ مِن مُتَعِ الآخرةِ الكثيرة؛ فإنْ كان نصيبُهم في الدُّنيا قليلًا فإنَّ حظَّهُم من نعيمِ الآخرة معدومٌ، بل يَنتظِرُهم العذابُ الغَليظ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الِاضْطِرارِ مادّةً وصيغةً:

خُلودُ أهْلِ الكُفْرِ في العَذابِ

في التَّعبير بالاضْطِرارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ إشارةٌ إلى الإلجاءِ والقضاءِ الَّذي لا مَفَرَّ لَهُم منهُ، ففيهِ دِلالةٌ على دَفْعِهِم إلى العذابِ القَسْريِّ، وفي التَّعبير عنِ الاضْطِرارِ بالفِعْلِ المُضارعِ إيماءٌ إلى الدَّوامِ والاستِمرارِ، وأنَّهم خالِدونَ في العَذاب.

وأُسْنِد فعلُ الاضْطِرارِ إلى ضميرِ العظمةِ لإبرازِ عظمَةِ اللّه سُبْحانَهُ في إنفاذِ حُكْمِه في هَؤلاءِ، وإلزامِهم بالعذابِ ودَفْعِهم إلَيْه دَفْعًا.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ في التَّعْبيرِ بِالِاضْطِرارِ:

إلْزامُ أهْلِ الكُفْرِ العَذابَ فلا يَنْفَكّونَ عَنْهُ بِحالٍ

في التَّعبير بالاضْطِرارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارَةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيثُ اسْتُعير الاضْطِرارُ للإلْزام، فشُبِّه إلزامُهم التَّعذيبَ باضْطِرارِ المُضْطَرّ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يُمكِنُه الفَكاكُ منهُ[1]، ونتلمّسُ في دلالةِ الاضطرارِ إلى العَذابِ تهكُّمًا؛ إذ يَضطَرُّ الإنسانُ إلى أكلِ المَيتةِ من أجلِ دَفْعِ الجوعِ، أو تناوُلِ الدَّواءِ المُرِّ من أجلِ الشِّفاءِ، ففي اضطرارِهم إلى العذابِ من أجلِ سَدادِ دُيونِ كُفرِهم سُخريَةٌ بهم، أو من أجلِ دفعِ ثمَنِ تمتُّعِهم بالموبقاتِ الفانيةِ تهكُّمٌ بهم.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

تَهْويلُ العَذابِ وتَفْخيمُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لإرادَةِ تهويلِ العَذابِ وتَعْظيمِه وتَفْخيمِه، كما أنَّ في التَّنكيرِ مَعْنى الإبْهام، مِمّا يَجْعَلُ ذِهْنَ المُتَلَقّي يَذْهَبُ كُلَّ مَذْهَبٍ في تَصَوُّرِ شِدَّةِ هذا العذابِ وفَخامَتِه.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 500.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ في وصْفِ العَذابِ بِالغِلَظِ:

شِدَّةُ العَذابِ عَلى النَّفْسِ وتَعَذُّرُ تَحَمُّلِه

وَصْفُ العذابِ بـ(الغَليظِ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعارَةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ وذلكَ لأنَّ الغِلَظَ في الأصلِ من صفاتِ الأجسامِ، وأُطْلِقَ في الآيةِ الكريمةِ على الشَّديدِ مِنَ الأحوالِ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَة، بجامِعِ الشِّدَّةِ على النَّفْسِ وعدَمِ الطّاقةِ على احْتِمالِه[1]، وفي توصيفِ العَذابِ بأنّه جسمٌ غليظٌ لا رِقّةَ فيه ولا لطافةَ له إيحاءٌ بالشّدَّةِ والاتّساعِ والثّقل، ويلزمُ منه الخلودُ والبقاءُ لكونِه ثخينًا لا سبيلَ للخروجِ منه.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

وُصِفَ العذابُ في القُرآنِ الكريمِ بأوصافٍ كثيرَةٍ، مِنْها: كونُهُ مُهينًا، وأليمًا، وعظيمًا، فيَرِدُ وصفُه بـ(المُهين) في سياقِ جَزاءِ مَن يَتَكَبَّرُ على غَيْرِه، ويَسْتَعْظِمُ ما عِنْدَهُ، فيكونُ العَذابُ المُهين أنْسَبَ لَه؛ لِمَحْقِه مشاعِرَ الكِبْرِ والغُرور عِنْدَهُ، ولأنَّه مُجازاةٌ لَهُ بنَقيضِ قَصْدِه، ومِنْهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [لقمان: 6]، فإنَّ الباعثَ عَلى الاستهزاءِ هو الكِبْرُ وغَمْطُ الشَّيءِ المُسْتَهْزَأ بِه.

وَيوصَفُ العذابُ بِالأليم؛ إذا كانَ المعذَّبُ أوِ المُتوعَّدُ بالعذاب سبَّب بجُرمِه آلامًا كثيرةً لأهل الإيمانِ، واخْتيرَ لَهُ العَذابُ الأليمُ؛ ليكونَ الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَمِلِ، ومنهُ آيةُ لُقْمانَ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾ [لقمان: 7]؛ فإنَّ المُبلِّغَ لآياتِ اللّه سُبْحانَهُ، إذا قوبِلَ بالإعْراض والاسْتِكْبار؛ يكبُرُ ذلكَ في نفسِه، ويَجِدُ لذلكَ ألَمًا معنويًّا عظيمًا، فناسبَ أن يُعاقَب المُتَسَبِّب في ذلكَ الألَمِ بالعذابِ الأليم، ولم يُذْكَرِ العَذابُ المُهينُ في آيةِ لُقمان المُتقدِّمَة - ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [لقمان: 7] -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 179.

مع أنَّه نُصَّ على الاستكبارِ؛ اكتفاءً بذِكْرِه في الآيةِ المتقدِّمَةِ، وليُجمَعَ لَهُ ألوانٌ مِنَ العذابِ.

وقَد يوصَفُ العذابُ بالعظيم، وذلكَ إذا عَظُمَ الجُرْمُ والذَّنْبُ؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ومِنْهُ قول اللّٰهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 6 - 7]، فقد وردَتْ هذهِ الآيَةُ في سياقِ الحَديثِ عَنِ الكُفّار الذينَ أعْرَضوا عنِ الحقِّ واسْتَوى لَدَيْهِم الإنذارُ وعَدَمُه، فلَمّا كانَ ذَلِكَ إعراضًا عظيمًا عنِ النَّبيِّ ﷺ؛ ناسبَ أن يُتَوَعَّدوا بالعذابِ العَظيمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُلوب والصُّدور:

الـصَّـدْرُ أوسَـعُ والقَلْبُ أضْيَقُ

القَلْبُ هو مُضْغَةٌ مِنَ الفُؤاد مُعلَّقةٌ بالنّياط، وقيل: الفُؤاد غِشاءُ القَلْبِ، والقلبُ حِجابُه، وسُمّي قلبًا لتقلُّبِه بالخواطرِ.

ويَرِدُ القلبُ في مَقاماتٍ مُتنوِّعةٍ، كتَقْوِيَةِ العَزائم، ولذا اقْتَرَن بلَفْظِ (الرَّبط)، كما قال اللّٰهُ تَعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 14].

والقَلْبُ موضِعُ التَّكليف؛ لكَثْرَةِ الإشارَةِ بِهِ إلى العَقْلِ، ولذا خاطَب اللّٰهُ سُبْحانَهُ بهِ المُؤْمنين بالطُّمأنينَةِ، في قولهِ تَعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ [آل عمران: 126]، وخاطب المُنافِقين به بالمَرَضِ، في قوله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10].

وأمّا الصَّدْرُ؛ فهو الجارحة التي أوَّلُها النَّحْرُ - وهو موضعُ القلادَةِ -، ثُمَّ اسْتُعير لمُقَدَّم الشَّيء، كصَدْرِ المَجْلِس والكِتاب والكلام، وقال بعضُ أهلِ العِلْم: القلبُ محَلُّ العقلِ، والفوائدُ محلُّ القلبِ، والصَّدرُ محلُّ الفؤاد، فيكونُ الصَّدْرُ أوسعَها والقلبُ أضيقَها.

---

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 56.

ويُستعمل الصَّدر باعتباره موطنًا للانقباضِ والانْبِساط، ولذا اقْتَرَنَ كثيرًا بلَفْظَتَي الشَّرح والضّيقِ، كما قال اللّهُ تَعالى في انْشِراحِ الصَّدر بالإيمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، وقال الله سبحانه في ضيق الصَّدر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحِجْر: 97][1].

(1) محمد ياس الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 106 - 112.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإقْرارُ بِرُبوبيّةِ اللهِ تَعالى دَليلٌ عَلى انْفِرادِهِ سُبْحانَهُ بِالألوهيَّةِ

لَمّا سلّى اللّهُ تعالى قَلْبَ النَّبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أيْ: لا تَحْزَن على تكذيبِهم؛ فإنَّ صِدْقَك وكَذِبَهُم يتبَيَّنُ عن قريبٍ عندَ رُجوعِهم إلينا؛ أخبره هنا أنَّ تَبَيُّنَ ذلك ليس مختصًّا بذلك اليوم، بَل يتبَيَّنُ قبل يوم القيامة؛ لأنَّهُم مُعترِفونَ بأنَّ خالقَ السَّماواتِ والأرضِ هو اللّهُ سُبْحانَه، وهذا يُصَدِّقُك في دَعْوى الوَحدانيَّة، ويُبَيِّنُ كَذِبَهم في الإشْراك، فقالَ سُبْحانَه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿الْحَمْدُ﴾: (حمد) تدُلُّ تَصريفاتُه على ضدِّ الذّمِّ(2)، وهو: "الثَّناء باللِّسان على الجميل، سَواءٌ تعلَّق بالفضائل كالعلم، أم بالفَواضِل كالبِرِّ"(3)، أي: سواءٌ تعلَّق بالجميل اللّازِم أوِ المُتعدّي، ومِنْ أصحِّ ما قيلَ في معناهُ ما قال ابْنُ سِيدَهْ: "الحَمد هو الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيل"(4)، وقريبٌ منه ما قرَّره ابنُ تيميَّة الحفيدُ مِنَ أنَّ الحمدَ: الإخبارُ بمَحاسِنِ المَحمودِ معَ المحبَّةِ له(5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

أثَرُ اعْتِرافِ المُشْرِكينَ بِرُبوبيّةِ اللهِ تَعالى

ولئِنْ سألتَ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - هؤلاءِ المُشْرِكين باللّهِ تَعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 126.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمد)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).
(3) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.
(4) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/ 231 - 232.
(5) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/ 259.

مَن خلقَ السَّماواتِ والأرضَ؟ ليقولُنَّ: اللّهُ، فإذا قالوا ذلك فَقُلْ لهم: الحمدُ للّهِ الّذي أظْهَرَ الاستدلالَ عَلَيْكُم مِن أنْفُسِكم، بَل أكثرُ هؤلاءِ المُشْرِكين لا يَنْظُرونَ ولا يتدَبَّرون مَنِ الّذي لهُ الحَمْدُ والشُّكر، فلذلك أشْرَكوا معهُ غيرَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

الجَمْعُ بَيْنَ الإقْرارِ بِرُبوبيَّةِ اللّهِ تَعالى وعِبادةِ غَيْرِهِ غايَةُ السُّخفِ

(الواوُ) في ﴿وَلَئِن﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ باعتبارِ أنَّ ما وجَدوا عليهِ آباءَهُم هو الشِّرك باللّه تعالى، ولكن في مُقابلِ ذلك إنْ سألَهُم سائِلٌ: مَن خلقَ السَّماواتِ والأرضَ؛ يكونُ جوابُهم: خلقَهُنَّ اللّهُ، وهَذا تَسْخيفٌ لِعُقولِهم؛ إذْ جمعَت بينَ الإقرارِ للّهِ سُبْحانَه بالخَلْقِ وبينَ اعتقادِ ألوهيَّة غيرِه[2].

مَعْنى اللّامِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾:

تَأكيدُ جَوابِ القَسَمِ وتَقْوِيَتُهُ

(لامُ) (لَئِنْ) من قول اللّه تعلى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ موطِّئَةٌ للقسَمِ[3]، فهي تدُلُّ على قسَم محذوفٍ، والتَّقديرُ: واللّهِ لئِنْ سألتَهُم...، وهذا الضَّرْبُ مِنَ التَّأكيدِ يُراد به التَّأكيدُ على الجوابِ التّالي للقسَم.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ:

تَشْويقُ المُتَلَقّي لِانْتِظارِ الجَوابِ القاطِعِ

في التَّعبير بالجُمْلة الشَّرطيَّة في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إيماءٌ إلى معنى التَّحدّي والإلزام بالحَقِّ، فالجملةُ الشَّرطيَّة مبنيَّةٌ على شرطٍ مُفترَضٍ لا يُحتاجُ إلى

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 150، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 179.
(3) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 399.

وُقوعِهِ لتأكيدِ الجوابِ؛ إذِ الجوابُ معروفٌ ومتيقَّنٌ، وإخراجُ هذا المعنى في قالَبِ الشَّرط يَبعَثُ في نفسِ المُتَلَقّي شَوْقًا لانتظارِ الجوابِ الذي لا مفرَّ مِنْهُ.

كما أنَّ في التَّعبير بالشَّرط إيماءً إلى تَكرارِ السُّؤال، وإقرارِ المُشْرِكينَ بالجَواب في أوقاتٍ مُتباينةٍ، ممّا يَقْتَضي المُبالغَةَ في تَوْبيخِهِم لأجْلِ تَناقُضِهم بينَ الإقْرارِ بِرُبوبيَّة اللّه تعالى وبينَ الإشْراكِ بِهِ في ألوهيَّتِه.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ (إنْ) دونَ (إذا):

كُفْرُهُمُ الظّاهِرُ مَعَ وُضوحِ الحَقِّ وأدِلَّتِهِ

جاء التَّعبيرُ في جُمْلَةِ الشَّرط بـ (إن) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ دون (إذا)؛ لأنَّ (إنْ) تدُلُّ على الشَّكِّ في وقوعِ الشَّرط، بخلاف (إذا) فإنّها دالَّة على القَطْع والجَزْم بِوُقوعِ مَدْخولِها، والشَّكُّ المُستَفادُ من (إن) راجِعٌ إلى وُقوعِ السُّؤال لا في الجَواب، فالسُّؤال قد لا يَقَعُ باعْتِبار أنَّ جوابَهُ مَعْروفٌ ومَحْسومٌ سلفًا.

وفي التَّعبير بـ (إن) إيماءٌ إلى الإنكارِ عليهم؛ حتَّى كأنَّ السُّؤال عن أمرٍ معلوم مِمّا لا يُحتاج إليهِ، وهذا يَقْتَضي النِّداءَ عليهم بالتَّناقُض العَظيم والكُفرِ المُسْتَبين مع ظُهورِ الحقِّ ووُضوحِه.

دِلالَةُ الاِسْتِفْهامِ في الآيَةِ:

تَهافُتُ قَوْلِ المُشْرِكينَ في إنْكارِ الألوهيَّةِ

﴿مَّنْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ اسمُ استفهام، والاستفهامُ هَهُنا تقريريٌّ[1]، يُراد به إلجاءُ المُخاطَب إلى الإقرارِ بِما يعرفُهُ؛ ليُلْزَمَ بما يترتَّبُ عليهِ؛ إذِ الجَوابُ معروفٌ في أذْهان المشركين، ويَلْزَمُ من هذا الاستفهام التَّقريريِّ توبيخُ المخاطَبين؛ لأنَّ فيه استدعاءً لحقيقةٍ لا يتأتّى لَهُم إنكارُها، مِمّا يجعَلُ الاستفهامَ تأكيدًا للاحتجاجِ عليهِم وإظهارًا لتَهافُت قولِهم في إنكارِ الألوهيَّة.

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 399.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

الإقرارُ بالرُّبوبيَّةِ والإشراكُ في العُبوديَّةِ غايَةٌ في التّناقُضِ

(اللّامُ) في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ واقعةٌ في جواب القسم، يُراد بها توكيدُ الفِعْلِ المُضارع بعدَها، وذلك دالٌّ على تحقُّق ذلك القولِ مِنْهُم حالَ سُؤالِهم، مِمّا يُؤَكِّد تناقُضَهُم الّذي سيقَتِ الآياتُ لبيانِهِ؛ إذْ جَمَعوا بينَ الإقْرارِ للّه تعالى بالرُّبوبيَّة، والإشراكِ معَهُ في العِبادَة.

فائِدَةُ تَوالي مؤكِّدين:

تَوْبيخُهُمْ عَلى تَرْكِهِمْ إفْرادَ اللهِ سُبْحانَهُ بِالعِبادَةِ

توالى مُؤَكِّدانِ (اللّامُ والنّون) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق القولِ مِنْهُم حالَ سُؤالِهم، واعترافِهم يقينًا بأنَّ اللّه تعالى هو الخالِقُ، وهذا أدْعى لتَوْبيخِهِم لعَدَم التِزامِهم بإفْرادِ اللّه تعالى بالعِبادة.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

الاعْترافُ سَيِّدُ الأدِلَّةِ فيجبُ انحصارُ العُبوديَّة به

الاسْمُ الأحسَن ﴿ٱللَّهُۚ﴾ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ، تقديرُه: اللّهُ خَلَقَهُنَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: هوَ اللّهُ[1]، والجملةُ على هذينِ التّقديرَينِ اسميَّةٌ تفيدُ الثّبوتَ، وإنْ كان على جعلِ خبرِها فِعلًا تفيدُ الحدوثَ بالنَّظرِ إليه.

وفي هذا الحذفِ اختصارٌ وإيجازٌ مع استيفاءِ المَعْنى، وفيه متابعَةٌ لتَلَقّي المُخاطَبِ، حيثُ يُمَكِّنُه إكمالُ المَعْنى في ذِهنه، ممّا يقوّي انتباهَهُ، وليكونَ التَّعويلُ في السّياق على الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾، وما فيه مِن مَعاني الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾:

أثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في إبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقّي وشَوْقِهِ

فُصلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لوُقوعِه استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ هذهِ الجُملة واقعَةٌ موقعَ جوابٍ عَن سؤالٍ مُتقدِّم، فإنَّ قولَ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 555.

اللّه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ يبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ حاصلهُ: إذا أجابوا عن هذا السُّؤال وأقرّوا بأنَّ اللّه سُبْحانَهُ هو الخالقُ، فَما الَّذي يُقالُ لَهُم؟ فجاء الجوابُ في قولهِ تَعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾، كما أنَّ بينهما كمالَ الانقطاع؛ إذ حُكي قولُهم بأسلوبٍ خبريٍّ، وأُمِرَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم بأسلوبٍ إنشائيٍّ.

دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿قُلِ﴾:

وُجـوبُ صَـرْفِ الحَمْدِ الكامِلِ للهِ تَعالى

فعلُ الأمر ﴿قُلِ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ يُراد به الإرشادُ إلى حَمْدِ للّه تعالى لإلزامِهم على إقرارِهم بأنَّ الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ هو اللّهُ سُبحانَه وحدَهُ، وأنَّ الحمدَ يجِبُ أنْ يكونَ مَصروفًا له[1].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ لِلاستغراق[2]، إذِ الحمدُ في الحقيقةِ كُلُّه له؛ إذْ ما مِن خير إلّا واللّهُ سُبحانَهُ موليهِ بواسِطَةٍ أو بِغَيْرِ واسِطَةٍ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ:

اسْتِحْقاقُ اللهِ تَـعالى الحَـمْدَ قَبْلَ أنْ يَحمَدَهُ الخَلْقُ

جملةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ، وأوثِرَت على الجُمْلَة الفِعْليَّة (أحْمَدُ اللّهَ)؛ لأنَّ جملةَ (أحْمَدُ اللّهَ) يوهِمُ أنَّ قائلَها قادرٌ على تَوْفيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾؛ فإنّه يُفيدُ استحقاقَ اللّهِ تعالى الحَمْدَ قَبْلَ أن يحَمَدَهُ الخَلْقُ، كما أنَّ جملةَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ دالَّةٌ على اسْتِحْقاقِ اللّهِ سُبْحانَهُ الحَمْدَ، بخلافِ جملةِ (أحْمَدُ اللّهَ)؛ فَلا تَدُلُّ على ذلك، واللَّفظُ الدّالُّ على استحقاقِ اللّه تعالَى الحَمْدَ أولَى مِنَ اللَّفْظِ الدّالِّ على حَمْدِ الأفْرادِ لَهُ.

---

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 555 - 556.

(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 401.

وفي التَّعبير بالجُمْلَةِ الاسْميَّة أيضًا دلالةٌ على الثُّبوت والاستمرارِ بالقرائنِ، بخلاف جملة (أحمدُ اللّه)؛ فإنَّها جملة فعليَّة تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ، كما يُطابقُ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ جوابَهم عنِ السُّؤالِ بالجملةِ الاسميَّة.

ثُمَّ إنَّ في جملةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ مِنَ الاِسْتِغْراق لأنواع المَحامِدِ ما لَيْسَ في (أحمد اللّه).

مَعْنى (اللام) في ﴿لِلَّهِۚ﴾:

(اللّامُ) في ﴿لِلَّهِۚ﴾ مِن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ لِلاسْتِحْقاق؛ وذلك لِوُقوعِها بينَ مَعْنًى وهو الحَمْدُ، وذاتٍ وهو اللّهُ سُبحانه، وذلك يقتضي كونَها للاسْتِحْقاقِ[1].

مَعْنى ﴿بَلْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾:

نَفْيُ العِلْمِ عَنْهُمْ ذَمٌّ بالِغٌ لَهُمْ

﴿بَلْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للإضراب، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ؛ إذْ ما قبلَهُ مِنَ الحَمْدِ الوارد في قولهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ باقٍ لم يُعْرَض عنهُ ولم يُلْغَ، ففي الإضراب انْتقالٌ ممّا تقدَّم مِن حمدٍ للّه على انْتِصارِ الحقِّ، وإقرارِهم بما هو حجَّةٌ عليهِم، إلى ذَمِّهم بنَفْيِ العِلْمِ عَنْهُم، والمَعْنى: لا يَعْلَمون بأنَّ ذلك حُجَّةٌ عليهم[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالأكْثَرِيَّةِ:

شُيوعُ الجَهْلِ في أهْلِ الإشْراكِ

في التَّعبير بالأكثَريَّة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى شُيوع الجَهْلِ في أهْلِ الشِّرك، وفي ذلك أيضًا فتحٌ لبابِ التَّوبة والرُّجوع لَهُم إلى الحقِّ؛ حيثُ يَتوهَّم كلُّ واحدٍ مِنْهُم أنَّه ليس داخِلًا في هذه الكَثْرَة، فيكونُ ذلكَ داعيًا لَهُ للانْقيادِ إلى الحَقِّ.

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 403.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المَنفيّ:

دَوامُ اسْتِمْرارِهِمْ عَلى الجَهْلِ المُبِينِ

جاء التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ المنفيّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى الدَّوام والاسْتِمْرارِ، والمقصودُ اسْتِمْرارُ النَّفْيِ، لا نَفْيُ الاسْتِمْرار؛ لأنَّ مقامَ الذَّمِّ يقتضي وصفَهُمْ بِاسْتمرارِهم على عَدَمِ العلم، وعلى فُشوِّ الجَهْلِ فيهم، وإنَّما نَفَى العلْمَ عن أكثرِهم؛ لأنَّهم يَعترفونَ ويُقرّونَ بأنَّ اللّهَ خلقَ كلَّ شيءٍ، ومع ذلك يُشركونَ به آلهةً يَزعُمونَها، وهي من مَخلوقاته ومفتقرةٌ إليه وُجودًا، وبذلك يُساوونَ بينَ الخالقِ والمخلوقِ، ومُستحِقِّ العِبادة ومَن لا يَستحِقُّها، وذلك دليلُ نفيِ العلْمِ عن أكثرِهم.

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

أَثَرُ الحَذْفِ في عُمومِ المَعنى

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإرادةِ العموم، إذْ حَذْفُ المعمولِ مُشْعِرٌ بذلك، والتَّقديرُ: لا يعلمونَ شيئًا مِنَ الأشياء، ولذلك هُم لا يَعمَلون بمُقْتَضى إقْرارِهم برُبوبيَّة اللّه سُبحانه[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ الفعلُ المُتَعدّي نُزِّل منزلةَ الفِعلِ اللّازم، فلا يُقدَّر له مفعولٌ بِهِ أصلًا، والمَعْنى: بَل أكثَرُهم لَيْسوا مِن ذَوي العِلْم.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، وفي سورة لُقْمان: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقَدِ اخْتَلَفتِ الآياتانِ من وجْهَيْن:

أحدُهما: في انْفِرادِ آيةِ العَنْكبوتِ بزيادَةِ ذِكْرِ تَسْخيرِ الشَّمسِ والقمر.

والآخرُ: فيما ذُيِّلت به كُلُّ آيةٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 75.

فأمّا الأوَّلُ؛ فقد جاءتْ آيةُ العنكبوتِ بزيادة تسخير الشَّمس والقمرِ؛ وذلك لأنَّه تقدَّمها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]، فكان السّياق متعلّقًا بتَعْدادِ نِعَمِ اللّه سُبْحانَهُ على العبادِ، فناسبَهُ مَزيدُ ذكرٍ لها، فنُصَّ على تسخيرِ الشَّمسِ والقمر، فقالَ تَعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ [العنكبوت: 61].

وأمّا آيةُ لُقْمانَ؛ فقد سبقَها قولُ اللّه ﷻ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، فلما كان السّياقُ أكثرَ تَعَلُّقًا بالتَّهديد؛ ناسبَهُ عدَمُ ذِكْرِ تسخيرِ الشَّمس والقمَر[1].

وأمّا الوجهُ الثّاني فاختلفَ تَذْييلُ الآيتَيْن؛ لانْبِناءِ ذلكَ على تَرْتيبِ السّور في القُرآن الكريم، فإنَّ اللّه سُبْحانَهُ لَمّا ذكر حالَهم لو سُئِلوا عَن خَلْق السَّماوات والأرض وتسخيرِ الشَّمسِ والقمر، وذلك مِمّا لا إشكالَ فيه لِمَنْ وُفِّق؛ قال ﷻ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، أي: كيف يُصرَفونَ عَن هذهِ الدّلالة معَ وُضوحِها وظُهورها، ثُمَّ لَمّا جاءتْ سورةُ لُقْمانَ عقَّب اللّهُ تَعالى آيتَها بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فتممَّتِ المرادَ بالآية الأولى، وكان حاصِلُ مَجْموعِ الآيتَيْن: كيفَ يُصْرَفونَ معَ بيانِ الأمْرِ؟ ما ذلك إلّا لِمَنْعِهِم عَن العِلْمِ[2].

(1) سعد عبد العظيم محمد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 774 - 775.

(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 392.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

[لقمان: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ الدَّليلِ عَلى كَمالِ أوصافِ اللهِ تَعالى

لَمّا أثْبَتَ اللهُ ﷻ لنفسِه الإحاطةَ بأوصافِ الكَمالِ؛ شَرَع يورِدُ الدَّليلَ على ذلك، فقال سُبْحانَهُ مُبَيِّنا أنَّ ما أخبرَ أنَّه قد خلقَهُ؛ فهو مِلْكٌ لهُ، فقال تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: (غني) تدور كثيرٌ من اشْتِقاقاتِه على مَعْنَى الكِفايَةِ، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[2]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإجْزاءُ[3].

والغَنيُّ من أسْماءِ اللهِ تَعالى: الذي لَهُ الغِنى التّامُّ المُطْلَقُ من كُلِّ الوُجوه؛ لِكَمالِهِ وكَمالِ صِفاته التي لا يَتَطَرَّق إلَيْها نَقْصٌ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوه، ولا يُمْكِنُ أن يكونَ إلّا غَنيًّا، وذلكَ لأنَّ غِناهُ من لَوازِمِ ذاتِه، كَما لا يكونُ إلّا مُحْسِنًا جَوادًا برًّا رحيمًا كَريمًا، والمَخْلوقاتُ كلُّها لا تَسْتَغْني عنهُ في أيِّ حالٍ مِن أحْوالِها، فهي مُفْتَقِرَةٌ إليه افتقارًا ذاتيًّا في إيجادِها، وفي بَقائِها، وفي كُلِّ ما تَحْتاجُه أو تَضْطَرُّ إليه[4].

2) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: (حمد) تدُلُّ اشْتِقاقاتُه على ضِدِّ الذَّمِّ، ومنه الحَمْدُ، وحقيقتُه أنَّه: "الثَّناء باللِّسان على الجميل، سَواءٌ تعلَّق بالفَضائلِ كالعِلْم، أم بالفَواضِلِ كالبِرِّ"[5]، أي: سواءٌ تعلَّق بالجَميل اللّازِمِ أوِ المتعدّي.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(4) القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 99.
(5) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.

ومِنْ أصحِّ ما قيل في معناه ما قالهُ ابْنُ سيدَهْ: "الحَمد هو الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيل"[1].

وقريبٌ منه ما قرَّره ابنُ تيميَّة الحفيدُ مِنْ أنَّ الحمدَ: الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ معَ المحبَّةِ له[2].

والحَميدُ مِن أسماءِ اللّهِ تَعالى فيهِ وجْهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ بِمَعْنى المَحْمود، فيَكونُ اسْمُه الحميدُ فعيلًا بِمَعْنى مَفْعولٍ، أي: هوَ محمودٌ، وذلك لأنَّ جميعَ المَخْلوقاتِ ناطِقَةٌ بِحَمْدِه، ولأنَّه سُبْحانَهُ يُحْمَدُ عَلى ما لَهُ مِنَ الأسْماءِ الحُسْنى والصِّفاتِ الكاملَةِ العُلْيا[3].

والآخَر: أنْ يَكونَ بِمَعْنى الحامِدِ، فيكونُ اسْمُه الحَميدُ فعيلًا بِمَعْنى (فاعل)، أي: هو حامِدٌ، وذلكَ لأنَّهُ سُبْحانَهُ يَحْمَدُ مَن يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

إفْرادُ اللهِ تَعالى بِالمُلْكِ والحَمْدِ

للّه كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرضِ من شَيْءٍ مِلْكًا كائنًا مّا كان ذلك الشَّيءُ من وثَنٍ وصَنَم وغيرِ ذلكَ، ممّا يُعْبَدُ أو لا يُعْبَدُ، وإذا كان هو المالِكَ لِذَلِكَ؛ فلا يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلّا هو، إنَّ اللّهَ هو الغَنيُّ عَن جميعِ خَلْقِه؛ لأنَّهُم مِلكُهُ ولَهُ، وهوَ سُبْحانَه المحمودُ على كُلِّ حالٍ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

إبْرازُ المُلْكِ المُطْلَقِ للهِ تَعالى

فُصل قولُ اللّه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِما بينَهُما مِن كمالِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ هذه الآيةَ نُزِّلت منزلةَ بدَلِ الاشْتِمالِ

(1) ابنُ سيدَهْ، المُخصَّص: 5/ 231 - 232.
(2) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/ 259.
(3) ابنُ القيم، الكافية الشافية، ص: 204، وأحمد بن إبراهيم، توضيح المقاصد: 2/ 216.
(4) ابنُ عثيمين، تفسير جزء عم، ص: 128.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 151، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

مِنَ الآيةِ قَبلَها؛ وذلك لأنَّ اللّه سُبْحانَهُ لَمّا تحدَّث عن خَلْقِ السَّماوات بغير عمدٍ، وإلقاءِ الرَّواسي في الأرضِ، وإنزال الماءِ مِنَ السَّماء، ثُمَّ قال بعدُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وكان الجوابُ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ دلَّ ذلك على أنَّ له سُبْحانَهُ ما في السَّماوات والأرض مُلْكًا، إلّا أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أوفى دلالةً على هذا المَعْنى مِنَ الأولى؛ لِما اشْتَمَل عليهِ مِن خُصوصيّاتٍ زائدة[1]، ويحتملُ النّظمُ الكريمُ أنَّه فُصِلَ عن قوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ لئلّا يُتوهَّمَ أنّه من جملةِ ما طُلِبَ قولُهُ لهم، فدلَّ الفصلُ على الاستقلالِ عمّا قبلَهُ، وأنَّها ليست داخلةً ضمنَ مقولِهِ لهُم.

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

(اللّام) في ﴿لِلَّهِ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ تدلُّ على المُلكِ، أي: إنَّ جميعَ ما في السَّماوات وما في الأرضِ للّه سُبْحانَه مُلْكًا، لا يَشْرَكُه في شَيْءٍ مِنْها أحدٌ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ:

اخْتِصاصُ اللهِ تَعالى بِكُلِّ ما في السَّماواتِ والأرْضِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِلَّهِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، وأصلُ الكَلام: ما في السَّماوات والأرض للّه تَعالى، وهذا التَّقديمُ يدُلُّ على القَصْرِ والاخْتِصاص، أي: كُلُّ ما في السَّماوات والأرض مختصٌّ باللّهِ سُبحانَهُ مملوكٌ لهُ لا يُشاركُهُ فيه أحدٌ، مِمّا نَعْلَمُه ومِمّا لا نَعْلَمُه، وقَصْرُ ذلكَ كُلِّهِ عليهِ قَصْرًا حقيقيًّا تَحْقيقيًّا[2].

مَعْنى ﴿مَا﴾ ومَوْقِعُها الإعْرابيُّ:

عَجزُ العِبادِ عَنِ الإحاطَةِ بِخَلْقِ اللهِ تَعالى

﴿مَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ اسمٌ موصولٌ، وذلكَ دالٌّ على العُمومِ، وفيهِ دِلالَةٌ أيضًا عَلى الخَفاء

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 375.
(2) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 405.

والكَثْرَةِ، وذلكَ يَقتضي عَجْزَ الإنسانِ، وعدمَ قُدْرَتِه على الإحاطَةِ بِما خلقَهُ اللّهُ سبْحانه أو حَصْرِه.

كما أنَّ في الاسمِ الموصولِ تأكيدًا على عَظمةِ الجانبِ الخفيِّ الذي لَم يَبْلُغْهُ إدراكُ الإنسانِ(1)، كما توحي الاستطالةُ لحرفِ المدِّ بالسَّعةِ والامتدادِ لذلك المُلك، الَّذي لا يُحصَى ولا يُدرَكُ كثرةً.

دلالةُ جُملةِ الصِّلة:

عَظَمَةُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وامْتِدادُ سُلْطانِهِ

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وجُملَةُ الصِّلة فيها دِلالةٌ على سَعَةِ مُلك اللّهِ سُبْحانَهُ وشُموليَّته، وذلكَ يَعْكِسُ عظمَةَ القُدْرَةِ الإلهيَّة وامْتِدادَ سُلْطانه ﷻ على الكَوْنِ كُلِّه.

نُكْتَةُ فَصْلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

كَمالُ غِنى اللهِ تَعالى وكَمالُ افْتِقارِ العِبادِ إلَيْهِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ لكونه مُنَزَّلًا منزلَةَ النَّتيجةِ ممّا قبلَهُ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فاللّه سُبْحانَهُ الذي يَمْلِكُ كُلَّ ما في السَّماوات وما في الأرضِ، وكُلُّ ذلك تَحْتَ ملكِه وتحتَ تَصَرُّفه المُطْلَق؛ فَهو غَنيٌّ عن كُلِّ ما سِواه، لا يحتاج إلى شَيْءٍ مِن خَلْقِه، بَلِ الخَلْقُ جميعُهُم مُفْتَقِرون إليه، وهو مَعَ غِناهُ المُطلق محمودٌ عَلى كمالِ صِفاته وأفعاله، فاسْتَحَقَّ الحمدَ مِن جميعِ الخَلائقِ.

فائِدَةُ التَّأكيدِ في جُمْلَةِ التَّذْييل:

تَأكيدُ غِنى اللهِ سُبْحانَهُ وحَمْدِهِ الكامِلَيْنِ

صُدِّرت جملةُ التَّذييل بـ ﴿إِنَّ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مَعَ اسميَّةِ الجُملة وضميرِ الفصلِ وتعريفِ الطّرفين؛ للتَّأكيدِ على مَضْمونِها وتثبيتِه في نُفوسِ المُخاطَبين؛ وهو غِنى اللّه سُبحانَهُ المُطْلَقُ وحمدُهُ الكامِلانِ.

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 405.

بَلاغَةُ القَصْرِ ونَوْعُهُ وغَرَضُهُ:

التَّأكيدُ على انْفِرادِ اللهِ ﷻ بالغِنى الكامِلِ والحَمْدِ المُطْلَقِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أسلوبُ قَصْر، وذلكَ بِتَعْريفِ طَرَفَي الإسناد، فالمُسْنَدُ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ وهو أعرَفُ المَعارفِ، والمُسْنَدانِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ معرَّفان باللّام، وهو قصرُ قَلْب، والمَعْنى: ليسَ لآلهتهم المزعومةِ غِنًى ولا تستحِقُّ حمدًا[1]، ففيه رَدٌّ على اعتقادِ المُشْرِكين الَّذين يَنْسِبونَ الغِنى والحَمْدَ لآلِهَتِهِم، مَعَ التَّأكيدِ على انْفِرادِ اللّه ﷻ بالغِنى الكامِلِ والحَمْدِ المُطْلَقِ.

دِلالَةُ الضّميرِ ﴿هُوَ﴾:

تَثْبيتُ المَعْنى في أذْهانِ المُتَلَقّين

﴿هُوَ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ ضميرُ فصلٍ، عُبِّر به تأكيدًا لأُسْلوبِ القصرِ، لا إنشاءً له، وذلكَ لأنَّ القصرَ حاصِلٌ بتَعْريفِ طَرَفَي الجُمْلَة، وضميرُ الفَصْلِ تأكيدٌ لِهَذا القَصْرِ وتَثْبيتٌ لهُ في أذْهانِ المُخاطَبينَ.

نُكْتَةُ تَذْيِيلِ الآيَةِ بالاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾:

الفَقْرُ الذّاتيّ لِلعِبادِ إلى رَبِّهِمْ سُبْحانَهُ

في خَتْم قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ بالاسْمَيْنِ الكَريمَيْنِ إيماءٌ إلى عدَمِ حاجَةِ اللّهِ سُبْحانَه إلى عبادِه؛ لعمومِ مُلكِه كُلَّ ما في الكَوْنِ، وإلى أنَّه كثيرُ المَحْموديَّة بلِسانِ حالِ الكائِناتِ كُلِّها، أو هو حميدٌ في ذاتِه من غيْرِ حَمْدِ العِبادِ لَهُ.

وفي خَتْمِ الآيةِ بالاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ أيضًا إيحاءٌ بفَقْرِ العِباد، واحْتياجِهِم إلى اللّهِ سُبْحانَهُ وغِناهُ وحَمْدِه؛ لِما يَتَرتَّب عَلى ذلكَ مِن فَوائِدَ لَهُمْ.

غَرَضُ تَقْديمِ اسْمِ اللهِ تَعالى ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾:

غِنى اللهِ ﷻ مِنْ أوصافِهِ الجَليلَةِ التي يُحْمَدُ عَلَيْها

ذُكِر اسْمُ اللّهِ تَعالى ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ بَعْدَ اسمه ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ لبَيانِ أنَّ غِناهُ ﷻ غِنًى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 180.

يُحمَدُ عليه، بخِلافِ غِنى المَخْلوقِ، فَقَد يُحمَدُ عليه وقد لا يُحمَدُ؛ إذْ لا يُحْمَدُ المَخْلوقُ عَلى غِناه إذا كانَ بَخيلًا، وإنّما يُحمدُ عليهِ إذا بذلَ، واللّهُ ﷻ غَنيٌّ حميدٌ، فَهو لَم يَسْألِ العبادَ شُكْرَ النِّعم لحاجَتِه إلى ذَلِكَ، وإنّما لمَصْلَحَتِهم هُمْ، ولعلَّ التّقديمَ لـ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ لمناسبةِ اعترافِهم بأنَّه خالقُ السَّموات والأرض، ومَن كانَ خالقًا لكلِّ شيءٍ فهو الغنيُّ عنه، في حينِ أنَّ المعبوداتِ الباطلةَ مخلوقةٌ له، فليسَتْ غنيّةً في وجودِها وتحقُّقِها، وأمّا التّأخيرُ لـ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ فلأنَّه يجبُ عليهم بعدَ الاعتراف بخالقيَّته وغِناه أنْ يتوجَّهوا له بالحمدِ كما أمرَ النّبيَّ الكريمَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

فائِدَةُ تَعْريفِ الِاسْمين الكَريمَيْن:

لله كمالُ الغِنى والحمدِ

في تَعْريفِ الاسْمَيْنِ الكَريمَيْنِ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ إيماءٌ إلى كَمالِ وصْفِ الغِنى والمَحْموديَّة للّه ﷻ، وأنَّه غِنًى مطلقٌ لا يتطرَّق إليه نَقْصٌ بوَجْهٍ مِنَ الوُجوه، وهو سُبْحانَهُ مَحْمودٌ على كلِّ حالٍ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ:

كَمالُ مَحْموديَّةِ اللهِ تَعالى وغِناهُ

في التَّعْبيرِ بصيغةِ فعيلٍ عنِ الاسمينِ الكريمينِ ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وهُما على زِنَةِ أمْثِلَةِ المُبالَغَةِ؛ إشْعارٌ بِكَمالِ غِناهُ ومَحْموديَّتِهِ بِلِسانِ حالِ الكائِناتِ كُلِّها، ويَدْخُلُ في ذلكَ الكافِرُ به، كَما قالَ اللّهُ سُبْحانَه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرعد: 15][1].

ويحتملُ أنّهما صفتانِ مُشَبَّهتانِ دالّتانِ على ثُبوتِ وصْفِ الغِنى لَهُ سُبْحانَهُ ودوامِ الحمدِ له.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 153.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٧﴾

[لقمان: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا مُنْتَهى لِكَمالِ صِفاتِ اللهِ تَعالى وأفْعالِهِ

لَمّا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ غناهُ ومَحْموديَّتَه في قولِه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وكان الغَنيُّ رُبّما قَد يكونُ مالُه محصورًا، والمحمودُ قَد يكونُ ما يُحْمَدُ عليهِ مَضْبوطًا ومُنْحَصرًا؛ بيَّن سبحانَه أنَّه على خلافِ ذَلِكَ، وأنَّه لا حدَّ لغناهُ، ولا مُنْتَهى لِكَمالِ صِفاتِه وأفعالِه الموجِبَة لحَمْدِه والثَّناء عليه، فقالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقْلَٰمٌ﴾: (قلم) تَدورُ اشْتِقاقاتُه عَلى تسويَةِ شَيْءٍ وتعديلِه عِنْدَ بَرْيِه وإصْلاحِه، ومِنْ ذلك قولُهُم: قَلَمتُ الظُّفْرَ أو قَلَّمْتُهُ، ويُقالُ للرَّجُلِ الضَّعيفِ: مقلومُ الأظْفارِ، والقُلامَةُ هيَ ما يسقُطُ منَ الظُّفر عندَ تَقْليمِه، ومِن هذا المَعْنى أُطلِق اسمُ القلَمِ على الأداةِ التي يُكْتَب بها؛ لأنَّه يُقلَم كما يُقْلَمُ الظُّفْر[2].

2) ﴿يَمُدُّهُۥ﴾: (مدّ) تدلُّ اشْتِقاقاتُه عَلى جَرِّ شَيْءٍ في طول، واتِّصالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطالَة[3]، والمَدُّ: الجَذْبُ والمَطْلُ والإمْهالُ والزِّيادةُ[4]، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: يزيدُه ويَنْصَبُّ فيه[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مد).
(4) ابن سيده، المُحْكَمُ والمحيط الأعظم: (مدد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (مدد).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 121.

3) ﴿نَفِدَتْ﴾: (نفد) تدُلُّ تَصْريفاتُه على انْقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه، يُقال: نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نفادًا؛ وأنْفَدوا: إذا نَفِدَ زادُهم، أو نَفِدَتْ أموالُهم[1]؛ وخَصْمٌ مُنافِدٌ: إذا خاصَمَ ليُنْفِدَ حُجَّةَ صاحبِه، يُقالُ: نافَدْتُه فنَفَدْتُه[2]؛ واسْتَنْفَدَ وُسْعَهُ، أي: اسْتَفْرَغه؛ وأنْفَدَتِ الرَّكيَّةُ: ذَهَبَ ماؤُها[3]؛ والمقصودُ بالنَّفادِ في الآية: الانْتِهاءُ والذَّهابُ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عَظَمَةُ كَلِماتِ اللهِ تَعالى وامْتِدادُ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ

ولَو أنَّ أشجارَ الأرْضِ كُلّها بُريت أقلامًا والبَحْرُ مدادٌ لَها، ويُمَدّ بسبعَةِ أبْحُرٍ أُخرى، وكُتِبَتْ بتلك الأقلام وذلك المداد كلماتُ اللّه سُبحانَهُ من عِلْمِه وحِكَمِه، وما أوحاهُ إلى مَلائِكَتِه ورُسُله؛ لتَكسَّرت تلك الأقلامُ، ولنَفِد ذلك المِداد، ولَم تَنْفَدْ كلماتُ اللّهِ التّامَّةُ التي لا يُحيطُ بها أحدٌ، إنَّ اللّهَ ﷻ عزيزٌ في انتقامِه ممَّن أشرك بِه، حَكيمٌ في تَدْبيرِ خَلْقِه[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا﴾:

(الواوُ) في ﴿وَلَوۡ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها كلامٌ مستأنَفٌ سيقَ تَنْبيهًا على أنَّ معانيَ كلامِ اللّه ﷻ لا تَنفَدُ[6].

مَعْنى (لَوْ) في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا﴾ ودِلالَتُها:

عَــــدَمُ نَـفـادِ كَـلِـماتِ الـلـهِ تَعالى بِحالٍ مِنَ الأحْوالِ

صُدِّرت هذهِ الآيَةُ بـ (لَو) وهيَ هَهُنا ليسَتْ حرفَ امْتِناعٍ لامتناعٍ، وإنَّما هي (لَو) المَشْهورَةُ بَيْنَ النَّحويّين بـ (لو) الصُّهَيْبيَّةِ، وذلك

(1) الخليل بن أحمد، العين: (نفد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نفد).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نفد)، والراغب، المفردات: (نفد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نفد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 182.
(5) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.
(6) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 556.

لاشْتِهار التَّمثيلِ بها عِنْدَهُم بما يُروى عَن عُمَرَ رضي الله عنه أنَّه قال: "نِعْمَ العبدُ صُهَيْبٌ، لَو لَم يَخَفِ اللّهَ لَم يَعْصِه"، والتي تُستعْمَل لإرادَةِ الدّلالَةِ على أنَّ مضمونَ الجَزاء مُستَمِرُّ الوُجود في جَميع الأزْمِنَة والأحوالِ عندَ المُتَكَلِّم، فتأتي جُملةُ الشَّرط مُتَضَمِّنَةً الحالَ الّتي هيَ مَظِنَّةٌ أن يَخْتَلِف مضمونُ الجَزاء عندَ حُصولِها، فالمَقصودُ مِن قولِ عُمَرَ: انتفاءُ عِصْيانِ صُهَيْبٍ رضي الله عنه في جميع الأزمِنَة والأحوالِ، حتّى في حالِ أمْنِه مِن غضبِ اللّهِ تعالى، وليسَ المقصودُ أنَّه لَو خافَ اللّه عَصى، ولكنَّ المُرادَ أنَّه لو فُرِضَ عدَمُ خوفِه لَمَا عَصى.

وعلى هذا فَيكونُ دُخولُ (لَو) في الآيَة: عدمَ انتهاءِ كلماتِ اللّهِ سُبْحانَه، حتّى في حالِ ما لَو كُتِبَت بماءِ البَحْر كُلِّه، وجُعِلَت أعوادُ الشَّجر جميعُها أقلامًا، كَما يَدُلُّ دخولُها على أنَّ مضمونَ الجَزاء حاصِلٌ قَطْعًا، سواءٌ فُرِض حصولُ مضمونِ شَرْطِها أو فُرِض انتِفاؤُه[1].

مَعْنى (أنَّ) وبَيانُ اسْمِها وخَبَرِها:

تَرسيخُ مَضْمونِ الجُمْلَةِ في أذهانِ المُخاطَبين

(أنَّ) من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ حرفُ توكيدٍ ونصبٍ، واسْمُها: هو الاسْمُ المَوْصولُ (ما) في (أنّما)، و(أقْلامٌ) خبرُها، وتأكيدُ الجُمْلَةِ بـ (أنَّ) فيها تَرْسيخٌ لِمَعْنى الجُمْلَةِ في قُلوبِ المُتَلَقّين، والتَّعبيرُ بالجُمْلَة الاسْميَّة يَزيدُ مَضْمونَ الجُمْلَة توكيدًا، والاسمُ الموصولُ دالٌّ على العُموم الشّاملِ لجميع ما في الأرضِ من أشجار، وهذا العمومُ مُتناسِقٌ معَ إرادةِ التّمثيلِ، الّذي يتلاءمُ مع الكليّةِ المقصودةِ للحُكم.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ (أنَّ) واسْمِها وخَبَرِها:

ثُبوتُ مَضْمونِ الجُمْلَةِ ثُبوتًا قَطْعيًّا

(أنَّ) واسْمُها وخبَرُها مِن قولِ اللّهِ جل جلاله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ لفِعْلٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: (لو ثبَتَ

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 412 - 413.

أنَّ الّذي في الأرْضِ ... إلخ)، وفي حَذْفِ الفِعْل تعزيزٌ للمعنى وتركُ فرصةٍ للمُتَلَقّي ليتأمَّل المحذوفَ، مِمّا يُضْفي على التَّركيب قوَّةً إيحائيَّة ويُؤَكِّدُ يقينًا ثبوتَ مَضْمونِ الجُمْلَةِ القُرآنيَّة.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تَخْصيصُ المَعْنى بَعْدَ إبْهامِهِ

﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ صلةٌ لـ (ما) لا محلَّ لها مِنَ الإعراب، وهذا التَّركيبُ يُسْهِمُ في تَخْصيص المَعْنى بَعْدَ إبْهامِه؛ إذِ الاسْمُ المَوْصولُ مُبْهَمٌ يفتَقِرُ إلى بَيانٍ، وتدلُّ الظّرفيّةُ على الاتّساعِ المكانيِّ لذلك العمومِ المُستفاد مِن (ما)، بحيثُ يشملُ جميعَ ما على الأرض، فلا يختصُّ بأقليمٍ أو مساحةٍ حتّى كأنَّ الأرضَ كلَّها مغطّاةٌ بالأشجار.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اسْتِغْراقُ أفْرادِ الأرْضِ

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قول اللّه تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ دالَّةٌ على الاستغراق، فتَشْمَلُ جميعَ أفرادِها المُنْدَرِجة تحتَها[1]، فتكون الآيَةُ شامِلَةً لجَميع ما تَحْتَويهِ الأرْضُ، وفي ذلك تَصْويرٌ عظيمٌ يُبْرِزُ سَعَةَ أوصافِ اللّهِ سُبْحانَهُ.

مَعْنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾:

البَيانُ بَعْدَ الإبْهامِ

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ للبيانِ، وذلكَ لِما في الاسْمِ المَوْصولِ (ما) مِنَ الإبْهام، فجاءَت ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بِمَنْزِلَةِ التَّمْييز[2]، وذكرُ الشّيءِ مُبهمًا ثمَّ العودةُ إلى بيانِهِ تشويقٌ للسّامعِ وتحقيقٌ لمزيدٍ مِنَ الإصغاء.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ ﴿شَجَرَةٍ﴾ و﴿أَقْلَٰمٌ﴾:

الدّلالَةُ عَلى العُمومِ والشُّمولِ

نُكِّرت لفظتا ﴿شَجَرَةٍ﴾ و﴿أَقْلَٰمٌ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ لإفادَةِ العُمومِ والشُّمول، مِمّا يَقْتَضي أنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 182.

كُلَّ شجرَةٍ عَلى وجْهِ الأرضِ مَهْما كان نوعُها لَو تَحَوَّلت إلى أقلام؛ لَما أمْكَنَها تدوينُ كلماتِ اللّه تَعالى كُلِّها وعجائبِ خلقِهِ وعظيم حِكمتِه.

نُكْتَةُ إفْرادِ ﴿شَجَرَةٍ﴾:

اسْتِغْراقُ المُفْرَدِ أشْمَلُ مِن اسْتِغْراقِ المُثَنّى والجَمْع

أُفْرِد لفظُ ﴿شَجَرَةٍ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ للمبالغةِ في إفادةِ الشّمول؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ اسْتِغْراقَ المُفردِ أشمَلُ، أو أنَّ إفرادَ لفظِ ﴿شَجَرَةٍ﴾ لإرادةِ تَفْصيلِ الشَّجرِ واستقصائِه، فكأنَّه قال: كُلّ شجرَةٍ شجَرةٍ حتّى لا تَبْقى مِن جِنْسِ الشَّجرِ واحدةٌ إلّا وقَد بُريت أقلامًا[1].

مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾:

أثَرُ الإعْرابِ في تَنْويعِ المَعاني

(الواوُ) في ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ عاطفةٌ (البحرُ) على (أنَّ) وما في حيِّزِها، والتَّقديرُ: (ولَو أنّ البَحْرَ، أو ولَو ثبَتَ البَحْرُ ... إلخ).

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، و(البَحْرُ) مبتدأً، خبرُه ﴿يَمُدُّهُۥ﴾، والجُمْلَةُ في محلِّ نصبِ حالٌ، والتَّقديرُ: ولو أنَّ الّذي في الأرضِ مِن شجَرٍ أقلامٌ حالَ كونِ البحرِ مَمْدودًا بِسَبْعَةِ أبْحُرٍ[2].

مَعْنى (أل) في ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾:

(أل) في ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ للعَهْدِ العِلْميّ، والمرادُ: المحيطُ؛ لأنّه المُتَبادرِ مِنَ التَّعريفِ؛ إذْ هو الفَرْدُ الكامِل[3].

دِلالَةُ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ مادّةً وصيغَةً:

بَيانُ سَعَةِ كَلِماتِ اللهِ سُبْحانَهُ

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 501، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 296.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 68.
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان: 10/ 296.

﴿بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾؛ لِما يدُلُّ عليهِ مِنَ الزّيادة والاستِمْرار، وهو أنسَبُ لبَيان سَعَةِ كَلماتِ اللّه تَعالى، ولذا عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ للدّلالَةِ على الدَّوام والاستِمْرار؛ وأنَّ الزّيادة في الماءِ ليسَتْ حدَثًا يَحْدُث مرَّةً واحدَةً، بَل هو أمْرٌ مستَمِرٌّ، واختارَ النّظمُ الكريمُ لفظًا دالًّا على المدَدِ والمِداد؛ لأنَّ الأقلامَ إنَّما تكتبُ بالمِداد، أي: إنَّ البحر العظيمَ لو تحوّلَ إلى مدادٍ يُمَدُّ بسبعةِ أبحُر.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بالظَّرْفِ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

تَعْزيزُ الصّورَةِ الذِّهْنيَّةِ لِلزّيادَةِ والتَّوَسُّعِ

جاءَ التَّعبيرُ بالظَّرف ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من قول اللّهِ سُبْحانَه: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾؛ للدّلالَةِ على الفاصِل الزَّمنيّ بينَ الفِعْلَيْن، ممّا يُعَزِّز الصُّورَةَ الذِّهنيّةَ للزّيادةِ والتَّوسُّع، و﴿مِنۢ﴾ تؤكِّد هذا المَعْنى وتُقَوّيه، وإنَّما استعملَ النّظمُ الكريمُ البَعديّةَ دونَ الورائيَّة؛ لأنَّ البَعديَّة منَ البُعدِ والابتعاد، فتدلُّ على اتّساعِ كلِّ بحرٍ؛ بخلاف الورائيّة التي تدلُّ على عدمِ سِعَةِ تلك الأبحُر، فهي بِحارٌ مُتباعدةٌ وليستْ متقاربةً ممّا يدلُّ على اتّساعِها وعظمتِها وعظيمِ بُعدِها.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾:

﴿سَبۡعَةُ﴾ من قول اللّه تَعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ فاعلٌ للفِعْلِ ﴿يَمُدُّهُۥ﴾، وهو مُضافٌ و﴿أَبۡحُرٖ﴾ مضافٌ إليه، وهو تمييزٌ لهُ؛ لِما في العَدَدِ مِنَ الإبهام في الذّاتِ.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بالعَدَدِ ﴿سَبۡعَةُ﴾:

كَمالُ أوصافِ اللهِ ﷻ

عُبِّر بالعدَدِ ﴿سَبۡعَةُ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾؛ لأنَّه يُسْتَعْمَلُ كنايةً عنِ الكَثْرَة، فلَيْسَ لهَذا العدَدِ مَفْهومٌ في هذا السّياق، والمَعْنى: والبَحْرُ يمُدُّه من بعدِهِ أبحُرٌ كثيرةٌ، وهذا أدَلُّ على كمالِ صِفاتِ اللّه تعالى وأنَّه لا مُنْتَهى لكَلِماته سُبْحانَه(1).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 128، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 420، وابن عاشور: 21/ 182.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لجملةِ: ﴿مَّا نَفِدَتۡ﴾:

لا مُنْتَهى لِكَمالِ صِفاتِ اللهِ تَعالى

﴿مَّا نَفِدَتۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ جوابُ (لَو)، فلَيْسَ لَها مَحَلٌّ مِنَ الإعراب، وفي الجوابِ المنفيّ دِلالَةٌ على عظمَةِ صِفاتِ اللّه تَعالى، وأنَّه لا مُنْتَهى لِكَمالِها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿نَفِدَتۡ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

كَمالُ الصِّفاتِ الإلَهيَّةِ أمْرٌ ثابتٌ مُحَقَّقٌ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿نَفِدَتۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾؛ لِما تَدُلُّ عليه هذهِ المادَّةُ مِنَ الانْقِطاعِ والانْتِهاءِ، مِمّا يوحي بكَمالِ صِفاتِ اللّه سُبْحانَهُ، وأنَّ كلماتِ اللّه ﷻ مَهْما كُتِبَت واسْتُقْصيَت؛ فإنَّها لَن تَصِلَ إلى النِّهاية.

وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي ﴿نَفِدَتۡ﴾ دِلالَةٌ على مَعْنى التَّحقُّق والتَّأكيد، مِمّا يُرَسِّخُ في ذِهْنِ المُتَلَقّي بأنَّ هذه الحقيقةَ ثابتَةٌ لا تَقْبَلُ الشَّكَّ.

دِلالَةُ إضافَةِ الكَلِماتِ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾:

العَجْزُ عَنْ إدْراكِ القَليلِ عَجْزٌ عَنْ إدْراكِ الكَثيرِ مِنْ بابٍ أولى

أُضيفَ لَفْظُ ﴿كَلِمَٰتُ﴾ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ تعظيمًا لها وتفخيمًا[1]، ولذا أوثِر التَّعبيرُ بـ ﴿كَلِمَٰتُ﴾ وهيَ جمعُ قلَّةٍ دون (كَلِم) وهو جمعُ كثرةٍ؛ للدّلالةِ عَلى العَجْزِ عن ذلكَ القليلِ، فيُفْهَم منهُ العجزُ عنِ الكَلِم مِن بابٍ أولى وأحْرى[2]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ بكلماتِ اللّه تعالى علمَهُ ومَعلوماتِه؛ إذِ الكلماتُ تدلُّ على العِلْم وتَستلزِمُه، فيكون هنالك مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه الدّاليَّةُ والمدلوليَّة؛ وسعةُ المعلومات تدلُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 197.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 501.

على الإحاطةِ والقوّة معَ الإتقانِ في الخلقِ، فيتناسبُ مع ذيلِ الآية المختومةِ بالاسمين الكريمين: (العزيز الحكيم).

نُكْتَةُ فَصلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

تَعليلُ عَدَمِ نَفادِ كَلِماتِ اللهِ تَعالى

فُصِل قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصال، فهو جوابٌ عَن سُؤال يُفْهَمُ مِنَ الجُمْلَةِ قبلَهُ، فكأنَّ سائلًا سألَ عَن عِلَّةِ عدَمِ نَفادِ كلماتِ اللّهِ ﷻ، فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، فالجُمْلَةُ تعليلٌ لعَدَمِ نفادِ كَلماتِهِ سُبْحانَهُ[2].

دِلالَةُ التَّوْكيدِ في جُمْلَةِ التَّذْييلِ:

ثُبوتُ أوصافِ اللهِ تَعالى ودَوامُها

ذُيِّلتِ الآيةُ الكريمَةُ بقولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وصُدِّرت بالتَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّ اللّه سُبْحانه لَمّا ذكَرَ عدمَ نفادِ كَلِماتِه حتّى مع فَرْضِ أنَّ أشجارَ الأرضِ كُلَّها جُعِلَت أقلامًا، والبحرُ يُمَدُّ بأبحُرٍ عديدةٍ؛ أثارَ ذلك في نَفْسِ المُتَلَقّي استشرافًا وتَطَلُّعًا لمعرفَةِ السَّببِ في ذلكَ، فجاءَ التَّأكيد في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]، وعُبِّر بالجُمْلَةِ الاسميَّة لإفادَةِ ثُبوتِ مَضْمونِ الجُملة ودوامِ اتِّصاف اللّه تَعالى بصِفَتَي العِزَّة والحِكْمَة.

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بِاسْمَي: (العَزيزِ والحَكيم):

كَمالُ عِزَّةِ اللهِ سُبْحانَهُ وحِكْمَتِهِ

ذُيِّل قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ باسْمَيْن كَريمَيْن وهُما: (العزيزُ والحَكيم)؛ لِمُلاءَمَتِهما مضمونَ الجُملة قَبْلَهُما؛ فهو عزيزٌ كاملُ القوَّة والقُدْرَة، فَمَقْدوراتُه لا نِهايةَ لَها، وهو حكيمٌ كاملُ الحِكْمَة والعِلْم، فتَحَقَّق أنَّ البحرَ لَو كانَ مدادًا لَما نَفِدَ ما في عِلْمِه وقُدْرَته[4].

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 415.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 99.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 99.
(4) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 414.

نُكْتَةُ تَقْديمِ (العَزيزِ) عَلى (الحَكيمِ):

الإتْقانُ والإحْكامُ ناشِئانِ عَنِ العِلْمِ

قُدِّم اسْمُ اللّهِ تَعالى (العَزيز) عَلى اسمِه (الحكيم) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ من بابِ تَقْديمِ السَّبَبِ عَلى المُسَبَّب، وذلكَ لأنَّه سبحانه عزَّ فحكمَ، وهو كَتَقْديمِ العَليمِ عَلى الحَكيمِ؛ لأنَّ الإحْكامَ والإتْقانَ ناشِئانِ عَنِ العلْمِ[1].

نُكْتَةُ المُبالَغَةِ في الاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ:

اللهُ ﷻ شَديدُ العِزَّةِ عَظيمُ الحِكْمَةِ

في بِناءِ اسْمَيِ اللّهِ تَعالى (العَزيز والحَكيم) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ علَى أمثلَةِ المبالغَةِ دِلالَةٌ على شدَّةِ العزَّة وعظيمِ الحِكْمَة؛ إذِ العِزَّةُ والحِكْمَةُ مِن أوصافِ اللّهِ تَعالى، وأوصافُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لِكَمالِها.

(1) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية: 2/ 183.

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ بَعْضِ آثارِ صِفَتَيِ العِزَّةِ والحِكْمَةِ للهِ تَعالى

لَمّا خُتِمَتِ الآيةُ المُتقدِّمةُ بالاسمينِ الكريمَينِ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بعدَ إثباتِ كمالِ صِفاتِ اللهِ تعالى وأنَّه لا مُنْتَهى لِكَمالِها؛ ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ بعضَ آثارِهِما في البَعْثِ الذي تقدَّم أوَّلَ السّورةِ وأثناءَها إلى أنْ حَذَّرَهُم بِهِ في قولِه ﷻ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾؛ فقالَ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَنَفۡسٖ﴾: (نفس) تدلُّ تَصْريفاتُه على خُروجِ النَّسيمِ كيفَ كانَ؛ من ريحٍ أو غيرِها، والنَّفسُ: الدَّمُ؛ وذلكَ أنَّه إذا فُقِدَ الدَّمُ من بَدنِ الإنسانِ؛ فَقَدَ نفسَهُ[2].

وتَرِدُ النَّفْسُ مُعبَّرًا بها عنِ الإنسانِ، والعَيْنِ، والرّوحِ، والدَّمِ، والجسَدِ[3]، والمُرادُ بالنَّفسِ في الآيةِ: الإنسانُ.

2) ﴿سَمِيعُۢ﴾: (سمع) تدُلُّ تَصْريفاتُه على إدْراكِ الأصواتِ، والسَّمْعُ في حَقِّ المَخْلوقِ: إيناسُ الشَّيْءِ بالأُذُنِ، والسِّمْعُ: الذِّكْرُ الجَميلُ[4]، والمِسْمَعُ: الأُذن، والمَسْمَعُ: الموضعُ الذي يُسمَعُ مِنْهُ، من قَوْلِهم: هوَ مِنّي بمَرأًى ومَسْمَعٍ؛ أي: حَيْثُ أراهُ وأسمعُ كَلامَه[5].

والسَّميعُ مِن أسماءِ اللهِ تَعالى له معنيانِ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 198.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(3) الجوهري، تاج اللغة: (نفس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سمع).

أحدُهما: بمَعْنى المُجيب، والآخَرُ: بِمَعْنى السّامعِ للصَّوت.

أمّا السَّميع؛ بمعنى المُجيب، فكَقَوْلِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39]، أي: لَمُجيبُ الدُّعاء.

وأمّا السَّميع بمَعْنى إدْراكِ الصَّوت؛ فإنَّه ثلاثةُ أقسام: **الأوَّل**: سَمْعٌ يُراد به بيانُ عُموم إدراكِ سَمْعِ اللّه ﷻ، وأنَّه ما مِن صوتٍ إلّا ويَسْمَعُه اللّهُ تعالى، كما قالَ سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، **والثّاني**: سَمْعٌ يُراد به النَّصرُ والتَّأييد، كقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]، **والثّالث**: سَمْعٌ يُرادُ بِهِ الوَعيدُ والتَّهديد، كما قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: 80][1].

3) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) تدلُّ أكثرُ اشْتِقاقاته على العِلْم بالشَّيء، يقال: هو بصيرٌ به، أي: عليمٌ[2]، ومِنْهُ إطلاقُ البصَرِ على الإدراكِ بالعَيْنِ والإدراكِ بقوَّةِ القَلْب؛ إذْ بِكِلَيْهما يحصلُ العلمُ[3].

والبصيرُ فعيلٌ بمعنَى مُفْعِلٍ، مثلُ أليم بمعنى مُؤلم[4]، والبصيرُ مِنْ أسْماءِ اللّه تَعالى: الذي أحاطَ بَصَرُهُ بِجَميعِ المُبْصَراتِ في أقطارِ الأرْضِ والسَّماوات[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

دِلالَةُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ الشّامِلَةِ

ما خَلْقُكُم أيُّها النّاسُ ولا بَعْثُكم يوم القيامَةِ إلّا كخَلْقِ نفسٍ واحدَةٍ وبعْثِها، وذلكَ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لا يتعَذَّر عليهِ شَيْء أرادَهُ، ولا يَمْتَنِعُ منهُ شيءٌ شاءَهُ، فسواءٌ خلقُ واحدٍ وبعثُه، وخلقُ الجميعِ وبَعْثُهُم، إنَّ اللّهَ سُبحانَهُ سميعٌ لأقوالِكُم، بصيرٌ بأعمالِكُم، وسَيُجازيكُم عَلَيْها[6].

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 1/ 206 - 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بصر).
(4) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(5) السّعديّ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 174.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 153، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 413.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فَصْلِ الآيَةِ عَنْ سابِقَتِها:

كَشفُ شُبهاتِ المُشرِكينَ

فُصِل قولُ اللّه تَعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا مُتَعَلِّقًا بقولِه قبلُ: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾، وذلك لأنَّه كُلَّما ذُكِر أمرُ البَعْثِ والنُّشور؛ هَجَس في نُفوسِ المُشْرِكين استحالَةُ إعادَةِ الأجْسام بعدَ اضْمِحْلالِها، فجاءَ الجوابُ عَن ذَلِك بقَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾، وهذا كثيرٌ في القُرآن الكريم أن يُعقَّبَ ذِكْرُ البَعْث بالتَّنبيه على إمْكانِه وتَقْريبِه[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآيَةِ:

مواجَهَتُهُم بِالاستِدلالِ المُفحِمِ

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ التِفاتٌ مِنَ الغَيْبة إلى الخِطاب؛ وذلكَ لأنَّ اللّه سُبْحانَهُ قالَ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، فكان مُقْتَضى الظّاهر أنْ يَرِدَ النَّظمُ القُرآنيُّ: (ما خَلْقُهُم ولا بَعْثُهُم إلّا كَنَفْسٍ واحِدة)، والنُّكْتَةُ في الالتِفاتِ إلى الخِطاب قصدُ مُجابَهَتِهِم بالاسْتِدلالِ المُفْحِم[2].

بَلاغَةُ القَصْرِ ونَوْعُهُ وغَرَضُهُ:

الرَّدُّ على المُشرِكينَ في إنكارِهِم قُدرَةَ اللهِ سُبحانَهُ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُ القَصْر: النَّفيُ والاسْتِثْناءُ، وفيه: قَصْرُ خلق العِباد وبَعْثِهم على كَوْنِهما كخَلْقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِها، وذلكَ في سُهولة التَّأتّي بالنِّسبة إليه سُبْحانَه.

وهذا القَصْرُ مِن قَصْرِ المَوْصوف على الصِّفة قَصْرًا إضافيًّا؛ وهو قصرُ قلبٍ؛ إذْ قُلِبَ على المُخاطَبين اعْتِقادُهُم في إنكارِ قُدْرَة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 183.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 184.

اللّه سُبْحانَهُ على ذلكَ الإحياءِ والبَعْثِ[1]، وإنَّما جمعَ الخلقَ معَ البعثِ في القصرِ معَ أنَّ الخلقَ لا يُنكرونَه بدليل ما تقدَّم منَ الاعترافِ والإقرارِ؛ لأنَّ ذلك من إقامةِ الدّليلِ عليهم؛ إذ إيمانُهم بأنَّ اللّه خالقُ السّمواتِ والأرض وإنكارَهم البعثَ يَستدعي الغرابةَ والتّعجُّب، فأرادَ لفتَ انتباهِهم إلى سببِ الحُكم عليهم بأنَّهم لا يعلمونَ؛ إذ آمنوا بالخالقِ وأنكروا قُدرتَهُ على البعثِ والإحياءِ بعدَ الموت.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿خَلۡقُكُمۡ﴾:

ثُبوتُ البَعْثِ ثُبوتًا قَطْعيًّا

﴿خَلۡقُكُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ مرفوعٌ على أنَّه مُبْتَدأ، خبرهُ: مُتعلِّقُ الجارّ والمجرورِ ﴿كَنَفۡسٖ﴾، وفي التَّعبير بجُمْلَة القَصْر اسميَّةً للدّلالةِ عَلى دَوامِ قُدْرَةِ اللّه تَعالى وثباتِها، وتُثْبِتُ يقينًا حقيقةَ الخَلْقِ والبَعْثِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ البَعْثِ عَلى الخَلْقِ:

بَيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ

عُطِفَ البعثُ على الخَلْقِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّرابُط بينَهُما باعْتِبارِهِما جُزْأيْنِ مِن دَوْرَةِ الوُجود، فَهُما يَدُلّان على قُدْرَةِ اللّه سُبْحانَه؛ حيثُ إنَّ الخَلْقَ يُمَثِّلُ البدءَ، والبعثَ يُمَثِّلُ الاستئنافَ بعدَ الموتِ، كما أنَّ ذِكْرَ عظيمِ قُدْرَةِ اللّهِ ﷻ في الخَلْقِ والبعثِ؛ يَدُلُّ على عَظيمِ قُدْرَتِه سُبْحانَه فيما بينَ ذلك؛ لأنَّ القاعِدَةَ المُتَقَرِّرة أنَّ البَيْنَ مُسْتَحضَرٌ في الطَّرفَيْن، وكان العطفُ بتَكرارِ حرفِ النّفي لمزيدٍ منَ التّوكيد؛ إذِ البعثُ هو محلُّ الإنكار والإبطال، فكرّرَ معه حرفَ النّفيِ للدّلالةِ على أنَّه يحتاجُ لمزيدٍ منَ التّوكيدِ بتَكرارِ النّافي، وأضافَ الخلقَ والبعثَ إلى ضميرِ المخاطَبين الدّالِّ على الجمعيَّة؛ للدّلالةِ على استعظامِهم عمليّةَ الخلقِ والبعث، فيرونها كبيرةً مع أنَّها كنفسٍ واحدةٍ.

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 417 - 418.

مَعْنى الكافِ في قَوْلِهِ: ﴿كَنَفْسٍ﴾ وبَلاغَةُ التَّشْبيهِ:

اسْتِواءُ القَليلِ والكَثيرِ في جانِبِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى

(الكافُ) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ دالَّةٌ على التَّشْبيهِ، واخْتيرَتِ الكافُ دونَ (مِثْل)؛ لأنَّ المَقْصودَ هو مُطْلَقُ المُشابَهَةِ بينَ الفِعْلَيْنِ في مُطْلَقِ الوُقوعِ والوُجودِ، أي: تَشْبيهُ الخَلْقِ حالَ كَوْنِه واقِعًا عَلى جَميعِ النّاس، بالخَلْقِ حالَ كَوْنِه واقِعًا على نَفْسٍ واحِدَة، والبَعْثِ حالَ كونِه واقِعًا على النّاسِ جميعًا بالبَعْثِ واقِعًا على نَفْسٍ واحِدَةٍ؛ في السُّهولَةِ واليُسْرِ[1].

وذلك لأنَّ خَلْقَ نَفْسٍ واحدةٍ هذا الخَلْقَ التّامَّ الكاملَ؛ يَدُلُّ على قُدْرَةٍ كاملَةٍ تامَّةٍ لخالِقِها ﷻ، فإذا كانَ كاملَ القُدْرَة؛ اسْتَوى في جانِبِ قُدْرَته القَليلُ والكَثيرُ، والبَدْءُ والإعادة[2]، والّذي يظهرُ أنَّ هذا التّشْبيهَ بالنّسبةِ لنا عندَما نصنعُ أشياءَ متعدّدةً فنقول: إنَّ صُنعها كصُنْعِ واحدٍ منها لا يحتاجُ إلى تعَبٍ ومشقّة، وإلّا فإنَّ اللّه تعالى يخلقُ النّفوس ويبعثُها دون مشقّةٍ حتى في خلقِ النّفس الواحدةِ وبَعثِها؛ إذ عالَمُ الموادّ خاضعٌ لإرادتِه وقُدرتِه.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ (نَفْسٍ):

سُهولَةُ أمْرِ الخَلْقِ والبَعْثِ عَلى اللهِ ﷻ

نُكِّرت كلمةُ (نَفْس) في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّحْقيرِ والتَّقليلِ؛ ففي التَّنْكيرِ إشارَةٌ إلى تَقْليلِ شأنِ الخَلْقِ والبَعْثِ بالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ الكامِلَةِ العُظْمى، وذلك يَقْتَضي سُهولَةَ الأمْرِ عليهِ سُبْحانَهُ.

نُكْتَةُ وصفِ النَّفْسِ بِكَوْنِها واحِدَةً:

لا يَشْغَلُ اللهَ تَعالى شَأنٌ عَنْ شَأنٍ

وُصِفَتِ (النَّفْسُ) بِكَوْنِها واحدَةً في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾؛ لإرادَةِ التَّأكيدِ على سُهولَةِ الخَلْقِ والبَعْثِ حالَ كونِهِ واقعًا على النّاس جميعًا، فنِسْبَةُ

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 418.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 183.

القَليل والكَثيرِ إلى قُدْرَتِه سُبْحانَه عَلى حدٍّ سواء؛ لأنَّه تَعالى لا يَشْغَلُه شأنٌ عن شَأنٍ[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

بَيانُ كَمالِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وعِلْمِهِ الشّامِلِ

فُصِل قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوُقوعِه موقِعَ التَّعليل، وذلك لبَيانِ كمالِ القُدْرَة على الخَلْقِ البَديع اسْتِدْلالًا بإحاطَةِ عِلْمه تَعالى بالأشْياءِ وأسْبابِها وتَفاصيلِها، ومِنْ شأنِ العالم أنْ يتصرَّفَ في المَعْلومات كَما يشاءُ؛ وإذْ قَد كانَ المُشْرِكون مُسَلِّمينَ بأنَّ اللّهَ سُبْحانَه يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ؛ جعَلَ تسليمَهُم ذلك وسيلةً إلى إقْناعِهِم بِقُدْرَتِه ﷻ على كُلِّ شيءٍ[2].

فائِدَةُ التَّوْكيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ:

إحاطَةُ اللهِ تَعالى بِأفْعالِ المُكَذِّبينَ وأقْوالِهِمْ

أُكِّد قولُ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجُمْلَة؛ لأنَّ تكذيبَهُم للنَّبيِّ ﷺ ورَدَّهُم لما شرَّفهم به؛ يتضَمَّنُ إنكارًا أنْ يكونوا بِمَرْأى مِنَ اللهِ ﷻ ومَسْمَعٍ، فأُكِّدَ دفعًا لِذَلِكَ[3].

نُكْتَةُ تَذْيِيلِ الآيَةِ بِاسْمَيِ اللهِ تَعالى: السَّميعِ والبَصيرِ:

بَيانُ إحاطَةِ اللهِ سُبْحانَهُ الكامِلَةِ بِخَلْقِهِ

خُتِم قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بالاسْمَيْنِ الكَريمَيْن: السَّميع والبَصير، معَ أنَّ المناسبَ في بادِئ الرَّأي أن تُذَيَّل الآيةُ بِذِكْرِ القُدْرَة أو ما يَرْجِعُ إليها؛ والنُّكْتَةُ في ذلكَ: الاسْتِدْلالُ بأنَّ تَعَلُّق عِلْمه وبَصَره وسَمْعه بشيءٍ ما؛ لا يُنافي تَعَلُّقه بجميع ما عداهُ، على أنَّ ما يَرْجِعُ إلى القُدْرَة والفِعْل هوَ كذلكَ[4]، ويمكنُ أنْ يكونَ ذكرُ خصوصِ الاسمَين؛ لأنّ إنكارَهم البعثَ قد ظهرَ جليًّا في أقوالِهم وأفعالِهم؛ إذِ ارتكبوا كلَّ محرَّم وانتهكوا كلَّ جُرم دالٍّ على إنكارِ البعث وعدم الاعتراف به، فكان ذكرُ السَّمع بيانًا لإحاطة اللّه بإنكارهم القولي، والبصرِ برؤية اللّه تعالى لأفعالهم المكذِّبةِ بالبعث.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 198، وعلي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 418.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 184، وعلي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 418 - 419.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 198.

(4) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 141.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ:

اللهُ ﷻ شَديدُ السَّمْعِ عَظيمُ البَصَرِ

في بِناءِ اسْمَي اللّهِ تَعالى (السَّميع والبَصير) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ علَى أمثلَةِ المبالغَةِ دِلالَةٌ على شدَّةِ السَّمْعِ وعظيمِ البصرِ؛ إذِ السَّمعُ والبِصَرُ مِن أوصافِ اللّهِ تَعالى، وأوصافُه سُبْحانَهُ لا مُنْتَهى لِكَمالِها.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الاِسْمَيْنِ:

عُمومُ سَمْعِ اللهِ تَعالى وبَصَرِهِ

حُذِفَ مُتعلّقُ الاسمَيْنِ الكَريمَيْنِ (السَّميع والبَصير) مِن قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ لإفادَةِ العُموم، وذلكَ لأنَّ حَذْفَ المُتَعَلّقِ مُشْعِرٌ بذَلِك، والمَعْنى أنَّه سُبْحانَه يَسْمَعُ كُلَّ صوتٍ ويَرى كُلَّ شيءٍ، لا يَشْغَلُه شيءٌ مِنْها عَن غيْرِه[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْقُ والبَرْءُ:

بَيْنَ الخَلْقِ والبَرْءِ عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

الفِعْلُ (خَلَقَ) يدورُ معناهُ في أصلِ اللُّغة على مَعْنَيَين؛ أوَّلُهُما: تقديرُ وُجودِ الأشْياءِ قبلَ وُجودِها، والآخَر: إيجادُ الشَّيءِ على مِثالٍ لم يُسْبَقْ إليه.

وأمّا الفِعلُ (بَرَأ)؛ فيدُلُّ في أصلِ اللُّغة على الخَلْقِ على غَيْرِ مثالٍ سابِقٍ، ولِهَذا اللَّفظِ مِنَ الاخْتِصاص بخَلْقِ الكائِنات الحَيَّة ما ليسَ لِغَيْرِها، وقَلَّ اسْتِعْمالُه في غَيْرِ الحَيوان، فيُقال: بَرَأَ اللّهُ تعالى النَّسَمَةَ، وخَلَقَ السَّماوات والأرضَ.

فالخَلْقُ والبَرْءُ يشتَرِكانِ في إيجادِ الأشْياءِ، ويَخْتَصُّ البَرْءُ بتمييزِ الأشياءِ بَعْضِها من بعضٍ بإعْطائِها هَيْئاتٍ متفاوتَةً لتتبايَنَ، ويختصُّ الخَلْقُ باستعماله في معنى التَّقْدير، فيكون بينَ اللَّفْظَيْنِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ[2].

---

(1) علي، سورة لقمان: دراسة بلاغية: 2/ 419.

(2) داود، معجم الفروق، ص: 120 - 122.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين قدرة اللهِ على الخلقِ والبعثِ وتسيير الزَّمنِ والكواكبِ

لمّا ذَكَر ﷻ في الآية السّابقة سعةَ قدرته الَّتي استوجبتِ استيعاب الأنفسِ جميعًا في بعثِها وإعادتها، كما لو كانت نفسًا واحدة، وكان ذلك كنايةً عن هوانِ شأن البعث بالنِّسبة لواسع قدرته؛ ذكر هنا في هذه الآية مِثالًا مشهودًا لهم على وفْقِ كيفيَّة البعث، وهو إيجادُ اللَّيل والنَّهار، ثمَّ إعادة كلٍّ منهما كلَّ يوم بعد انسلاخ أحدهما من الآخر كلَّ مرَّةٍ، ما بقيت الحياة، ثمَّ ذَكَرً تسخيره للشَّمس والقمر بقدرته، والشَّمس والقمر أكبر منهم، وهو سبحانه أكبر منهم ومن جميع خلقه، أفيُعجِزُه بعد ذلك أن يُسَخِّرَ أبدانَهم بعد هلاك مادَّتها بالموت فيُعيد إلى تلك الأبدان أرواحها، فيبعثهم كما خلقهم أوَّل مرَّةٍ؟ فكما لا يُعجزه تسخير الأكبر (الشَّمس والقمر)؛ لا يعجزه تسخير الأصغر بإعادة ذواتهم إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على دُخولِ شيءٍ[2]، يُقالُ: ولجتُ البيتَ ألِج ولوجًا؛ إذا دَخلته، والمَوْلِج إلى الشَّيء: المدخلُ إليه[3]، والإيلاجُ: الإدخال، وقال الرّاغب: إنَّه الدُّخول في مضيقٍ، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، وقيل:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 184.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولج).

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ولج).

تفسيرٌ بمُطلق الدُّخول[1]، ثمَّ استُعير لزيادة زمان النَّهار في اللَّيل، وعكسه بحسب المطالع والمغارب[2]، والجمع: وُلُجٌ ووُلُوجٌ[3]، وفيه دليلٌ على قدرة الله تعالى وعظمة خلقه.

والمُرادُ بالإيلاج في الآية: الإدخال، مُثِّلَ بِهِ اختفاءُ ظلام اللَّيل عند ظُهورِ نورِ النَّهارِ وعَكْسِهِ تشبيهًا لذلك التَّصيير بإدخالِ جسم في جسم آخَرَ[4].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصلٌ يدُلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، من ذلك قولُنا: سَخَّرَ اللّهُ ﷻ الشَّيء، وذلك إذا ذُلِّل لأمْرِه وإرادته[5]، قالَ الزَّجّاج: تسخير ما في السَّماوات: تسخير الشَّمْس والقَمَر والنُّجوم للآدميّين، وتسخيرها في الأرْض: تسخير بحارها وأنهارها ودوابِّها، وجَميع مَنافِعها[6]، ويُقال: سَخَرَتِ السَّفينَةُ؛ إذا أطاعتْ، وطابَ لَها السَّيْرُ، وتَسَخَّرْتُ دابَّةً لِفُلانٍ: رَكِبْتُها بغَيْرِ أجْرٍ[7]، ويُقال: سَخِرتُ منه؛ إذا هزِئتَ به[8]، والمقصودُ بالتَّسخير في الآية الكريمة: التَّذليلُ والطّاعةُ.

3) ﴿خَبِيرٌ﴾: أصلُ (خبر) الخُبْرُ، وهو العِلْمُ بالشَّيءِ، والإخبارُ: الإعلامُ[9]، والخَبيرُ: مُبالغةٌ في اسم الفاعلِ من (خبر) المُتعدّي، بمعنى (عَلِمَ)، يُقالُ: خَبَرَ الأمرَ؛ إذا عَلِمه، وجرَّبه، وقد قيل: إنَّه مُشتقٌّ من الخَبَرِ؛ لأنَّ الشَّيء؛ إذا عُلِمَ؛ أمكنَ الإخبارُ به[10]، و(الخَبير) مِنْ أسْماءِ اللّهِ ﷻ: العالمُ بما كانَ وبما يَكُون، وقيل: هُوَ العَليم ببَواطِنِ الأشْياءِ[11]، وهو المعنى المُراد في الآية.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ الحقُّ سبحانه عن بعضِ مظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه بالتَّصرُّفِ والتَّدبير، فيقولُ: لقد رأيتَ، وشاهدتَ - أيُّها العاقل - أنَّ اللّه تعالى يُدخل اللَّيل في النَّهار، ويُدخل النَّهار

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (ولج).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 3/ 130، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/ 72.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 315.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(6) ابن سيدَه، المُحكَم: (سخر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سخر).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 310.
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (خبر).

في اللَّيل، ويزيد في أحدهما، وينقص من الآخر، على حسب مشيئته وحكمته، وذلَّلَ الشَّمسَ والقمَرَ يَجريانِ؛ تَحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم، كُلٌّ مِنهما يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ مُحدَّدٍ مَعلوم، وأنَّ اللّهَ بما تعمَلونَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وهو مُجازيكم عليها[1].

قَدَّرَ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمرَ وكان بالإنسان عليمًا خبيرًا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقِعُ جملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

جملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ تقرَّر به معنًى مستقِلٌّ جديدٌ، وإنِ اشترك مع ما قبله في أصل المناسبة، والمعنى المُراد تقريره من الاستئناف: أنَّ البعث والإعادة كائنان في المخلوقات المشاهدة كاللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، فتوالي هذه المخلوقات في البزوغ والأفول هو نوعٌ من بعثِها لها، وإعادتها بعد غيابٍ وتلاشٍ، وهذا ممّا يُشاهَد في المخلوقات الكبرى، فإذا كان اللّه يقدر على إعادتها بعد خفائها؛ فإنَّه سبحانه أقدر على بعث النّاس بعد اختفاء أجرامهم، وغياب ذواتهم بالموت؛ لأنَّ مَنْ يقدِر على تصريف وإعادة الخَلْق الأكبر، فهو على إعادة الصَّغير أقدَر[2].

إثباتُ إمكانِ ثبوتِ الشَّيءِ بقياسِهِ على ما هو أعظمُ منه

المقصودُ بالخطابِ في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لجميع مَن يصلح له الخطاب، فيُراد به العموم، فهو للمؤمن استفهامٌ تقريريٌّ، وللكافر استفهام إنكاريٌّ، بتنزيله منزلةَ مَن لا يعلم ولا يرى؛ لعدم انتفاعه بما يعلم ويرى، وفي ذلك التَّنزيل استعارة تمثيليَّة بتشبيه هيئة بهيئة، وحالٍ بحال، وجاء الخطاب على ضمير المفرد؛ ليستقلَّ كلُّ فردٍ به؛ إذا

لا طائلَ من عِلمٍ لا يؤدّي إلى تفكُّرٍ في ملكوتِ الله وعظمتِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 577، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 79، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 131.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 184.

تلقّاه، أو لأنَّ الرَّسول ﷺ هو المقصود به أصالةً، وغيره له تبعٌ؛ لأنَّه لا يعلم ذلك من المخلوقين حقَّ عِلْمِهِ غيرُهُ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في السّياقِ المُحكم:

خطابُ الأعلى بما هو من شؤون الأدنى لحضِّه على الاقتداء

الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مجازٌ مرسلٌ، لكونه مُستعمَلًا على غير حقيقته الطلبيَّة، فهو واردٌ في تقرير المؤمنين وتذكيرهم، وتوبيخ الكافرين والتَّسجيل عليهم بالجهالة والضَّلال، وهو في حقِّ الرَّسول ﷺ مقصودٌ به تحقيق عِلمِه الشَّريف، والتَّحضيض بخطابه على اتِّباعه والاقتداء به، والاستفهام في عموم الخطاب به على غير تعيين المخاطَب، محمولٌ على التَّعجيب من تلك الحال البديعة في الخَلْق والتَّسخير، كأنَّه قيل: تعجَّبُوا - أيُّها المُخاطَبون جميعًا - من بديع صُنْع اللّه في شأن اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر[2].

دلالةُ لفظِ الرُّؤيةِ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

بيانُ أنَّ الرُّؤيةَ العِلميَّةَ أثرٌ للرُّؤية البصريّة

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ عِلميَّةٌ، بمعنى العِلم، ولذا تعدَّت إلى مفعولَيْن[3] سدَّ مسدَّهما ﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر[4]، وتركيب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تستعمله العرب بمعنى التَّعجيب من مدخولها، والمقصود من الرُّؤية: النَّظر الَّذي يُورِث العِلم، وهو النَّظر التفكُّريُّ العقليُّ، كأنَّه قيل: ألم ترَ، فتمتدُّ بك الرُّؤية إلى ما ذُكِرَ لك من الأحوال، فتعجَب من هذا الصُّنع الخلّاق؟[5] والمعنى: ألم تعلم - علمًا قويًّا جاريًا مجرى الرُّؤية البصريَّة - أنَّ اللّه تعالى يُدخل كلًّا من اللَّيل في النَّهار في الآخر، فيختلف بذلك حالهما، وقد ذلَّل الشَّمس والقمر، وسخَّرهما لمصالح خلقِهِ طلوعًا وأفولًا، فكان

---

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 354، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 171.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 14.

(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 12.

(4) الخطيب، التّفصيل: 21/ 165.

(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 14.

كلٌّ منهما يجري في فلكه، إلى أجلٍ سمّاه اللّه، وحدَّده، لا يعدوه، ولا يقصر عنه[1]، ولذلك عبَّر بالرُّؤية دون العِلم؛ للتَّنبيه على أنَّ مَدخَلَ هذا العِلم رؤيةٌ بالعين الباصرة، والمُشاهَدَة النّاظِرة، وأمّا العِلمُ؛ فلا يدلُّ على اقترانه لرؤية المُشاهَدة.

سرُّ تتابعِ المؤكِّداتِ في سياقِ الآيةِ:

الحـقُّ المنكَر يحتاج إلى توكيدٍ حتّى يُعرَفَ ويُذكَرَ

أُكِّدت جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ولم يقل: (ألم ترَ اللّه يولج)؛ لأنَّ الآية الكريمة استدلالٌ على إمكان البعث الَّذي أنكروه، وكما أنَّهم أنكروا المُستَدَلَّ عليه، والأمر المنكر يحتاج إلى توكيدٍ، وكذا كان تقرير البعث مسوقًا بتأكيد الحصر عن طريق النَّفي والاستثناء في: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، فكذلك هنا جاء الدَّليل على الإمكان مؤكَّدًا؛ ليتناسب المَقيسُ مع المَقيس عليه في توكيد اللَّفظ، كما تناسب معه في تقرير المعنى وتوكيده[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُولِجُ﴾:

لفظُ الإيلاجِ يدلُّ على التَّغييبِ الكاملِ للشَّيءِ المذكورِ

عبَّر اللّه تعالى بمادَّة الإيلاج في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، أي: "يُدخل ظُلمةَ اللَّيلِ في ضوء النَّهار؛ إذا أقبل اللَّيل، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ، يُدخل ضوء النَّهار في ظلمة اللَّيل؛ إذا أقبل النَّهار، أو: بإدخال جزء أحدهما في الآخر بزيادة اللَّيل أو النَّهار"[3]؛ للدَّلالة على تمحُّض النَّهار في النّور، وتمحَّض اللَّيل في الظُّلمة، فإنَّ الإيلاج يدلُّ على التَّغييب الكامل للشَّيء بحيث لا يُرى شيءٌ منه لانحجابه واختفائه بإحاطة الشَّيء المُولَجِ فيه له[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالإيلاجِ:

الإيلاجُ يدلُّ على تقلُّص الشَّيءِ بقدرِ ما ولج منه في غيره

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ استعارةٌ

---

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 8/ 103.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 199.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 379.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 200.

تصريحيَّةٌ في تشبيه تعاقُب اللَّيل والنَّهار بإيلاج كلٍّ منهما في الآخر بجامع الموالاة في كلٍّ، فالشَّيءُ الَّذي يلج في الشَّيء هو يَليه في الملاصقة والمُجاوَرة والمُتابَعة، أو استعارةٌ تمثيليَّةٌ بتشبيهِ هيئة المُعاقبة بين اللَّيل والنَّهار بهيئة المُوالَجَةِ بين الدَّخيْلَيْن؛ للدَّلالة على أنَّه تَعاقبٌ بتداخُلٍ واندماجٍ وامتزاج، وليس بتوازٍ وتَنابُذ كتعاقب الأشياء المُفترِقة، وعبَّر في الولوج بالفعل المضارع؛ لكونه حدوثًا يتجدَّد في كلِّ يومٍ وليلةٍ[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

تعاقُبُ اللَّيل والنَّهارِ دليلٌ على دقَّةِ نظامِ الواحدِ القهّارِ

(أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ لحقيقة الجنس، وأيضًا لاستغراقهِ، أيْ: كلُّ ليلٍ وكلُّ نهار بحسب كلِّ مَطلَعٍ في كلِّ قُطر، فهو تعالى في فصل الشِّتاء يُطيل اللَّيل، ويُقصر النَّهار، وفي فصل الصَّيف يُقصر اللَّيل ويُطيل النَّهار، والَّذي يفعل ذلك هو الله ﷻ الخالق المُدبِّر للكائنات، وذلك لأجل مصالح النّاس وزراعتهم وراحتهم[2].

نكتةُ تقديمِ إيلاج ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

الضِّدّيَّةُ في الوجود مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ فيه

قُدِّم اللَّيلُ على النَّهار في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ ليدلَّ على سبْق الظُّلمة، وأنَّ النَّهار واردٌ على اللَّيل، فقدَّمه؛ لأنَّ طيَّ ظلمة اللَّيل في الأنوار النَّهاريَّة، فيه تعجيبٌ وتعجيزٌ وإبهارٌ بتبديد النّور للظُّلمات، فمعنى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، أي: إنَّ اللَّيل موجودٌ، ثمَّ هو يدخل بظلمته في أنوار النَّهار، فينحجبُ بها، فهو موجودٌ، ثمَّ يَرِد النَّهار عليه، والحقُّ أنَّ التَّعجيز والتَّعجيب والإبهار ليس في تلاشي الظُّلمة بإدخال اللَّيل في النَّهار فحسب، بل ذلك حاصلٌ من تعاقُب الضِّدَّين (الظُّلمة والنُّور) على نحوٍ متواترٍ مكرور، فالضِّدّيَّة هي الَّتي أبرزت ذلك التَّعجيز، وحقَّقتْ ذلك الإدهاش، ولذا جمع بين إيلاج اللَّيل، وإيلاج النَّهار[3].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 200، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(2) الكتّانيّ، تفسير المنتصر الكتّانيّ: 4/ 185.
(3) ابن جُزي، التّسهيل: 2/ 140.

موقعُ جملة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾:

جملة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ ليجمع بين المُسبَّبِ والسَّبب في حيِّز الاستفهام المُقرِّر للعِلم اليقينيِّ المُستشْهَد به على إمكان البعث في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، فالشَّمسُ هي سبب النَّهار، والقمر هو آية اللَّيل، ويستفيد نورَه من الشَّمس؛ ولذا قُدِّمتْ عليه الشَّمس؛ لكونها سببَ بياضه ومبدأ نورِه، ولأنَّها أعظمُ، وتسخيرها أعظم من تسخيره[1].

مُسخِّرُ الشَّمسِ والقمرِ قادرٌ على هدايةِ قلوب البشر

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَسَخَّرَ﴾:

التَّعبيرُ بالتَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، يدلُّ على نفي الاختياريَّة، والإخضاع المطَّرِد للنِّظام الفوقيِّ والإرادة العلويَّة، فمادَّة التَّسخير تدلُّ على الانقياد التَّكوينيِّ الثّابت، من غير مقاومةٍ بيسرٍ وسلاسةٍ[2].

الكونُ صالحٌ بخضوعِه لله والإنسانُ لا ينصلحُ إلّا بهدايتِه

نكتةُ العدولِ عن المضارعِ إلى الماضي:

مجيءُ الإيلاج بصيغة المضارع، في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وفي التَّسخير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأنَّ تناوب اللَّيل مع النَّهار مُتجدِّدٌ مكرور يحصل في كلِّ يوم وليلةٍ، وأمّا تسخير الشَّمس والقمر؛ فهو يدلُّ على نظام ثابتٍ مُستقرٍّ، تحقَّق، وانقضى، فالتَّسخير تمَّ بالفعل، فلا تجدُّدَ فيه ولا تعدُّد، إنَّما التَّجدُّد في آثاره، وجاء الفعل ﴿يُولِجُ﴾ بصيغة المضارع؛ ليدُلَّ على التَّجدُّد والتَّكرار باستمرار؛ لأنَّ الشَّمس تشرق في مكانٍ، وتغرب في مكانٍ آخر في عموم الكرة الأرضيَّة، وهو أمرٌ مُطَّردٌ يعمل برتابة لا تتغيَّر، والسّياق فيه تقديمُ اللَّيل على النَّهار؛

لا يقعُ التَّسخيرُ إلّا على نظامٍ ثابتٍ مُطَّرِدٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 100.
(2) الراغب، المُفردات: (سخر).

لأنَّ اللَّيل هو الأصل، وهو مخلوقٌ قبل خلق الشَّمس، وفي كلٍّ القرآن يُقدِّم الله اللَّيل على النَّهار؛ لأنَّه الأصل[1]، والتَّسخير هو الانقياد، وصيغة الماضي في التَّسخير تشير إلى استمرارِ وضعٍ ثابتٍ، لا تصرُّفَ فيه بزيادةٍ أو نقص[2].

نكتةُ تقديمِ تسخيرِ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

العجيبُ أولى بالتَّقديمِ على ما دونه منطقًا وواقعًا

قدَّم الخطاب القرآني الكريم الشَّمسَ على القمر في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأنَّه لمّا كانت الشَّمسُ أكبرَ وأعظمَ؛ كانت أعجب، والنَّفس تطلب سببَ الأمرِ العجيب أكثرَ ممّا تطلب سببَ الأمر الَّذي لا يكون عجيبًا[3].

فائدةُ تنوين ﴿كُلّٞ﴾ في السّياق:

التَّخفُّفُ من تكرارِ الواضحِ من أغراضِ الإيجازِ بالحذفِ

التَّنوين في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ﴾ عِوَضٌ عن مضافٍ، والتَّقدير: كلُّ نيِّرٍ أو كلُّ واحدٍ من الشَّمسِ والقمرِ يجري إلى أجلٍ مُسمًّى، فحذف المضاف لإغناء التَّنوين عنه، ولا يخفى ما فيه من الإيجاز والتَّخفُّف عن الإعادة والتَّكرار، ومفاد ذلك أنَّ الشَّمس والقمر يجريان في مدارهما بنظامٍ ثابتٍ مُحكَمٍ إلى الوقت الَّذي حدَّده سبحانه لنهاية سيرهما، وهو يوم القيامة[4]، وحينها تنتهي الرِّحلة، وينقطع الجريُ المُنوَّه به في الآية الكريمة.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَجۡرِيٓ﴾:

كمالُ إرادةِ المخلوقِ في الانقيادِ لإرادةِ الخالقِ

في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ في التَّركيب، كأنَّه شبَّه هيئة الشَّمس والقمر في حركتهما السَّريعة ودورانهما في الفَلَك باطِّرادٍ وإتقانٍ على غير خَرْقٍ واختلالٍ، بهيئة

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 21/ 113.
(2) ابن عادل، اللّباب: 15/ 463، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 200، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 76.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 25/ 131.

ذي الإرادة والاختيار؛ إذا جَرَى لغايته، وسعى لقصده، فكأنَّه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد جعل لهما قصدًا وإرادة، كما يقع لذوي الإراداتِ، فنزَّل الشَّمس والقمر منزلةَ العاقلِ الَّذي يُثْبِتُ لسعيِهِ غرَضًا وغاية.

غرضُ تعديَةِ الجري بالحرفِ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

لكلِّ ساعٍ أملٌ ولكلِّ سعيٍ أجلٌ

تعدَّى الجريُ بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للتَّنصيص على الغايةِ والمستقرِّ، أيِّ: إنَّ جريهما آيلٌ إلى غايةٍ مُحدَّدة لا ينتهي، ولا يتوقَّف إلّا عندها، وهو يوم القيامة الَّذي هو منتهى حركةِ المخلوقاتِ جميعًا.

الانتهاءُ إلى الغاية في منازل الطُّلوع والأفول

أو المُراد: الانتهاء إلى غايتها في منازلِ الطُّلوع والأفول كلَّ يوم وليلةٍ، وخصَّ هذا الموضع بحرف الانتهاء الغائي، ولم يقل: (لأجلٍ مسمّى)، كما في المواضع الأخرى؛ لِمناسبة السّياق، فقد تقدَّم قوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، فذكر الغاية الَّتي تنتهي إليها الخلائق بالبعث؛ فناسب ذلك تعيين غايةِ نظامِ الشَّمس والقمر ببلوغهما الأجل المسمّى - وهو يوم القيامة - فاقتضى التَّعدية بحرف انتهاء الغاية لتلك المناسبة.

فائدةُ ذِكْر قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

لكلِّ مخلوقٍ مَوْتَةٌ بِحَسَبِه تُفضي به إلى تمام رحلته

في تعليق الجري بالغاية في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارةٌ إلى أنَّ لهذا النِّظام الشَّمسيِّ أمدًا مؤقَّتًا، إذا انتهى إليه؛ تعطَّل، كسائر الخلق إذا بلغوا آجالهم؛ قَضَوا، وهو الوقت الَّذي يُؤذِن بانقراض العالم، فربْطُ الجري بالأجل مُوائمٌ للتَّذكير بالبعث، في قوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28][(1)].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَجَلٍ﴾:

الغيوبُ مُبْهَماتٌ لِحكْمةِ اللهِ في سترِ ما هو آتٍ

تنكيرُ لفظِ الأجل في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على بابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.

من إفادة معنى الإبهام، أيّ: أجلٍ منكورٍ غيرِ معلوم، ووصْفُهُ بلفظ ﴿مُّسَمًّى﴾ لم يرفع إبهامه عند السّامع، بل أفاد أنَّه غيرُ مُبهَم في نفْسه، فإبهامُه حاصِلٌ من جهة السّامع مُعلومٌ وظاهرٌ في جهتِهِ العليا عند اللّه، وهو يفيد أنَّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحِكْمَةٍ؛ إذْ هو من صَفَحاتِ الغَيْبِ، قال الشَّعراويُّ: "والأجل هو المدَّة المحدودة للشَّيء، وهي محدودة زمنًا؛ إنْ أردنا ظرفَ الزَّمان، أو محدودة بالمسافة؛ إن أردنا المكان، والمقصود هنا بالأجل: إمّا الأجل النِّهائي لوجود الشَّمس والقمر؛ ثمَّ إذا انشقَّتِ السَّماء؛ كُوِّرتِ الشَّمس، وانكدرت النُّجوم، أو: أنَّ المقصود هنا بالأجل هو للتَّعبير عن عملها اليوميِّ"(1).

نكتةُ بناءِ ﴿مُّسَمًّى﴾ للمفعولِ:

بدءُ عدّاد الأجَلِ في التَّناقصِ مع مباشرةِ كلِّ مخلوقٍ للحياةِ

مجيءُ وصف الأجَل بصيغة اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ دلَّ على ثلاثةِ معانٍ: الدَّلالة على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُهُ بمقدارِه وكيفيَّته، والدَّلالة على الحدَثِ الثّابت، فتسميَةُ الأجل ثابتةٌ دائمة؛ لأنَّها حُكمٌ مَقْضيٌّ، والدَّلالة على الحدوث وهي الفِعليَّة، فهو حادِثٌ في الزَّمنِ الماضي، وباعتبار نشأة الشَّمس والقمر، فأجَلُهما يبدأُ في الحدوثِ معهما.

دلالةُ (الواو) في مطلعِ الآيةِ الكريمةِ:

الإنسانُ كَنودٌ رغم أنَّ الدَّلالةَ على الخبيرِ الموجودِ تملأُ الوجودَ

جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، فكلاهما داخِلٌ في حيِّز الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، فكأنَّه قيل هنا: (ألَمْ تَرَ أنَّ اللّهَ بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ) على اعتبار خصوص الخطاب بالنِّسبة للرَّسول ﷺ، أو عمومه بالنِّسبة للأُمَّة والعالَم، والجملة من عطف النَّتيجة على المقدِّمة؛ لأنَّ مَن شاهد مثل ذلك الصُّنع الرّائق، والتَّدبير الفائق في توالد

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/ 7180.

اللَّيل والنَّهار، ودورة الشَّمس والقمر، لا يكاد يغفُل عن كون صانعه ﷻ محيطًا بجلائل أعماله ودقائقها[1].

بلاغةُ الالتفاتِ لخصوصِ الخطابِ:

المخلوقيَّةُ منوطةٌ بتضاؤلِ الإنسانِ واحتياجِهِ وضعفِهِ

على اعتبار خصوص الخطاب للرَّسول ﷺ، في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ يكون قد عدل القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع لتقرير عموم الإحاطة بجميع أعمال الخلق مع دخول الرَّسول ﷺ دخولًا أوَّليًّا في مقصود الخطاب وفيه نكتةٌ بديعةٌ، وهي الإشارةُ والإلفات إلى محدوديَّة البشر في علمهم، ووسْع الخالق في عِلمِه، فالخطاب في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ بالإفراد يدلُّ على أنَّ أهلَ العِلم والتَّحقُّق برؤية الحقائق هم خصوصٌ في الخَلْق، والخطاب في: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالجمع يدلُّ على استيعاب صفة العِلم للّه سبحانه، وكمال كشْفِها لكلِّ عمَلٍ يصدر من كلِّ مخلوق.

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ الفاصلةِ:

مَن عرفَ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ طابَ له العيشُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ كنايةٌ عن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والمُحاسبة والمُجازاة، فهو يَجزي العالمَ المستبصِرَ بظواهر الوجود المذكورة بما يستحقُّه، والجاهِلَ العَميَّ عن الواضحاتِ بما يستحقُّه، "لا يعجزه شيءٌ منه، ولا يخفى عنه؛ لأنَّه الخالقُ لهُ كلِّه دقِّه وجلِّه، وليس للعبد في إيجاده غير الكسب؛ لأنَّه لا يعلم مقدارَ الحركات والسَّكنات في شيءٍ منه، ولو كان هو المُوجِد له لعلم ذلك؛ لأنَّه لا يقدر على الإيجاد ناقصُ العلم أصلًا"[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِمَا﴾:

التَّفاعلُ مع مشاهدِ الكونِ يبعثُ على العبادةِ والعملِ

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ لتخصيص أعمالهم بالخِبرة والإحاطة؛ اهتمامًا بما عملوا، وتحقيقًا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 186.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 201.

لمجازاتهم عليها، ووجه الاهتمام بأعمالهم: التَّنبيه على أنَّ أعمال العباد قد تعلَّقتْ بها صفة الخبير تعظيمًا لغاية الجزاء والحساب، ولكون مدار السّياق يتعلّق بأعمالهم، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو خطابٌ بما ينبغي للعباد أن يكونوا عليه من التَّفاعل بالعلم واليقين مع أحوال الوجود وظواهر الكون وحقائق المخلوقات الكبرى، وهذا العلم والتَّفاعل هو موضوع الأعمال، ولذلك قدَّمها، وشيءٌ آخر: وهو أنَّ سبحانه لمّا ذَكَر أحوال المخلوقات الكبرى وتصريفه لها - في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ - اقتضى تذكير النّاس بأنَّ عِلمَهُ بأحوالهم وأعمالهم، هو أهون عليه؛ ليتَّعظوا، ويعتبروا.

نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

إظهارُ الاسمِ الجليلِ باعثٌ على التزامِ عبوديَّةِ اللهِ وتوقيرِه

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، ولو اطَّرد السّياق على أسلوبه الأوّل؛ لقيل: (ألمْ ترَ أنَّ الله يُولجُ ... وأنَّه بما تعملون خبيرٌ)؛ فأظهر الاسم الجليل لتربية المهابة في النُّفوس، وإجراء الصِّفة على الذّات الجليلة، وللإيماء إلى كمال الصِّفة؛ لكمال الذّات المُستفاد من الاسم الجامع الجليل: ﴿ٱللَّهَ﴾، فإذا كان الذّات كاملًا؛ كان الوصف كذلك، ولقصد استقلال الجملة بخطاب الاستفهام التَّقريريِّ، كما استقلَّت جملة: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ بذلك؛ تعظيمًا لشأن ما ينبغي أن يكونوا عليه من المراقبة والخشية لله؛ لأنَّهم إذا أقرّوا بعلم الله الدَّقيق بجميع أحوالهم وأعمالهم؛ حملهم ذلك على خشيته ومراقبته سبحانه.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الخَلْقُ مُدرَكون بعلمِ اللهِ لا يعزبُ عنه من عملهم شيءٌ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ على بابها من التَّعدية، فـ﴿خَبِيرٞ﴾ تتعدّى بالباء، فيُقال: خبير بكذا، ومعناها: الإلصاق والملابسة، أي: خبيرٌ خِبرةً تلاصِق أعمالهم وتلازِمها، وتلتبسُ

بها كشْفًا وإحاطةً، وعِلْمًا بكُنهِها وكيفيَّتها، "وما دام أنَّه سبحانه خبيرٌ بما تعملون، فهو الَّذي يُهيِّئ لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيّوميَّته؛ لذلك شرع لكم الأعمال الَّتي تُنظِّم حركةَ حياتكم وحركة عبادتكم"[1]، ولا غَرْوَ أنَّ اليقين بإحاطة الخبير بأعمال البشر القليل منها والكثير يعطي للإنسان فرصةً ليقظة الضَّمير، والتَّحرُّز من الأعمال المحرجة مع اللّه الخبير المطَّلع على الخبايا، وسوف يُواجه بها صاحبها يوم تُبلى السَّرائر.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بصفةِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

من صفاتِ اللهِ ما يتضمَّنُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ في آنٍ واحدٍ

جاء تذييلُ الآية بصفة اللّهِ الخبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ للدَّلالة على العِلم بالكُنْهِ والكيفيَّة والحقيقة، فيقتضي المبالغة في العلم بأحوالهم وأعمالهم على وجهٍ دقيقٍ، يتجاوز ظواهر الأعمال، ففيه إشارة إلى تطمين المُحسِن وتحذير المُسيء، وأيضًا: لمناسبة المقام؛ فإنَّ تدبير اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر يستلزم إحاطةً بكيفيّات الحقائق وأكْناه الدَّقائق حتّى يستقيمَ التَّدبير ولا ينخرِمَ التَّسخير، ولذلك اصطفى وصفَ الخبير.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خَبِيرٌ﴾:

جاء تنكير ﴿خَبِيرٌ﴾ للعموم والتَّفخيم والتَّعظيم، ومجيئه على مثال المبالغة مع التَّنكير زيادةٌ في كمال الصِّفةِ وشمولها، ويصحُّ أن يكون (فعيل) صفة مشبَّهة، أيْ: دائم الخِبرة.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/ 11743.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ [لقمان: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستدلالُ بانتظامِ حركةِ الكونِ على أنَّ اللهَ حقٌّ وما سواه باطلٌ

لمّا ذَكَرَ تعالى أوصافَ الكمالِ الحسنى، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ [لقمان: 26]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٧﴾ [لقمان: 27]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: 28]، وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، وذَكَرَ الأفعالَ العُلا بإيلاج اللَّيل والنَّهار وتسخير الشمس والقمر؛ بيَّن في هذه الآية العِلَّةَ الكبرى والسَّبب الكليَّ الَّذي انبَنَتْ عليه هذه الأفعال الهائلة، والأوصاف الباهرة، وأنَّها ما كانت إلّا بقوَّةِ الحقِّ، وما قامت إلّا عليه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[1]، وهو تعالى يُظهر للخلقِ آياتَه الباهرة ودلائل قدرته الظّاهرة؛ ليستدلُّوا بها على أنَّه الإله الحقُّ الَّذي لا ريب فيه، وأنَّ كلَّ ما سواه باطلٌ زهوقٌ، وأنَّه تعالى هو الكبير المُتعالي الَّذي لا أكبر منه ولا أعلى، وأنَّ الكلَّ خاضعٌ إليه، وهو ذليلٌ حقيرٌ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[3]، يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ[4]، وضِدُّه: الباطِلُ، ويَأتي الحَقُّ بِمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ، ويُطلَق على الواجِبِ واللّازِمِ، فيُقال: يَحِقُّ عليك أن تَفعَلَ كذا، أيْ: يَجِبُ، ويُستَعمَلُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 202.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (حق).

بِمعنى المُؤكَّدِ المُتيَقَّنِ، والحَقيقَةُ: اليَقينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[1]، ومِن مَعانيها أيضًا: الصَّوابُ، والصَّحيحُ، والعَدْلُ، والصِّدْقُ[2]، والحقُّ من أسماء اللّه ﷻ، وقيل: من صِفاته، والمرادُ بالحَقِّ في الآيةِ: الثّابتُ الَّذي لا شكَّ فيهِ ولا كذب[3].

2) ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: (دون) أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبة، يُقالُ: هذا دُونَ ذاكَ، أيْ: هو أقرَبُ منه[4]، ولِـ(دُون) تسعةُ معانٍ، فهي بمعنى: (قبْلَ)، وبمعْنى: (وَراء)، وبمعنى الوعيدِ، وفي الأمر، أيْ: خُذْهُ، وفي الإغراء كقولك: (دُونك زيدًا)، أي: الزَمْ زيدًا في حفظه، و(دونَ) بِمَعْنى (تَحت)، وبِمَعْنى (فَوق)، وكذلكَ الدُّون يكون صفةً، ويكون نعتًا على هذا المَعْنى، ولا يُشْتَقُّ مِنْهُ فعل، ويُقالُ: (هذا دون ذَلِك) في التَّقْريب والتَّحقير، ويُقال: (دونَك زَيدٌ) في المَنزِلَة والقُرْبِ والبُعْدِ[5]، والمقصود بـ﴿دُونِهِۦ﴾ في الآية: نقيضُ (فوقَ)، وهو تَقْصيرٌ عَنِ الغاية.

3) ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾: (بطل) أصلٌ يَدُلُّ على ذَهابِ الشَّيْءِ، وقِلَّةِ مُكْثِه ولُبْثِهِ[6]، يُقال: بَطَلَ الشَّيءُ؛ إذا ذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرانًا، والباطِلُ: اسْمُ فاعِلٍ مِن بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطْلانًا، ومَعناهُ: نَقيضُ الحَقِّ والصِّحَّةِ[7]، والباطِلُ أيضًا: التّالِفُ والضّائِعُ مِن الأشْياءِ، وجمعُهُ: بواطِلُ، وقيل: أباطيل[8]، والباطلُ: هو الَّذي لا يكون صحيحًا بأصله، وهو ما لا يُعتَدُّ به، ولا يُفيد شيئًا، وهو ما كان فائتَ المعنى من كلِّ وجهٍ مع وجودِ الصّورةِ، إمّا لانعدام الأهليَّة أو المحليَّة، كبيع الحرِّ، وبيع الصَّبيِّ[9]، وبَطِلَ في حَديثه بَطالَةً: هَزَلَ، وكانَ بَطّالًا، ظاهِرُ سياقِه أنَّه مِن حَدِّ (نَصَر)، والصَّوابُ أنَّه من حَدِّ (عَلِمَ)، كَما هُوَ في الجَمْهَرة[10]، والمُراد به في الآية: نقيض الحقِّ، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه[11].

---

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُحكَم: وابن الأثير، النّهاية: (حق)، والمُناويّ، التّوقيف، ص: 143.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(5) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (بطل).
(9) الجُرجانيّ، التّعريفات: (الباطل).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (بطل).
(11) الرّاغب، المفردات: (بطل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أحقيَّةُ الله ﷻ بالعبادة والتَّوقير؛ لأنَّه هو العليُّ الكبير

ذلك الَّذي وصَف اللّهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائِلةِ والأوصافِ الباهرةِ، كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ وغَيرِ ذلك، إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ سِواه، وأنَّ الآلهةَ الَّتي تعبدونها من دونه باطلة الألوهيَّة، وإنَّ اللّه - وحده - هو العليُّ الشَّأن، الكبير السُّلطان(1)، وأنَّه سبحانه هو الكبيرُ في عظمته وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، ومُتصاغِرٌ خاضعٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الجملةِ المُصدَّرةِ بالإشارةِ:

كلُّ شيءٍ سوى الله سرابٌ وذلك ما لا يرتاب فيه مُرتابٌ

جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ في موضع التَّعليل للمضامين المقرَّرَةِ قبلها، كأنَّه قيل: ذلك الَّذي تقرَّر من تسجيل حقائق البعث والخَلْق، وتسخير الشَّمس والقمر، وتدوير اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّ اللّه هو الحقُّ في قُدرتِه وقوَّته وقهرِه، فكلُّ شيءٍ عليه هَيِّنٌ، وموقع هذه الجملة موقع النَّتيجة من الدَّليل، فلها حُكمُ بدلِ الاشتمالِ، ولذلك فُصِلَتْ، ولم تُعطف؛ لكمال الاتِّصال، والبَدَليَّة من موجبات الفصل، فالجملة من باب إتْباعِ الدَّلائل والنَّتائج بأسبابها، والمعنى: أنَّ إيلاج اللَّيل في النَّهار وعكسه، وتسخير الشَّمس والقمر مُسَبَّبٌ عن انفراد اللّه تعالى بالإلهيَّة(2).

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في السِّياقِ:

الشَّمسُ والقمرُ بعيدان في المواقعِ قريبا الأثرِ في الواقع

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنته الآياتُ وأشارت إليه من سعة العلم وكمال القدرة، واختصاص الباري تعالى بتسخير الشَّمس والقمر، والقدرة على

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.

(2) صافي، الجدول: 11/ 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 186.

البعث والخَلْق، أيْ: ذلك المذكور السّابق[1]، ونكتةُ الإشارة: تمييزُ الشَّيء المقصود أكملَ تمييزٍ بالإشارة المحسوسة إليه، وأشار بالبعيد؛ للتَّنبيه على بُعد منزلةِ المُشار إليه، وارتفاع مكانته، ولا يخفى أنَّ الخَلْق والبعث واللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر، هي شؤونٌ بعيدةٌ في المواقع، وإنْ كان أثرها قريبًا في الواقع، إلّا أنَّ تصريفها وتدبيرها وخلْقَها شأنٌ بعيدٌ في منازل القدرةِ والقوَّة؛ ولذلك لم يثبت إلّا للّه، ولم يتأتَّ إلّا له سبحانه، فاستحقَّ الإشارةَ بالبعيد؛ تعظيمًا له، وللإلماح إلى بُعدِه عن إمكانِ الخَلْق[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ سببيَّةٌ، أي: ذلك كائنٌ بسبب أنَّه سبحانه وحده الثّابت المُتحقِّق في ذاته، أي: الواجب الوجود، فَلِكونه تعالى هو الحق؛ صارت هذه الأمور، وتنظَّمت هذه النُّظُم؛ لأنَّه ﷻ حقٌّ في ذاته، وحقٌّ في أفعاله، وحقٌّ في أحكامه، وحقٌّ في أسمائه وصفاته[3]، "والمعنى: أنَّ ذلك الصُّنع البديع الَّذي وصفَهُ في الآيات المتقدِّمة للاستدلال به على حقيَّة اللّه، وبطلانِ ما سواه، وعُلوِّه وكبريائِه، فهو العليُّ في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبِّيَّته، وسلطانه"[4]، ويصحُّ أن تكون الباء للملابسة، أيْ: ذلك المذكور من الإيلاج والتَّسخير ملابِسٌ لِحَقّيَّةِ إلهيَّةِ اللّهِ تعالى[5].

كلُّ موجودٍ بالحقِّ كان وعلى الحقِّ قام

دلالةُ توالي المؤكِّدات في السّياق:

جملة تعليل الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ احتشدَتْ فيها عدَّة مُؤكِّدات: (أنَّ)، وضمير الفصل، وتعريف طرفي الإسناد، فحرف التَّوكيد؛ للاهتمام بمضمون الجملة، وضمير

باللّه يكون الحقُّ وهو الحقُّ وبه يُعرف الحقُّ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 178.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 88، 89.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 178.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير، ص: 178.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.

الفصل؛ لتوكيد الحصر وتمييزِ الخبر وفصله عن الصِّفة، أي: تأكَّدَت وثبتت تلك الموجودات العظيمة بتأكُّد أحقّيَّة اللّه ﷻ وحده وثبوتِها في الانفراد بالخَلْق والأمر والألوهيَّة، واحتيج لتأكيد تلك الجملة؛ لكونها سببًا لِمُسَبَّبٍ عظيم وعجيبٍ، وهو ما أُشير إليه من شؤون اللّيل والنّهار، والشّمس والقمر، والّذي أُكِّدَ أمرهما في النَّظم، وفي شهود الواقع والحسِّ، فاقتضى ذلك توكيدَ جملة السَّبب؛ لتحقيق نسبة هذه الحقائق والموجودات إلى سببها الحقيقيِّ المُتفرِّد، وهو اللّه سبحانه، ولمّا كان المخاطَبُون مختلفين في تقرير تلك النِّسْبَة، فمنهم مؤمنٌ، ومنهم كافرٌ؛ احتيج في حسم هذا الخلاف إلى التَّحقيق والتَّوكيد؛ لتثبيت المؤمن، والاحتجاج على الكافر[1].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

الحقُّ كلُّهُ كائنٌ من اللهِ وإلى اللهِ

(أل) في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ للجنس؛ للدَّلالة على الحقيقة والماهية، والمُراد بالحقِّ: الثّابت بذاته في ألوهيَّته وصفاته، وثبوتُ غيره حاصلٌ من الخارج لا بالذّات، فهو الحقُّ ذو الكمال، ومعنى الكمال مستفادٌ من دلالة (أل) على حقيقة الجنس؛ لاستغراقِ الحقيقة جميع خصائص الجنس وصفاته، وهذه درجة الكمال، فمعنى الكمال في الأحقيَّة ثابتٌ بقرائنَ واردة في النَّظم كضمير الفصل؛ لدلالته على الاختصاص والقصر، وكالتَّعريف؛ لدلالته على حقيقة الجنس، ولذلك لم يقل: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ حَقٌّ)[2].

موقعُ جملةِ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

الأضـداد تكاشفُ وتمايز وبضدِّها تتميَّز الأشياءُ

جملة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ للجمع بين الجملتَيْن بإدخالهما في حيِّز التَّعليل بعد اسم الإشارة، كأنّه قيل: ذلك المُشار إليه من شؤون الخَلْق

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 15/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.

العظيمة؛ لأنَّ اللّه هو الحقُّ، ولأنَّ ما يدعون من دونه الباطل، وهو من باب العطف بين المتقابلَيْن؛ لتقرير القضيَّة أكملَ تقرير ببيان حكم الضِّدَّيْن، وليس المُراد من إدخال المعطوف في حيِّز التَّعليل للإشارة إلى أنَّ لبطلان آلهتهم أثَرًا في إيلاج اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر، بل المُراد أنَّ ذلك البُطلان يُخلِّص ألوهيَّةَ الحقِّ سبحانه للفردانيَّة والتَّنزُّه عن الشُّركاء، فيستلزم ذلك خلوص آثار أفعاله في كونه له سبحانه دون غيره، وهذا يُؤثِّر في موجودات الكون كلِّها بالاستقامة والتَّوازن، ومن ذلك الإيلاجُ والتَّسخيرُ المذكوران، إذًا: الَّذي له أثرٌ في المُشار إليه، هو ما يلزم عن البطلان من تحقيق ثبوت الألوهيَّة للّه وحده، وليس نفْسَ البطلان[1].

ويحتمل أن يُراد نفسُ البطلانِ

وقد يُراد نفس البطلان، وإدخاله في حيّز التَّعليل من غير تأويل على اعتبار الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ للملابسة، ويكون المعطوفان معطوفَيْن على المجرور بالباء، أيَ: مُلابِسٌ لكون اللّه إلهًا حقًّا، ولكون ما تَدْعون من دونه باطل الإلهيَّةِ، ولكون اللّه هو العلي الكبير، والملابسة المُفادة بالباء هي ملابسة الدَّليل للمدلول[2].

نكتةُ تقريرِ البطلانِ دونَ الاكتفاءِ بالأحقّيَّةِ:

التَّفصيلُ في بابِ الاعتقاد محمودٌ وادِّعـــاء غير الحقِّ مردودٌ

لم يكتفِ السّياق الكريم بتقرير الأحقّيَّة الثّابتة للّه، في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، بل أتبعه بتقرير بطلان أوليائهم ومعبوداتهم، مع أنَّ تقرير الأحقّيَّة على جهة الحصر يستلزم تقرير البطلان تبَعًا؛ وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التَّوحيد، وكمال الاعتناء يقتضي الاستقصاء والتَّصريح والتَّفصيل، وللإيذان بأنَّ الدَّلالة على بطلان ما ذُكِر ليست بطريق الاستتباع فقط، بل بطريق الأصالة والاستقلال أيضًا[3]، ومفاد قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّـهَ هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾، أنَّه: "إنَّما فعله بأنَّه اللّه حقًّا دون ما يدعوه هؤلاء المشركون به، وأنَّه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهيَّة إلّا لِمَنْ فعل ذلك بقُدرته"[1].

فائدةُ تكرارِ التَّوكيدِ في: ﴿بِأَنَّ﴾ ... ﴿وَأَنَّ﴾:

إيرادُ التَّراكيب المتناظرة على نسقٍ متناسِب مفيد ومناسب

كرَّر النَّظمُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ ليتناسب مع توكيد مقابِلِه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فكما أكَّدَ لإحقاق الحقِّ؛ ناسَبَ أن يُؤكِّد لإبطال الباطِل، والإشارة جليَّةٌ إلى أنَّه إذا كان الحقُّ يتنامى، فيعلو، ويبقى، فإنَّ الباطل يضمحلُّ، فيبيد، ويفنى[2]، وتلك هي عاقبة الحقِّ الأبلج، ونهاية الباطل الأهوج.

دلالةُ الحرفِ ﴿مَا﴾ في السّياقِ:

الإخبارُ عن الذّاتِ بالمصدرِ للمبالغةِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ موصولة بمعنى (الَّذي)، والمعنى: أنَّ ما يَدۡعُونَ مِنۡ دُونِ اللّه من الباطِل البغيض، هو ادِّعاء بالباطل في ذاته وصفاته، فلولا إيجادُ اللّه لِمَن دونه؛ لما وُجِد، ولولا إمدادُه؛ لَمَا بَقِيَ، فإذا كان ما نُسب إلى المعبود من دون اللّه باطلًا، كانت عبادته أبطلَ وأبطلَ[3]، كما أنَّ الإخبار عن أصنامهم بالباطل، يكون من باب الإخبار عن الذّات بالمصدر مبالغةً، كأنَّ الأصنام نفسها صارَتۡ بعبادتهم لها عينَ الباطل، فاستجمعَتۡ حقيقةَ جنس البطلان فيها، أو هي على تأويل مُضافٍ، أيۡ: ذو باطلٍ أو ذات باطلٍ، كأنَّها تميَّزتۡ به، وعُرِفَتۡ[4].

احتمالُ أن تكون (ما) مصدريَّةً

ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، كأنَّه قال: (وأنَّ دعاءكم آلهة من دونه الباطل)، على معنى أنَّ فِعلَهُم الدُّعاءَ للأولياء من دون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 155.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 155.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 651.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355.

اللّه ﷻ لمّا كان شِركًا وزورًا؛ سُمّيَ باطلًا؛ لكونه هَدَرًا عاطِلًا لا يُنتِجُ قصدَ فاعلِه(1).

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

اتِّخاذُ الوسائط لا يعني اقترابها من المقام الإلهيِّ العالي

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ ابتدائيَّةٌ، أيْ: يدعون دعاءً ينشأ في رتبةِ الدُّون والضَّعَة، ولم يقل: (وأنّ ما يَدْعُونَ دُونَه الباطِلُ)؛ لأنَّ معبوداتهم في رتبةٍ قريبة - باعتقادهم - من رتبة الإله، فهي رتبةٌ ناشئةٌ بعده، بحسب إفْكِهم وزورهم، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، ولذا أدخل ﴿مِن﴾؛ ليدلَّ بها على الوسائط والوسائل الشِّركيَّة، والوسيطُ لا يكون في رتبةٍ سحيقةٍ أو بعيدةِ المأخَذ عن غرضِ مُتَّخِذِه، ولو أسقط الجارَّ؛ لكان شاملًا لكلِّ رتبةٍ دونه، والرُّتَبُ دون اللّه لا تنحصر، فتدخل في ذلك كلُّ ساقطةٍ ولاقطةٍ، وهذه رتَبَتُها غير مقصودةٍ؛ لكونها ليست مناطًا لدعائهم وتعظيمهم.

توجيه القراءات في ﴿يَدۡعُونَ﴾ وبلاغتها:

تلوين الخطاب ليأخذ بالألباب

قَرَأ حفص عن عاصِمٍ، وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف: ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالغَيْبِ، وقَرَأ الباقُونَ بِالخِطابِ: ﴿تَدۡعُونَ﴾(2)، فحجة من قرأ بالغيبة أنه ردَّه على لفظ الغيبة التي قبله في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ [لقمان: 25]، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب، وحسن ذلك؛ لأن في الكلام معنى التهدد والوعيد والتوبيخ لهم، فإذا جرى الكلام على لفظ الخطاب كان أبلغ في الوعظ والزجر لهم، وردَّه على لفظ الخطاب التي قبله في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 29](3).

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) مكّي، الكشف: 2/ 179.

إخراجُ الشَّيءِ عن رتبته بالزِّيادةِ أو بالنُّقصان بَخْسٌ له

دلالةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ العائدِ في ﴿دُونِهِ﴾:

والتَّعبيرُ بالدّونيَّة وإضافتها إلى الضَّمير العائد على لفظ الجلالة - في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ - إشارةٌ إلى سفولِ رتبتهم ووضاعة حالِ معبوداتهم من الأصنام والجمادات، أو المُرادُ العمومُ، ويكون إلباسُ أيِّ مخلوقٍ وسْمَ العبوديَّة له من دون اللّه سبحانه هو بمنزلة تحقيره وإدناءِ رُتبتِه، على عكس ما يتصوَّر العابدُ له من إعظامه، وذلك كما يُساء إلى الضَّعيف بادِّعاء المبالغة في قوَّته، وما ليس يملكه، ولا يستطيعه، فيكون كالتَّندُّر عليه أو الاستخفاف به، والإضافة إلى ضمير الجلالة: لإظهار التَّفاوت الرُّتبيِّ بين الحقِّ والباطل، وما هو عليٌّ بالذّات إزاءَ ما هو دَنيٌّ بالطَّبْع.

تقدُّمُ التَّقرير أغنى عن إعادةِ التَّوكيدِ في السّياقِ المجيدِ

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين هذه الآية وآية سورة الحجِّ (62):

في موضع سورة الحجِّ جاءت الآية بضمير الفصل، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62]، وهنا في موضع لقمان خلا من ضمير الفصل المُؤكِّد المُفيد للحصر، فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، ولم يقل هنا: (هُوَ الباطِلُ)؛ وذلك لتقدُّم التَّقرير والإنكار عليه بطريق الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: 20]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وكذلك تقدَّم التَّقرير والحصر بطريق النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وتقدُّمُ التَّقريرِ أغنى عن إعادة التَّوكيد بضمير الفصل، وأمّا في موضع الحجِّ؛ فالتَّقرير واردٌ بعد هذا الموضع في: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الحجّ: 63]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجّ: 65]، فلمّا تقدَّم التَّقرير في لقمان؛ أغنى عن التَّكرير بإقحام الضَّمير، ولم يتقدَّم ذلك في الحجِّ، فقرَّرَ بالضَّمير، وخلاصة ما سلف "أنَّ الاختلاف

فقط بإضافة كلمة ﴿هُوَ﴾ [الحجّ: 62] في سورة الحجِّ للتَّوكيد؛ لأنَّ السّياقَ في سورة الحجِّ في الهجرة والقتل والموت والتَّكذيب بالآيات، وصراع أهل الباطل، أمّا السّياق في سورة لقمان؛ فهو في اتِّباع ما أنزل اللّه تعالى، أو اتِّباع الشَّيطان، وهو سياق جدالٍ لإظهار الحقِّ من الباطل، فهو أقلُّ شدَّةً وقوَّةً، ولذلك أكَّد في سورة الحجِّ بإضافة ﴿هُوَ﴾ [الحجّ: 62]، ولم يؤكِّد في سورة لقمان"(1).

بلاغةُ الفذلكةِ في الآيةِ وما سبقها:

تقريرُ ما سبَقَ بالتَّعقيبِ عليه بِخلاصتِهِ مُفيدٌ في الإبانةِ عن المُرادِ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ واقعٌ موقعَ الفَذْلكة، بعد ما تقدَّم من دلالة ما سبق من شؤون اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، على أنَّ اللّه هو الحقُّ بالألوهيَّة، وأنَّ ما يدعونه باطلٌ، فيثبتُ من ذلك، وينتج عنه أنَّه هو العليُّ الكبير دون أصنامهم(2).

دلالةُ الواو في جملة الفاصلة:

التَّجاورُ بين المُتقابلات أمكنُ في إبراز التَّقابل وتحقيقه

الواو في جملة الفاصلة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ولم يقلِ السياقُ الحكيم: (ذلك بأنَّ اللَّه هو الحقُّ، وأنَّ اللّه هو العليُّ الكبيرُ، وأنَّ ما يَدعونَ من دونه الباطِل)؛ رعايةً للفاصلة، وتزيينًا للفاتحةِ والخاتِمَة بتحقيق ما يجب للّه سبحانه، ومزيدًا لإبراز المقابلةِ بالتَّجاور، فجعلَ جملة الباطل بعد جملة الحقِّ؛ ليقع أحدُ المتقابلَيْن بإزاء الآخر مجاورًا له.

دلالةُ توالي المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

سَوْقُ المؤكِّداتِ ملائمٌ لتقرير الاعتقاد وتحريره

أُكِّد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بحرف التَّوكيد (أنَّ)، ثمَّ بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾؛ لإفادة الاختصاص والقصر والتَّوكيد، ثمَّ بتعريف طرفي الإسناد: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، وتلك المؤكِّدات حاصلةٌ من قبل في جملة التَّأسيس والصَّدر - في قوله

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 17/ 174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ - ليتحقَّق في الأذهان ما يجب للّه سبحانه؛ ليتأكَّدَ في القلوبِ العِلمُ به واليقينُ بانفراده في الكمال والجلال، وتزاحُم المُؤكِّداتِ في تقرير ذلك عنه؛ ليقرعَ النُّفوس المُرتابَة، ويؤزَّ القلوب المريضة، ويهزَّ الأذهانَ؛ لِتصحو وتنظر، فالمؤكِّدات لائقةٌ بقصدِ تثبيت الاعتقاد، وترسيخ اليقين، وبها ينزجر، وينزعج الأفّاك الأثيم.

نكتةُ تذييلِ الآية بلفظي ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾:

إفــادةُ التَّكثيرِ فــي الـوصـفِ وديـمـومـتـه مـفـصـحـةٌ عن المُرادِ

ختْمُ الفاصلةِ بالاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أعلى وأكبر ممّا سواه، فيجبُ أنْ يُتحرّى سبيلُه، ويُستمْسَك به، ويُؤثَر على ما دونه؛ لكونه عليًّا كبيرًا، وفي الاسمَيْن الجليلَيْن: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ تعريضٌ بباطِلهم في دعاءِ الدُّون سافلي الرُّتبة، وإشراكهم مع اللّه، ويكأنَّ اصطفاء ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ تتحقَّق به خِسَّةُ معبوداتهم الَّتي عبَّر عنها بقوله: ﴿دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، فكأنَّه بوصفَي العُلُوِّ والكِبَرِ ينعى عليهم في انحيازهم إلى ما هو في موضع الدّون والبُطلان، ويكأنَّه جعل ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في مقابلة ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾، وجعل ﴿مِن دُونِهِ﴾ في مقابلة ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

إفــادةُ الحصرِ والـعـلـوِّ لله تعالى أو أنَّ عُلُوَّ الخَلْقِ من أثر علوِّ الخالق

وأيضًا: لمّا كانوا يُعلُون معبوداتهم عن مراتبها، ويكبِّرونها بغير حقٍّ؛ عبَّر بما يُفيد حصرَ حقيقةِ العُلُوِّ والكِبَر عليه سبحانه وحده، وأيضًا: لمّا ذَكَرَ الشَّمسَ والقمر، وكان يُعتقَدُ فيهما العلوُّ والكِبَرُ، وكان لهما عَبَدَةٌ من النّاس؛ نبَّه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ على أنَّ عُلوَّ المخلوقات وكِبَرَها، هو أثرٌ من آثار عُلُوِّ اللّه وكبَره، فعلوُّها من غيرها، وعلوُّ اللّه سبحانه من ذاته[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 203.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

العلاقةُ بين أحديَّة الله وبين توالي نِعَمِ الله على البشر في السَّرّاء والضَّرّاء

لمّا ذكر تعالى تسخيرَ الشَّمس والقمر في الأفلاك مِن العالم العلويّ وامتنانه بذلك علينا؛ ذكر - هنا - تسخير الفُلْك من العالم الأرضيِّ بجامع ما اشتركا فيه من الجريان بالنِّعَم[1]، وضرب لذلك مثلًا براكبي السَّفينة الَّذين اضطرب بهم البحر، وتلاطمت أمواجه، وارتفعت فوقهم كأنَّها ظُللٌ، وأيقنوا الهلاك غرقًا، فجأروا إلى الله بالدُّعاء علَّه ينجيهم من الهلاك المحقَّق، فلما نجّاهم إلى البرِّ؛ كانت منهم قلَّةٌ ذاكرةٌ، وكثرةٌ ناكرةٌ كافرةٌ، ممَّن نسوا فضلَ ربِّهم، وظلّوا على جحودهم به، ولا ينكر فضل ربِّهِ ولطفه بعد النَّجاة من الهلكة، إلّا غادرٌ ذميمٌ، أو مُسرفٌ في الكفر لئيمٌ[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: (فلك) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، من ذلك فَلْكَةُ المِغْزَلِ بفتحِ الفاءِ، سُمّيَتْ لاستدارتها؛ ولذلك قيل: فَلَكَ ثَدْيُ المرأةِ؛ إذا استدارَ[3]، والفُلْكُ: جمعٌ، لفظُه كلفظِ مُفرده: السَّفينَة، يُذكَّر، ويُؤنَّث[4]، ومن هذا القياسِ فَلَكُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 473.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(4) الجوهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المُحكَم: (فلك).

السَّماءِ: مَجرى الكواكب(1)، والمُرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لمَرْكَبِ البحر، واسمُ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ.

2) ﴿صَبَّارٍ﴾: (صبر) أصلُ الصَّبر هو الحَبْسُ، يُقالُ: صبرتُ نفسي على ذلك الأمر، أيْ: حبستُها(2)، ومن معانيه: حبْسُ النَّفْسِ على ما يقتضيه العَقلُ والشَّرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، وربَّما خُولِف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبسُ النَّفس لمصيبةٍ؛ سُمّي صبرًا لا غير، وإن كان في محاربة؛ سُمّي شجاعة، وإن كان في نائبة مُضجرة؛ سُمّي رحب الصَّدر، وإن كان في إمساك الكلام؛ سُمّي كتمانًا، وقد سمَّى اللّه تعالى كلَّ ذلك صبرًا، ونبَّه عليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: 177]، والصَّبُورُ: القادر على الصَّبر، والصَّبّارُ يُقالُ؛ إذا كان فيه ضربٌ من التَّكلُّف والمجاهدة، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣﴾ [الشّورى: 33](3)، فالصَّبّارُ في الآية هو مُبالغةٌ في الموصوفِ بالصَّبرِ، أيْ: كثير الصَّبر على البلاء(4).

3) ﴿غَشِيَهُم﴾: (غشى) أصلٌ يدُلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ(5)، ومنه الغِشاءُ: الغِطاءُ، يُقال: غَشَّيْت الشيءَ تَغْشيَة؛ إذا غَطَّيْته(6)، وتَغَشَّى ثيابه، واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى، ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7](7)، والغِشْيانُ بالكَسْرِ: الإتيان، يُقالُ: غَشيَهُ؛ إذا أتاهُ(8)، والغَشْيُ والغَشَيانُ: الإحاطةُ من كُلِّ جانبٍ(9)، والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشى الخلقَ، فتعمُّ، وبه فُسِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1]، وفي الصِّحاح: لأنَّها تغشى بإفزاعها(10)، وهو في الآية مُستعارٌ للمجيء المفاجئ؛ لأنَّه يُشبه التَّغطيةَ(11).

4) ﴿مَّوۡجٌ﴾: (موج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشَّيءِ، ماجَ النّاسُ يموجونَ؛

(1) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدَة الحُفّاظ: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 518.
(5) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (غشى).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو - غشا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عشو).
(8) المُطرزيّ، المُغرب: (غشي).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 64.
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غشي).
(11) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 134.

إذا اضْطَرَبوا، وماجَ أمرُهم ومَرِجَ: اضطربَ[1]، وكلُّ شيءٍ اضطربَ؛ فقد ماجَ[2]، وتَموَّجَ البحر: اضطرَبَت أمواجُه[3]، أيّ: ما يَرتَفِعُ من الماءِ على سطحه عندَ اضطرابه[4]، وهو المُراد به في الآية.

5) ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: (قصد) أصل يدُلُّ على وصلٍ، وعلى إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه[5]، والقَصْدُ في الشَّيء: ضدُّ الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتَّقتير، المُقتصِدُ: الفاعلُ للقَصدِ، وهو المعتدل في أموره[6]، وقصَدَ في الأمرِ؛ إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضيَ بالتَّوسُّطِ، وقيل: أصل (قصد) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتَّوجُّه، والنُّهود والنُّهوض نحو الشَّيء على اعتدال كان ذلك أو جَوْرٍ، هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد يخصُّ في بعض المواضع، بقصد الاستقامة دون الميل[7]، والمُراد بالمُقتصِد في الآية: الَّذي يتردَّد بين المحمود والمذموم[8].

6) ﴿يَجْحَدُ﴾: (جحد) أصلٌ يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيْرِ، ويُقالُ عامٌ جَحِدٌ: قَليلُ المَطَرِ، ورجل جَحِد: فقيرٌ قَليلُ الخَيْرِ[9]، ويُقال: جَحِد عَيْشُهم جَحَدًا؛ إذا ضاقَ، واشتدَّ، فالجَحْدُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ: القِلَّةُ، ومِنْ هذا البابِ الجُحُودُ، وهو ضِدُّ الإِقْرار، كالإنكار والمعرفة[10]، ولا يَكونُ إلّا مع عِلْمِ الجاحِدِ به أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][11]، والمُرادُ بالجُحودِ في الآية: الإنكارُ والنَّفْيُ[12].

7) ﴿خَتَّارٍ﴾: (ختر) أصلٌ يَدُلُّ على تَوانٍ وفُتورٍ، يُقالُ: تَخَتَّرَ الرَّجُلُ في مِشيتِه، وذلك أنْ يمشيَ مِشيةَ الكسلانِ[13]، ومِنَ البابِ الخَتْرُ: غدر يَخْتِرُ فيه الإنسان، أيّ: يضعف، ويُكسَر

(1) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (موج).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصد).
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 439.
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قصد).
(8) الرّاغب، المُفردات: (قصد).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ختر).

لاجتهاده فيه[1]، وقيل: هو الخديعة بعَينها، وقيل: هو أقبح الغَدْر[2]، وذلك أنَّه إذا خَتَرَ؛ فقد قَعَدَ عنِ الوفاءِ، والختّارُ: الغدّارُ[3]، وعن بعضهم: لن تمدَّ لنا شبرًا من غدر؛ إلّا مددنا لك باعًا من خترٍ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بنعمةِ تسخيرِ البحارِ ونكوص البشرِ بعد إنجائهم من الخطرِ

يذكُرُ اللّٰهُ الحقُّ سبحانه نعمةً عظيمةً امتنَّ بها على العبادِ، وهي السُّفُنُ الَّتي تجري في البَحرِ بتَسخيرِ اللّٰهِ تعالى، نِعمةً منه على عِبادِه، ليُريَهم بعضَ آياته، كدَلالاتٍ لكُلِّ صَبّارٍ على بلائه، شكور لنعمائه، ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أحوالِ راكبي البحر، عندَما تُصيبُهم الشَّدائدُ؛ إذا غطّاهم مَوجٌ مُتلاطم كالجِبالِ، وخافوا الغَرَقَ دَعَوُا اللّٰهَ وحْدَه أن يُنَجّيَهم، ولم يَستغيثوا بغيرِه، فلمّا نجّاهم اللّٰهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم قليل تذكَّر عهده، واعتدل في عمله، ومنهم كثير نسي فضل ربِّه[5]، وما يَكفُرُ بأدِلَّة اللّٰه وحُجَجِه، ويُكَذِّبُ بها، ويُنكِرُها إلّا كلُّ غدّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيم الجَحدِ لنِعَم رَبِّه، فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللّٰهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

شواهدُ الإيمان شاخصةٌ لِكلِّ ناظرٍ أريبٍ ومُتبصِّرٍ لبيب

جملة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ استئنافيَّةٌ مُناظِرةٌ للاستئنافَيْن اللَّذَيْن قبلها، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ختر).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، الزّمخشري، أساس البلاغة: (ختر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ختر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ختر).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 580، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 351، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 652.

﴿ٱلنَّهَارِ﴾، وجيء بالجملة مفصولةً غيرَ معطوفةٍ؛ لِئَلّا يتوهَّم السّامع أنَّ العطفَ على شيءٍ من تقاسيم الجملة، لا على ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وما في حيِّزها جميعًا، وجاء هذا الاستئناف الثّالث في: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ دليلًا ثالثًا على عظيم تدبير اللّه وتسخيره لآيةٍ أرضيَّة، بعد ذِكْر تدبيره وتسخيره لآيةٍ سماويَّة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

مــجــيءُ الاستفهامِ في معنى الخبرِ مفيدٌ في الإبانةِ عن المُرادِ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ كالاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وليس استفهامًا على حقيقته الإنشائيَّة، بل مُرادٌ به معنى التَّقرير لِمَن آمن، والإنكار على مَن كفر، وهو على هذا مجازٌ مُرسَلٌ أُطلق فيه الإنشاء، وأراد معنى الإخبار، ونضيف أنَّ الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ "تقريريٌّ بالنِّسبة إلى الرَّسول ﷺ، وهو إنكاريٌّ بالنِّسبة إلى غيره، ينكر على أهل الغفلة غفلتَهم، وعلى أهل الإعراض عن النَّظر إعراضَهم؛ إذ لو نظروا، وفكَّروا؛ لاهتدوا إلى توحيد اللّه، وبعثه عباده للحساب والجزاء يوم القيامة"[2].

دلالةُ الخطابِ في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الـرَّسـولُ هو أصلحُ مَنْ يَرى وأوعى مَنْ يسمعُ ويعي

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي﴾، كالخطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، هو لكلِّ مَن يصلح له تلقّي الخطاب وإدراكه، وأصل الخطاب للرَّسول ﷺ، ولذلك جاء بلفظ المفرد؛ لكون النَّبيِّ أحقَّ الخَلْق بالفَهْم عن الحقِّ، فهو أصلح مَن يلتمِس العِبْرَة والآية ممّا ذُكِر؛ ولذلك خوطب به؛ للتَّنبيه على أنَّ أكثر الخَلْق محجوبون عن القيام بحقِّ الخطاب من الاستفادة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 21/ 188.

(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 216.

والاعتبار؛ لإعراضهم وقصورهم، فاستُنْهِضوا إلى ذلك العِلم بخطاب أعلَمِهم وأفضلهم تنشيطًا وإعانةً لهم، بما هو نظيرهم في البشريَّة وأعرقُهُم في الرُّتبة(1).

معنى الرُّؤية في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

سريانُ الفُلكِ في البحر من المُبصَرات المُدركات بالحواسِّ

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يحتمل أن تكون بصريَّة؛ لأنَّ سريان الفلكِ في البحر من المُبصَرات، ويحتمل أن تكون عِلميَّة قلبيَّة، بمعنى: (ألم تعلم)؛ لأنَّ من النّاس مَن يقضي عمره كلَّه، ولا يرى فُلْكًا في البحر تجري، لكنَّه يُخْبَر، فيعلم، فهذه الرُّؤية في حقِّه علميَّة، وقد أشار الشَّعراويُّ إلى أنَّه "ربَّما أنَّ سيِّدنا رسولَ اللّه لم يَرَ هذه السُّفن في البحار، ولم تكن قد ظهرت السُّفن العملاقة الَّتي نراها اليوم كالأعلام، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّحمن: 24]، والبوارج العالية الَّتي تشبه الجبال والمكوَّنة من عدَّة أدوار لم توجد إلّا حديثًا، إذًا فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن"(2)، وهو ما تتجدَّد به صدقيَّة الكتاب، ومصداقيَّة النَّصِّ القرآنيِّ الَّذي يتجدَّد مَعينُه، وتظهر عجائبه على مدى الزَّمان، وفي كلِّ ظرفٍ وآنٍ.

دلالةُ عموم المشترك في لفظ: ﴿تَرَ﴾:

المُبصَرات شواهد المعارف الشّاخصات في ظواهر الموجودات

مَنْ جَوَّز استعمالَ اللَّفظِ في حقيقتِه ومجازِه، أو إعمالَ المشتركِ في معنَيَيْهِ، يجيزُ إرادة الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة، بالجمع بين العَيان الحسّي، والعِرفان الإدراكيِّ، فهذه ثلاث طرائق: عموم المشترك، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز، فالحقيقة للرُّؤية البصريَّة، والمجاز للرُّؤية القلبيَّة، أو عموم المجاز، والأصل: هو الحمل على الرُّؤية البصريَّة؛ لأنَّ الفُلك من قبيل المُبصَرات، ولأنَّ الرُّؤية بالبصر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 204.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11748.

والنَّظر، لسليم الحاسَّة هي توطئة للعِلم والمعرفة القلبيَّة، ولذا فالرُّؤية في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، على طريقة الجَمْع هي رؤية العين، يتركَّب عليها النَّظر والاعتبار[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾:

محلُّ الاعتبارِ ليس في مُطلق الفُلك بل في كلِّ فُلكٍ تجري بالإبحار

(أل) في ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للجنس، فيشمل كلَّ فُلْكٍ صالحة للإبحار وتُبْحِر بالفعل، والعموم المُستفاد من الجنس حاصلٌ على التَّوزيع باعتبار تفرُّق المُخاطَبين.

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

الفُلك تجري في البحر بجزئها الماخر في الماء

التَّعبيرُ بحرف الوعاء في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ولم يقل: تجري على البحر؛ لكونِ جريِها حاصلًا في الماء بالفعل، فهي تجري في الماء لا عليه، فأصل الجري حاصلٌ من أسفلها في الجزء الماخِر في الماء المغمور به[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

البحرُ هو كلُّ ماءٍ واسعٍ مالحًا كان أو عذبًا

(أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ جنسيَّةٌ في الحقيقة والماهية، والتَّعبير بالبحر دون غيره؛ للدَّلالة على تلك الحقيقة؛ إبرازًا لعجيب حركة الفلك في الماء، والمُراد بالبحر سَعةُ الماء وكثرته، والفُلك تُبْحِر، أيْ: تشقُّ الماء شقًّا، وتتوسَّع في حركتها وجريها فيه، والمُراد بالبحر أيضًا كلُّ ماء واسع، عذبًا كان أو مالحًا، أو المُراد المالِح، وأُطلِقَ على العذب تغليبًا[3].

معنى الباء في قوله: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

اللهُ سبحانه يجعل النِّعَمَ منوطةً بالنِّعَمِ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ للإلصاق أو للمصاحبة، فيحتمل أن يريد بذلك ما تحمله السُّفن من الطَّعام والتِّجارات، أو

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11748، وطنطاويّ، الوسيط: 11/ 132.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 204.

(3) الرّاغب، المُفردات: (بحر).

يريد الرّيح، فتكون الباء سببيَّةً، وعلى المعنى الأوَّل، فالنِّعمة مفعولةٌ، وعلى المعنى الثّاني فالنِّعمة فاعلة[1].

نكتةُ إضافةِ النِّعمة إلى لفظ الجلالة:

النِّعَمُ كمالٌ في الحياة وهي أثرٌ من آثار كمال ربِّ الحياة

إضافةُ النِّعمةِ إلى الاسم الجليل - في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ - لإعظام النِّعمة وتفخيم شأنها، والتَّنويه على شرفها بإضافتها إلى الاسم الجليل الجامع لكمالات الإنعام، وتتمّات الإحسان، والنِّعمة تتجلّى في عطاء اللّه اللّامحدود، "ذلك من نِعَم اللّه على النّاس، فكما سخَّر لهم البرَّ؛ سخَّر لهم البحر؛ ليريهم من آياته، وليطَّلعوا على آيات اللّه وقدرته، وآيات وحدانيَّته، وآيات جلاله، وآيات انفراده بالألوهيَّة وبالرُّبوبيَّة ﷻ وعلا مقامه"[2].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِيُرِيَكُم﴾:

كلّما زادت الحركة؛ زاد معها البصر وتنامى الإدراك

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ لام التَّعليل، أيّ: تجري في البحر جريًا، عِلَّةُ خلق ذلك الجري أن يُريكم اللّه آياته[3]، وليُريكم من نعمه سبحانه، ويُريكم من آياته العظيمة الباهرة، وقدرته الفائقة القاهرة[4]، والمقصود التَّعرُّف على آيات اللّه الغزيرة، وحكمته الجليلة في تسخير الكون للإنسان حتّى يهنأ به، ويسعد، وينتفع به على المدى.

معنى الرُّؤية في جملة ﴿لِيُرِيَكُم﴾:

الآياتُ المذكورات من المبصَرات المدركات

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ بصريَّة؛ لكون الآيات من المُبصَرات المشهودة، ولكون هذه الآيات ليست في محلِّ العِلم واليقين، واعتبار الصِّحَّة عند كثيرٍ من النّاس، ولذا كانت الرُّؤية بصريَّةً لا علميَّةً.

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 355، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 140.
(2) الكتانيّ، تفسير القرآن الكريم: 6/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 189.
(4) حطيبة، تفسير الشّيخ أحمد حطيبة: 2/ 234.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ﴾ تبعيضيَّة، أيْ: يريكم بعضَ آياتهِ؛ لأنَّ آياتِ اللهِ سبحانه أكبرُ وأكثر من شأن الفُلك في البحر[1].

نكتةُ فصل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلها:

جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ في موقع التَّعليل لما قبله، أيْ: يُسيِّر اللهُ الفُلك؛ ليريكم من آياتهِ؛ لِكونِ تلك آياتٍ لكلِّ صبّار شكور، بمعنى أنَّه "صبّار على البلايا، شكور للنِّعم، وعَن بَعضهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، أيِ: المُؤمن؛ لأنَّ المُؤمن هُوَ الصَّبّار الشَّكُور، قالَ مطرِّف: نِعْمَ العَبْدُ المُؤمن، إذا ابْتُلِيَ؛ صَبر، وإذا أُعطي؛ شكر"[2]، ويصحُّ أن تكون الجملة في موقع الاستئناف البيانيِّ؛ إذْ يخطر ببال السّامع أن يسأل: كيف لم يهتدِ المشركون بهذه الآيات؟ فأجيب أنَّ الَّذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو كلُّ صبّارٍ شكورٍ[3].

آياتُ الله تتجلّى للصّابر الشّاكر

نكتةُ تصديرِ جملةِ الفاصلةِ بحرفِ التَّوكيد:

اقترانُ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ لإفادته في مِثْل هذا المقام معنى التَّعليل والمُناسبة مع ما قبله، فهو في مناب حرف التَّعليل، وفي مقام الإغناء عن الرَّبط بالعاطف، ولا يخفى ما في التَّصدير بالتَّوكيد من تحقيق مضمون الجملة؛ لِمُناهَزَةِ الغفلة والإعراض في كثيرٍ من المُخاطَبين[4]؛ ثناءً على هذا الفريق تصريحًا وتعريضًا بالَّذين لم ينتفعوا بدلالتها.

مِن دواعي التَّوكيدِ كونُ الكلامِ من المُهمّاتِ

دلالةُ جمع الآيات وتنكيرها:

جمع الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، رغم أنَّ الإشارة

النّاس ترى الحقائق بعيون طِباعها وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 189.
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 79.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 77، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 21/ 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

تعود على واحدٍ، وهو حال الفُلك المذكورة؛ لانطواء ذلك على كثيرٍ من الدَّلائل والعِبَرِ، أو جمع الآيات بحسب تعدُّد المخاطَبين، وتفاوت عقولهم في الاستخلاص والملاحظة، فكلٌّ يرى في ذلك الشَّأنِ آيةً غيرَ الَّتي يراها غيره، فتصير بمجموعهم آياتٍ لا آية واحدة[1]، والآياتُ من آثار قدرة الله تعالى ورحمته، وعنايته بعباده، وهي آيات كثيرة، منها أن سخَّر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدريِّ وقضائه الأزليِّ ولطفه العامِّ وإحسانه التّام، ليُرِيَ النّاس مِنْ آياتِهِ العجيبة، فيكون بها الانتفاع والاعتبار[2].

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

الإيمانُ هو وقود الصَّبر والشُّكر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كنايةٌ عن لازمِه من الإيمان، فكأنَّه قيل: (إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ)، فيلزم عن كون المرء صبورًا شاكرًا أنْ يكون مؤمنًا[3]، وفي الخاتمة بالصَّبّار الشَّكور مدحٌ وثناء للمتَّصفين بذلك، وتنويهٌ بانتفاعهم بالآيات، وتعريضٌ وذمٌّ للجزِعين الكافرين، وتسجيلٌ عليهم بعدم الانتفاع[4].

نكتةُ الختم بصفة الصَّبر والشُّكر:

الإنسانُ مُمْتَحنٌ بالنِّعم قبْضًا أو بسْطًا ودوام الحال مُحالٌ

خُتِمَتِ الآية بقوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الإيمانَ بجميع شُعَبِهِ متوقِّفٌ على هاتَيْن الصِّفتَيْن؛ فالصَّبر هو الثَّبات في مراكز العبوديَّة، والشُّكر رؤيةُ النِّعمة من المُنعِم الحقِّ وصرف نِعَمِه إلى محابِّه، فبهما قوامُ الدّين، فاصطفى من الأحوال ما لا يخرج المؤمن في موقف النِّعمةِ بالعطاء والمنع عنهما، ولا يخرج الكافر في العطاء والمنع عن ضدِّهما - وهما الجزع والكفر - فالمنع يقتضي الصَّبرَ، والعطاء يقتضي الشُّكر، والإنسان مُمْتَحنٌ بالنِّعم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 652.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

قبْضًا أو بسْطًا؛ ليُنظَر هل يتحقَّق بهذَيْن الوصفَيْن أو لا؟ وسبب حصر الفاصلةِ في هذَيْن الحالَيْن أنَّ المقام واردٌ في الإنعام بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، فأخبر أنَّ آياته حاصلةٌ من نِعمَتِه، ولا يُراعي حقَّ النِّعمة إلّا الصّابرون الشّاكرون، فهو خِتامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه[1].

براعةُ المناسبةِ بين الفُلكِ والصَّبرِ والشُّكر:

ركوبُ البحرِ يقتضي الصَّبور في الأزماتِ والشَّكورَ في المسرّاتِ

بين الفاصلة في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وذِكْرِ الفُلكِ في المطلع في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ تمامٌ في المناسبةِ وجزالةٌ في التَّماسُك والالتئام، فإنَّ راكب الفُلك يدور بين حال الخطر وحال السَّلامة، فإنْ واتاه الخطرُ؛ صبَر، وإنْ حضرَتْهُ السَّلامةُ؛ شكَر[2]، والقرآن الكريم ذو عنايةٍ خاصَّة بالتَّنويه على تلك الحال الَّتي تنوب راكبي الفُلك في أكثر من موضع؛ لتقرير ظُلم الإنسان في سوء تفاعُلِه مع الخطر العارض، فلا يُلاقيه بالصَّبر، وسوء تفاعله مع الاستقرار والنَّجاة، فلا يُلاقيها بالشُّكر، ولذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إشارةً إلى سببِ زوالِ الخطر، وهو الصَّبر، وسببِ دوام الأمْنِ، وهو الشُّكر، وفيه أنَّ مَن التزم، وأيقن بقدر اللّه في المنع والعطاء، فهو من المنتفعين بالآيات، بحيث يكون صبّارًا على الضَّرّاء، شكورًا على السَّرّاء، صبّارًا على طاعة اللّه، وعن معصيته، وعلى أقداره، شكورًا للّه على نِعَمِه الظّاهرة والباطنة، وعلى العوارض الدّينيَّة والدُّنيويَّة[3].

دلالةُ بناء المبالغة في: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

دلالةُ المبالغة على إتقان الموصوف لخصائص الصِّفة

جاءت كلمة ﴿صَبَّارٍ﴾ على وزن (فَعّال)؛ للمبالغة في اسم الفاعل (صابِر)، وهذا الوزن يدلُّ على تكرار الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ حتّى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 652.

يصل إلى درجة التَّطبُّع به والتَّعوُّد عليه والمُلازمة له، ولذا جاءت الصِّناعات والحِرَف على هذا الوزن؛ لما فيها من حال الملازمة لها وإتقانها كالعطّار، والشَّحّام ... إلخ، فمعنى: ﴿صَبَّارٍ﴾، أيْ: أتْقَنَ الصَّبْرَ حتّى احترفَهُ، فصار كالصَّنعةِ بالنِّسبة للصّانع، ولذلك جاء به على وزن (فَعّال) دون (فَعُول - صَبُور)؛ ليدلَّ به على فتوَّة الصَّبْر عند المُتَّصِفِ به وكمال مقداره، فالصَّبر في (فعّال - صبّار) أبلغُ وأكمل وأقوى من الصَّبر في (فعُول - صبُور)؛ ولذلك جيء به في الصَّبر دون الشُّكر، فلم يقلِ القرآن: (صبُور شكُور)؛ لأنَّ الصَّبرَ آتقُ وأشدُّ من الشُّكر، فاحتيج معه إلى زيادة المبالغة، ولم يقل: (صبّارٌ شكّار)؛ لأنَّ الشُّكر سهلٌ في إجرائه؛ إذ لا يصحبه عَنَتٌ ومشقَّة كالصَّبر، فجاء به على الوزن الأخفِّ من الصَّبر، ولذلك قدَّم الصَّبر؛ لكونه الأشقَّ، وتوقّيًا من انخرام الفاصلة، ويدلُّ على زيادة المبالغة في (فعّال) على (فعول) زيادة الحروف، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى[1].

صيغةُ فعول في قوله (شكور)

وأمّا (فَعُول) في ﴿شَكُورٍ﴾؛ فيدلُّ على قوَّة الفعل وكثرته، وهذا البناء منقولٌ من أسماء الذّوات، كالوَضوء للماء، والوَقود لمادَّة الاشتعال، فإذا قيل: (فلان شكورٌ)؛ فكأنَّه من كثرة صدور الشُّكر عنه، صار كأنَّه مادَّةً مُعَدَّةً للشُّكر تُستهلك فيه[2].

نكتةُ عدمِ العطف في: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

الصَّبرُ والشُّكر مُتلازمان يتآلفان ويتكاملان

لم يقل في السّياق الكريم: (لكلِّ صبّارٍ وشكور)؛ لدفع إيهام المغايرة والانفصال في الفاعل، ولوجوب اتِّصاف المؤمن بكلا الوصفَيْن، لعدم انفكاك أسبابهما في المحلِّ الواحد، فالإنسان لا يخلو من حال الشدَّة والرَّخاء، فلا بدَّ أن يرد هذا عليه، وهذا عليه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 94.
(2) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 101.

فوجب أن يكون جامعًا بين الاتِّصاف بالصَّبر والاتِّصاف بالشُّكر، فهما غير منفكَّيْن، وكلاهما مطلوبٌ من العبد، وأيضًا عدم العطف: للدَّلالة على ثبوتِ تكامل الصَّبر بالشُّكر، والشُّكر بالصَّبر، فمَنْ يستطعِ الصَّبرَ؛ يستطعِ الشُّكرَ، ومَن يستطعِ الشُّكر؛ يستطعِ الصَّبر.

دلالةُ موقعِ جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾:

النّاسُ معادنُ في تفاعلهم مع النِّعمة واعترافهم للمُنعِم

جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ ليجمع بين بيان النِّعمة وبيانِ أصناف المُنعَمِ عليهم؛ فذكر أوَّلًا الصَّبّار الشَّكور، ثمَّ أتبعه بالختّار الكفور، فهذان صِنْفا المُنْعَمِ عليهم في شأن الفُلك المذكور[1].

بلاغةُ حُسنِ التَّخلُّص في السّياق الكريم:

حُسْنُ الانتقال مُفيدٌ في الإيضاحِ والبيانِ عن الغرضِ المُتاحِ

بين جملة المقطع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ حُسْنُ انتقالٍ وخُلوصٍ من بيان المنتفعين بآية الفلك في البحر إلى بيان الجاحدين لتلك الآية ومُسبِّبِها رغم شهودهم لِما ينبغي أن يحملهم على الإقرار والإيمان، من تعرُّضهم لأخطار الموج وغدرات البحر، ثمَّ فزعهم إلى الاستغاثة بالله واللَّهفة والاضطرار إلى معونته، ثمَّ انقسامهم بعد انكشاف الكرب: إلى مقتصدٍ فقَدَ حرارةَ الإخلاصِ في اللُّجوء إلى الله الَّذي كان يدعو به وقت الأزمة، وإلى عائدٍ لكفره وجحوده كأنَّ شيئًا لم يكن، وقرينة (حُسْنِ التَّخلُّص) في النَّظم الكريم هو التَّفصيل في شأن النّاس، راكبي الفُلك ساعةَ الخطر، فالتَّفصيل دالٌّ على أنَّ ذِكْر الفُلكِ مقصودٌ به أن يُبنَى على هذا الغرض، فحصل الخلوصُ إليه على أسهل الوجوه[2].

---

(1) الخطيب، التّفصيل: 21/ 169.

(2) السّيوطي، الإتقان: 3/ 373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

ما يشغلُ الأذهانَ حريٌّ بالتَّخصيصِ

دلالةُ التَّفصيلِ والتَّخصيصِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

يصحُّ أن تكون جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ تفصيلًا وبيانًا لِما أُجمِلَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، على أنَّه قد أجمَلَ أحوال راكبي الفلك في حال الخطر وفي حال السَّلامة، فأخبر أنَّهم بين صابرٍ في حال الشِّدَّة، وشكورٍ في حالِ الأمْنِ، فقوله: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ فيه إجمالٌ وعمومٌ، يتناول الأحوال جميعًا في الخطر والأمن، ثمَّ بيَّن الإجمال في حالةٍ واحدة، وهي حالُ الخطر والضَّرر، ففصَّل أحوالَ النّاس في تلك الحال: فمنهم مقتصدٌ باقٍ على إيمانِه وإخلاصِه، قائمٌ على القصد الواضح، فيكون لفظ ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ بمعنى: مقيم على الطَّريق القصد الَّذي هو الإيمان، فيكون هو الصَّبّار الشَّكور المذكور آنفًا، ومنهم ختّار كفور لا يكترث بإنجائه، ولا ينفعل له بالإيمان والإذعان، فتخصيصه لحال الخطر فقط، وتفصيل أحوال النّاس فيها، هو من باب ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ، للتَّنبيه على أهمّيَّة الخاصِّ؛ إذ هو أشغلُ للأذهان، فذكر أوَّلًا حال السَّلامة والخطر، ثمَّ خصَّص بذِكْر حال الخطر فقط، وفصَّل فيها[1].

ألطافُ اللهِ في المخاطِرِ واقعٌ مأثورٌ غيرُ منكورٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دون (إنْ):

التَّعبيرُ بـ(إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾؛ لأنَّ السّياق في حالةٍ واقعيَّة غير افتراضيَّة، فهي متحقِّقةٌ في وقوعها، ويتأكَّد التَّحقيق بماضويَّة فعل الشَّرط ﴿غَشِيَهُم﴾، والمعنى: وإذا جاءهم في البحر موجٌ متراكبٌ بعضُه على بعضٍ كأنَّه ظُلَلٌ فوقهم، أي: جبال مُظِلَّةٌ أو سحاباتٌ[2]، وفي هذا السّياق عرضٌ للصّورة المُحرجة الَّتي كان فيها راكبو الفلك، وهم في حالةٍ من الهلع والاضطراب،

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالَيْن: 5/ 272.

(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 89.

وقد أحاط بهم الموج، وسدَّ عليهم منافذ النَّجاة، وكانوا أقرب إلى الهلاك؛ للدَّلالة بعد ذلك على نفاسة الفَرَج، وأهميَّة الإنجاء من ذلك الوضع المُطبق اليائس.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿غَشِيَهُم﴾:

الخطر مُستبِدٌّ مستحكِم ولطفُ الله عاصِمٌ

عبَّرَ النَّظمُ بالغشيان في قوله تعالى: ﴿غَشِيَهُم مَّوۡجٌ﴾؛ حيث شبَّهَ الموج في إحاطته بهم وارتفاعه حولهم بالغطاء الَّذي يُطبِقُ على ما تحته بجامع عدم الانفكاك في كلٍّ، فكذلك الموج لا مَفرَّ من هولِه، ولا ملاذ من شدَّتِه، ولك أن تجعل الاستعارةَ تصريحيَّةً، بتشبيه علوِّ الموج بالغشيانِ والتَّغطية، أو أن تكون استعارةً تمثيليَّةً حاصلةً في التَّركيب، بتشبيهِ هيئةٍ بهيئةٍ[1].

نكتةُ الالتفاتِ في جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾:

الخطابُ يأتي على الإفرادِ ليتلقّاه كلُّ امرئٍ على نفْسِهِ

في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ بعد قوله قَبْلَهُ: ﴿لِيُرِيَكُم﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبة، ولو اطَّرد النَّظم لقيل: (وإذا غشيكم) ليتَّحد مع الضَّمير في قوله: ﴿لِيُرِيَكُم﴾، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخطاب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لغير مُعيَّن، والمقصود به المشركون، وإلّا فلا التفات[2].

نكتةُ إفرادِ لفظ ﴿مَّوۡجٌ﴾:

داخِلُ الموجِ العظيمِ أمواجٌ تتوالى بعضها فوق بعض

أُفرد الموج في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ لأنَّه على إرادة الجنس، فهو اسم جنس، واحده (مَوْجَةٌ)، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [يونس: 22][3]، فأفرده لدلالته على الجنس عامَّة، وقد جعله في كلِّ مكانٍ؛ لكونه جمعًا في المعنى[4]، فهو مُتعدِّدٌ ومتوزِّعٌ، ولذلك جمع له المُشبَّه به في قوله: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾، فكلُّ تقسيمٍ

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالَيْن: 5/ 272.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 112، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423.

من تقاسيم الموج كظلَّةٍ من جبلٍ أو سحابٍ، أو الإفراد؛ لأنَّه يأتي متتابعًا، فتتركَّب أجزاؤه بعضُها فوق بعضٍ، فيكون كالشَّيء الواحد، ويكون آخر ما يُرى منه هيئة الشَّيء الواحد لا المجموع المُتفرِّق[1].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّوْجٌ﴾:

عِظمُ الموجِ مفيدٌ أنَّ الخوف قد بلغ الأوجَ

قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتعمُّ، وغرض التَّنكير هو التَّعظيم والتَّكثير[2]، ومفاده أنَّه إذا غشي هؤلاء الَّذين يشركون بالله في حال ركوبهم البحر موجٌ كالظُّلم، حيث شبَّه سواد كثرة الماء وتراكب بعضه على بعض بالظُّلم، وهي الظُّلل جمع ظلة، وقال الفرّاء: الظُّلل هنا: السَّحاب[3] المتراكم، بعضُه فوق بعضٍ، وهو منظر مهول، لا يدرك خطورته وهلع النّاس إبّانه إلّا مَن عايشه، وأحسَّ بتلك المشاعر الَّتي تبلغ فيها القلوب الحناجر، ويصل فيها الخوف مداه، ويبلغ فيها اليأس مُنتهاه.

بلاغةُ التَّشبيهِ المُرسل ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾:

المـوجُ غاشٍ مُطبِقٌ كهيمَنَةِ الظُّلَّة على مَن تحتها

في قوله سبحانه: ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ شبَّه الموجَ في إحاطته وغشيانه وعلوِّه عليهم بمظلّات السَّحاب؛ وهي قِطَعُهُ العظيمة أو مظلّات الجبال، وهي مُرتفعاتُهُ الَّتي تُغيِّبُ ما تحتها، وتُظِلُّه، والغرض من التَّشبيه تعظيمُ حجم الموج وكَمِّه، فهو هائلٌ لا يُغالَب[4].

معنى (أل) في لفظ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾:

الظِّلالُ في القرآن وردت فيما يُمدَح والظُّلل فيما يُتوقَّى منه

(أل) في ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ لتعريف الجنس، فيدخل فيه كلُّ ما من شأنه أن يُظِلَّ، ويَغْشَى ما تحته باستيعاب، كظُللِ السَّحاب أو ظلل الجبال، والمُراد من الجنس الحقيقة والماهية، وليس الاستغراق[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 207.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 5739.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 423، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.

وهو مظهرٌ من كمال صبرهم وشكرهم، حيث إذا غَشيَهُمْ، وغطاهم أحيانًا مَوْجٌ عظيمٌ هائلٌ، واستعلى مُغلقًا عليهم كالظُّلَلِ المُغطّية إيّاهم من الجبال والسُّحب، دَعَوُا اللَّه الواحد، حاصرين التَّوجُّه والانقياد نحوه بلا ميلٍ منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، مُتضرِّعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البَيْن على ما هو مقتضى فطرة التَّوحيد، فَلَمّا نَجّاهُمْ سبحانه بفضله؛ كان منهم مقتصدٌ باقٍ على طريق التَّوحيد، لا يعدل عنه إلى غيره، ومائل إلى الكفر والنُّكران[1].

دلالةُ وزنِ الجمع في لفظ (ظُلَل):

الظلَّةُ موجٌ غامرٌ وخطرٌ داهمٌ ظاهر

(ظُلل) جمع ظُلَّة، وهو جمع كثرة، وعُبِّر به دون جمع القلَّة (ظِلال)؛ للدَّلالة على خطَرِ الموج المُطبِق، ولا يكون كذلك مع قِلَّةٍ[2]، والظُّلَّة هي الَّتي تعلو الإنسان، وتُظلِّله، ولا يكون الموج ظُلَّة إلّا إذا علا على مستوى الإنسان، وخرج عن رتابة الماء المعتادة، وقد ورد قوله تعالى: ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171]، والعِبرة بخطورة الموج وتعاليه وإرهابه لِمَنْ يغشاه، واليقين بالهلاك؛ لولا لطفُ اللّهِ[3].

عِلَّةُ وصفِ المشركين بلفظ ﴿مُخْلِصِينَ﴾:

آفـةُ العبدِ نسيانُ ما قطعَ على نفسِهِ من عهدٍ

وصفُ الدّاعين بالإخلاص في جواب الشَّرط - في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ - للدَّلالةِ على أنَّهم في حالٍ من الكَرَبِ تشهدُ العقول بأنَّ معبوداتِهم الباطلة لا شَركَةَ لها فيها ولا مَدْخَل، فلمّا زال عنهم ما ينازع الفطرةَ من الهوى والتَّقليد، بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائد؛ تخلَّصوا من حجاب الغفلة، وأبصروا الحقيقةَ خالصة لا ريب فيها، والوصف بالإخلاص فيه توطئةٌ للتَّهكُّم بهم،

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 137.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11752.

والتَّسجيل عليهم؛ لأنَّ مؤدّاه إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، فعلى معنى: أنَّ الاقتصاد هو التردُّد بين الإيمان والكفر، أو هو خِفَّةُ الاعتقاد ورِقَّة الإخلاص والدّين، يكون معنى التَّهكُّم كأنَّه قيل: (دعوا الله بإخلاصٍ واضطرارٍ بُغيةَ النَّجاة، فلمّا حصل ذلك؛ نكصوا، وارتدّوا، وكانت أحسن حالٍ فيهم حالَ الاقتصاد في الدّين، لا حال الإخلاص الَّتي دعوا بها) ومحلُّ التهكُّم: أنَّ هذه حال لؤم وانتفاء مروءةٍ وقِلَّةِ وفاءٍ ومُسارعةٍ إلى التَّلوُّنِ والنُّكران؛ إذ الإنجاءُ كان يقضي مُلازمتهم وبقاءهم على حال الإخلاص الَّتي دعوا بها[1].

دلالةُ اللّام في شبه الجملة ﴿لَهُ﴾:

التَّعبيرُ بإخلاص الدّين عند الاضطرار لربِّ العالمين

اللّام في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معناها الاختصاصُ والتَّعليل، أيْ: مخلصين لأجلِهِ الدّين، ومختصّينَه بذلك الإخلاص، ويتأكَّد معنى الاختصاص بتقديم الجارّ والمجرور، فالتَّقديم مبالغةٌ فيه مع ما في التَّقديم من زيادة معنى الحصر، أيْ: مخلصين له الدّينَ وحدَهُ.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلدِّينَ﴾:

الدَّينونةُ للمعبود الأوحد منجاةٌ من عبوديّاتٍ لا تنفد

(أل) في لفظ ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لاستغراق خصائص الجنس، والمُراد بالدّين: العبوديَّة، من الدَّينونة، كأنَّه قيل: أخلصوا عبوديَّتهم كلَّها لله، فالأداة (أل)، لها معنى التَّأكيد للإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ إذ الإخلاص معناه انتفاء الشَّوائب، و(أل) أفادت استغراق الدّين كلِّه، فمعنى الاستغراق يستلزم ألّا شوائب ولا دَخَل.

نكتةُ حذفِ مُتعلِّق الدُّعاء:

في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حُذف متعلَّق

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 355، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 47.

كلُّ امرئٍ يدعو بمقالٍ وإن اتَّحد الموقِفُ في المآل

الدُّعاء فلم يُذكر بأيِّ شيء دعوا، وذلك لتعظيم أمر الدُّعاء، وأنَّه لِعموم الأهوال الَّتي نالَتْ منهم؛ تنوَّعت أغراضُهم في الدُّعاء، فكلٌّ يدعو بِهَمِّه، فتعذَّر التَّعيين لتفاوت أغراض الدّاعين، وأيضًا لتعجيب السّامع؛ لتذهب العقول فيما دَعَوا به كلَّ مذهبٍ[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

الــلــهُ سـريـعُ الإجابةِ لا يتأخَّرُ فَــرَجُــهُ عـن المُضطرّين

جملة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ معطوفة على جملة الشَّرط وجوابه: ﴿غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾، ومعنى الفاء التَّعقيب؛ لإفادة سرعة إجابتهم فور دعائهم مضطرين[2]، ومع الإجابة الفوريَّة، فهم لا يرجعون إلى اللّٰه، فإنابتهم تكون في الشِّدَّة اضطرارًا ثمَّ إذا كُشِفت عنهم الشِّدَّةُ رجعوا إلى ما كانوا عليه من شركهم وسوء أفعالهم.

دلالةُ (لمّا) على الشَّرطيَّة:

تتمايزُ معادن النّاس في السَّرّاء والضَّرّاء

جملة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ صُدِّرت بـ(لمّا) الحينيَّة الشَّرطيَّة غير الجازمة، وهي تستدعي فعلَيْن ماضيَيْن، الأوَّل: فعل الشَّرط، والثّاني: جواب الشَّرط، وتقدير الجواب هنا: (فلمّا نجّاهم؛ انقسموا، فمنهم مقتصدٌ)، فجملة: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ معطوفةٌ على الجواب، وليست هي الجواب، و﴿فَلَمَّا﴾ تُفيد الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، ومعنى شرطيَّتِها مُوجَب، فهي أداةُ وجودٍ لوجودٍ، أيْ: وجود الجواب لوجود الشَّرط، فهي تُفيد تَحقُّق الجواب بتحقيق الشَّرطِ، ومعنى التَّحقُّقِ ظاهرٌ في مجيء فعلَي الشَّرطِ وجوابه ماضيَيْن، وهي ظرفيَّةٌ بمعنى (حين)، فحين وقع الشَّرطُ حصلَ الجواب، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَيْن[3]، وجاء التَّركيب على أسلوب الشَّرط، ولم يجئ بالخبر؛ لأنَّه تعيينٌ لتوقيت انقسامهم بتعليقه على حين إنجائهم.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 207.

(2) نظم الدُّرر: 15/ 208، وصافي، الجدول: 11/ 98.

(3) عضيمة، دراساتٌ لأسلوب القرآن: 2/ 627، والخطيب، التفصيل: 21/ 169.

دلالةُ التَّضعيف في: ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾:

حين يلطف اللهُ يُذهِلُ ويُدهِش بعطاه

لم يقل في السّياق الكريم: (أنْجاهُمْ)؛ بل جاء بالتَّضعيف الدّالِّ على التَّعدية كالهمزة، إلّا أنَّه يزيدُ في إفادة المبالغة والكمال في الإنجاء، وتمام التَّمكُّن منه، أي: نجّاهم إنجاءً بالغًا تامًّا، ويدلُّ (فعَّل) أيضًا على التَّدريج، أيْ: نجّاهم شيئًا فشيئًا من تلك الأهوال، وفي التَّدريج كمالُ رحمةٍ؛ لأنَّ انتزاعهم من الأهوال فجأةً قد يودي بهم، وفيه عِبْرة؛ ليتمكّنوا من متابعة إنجائهم، وملاحظة حصوله، فيعتبروا، فالتَّدريجُ ألحظُ للمِنَّة[1].

نكتة تعديَةِ ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾ بـ﴿إِلَى﴾:

لُطفُ الله يمتدُّ بالعبد فوق ما كان يرجو

تعديَةُ التَّنجية بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾؛ للتَّنصيص على غاية الإنجاء، وتحقيق تخليصهم من الأهوال، ولذلك قيَّده بالبَرِّ، فلم يقل: (نجّاهم من الموج)، بل نجّاهم إنجاءً كاملًا تمكَّنوا فيه من الوصول إلى شاطئ السَّلامة[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَرِّ﴾:

مكانُ النَّجاةِ البرُّ المعلوم مقابل البحر الموسوم

(أل) في ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ للعهد؛ لأنَّه حصل إنجاؤهم في مكانٍ مُعيَّنٍ من البَرِّ؛ لكون الكلام على مُعيَّنَيْن، والبحر عنوان الشدَّة والأزمة، والبرُّ رمزٌ للرَّخاء والانفراج، ومتى مرَّ الإنسان بالحالَيْن؛ فهو قد مرَّ على الامتحان، وانقلب من العسر إلى اليسر، وهو على المحكِّ في تمييز حاله، بين أن يعتدل في جحوده وغلوائه، فيوفي بعهده لربِّه، أو يكون من الجاحدين، فينقلب على عقبيْهِ، وينسى ما مَنَّ اللّٰه به عليه، من نجاةٍ وفرجٍ.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾: للتَّفريع والتَّفصيل في الأقسام،

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 15/ 208.

(2) ابن عُثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 188.

المصاعب تُعيدُ الإنسان إلى الإيمان وقليلٌ مَن يثبتُ على الإيقان

وهي عاطفةٌ مدخولها على جواب شرط محذوف، والتَّقدير: (فلمّا نجّاهم إلى البَرِّ انقسموا؛ فمنهم كذا ومنهم كذا)، و(من) في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ للتَّبعيض، أيْ: فريقٌ منهم مُقتصدٌ، والتَّفريعُ يُفيد معنى التَّسبيب، أيْ: فتسبَّب عن إنجائهم انقسامُهم إلى مُقتصدٍ وإلى جاحدٍ، وجعل الإنجاء سببًا في انقسامهم؛ إشارةً إلى أنَّ اجتماعهم على الإخلاص كان بسبب عارضِ الاضطرارِ، فلم يكن عن رسوخٍ[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾:

الـوفـاءُ بعهد الله نجاةٌ ونكثُهُ هلاكٌ

تنكير لفظ ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ للتَّنويع، أيْ: نوعٌ منهم مُقتصدٌ، وقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾، أيْ: "عدلٌ موفٍ في البَرِّ بما عاهد عليه اللّه في البحر من إخلاص الدّين له، باقٍ على ذلك بعد أن نجّاه اللّه من هول البحر، وأخرجه إلى البَرِّ سالمًا"[2].

نكتةُ إيثار ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ على (قاصد):

الانسلاخُ من الفطرة تكلُّفٌ ينأى عن الطَّبعِ السَّليمِ

التَّعبير بـ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ دون (قاصِد) في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾؛ للدَّلالة على تكلُّف القصد الصّالح، وهو سبيل الوسطيَّة القائم بالقسط والحقِّ، وهذا على معنى أنَّ ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ معناه: مؤمن، وهو الظّاهر، وإن كان بمعنى التَّوسُّط بين الكفر والإيمان، وهي الذَّبذبة الَّتي يتنازع بها بين حال الاضطرار والإخلاص الَّذي كان عليه، وحال الكفر الَّذي كان عليه من قبل، فقال: ﴿مُّقۡتَصِدٞۚ﴾؛ ليدلَّ به على معنى التَّكلُّف والحَيْرة الَّتي في تلك الحال، ويدلَّ على أنَّ الزَّعزعة عن حال الإخلاص هي تَنَحٍّ عن الحال السَّهلة الأصيلة، ويكأنَّ الإنسان حتّى يحيد عن الفطرة لا بدَّ أن يتكلَّف؛ لأنَّه حينئذٍ على خلاف الأصل[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191، والخطيب، التّفصيل: 21/ 169.

(2) القنّوجيّ، فتحُ البيان: 10/ 301.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 217، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 208.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

أكثرُ النّاس يجحد بالله الغالبِ ولا يُبالي بالعواقب

قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ معطوفٌ على مُقدَّر: (انۡقَسَمُوا، فَمِنۡهُمۡ مُقۡتَصِدٌ)، وحذف المعطوف، وهو القسيم الثّاني، أيۡ: ومنهم جاحدٌ، بدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾، ونكتة الحذف: استِفادتُه من جملة الفاصلة، فحذفه طلبًا للإيجاز واستنهاضًا للأذهان أن تستنبط، وتتفاعل، وأيضًا لاستفادة التَّقليل من التَّبعيض في قوله: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾، فيفيد التَّبعيض مع حذف القسيم أنَّ المقتصد قليلٌ، وأنَّ الجاحد كثيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة: 49]، ولو لم يطوِ ذِكۡرَ الجاحد؛ لم يُلحظ ذلك، وطيُّ الجاحدِ من الاحتباك[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾:

الاستدلالُ بالعامِّ على الخاصِّ مُفيدٌ في الإبانة عن المعنى

جملة: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ استئنافٌ تذييليٌّ فيه معنى تعليل الجحود المفهوم من مضمون الجملة قبله بتقرير الوصف العامِّ المطَّرد في أفراده في كلِّ مقام، فيشمل مقام الفُلك المذكور وخلافه، كأنَّه قيل: كان منهم الجاحد بآيات اللّٰه وألطافه في الإنجاء من أهوال البحر وأخطاره؛ لأنَّ هذا دأب كلِّ جاحدٍ في كلِّ وقتٍ، فلا يجحد بآياتنا إلّا كلُّ ختّارٍ كفور، فالتَّذييلُ من باب الاستدلال بالعامِّ على الخاصِّ، أيۡ: الاستدلال على جحود النّاس رغم الإنجاء من الفلك، وهو أمرٌ خاصٌّ بتقرير أمرٍ عامٍّ يُعلِّل ذلك الجحود، ويُزيلُ التَّعجيب منه والاستغراب، وهو ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾.

بلاغةُ الاستثناء المُفرَّغ في السّياق:

لا يُؤمَنُ الغادِرُ مع ربِّه وكلُّ ناكِثٍ لعهده منبوذٌ مطرودٌ

جاء التَّذييلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ على طريقة النَّفي والاستثناء المفرَّغ من عموم الأحوال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 209.

لتقرير العموم وتأكيد المضمون، ولإظهار التَّركيب بمظهر الأمثال السّائرة، والأحكام المُقرَّرة، والقوانين المُشتَهِرة المحفوظة والجارية على الألسن، فكأنَّه قيل في الاستثناء: ما يجحد بآيتنا في كلِّ حالٍ من الأحوال إلّا كلُّ ختّار كفور، فالاستثناء يفيد الحصرَ وتوكيد العموم والشُّمول(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَجۡحَدُ﴾:

الجحودُ أشدُّ الإنكار والختر أشدُّ الغدر

عُبِّرَ بالجحود في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾؛ ليدلَّ به على تمحُّض الختّار الكفور في النَّفي والإنكار القلبيِّ للحقيقة الَّتي أبصرها وشهدها، فالجحودُ على هذا أعلى مراتب النَّفي والإنكار، وقد اصطفاه هنا؛ لأنَّهم عاينوا الإنجاء، وعاينوا في أنفسهم الاضطرار إلى الرَّحمن، فرغم الشُّهود حصل الجحود، فكان الإنكار في هذا المقام جحودًا لا مجرَّد إنكارٍ، وأيضًا عبَّر بالجحود؛ ليتناسب مع وصفه الفاعل بالختّار، فإنَّ الخترَ أشدُّ الغدر، فاللّائق به الجحود، وهو أشدُّ الإنكار والنَّفي(2).

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾؛ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، مثل قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6](3).

نكتةُ جمعِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مضافةً إلى الضَّمير:

تكون الخسارةُ عظيمةً بقدرِ جحدِ الآياتِ الكريمةِ

جمع الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لإفادة أنَّها آياتٌ كثيرة، ومع كثرتها وتظاهرها؛ جحدها الكافر، وما أغنتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (جحد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 21/ 250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 192.

عنه شيئًا، ففي الجمع تعريضٌ به، وتسجيل عليه، وإضافةُ الآياتِ لنون العظمة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ للإنباءِ بمقدار الخسارة الَّتي لحقته بجَحْده الآيات، فهي خسارةٌ عظيمة؛ لأنَّها ليست كأيِّ آياتٍ، بل هي آياتٌ عظيمة؛ لكونها منسوبةً ومُضافة إلى الله العظيم ﷻ، فعلى قدر عِظَمِ الآيات كانت خسارتهم عظيمةً وبالغةً بسبب جحدها، وفوات انتفاعهم بها.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

الدُّعاءُ مبنيٌّ على شهودِ الغيبِ والتَّعلُّق بجلال الله وكماله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، انتقالٌ من الغيبة إلى التكلُّم، فلم يقل: (وَما يَجْحَدُ بآياته)؛ لكون الدُّعاء مبنيًّا على شهود الغيب ومُطالعة الجلال، والتَّعلُّق بالكمال الأعلى، لا سيَّما عند الاضطرار، فلتحقيق المناجاة وإيقاعها موقع الإخلاص والاضطرار، وشدَّة الرَّغبة في النَّجاة؛ التفت إلى الخطاب لكمال الإقبال على المخاطَب سبحانه.

بلاغةُ الاحتباكِ في الفاصلتَيْن:

إلحاقُ النَّظير بنظيره مفيدٌ في البيان عن تعبيره

سبق بيان أنَّ في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ احتباكًا دلَّ على المقابل المحذوف، والتَّقدير: (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ومِنْهُمْ جاحِدٌ)، فكذلك هنا في الفاصلتَيْن احتباكٌ أيضًا في قوله: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، وقوله: ﴿خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾، بجعْلِ المقتصد إزاء الصبّار الشَّكور، وجعْلِ الجاحد إزاء الختّار الكفور[1].

بلاغةُ المقابلة والطِّباق في الفاصلتَيْن:

الغادِرُ لا يصبر على المودَّة ولا يُؤتَمَن له جانبٌ

في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ وقوله: ﴿خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ بين (الصّبّار) و(الختّار) طباقٌ؛ لأنَّ مَن غدر؛ لم يصبر على العهد[2]، وبين (الشّكور) و(الكفور) طباقٌ كذلك، ومجموع الفاصلتَيْن

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 209.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 104.

بالاحتباك المُقدَّر بينهما مقابلة، فالمقتصد الصَّبّار الشَّكور، يُقابل الجاحدَ الختّار الكفور[1].

غرضُ صيغة المبالغة: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾:

لمراعاة تمام المقابلة بين الفاصلتين في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ جاء ﴿خَتَّارٍ﴾ على وزن ﴿صَبَّارٍ﴾، وجاء ﴿كَفُورٍ﴾ على وزن ﴿شَكُورٍ﴾؛ لتحقيق المقابلة وزنًا ومعنًى[2]، ومن غدره أنَّه عاهد ربَّهُ لئن أنجيتنا من البحر وشدَّتِهِ؛ لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يَفِ بذلك، فهل يليق بمَنْ نجّاهم اللّه من هذه الشدَّة إلّا القيام التام بشكر نِعَمِ اللّه؟.

الصَّبْرُ رأس الفضائل والصّابرون صفوةٌ أماثل

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُلك والسَّفينة:

السَّفينة تُقال باعتبار الحركة الظّاهرة على وجه الماء، وهي حركةٌ ينتجُ عنها تنحية الماء، كأنَّها تنحَّت فيه، وتقشَّر سطحه عن سائره، والفُلْك تُقال باعتبار كيفيَّة هذه الحركة في انطلاقها ومآلها، فهي حينما تذهب، وتعود، صارت كأنَّها تدور، وباعتبار هيئة الاستدارة الغالبة عليها، أو المقاربة لها، وعبَّر هنا بالفلك؛ لمناسبة الدَّلالة على كيفيَّة الحركة غير المرئيَّة، وهي الحاصلة بالجري في الماء، أيّ: داخله، وهذه الكيفيَّة دلَّ عليها حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ولم يقل: (على البَحْرِ)؛ لأنَّه أراد ما ليس ظاهرًا، ولذا ناسبه التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾.

السَّفينةُ حركةٌ ظاهرةٌ على الماء والفُلك مبدأُ هذه الحركة وغايتها

الجحود والنُّكران:

الإنكار نوع من الجهل، والجهل فيه خفاء الدَّليل؛ ولذا استعمل الإنكار في الشَّيء الخفيِّ الَّذي لا يظهر دليله[3]، ولذا فقد استعمل

ما جاء جاحدٌ بخيرٍ قطُّ والجحود آفة الشُّهود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 209.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 424.

(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 175.

الجحود هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لأنَّه كان مقترنًا برؤية الآيات والعلم بها، والتَّحقُّق منها، بل كان عن تجربةٍ حين عاينوا إنجاءهم من الأهوال، بعدما دعوا اللّه مخلصين له الدّين، فلم يكونوا جاهلين أو معذورين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين نكران الإنعام والدَّعوة إلى التَّقوى والخشية وترك الغرور بالدُّنيا

لمّا ذَكر اللّه تعالى الدَّلائل على أصل الألوهيَّة وعقيدة اليوم الآخر في الآيات السّابقة؛ أمر بالتَّقوى على سبيل الموعظة والتَّذكير بهذا اليوم العظيم[1]، حيث لا ينفع الإنسانَ في ذلك اليوم إلّا إيمانُه بربِّه، وإخلاصه العبادة له، وعمله الصّالح الَّذي قدَّمته يداه، ولذلك يأمر اللّه تعالى العباد بألّا تُلهيهم الحياةُ الدُّنيا بزُخرُفها المُغري وزينتها الجذّابة ومتاعها الأخّاذ عن العمل النّافع ليوم المعاد[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡشَوۡاْ﴾: (خشي) أصلٌ يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ المَجازُ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ[3]، يُقالُ: خَشيَهُ يَخْشاهُ خَشيًا، وخشيَهُ، أيْ: خافَهُ، وذُعِرَ مِنْهُ، وقيلَ: الخَشْيَةُ خوفٌ مع تَعظيم، وأكثر ما يكونُ ذلك عَن عِلْم بما يَخافُ مِنْهُ[4]، ويُقالُ: هذا المَكانُ أَخْشَى مِنْ ذلكَ، أيْ: أشَدُّ خَوْفًا، وتأتي الخشيَةُ بمعنى: تألُّم القَلْب بسبب توقُّع مكروهٍ في المُستَقبَل[5]، والمُرادُ بالخَشْيَةِ في الآيةِ: شِدَّةُ الخَوْف.

2) ﴿يَجۡزِي﴾: أصلُ (جزي) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ غيره ومُكافأته إيّاه، يُقالُ: جَزيتُ فلانًا أجزيه جزاءً، وجازيته مُجازاةً[6]، وقد ورد

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 424.

(2) حومد، أيسر التفاسير، ص: 3383.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خشي).

(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).

الجَزاء في القرآن على ستَّة أوجهٍ: الأوَّل بمعنى: المكافأة والمقابلة، كما في [اللّيل: 19]، والثّاني بمعنى: الأداءِ والقضاءِ، كما في [البقرة: 84]، والثّالث بمعنى: الغُنْية والكفاية، كما في [لقمان: 33]، والرّابع بمعنى: العِوَض والبَدَل، كما في [المائدة: 95]، والخامس: خَراج أهل الذِّمَّة كما في [التّوبة: 29]، والسّادس بمعنى: ثواب الخَير والشرِّ، كما في [غافر: 17][1]، والمقصود بالجَزاءِ في الآية: الـمُكافأةُ على عَمَلٍ حسَنٍ بِشيءٍ مِثلِهِ في الحُسْنِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدُّنيا والشَّيطان سببان يَحُولان بـيـنَ المَـرءِ وخَشيتِه للآخرة

يختمُ اللّه سبحانه آياتِ هذه السُّورةِ بدعوةِ النّاسِ إلى تَقْواه والاستعدادِ ليوم الحسابِ، فيقولُ: يا أيُّها البشر من كفّار ومؤمنين، خافوا اللّه الَّذي خلَقكم، ورزقَكم، وسخَّر لكم هذا الكون، واحذروا عقابه، واخشوا يومًا شديد الهول، هو يوم القيامة الَّذي لا يُغني فيه والدٌ عن ولده، ولا ولدٌ عن والده؛ إذ لا يستطيع أحدٌ أن يشفع لأحدٍ إلّا بإذن اللّه، ولا منجى إلّا بالعمل الصّالح الحاصل في الحياة الدُّنيا، وإنَّ البَعث يومَ القيامةِ واقِعٌ - لا محالةَ - فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها الأخّاذة ولَذّاتِها الخلّابة عن التَّزَوُّدِ للآخِرة، والعمل لها بالمثابرة، واحذروا أنْ يُغويكم الشَّيطانُ، فيَصرِفَكم عن طاعةِ الرَّحمن، أو يَغُرَّكم بحِلمِ اللّهِ وإمهالِه، ويُمَنِّيَكم بالأمانيِّ الزّائلة الباطِلة[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الفذلكة في سياق الآية:

خير ما تُختم به المقالات التَّذكيرُ بـتـقـوى ربِّ الكائنات

جملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ استئنافٌ في موقع الفذلكة والنَّتيجة ممّا

(1) الرّاغب، المُفردات: (جزا)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 380.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 582، والواحديّ، التفسير الوسيط: 3/ 447، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 652.

قبله، فموقعُ هذه الآية بعد ما تقدَّمها من الآيات هو موقع مقصِد الخطبة بعد مقدِّماتها؛ إذ كانت المُقدِّمات الماضية قد هيَّأت النُّفوس إلى قبول الهداية، والتَّأثُّر بالموعظة الحسنة، ولذلك جاءت نداءً لعموم النّاس؛ لأيلولة جميع النّاس إلى ذلك المصير الَّذي قرَّرته، والَّذي لا بدَّ أنْ يتوفَّروا جميعًا على اتِّقائه، والحذر من غائلته وأهواله[1].

وتوجيه النِّداء للنّاس بالأمر بالتَّقوى فيه جنوحٌ مُشفقٌ إلى العِظَة والتَّخويف من لقاء الله، فتوجَّه هذا النِّداء الَّذي تُحسُّ منه الأنفس البشريَّة معاني الإشفاق ولمسات الرَّحمة والعطف والإحسان في خطاب يعمُّ جميع المخلوقين مؤمنين ومشركين، حتّى تنقطع منهم الأعذار، ولا يبقى لأحدٍ عتب ولا تعلَّة[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

التَّقوى هي وصيَّة الله للبشر أجمعين في كلِّ وقت وحين

(أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للعموم، وهو الظّاهر لعدم توقُّف مضمون الخطاب على فئة دون فئة، فالتَّقوى تكليفٌ عامٌّ في كلِّ جيلٍ وزمان، ولتقدُّم ما يشمل المؤمن، ويشمل الكافر في هذه السّورة في قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾ [لقمان: 22] ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [لقمان: 23]، فلا غرابة أن يُعقبَ ذلك بما يصلح لكلا الفريقَيْن، ولذا جاء الخطاب عامًّا لكلِّ النّاس، وقد يكون الخطاب من العامِّ الَّذي أُريد به الخاصُّ، ويكون الخطاب خاصًّا بالمشركين جريًا على ما رُوي عن ابن عبّاس أنَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ لأهل مكَّة، فالمراد بالتَّقوى: الإقلاع عن الشِّرك[3].

دلالةُ الأمر بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾:

الله حقيقٌ بأن يُتَّقى لكونه العظيم لا يُنازَع في ملكه

الأمر بتقوى الله في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فيه إيذانٌ بوحدانيَّته سبحانه؛ لأنَّه تعالى لمّا كان واحدًا؛ أوجب التَّقوى البالغة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 193.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 193.

فإنَّ مَن يعلم أنَّ الأمر بيد اثنَيْن؛ فإنَّه لا يخاف أحدَهما مثلَ ما يخافُ لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير؛ ولذلك كانت التَّقوى جِماعَ كلِّ تكليفٍ ومقصوده، حتّى العبادة جُعِلَتْ لالتماس ذلك الغرض، فجُعِلَتِ التَّقوى غايةً لها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21][1].

نكتةُ حذف مُتعلّق التَّقوى في الآية:

التَّقوى مأمور الرَّحمن في كلِّ حالٍ وآنٍ

لم يُعيِّن الخطاب القرآنيُّ للتَّقوى مجالًا، في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، فلم يقلِ: اتَّقوه في أيِّ شيءٍ؛ لأنَّ التَّقوى حاصلة على التَّعميم في جميع المواقف والأحوال والأشخاص والأزمان، فهي واجب كلَّ وقت، ومهمَّة كلِّ إنسان، وقضيَّة العُمُرِ في كلِّ مرحلة، ومفاد الآية أنِ اتَّقوه في قبول طاعته والعمل بمرضاته، بحيث إنَّ التَّقوى مُفضيةٌ إلى الخوف من اللّه، ومراقبته في السِّرِّ والعلن، والخوف من يوم القيامة، يوم لا شفاعة فيه إلّا بالإيمان والأعمال الصّالحة المخلصة[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَبَّكُمۡ﴾:

الرُّبوبيَّةُ مع التَّكليف تطمين للقلوب وتأليف

التَّعبيرُ بلفظ الرُّبوبيَّة مُضافًا إلى ضميرهم في قوله تعالى: ﴿رَبَّكُمۡ﴾، هو من باب اقتران التَّكاليف بما يتضمَّن التَّرغيب فيها، والإعانة عليها، فإنَّ الرُّبوبيَّة ترغيبٌ بالإحسان وترهيبٌ بما يُصلِح، ويُربّي من العقاب والشِّدَّة[3]، وفي التَّعبير بالرُّبوبيَّة - أيضًا مع الأمر بالتَّقوى - ما يحمِل المُخاطَبَ على محبَّة الآمِر ﷻ، فيتألَّف قلبُهُ، وتتطاوع نفسُهُ عند تلقّي الخطاب، فيمتثِل على محبَّةٍ ورغبةٍ، ففي التَّعبير بالرُّبوبيَّة مع الخطاب بالتَّكليف كنايةٌ عن الوعد بالإحسان والعطاء عند الاستجابة والوفاء به.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 132.

(2) مكّي بن أبي طالب، الإبانة عن معاني القراءات: 9/ 3757.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 210.

دلالةُ إضافة الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير:

إضافة الرُّبوبيَّة إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فيه إشارة إلى وجوب استمرارهم على التَّقوى، كما أنَّ اللّه سبحانه هو ربٌّ لهم على الدَّوام[1]، والمعنى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الَّذي ربّاكم بنعمه في جميع أطواركم بقبول التَّوحيد وامتثال المأمورات، والتَّبرّي من الكفر واجتناب المنهيّات، واجعلوا التَّقوى وقايةً وسترًا لكم من عذاب ربِّكم[2].

التَّقوى هي تكليف المأمور وخشية الآمر

دلالةُ عطف قوله: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ﴾:

جملة ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ للجمع بين التَّكليف وجزائه، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أمرٌ وتكليف، وقوله: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ كناية عن جزاء ذلك وعاقبته، فهو في معنى: احذروا أن تخالفوا ذلك، فإنَّ له يومًا لحسابكم وسؤالكم عنه، والجملتان وإن كانتا متعاطفتين إلّا أنَّ بينهما علاقةً تعليليَّة في المعنى، فالتَّكليف مُعلَّلٌ بالجزاء عليه، كأنَّه قيل: اتَّقوا ربَّكم؛ لأنَّكم مجزيّون على ذلك، فانتبهوا، واحذروا يوم الجزاء أنْ تكونوا فيه من المُضَيِّعين.

التَّكليفُ الشَّريفُ مُحذِّرٌ من العاقبة والمصير المُخيف

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في معمول الخشية:

في معمول الخشية: ﴿يَوۡمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ، إذِ الخشية في الحقيقةِ ليست لليوم، لِما يَقَعُ فيه من الهَوْلِ والعذاب؛ إذ الزَّمان لا يُخشى لذاته، ويصحُّ أنْ يكون إيقاع الخشية على الظَّرف حقيقيًّا لا مجاز فيه باعتبار أنَّ ذلك اليوم حقيقٌ في نفسِه بأن يُخشَى؛ لأنَّه ليس كسائر الظُّروف والأوقات، بل هو مُعَدٌّ ومجعولٌ لتلك الشَّدائد والأهوال، فليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه[3].

يوم الحساب زمانٌ لا كسائر الأزمان

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 210.

(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 300.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 193.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿يَوۡمٗا﴾:

نُكِّر ﴿يَوۡمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾؛ للتَّهويل والتَّعظيم، أيْ: يومًا خيرُه عظيمٌ للطّائعين، وشرُّه جسيمٌ على العاصين، لا يشبه الأيّام، ولا يُعدُّ هول البحر الَّذي حصل منه الغوث، ولا هولُ غيرِه شيئًا يُذكر عند أدنى هولٍ من أهواله بوجهٍ من الوجوه[1]، والمعنى المُوجَّه في هذا السّياق للبشر أنَّه "يا أيُّها المشركون من قريش وغيرهم، اتَّقوا اللّه، وخافوا أن يحلَّ بكم سخطه في يوم لا يُغني والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو مُغنٍ عن والده شيئًا؛ لأنَّ الأمور كلَّها بيد مَنْ لا يُغالَب، ومَنْ لا تنفع عنده الشَّفاعة والوسائل الَّتي تنفع في الدُّنيا"[2]، وفي هذا إبرازٌ للهول وتخويفٌ من مَغَبَّة ذلك اليوم العظيم.

يومُ الحسابِ عظيمةٌ آثارُه جليلةٌ أخطارُه

بلاغةُ الكناية في خشية اليوم:

الأمر بخشية اليوم في قوله سبحانه: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾ كنايةٌ عن وقوع ذلك اليوم ومجيئه، وعن إثبات البعث، وعن كونه مَحلًّا للثَّواب والعقاب، وإلّا ما كان يقع عليه التَّكليف بخشيته والحذر منه، وكناية عن التَّخويف من مظروفاته الحادثة فيه من الحساب والميزان ومستتبعاتهما[3].

لا يؤمَر العبدُ إلّا بمُمكنٍ ولا يتعلَّق تكليفُه إلّا بواقعٍ

نكتةُ فصل جملة ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ﴾:

جملة: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ في محلِّ نصب صفة لـ﴿يَوۡمٗا﴾، والرّابط محذوف، والتَّقدير: (لا يَجْزي فيهِ)؛ ولذلك فُصِلَت الجملة، ولم تُوصل بعاطفٍ؛ لأنَّ الوصف من مُوجِبات الفصل، وبين هذه الجملة وما قبلها كمالُ اتِّصالٍ[4].

الـوصـفُ من مُوجِبات عدم العطفِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 211.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 193.
(4) الخطيب، التّفصيل: 21/ 171.

بديعُ الإشارةِ في حذف العائد:

قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ﴾ حذف منه الضَّمير العائد على مفعول الخشية، أيِّ: لا يجزي فيه والد، أيِّ: لا يُغني في ذلك اليوم والدٌ عن ولده شيئًا، وفي حذف العائد المُقدَّر بما سبق نكتة بديعة، وهي أنَّ هذه الحال من عدم الإغناء هي حالٌ ملازِمة لهم دائمًا في هذا اليوم وفي غيره، إلّا أنَّه سبحانه أقام في هذه الدّار أسبابًا ستر قدرته بها، فصار الجاهل يُحيل الأمر، ويُسنده إليها، وأمّا هناك في يوم البعث؛ فتزول تلك الأسباب، وينجلي غمام الارتياب، ويظهر اختصاص العظمة بربِّ الأرباب[1].

سوف تتولّى في القيامة كلَّ أمرك وما حكَّ جلدَك مِثْلُ ظفرك

دلالةُ المضارعةِ في قوله: ﴿لَّا يَجۡزِي﴾:

التَّعبير بالمضارعة في قوله تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ إيذانٌ بأنَّ الوالد لا يزال تدعوه الوالِديَّة إلى الشَّفقة على الولد، وتجدُّد العطف عليه والرِّقَّة به، فالمضارعة تدلُّ على استمرار ما في حيِّز النَّفي[2].

الوالديَّةُ غريزةٌ مستبدَّةٌ وستبقى رغم عدم النَّفع

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿وَالِدٌ﴾:

تنكير ﴿وَالِدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ﴾؛ لتعميم نفي الجزاء عن كلِّ والدٍ، فلا يمكن لوالدٍ أن يجزي عن ولده شيئًا، فشأن الجزاء كلِّه بيد الله وحده، و﴿وَالِدٌ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي، فتعمُّ، فيشمل الأب والجدَّ والأمَّ والجدَّة، وإن عَلَوا[3].

التَّعبيرُ بالوالدِ دون الأبِ للدَّلالة على الصُّلبيَّةِ

نكتةُ تعدية ﴿يَجۡزِي﴾ بـ﴿عَن﴾:

﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ للمجاوزة المجازيَّة، والمجاوزة هنا منفيَّةٌ، كأنَّه قيل: لا يتجاوزهم إغناؤهم إلى أولادهم، إنَّما يُغني كلُّ امرئٍ عن نفسِه بما قدَّم من العمل، فنفي

عبَّر بالجزاء ليتناسب مع يوم الحساب المذكور

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 15/ 211.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 15/ 211.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 194.

المجاوزة المدلول عليه بـ﴿عَن﴾ يدلُّ على الانحباس والانحصار، أيْ: كلٌّ مُنحبِسٌ ومحصورٌ في جزاء عمله، فلا يتجاوز ذلك المقام بالإغناء عن غيره.

علَّةُ البدءِ بالوالِدِ قبل الولدِ:

الـوالـدُ أسـبقُ مـن ولـدِهِ في الـذِّكـر والـواقع والاعتبار

ابتدأ الخطابُ القرآني الحكيم بذِكْر الوالد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ لأنَّه أسبق وأشفق وأعرق، فالوالد أسبقُ في الوجود، وهو السَّبب في وجود ولده، فكان حقُّه التَّقديمَ، والوالد أشفق وأرحم من ولده به، والوالد أعرق في رحمته بولده، والحرص على مصلحته، فشفقة الوالد - مع شمولها لجميع أيام حياته - أعظم، فهو يُؤْثِرُ حياة ولده على حياته، ويؤثِر أن يحمِل بنفسه الآلام والأهوال[1].

عِلَّةُ تأخيرِ الولدِ في السّياقِ الأمجدِ:

الـولـدُ أولَى ألّا يجزي عن والده شيئًا

أُخِّر الولدُ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّ الوَلَد لا يُتوقَّع منه الإغناء عن والده - عادةً - إلّا بعد بلوغه، فهو متأخِّرٌ عنه في الوجود، وفي البِدار إلى التَّحمُّل عنه[2].

نكتةُ تخصيص الوالد والولد بالذِّكر:

إذا كان الانفكاك حـاصـلًا بـين الـوالـد وولـده فغيرهما أولَى به

خصَّ علاقة الوالديَّة والمولوديَّة في عدم الإغناء الأخروي في الآية دون غيرها من العلاقات؛ لأنَّ الوالد وولده أشدُّ محبَّةً وحميَّةً من غيرهما، فيُعلَم أنَّ غيرهما أولى بما في حيِّز النَّفي من الحكم[3]، وفي هذا المضمار يقول أبو السُّعود: "وتغييرُ النَّظم للدِّلالة على أنَّ المولودَ أولى بألّا يجزي، وقطع من توقَّع من المؤمنينَ أنْ ينفع أباهُ الكافرَ في الآخرة"[4]، ولا ريب أنَّ في الآخرة انقطاعًا للنَّفع بين البشر، وسيكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 211.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 193.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 77.

كلُّ مخلوق من النّاس في غبن ومشقَّة، ولذلك فهو في غمرة ذلك الهول سوف ينسى النّاس، ولو كانوا أقربَ الأقربين إليه، وهو ما ذكره تعالى في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: 34 - 37].

نكتةُ الجمعِ بين نفي الجزاء في الوالد والولد:

لم يكتفِ بنفي الجزاء في الوالد عن الولد، بل جمع بين نفي الجزاء في الطَّرفَيْن؛ ليشمل الفريقَيْن في الحالتَيْن، فلا يتوهَّم أنَّ أحد الفريقَيْن - الوالد أو الولد - أرجى من نظيره في التماس الإغناء والشَّفاعة منه، ولو امتنع بذلها من نفسه له[1].

كما كُلِّفَ الإنسان وحده استقلالًا يُحاسب وحده استقلالًا

دلالةُ حذف مفعول (الجزاء المنْفيِّ) عن الوالد:

حُذِفَ مفعول الجزاء المنفيِّ عن الوالد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ لتأكيد نفي الجزاء والتَّشديد عليه في حقِّ الوالد، واحتيج لذلك؛ لأنَّ ذلك على خلاف جبلَّة الوالد بالكلِّيَّة، فلكونه محلَّ توقُّع أن يفعل لولده ما يقدر عليه من المصلحة والخير - ولو شيئًا يسيرًا - نُفي عنه كلُّ مقدارٍ في ذلك، فحذف المفعول؛ للدَّلالة على انقطاع ذلك عنه أبدًا، وإنَّما ذكر المفعول في الولد، فقال: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ ليختتم الكلام بما يحسِم المفعول؛ لئلّا يقع السّامع في الإبهام في الطَّرفَيْن، ولأنَّ ذِكْر ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ يصلح للاستدلال به على المفعول المحذوف من الوالد، فيكون صالحًا للطَّرفَيْن، ولذا ساغ في إعرابه أن يكون مفعولًا به يتنازعه عاملان: ﴿يَجۡزِي﴾، و﴿جَازٍ﴾[2].

الوالدُ يُسْلَبُ منه إمكان الاعتماد عليه من ولده الأثير لديه

نكتةُ العدولِ عن الفعليَّة إلى الاسميَّة:

العدولُ في أسلوب النَّظم من الفعليَّة إلى الاسميَّة في قوله تعالى:

انتفاءُ نفع الولد لوالده في الآخرة آكَدُ وأثبت منه في الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 194.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 212، والخطيب، التّفصيل: 21/ 172.

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت السَّلب العامِّ؛ لأنَّه إذا ثبت نفي الجزاء عن الوالد لولده، فإنَّ نفي الجزاء عن الولد لوالده أشدُّ ثبوتًا؛ لأنَّ الولد أقصرُ في الإحسان على أبيه مِنْ أبيه منه عليه، ولأنَّ الولد يتأخَّر نفعه لوالده غالبًا، حتّى يستوي، ويشتدَّ، فإحسانه إليه أضعف من إحسان أبيه إليه؛ ولأنَّه فرع أبيه ومن كسْبه، والفرع لا يغلب أصلَه، فكان نفي الجزاء عنه أوقعَ وأوكدَ، فناسب التَّعبير بما يدلُّ على الثُّبوت وهو الاسميَّة[1].

دلالةُ تزاحم المؤكّدات في الآية:

الـولـدُ دون الوالدِ في الحُنوِّ والشَّفَقَة غريزةً وواقعًا معيشًا

تأكَّدتْ جملة: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾، بطُرُقٍ من التَّوكيد لم تشتمل على مثلها جملة: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، فإنَّها نُظِمت جملة اسميَّة، ووُسِّط فيها ضمير الفصل، وجُعِل النَّفي فيها منصبًّا إلى الجنس، ونكتة هذا الإيثار: مبالغةُ تحقيقِ عدم جزاء هذا الفريق عن الآخر[2]، وعلَّة ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ المولودَ أولى بألّا يجزي، وعلى قطعِ طمعِ من توقَّع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة[3]، ذلك أنَّ أكثر المسلمين في زمن ذلك الخطاب كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر، فلمّا كان غِناء الكافر عن المسلم بعيدًا؛ لم يحتج نفيه إلى التَّأكيد، ولمّا كان غِناء المسلم عن الكافر ممّا يقع في الأوهام، ويُحتمَل تصوُّره؛ أُكِّد نفيُه.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿مَوۡلُودٌ﴾:

المـولـودُ نـفـعُـهُ لوالدِهِ مفقودٌ

تنكيرُ مولود في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ﴾ للعموم، أيّ: أيَّ مولودٍ كان[4]، وأصل المعنى: أنَّه لا يتحمَّل والدٌ العقوبةَ عن ولده، ولا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 194.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 218.
(4) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 15/ 212.

مولود العقوبة عن والده، بل يجزي كلٌّ منهما بما فعل واكتسب[1]، واستعمل لفظ المولود للإشارة إلى أنَّ آصرة القُربى الَّتي تربط الطَّرفَيْن هي الولادة، وهي علاقة وثيقة، ولكنَّها أقلُّ متانةً وتضحيةً من علاقة الوالديَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم في قوله: ﴿جَازٍ﴾:

المفروضُ أن يُكافِئَ الولد والده؛ لِعَظَمِ حقِّ الوالد

التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿جَازٍ﴾ دون الفعل (يجزي)؛ للدَّلالة على أنَّه لو كان هذا الولد من شأنه الجزاء عن والده بحيث صار ذلك وصفًا ثابتًا له، فلن يكون جازيًا في ذلك اليوم عنه، وسينتفي عنه ذلك، أو المعنى: أنَّه لعظيم حقِّ الوالد على الولد اقتضى أن يتَّصف الولد بما يُضاهي هذا الحقَّ الكبير لوالده عليه، فلا بدَّ - إذا وقع منه الجزاء والإغناء عن والده - أن يكون ذلك من شأن الولد ومتحقِّقًا به، ولذلك قال: ﴿جَازٍ﴾[2].

نكتةُ العدول عن (ولد) إلى ﴿مَوۡلُودٌ﴾:

إشارةُ التَّعبيرِ بالمولود إلى يقين تقاصره عن المجازاة

لم يقل في السّياق الكريم: (ولا ولدٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا)، كما قال: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، لكنَّ السياق عدل من (الولد) إلى (المولود)؛ للتَّنبيه على متين العلاقة بين الرَّجل وابنه، وهي المولوديَّة، فالوالد هو سبب ميلاد ابنه، فهو مُتولِّدٌ عنه، وهو بعضُه قطعةٌ نابتةٌ منه، ومع ذلك فإنَّ تلك المولوديَّة لن تصلح أن تكون مُسوِّغًا يُمكِّن الولد من الإغناء عن والده، فالتَّعبيرُ بالمولود كنايةٌ عن الصِّلة الَّتي تَمْزِج الولد بالوالد، ومع ذلك فلا أثر لذلك في هذا اليوم الأجرد من معهودات الدُّنيا في العلاقات والصِّلات[3].

المولودُ هو مَن وُلِد بغير واسطة بخلاف الولد فإنَّه عامٌّ

تفريعًا على ما سبق؛ فقد أثبتوا فرْقًا بين المولود وبين الولد، وهو أنَّ المولود هو مَن وُلِد بغير واسطة بخلاف الولد، فإنَّه عامٌّ يشمل ولد

(1) الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 503.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 194.

الولد وهو الحفيد، فإذا أفادت الجملة أنَّ الولد الأدنى لا يجزي عن والده، عُلِم أنَّ من عداه مِن ولَدٍ لا يجزي عن جدِّه من باب أولى[1].

تنكيرُ لفظِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في السّياق:

إذا انتفى النَّفعُ؛ فلا يتأتّى في أيِّ لونٍ من الألوان كان

تنكير ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ التَّنكير للعموم، وقد يكون للتَّنويع، أي: لا يجزي شيئًا من أنواع الجزاء وأفراده، والمعنى هنا: ولا شيء، حتّى كلمة شفقة، وكلمة حنوٍّ، وكلمة شفاعة؛ إذ لا يشفع أحدٌ عنده في هذا اليوم العصيب الشَّديد إلّا بإذنه[2].

دلالةُ جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾:

إثبات أحقّيَّة الوعد الإلهيِّ تأكيدٌ لوقوعِ الحسابِ

جملة ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ استئناف بيانيٌّ[3]، أو جملة تعليليَّة ممّا قبلها، كأنَّه قيل: ذلك المذكور من الأمر بتقوى اللّه، والرَّهَبُ من اليوم الآخر؛ لأنَّ وعد اللّه حقٌّ، فأغنَتْ ﴿إِنَّ﴾ عن حرف التَّعليل[4].

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

عادةُ الإنسان أن يلهو وطبع الحياة لهو ولعب

افتُتِحَت جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ بحرف التَّوكيد؛ مراعاةً لمنكري البعث وتذكيرًا للمؤمن، فإنَّ عادة الإنسان أن يلهو، ويخِفَّ انعقادُ قلبه على الثَّوابت، فيحتاج إلى توكيدٍ لا عن إنكارٍ أو تردُّد، بل عن تثبيتٍ وزيادة في التَّحقيق، وأيضًا لمّا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ يقرِّر ركنًا من أركان الإيمان بالغيب؛ كان حقيقًا بتوكيده لجميع المخاطَبين[5].

نكتةُ إضافةِ الوعد إلى لفظ الجلالة:

وعدُ الله مُنزَّهٌ عن الإخلاف؛ لأنَّه لا يُخلف الميعاد

إضافةُ الوعد إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 504.
(2) الكتانيّ، تفسير القرآن الكريم: 3/ 186.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 194.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 194.

لتعريف الوعد، فالإضافة للعهد، أيْ: وعد اللّه بالثّواب والعقاب والحساب[1]، وفي الإضافة نوعُ تعظيم وتنزيهٍ لذلك الوعد عن الإخلاف؛ لأنَّه منسوبٌ ومضاف إلى اللّه العظيم، وإذا كان ذلك كذلك، فلا بدَّ أن يكون حقًّا وصدْقًا - لا ريب فيه - ولا يُخلَف.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿حَقٌّۖ﴾:

وعـدُ الـلـه حقٌّ وكلُّ حقٍّ معهود فهو مقصود

تنكيرُ ﴿حَقٌّۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ للجنس، أيْ: من جنس الحقِّ الثّابت المُقرّر، ومفادُه أنَّ وعد اللّه يقينٌ لا ريب فيه، وهو حَقٌّ كائنٌ بما نصَّت عليه الآيات، إذ كلُّ ما ورد عن اللّه في الوعد والوعيد، ممّا وجَّه للأمم السّابقة قد وقع بالفعل، وأنَّ الموعود به للآخرة سيكون حقًّا، وأنَّ الإيمان به واجبٌ؛ لأنَّه جزءٌ من العقيدة، ولهذا جاء مؤكّدًا، ومُبيّنًا عن الدَّلالة المُتوخّاة.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾:

وعـد الـلـه حقٌّ حاصلٌ والحياة غُرورٌ وباطلٌ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ تفريعيَّةٌ من الوعد المؤكَّد قبلها، أيْ: إذا كان وعدًا حقًّا؛ فيجب أنْ يكون ذلك سببًا كافيًا لكم ألّا تغرَّنَّكم حالة الحياة الدُّنيا بأن تتوهَّموا الباطل حقًّا، والضُّرَّ نفعًا[2]، والفاء التَّفريعيَّة لها معنى التَّسبيب، أيْ: ما دخلت عليه الفاء مُسَبَّب عمّا قبلها.

دلالةُ اقتران المضارع بنون التَّوكيد:

غـــرورُ الـدُّنـيـا شـديـد ولـيـس الـرُّكـون إليـها برشيد

إلحاق نون التَّوكيد بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾؛ لتأكيد النَّهي عن الاغترار بالدُّنيا، واحتيج للتَّوكيد ليُعلمَ أنَّ هذا النَّهي من عزائم الأمور والأحوال، فلا بدَّ أن يُتناوَل بالقوَّة؛ لأنَّ غرور الدُّنيا شديد[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 195.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 197.

الغرورُ اسمٌ للشّيطان والغُرور هو فِعلُهُ المُرْدي في الهوان

بلاغةُ المجاز العقليِّ في تغرير الحياة:

إسناد التَّغريرِ إلى الحياة الدُّنيا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إسنادٌ للفعل إلى غير فاعله الحقيقيِّ؛ لأنَّ الحياة الدُّنيا ظرفٌ ووعاء للأفعال والفاعلين، ففي الإسناد مجاز عقليٌّ، والفاعل الحقيقيُّ للتَّغرير هم أهل الباطل ورؤساء الضَّلال الَّذين يروِّجون له، ويُعَمُّون به على من سواهم، وقد ذكر بعد ذلك الفاعل الحقيقيَّ للتَّغرير، وهو الغَرور، والغَرور بفتح الغين: مَن يكثُر منه التَّغرير، والمُراد به الشَّيطان بوسوسته، ومَن ينوب عنه من دعاة الضَّلالة بالتَّمويه وإلقاء الشُّبَهِ الَّتي تجعل أتباعَهم يقبلون تغريرهم[1].

كلُّ إيثارٍ يُصاحبه اختيارٌ وكلُّ اختيارٍ يصحبه تنازُلٌ

نكتةُ إجراء الكلام على حذف مُضاف:

يصحُّ تقدير التَّركيب على حذف مُضاف، أيْ: (فَلا تَغُرَّنَّكُمْ زينَةُ الحَياةُ الدُّنْيا)، فزخرف الحياة هو الَّذي يغرُّ، ويُطيل آمال النّاس في الحرص على الدُّنيا، فيؤثرونها على الآخرة، ولا يتمُّ ذلك حتّى يُؤْثَر الباطلُ معه، ولذلك قال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦﴾ [الأعلى: 16]، والتَّركيب على هذا مجازٌ عقليٌّ أيضًا بإسناد ما هو للمُضاف إلى المُضاف إليه.

الغُرورُ يُورِّط في الوهم ويُبعد عن الصّواب

دلالةُ جمعِ لفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ مع لفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

لم يقل في السّياق الكريم: (فلا تَغُرَّنَّكم الدُّنيا)، بل قال: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لتقويَةِ وجود التَّغرير المنهيِّ عنه وتقريره؛ لأنَّه لولا أنَّها حياة ما غرَّت أحدًا، وما آثرها أحدٌ، فلكونها حياة؛ وقع فيها التَّغرير لاستدامتها بالحرص والأمل، وفيه إشارة إلى أنَّ في الحياة ما يُغري بالفعل، فلهذا ذَكَر الحياة؛ ليُجري عليها وصف الدُّنيا؛ ليقترن بها ما يكون داعيًا إلى الانتباه لها، وعدم الاستغراق فيها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 195.

لكونها (دُنْيا)، وهو بهذا التَّركيب الثَّنائي يُلمِح إلى أنَّ هناك حياة أخرى عليا، وليست دنيا حقيقيَّةً لا غرور فيها ولا خداع.

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الله لا يحبُّ المغرورين المفرِّطين في حقِّه

الباء الدّاخلة على اسم الذّات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ سببيَّة، والسَّببيَّة متوجِّهة إلى صفات اللّه وشؤونه لا إلى ذاته، وكأنَّ الكلامَ على تقدير مضافٍ، أيْ: رحمة اللّه، أو واسع عفوه، أو غِناه، فلا يحملنَّكم الشَّيطان بسبب رحمة اللّه والتَّرجية فيه على التَّفريط والفسوق، فيكون قد غرَّر بكم، وهذه الباء في المعنى، كالباء في قوله سبحانه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6](1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوالد والأب:

الوالد أخصُّ والأب أعمُّ واللفظان مستعملان في القرآن

الوالِديَّةُ تُعبِّر عن النَّسب الحقيقيِّ بين الوالد والمولود؛ لأنَّ معنى الوِلادة هو المعيار فيه، ولذا فإنَّ الابن بالتَّبنّي لا يُقال له: (ولد فلانٍ) على الحقيقة، ولا يُقال عن مُتَبَنّيه: إنَّه والِده، بل يُقال: أبوه فلانٌ؛ لأنَّ الأبوَّة أعمُّ، ولا يُشترط فيها سببيَّة الإيجاد والولادة، ولا يشترط في الوالِديَّة أن تُقال للأب المباشر؛ بل تُقال للأبِ، وإن علا كالجَدِّ؛ لأنَّ الأصل الأعلى سبب في الوجود والولادة، لكنَّه سببٌ غير مباشِر، فالواسطة بين الأصل الأعلى والفرع الأدنى لا تلغي سببَ الولادة الحاصل؛ لأنَّ العِبرة في إطلاق لفظ (الوالد)، هو قيام سبب الولادة، وهو سبب الوجود، وهذا السَّبب لا يتأثَّر ببُعدِ الأصل أو قُربِه، ولذا فمَنْ قال: إنَّ الوالد لا يُقال إلّا للأبِ المباشر، ففي كلامه نظرٌ شديدٌ، وعليه: فالأب أعمُّ من الوالد؛ لأنَّ الأُبُوَّة تحصل بأسبابٍ عديدةٍ، كسبب التَّربية والرِّعاية،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 195.

وسبب الإصلاح، وكذلك سبب الإيجاد والميلاد، وأمّا الوالديَّة: فتحصل بسبب الإيجاد والميلاد فحسب، ولذا لمّا أراد الله اعتبار سبب الصَّلاح والإصلاح؛ عبَّر بالأُبُوَّة دون الوالديَّة، فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين الآخرة والأُولى وكون مفاتيح الغيب المخفيَّة لا يعلمها إلّا ربُّ البريَّة

لمّا ذكر في الآية السّابقة وجوب تعظيمه بالتَّقوى، وتعظيم اليوم الآخر بخشيته والجاهزيَّة له، وأخبر أنَّ ذلك وعدٌ حقٌّ، وأنَّه واقعٌ ما له من دافعٍ، ولمّا كان وقوع ذلك الوعد مُقترنًا بقيام السّاعة، وكان علم وقتها من مفاتيح الغيب الَّتي لا يعلمها إلّا هو؛ أخبر - هنا - في هذه الآية تفصيل تلك الغيبيّات الَّتي استأثر بعلمها، فذكر السّاعة وأخواتها في الغيوب الَّتي هي من علوم الألوهيَّة الكبرى لإثبات قصور علم البشر، وأنَّ الله تعالى هو المُختَصُّ بعلم ذلك جميعه؛ لأنَّه عليمٌ خبير، محيط بالظّواهر والبواطن، لا يخفى عليه شيء منها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: (سوع) أصلٌ يَدُلُّ على اسْتِمْرارِ الشَّيْءِ ومُضيِّه، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمّيَتْ بذلكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسُواعٍ، أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[2]، والسّاعَةُ في الأصْلِ تُطلَق بمعنيَيْن: جُزء مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هيَ مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، والثّاني: جُزْءٌ قَليلٌ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ[3]، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ، أيْ: وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعير لاسْمِ يَوْمِ القيامَةِ[4]، قالَ

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 414.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (سوع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سوع).

الزَّجّاجُ: معنى السّاعَةِ في كُلِّ القُرآن: الوَقْتُ الَّذي تَقُوم فيهِ القيامَةُ، فَلِقِلَّة الوَقْتِ الَّذي تقُوم فيهِ سَمّاها ساعَةً[1]، والمُراد بالسّاعة في الآية: يوم القيامة.

2) ﴿ٱلْغَيْثَ﴾: (غيث) أصلٌ صحيحٌ، وهو الحَيا النّازِلُ من السَّماءِ[2]، فالغَيْثُ: المطر، وقد غاثَ الغَيْثُ الأرضَ، أيّ: أصابها، وغاثَ اللهُ البلاد يَغيثُها غَيْثًا، وغيثَتِ الأرضُ تُغاثُ غَيْثًا، فهي أرضٌ مُغيثَةٌ ومغيوثة[3]، الغَوْثُ يُقالُ في النُّصرة، والغَيْثُ في المطر[4]، ومن المجاز: الغَيْثُ: الكَلأُ يَنْبُتُ بماءِ السَّماءِ، ومنه أيضًا: غاثَ النَّوْرُ بالفتح، يَغيثُ، أيّ: أضاءَ، وجمع الغَيْثِ: أغْياثٌ، وغُيُوثٌ[5]، قال ذو الرُّمَّة: "قاتل اللّهُ أمَةَ بني فلان، ما أفصحَها! قلتُ لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غِثْنا ما شئنا"، وربَّما سُمّي السَّحابُ والنَّبات بذلك[6]، وغاث الغيثُ الأرضَ غيثًا: نزل بها، وسُمّي النَّبات غيثًا تسميةً باسم السَّبب، ويُقال: رعَيْنا الغيثَ[7]، والمقصود بالغَيْثِ في الآية: المَطَرُ الآتي بعد جفافٍ.

3) ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: (رحم) أصلٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ، يُقالُ من ذلك: رحِمهُ يرحَمُهُ؛ إذا رَقَّ له، وتَعطَّفَ عليه، والرَّحِمُ: علاقةُ القرابةِ، ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هذا؛ لأنَّ منها ما يَكُونُ ما يُرْحَمُ، ويُرَقُّ له مِنْ ولَدٍ[8]، وهي بَيْتُ مَنْبِت الوَلَدِ ووِعاؤُه في البطن، وهيَ مُؤنَّثةٌ، وجمعها: الأرحامُ[9]، والمُراد بها هنا: مستودعُ النُّطفة في بطن المرأة، ومكانُ تربيةِ الجنين ونموِّه وتكوينه بالطَّريقة الَّتي يشاؤها الله تعالى، حتَّى يبرزه إلى الوجود بشرًا سويًّا[10].

4) ﴿تَكْسِبُ﴾: (كسب) أصلٌ يدُلُّ على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، يُقالُ: كَسَبْتُ الشَّيَء، أيّ: طلَبْتُه[11]، ومنه الكَسْبُ: وهو ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفْعٍ، وتحصيل حظٍّ،

(1) الزّجاج، معاني القرآن: 4/ 221، والواحديّ، التّفسير البسيط: 8/ 84، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيث).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (غيث).
(4) الرّاغب، المُفردات: (غوث).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غيث).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (غيث).
(7) الفيوميّ، المصباح المنير: (غيث).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(10) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/ 25.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).

كَكَسْبِ المال، وقد يُستعمل فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلبُ مَنفعةً، ثمَّ استجلَبَ بهِ مَضرَّةً، ويُقالُ فيما أخذه لنَفْسِه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَيْن، فيقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكتِسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتَهُ لنفسك، فكلُّ اكتِسابٍ كسبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[1]، والمُراد بالكَسْبِ في الآية: ما يُحصِّله المَرءُ بعِلْمه لإرادةِ نَفْعِ نَفْسِه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مفاتيحُ غيب الله تعالى لا يعلمها مَلَكٌ مُنزلٌ ولا نبيٌّ مُرسَل

يُبيِّنُ اللّه ﷻ الأمورَ الَّتي استأثَرَ بعلمِها، فلا يَعلَمُها نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، فضلًا عن غيرهما، فيقولُ: إنَّ اللّهَ تعالى وحْدَه عِندَه علمُ حلول ميقات القيامة، ويُنَزِّلُ سبحانه وحْدَه المطَرَ بقُدرته، ويَعلَمُ وقْتَ نُزوله، وغيرَ ذلك مِن شُؤونه، ويَعلَمُ وحْدَه ما في أرحام الأمَّهاتِ ممّا يُريدُ اللّهُ تعالى أن يَخلُقَه فيها، ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستَكسِبُه في يوم غدٍ من كسْبِ دينِها ودُنياها، فاللّهُ الحقُّ وحْدَه يَعلَمُ ذلك، ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها، فهو سبحانه وحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك، فهو ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، وهو مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، سبحانه وتعالى عمّا يشركون[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

وعْـدُ الله يراه المؤمن قريبًا ويراه المرتابُ الجاحد بعيدًا

جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ وقع جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر ينشأ في الأذهان بعد قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾، كأنَّ قائلًا يقول: متى هذا اليوم الَّذي يتحقَّق فيه ذلك الوعد؟ فأُجيبَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[3].

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كسب).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 584، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 221، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 653.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 106.

دلالةُ استهلالِ الآية بالتَّوكيد:

انفرادُ اللهِ بعلم السّاعة كنايةٌ عن لازم ذلك وهو الوقوع

أفاد تأكيد جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ تحقيقَ علم اللّه تعالى بوقت السّاعة، وذلك يتضمَّن تأكيد وقوعها[1]، ثمَّ "إنَّ اللّهَ المستقلَّ باطِّلاع الغيوب عِنْدَهُ وفي حيطة حضرة علمه ولوح قضائه عِلْمُ السّاعَةِ، وتعيين وقت قيامها، ولم يُطْلِعْ أحدًا عليها سوى أنَّه سبحانه قد أخبر بوقوعها وقيامها في جميع الكتب المُنزَلة من عنده سبحانه على رسله" [2].

بلاغةُ الإدماجِ بين جُمل الآية:

إظهارُ بعض المعلومات أحيانًا قد يُورث استيحاشًا وقنوطًا

الغرضُ من الآية الكريمة تقريرُ انفراد اللّه سبحانه بعلم ميقات البعث، الَّذي أمر النّاس بخشيته في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾، وأدمج إلى هذا الغرض نظائرَه المتشابهة معه[3] في انفراد اللّه وحده بعلمها؛ تعليمًا للنّاس ما يلزمهم معرفتُه من أمور الاعتقاد في أحوال الغيب الَّتي استأثر اللّه بعلمها، ليعلم النّاس أنَّ في إخفاء هذه المواقيت عنهم رحمةً بهم، وإفساحًا لنفوسهم، وهي تؤدّي ما كُلِّفتْ به من العمل، فإنَّ تعيين المواقيت يؤذِن بملازمة الحذَرِ الَّذي يُطفئ بهجة النَّفس، فلا تنشرح مهما فعلتْ، وقدَّمتْ، وأيضًا في ذلك الإخفاء الميقاتيِّ، في تلك الغيبيّات المذكورة تعليقٌ للقلوب باللّه وحده؛ ليستديم النّاسُ رجاءهم في ربِّهم، بالإعانة والتَّوفيق وإفساح الأمل، ولو اطَّلع النّاس على تلك العلوم تحديدًا وتعيينًا؛ لضاقوا، ويَئِسوا من روح اللّه، ولذا أراد اللّه لهم أن يتفرَّغوا إلى ما لهم به طاقة، ويتوفَّروا على أدائه؛ لئلّا تتفسَّخ عزائمهم، وتتوزَّع هِمَمُهم عنه؛ إذا هم علموا الأوقات والكيفيّات.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 196.
(2) علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 196.

عِلَّةُ تقديمِ المُسنَد إليه (اسم الجلالة):

اسمُ الله أحقُّ بالتَّقديم وأحرى بالإبراز والتَّكريم

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّ علم السّاعة عند اللّه)، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لأنَّ اسم اللّه أحقُّ بالتَّقديم، ولإرادة بناء الخبر عليه، وهو قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فيُخبر عن اللّه بذلك؛ ليفيد الاختصاص والحصر، كأنَّه قيل: (إنَّ اللّه وحده عنده علم ذلك)[1] مع ما في ذلك من فائدة تكرير الإسناد لتقوية الحكم، فأسند علم السّاعة إلى الاسم الجليل أوَّلًا، ثمَّ أسنده إلى ضمير الجلالة في ﴿عِندَهُۥ﴾ ثانيًا[2].

نكتةُ تقديم شِبْهِ الجملة ﴿عِندَهُۥ﴾:

تقدَّم الظَّرفُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾؛ فلم يقلِ السياق: (إنَّ عِلْمَ السّاعَةِ عند اللّه)؛ وذلك للاختصاص وإفادة الحصر، فيفيد انفراد اللّهِ وحده بعلم ذلك، أيِ: عنده لا عند غيره[3].

دلالةُ العنديَّةِ بالظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

العنديَّةُ تُفيد الخصوصيَّةَ وتنفي أن يكون ما عند الله عند سواه

مع ما في التَّعبيرِ بالعنديَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من إفادة اختصاصه تعالى بذلك العلم؛ لأنَّ العنديَّة شأنها الاستئثار والحيازة الخالصة، فالاختصاص حاصلٌ من نفس لفظ العنديَّة، وحاصل من تقديم الظَّرف مع الزّيادة في إفادة ذلك التَّقديم للحصر، فمجموع التَّركيب أفاد تقوية الحُكم والمبالغة في الاختصاص والحصر[4]، وزاد الفرّاء في معرض تعليقهِ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: أنَّ معنى هذا الكلام النَّفي، أيْ: ما يعلمه إلّا اللّه ﷻ، قال النّحاس: وإنَّما صار فيه معنى النَّفي لما ورد عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 21/ 324.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 197.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 197.

﴿يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]: إنَّها هذه[1]، ويعني بها: أمور الغيب الخمسة الواردة في الآية.

نكتةُ إيثار ﴿عِندَهُۥ﴾ دون (له) أو (لديه):

علمُ الله لا يتفاوت في تعلُّقه بالمعلومات

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّ اللّهَ لَهُ عِلْمُ السّاعَةِ)، أو (إنّ اللّهَ لَدَيْهِ عِلْمُ السّاعَةِ)؛ لأنَّه لو قال: (لَهُ)؛ لدلَّ على الاختصاص، ولم يدلَّ على حضور ذلك عنده، ولو قيل: (لديه)؛ لأوهم التَّعبير بـ(لدى) الَّتي هي للحضور أنَّ ذلك كناية عن قُربها جدًّا، وأوهم أنَّ عِلمه تعالى يتفاوت تعلُّقه بالأشياء بخصوصٍ أو عموم؛ لأنَّ (لدى) أخصُّ من (عِند)، فكانت (عند) أوفقَ للمُراد؛ فإنَّها أفادت التَّمكُّن من العلم مع احتمال تأخُّرها، فسَلِمَتْ من تطرُّق احتمالٍ فاسدٍ إليها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿عِلۡمُ﴾ لا بالفعل:

قيامُ السّاعةِ محسومٌ كالآجال لا تغيير لموعدِ ولا انتقال

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّ اللّهَ يَعْلَمُ السّاعَةَ)، بل قال: ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لأنَّه يريد ثبوت تلك الحقيقة حقيقة العلم، وللدَّلالة على ثبوت ذلك واستقراره مجرَّدًا عن الزَّمن؛ عبَّر بالعلم، وأمّا الفعليَّةُ؛ فتدلُّ على الزَّمنيَّة، والزَّمنيَّة تُفيد طروءًا يحصل في الجهة المعلومة، وهذا غير حاصلٍ هنا، ولذلك قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ بالفعليَّة؛ لأنَّ ما في الأرحام يطرأ، ويحدث باستمرارٍ، فهو ملازمٌ للزَّمنيَّة، ولذا أخبر عنه بصفة الفعل[3].

موقعُ جملة: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ ممّا قبلها:

الله سبحانه يخلق الغيث ويُنزِّله ويعلم وحده وقت إنزاله

جملة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، عطف على الجملة الظَّرفيَّة المبنيَّة

---

(1) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهنّ إلّا الله، لا يعلم ما في غد إلّا الله، ولا متى تقوم السّاعة إلّا الله، ولا ما في الأرحام إلا الله ...»، من أفراد البخاري على مسلم، الحديث رقم: (7379)، وعند ابن حبَّان باختلاف يسير، صحيح ابن حبان، الحديث رقم: (71).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 215.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 324.

على الاسم الجليل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، والتَّقدير: (وإنَّ اللّهَ يُنَزِّلُ الغَيْثَ)؛ فيفيد الاختصاص بتنزيل الغيث، والمقصود أيضًا: عنده علم وقت نزول الغيث، وليس المقصود مجرَّدَ الإخبار بأنَّه ينزِّل الغيث؛ لأنَّ ذلك ليس ممّا ينكرونه[1]، وإحياء الأرض بعد موتها المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ هو الدَّليل على البعث، وهو تأكيد لوعد اللّه الحقِّ، وإظهار لهذا الفعل الخارق والعلم المُعجِز الَّذي لا يتأتّى من أحدٍ غيره[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعة في ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

أمـــدادُ اللـه بـالألـطـافِ مُـتـجـدِّدةٌ لا تنقطع

نُظِمَتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ بأسلوب الفعل المضارع؛ ليحصل - مع الدَّلالة على الاستئثار بعِلم وقتِ ذلك - تجدُّدُ الامتنانِ بتجدُّد الإنزال، ففي اختيار الفعل المضارع إفادة أنَّه سبحانه يُجدِّد إنزال الغيث مرَّةً بعد مرَّةٍ بحسب تقديره وحكمته[3].

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

إنــزالُ الغيث إعـجـازٌ لا يقدر عليه إلّا الخالق القدير

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بالتَّضعيف: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، وقرأ الباقون بالتَّخفيف: ﴿وَيُنزِلُ﴾ [4]، فالتَّضعيف يدلُّ على وصف حالة التَّدرُّج الَّتي يمرُّ بها المطر في عمليَّة إنزاله، فهو بعد تكوُّنه يتوزَّع في نزوله بحسب المقدار والمكان والوقت الَّذي أراده اللّه، فلا ينزل دفعةً واحدة، ولو نزل كلُّ المطر دُفعةً واحدة لأهلك الخلق، وقراءة التَّخفيف هي بحسب القدر الَّذي قدَّر اللّه له بالنُّزول، فهو ينزل مرَّةً واحدةً في مكانهِ ووقته المعلوم[5]، وهذا مِن اختلاف التَّنوّع والإثراء.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 324، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 197.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 107.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 197.

(4) ابن الجزريّ، تحبير التّيسير، ص: 508.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾:

(أل) في الغيث في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ للاستغراق، أيّ: كلُّ غيثٍ ينزل، فالله هو الَّذي أنزلَهُ[1]، والغيث سُمّي المطر غيثًا؛ "لأنَّه يُغيث النّاس من الجوع والفقر؛ ولذا سُمّي الكلأ غيثًا؛ لأنَّه يُغيث الماشية"[2].

الغيثُ عطاءُ الله تعالى لبعث الحياة واستنبات النَّبات

نكتةُ العدولِ عن الاسميَّة إلى الفعليَّة:

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ في السّياق الكريم، ولم يقل: (وَمُنْزِل الغيثِ)، فعبَّر بالفعليَّة؛ للدَّلالة على الحدوث الزَّمني الذي يشهده النّاس، ويشعرون به.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾ دون غيره:

الغيث في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ هو ماء المطر، وآثر التَّعبير بلفظ: ﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾؛ استعمالًا لِما يتحصَّل بلفظه الامتنانُ عليهم؛ ذلك أنَّ الغيث هو المطر الَّذي به تزول الشِّدَّة، فهو من الاستغاثة، وهي طلب إزالة الشِّدة، فبالمطر تزول الشَّدائد، شدائد القحط، وشدائد الجدب، فيبقى النّاس عندهم ماء، وعندهم مزارع، فدلَّ لفظُ الغيث على أمرَيْن؛ **الأوَّل:** على إجارة المستغيث، فهو إذا استغاثَ، فإنَّ الله يدركه بهذا الغيث، **الثّاني**: على أنَّه مطرٌ خاصٌّ، وهو مطرٌ نافع لا ضارٌّ، ومطرٌ ناجِع له تأثير، ومطرٌ ضروريٌّ بالنِّسبة للنّاس؛ لأنَّه ينقذهم، ويغيثهم، وتزول به شدائدهم، فلولا هذا المطرُ؛ لخنقتهم الشِّدَّة خنقًا[3].

ليس كلُّ مطرٍ غيثًا ولكنَّ كلَّ غيثٍ نافعٌ

فائدةُ عطف جملة ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ معطوف على ﴿وَيُنَزِّلُ

الرِّياحُ لواقحُ الأمطار كما أنَّ النُّطف لواقحُ ما في الأرحام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 215.
(2) الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 503.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 203.

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الَّذي استقلَّ بإنزال المطر، وحمَّل به السَّحاب قبل إنزاله لا غرابةَ في أن يستقلَّ بعِلم ما هو أصغر من ذلك، وهو حَمۡلُ الأرحام.

ما زالت الأرحامُ تدفع بالمخلوقات لإنبات الحياة واستمرارها

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾؛ ليدلَّ على استمرار تجدُّد تعلُّقات العِلم بحسب تجدُّد المتعلِّقات في الخَلۡق، فلتجدُّد نشوء الأجنَّةِ في الأرحام شيئًا فشيئًا ووقتًا بعد وقت؛ عبَّر بما يناسب ذلك من الفِعل[1].

دلالةُ القرينةِ على الاختصاص والحصر:

ما في الأرحام غيبٌ والغيبُ لا يعلمه إلّا الله

عُطف المسند الفعليُّ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ على الجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، والتَّقدير: (وإنَّ اللّهَ يَعۡلَمُ ما في الأرۡحام)، وقد سبق أنَّ في تركيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ما يفيد تقوية الحكم والمبالغة في الاختصاص والحصر، ولذلك فقد أفاد قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ ذلك الاختصاص والحصر أيضًا بقرينة عطفه على ما يُفيد ذلك، كأنَّه قيل: (وَيَعۡلَمُ وحۡدَهُ ما في الأرۡحامِ)[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالعلم دون غيره:

في الأرحام ما لا إمكانَ للعِلم أن يطَّلع عليه لكونه غيبًا مستورًا عنّا

قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾، ولم يقل في السّياق الكريم: (وَيَخۡلُقُ ما في الأرۡحام)، بل الإسناد في العلم؛ لأنَّه لا أحد ينازع أصلًا في الخَلۡق - ولو ادِّعاءً - لكن هناك مَنۡ يُنازع في عِلم ما في الأرحام.

دلالةُ التَّعبير بالأداة ﴿مَا﴾ دون (مَنۡ):

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾؛ للعموم والشُّمول مع الإبهام، أيۡ: (يعلم كلَّ ما ينشأ في هذه الأرحام من شيءٍ كاملٍ

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 217، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 106.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 197.

علم الأرحام لا يستقصيه الخَلْقُ ولا يحيط بأسراره إلّا الله

أو ناقص قبل نشأته فيها وبعد نشأته)، والإبهام حاصل بالنِّسبة للمخاطَبين، و(ما) تستعمل لذوات غير العقلاء وصفات العقلاء[1]، وعبَّر بها هنا؛ لأنَّه أراد الصِّفات لا الأشخاص؛ لأنَّ الَّذي في الأرحام يتجاوز خصوصَ الذَّوات، إلى عموم الصِّفات، فهو أعمُّ من الذَّوات؛ لأنَّه قد لا يكون ذاتًا أصلًا؛ لأنَّ الأجنَّة قبل اكتمالها ونفْخ الرّوح فيها ليست ذواتًا، بل حتّى بعد اكتمالها لا تعدُّ ذواتًا عاقلة، بل تُنزَّل منزلة ذلك، بل قد لا يكون ذلك كلُّه، فيعلم ما في الأرحام، هل هي خالية لُقِّحتْ أم لا؟ فقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا﴾، أي: الَّذي في الأرحام.

(ما) أشمل وأعمُّ من (مَن)

عبَّر السياق القرآني بـ﴿مَا﴾؛ لأنَّها أعمُّ وأشمل من (مَن)؛ إذ (مَن) تختصُّ بالعاقل من جهة، ومن جهة أخرى: (ما) تختصُّ بالصِّفات، و(مَن) بالذَّوات، وهنا قال: ﴿مَا﴾ دون (مَن)؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحام من حيث الصِّفةُ أبلغُ من علمه من حيث الذّات، وأبلغ من علمه من حيث كونه ذَكَرًا أو أنثى، فالجنين الَّذي في الرَّحم ليس العلم المختصُّ به هو مجرَّد كونه ذكرًا أو أنثى، أو طويلًا أو قصيرًا، فهناك أبلغُ من ذلك، وهو صفات هذا الجنين، ماذا يكون؟ شقيًّا أم سعيدًا، طويل العمر أم قصير العمر؟ هل عمله صالح، أو عمله فاسد؟[2].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾:

الأرحامُ أوعيةٌ تحفظ ما يُخلَق فيها بمراد الله وتقديره

عبَّر بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الأرحام أوعيةٌ تحفظ ما يُخلَق فيها، واعتناء الشَّريعة الإسلاميَّة بالحفاظ على طهارة الأرحام من الزِّنى والخنا والفحش منهجٌ وقائيٌّ حصيفٌ حتّى لا تختلط الأنساب، وتتداخل السُّلالات، ناهيك عن إلزام المرأة المُطلَّقة أو الأرملة بالعدَّة الَّتي من مقاصدها استبراء الرَّحم ونقاء الوعاء الَّذي يحمل شرف الإنسان وهويَّته.

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 130.

(2) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 19/ 11768، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 204.

معنى(أل) في لفظ: ﴿ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ للاستغراق، وهي قاعدة تنطبق على كلِّ الأرحام بلا استثناء، بل أرحام كلِّ المخلوقات الَّتي تملك رحمًا يتخلَّق فيها الجنين طورًا من بعد طور إلى أن تدفعه قدرةُ اللّه خارج الرَّحم، فيخرج لمكابدة الحياة، بحلوها ومُرِّها، ويكون دليلًا على عَظَمَة الخَلْقِ وروعته.

لا تعزُبُ دخائلُ الأرحام عن علم ربِّ الأنام

دلالةُ موقع ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لإلحاقها بمعنى الاختصاص والحصر في انفراد اللّه وحده بعِلم ذلك ونفيه عمَّن عداه[1].

نفيُ الدّراية بنفي العِلم دليلٌ على أنَّ عِلمَ البشرِ محدودٌ

دلالةُ (ما) في: ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾ نافية تنفي مدخولها على جهة الاستمرار، أيْ: لا يمكن بحالٍ أبدًا أن تعلم نفسٌ ماذا تكسب غدًا، وذلك حكمٌ مستمِرٌّ دائمٌ لا انخرامَ له، ولا استثناء منه[2].

الدّرايةُ منها ما أذن الله به وما لم يأذن به الله

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾:

الدّراية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ﴾ بمعنى العِلم، أيْ: (وَما تَعْلَمُ)، وهي من أفعال اليقين، أيْ: (وما تعلمُ نفسٌ على جهة اليقين) الَّذي عليه التَّعويلُ والاعتبارُ في المعلومات واصطفاء الدّراية من أفعال اليقين، كناية عن عدم الاعتداد بالتَّوقُّع؛ لأنَّه مظنونٌ والعبرة لليقين؛ لكونه مجزومًا به[3].

اليقينُ هو الَّذي عليه التَّعويل والاعتبار في اعتماد الأخبار

نكتةُ التَّعبيرِ بالدِّراية دون العلم:

عبَّر بالدِّراية دون العلم؛ للدّلالة على أنَّه عِلمٌ خاصٌّ مسبوق

الدِّرايةُ علمٌ يحصل ببذلٍ وجُهد

(1) الخطيب، التّفصيل: 21/ 175.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 192.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 9.

بجهل أو شكٍّ، أو حاصلٌ بإخبارٍ واطِّلاعٍ من الآخرين، أو حاصل بعد دُربةٍ وفحص ومُعالجةٍ وتدبيرٍ واستقصاء، فالدّارية هي العلمُ الحاصل بالمجهود والتَّحرّي، واستخدام المهارة والحيلة في تحصيله، ولذلك لا يُوصفُ اللّه سبحانه بالدّراية، واصطفاء هذا الفعل يدلُّ على كنايةٍ بديعة في النَّظم، وهو أنَّه إذا كان أمهر النّاس في الخُطَّة والتَّحرّي لا يمكن أن يعلم ماذا يكون له في غدٍ؛ فانتفاء ذلك عمَّن لا حيلة له ولا طاقة من باب أولى[1].

أنفسُ الخلائقِ محجوبةٌ عن الغيب لا تدري ما يكون في طيّاتِهِ

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿نَفۡسٌ﴾:

كلمة ﴿نَفۡسٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي، فتعمُّ كلَّ نفْسٍ مخلوقة من الإنس أو الجنِّ أو غيرهما، والمعنى: "وما تدري نفسٌ من النُّفوس - كائنةً ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجنِّ والإنس - ماذا تكسب غدًا من كسب دين، أو كسب دنيا"[2].

جهلُ العبدِ بكسب نفسه أدلُّ على ضعفه وافتقاره

بلاغةُ الكناية في: ﴿تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ كنايةٌ عن عدم العِلم بما هو أبعد من ذلك في الزَّمان؛ فإذا تحقَّق الجهل بالزَّمن القريب؛ فخفاء العِلم بالزَّمن البعيد أولى، وهو كنايةٌ أيضًا: عن نفي الدِّراية بما يكسب غيره؛ لأنَّه يجهل ما تكسبه نفسُه، فجهلُه بما يكسبه غيره أولى، وفيه إشارة إلى أنَّ أفعال الإنسان مخلوقةٌ للّه، ولو كانت من خلْقِهِ ما انتفى عنه علمها[3].

الخيرُ والشرُّ القدريّان كسبٌ للعبد باعتبار أثرهما عليه

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَكۡسِبُ﴾:

التَّعبيرُ بالكسب في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يُفعَلُ عزمًا واختيارًا، كأنَّه قيل: حتّى ما تبيِّتون

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 9.
(2) الشّوكانيّ: فتح القدير: 4/ 282.
(3) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15 /219.

فِعلَه، فلا أحد يضمن لكم وقوعه، لا أنتم ولا غيركم، فقد تتغيَّر الإرادات، فيقع خلاف ما دُبِّر، وقد لا تتغيَّر ولكن تحدث العوارض، فلا يتمُّ، فالتَّعبير بالكسب كنايةٌ عن نفي لازمهِ ممّا سيقع من غير تدبيرٍ له ولا عزم عليه، فإنَّه أولى في نفي درايتهم عنه(1).

موقعُ جملة: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ﴾:

الإنسانُ عِلمه بما اطَّلع عليه قليل وما لم يطَّلع عليه أقلُّ

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ معطوف على ما قبله، وهو قوله: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الأنفس جميعًا تشترك في حُكم نفي الدِّراية المذكور في الجملتَيْن، فإذا اشتركت في انتفاء عِلمِها بما هو لصيقٌ بها، وما هو واردٌ عليها، ويلتبس بها؛ فكيف بما انفكَّ عنها، وكبُر عليها، وكان أخفى عن ملاحظتها من المذكورات قبلها من أحوال السّاعة والغيث والأرحام(2).

معنى الباءِ في: ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ﴾:

الإنسانُ يتكبَّر ويطغى ويذوق في النِّهاية مرارة الرَّدى

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ ظرفيَّةٌ، فهي بمعنى (في)، أيْ: في أيِّ أرضٍ تموت؟ و(أيُّ) استفهاميَّةٌ، فتأويل الكلام على الاستفهام المكانيِّ، كأنَّه قيل: (وَما تَدْري نَفْسٌ أيْنَ تَموتُ؟)، والاستفهام غرضه التَّقرير بالجحود المفهوم من نفي الدِّراية في: ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾، وتدلُّ (أيُّ) هنا على الإطلاق والإبهام؛ ولذا أُضيفت إلى نكرة ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ﴾؛ لإفادة الشّيوع وعدم التَّعيين(3).

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿أَرۡضٖ﴾:

يُقال لموضِع دفْن الإنسانِ إنَّها أرضُه تعبيرًا عن تربة دفنه

التَّنكير في ﴿أَرۡضٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ﴾؛ للإبهام والشّيوع، فيتناول الأرض العامَّة، وهي أرضُ القُطْر والبلد، كما يُقال: مات في مصر أو في العراق، أيْ: في أرض البلدَيْن، ويتناول

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 78.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 218، والخطيب، التّفصيل: 21/ 175.
(3) السّمين، الدّر المصون: 9/ 75، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 326، والخطيب، التفصيل: 21/ 175.

الأرض الخاصَّة، وهي الموضع الَّذي يموت فيه الإنسان، ولو كان في حجرته أو في أيِّ موضعٍ من بلده[1].

نكتةُ العدولِ عن الزَّمن إلى المكان:

لا قدرةَ للإنسان على الفِكاك من الزَّمان بخلاف المكان

لم يقل في السّياق الكريم: (بِأيِّ وقتٍ تَمُوتُ)، بل عُبِّر بذِكْر المكان: ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾؛ لأنَّ المكان يتأتّى معه إمكان الاختيار والتَّحديد بخلاف الزَّمان، فإنَّ الإنسان قد ينفكُّ عن مكانٍ معيَّن ويختار مكانًا آخر، وأمّا الزَّمان؛ فلا اختيار له معه؛ لعدم القدرة على الانفكاك عن الوقت، فإذا كان لا يدري بما له نوع اختيارٍ فيه؛ فكيف بما لا اختيار له معه[2]؟.

نكتةُ العدول من الإثبات إلى النَّفي:

الكسبُ والمصير أكبَرُ قضيَّتَيْن من حيث الأثر والتَّأثير

جاء العدول في أسلوب النَّظم من الإثبات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى النَّفي في: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾؛ لقصد إسناد عدم الدِّراية إلى الأنفس؛ لإثبات البون الشّاسع بين علم الخالق المحيط، ورُتبة المخلوق في ذلك العِلم، حيث لا مقدار له في درايةِ كَسْبِهِ وعاقبةِ أمره، فهو جاهلٌ بالوسائل والعواقب، لا يستبينها إلّا ساعة تلبُّسه بها، وأمّا قبل ذلك؛ فلا يعلم عنها شيئًا، وإن اجتهد، ففي نفي الدِّراية المخصوصة بالمخلوق دون الخالق وتكريرها وإيثارها في النَّظم دون العلم، لما فيها من معنى سبْقِ الجهل والاحتيال، لإزالته تحصيلًا للمعرفة[3].

نكتةُ إسناد الغيوب بين الإثبات والنَّفي:

بيان أنَّ الغيوب بعضها أعظم في الخفاء من بعض

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أضاف اللّه تعالى العلم إلى نفسه في الثّلاثة من الخمسة المذكورة، ونفى العلم عن المخلوقين في الأخيرين منها في قوله: ﴿وَمَا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11770.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 219.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 325.

﴿تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾، مع أنَّ الخمسةَ سواءٌ في اختصاص اللّه تعالى بعلمها، وانتفاء علم العباد بها؛ وذلك لأنَّ الثَّلاثة الأُوَل أمرها أعظم وأفخم، فخُصَّتْ بالإضافة إليه تعالى، والأخيرَين من صفات العباد، فخُصّا بالإضافة إليهم، مع أنَّه إذا انتفى عنهم علمُهما؛ كان انتفاء علمِ ما عداهما من الخمسة أولَى وأجدر(1).

دلالةُ موقع جملة التَّعليل الأخيرة:

لا يعلمُ الإنسانُ شيئًا إلّا بتيسير اللهِ له ذلك

جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ في موقع التَّعليل ممّا قبلها، كأنَّه قيل: استأثر اللّهُ بعلم هذه الأشياء دون غيره؛ لكونه عليمًا خبيرًا، ولا عليم خبير إلّا هو، أو الجملة استئناف بيانيٌّ في موقع جوابٍ لسؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ من نفي دراية الأنفس: ماذا تكسب غدًا؟ وبأيٍّ أرضٍ تموت؟ كأنَّه قيل: فمَنْ يعلم ذلك؟ فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾، وهو جوابٌ بأنَّ اللّه تعالى يعلم ذلك وزيادة، ويصحُّ أن تكون جملة الفاصلة من تتمَّة الجملتَيْن قبلها، أي: لا تدري نفسٌ الشَّيءَ الَّذي تكسبه غدًا، ولا تدري مكانَ موتها؛ لأنَّ اللّه عليمٌ خبير، ولا شيء كمثلِهِ في ذلك، وعلى هذا الوجه، فيُستفاد الاختصاص والحصر في العلم للّه بهذَيْن الأمرَيْن استقلالًا، وليس بقرينة عطفهما على ما استُفيد من الاختصاص والحصر في صدر الآية(2).

عِلَّةُ اصطفاءِ الوصفَيْن ﴿عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾:

الوصفُ بالخبيرِ أخصُّ من الوصف بالعليم

جاءتِ الفاصلةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ باصطفاءِ وصفَيْ ﴿عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾؛ للإشارة إلى التَّسوية بين علم الظّاهر والباطن عنده ﷻ، فالعليم على مثال المبالغة، أيِ: المُبالغ في العلم، فهو شامل العلم بالكليّات والجزئيّات، وهو إثباتٌ للعلم المُطلق

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 449.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 110.

بظواهر الأمور وخفاياها، و﴿خَبِيرٌ﴾: إثباتٌ للعلم الخاصّ بخبايا الأمور وبواطنها، وخفاياها ولطائفها، ومستودعاتها وأسرارها، فوصْفُ ﴿خَبِيرٌ﴾ بعد ﴿عَلِيمٌ﴾ خصوصٌ بعد عموم؛ لإثبات وسْع العِلم الإلهيِّ وكماله في الإحاطة والشُّمول والاستيعاب المُطلق للمعلومات كلِّها، الَّتي تزيد بالأضعاف المضاعفة غير المتناهية على هذه المذكورات في الآية، فلا غرابة إذًا أن يجعل اللّٰه هذه الأشياء من عيون الغيب ومفاتيحه الَّتي لا يستقلُّ أحدٌ في المخلوقات بدرايتها والعلم بها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلم والمعرفة والدِّراية:

يُوصَفُ اللّٰه بالعِلم ويُنَزَّهُ عن المعرفة وكذلك الدّراية الَّتي هي أعلى منها

العِلمُ إدراكٌ لذات الشَّيء وإدراكٌ لأثره الَّذي هو دليلٌ عليه، ولذا فهو إحاطةٌ بالجوهر والعرض، وأمّا المعرفة؛ فتتعلَّق بالأثر الظّاهر للشَّيء لا بحقيقة الشَّيء، وأصل المعرفة: تمييزٌ يقوم على ملامح ظاهرة للأشياء أخذًا من استعمال التَّركيب في الملامح الظّاهرة الَّتي تُميِّز الشَّيء من غيره، ولذا تعلَّقت المعرفة في أصل معناها بالمُفردات لا بالكلّيّات، ويسبقها جهل، وأمّا العلمُ؛ فيتعلَّق بهما[2].

واللّٰه سبحانه لا يُوصف بالمعرفة، فلا يُقال: اللّٰه عارفٌ بكذا؛ لأنَّ المعرفة تُستعمل في العلم القاصر الظّاهر الَّذي يُتوصَّل إليه بالتفكُّر والتَّدبُّر[3]، والتَّفكُّر والتَّدبُّر يستلزمان جهلًا سابقًا عليهما، ويستلزمان عُسْرًا في الإدراك ومحاولةً في التَّصوُّر، فضلًا عن كون المعرفة تبحث في الأثر الظّاهر؛ لتنفُذ إلى ما وراءه، واللّٰه تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك سبحانه، والفرق الآخر بينهما يظهر في أنَّ الإنسان

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 110.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرف).
(3) الراغب، المُفردات: (عرف).

لا يُقال عنه: فلانٌ عَلِمَ اللّهَ، بل يُقال: عرفَ اللّهَ؛ لأنَّ معرفة البشر باللّه حاصلةٌ بتدبُّر آثاره في خلقه دون إدراك ذاته[1].

وأمّا الدّراية؛ فأصلها (درى) - غير مهموز - يدلُّ على قصد الشَّيء واعتماده طلبًا، وعلى حِدَّةٍ ونفاذٍ يكون في الشَّيء[2]، والدِّراية: هي العِلمُ المُدْرَك بضرْبٍ من الحيلةِ والمعالجةِ والتَّحرّي[3]، فالدِّراية: عِلْمٌ فيه نفاذٌ إلى ما خَفيَ، وقد عرَّفها الرّاغب بأنَّها كالفِطنة في النَّفاذ إلى الباطن والحقيقة[4]، ولذا فباعتبار أنَّها تحصل بعد معالجةٍ وتحرٍّ ومحاولةٍ لإزاحة الجهل والخفاء عن المعلوم، فإنَّها كالنَّتيجةِ المسبوقةِ بمُقدِّماتها[5]، ولذا عُبِّرَ في الآية بالدِّراية؛ ليدلَّ على أنَّها نوعٌ من العِلم، لا ضربٌ من المعرفة، فالدِّراية أعلى من المعرفة.

(1) الراغب، المُفردات: (عرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درى).
(3) الراغب، المُفردات: (درى).
(4) الراغب، المفردات: (درى).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 67.

سُورَةُ السَّجدَةِ

سُورَةُ السَّجۡدَةِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

سورة السَّجدة مكّيَّة كلُّها

سورة السَّجدة مكّيَّة عند جمهور العلماء[1]، واستثنى بعضهم آياتٍ منها، وهي قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: 16]، وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 18 - 21]؛ استنادًا إلى بعض الروايات التي جاءت عن ابن عبّاس وغيره[2].

والحقُّ أنَّه لم تثبت تلك الرّوايات التي ذكروها في أسباب النُّزول[3]، فضلًا عن أنَّ نظم الآيات والصّور التي تضمَّنتها أقرب إلى النَّظم المكّيِّ منها إلى النَّظم المدنيِّ، يقول ابن عاشور: "والَّذي نُعوِّلُ عليه أنَّ السُّورة كلَّها مكّيَّةٌ، وأنَّ ما خالف ذلك إن هو إلّا تأويل أو إلحاقُ خاصٍّ بعامٍّ"[4].

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعد الآي:

وهي السّورة الثّانية والثّلاثون في ترتيب المصحف الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 203.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 187 - 188، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 62 - 63.
(3) الوادعيّ، الصّحيح المسند في أسباب النّزول، ص: 160.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 204.

بين سورتَي (لقمان) و(الأحزاب)، وهي عشرون وتسع آيات في البَصْريِّ، وثلاثون آية في عدد الباقين[1].

وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ؛ فهي الثّالثة والسَّبعون في تَعدادِ نزول السُّوَر، نزلَتْ بعد سورة (المؤمنون) وقبل سورة (الطّور)[2]، وقيل: بعد سورة (النَّحل) وقبل سورة (الطّور).

فضائل سورة السجدة:

ورد في فضائل سورة (السجدة) أحاديثُ صحيحةٌ كثيرة، وهي تدور حولَ قراءة النَّبيِّ ﷺ بها في صلاة الفجر من يوم الجمعة، نذكر منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ ﷺ يقرأُ في الجُمُعَةِ في صلاة الفجر: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]»[3].

اسم السّورة الكريمة ودلالته:

تسميَةُ سورة السَّجدة بعدَّة أسماء مأثورة

أشهرُ أسماءِ هذه السُّورة هو "السَّجْدَة"، وهو أخْصَرُ أسمائها، وهو المكتوب في السَّطر المجعول لاسم السُّورة مِن المَصاحِفِ المتداولة، وبهذا الاسم ترجم لها أصحابُ كُتُبِ السُّنَّة.

وتُسمَّى أيْضًا بعدَّة أسماء، منها: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾، وتُسمّى: ﴿تَنزِيلُ﴾ السَّجدة، حيثُ عَنْوَنها البخاريُّ في صحيحه: سورة "تنزيل السَّجدة"[4]، وتُسمَّى: "الم تنزيلُ السَّجدة"[5]، و"الم السَّجدة"، وتُسَمَّى أيضًا "سُورَةَ المَضاجع"؛ لوقوع لفظ المَضاجع في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدة: 16]، وفي مسند الدّارميِّ أنَّ خالد بن معدانَ سمّاها: "المُنجية"[6].

---

(1) الدّاني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 207.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 340.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (851)، ومسلم في صحيحه، برقم: (880).
(4) البخاري، صحيح البخاري: 2/ 40.
(5) أبو داوود، سنن أبي داوود: حديث رقم (804).
(6) أخرجه الدارمي في مسنده، برقم: (3451).

وأمّا وجه ارتباط اسمها (السَّجدة) بمحور السّورة؛ فيقول المهايميُّ: "سُمّيت بها؛ لأنَّ آية السَّجدة منها تدلُّ على أنَّ آيات القرآن مِنَ العظمة بحيث تخِرُّ وجوهُ الكلِّ بسماع مواعظِها، وتُنزَّهُ منزلتُها عن أن يُعارَض في كلامه، ويشكره على كمال هدايته، وهذا أعظم مقاصد القرآن"[1]، وقال الزُّحيليُّ: "سُمّيت سورةُ السَّجدة لما فيها من وصف المؤمنين الذين يسجدون للّٰه تعالى، ويسبِّحونه عند سماع آيات القرآن العظيم".

ويمكن أن يُضاف إلى ما ذكروه: بأنَّ تسميتها بالسَّجدة لا يمكن أن يكون لمُجرَّد اشتمالها على آية السَّجدة، فقد شاركها في ذلك بضعُ عشرة سورة في هذه الميزة، ولكنَّ تسميتَها بالسَّجدة - واللّٰه أعلم - إنَّما كان؛ لأنَّها ترمز إلى الخضوع للّٰه تعالى بالاستجابة إلى كتابه، والتَّصديق بما جاء به، ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: 15 - 16]، فكانت تسميتُها بذلك عنوانًا لما تضمَّنته من بيان أثر هذا القرآن في تحقيق المفاصلة بين النّاس، وأنَّ المؤمنين به هم مَن يعملون بهديه، ويتَّبعون أوامرَه ونواهيَه.

محور سورة السجدة العامِّ:

أثــرُ الــقــرآن الــكــريــم في تحقيق المفاصَلة بينَ النّاس

مقصودُ هذه السّورة - كما يبدو - يقوم على إثبات صِدق القرآن الكريم، وصِدق ما جاء به، ومَن نزل عليه، وبيانِ أثرِ هذا القرآن المُنزَّل الثّابتِ في تحقيق المفاصلة بين النّاس، وجَعْلِهم في فريقين: مؤمنين به موقنين بمضامينه، وجاحدين به منكرين له، ثمَّ بيانِ أسانيدِ كلِّ فريقٍ مِنَ الفريقين، وأثرِ القرآن فيه، ثمَّ بيانِ جزاءِ كلِّ فريقٍ، ويمكن تفصيل ذلك على الشكل الآتي:

---

(1) المهايميّ، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 3/ 14.

أولًا: بدأت السّورةُ الكريمة كسائر أُسْرَتها مِنَ السّور المُبتَدأة بـ ﴿الٓمٓ﴾ بالحديث عن تنزيل الكتاب، ونفي الشُّبهِ حولَ مصدريَّتِه، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

ثانيًا: تحدَّثت السورة عن الخالق ﷻ، وإبراز مظاهر قدرته في الأنفس والآفاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾.

ثالثًا: تناولت السورة الحديث عن جزاء المجرمين المنكرين للبعث، الَّذين حذَّرهم منه الكتابُ المنزَّل عليهم، وندَّمهم على ما فَرَط من أعمالهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [السجدة: 12 - 14].

رابعًا: تحدَّثت السورة عنِ الصِّنف الآخرِ المقابلِ للصنف السابق، وهم مَن آمنوا بهذه الآياتِ، وعملوا بمقتضاها، وأثَّرت في سلوكيّاتهم وأفعالهم: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: 15 - 16].

خامسًا: عقدت السورة موازنةً بين حال الفريقين المنقسمين في شأن الإيمان بمضمون هذا الكتاب: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة: 18 - 20].

سادسًا: خُتِمتِ السّورةُ الكريمة بوعيد المعرضين على استعجالهم العذاب: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: 28 - 30].

المقاصدُ الرَّئيسة للسّورة وخصائصها:

أهمّيّةُ التّنويه بالقرآن وبيانُ مواقفِ النّاس منه

يقول الفيروزاباديُّ: "مقصود السّورة: تنزيل القرآن، وإنذارُ سيِّد الرُّسُل، وتخليق السَّماءِ والأرض، وخَلْقُ الخلائق، وتخصيصُ الإنسان من بينهم، وتسليطُ مَلَك الموت على قبض الأرواح، وتعذيبُ العاصين في القيامة، ومَلْءُ جهنَّم من أهل الإنكار والضَّلالة، وإسقاطُ خواصِّ العِباد في أجواف اللَّيالي للعِبادة، وإخبارُهم بما ادُّخِر لهم في العُقْبى مِن أنواع الكرامة، والتَّفريقُ بين الفاسقين والصّادقين في الجزاءِ والثواب، في يوم المآب، وتسليةُ النَّبيِّ ﷺ بتقرير أحوال الأنبياءِ الماضين، وتقريرِ حُجَّة المنكرين للوحدانيَّة، وأمرُ الرَّسول ﷺ بالإعراض عن مكافأة أهل الكفر، وأمرُه بانتظار النَّصر، بقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: 30]"(1).

وقد شاركه ابنُ عاشور في بعض هذه الأغراض الرَّئيسة، ومنها: "التَّنويه بالقرآن أنَّه مُنزَّلٌ مِن عند اللّه، وتوبيخ المشركين على ادِّعائهم أنَّهُ مفترًى، بأنَّهُم لَمْ يَسْبِقْ لَهمُ التَّشَرُّفُ بنزُول كتابٍ، والاستدلالُ على إبطال إلهيَّة أصنامهم بإثْبات انفراد اللّه بأنَّهُ خالِق السَّماوات والأرض ومُدبِّر أمورهما، وذِكْرُ البعث، والاستدلالُ على كيفيَّة بَدْءِ خَلْقِ الإنسانِ ونسْلِه، وتنظيره بإحياء الأرض، وأُدْمِجَ في ذلك أنَّ إحياءَ الأرضِ نعمة عليهم كفروا بمُسديها، والإنحاءُ على الَّذين أنْكروهُ ووعيدُهم، والثَّناءُ على المُصدِّقينَ بآياتِ اللّهِ ووعْدُهم، ومقابلة إيمانهم بكفر المشركين، ثُمَّ إثبات رسالة رسولٍ عظيمٍ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 373 - 374.

قبل مُحمَّدٍ ﷺ هَدَى بِهِ أُمَّةً عَظيمَةً، والتَّذْكيرُ بِما حَلَّ بِالمُكذِّبينَ السّابقينَ ليكونَ ذلك عِظَةً للحاضرين، وتهديدهم بالنَّصر الحاصِل للمؤمنين، وختم ذلك بانتظار النَّصر، وأمَرَ الرَّسُول ﷺ بالإعراض عنهم تحقيرًا لهم، ووعده بانتظار نَصْرِهِ عليهم"[1].

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تـمـيُّـزُ سـورة الـسَّـجـدة بما أفـردهـا عـن غيرها مِنَ السّوَرِ

أولًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بأنَّها ذكرت المدَّةَ التي يتمُّ بها تدبيرُ الأمرِ مِنَ السَّماء إلى الأرض، في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5]؛ وذلك لبيان حكمة الله تعالى في تدبير خَلْقِه، وأنَّه لا مجال لمعرفة هذه المُدَّة إلّا من خلال هذا الكتاب.

ثانيًا: تفرَّدتِ السّورةُ الكريمة بذِكْرِها مَلكَ الموتِ المُوكَّل بقبض الأرواح، في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11]، وذلك في معرض وعيد المكذِّبين بالبعث، وبما جاء في الكتاب.

ثالثًا: تفرَّدتِ السّورةُ الكريمة بذِكْرها لمشهد عرض المُكذِّبين على ربِّهم يوم القيامة بصورة تقشعرُّ لها الأبدانُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: 12]، فضلًا عن تفرُّدها بوعيدهم بنوعَيْن من العذاب في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: 21].

رابعًا: عرضت السورة لبعض صفات المؤمنين التي لم تُذْكَر في غيرها من السّور، وذلك في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 204.

16]، وكذلك إشارتُها للجزاء العظيم الذي وعده اللّهُ تعالى للمؤمنين المحسنين: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: 17]، وقد ذكر النَّبيُّ ﷺ هذه الآيةَ لأصحابه حين قال لهم: «قالَ اللّهُ تعالى: أعددْتُ لعبادي الصّالحين، ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17]»[1].

الخصائص الأُسلوبيّة للسورة:

أولًا: تميَّزت هذه السّورةُ ببراعة الاستهلال وتفرُّدِ المطلع، فهي وإنْ شاركت أسرتَها مِنَ السّور المفتتحة بـ﴿الٓمٓ﴾، مثلِ الزَّهراوَيْن، والسّورِ الثَّلاثِ التي سبقتها: (العنكبوت، الرّوم، لقمان)، في حديثها عن الكتاب، لكن كان لكلٍّ منها خصوصيَّتُها في طريقة الاستهلال، ففي سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 1 - 2]، وفي سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 1 - 3]، وفي سورة لقمان: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾ [لقمان: 1 - 3]، بينما ذُكِرت سورةُ السَّجدة (تنزيل الكتاب)، في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وامتازت عن آل عمران بأنَّها ذكرت (تنزيلَ الكتاب) بالاسميَّة، خلافًا لما جاء في آل عمران بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: 3].

ثانيًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة باختتام جُلِّ فواصلِها بحرف النّون في (27) آية من أصل (30) آية، ممّا أكسبَها إيقاعَها الخاصَّ بها؛ وذلك من شأنه أن يسهِّل حفظها، وأن يشنِّفَ الآذانَ عند سماعِها.

ثالثًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبها بذِكْر بعض الأبنية والمشتقّات الصَّرفيَّة التي لم تَرِد في غيرها مِنَ السّور، فمِنَ الأفعال: (نفخ)، في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾، ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ [السجدة: 12]، في قوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: 12]، ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: 16] التي لم ترد مادَّةً وصيغةً إلّا في هذا الموضع، في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3072).

﴿جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16]، ومِن الأسماء: ﴿أَنۡعَٰمُهُمۡ﴾ [السجدة: 27]، في قوله: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡ﴾ [السجدة: 27]، ﴿نَاكِسُواْ﴾ [السجدة: 12]، في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [السجدة: 12]، وغيرها.

ولا شكَّ أنَّ لهذه الأبنيَةِ والاشتقاقات ارتباطًا قويًّا بمِحور السّورة ومقصودها العامِّ.

سِرُّ المناسبة بين سورة السَّجدة والسّورِ المجاورة لها:

اتِّصالُ سورةِ السَّجدة بسورتَي لقمان والأحزاب مضمونًا وأسلوبًا

جاءت هذه السّورةُ في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورة لقمان، وقد تقدَّمت هناك بعضُ وجوهِ الصِّلات بينهما، ومنها ما قالَه البقاعيُّ: "فلمّا كانت سورةُ لقمان - بما بُيِّن من مضمونها - محتويةً مِنَ التَّنبيه والتَّحريك على ما ذكر، ومُعلِمةً بانفراده سبحانه بخلق الكلِّ ومُلْكِهم؛ أتبعها تعالى بما يحكم بتسجيل صحَّة الكتاب، وأنَّه مِن عنده، وأنَّ ما انطوى عليه مِنَ الدَّلائل والبراهين يرفع كلَّ ريب، ويزيل كلَّ شكٍّ، فقال في مطلع السَّجدة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾"[1].

وأمّا السّيوطيُّ؛ فقد أوجز وجهَ اتِّصالها بما قبلها بقوله: "إنَّها شرحت مفاتحَ الغيب الخمسة التي ذُكِرَت في خاتمة لقمان"[2].

وبيَّن صاحبُ التَّفسير المنير ما أجمله السُّيوطيُّ بقوله: تظهر صلة سورة السَّجدة بما قبلها من ناحية اشتمال كلٍّ منهما على أدلَّة التَّوحيد، وهو الأصل الأوَّل للعقيدة، وبعد أن ذكر اللّه تعالى في لقمان الأصل الثاني، وهو الحشر أو المعاد، وختمها بهذين الأصلين؛

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 226.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدُّرر، ص: 123.

ابتدأ سورة السَّجدة ببيان الأصل الثالث، وهو الرِّسالة أو النُّبوَّة، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

كذلك تُعَدُّ بعضُ آيات سورة السَّجدة شرحًا وتفصيلًا للسّورة السّالفة، فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5] توضيحٌ لقوله تعالى في بيان مفاتح الغيب في لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34].

وقولُه سبحانه في السَّجدة: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ [السجدة: 27]، تفصيلٌ لقوله في لقمان: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان: 34].

وقولُه في السَّجدة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: 7]، شرح لقوله في لقمان: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: 34].

وقولُه في السَّجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 5]، شرحٌ لقوله في لقمان: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان: 34].

وقولُه في السَّجدة: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، إيضاحٌ لقوله: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: 34][1].

وأمّا وجهُ اتِّصالها بسورة الأحزاب المَدنيَّة بعدَها؛ فيظهر مِن ارتباط آخر السَّجدة بمطلع الأحزاب، فإنَّ سورة السَّجدة خُتِمَت بأمر النَّبيِّ ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظارِ عذابهم، وبُدِئَت الأحزابُ بأمره ﷺ بالتَّقوى، وعدمِ طاعةِ الكافرين والمنافقين، واتِّباعِ ما أُوحيَ إليه من ربِّه، والتَّوكُّل عليه.

ويرى بعضُهم: أنَّ سورة السَّجدة تقوم على تعظيم أمر النُّبوَّة، ببيان عظَمة اللّٰهِ الذي أنزل الكتاب، وأنَّه خلق السَّماوات والأرض وما بينهما في ستَّة أيّام، وأنَّه استوى على العرش، وأنَّه يدبِّر الأمر مِن السَّماء إلى الأرض، وأنَّه عالمُ الغيب والشَّهادة، وأنَّه أحسنَ كلَّ شيء خلقه، إلى آخر هذه التَّجلّيات العظيمة للقدرة والرَّحمة والغضب، وتأتي سورةُ الأحزاب ليشيعَ فيها التَّشريعُ والإنباء، فالسَّجدةُ كأنَّها صوتُ الأُلوهيَّة في رَحَمُوتِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 182 - 183.

وجَبَروتِها واقتدارها، وسورةُ الأحزاب تتخلَّلُ الحياةَ، وتداخِلُها، وتُصَحِّحُ أخطاءها، وتُشَرِّع لسدادها وصوابها[1]، ولا يخفى أنَّ سورة الأحزاب قدِ اعتنت بأمر النُّبوَّة وبيتِ النُّبوَّة عنايةً خاصَّةً، كما سيأتي.

(1) أبو موسى، محمد، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 29 - 31.

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

[السّجدة: 1 - 2]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

تناسُبُ السّورة مع ما قبلها في الاستدلال على الوحدانيَّة والحشر والرِّسالة

في السّورة السّابقة - وهي سورة لقمان - جاء فيها دليلُ الوحدانيَّة في بَدْء الخَلْق مع ذِكْر الأصل، وهو الحشر والمعاد، وهو الأصل الثّاني، وختمَ السّورةَ بهما، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ۝٣٤﴾ [لقمان: 34]، ثمَّ بدأ سورةَ السَّجدةِ ببيان الرِّسالة، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وهو الأصل الثّالث[1]، فجمعتِ السّورتان (لقمان والسَّجدة) الأصولَ الثّلاثةَ: (الوحدانيَّة، والحشر، والرِّسالة)، فحصل التَّناسُبُ بينَ السّورتين الكريمتين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيۡبَ﴾: (ريب) أصل يدلُّ على شَكٍّ، ويجوز أن يكون مع خوف[2]، والرَّيْبُ: ما رابَكَ من أمر، والاسم الرِّيبةُ بالكسر، وهي التُّهَمَةُ والشَّكُّ، ورابَني فلانٌ؛ إذا رأيتَ منه ما يَريبُك، وتكرهُه[3]، وفي الرَّيب تَوَهُّمٌ، فالرَّيْبُ: أن تتوهَّمَ بالشَّيء أمرًا ما، فينكشِفُ عمّا تتوهَّمه، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الحَجّ: 5]، ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ تنبيهًا أنَّه لا ريبَ فيه[4]، والمعنى المِحوريُّ: هو أن ينزل بالقارِّ السّاكنِ ما يزعجُه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 135، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 427.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ريب).
(4) الرّاغب، المفردات: (ريب).

ويُثيرُه، ويسوؤُه، ومنه: الرَّيْبُ والرّيبة: الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهَمَة، ينزل بالنَّفس السّاكنة أمرٌ غيرُ متبيِّنِ الوجهِ، أو غيرُ مُسوَّغٍ، فيُثيرُها، أحَقٌّ هو أم باطلٌ[1]؟.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـحـروفُ المقطَّعة مظهرٌ للتَّحدّي القاهر والإعجاز الباهر

تبدأ السّورةُ الكريمة بالأحرف المُقطَّعة (ألف، لام، ميم)، تلك الأحرفُ التي يعرفها العربُ المخاطَبُون بها، لكنَّهم لا يستطيعون أن يَصُوغوا مِثلَها، فالحروف تَحَدٍّ تِلْوَ تحدٍّ للعرب الفُصَحاء، وقيمتُها في أنَّها جاءت على سبيل الإيقاظ والتَّنبيه إلى إعجاز القرآن، فكأنَّ اللّٰه تعالى يقول لأولئك الكافرين المعارضين في أنَّ القرآن من عند اللّٰه، هاكُمُ القرآنُ ترونه مُؤلَّفًا مِن كلامٍ هو من جِنس ما تُؤلِّفون منه كلامَكم، ومنظومًا من حروف هي من جنس الحروف الهجائيَّة التي تنظِّمون منها كلامكم، ومِن ثَمَّ يتأتّى ذِكْرُ التَّنزيلِ العظيم الذي لا يَشُكُّ فيه شاكٌّ صحيحُ البصرِ والبصيرة؛ لأنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالَمين[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الاستهلال بالحروف المقطَّعة ودلالاتِها:

تـحـدّي الـعـربِ الـفـصـحـاء بعظمة القرآن وإعجازِ البيان

أفادتِ الحروفُ المقطَّعةُ فوائدَ: الأولى: أنَّ القرآن عظيم، والإنزال له ثِقَلٌ، والكتاب له عبءٌ، وكلُّ سورة أوَّلُها ذِكْرُ القرآنِ والكتاب والتَّنزيل؛ قُدِّمَ عليها منبِّهٌ يُوجب ثباتَ المخاطَبِ لاستماعه[3]، الثّانية: أنَّه لمّا كان المشركون مِن قريش في مكَّة يمنعون النّاس من سماع القرآن مخافةَ أن يتأثَّرَ به السّامعُ به، فيؤمنَ، ويُوحِّدَ؛ كانت هذه الحروف تستهويهم بنغمها الخاصّ، فيستمعون،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب، روب).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 141.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 27، 28.

فينجذبون، ويؤمن مَن شاء اللّهُ إيمانَهُ وهدايتَهُ، الثّالثة: أنَّ القرآن الكريم - بقرينة ذِكر الكتاب بعد الحروف غالبًا - قد تألَّف مِن مثل هذه الحروف: (الم، طس، حم، ق...)، فألِّفوا أيُّها المُكذِّبون سورةً من مثله، وإلّا فاعلموا أنَّه تنزيلٌ مِنَ اللّه ربِّ العالَمين، فلمّا عجزوا؛ قامت عليهم الحُجَّة، ولم يبقَ شكٌّ في أنَّه تنزيل اللّه، وأنَّه كتابُهُ أنزله على نبيِّه محمَّد ﷺ[1]، الرّابعة: الحروف المقطَّعة دالَّةٌ على معانٍ، فالألف: إشارة إلى اللّه، واللّام إشارةٌ إلى اللَّطيف، والميم إشارةٌ المجيد[2]، الخامسة: أنَّ عددَ الحروف التي ابتُدِئَت بها السّوَرُ أربعةَ عشَرَ حرفًا، وهي نصفُ الحروف الهجائيَّة، وهي تشتمل على أنواع مخارج الحروف المختلفة، وهذه الحروف، هي: الألف، واللّام، والميم، والصّاد، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والرّاء، والسّين، والطّاء، والحاء، والقاف، والنّون، ولا يحفظُها، ويقرؤها إلّا مَن يعرف القراءة والكتابة، فالأُمّيُّ لا يعرفها، وإن عرف بعضها لا يعرفها كلَّها، وإلّا كان قارئًا كاتبًا؛ ولذلك هي في القرآن على لسان النَّبيِّ الأُمّيِّ مِن دلائل إعجازه[3].

نُكْتَةُ الابتداءِ بالتَّنزيل مادَّةً وصيغةً:

بيانُ عُلُوِّ القرآن بإعجازه المُتفرِّد بمعالم البيان

في البَدْء بالتَّنزيل عدَّةُ نِكات: الأُولى: مادَّة (نزل)، وما يُشتقُّ منها من إنزال وتنزيل تُفيد كلُّها أنَّه جاء من جهة العُلُوِّ إلى جهة أسفل منه، فكأنَّك تتلقّى من جهة أعلى منك وأرفع، وما دُمْتَ تتلقّى من جهةٍ أعلى منك؛ فإيّاك أنْ يضلَّ بكَ الفِكر لناحية أخرى[4]، الثّانية: في لفظة ﴿تَنزِيلُ﴾ إلماحةٌ إلى أنَّ القرآن ليس من عند محمَّد ﷺ، وإنَّما هو من عند اللّه المُنزِّل، فلا معنى إذًا لشَكِّكُم ورَيْبِكم،

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 221.
(2) إسماعيل حقّي، روح المعاني: 2/ 2.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 92.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11777.

الثّالثة: يقال: إنَّ التَّنزيل يختصُّ بالموضع الذي يُشير إليه إنزالُه مفرَّقًا، ومَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، الرّابعة: يقال: إنَّ اختصاص هذا اللَّفظ بالبَدْءِ؛ لأنَّ السّورة سُمّيت باللَّفظ نفسه، فقيل: سورةُ التَّنزيل[1]، الخامسة: أنَّ التَّنزيل مصدرٌ للفعل المُضعَّف (نزَّل)، ويدلُّ على القُوَّة كمًّا وكيفًا، وفيه دلالةٌ على عِظَم شأنِ نزول القرآن الكريم[2]، السّادسة: التَّنزيل مصدرٌ، والمصدر في اللُّغة ما دلَّ على حدث دونَ ارتباطٍ بزمن[3]، وفي هذا إلماحةٌ إلى تطاول حدثِ التَّنزيل وقتًا بعد وقت، فالزَّمن ليس محدودًا بحَدٍّ، وكلُّ ذلك لتثبيت فؤادِ الرَّسول ﷺ في مواجهة المنكرين الشّاكّين.

فائدةُ إضافةِ لفظ (التَّنزيل) إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ أنَّ إطالة الجملة غايته التَّشويق لذِكْر الخبر

في إضافة التَّنزيل إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، عدَّةُ فوائد؛ الأُولى: إطالةُ المبتدأ ﴿تَنزِيلُ﴾؛ ليَحْصُلَ - بتطويله ثمَّ تعقيبه بالجملة المعترضة - التَّشويقُ إلى معرفة الخبر، وهو قوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولولا ذلك؛ لقيل: قرآنٌ مُنزَّل من ربِّ العالمين، أو نحو ذلك"[4]، الثّانية: جاءت الإضافة؛ ليعودَ الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾ على متقدِّم لفظًا ورُتبةً، ولولا الإضافةُ؛ ما حَسُنَ الضَّمير، وما كان له مكان، الثّالثة: التَّعريف بالإضافة، كما يقول أهلُ البلاغة: من أغراضها الاختصارُ والإيجاز[5]، أو تعظيمُ المضافِ باقترانه بالمضاف إليه، وهذا قائمٌ في هذه الإضافة مِنَ الإيجاز والتَّعظيم لِلَفْظَة ﴿تَنزِيلُ﴾.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الكتابُ وصفٌ بالغُ الكمال في الإعجاز والجلال

في التَّعريف بـ(أل) فائدتان: الأولى: أنَّ (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾

(1) البسيليّ التّونسيّ، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن: 2/ 385.
(2) إبراهيم هدهد، معجم الفروق اللّغوية اللّمحات البلاغيّة: 3/ 452.
(3) الصبّان، حاشية الصبّان: 2/ 159.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 205.
(5) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 162.

للحقيقة، والمعنى: ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأن يُخَصَّ به اسمُ الكتاب؛ لغاية تفوُّقِه على بقيَّة الأفراد في حيازة كمالات الجنس، حتّى كأنَّ ما عداه مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّة خارجٌ منه بالنِّسبة إليه، وهذا يعني: أنَّ اللّام هنا مبالغةٌ في وصف الكتاب ببلوغه الدَّرجةَ القُصوى مِنَ الكمال والوفرة، فهو الحقيقةُ الباقية المُنزَّهة عنِ التَّحريف والتَّبديل، الثّانية: الدَّلالة على أنَّه صار علمًا بالغلبة على أنَّه القرآن الكريم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

هناك مشابهةٌ بينَ الكُتب السَّماويَّة في أصول التَّوحيد والإيمان

فائدةُ لفظةِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جمْعُ الشَّرائع الأُخرى فيه، ومشابهتُه لها في كونها مكتوبةً؛ فأشبهَ التَّوراةَ؛ لأنَّها كانت مكتوبة في زمن الرَّسول المُرسل بها، وأشبهَ الإنجيلَ الَّذي لم يُكتَب في زمن الرَّسول الَّذي أُرسل به، ولكن كتبَه بعضُ أصحابه وأصحابهم، وأنَّ اللّه أمر رسولَه أن يكتب كلَّ ما أنزلَ عليه منه؛ ليكونَ حجَّةً على الَّذين يدخلون في الإسلام، ولم يتلَقَّوْهُ بحفظ قلوبهم، وفي هذه التَّسمية معجزةٌ للرَّسول ﷺ، بأنَّ ما أُوحيَ إليه سيُكتَب في المصاحف، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: 92][2].

نُكْتَةُ البَدءِ بالجملة الاسميَّة:

دلالةُ الثَّباتِ والاستمرار مناسبةٌ للنَّسق الاسميِّ المختار

افتتاحُ الكلام بالجملة الاسميَّة؛ لدلالتها على الدَّوام والثَّبات[3]، فكلمةُ ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ أو خبر، والاسميَّة تعني: أنَّ الكتاب دائمٌ ثابت لا يتغيَّرُ، ولا يتبدَّل؛ فالجملة الاسميَّة - الَّتي تعني الثَّباتَ - تناسِبُ عُتُوَّ الكفّارِ وصلابةَ رأيهم في القرآن، وثباتَهم على كفرهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 73.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 205.

وعنادهم، وعدمَ اعترافِهم بالقرآن، وكونُ تنزيلِ الكتابِ من أعظم أنواع التَّربيَةِ حينَ أُنزلَ عليهم، ففيه مصالحُهم الدّينيَّةُ والدُّنيويَّة، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال(1).

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

التَّعجيلُ بنفي الرَّيب مفيدٌ في البيان بلا ريب

لم تُعطَف هذه الجملة على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ لأنَّها مؤكِّدة لمضمونها، أو حالٌ منها، أو صفةٌ لها، فمعنى نزول الكتاب: أنَّه ليس عملًا بشريًّا، بل هو كلام اللّه الذي لا يأتيه الرَّيبُ من بين يديه ولا من خلفه، ويمكن أن تكون جملة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ معترضةً لا محلَّ لها مِنَ الإعراب، غرضُها إثباتُ مصدريَّة القرآن، وأنَّه مِن عند اللّه.

دلالةُ إيثارِ ﴿لَا﴾ بالنَّفي بها دونَ غيرِها:

دلالــةُ الـنَّـفـي المطلقِ للرَّيب عــلـى تـنـزيـه الكتاب المرتاب فيه

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ تفيدُ التَّنصيصَ على نفي جنس الرَّيب، وهي آكَد مِنَ العاملة عمل (ليس)(2)، فوجودُها يعني النَّفيَ المطلقَ لكلِّ ريبٍ قد يحدث، ومِن ثَمَّ فقولنا: (ليس ريب) أو (ما ريب)، لا يؤدّي معنى: ﴿لَا رَيۡبَ﴾، يضاف إلى ذلك غلبةُ حرفِ النَّفي (لا) في السّورة الكريمة، حيثُ وردت في ثمانية مواضع من السّورة [الآية: 4، 15، 17، 18، 23، 27، 29].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ (الرّيب) دونَ غيره:

بـيــانُ أنَّ نـفـيَ الـرّيـــبِ دفـــعٌ للشَّكِّ والتُّهمة معًا

التَّعبير بالرَّيب معناه الشَّكُّ مع تهمة المشكوك فيه(3)، فالرَّيب شَكٌّ وزيادة؛ لوجود التُّهمة فيه، ويرافقه قلقٌ واضطراب، لذلك نفاه القرآنُ الكريم عنِ الأمور العظيمة الّتي تُقلِق النّاس، كالسّاعة والقرآن، فكان أقوى في الدَّلالة على التُّهمة، وكان هذا حالُ الكفّار الشّاكين في القرآن، المُتَّهمين الرَّسولَ ﷺ بأنَّه هو الَّذي جاء بالقرآن

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 364.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 240.
(3) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن: 1/ 47.

من عنده، فنفى القرآنُ الكريم كلَّ ريبٍ وشكٍّ، فليس بسحرٍ، ولا شِعر، ولا كهانة، ولا أساطيرِ الأوَّلين.

دلالةُ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيهِ﴾:

الكتابُ المُنزَّل متَّصِفٌ بالكمال من بدايته لخاتمته

الظَّرفيَّة في قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ظرفيَّةٌ تقديريَّة مجازيَّة بتعبير الإمام الرَّضي[1]، فكأنَّ كلَّ كلمة في الكتاب لا ريبَ فيها، فالرَّيب منفيٌّ عن كامل الكتاب، كلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا، وهذا إيغالٌ في النَّفي، وتقريرٌ لعظمة كلِّ الكتاب مِن بَدْئه إلى خاتمته، فكان توظيفُ حرفِ الظَّرفيَّة هو الآكَد والأنجع فائدةً وشمولًا؛ لبيان خُلُوِّ الكتاب من كلِّ ريب، وقد يقال: "معنى (في) أن يكون الرَّيبُ مظروفًا في هذا الكتاب، أنَّه لا يشتمل على ما يثير الرَّيب، فالَّذين ارتابوا، بل كذَّبوا أن يكون مِن عند اللّه، لا يَعْدُون أن يكونوا متعنِّتين على علم، أو جُهّالًا يقولون قبلَ أن يتأمَّلوا، وينظروا، والأوَّلون زعماؤهم، والأخيرون دهماؤهم"[2].

دلالةُ الهاء في شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

الضَّميرُ والاختصار مع الشُّمول مفيدٌ في البيان المأمول

الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾ راجعٌ إلى الكتاب، وهو يعمُّ مضمون الجملة، كأنَّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه مُنزَّلًا من ربِّ العالَمين، ويشهد لوجاهته قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾؛ لأنَّ قولهم: هذا مفترًى، إنكارٌ لأن يكون من ربِّ العالَمين، وكذلك قوله: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وما فيه من تقدير أنَّه مِن اللّه، وهذا أسلوب صحيح مُحكم[3]، فأدّى الضَّمير دورَ الاختصار والإيجاز.

دلالةُ موقعِ قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾:

مِن معاني العبارة الجليَّة تعديدُ النُّعوتِ والثَّباتُ والقصديَّةُ

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ جملةٌ تعدَّدت مواقعُها النَّحويَّة[4]، فهي صفةٌ للكتاب أو حال، أو هي معترضة، ولكلٍّ وجهُهُ في المعنى، فالصِّفة:

---

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 304.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 206.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 506.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 506، والنّسفيّ، تفسير النّسفيّ: 3/ 5.

تعني أنَّه من تعديد نعوت الكتاب، فهو كتاب غيرُ مرتابٍ فيه، والحاليَّةُ: تعني الثَّباتَ وعدمَ الانتقالِ، والاعتراضيَّةُ: تعني أنَّ هذا هو صلبُ القضيَّة، والنُّقطةُ المقصودة في النَّصِّ؛ لذا كان التَّعجيل بها بينَ المبتدأ والخبر.

نُكْتَةُ نفي الرّيب مع وجود المُرتابين:

سطوعُ البيان ينفي الرَّيبَ مع الإنصاف

لم ينفِ القرآنُ في قوله: ﴿لَا رَيۡبَ﴾ أنَّ أحدًا لا يرتاب فيه، وإنَّما المَنفيُّ كونُه متعلِّقًا للرَّيب ومَظِنَّةً له؛ لأنَّه مِن وضوح الدِّلالة وسطوع البرهان بحيثُ لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]، فما أبعدَ وجودَ الرَّيبِ منهم؟ وإنَّما عَرَّفَهم الطَّريقَ إلى مزيل الرَّيب، وهو أن يحزروا أنفسَهم، ويَروزوا قواهم في البلاغة، هل تتمُّ للمعارضة، أم تتضاءل دونها؟ فيتحقَّقوا عند عجزهم أنَّه ليس فيه مجالٌ للشُّبهة، ولا مدخلَ للرِّيبة[1]، وقد يقال هنا: لا شكَّ أنَّه مِن عند اللّه في نفس الأمر في اعتقاد أهل الحقِّ، ولم يُعْتَبر أهلُ الباطل[2]، ويمكن أن يُقال: إنَّ الجملة الخبريَّة: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ هي خبر لفظًا، إنشاءٌ معنًى، على معنى: (لا ترتابوا فيه).

سِرُّ تقديم اسم ﴿لَا﴾ على خبرها:

الإشارةُ إلى عدم مقارنة القرآنِ بكتابٍ آخر

القصدُ في إيلاء الرَّيبِ حرفَ النَّفي في قوله: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ نفيُ الرَّيبِ عنه، وإثباتُ أنَّه حقٌّ وصِدق، لا باطلٌ وكذب، كما كان المشركون يدَّعونه، ولو قيل: (لا فيه ريب)؛ لَقُصِد إلى ما يبعُد عن المراد، وهو أنَّ كتابًا آخَر فيه ريبٌ لا فيه، كما قُصِد - في قوله: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ [الصّافات: 47] - تفضيلُ خَمْرِ الجنَّة على خمور الدُّنيا، بأنَّها لا تغتال العقولَ كما تغتالها هي، كأنَّه قيل: ليس فيها ما في غيرها من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 32.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/ 68.

هذا العيب والنَّقيصة[1]، وهذا يشبه ما إذا قلنا: لا عيبَ في الدّار؛ كان معناه نفيَ العيبِ في الدّار، وإذا قلنا: لا في الدّار عيبٌ؛ كان معناه أنَّها تُفَضَّل على غيرها بعدم العيب[2].

معنى ﴿مِن﴾ في التَّركيب ودلالتُها:

ابتداءُ الغاية دليلٌ على التَّشريف والعناية

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمعنى: من عنده ووحيه، كما تقول: جاءني كتاب مِن فلان[3]، وابتداءُ الغاية هنا قبل التَّركيب: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تشريفٌ للكتاب المُنَزَّل؛ لكون القدرة الإلَهيَّة هي صاحبة التَّنزيل والإبداع، وهذا داعٍ إلى ضرورة التَّصديق بالكتاب، وكأنَّ شِبهَ الجملة من تتمَّةِ نفي الرَّيب.

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظِ ﴿رَّبِّ﴾، وإضافتِه:

احتواء اللَّفظ على عجائب الخَلْق مع حُسْن الاعتناء بهم

تتعدَّد نِكاتُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ونجملها فيما يلي: النُّكتة الأولى: القرآن كتاب مُنَزَّلٌ من ربِّ العالَمين، وهذا يعني: أنَّ فيه عجائبَ العالَمين، فتدعو النَّفسَ إلى مطالعته[4]، النُّكتة الثّانية: لفظة ﴿رَّبِّ﴾ تعني: الاعتناءَ والتَّربية، وإيصالَ المخلوق إلى الكمال، فكأنَّ تركيب ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ داعٍ إلى ضرورة التَّربية من خلال الاهتمام بالقرآن، واتِّباع أوامره ونواهيه، النُّكتة الثّالثة: استحضارُ الجلالة بطريق الإضافة، بوصف ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ الاسم العَلَم وغيرِه من طُرق التَّعريف، لما فيه مِنَ الإيماء إلى عموم الشَّريعة، وكونِ كتابِها مُنزَّلًا للنّاس كلِّهم، بخلاف ما سبق من الكتب الإلَهيَّة، كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]، النُّكتة الرّابعة: الإيماءُ إلى أنَّ من جملة دواعي تكذيبهم به، أنَّه كيف خصَّ اللّٰهُ برسالته بشرًا منهم، حسدًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 32، 33.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 237.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 205.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 135.

من عند أنفسهم؛ لأنَّ ربوبيَّة اللّه للعالَمين تُنبئ أنَّه يختصُّ بفضله من يشاء، وأنّه لا يُسْأل عمّا يفعل، وأنَّه أعلم حيثُ يجعل رسالاته[1].

فائدة (أل) في لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

ملمَحُ عمومِ الكُتُبِ والشَّريعة وتوافقُ رؤوسِ الآي البديعة

(أل) في قوله ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جنسيَّةٌ، وفي ذلك دليل على كون الشَّريعة لكلِّ البشر، لا لطائفةٍ بعينها، وهذا يعني اختلافَ هذا الكتابِ عن الكُتُبِ كلِّها؛ لأنَّ الشَّرائع والكُتُب كانت تنزل لأقوام بأعيانهم، أمّا هذا الكتاب؛ فهو لكلِّ فرد مخلوق موجود.

سِرُّ التَّعبيرِ بجمع السَّلامة لا بجمع التَّكسير:

بيانُ خصوصيَّةِ خطابِ مَن يعقل

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون (العوالم)؛ لكون الحديث عن النّاس في جملتهم، والإنسانُ إذا شارك غيرَهُ في اللَّفظ؛ غلب حُكمُه، وقيل: إنَّما جُمِعَ هذا الجمع؛ لأنَّه عُنيَ به أصنافُ الخلائقِ مِنَ الملائكة والجنِّ والإنس، دونَ غيرها[2].

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بين آيتي السَّجدة والبقرة:

بيانُ الإحاطة مع اختلاف المخاطَبين في الشِّدَّة واللّين

عُدِلَ في سورة السَّجدة عن أسلوب قولِه تعالى في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 1 - 2]؛ لأنَّ سورة البقرة نازلةٌ بين ظهرانَي المسلمين، ومَن يُرَجَى إسلامُهم من أهل الكتاب، وهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]، وأمّا هذه السّورة (السَّجدة)؛ فقد جابَه اللّهُ بها المشركين الَّذين لا يؤمنون بالإله الواحد، ولا يوقنون بالآخرة، فهُم أصلب عودًا، وأشدُّ كفرًا وصدودًا، وقد يقال: في سورة السجدة نَفَى الرَّيبَ عن تَنْزيل الكِتاب، وفي سورة البقرة نفى الرَّيب عنِ الكتاب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2]، فدلَّ مجموعُ الآيتين على نفْي الرَّيب عن الكتاب، وعن تنزيله[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 205.
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) البسيليّ التّونسيّ، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/ 385.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القرآنُ والكتابُ:

لفظُ الكتاب أعمُّ دلالـةً من لفظ القرآن

الكتابُ يُطلَق على القرآن، وقد يُطلق على غيره مِن الكُتُبِ السَّماويَّة كالتَّوراة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ [الأنعام: 91]، وقد جاء الجمعُ بينهما - أي: بين القرآن والكتاب، والمقصود واحد، وهو القرآن - في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾ [النمل: 1]، فالكتاب هو القرآن، فجُمِعَ له بين الصِّفتين: بأنَّه قرآن، وأنَّه كتاب؛ لأنَّه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة[1]، إذًا فالكتابُ يُطلَق على القرآن؛ لأنَّه مكتوب، ويُطلَق على غيره مِنَ الكُتُبِ، فالقرآن والكتاب اسمان علمان للمُنَزَّل على محمَّد، وكذا وصفان؛ لأنَّه يُقرأ، ويُكتَب، فحيثُ جاء بلفظ التَّعريف؛ فهو العَلَم، وحيثُ جاء بلفظ النَّكرة؛ فهو الوصف[2].

الشَّكُّ والرَّيب:

لـفـظُ الـرَّيـب أعـمُّ في الدَّلالة والاستعمال من لفظ الشَّكِّ

الشَّكُّ تردُّدٌ بينَ أمرين، مع رُجحان أحدِهما، أمّا الرَّيب؛ ففيه شكٌّ بتهمة، وقد يُرافقه قَلَقٌ واضطراب؛ لذلك نفاه القرآنُ الكريم عنِ الأمور العظيمة، كالسّاعة والقرآن، وقد يعني الرَّيبُ صروفَ الدَّهرِ ونوائِبَهُ، وهذا ليس في لفظ المصدر (الشَّك) المرادف له.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 154.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 207.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ [السّجدة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط تنزُّل الكتاب بعظمة الخالق الوهّاب والتَّعجُّب من شناعة الارتياب

جاءت الآيتان السّابقتان دالَّتَين على عظَمة القرآن وعظَمة مَن بَلَّغَهُ، وهو الرَّسولُ الأعظم ﷺ، ثمَّ جاءت هذه الآيةُ إضرابًا انتقاليًّا؛ للتَّعجُّب من قولهم الشَّنيع؛ لأنَّهم قالوا هذا القولَ الشَّنيعَ وعَلِمَهُ النّاسُ عنهم، فلا جَرَم كانوا أحقّاء بالتَّعجيب من حالهم ومقالهم؛ لأنَّهم أبْدَوا به أمرًا غريبًا يقضي منه العجبُ لدى العقلاء ذوي الأحلام الرّاجحة، والنُّفوسِ المُنصفة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾: (فرى) الفَرْيُ: قطع الجِلْد للخَرْز والإصلاح، والإفراءُ للإفساد، والافتراءُ فيهما وفي الإفساد أكثر، وكذلك استُعمل في القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 48]، وفي الكذب، نحو: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 140]، وقد يُشير إلى معنى العُجْبِ والعُظم، نحو قوله: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، قيل: معناه عظيمًا، وقيل: عجيبًا، وقيل: مصنوعًا، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى معنًى واحد[2]، ويقال: الفَريُ الإصلاح، والإفراء الإفساد، وكأنَّ الهمزة فيه للسَّلْبِ، وإذا أُزيل الإصلاح؛ صار فسادًا، والافتراء افتعال مِنَ الفَري أو الإفراء، وهو أقبح الكذب،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 205.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).

أو الكذب مع التَّعمُّد[1]، وكلُّ ما في القرآن من لفظ الافتراء؛ فهو بمعنى اختلاق ما لا حقيقة له[2].

2) ﴿لِتُنذِرَ﴾: (نذر) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ[3]، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشير إخبارٌ فيه سرور، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [اللّيل: 14]، ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت: 13]، ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: 21][4]، والمعنى المِحوريُّ: تَبِعةٌ تُلْتَزَمُ، أو يُخْشَى من لزومها[5].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

يدَّعي الكفّار أنَّ الرَّسول ﷺ، اختلقه من عند نفسه، لكنَّ اللّٰه العزيز يردُّ على أهل الادِّعاء، بأنَّ القرآن حقٌّ، ووظيفته إنذاركم وهدايتكم؛ لتبتعدوا عن الغيِّ والضَّلال، وتدخلوا في طريق الرَّشاد والهداية.

القرآنُ هو الحقُّ لا ريب فيه ووظيفتُه إنذارُكم لهدايتكم بما فيه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمۡ﴾ وفائدة التَّعبير بها:

بيانُ بروزِ التَّعنُّتِ والمكابرة والتَّهافت

دلَّت ﴿أَمۡ﴾ على معنى الإضراب الانتقاليِّ؛ لأنَّ ﴿أَمۡ﴾ هي المنقطعة، الكائنةُ بمعنى (بل) والهمزة؛ إنكارًا لقولهم، وتعجيبًا منه، لظهور عجزِ بُلغائهم عن مثل أقصر سورة منه، فهو إمّا قولُ متعنِّتٍ مكابرٍ، أو جاهلٍ عميت منه النَّواظر.

بلاغةُ الاستفهام بعد ﴿أَمۡ﴾:

بيانُ تقريعِ القائلين بافتراء النَّبيِّ الصّادق الأمين

جاءت ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، في موضع ألف الاستفهام؛ لأنَّها اتَّصلت بما قبلها، وقيل: هي أم المنقطعة، الَّتي

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فري).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فرئ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نذر).

تُقدَّر بمعنى: (بل والهمزة)؛ للإضراب عنِ الكلام السّابق إضرابَ انتقال، وهي تدلُّ على خروج من حديث إلى حديث، فإنَّه ﷻ أثبت أنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالَمين، وأنَّ ذلك ممّا لا ريب فيه، ثمَّ أضربَ عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، أي: افتعله، واختلقه، وقيل: أم بمعنى الواو، مجازه: (ويقولون: افتراه)، وقيل: الميم صلة، والتَّقدير: (أيقولون: افتراه؟) أي: اختلق محمَّدٌ القرآنَ من قِبَل نفسه، فهو استفهام معناه التَّقريع[1]، وكأنَّ التَّعبير القرآنيَّ، يقول: هذه القولة الَّتي لا ينبغي أن تقال؛ فتاريخُ الرَّسولِ ﷺ فيهم ينفي هذه الكلمةَ الظّالمة من جهة، وطبيعةُ هذا الكتاب ذاتُها تنفيه أصلًا، ولا تدع مجالًا للرَّيب والتَّشكُّك، فالاستفهام المقدَّر بعدها هنا تعجيبيٌّ؛ لأنَّهم قالوا هذا القول الشَّنيعَ، وعَلِمَهُ النّاسُ عنهم، فلا جَرَم كانوا أحقّاءَ بالتَّعجيب من حالهم ومقالهم؛ لأنَّهم أبدوا به أمرًا غريبًا، يقضي منه العجب لدى العقلاء، ذوي الأحلام الرّاجحةِ والنُّفوسِ المُنصفة؛ إذ دلائلُ انتفاء الرَّيب عن كونه من ربِّ العالمين واضحة، بَلهَ الجزمَ بأنَّه مفترًى على الله تعالى[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾:

تـجـدُّدُ الاتِّـهـام المُهين واستمرارُه حينًا بعد حين

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ أسرارٌ، نلخِّصها بأربع نقاط: الأولى: الدِّلالة على تجدُّد القول واستمرارِه حينًا بعد حين، بل والاجتهادُ فيه حالًا بعد حال، ووقتًا بعد وقت، مع استحضارِ صورةِ القولِ المُريب، وفي هذا تصميم على القول والاتِّهام والمُضيِّ فيهما، الثّانية: القول هنا تحقيق للتَّعجيب منه، حتّى لا تغفلَ عن حال قولهم أذهانُ السّامعين، وفي المضارع إيذانٌ بتجدُّد مقالتِهم هذه، وأنَّهم لا يُقلِعون عنها على الرَّغم ممّا جاءهم مِنَ البيِّنات،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/ 344.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 206.

رغمَ افتضاحِهم بالعجز عن معارضته[1]، الثّالثة: الإصرارُ منهم على الكفر والعناد؛ ليحاولوا إقناطَ الرُّسل من إيمانهم، وفي قولهم تمسُّكٌ بعقيدتهم الفاسدة، الرّابعة: يحكي الفعل ﴿يَقُولُونَ﴾ شدَّةَ جُرأتِهم على الرُّسل، وعدمَ إخفاءِ ما في قلوبهم.

بلاغةُ عودِ الضَّمائر:

مقابلةُ الجمعِ الـضّـالِّ بالفرد المُـــؤمـــن في السّياق

تتأتّى بلاغةُ عودِ الضَّمائر في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، من كونها عائدةً إلى الكفّار، وهم - وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ - مذكورون في هذا المقام، الَّذي لا يُرَى فيه غيرُ أهلِ الشِّركِ والضَّلالِ والعنادِ، الَّذين ينكرون الحقَّ، ويمارون فيه، وأمّا الضَّمير في الفعل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾؛ فهو عائدٌ إلى الرَّسول ﷺ - حاشاه - لأنَّه معلومٌ من مقام حكاية مقالِهم المشتهر بين النّاس، والضَّمير المنصوب عائدٌ إلى الكتاب، وضميرُ الجمعِ في ﴿يَقُولُونَ﴾ هنا دالٌّ على كثرة القائلين واتّفاقهم على القول، وتمالئهم عليه، يساند بعضُهم بعضًا، ويدفعُه دفعًا إلى الاتِّهام بالافتراء، في جانب الضَّمير المتَّصل - الهاء في الفعل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ - الدّالِّ على واحد لا جمع، وهذا واشٍ بكثرة أهلِ الباطل، وهم على ضلالٍ، وقِلَّةِ أهلِ الحَقِّ، وهم على الصِّراط المستقيم.

دلالةُ الفعل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ في السّياق:

الثَّباتُ في الكذب والادِّعـاء حمقٌ وسَفَهٌ ومِراءٌ

للفعل ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ قراءاتٌ سياقيَّةٌ متعدِّدة، فقد حمل الفعلُ (افترى) دلالاتِ الفساد والإفساد والكذب والشَّيءِ العجيبِ المصنوعِ، الَّذي لا عهدَ لهم به، فلفظةٌ واحدةٌ ضمَّت كلَّ هذه المعاني، وهذا واشٍ بشدَّة حنقهم وبُغْضِهم للقرآن ومَن أُنزلَ عليه، ثمَّ دلالةُ (افتعل) في الفعل (افترى)، وهذه الدِّلالة تشرح صفةَ العمل والاكتساب مرَّةً بعد مرَّة، فهو التَّصرُّف والطَّلبُ والاجتهاد[2]، ففي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 206.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 74.

الفعل اتِّهامٌ صريحٌ قويٌّ بالمضيِّ قُدُمًا في الكذب والادِّعاء، وهذي جنايةٌ منهم على الرَّسول الأعظم ﷺ، وكأنَّ القولَ مردودٌ إليهم، فهُم الَّذين يفترون الكذبَ على هذا الكتاب، وهم يرون بأعينهم آياتِ الحَقِّ مشرقة في كلِّ كلمة من كلماته، ومع كلِّ آية من آياته.

علَّةُ نفي الرَّيب وإثبات قولهم بالافتراء:

بيانُ إعجازِ القرآن وتعنُّتِ الكفّار في الكُفران

علَّةُ نفي الرَّيبِ أنَّه لا مدخلَ للرَّيب في أنَّه تنزيل اللّه؛ لأنَّ نافي الرَّيبِ لا ينفكُّ عنه، وهو كونه معجزًا للبشر، ومثلُهُ أبعدُ شيءٍ مِنَ الرَّيب، وأمّا إثباتُ قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾؛ فإنَّه قولُ مُتعنِّتٍ، مع عِلْمِه أنَّه مِنَ اللّه؛ لظهور الإعجاز له، أو جاهلٍ يقوله قبلَ التَّأمُّلِ والنَّظرِ؛ لأنَّه سمع النّاس يقولونه[1].

فائدةُ الالتفات مِنَ الغَيْبَةِ إلى الحضور:

مَلْمَحُ إبعادِ النَّبيِّ الشَّريفِ عن سماع ما لا يليق بمقامه المُنيف

للالتفات فائدةٌ عُظمَى في هذا السّياق، هو أنَّه لمّا كان الافتراءُ ممّا لا يليق بمقام النُّبوَّة، ولا يصحُّ أن يطوفَ بحماها، فقد كان إكرامُ اللّهِ ﷻ لنبيِّه الكريم، وإحسانه إليه، ورفعِه لقَدْرِه، أن عَزلَ سمعَه عن أن يُواجَهَ بهذا المكروه مِنَ القول الَّذي يقوله المشركون فيه، وحتّى إنَّهم وإن أرادوا النَّبيَّ به، فإنَّما هو مصروفٌ عنه إلى غيره، ممَّن يصِحُّ أن يكون منه افتراء، وهذا فوقَ أنَّه تكريمٌ للنَّبيِّ ﷺ وإعلاء لقدره، هو أدبٌ سماويٌّ، وإعجازٌ قرآنيٌّ، في تصوير الواقع، وضبطه على أحكم ميزانٍ وأعدلِه وأقومِه[2].

معنى ﴿بَلۡ﴾، وغرضُ التَّعبير بها:

بيانُ فسادِ كلامِهم في الاتِّهام والدّفاعُ عنِ الرَّسول عليه السلام

﴿بَلۡ﴾ في هذا السّياق: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تُفيد الإضرابَ على مقولتهم تلك، واعتبارها من لغو الكلام، وسَقْطِ القول،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 305، 306، والسّؤال كان للزّمخشريّ عندما قال: "فإن قلت: كيف نفى أن يُرتاب في أنَّه من الله، وقد أثبت ما هو أطمُّ مِنَ الرَّيب، وهو قولهم: افْتَرَاهُ؟".

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 600.

وإزالة هذا القول المنكر من هذا المقام، وإقامة الحقِّ مقامَهُ[1]، وفي الإضراب دفاعٌ مِنَ المولى ﷻ عن كتابه المُنَزَل ورسولِه المُنذِر ﷺ.

بلاغةُ عودِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾:

تــعــدُّدُ عــودِ الـضَّـمـير بـيـانٌ للصِّدق وحَصْرٌ للحَقِّ

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يُحتمل عودُ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ على ﴿تَنزِيلُ﴾، ويُحتمل عودُه على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فدلَّ تعدُّد المرجع على حقّيَّة التَّنزيل وحقّيَّة الكتاب، وحقّيَّتُهما معًا؛ لأنَّهما لا ينفكّان عن بعضهما، وفيه تعظيمٌ للكتاب بذِكر الضَّمير ﴿هُوَ﴾، وكأنَّه يقول هو لا غيره الحق.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

بيانُ الجنسيَّة والمبالغةُ في إثبات الحَقّيَّة للقرآن

(أل) هنا جنسيَّةٌ، أي: هو كلُّ الحقِّ، واللَّفظة هنا لها إيحاءاتٌ متعدِّدة، فالقرآن هو الحقُّ الَّذي تستجيب له الفطرةُ، حين يلمسُها إيقاعُه في يُسْرٍ وسهولة، وفي غير مَشَقَّة ولا عَنَتٍ، والحقُّ يعني: الَّذي لا يَظْلِم أحدًا في دُنيا أو آخرة، ويضاف إلى ذلك أنَّ تعريف الحقِّ، تعريف الجنس المفيدِ تحقيقَ الجنسيَّةِ فيه، أي: هو حقُّ ذلك الحقِّ المعروفةُ ماهيَّتُه من بين الأجناس، والمفارقُ لجنس الباطل[2]، ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ للعهد، أي: هو الحقُّ الَّذي عليه الرَّسولُ، أو الحَقُّ الَّذي كتموهُ[3].

فائدةُ تعريف طرفَيِ الإسناد:

المبالغةُ في ردِّ الاتِّهام؛ لتبرئة ساحة المُبلِّغ ﷺ

في تعريف المُسنَد بلام الجنس في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ ذريعةٌ إلى اعتبار كمالِ هذا الجنسِ في المسنَد إليه - وهو معنى القَصرِ الادِّعائيِّ - للمبالغة[4]، فتعريفُ الطَّرفين أفاد أنَّ الحقَّ كامِنٌ في الكتاب، ولا يتجاوزه إلى غيره؛ مبالغةً في نفي مقالاتهم القبيحة.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 11/ 600.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 206.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 34.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 206.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

ابتداءُ الحقِّ مِنَ الـرَّبِّ دالٌّ على الكمال والبهاء

المعنى الرَّئيس لـ ﴿مِن﴾ هو ابتداءُ الغاية - كما قال سيبويه[1] - بل إنَّ كلَّ المعاني المنسوبة لـ (من) من تبعيض وتوكيد وغيرهما، مَردُّها إلى ابتداء الغاية[2]، وهذا الحرف هنا يُؤكِّد عظمةَ التَّنزيل؛ لأنَّ المُنَزَّلَ يكتسب عَظَمتَه وبهاءَه مِنَ المُنَزِّل، فكانت جهةُ التَّنزيل هو ﴿رَّبِّكَ﴾، فدلَّ ﴿مِن﴾ على اشتمال الكتاب على كامل الحقِّ لكمال مُنَزِّله، مِن بَدءِ نزوله، فلم تتخلَّلهُ لحظةُ شكٍّ واحدة.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَّبِّكَ﴾ مضافًا إلى الضَّمير وإضافته:

ملمَحُ التَّشريفِ بالانتساب إلى الرَّبِّ مع مناسبة النَّظم

في التعبير بلفظ الرب وإضافته في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ جملة من النِّكات، **الأوَّل:** الاعتماد المُطلَق على مَن ربّاه، وتولّى أمرَه وتوجيهه، فهو المُتولّي شأنَهُ وحاله، وهو المُرَبّي بالإيجاد وإدرار النِّعم، والمُحسن إلى مُربّاه لا غيره[3]، فلفظةُ (ربّ) فيها مبالغة في الوصف[4]، **الثّاني**: الرَّبُّ سببٌ في وصول الرَّسول ﷺ إلى درجة الكمال؛ لأنَّ الرَّبَّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى كماله شيئًا فشيئًا[5]، **الثّالث**: مناسبة ﴿رَّبِّكَ﴾ لما قبلها، وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، **الرّابع**: إثباتُ النُّبوَّة، وتعظيمُ شأنِه أنَّه عليه السلام العبدُ الجامِعُ، الَّذي جُمِعَ فيه ما فُرِّق في العالَم بأسره[6]، ففي الإضافةِ تكريمُ الرَّسولِ ﷺ، الَّذي يتَّهمونه بالافتراء، وإلقاءُ ظلالِ القُربِ بينَه وبينَ ربِّه ربِّ العالَمين؛ ردًّا على الاتِّهام الأثيم، وتقريرًا للصِّلَةِ الوثيقة الَّتي تحمل مع معنى التَّكريم، معنى وثاقةِ المصدر، وصحَّةِ التَّلقّي، وأمانةِ النَّقل والتَّبليغ.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224.
(2) الزّمخشريّ، المفصّل في صنعة الإعراب، ص: 283.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 338.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 21.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 21.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 115.

سِرُّ إضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثمَّ (الكاف):

بيانُ التَّرقّي والتَّمهيدُ لِلاحِقِ النَّظمِ المجيد

في ذلك نوع من التَّرقّي في الخطاب، ووروده على أسلوب التَّرقّي دلَّ على أنَّ جمعيَّته صلّى الله تعالى عليه وسلَّم أتمُّ ممّا لكلِّ العالَم، وحُقَّ له ذلك صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه[1]، ثمَّ فيه مناسبةٌ لما بعده، وهو الفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾، وفاعله الضَّمير المستتر العائد على الرَّسول ﷺ، فكأنَّ الضَّمير في ﴿رَّبِّكَ﴾ هو تمهيد لفعل الإنذار، الَّذي سيكون مهمَّة الرَّسول ﷺ.

بلاغةُ الموقع البيانيِّ لقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

دلالـةٌ على الثَّبات وتعديدٌ لصفات الكمال في سياق الآية المفضال

الظّاهر أنَّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: كائنًا من ربِّك، وقيل: يجوز جعله خبرًا ثانيًا على أنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبرٌ أوَّل، و﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو الخبر الثّاني، ولكلٍّ دلالةٌ، فإذا كان حالًا؛ فهو دالٌّ على الثَّبات وعدمِ التَّحوُّل، وعدمِ الانتقال، أي: كائنًا من ربِّك، وفي حال كونه من ربِّ العالمين، يفيد أنَّ ما هو منه لا يليق أن يُرتاب فيه، فيكون كونُه منه نافيًا للرَّيب لا مَحالَّا له[2]، وإذا كان خبرًا ثانيًا؛ فهو تعديد لصفات الكتاب، من كونه حقًّا غيرَ مشكوكٍ فيه، وهذا الحقُّ جاء من جهة عليا، فهو الحقُّ الَّذي لا ريبَ فيه، وقد يضاف إلى ذلك دلالة الكاف في ﴿رَّبِّكَ﴾، من أنَّه لا يَفْهَم حقيقتَهُ حقَّ الفهمِ سواه[3]، أي: النَّبيُّ ﷺ.

معنى اللّام في جملة: ﴿لِتُنذِرَ﴾:

الإنـذارُ علامةُ الحِرص والرَّجاء وعنوانُ البلاغِ والأداء

دلَّت اللّامُ في الفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾ على بيان غايةِ الشَّيءِ وحكمته، لا سيَّما عند كونها غاية حميدةً، مستتبعةً لمنافعَ جليلةٍ، في وقت شدَّةِ الحاجة إليها، ممّا يُقرِّر وجودَ الشَّيء، ويؤكِّده لا محالة[4]، واللّام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 115.
(2) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 7/ 145.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 227.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 79.

هنا لام التَّعليل والغاية، وقد ألمحت إلى أنَّ المهمَّة الرَّئيسَةَ هنا هي إنذار قومِهِ العذابَ والعقاب، والتَّخويفُ مِنَ النّار، وإبلاغُهم الأوامرَ والنَّواهي والأخبار الَّتي أنزلها اللّه في كتابه، وحملها الرَّسولُ ﷺ، فكأنَّ علَّة وجودِ القرآن بدءًا الإنذارُ والتَّخويف؛ بسبب التَّعنُّت والافتراء، ويُضاف إلى ذلك أنَّ اللّه تعالى أشار بتعليله إلى إحسانه به أيضًا إلى كافَّة العرب[1]، فكما أنَّ اللّه أحسن إلى الرَّسول ﷺ عندما قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أراد الإحسانَ إلى البشريَّة بإرساله نذيرًا لهم.

سِرُّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لِتُنذِرَ﴾:

ضرورةُ الاجتهاد في الإنذار لإقامة الحُجَّة على الكفّار

في توظيف الفعل المضارع، إشارةٌ إلى ضرورة الاجتهاد، ومواصلةِ الإنذار ليلَ نهار؛ تحفيزًا لِهمَّة الرَّسول ﷺ، في إيصال مهامِّ الدَّعوةِ مع التَّخويف والعقاب، ففي المضارع دلالةٌ على الدَّوام والاستمرار، والقيام بما هو مكلَّف به على المواصلة لا الانقطاع، وفيه إلهابٌ وتهييج بضرورة الاتِّباع والبُعد عن الكفر والعناد.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالإنذار دونَ التَّبشير:

الزَّجرُ والتَّخويف بالإنذار لتماديهم في الاتِّهام والإنكار

اقتُصِر في ذِكْر ما جاء به القرآنُ على الإنذار، وإن كان قد جاء له وللتَّبشير؛ ليكون ذلك ردعًا لهم، ولأنَّه إذا ذَكَر الإنذار؛ صار عند العاقل فكرٌ فيما أنذر به، فلعلَّ ذلك الفِكْرَ يكون سببًا لهدايته[2]، كما أنَّ الموقف موقفُ اتِّهام وادِّعاء بالافتراء، فلم يكن مناسبًا ذِكْرُ التَّبشير؛ لأنَّ التَّبشير هنا سيكون سببًا في التَّمادي وزيادةِ الاتِّهام، فكان الإنذارُ هو الأولى وحدَه، وتُضاف إلى ذلك المناسبةُ بين الفعل (تُنْذِرَ)، والصِّفة المشبَّهة ﴿نَّذِيرٍ﴾، فلم يكن للتَّبشير موضعٌ هنا، وقد يكون ذلك إشارةً إلى أنَّهم بلغوا بالكفر حدًّا لا يتجاوزه حِلْمُ اللّه تعالى[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 227.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 427.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

دلالةُ إطلاقِ أنواعِ العقابِ لتخويفِ الكفرةِ بسُوءِ المآب

بلاغةُ حذفِ المفعولِ الثّاني للفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾، لفظةُ ﴿قَوۡمٗا﴾ مفعولٌ أوَّل للفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾، والمفعول الثّاني محذوفٌ، أي: العقاب[1]، وعِلَّةُ حذفِ المفعول الثّاني الإطلاقُ وعدمُ التَّقييد والعمومُ، فهو على إثبات المعنى في نفسه للشَّيء على الإطلاق، من دون تعرُّض للمفعول، حتَّى كأنَّ التَّعبير يقول: صار له الإنذار، وصار بحيثُ يكون منه إنذارٌ مطلقٌ غير مقيَّد بقيد، فالتَّعدية هنا تنقض الغرضَ، وتغيِّرُ المعنى[2]، فالمعنى: لتنذر قومَكَ الوعيدَ والعقابَ والنّار والعذاب، وكلُّ ما سبيله المشقَّةُ والكَبَدُ، فكان الحذفُ أولى مِنَ الذِّكر؛ لأنَّ في ذِكْرِ المفعول الثّاني تقييدًا، وليس ذلك مراد القرآن.

دلالةُ النَّفي على عدمِ الإرسالِ القريب

معنى ﴿مَّآ﴾ في سياق الجملة:

﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ دالَّةٌ على النَّفي، ويكون المعنى: أخبر تعالى أنَّه لم يَبعث إليهم رسولًا بخصوصيَّتهم قبلَ محمَّد ﷺ، لكنَّهم كانوا متعبِّدين بملَّة إبراهيم وإسماعيل، وما زالوا على ذلك إلى أن غيَّر ذلك بعضُ رؤسائهم، وعبدوا الأصنامَ، فهم أهلُ الفترةِ من زمن عيسى، وقد جاء الرُّسلُ قبل ذلك، إبراهيم وغيره، ولما طالتِ الفترةُ على هؤلاء أرسلَ اللّهُ رسولًا ينذرهم؛ ليقيمَ الحُجَّة عليهم[3]، ويجوز هنا تقديرُ نعتٍ محذوفٍ للفظة ﴿نَّذِيرٖ﴾، أي: نذيرٍ قريب[4]، وإنَّما كان الإنذار بعيدًا.

تأكيد السّياق على عدم إرسال النَّذير مع شموليَّة ذلك

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن نَّذِيرٖ﴾، وتنكير ﴿نَّذِيرٖ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾ استغراقيَّة مؤكِّدة، وقد تحقَّق فيها شرطا التَّوكيد، كونُها مسبوقةً بنفي، وكونُ مجرورها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 116.

(2) مأخوذ من فهم كلام الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز: 1/ 168.

(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 141.

(4) الخالديّ، القرآن ونقض مطاعن الرّهبان، ص: 331.

نكرةً ﴿نَّذِيرٖ﴾[1]، والمعنى: أنَّ القرآن نفى جنسَ النُّذُر، فلم يرسل ربُّنا ﷻ لهم أيَّ نذير، وهذا يعني: أنَّها نفت جنس النُّذُر، غيرَ أنَّنا إن حذفنا ﴿مِّن﴾ في غير القرآن؛ لجاز (ما جاءهم نذير)، بل نذيران أو ثلاثة أو أكثر، فأدَّت ﴿مِّن﴾ دورًا كبيرًا، في بيان عدم إرسال النَّذير، مع كون التَّنكير هنا للعموم والشُّمول.

سِرُّ التعبير بـ: ﴿نَّذِيرٖ﴾، دون (مُنْذِرٍ):

إبانةُ السّياق عن دوام الإنذار ولزومه

السِّرُّ أنَّ لفظة ﴿نَّذِيرٖ﴾ هنا صفةٌ مشبَّهة، والصِّفة المشبَّهة دالَّةٌ على الثُّبوت، ومعنى الثُّبوت: الاستمرار واللُّزوم[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ شأن النَّبيِّ هو حالةُ الإنذارِ الدّائم المُستمرِّ، والتَّخويفُ مِن العقاب، أمّا (منذر)؛ فهو اسمُ فاعل دالٌّ على الحدوث، فالصِّفة المشبَّهة ﴿نَّذِيرٖ﴾ أكثر ثباتًا من اسم الفاعل؛ لذا كان ﴿نَّذِيرٖ﴾ هو الأولى في هذا السّياق، وجاز أن يكون النَّذير هاهنا مصدرًا بمعنى الإنذار[3]، فيكون على المصدر، والمصدر تناهٍ في الحدث والفعل.

دلالةُ الموقع النَّحويِّ والبيانيِّ للآية:

تأكيدُ انتفاء الإرسال إليهم واقعٌ تاريخيٌّ مشهود

قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ﴾، وقعت الجملةُ المنفيَّة هنا نعتًا للفظة ﴿قَوۡمٗا﴾؛ للتَّأكيد على اعتبار تنكير لفظة ﴿قَوۡمٗا﴾، على قاعدة: (وبعدَ النَّكرات صفات)؛ كي تؤكِّدَ الجملةَ المنفيَّة، بأنَّ قريشًا لم يُرْسَل لها نبيٌّ قبلَ إرسال النَّبيِّ ﷺ؛ لذا فَهُم أهلُ فترة، لكن طاشت عقولُهم، فصاروا أهلَ عبادةِ أصنامٍ وشِرك.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

استحضارُ الزَّمن السَّحيق وكأنَّه قريبٌ لصيق

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ دلَّت على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة،

(1) المُبرّد، المقتضب: 1/ 45.
(2) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/ 227.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 115.

والتَّوكيد[1] والاستغراق والعموم، وأفادت ﴿مِّن﴾ هنا تحديدَ الزَّمن[2]، فهي تعني الزَّمنَ المُتقدِّمَ عليهم مباشرةً، أي: إنَّ النَّذير لم يكن قبلَكَ مباشرةً، وإنَّما كان بعيدَ العهدِ بالقوم، وفي الجارِّ والمجرور إيذانٌ بوقوف اللّه بجانب رسوله ﷺ، فهو الأوَّل دومًا لعدم وجود من جاء قبلك، وهو النَّبيُّ الخاتم، فـ ﴿مِّن﴾ قد تدلُّ على انتهاء الغاية أيضًا، وهذا معنًى صحيحٌ أثبتَه النُّحاةُ لـ (من)[3].

دلالةُ الفرق بين ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، و(قبلك):

أثرُ السّياق في التَّفريق بين تعدُّد الزَّمن وتحديده

فرَّق العلماءُ بين (قَبْلَكَ) و﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، فَحَذْفُ الحرفِ يجعل الزَّمانَ محتمِلًا للقُرْب والبُعْد[4]، أمّا ﴿مِّن﴾؛ فَتُحَدِّدُ الزَّمان، وهذا يعني: أنَّ الجملة المشتملة على ﴿مِّن﴾ قطعيَّةُ الدِّلالة على الزَّمن، أمّا الجملة غيرُ المشتملةِ على (مِن)؛ فهي ظنّيَّةُ الدِّلالة على الوقت، وتحتمل القُرْبَ والبُعْدَ.

فائدةُ التَّقييد بقوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

تسليةُ الرَّسول الأكرم منهجٌ بارز في السّياق الأعظم

شأن السّورة هنا إخبارٌ للنَّبيِّ ﷺ وتسليَةٌ له؛ لذلك قال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾[5]، فالرَّسول ليس وحدَه في هذه الطَّريق الوعرة، وإنَّما سبقه كثيرٌ، فكان الأمرُ متشابهًا في كُفر الأقوام، وتعنُّتهم، ولَجاجتهم.

دلالةُ أداةِ (لَعَلَّ) في الآية:

رجاءُ الرَّسول الأكرم في هداية كلِّ مَن لم يُسْلِم

معنى (لعلَّ) على بابها هو التَّرجّي، لكن التَّرجّي هنا مصروفٌ إلى رسول اللّه ﷺ، كما كان ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: 44] مصروفًا إلى موسى وهارون[6]؛ لأنَّ التَّرجّي لا يليق أن ينسب إلى اللّه، وقد تكون (لعلَّ) هنا بمعنى (كي)، فيكون المعنى: كي يهتدوا[7].

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 325.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 296.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 225.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 621.
(5) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 209.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 485.
(7) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 284.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾:

الغايةُ من الإنذارِ الاهتداءُ إلى نهجِ الواحدِ القهّار

فُصِلت الجملةُ الإنشائيَّةُ الطَّلبيةُ عمّا قبلها، فصارت جملةً مستأنفة؛ لتعليل سببِ الإنذار، وهو الهداية المرجوَّة مِن هذا الإنذار، وهذه هي الغاية الكبرى، والثَّمرةُ المرجوَّة، فالغرضُ ليس التَّخويفَ أو التَّرويعَ، وإنَّما الاهتداءُ على الصِّراط، واتِّباعُ أوامرِ الدّين.

الموقعُ البلاغيُّ لجملة التَّعليل:

الحرص على اهتداء القوم ديدنُ النَّبيِّ ونهجُه في البلاغ

قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ جملة تعليليَّة؛ ولذا لم تُعطف على سابقتها؛ لكمال اتِّصالها بها، وهي مستعارةٌ تمثيلًا لإرادة اهتدائهم والحرصِ على حصوله[1]، وتوظيفُ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أوفى من (كي يَهۡتَدُوا)؛ لأنَّ الجملة القرآنيَّة تُشعر القارئَ بجانب أُمنيَّة نبيِّه ﷺ، وتُتَرجِمُ الجملةُ عمّا يُكنُّه قلبُه الشَّريفُ مِنَ الرَّغبة في هدايتهم، وحصولِ هذا الأمر وتحقُّقه لهم.

بلاغةُ عودِ الضَّمائر وجمعِها في السِّياق:

توافقُ الضَّمائر في القصديَّة مفيدٌ للغَرَض المتوخّى

التَّعبيرُ بالضَّمائر في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ للاختصار والإيجاز، مع وضوح عائد الضَّمير، فالهاء في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ يُقصد بها العربُ وكفّارُ مكَّة، وكذا واو الجماعة في الفعل ﴿يَهۡتَدُونَ﴾، فحصل التَّناسقُ بينَ الضَّمائر في الآية الكريمة مع الجمع؛ لأنَّ القرآن يعني مجموعةً مِنَ النّاس: العرب وغيرهم، فدلَّ الجمع على الكثرة والتَّعدُّد.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّة في ﴿يَهۡتَدُونَ﴾:

بيانُ أهمّيَّة استحضار صورة الهداية واستمرارها

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ هو الأنسب؛ لأنَّه لو قيل: (لعلَّهم اهتَدَوا)؛ لأفاد الماضي الدِّلالةَ على التَّحقُّق والوقوع، والمرادُ دلالةُ المستقبل، أي: إنَّ النَّذير ينذر كي يهتديَ المَرءُ في المستقبل، ثمَّ إنَّ المضارع دالٌّ على الاستمرار واستحضار الصّورة، كأنَّ صورة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 210.

الاهتداءِ المتوقَّعة ماثلةٌ أمام النّاس، ثمَّ في المضارع ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ موافقةٌ لرؤوس الآي القرآنيَّة ﴿يَهۡتَدُونَ﴾، ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَعُدُّونَ﴾، وهذا مِنَ الإعجاز الصَّوتيِّ للقرآن.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تعبيرُ الآيتين عن تغاير الموقفين من نسيان وضلال

هناك تشابهٌ لفظيٌّ بين قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]، وقولِه تعالى في سورة السجدة: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، أمّا قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46] في القصص؛ فالموقف موقف زمان طويل، يتعرَّض فيه المرءُ للنِّسيان بسبب تطاول العُمُرِ، وهو موقف لسيّدنا موسى عليه السلام الذي يسبق الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم بمئات السِّنين، فكان الأنسبُ ذِكرَ فعلِ التَّذكُّر ﴿يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 46]، لنتأمَّل قولَهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾ [القصص: 45]، أمّا الموقف في سورة السَّجدة؛ فضلالٌ واتِّهامٌ، بما يعني أنَّهم يحتاجون للهداية بإرسال النَّذير، فكان ذِكْرُ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ هو الأنسب في هذا السّياق.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الافتراء والكذب والإفك:

تشترك هذه الألفاظ في معانٍ وتختصُّ بأخرى

الفرقُ بينَ الافتراءِ والكذب: أنَّ متعلِّقَ الافتراءِ القولُ، ومتعلّقَ الكذبِ الفعلُ؛ فمَن نسب لإنسان قولًا، فقال: (قال زيد كذا)، ولم يكن قالَهُ؛ فهو افتراءٌ، وإنْ قال: (قام زيد)، ولم يقمْ؛ فهو كذِبٌ[1]، وقيل: الكذب إمّا أن يكون اختراعًا لقصَّة لا أصل لها، أو زيادةً

(1) البسيليّ التّونسيّ، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/ 158.

في القِصَّة أو نقصانًا يغيّرانِ المعنى، أو تحريفًا بتغيير عبارة، فما كان اختراعًا؛ يقال له: الافتراء والاختلاق، وما كان من زيادة أو نقصان؛ فمَينٌ، وكلُّ مَن أورد كذبًا في غيره، فإمّا أن يقوله بحضرة المَقول فيه، أو بغير حضرته، وأعظمُ الكذب ما كان اختراعًا بحضرة المَقول فيه، وهو المعبَّر عنه بالبُهتان(1)، أمّا الإفكُ؛ فهو أشدُّ الكذب.

القوم والأُمَّة والفريق:

الأُمَّة أعمُّ في الدِّلالة من القوم والفريق

القوم في الأصل: جماعةُ النّاس عامَّة، كأنّها اسمُ جمعٍ قائم، وهم مظاهِرون (مُقَوُّون) لَمن هو منهم، ثمَّ خُصِّصت بعدُ بالرِّجال، باعتبار أنَّهم كانوا هم الَّذين يُعْتَدُّ بهم في الحروب وما إليها، ولأنَّهم القادة والذّادَة، أي: القائمون بالأمر.

أمّا الأمَّة؛ فالقَرْن والجيل من النّاس، وهم جماعةٌ كبيرةٌ متَّحِدو الجنسِ أو زمنِ الوجود معًا، قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22]، أي: دين وملَّة.

أمّا الفَريقُ؛ فالجماعة المتفرِّقة عن آخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87](2).

(1) الرّاغب، الذّريعة إلى مكارم الشّريعة، ص: 196.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قوم، أمم، فرق).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السّجدة: 4]

الانتقالُ من أحقّيَّة الآيات القرآنيَّة إلى بديع الآيات الكونيَّة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن دلَّ اللّهُ تعالى على أحقّيَّة كلامه وكتابه في الآيات السّابقة؛ دلَّ في هذه الآية الكريمة على نفسه بصنعه ومخلوقاته[1]، فانتقل من أحقّيَّة الآيات القرآنيَّة، إلى بديع الآيات الكونيَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: (سوى) أصلٌ يدلُّ على استقامة واعتدالٍ بين شيئين[2]، وسوَّيت الشَّيء، فاستوى، وهما على سويَّة من هذا الأمر، أي: على سواء، واسْتَوى من اعوجاجٍ، واستوى على ظهر دابَّته، أي: علا، واستقرَّ، واسْتَوى إلى السَّماء، أي: قَصَدَ، واسْتَوى: استولى، وظهَرَ، واستوى الشَّيء: اعتدل[3]، واستوى: أقبل وعلا، والمعنى المحوريُّ: استقامة ظاهر الشَّيء أو سطحه[4].

2) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: (عرش) أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على ارتفاع في شيء مبنيٍّ، ثمّ يُستعار في غير ذلك، من ذلك العرش، قال الخليل: العرش سرير الملك، وهذا صحيح، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100][5]، وعَرْشُ اللّهِ: ما لا يعلمه البشرُ على الحقيقة إلّا بالاسم، وقيل: هو الفَلَك الأعلى، والكرسيُّ فلك الكواكب، وقولُه:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 30.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سوا).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج: 15]، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: 15]، وما يجري مجراه، قيل: هو إشارة إلى مملكته وسلطانه، لا إلى مَقرٍّ له، تعالى عن ذلك[1].

3) ﴿وَلِيّٖ﴾: (ولي) أصلٌ صحيح يدلُّ على قُرْب، من ذلك الوَلْيُ: القُرْب، يقال: تباعد بعد ولْي، أي: قُرْبٍ[2]، والمعنى المحوريُّ: لزومُ الشَّيء شيئًا آخرَ تبعًا له، مع نحو من الاشتمال[3]، والوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقُرْب من حيثُ المكان، ومن حيثُ النِّسبةُ، ومن حيثُ الدِّينُ، ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرة والاعتقاد، والوِلايةُ: النُّصرةُ، والوَلايةُ: تَولّي الأمر، وقيل: الوِلايةُ والوَلايةُ، وحقيقته: تَولّي الأمر، والوَليُّ والمَولى يُستعملان في ذلك، كلٌّ واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل، أي: المُوالي، وفي معنى المفعول، أي: المُوالى، يقال للمؤمن: هو وليُّ اللّه ﷻ، ولم يَرِد مَولاهُ، وقد يقال: اللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومولاهُم[4].

4) ﴿شَفِيعٍۚ﴾: (شفع) أصلٌ صحيح يدلُّ على مقارنة الشَّيئين[5]، والمعنى المِحوريُّ: ازدواجٌ برِقَّة، أي: انضمامُ مثلِ الشَّيء إليه مع رقَّة[6]، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيء إلى مِثله، والشَّفاعَةُ: الانضمام إلى آخر، ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثر ما يُستعمل في انضمام مَن هو أعلى حُرمةً ومرتبة إلى مَن هو أدنى، ومنه: الشَّفاعةُ في القيامة، قال تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87]، و﴿مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: 18]، ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ [النّساء: 85]، ﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾ [النّساء: 85]، أي: مَن انضمَّ إلى غيره وعاونه، وصار شَفْعًا له، أو شَفيعًا في فعل الخير والشَّرِّ، فعاوَنه، وقوّاه، وشاركه في نفعه وضرِّه[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية الكريمة يُخبر تعالى عن كمال قدرته بخَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(4) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شفع).
(7) الرّاغب، المفردات: (شفع).

كمالُ القدرة والتَّدبير وضرورة الإقرار للخالق القدير

ستَّة أيّام، مع قدرته على خلقها بلحظة، ولكنَّه تعالى رفيق حكيم، مع استواءٍ يليق بجلاله، وهو الَّذي يتولّى أمور عباده ويدبرها، ويشفع لهم عند تقصيرهم، لكنَّ الخلْق مقصِّرٌ لا يَرْعَوي، ولا يتذكَّر، مع أنَّ اللّه هو المستحقُّ لجميع أنواع العبادة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بيانُ لفتِ الانتباه إلى العَظَمة والسُّلطان

نُكْتَةُ الفصلِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، هي الإلفات إلى قدرة اللّه، وإلى سلطانه القائم على هذا الوجود، وأنَّه سبحانه هو الَّذي خلق السَّموات والأرض، وقام بسلطان قدرته عليها، وعلى تصريف كلِّ شيءٍ فيهما، فلْيُؤْمنوا إذًا بهذا الإله المُتفرِّد بالألوهيَّة، ولْيَتركوا ما هم عاكفون عليه من أصنام[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

ثبوتُ عمليَّة الخَلْق ودوامُها مناسبٌ لاسميَّة الجملة

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جملةٌ اسميَّة، ومن سماتها الثَّباتُ والدَّوام والاستمرار، عكسَ الجملةِ الفعليَّة، الَّتي من سماتها التَّجدُّد، فمن شأن الاسم أن يثبتَ به المعنى للشَّيء، من غير أن يقتضيَ تجدُّده شيئًا بعدَ شيءٍ، وأمّا الفعل؛ فموضوعه أنَّه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبت به شيئًا بعدَ شيءٍ، فاتِّكاءُ الجملة على الاسم الأعظم دالٌّ على ثبوت الخَلْق وتحقُّقه من دون اعتراض أو ادِّعاء.

نُكْتَةُ تعريفِ طرفَيِ الإسناد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾:

كمالُ القدرة وعظمة الخَلْق دليلٌ على الكمال والإحاطة والهيمنة

في تعريف طرفي الإسناد، في حال كون ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ خبرًا، قصرٌ حقيقيٌّ، أي: إنَّ اللّه هو الَّذي خلق السَّموات والأرض، ولم يخلقهما إلّا واحد، فلا إله إلّا واحد[3]، وهو الإله الواحد، فتعريف الطَّرفين دالٌّ على كمال القدرة، وعظيم الصُّنع.

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 653. (بتصرف).

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 603.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 136.

نُكْتَةُ العدولِ من لفظ الرُّبوبيَّة إلى لفظ الجلالة:

جيءَ باسم الجلالة مبتدأ لإحضاره في الأذهان، بالاسم المختصِّ به؛ قطعًا لدابر عقيدة الشَّريك في الإلَهيَّة[1]؛ إضافةً إلى أنَّ لفظة الرَّبِّ فيها معنى التَّربيةِ والاعتناء، والموقفُ هنا موقفُ كمالٍ وعظَمة، لا عطفٍ وحُنُوٍّ، فكان المناسبُ أن يُذْكَر الاسمُ الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي ذلك ثناءٌ على ذاته بما يستحقُّه، من إجلالٍ وتعظيم وتقديس[2].

غرضُ السّياق إثباتُ الإلَهيَّة ودَحْرُ عقيدةِ الشِّركِ الظَّلاميَّة

دلالةُ الاسمِ الموصول وصلتِه:

جيء باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلته، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ للتَّعظيم، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأنَّه الانفرادُ بالرُّبوبيَّة لجميع الخلائق في السَّماوات والأرض وما بينهما[3]، ثمَّ الاسم الموصول لا يتبيَّن إلّا بصلته؛ لذا يُسمّى الاسم النّاقص، فجاءت الصِّلة ومتعلِّقُها؛ لبيان الوحدانيَّة والقدرة المطلقة على الخَلْق والإبداع.

بيانُ الانفراد والقدرة المطلقة في الخَلْق والتَّقدير

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

(أل) هنا جنسيَّة استغراقيَّة، تُفيد جنسَ السّماواتِ وجنسَ الأرض، عن طريق الاستغراق الحقيقيِّ، بوضع لفظة (كلٍّ) موضع (أل)، وتنكيرِ ما بعدَها[4]، فيصِحُّ أن نقول: كلُّ سماءٍ وأرض، وكلُّ سماوات وكلُّ أرض، والمَلحم هنا من دلالة الجنسيَّة الاستغراقيَّة الإشارةُ إلى جلالة الإلهيَّة، وهيبةِ ما خَلَق؛ استعدادًا للإذعان والتَّسليم.

دلالةُ (أل) الاستغراقيَّة على الجلال والهيبة الكونيَّة

نُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دونَ سائرِ الكون:

السَّماواتُ والأرضُ آيتان هائلتان بارزتان، ومجرَّدُ الإشارة إليهما تكفي، وتردُّ الشّاردَ إلى الرُّشْدِ سريعًا، فكان التَّخصيص

بيانُ عظَمة الآيتين من حيثُ إنَّهما ماثلتان ولا تُنكَران

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 211.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 211.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 73.

بهما، إضافةً إلى أنَّ وجود السَّماوات والأرض، دالٌّ على أنَّ لهما خالقًا حكيمًا؛ لاستحالة صدورِ تلك المخلوقات العجيبة المُنظَّمة عن غير فاعل مختار، وذلك معلوم بأدنى تأمُّل، كما أنَّ في ذلك تأييدًا لإنكار وقوع الشَّكِّ في انفراده بالإلَهيَّة؛ لأنَّ انفرادَه بالخلق يقتضي انفرادَه باستحقاقه عبادةَ مخلوقاته، إضافةً إلى أنَّ أحدًا لم يَدَّعِ خلقَ السَّماواتِ والأرض، فكان في ذكرهما تفرُّدُ الخالق، وعجزُ الخَلْق، مع كونِهما أظهرَ الآلاء وأقربَها من الحواسِّ.

نُكْتَةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

بيانُ ملمحيَّة الأشرفيَّة والخِفَّة بينَ اللَّفظتين

تقديم لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ للإشارة إلى تفاوتهما في الشَّرف، فقَدَّم الأشرفَ؛ اعتناءً بسائر أفراده، وأخَّر غيرَ الأشرفِ، وأشرفيَّةُ السَّماء؛ لأنَّها محلُّ الملائكة المقيمين على تفاوت مراتبهم، ولِما تميَّزت به من كونها موضعًا للعبادة، والتَّقديس، والتَّمجيد، وأنواعِ العبادات كلِّها، ولكونها محطًّا للرَّحمة، ونفوذِ الأوامر والأقضيَة، والتَّدبيراتِ، ثمَّ عقَّبَها بذِكْر الأرض مشيرًا إلى عِظَم منافعها، وكونها متصرَّفًا للخَلْق، وبساطًا ممهَّدًا للتَّصرُّفات، واستصلاحِ الأقوات مِنَ الزُّروع والثِّمار، والفواكهِ وأنواعِ المعادن، وقد يقال: تقديمُ السَّماوات على الأرض؛ إمّا لأنَّها أعظمُ منها خلقًا، أو لأنَّها جاريَةٌ مجرى الفاعل، والأرضُ جاريةٌ مجرى القابل[1]، ويُضاف إلى ذلك: أنَّ التَّقديم هنا فيه دلالة على أنَّ أمر الدُّنيا مُدَبَّرٌ بأسبابٍ سماويَّة، نازلةٍ آثارُها إلى الأرض[2]، فكان تقديمُ السموات هو الأنسب.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفرادِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

نفيُ الثِّقل وإثباتُ الخفَّة مفيدٌ في الدِّلالة عن المُراد

آثرَ النَّظمُ الكريم إفرادَ لفظة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ حيثُ ما وردت في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 52.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 486.

القرآن؛ وذلك لخفَّته؛ لأنَّ الجمع ثقيل، وليس ذلك الثِّقل في لفظة السَّماوات، فجاء جمعًا، علمًا بأنَّ لفظة (الأرض) وردت في القرآن (361) مرَّة، وكلُّها جاءت على الإفراد، يُضاف إلى ذلك أنَّ الأرضَ جاريةٌ مجرى المصدر، فهي بمنزلة السُّفلِ والتَّحتِ، فكما لا يُجْمَع السُّفلُ والتَّحتُ، كذلك لا يُجمَع ما جرى مجراهما، أمّا السَّماء؛ فهي وإن كان مثالها على المصادر كالعلاء، فهي بأبنيَةِ الأسماء أشبه[1]؛ لذا جُمِعت السَّماواتُ، ولم تُجمع الأرض، وقد يقال: إنَّ إيثار جمع السَّماوات لما هو المشهور مِنَ الإيذان بأنَّها أجرامٌ مختلفة الطِّباع، متباينةُ الآثار والأحكام[2].

دلالةُ طباق الإيجاب في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

بيانُ القدرة المطلقةِ في الجمع بينَ النَّقيضين

تتأتّى قيمةُ الطِّباق؛ لبيان القدرة المطلقة للخالق من غير مثال، فقد جمع بين النَّقيضين على غير مثال سبق، لما فيهما من باهر القدرة، وعِظَم الملكوت، وعلى تباعدهما، إلّا أنَّ السَّماوات والأرض خاضعتان لسلطان رَبٍّ واحد، ثمَّ إنَّهما مِنَ الآيات العظيمة، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، ثمَّ إنَّهم معترفون إن سُئِلُوا عن خالق السّماوات والأرض، بأنَّه هو اللّه، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25].

فائدة العطف في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

إثباتُ القدرة؛ غلقًا لباب الكُفر البَواح والجُحُود الصّراح

فائدة العطف هنا: أنَّ الموقف موقفُ توحيد وإثباتٍ للعظَمة الحَقَّةِ والقُدرةِ المطلقةِ والوحدانية، فجاء الإطنابُ بالعطف مُرادًا؛ لتعديد مخلوقاته العظيمة الَّتي على أثرها تنتظمُ الحياةُ، وتستقرُّ، فهو الخالقُ المُدَبِّر لكلِّ المخلوقات، وقد يقال: إنَّ ذلك من باب الاحتراس؛ لدفع ظنِّ بعضهم أنَّ اللّه هو الَّذي خلق السَّماوات

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 157.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 62.

والأرض فقط، وأمّا ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ فمن إبداعات البشر وتفوُّقهم، فذكر ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لنفي هذا الفهم ودَحْره.

إيثار (ما) على (الَّذي) في ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

بيانُ اتِّساع الأكوان وعجزُ الإنسان عن إدراك كُنهِ المخلوقات

(ما) في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بمعنى الَّذي، فكلاهما اسم موصول، وعندما تُفسَّر (ما)، فإنَّها تُفسَّر بـ (الَّذي)، لكن (ما) أعمُّ وأشمل؛ لأنَّها تُطلق على كلِّ شيء، وتُطلق على ما ليس بشيء[1]، فهي أعمُّ؛ لأنَّ من سماتها فرطَ الإبهام[2]، إضافةً إلى أنَّ بناءها يوافق استعمالها المتَّسع، فمَدُّ الألف المتَّسع يناسب تشاكلَ الاتِّساع في معناها[3]، ومن ثمَّ كانت دالَّةً على كلِّ شيء، سواء أكُنَّا عالمين به أم جاهلين، ففيها مطلق المخلوقات، بحيثُ لا يمكننا حصرُ ما بينهما من أصناف الخلائق، مشحونةً بضروب البدائع والعجائب[4]؛ لذا كانت الأنسبَ في المقام.

فائدةُ عود الضَّمير على المثنّى في ﴿بَيۡنَهُمَا﴾:

مُفادُ السّياق إرادةُ النَّوع لا الجمع أو الطّائفة

أتى بلفظ التَّثنية في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، وقد تقدَّم ذِكْرُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّه أراد النَّوعين[5]: نوعَ الأرض ونوعَ السَّماء، لا الجمعَ أو الطّائفتين منها، ولو من نوعٍ واحد، فالتَّثنيةُ لوجودِ جنسَي (السَّماء والأرض)، فعاد الضَّمير عليهما بالتَّثنية، قال الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: كيف قيل: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ على التَّثنية، والمرجوعُ إليه مجموع؟ قلت: أُريدَ (وما بين الجنسين)"[6]، وقيل: "سائغٌ من حيثُ عادَلَ لفظ الأرض لفظَ السَّماواتِ"[7].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 228.
(2) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 2/ 217.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 122.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 106.
(5) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/ 5243.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 307.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 216.

دلالةُ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

الاستيفاءُ المُحكم لخلق الكائنات على الوجه الأكمل والأعظم

الأداة الجارَّة ﴿فِي﴾ دالَّةٌ على الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، والمعنى: في مقدار ستَّة أيام[1]، والظَّرفيَّة تعني: التَّوغُّلَ في المظروف، واستيفاءَه على الوجه الأكمل، ووجودُ ﴿فِي﴾ أدّى دورًا كبيرًا في المعنى؛ لأنَّ عدم وجودِه يعني: أنَّ التَّركيب سيكون (خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ سِتَّةَ أيّام)، فصار المعنى: أنَّ السَّماوات والأرض ستَّةَ أيّام، وهذا فاسدٌ، فجاءت ﴿فِي﴾؛ لإقامة المعنى ودقَّتِه.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَيَّامٍ﴾:

سَعةُ العلم والقُدرة مناسبٌ لورود اللَّفظ نكرة

في كلمة ﴿أَيَّامٍ﴾ يجوز فيها التَّعريف، فنقول: ستَّة الأيام، ويجوز فيها التَّنكير، فنقول: ستَّة أيّام، والقرآنُ كلُّه جارٍ على تنكير لفظة (أيّام)، بعد لفظة (ستَّة)، فصار ذلك عادةَ القرآن في كلِّ موضع يَذكر فيه (سِتَّةَ أيّام)، وتنكيرُ المعدود المضاف هو الأفصح من تعريفهِ، وقد يقال: إنَّ التَّنكير دالٌّ على الإبهام، أي: إنَّ هذه الأيّام ليست ستَّةَ أيّام زمنيَّة؛ لأنَّ الأيام مقدَّرةٌ باللَّيل والنَّهار، وهما كانا بعد خلق السَّماوات والكواكب والنُّجوم والشَّمس والقمر[2]، وقد يقال: إن أُريد المتعارف في لفظة اليوم، وهو زمان طلوع الشَّمس إلى غروبها، فالمعنى: في مقدار ستَّة أيام؛ لأنَّ اليوم إنَّما كان بعد خلق الشَّمس والسَّموات، فيُقَدَّر فيه مضاف[3]، ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعريف ينافي المفهوم، فالتَّعريف قد يدلُّ على أيّام معهودة لديهم، وهذا غير سديد وغير مُراد، وقد يقال: لعلَّ تكرُّرَ ذِكْرِ هذه الأيام في آيات كثيرة، لكونها مظهرَ سعةِ العِلْم، وسعةِ القدرة، فكان التَّنكيرُ هو الأوفق بمُرادات القرآن.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 64.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4855.

(3) القاسميّ، تفسير القاسميّ: 7/ 2700.

السّياق يفيد بالأداة البُعْدَ وعُلُوَّ الرُّتبة

دلالةُ الأداة ﴿ثُمَّ﴾ في الآية الكريمة:

لمّا كان تدبيرُ هذا الخلقِ أمرًا باهرًا لا تسعُه العقولُ؛ أشار إلى عظمته وعُلُوِّ رتبتِه بأداة البُعد والتراخي ﴿ثُمَّ﴾، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾، أي: أخذ في التَّدبير لمّا أوجده، وأحدث خلقَه، أخذًا مستوفًى مستقصًى مستقلًّا به[1]، وقد يقال: عبَّر بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لبُعْدِ هذه الرُّتبة عنِ الأطماع، وعُلُوِّها عمّا يُستطاع، فليس هناك ترتيبٌ ولا مهلة، حتّى يفهمَ أنَّ ما قبلُ كان على غير ذلك، والمراد: أنَّه أخذ في التَّدبير لما خَلَق، كما هو شأن الملوكِ؛ إذا استووا على عروشهم، أي: لم يكن لهم مدافعٌ، وإن لم يكن هناك جلوسٌ أصلًا، وذلك لأنَّ روحَ المُلك التَّدبيرُ، وهو أعدلُ أحوالِه[2]، ويقال: كلمة ﴿ثُمَّ﴾ معناها كأنَّه قال: خلق السَّموات والأرض، ثمَّ هاهنا ما هو أعظم منه استوى على العرش، فإنَّه أعظمُ مِنَ الكُرسيِّ، والكُرسيُّ وسعَ السَّمواتِ والأرض[3]، فكأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا دالَّةٌ على التَّراخي الرُّتبيِّ، وقيل: ليست ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب، وإنَّما هي بمعنى الواو[4].

الاستواء استقرارٌ بلا كيف على الوجه الذي يليق به تعالى

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، مادَّةً وصيغةً:

استواءُ اللهِ سبحانه على العرش بلا كيف، على الوجه الَّذي يليق به، مع تنزُّهه عمّا لا يجوز عليه، والاستواء في لغة العرب: العُلُوُّ والاستقرار، وقيل: استوى على ظهر دابَّته، أي: استقرَّ، واستوى إلى السَّماء، أي: صعد، واستوى: استولى، وظهر، واستوى الرَّجل، أي: انتهى شبابه، واستوى: اتَّسق، واعتدل[5].

بيانُ القدرة المطلقة على التَّدبير

دلالةُ (الافتعال) في الفعل ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالافتعال في: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ على أنَّه استواء لم يعهدوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 414.
(2) البقاعيُّ، نظم الدّرر: 10/ 270.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 136.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 85.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/ 240.

مثلَه، وهو أنَّه أخذ في تدبيره وتدبير ما حواه بنفسه، لا شريكَ له، ولا نائبَ عنه ولا وزير، كما يعهدون من ملوك الدُّنيا إذا اتَّسعت ممالكُهم، وتباعدت أطرافُها، وتناءت أقطارها[1].

دلالةُ التَّعبير بالعُلْويَّة مع العرش:

بيانُ إحاطة الله الكاملة وعلمِه التّامِّ بكلِّ شيء

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ دلالةٌ على أنَّه تعالى مستوٍ على عرشه - كما قال - بلا كيف ولا تشبيه، استواءً لائقًا بكماله وجلاله، وجميعُ الخلائقِ في يده أصغرُ من حبَّة خَردل، فهو مع جميعهم بالإحاطة الكاملة والعِلْم التّامِّ، ونفوذِ القدرة، سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا[2]، وقد يقال: "عُلُوُّ اللّهِ تعالى وارتفاعُهُ عبارةٌ عن عُلُوِّ مَجْدِهِ وصفاتِهِ وملكُوتِهِ، أي: ليس فوقَهُ فيما يجبُ له من تعالي الجلال أحدٌ، ولا معه مَن يكون العُلُوُّ مُشْتَرَكًا بينه وبينه، لكنَّه العليُّ بالإطلاق سبحانه"[3].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾:

دحضُ مقالةِ الكفّار وإنذارُهم بأنَّه لا مَفرَّ من الله إلّا إليه

الفصل في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾، إمّا للاستئناف البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر: ما أثَرُ صفاته عليهم؟ أو للاستئناف النَّحويِّ، فإنَّه لمّا ذكر أنَّ اللّهَ خالقُ السَّموات والأرض؛ قال بعضهم: نحن معترفون بأنَّ خالق السَّموات والأرض واحد، هو إلهُ السَّموات، وهذه الأصنامُ صورُ الكواكب، منها نصرتُنا وقوَّتُنا، وقال آخرون: هذه صورُ الملائكة عند اللّه، هم شفعاؤُنا، فقال اللّه تعالى: لا إلهَ غيرُ اللّه، ولا نُصْرَة من غير اللّه، ولا شفاعةَ إلّا بإذن اللّه، فعبادتُكم لهذه الأصنام باطلةٌ ضائعة، لا هم خالقوكُم ولا ناصروكُم ولا شفعاؤكم[4]، وقد يقال: لمّا أتمَّ سبحانه ما أراد من إظهار قدرته وسعةِ مُلكه وعظمتِه بالاسم العَلَم، الَّذي هو أعظمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 230.
(2) الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: 1/ 230.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 143.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 136.

مظاهر العظَمة، خاطَبَهم بالإقبال، فهم لا يعلمون قَدْرَه، وكان الخطاب إليهم ترهيبًا في إشارةٍ إلى ترغيب[1].

دلالةُ نفي الوليِّ والشَّفيعِ من دون الله:

لا ولايةَ ولا نُصرةَ ولا شفاعةَ إلّا بالله ومِن الله

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ على معنيين: أحدهما: أنَّكم إذا جاوزتُم رضاه؛ لم تجدوا لأنفسكم وليًّا، أي: ناصرًا ينصركم، ولا شفيعًا يشفع لكم، والثّاني: أنَّ اللّه وليُّكُم الَّذي يتولّى مصالحَكُم، وشفيعُكُم، أي: ناصرُكم على سبيل المجاز؛ لأنَّ الشَّفيع ينصر المشفوعَ له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]، فإذا خذلَكُم؛ لم يبقَ لكم وليٌّ ولا نصير[2].

دلالة ﴿مَا﴾ على النَّفي في التَّركيب:

نفيُ كلِّ وليٍّ وشفيع من دون الله تنزيهٌ لمقامه وكماله

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبقتِ الجملةَ الاسميَّة لنفي الوليِّ والشَّفيع، وفي ﴿مَا﴾ خصائصُ صوتيَّةٌ مِنَ المَدِّ والإشباع، تنفي من خلال جَرْسها الصَّوتي كلَّ وليٍّ وشفيع، ويضاف إلى ذلك أنَّ ﴿مَا﴾ تُفيد التَّوكيدَ بذاتها؛ لأنَّ قولهم: (ما فعل) نفيٌ لقولهم: (لقد فعل)، كما ذكر سيبويه[3]، ممّا يدلُّ على أنَّ فيها معنى التَّوكيد، فكما أنَّ (قد) فيها معنى التَّوكيد، فكذلك ما جُعِلَ جوابًا لها.

دلالةُ حرف اللّام في ﴿لَكُم﴾:

التَّخصيصُ لإنكار ادِّعائهم وتوبيخهم

اللّام في ﴿لَكُم﴾ من قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾، حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّخصيص، والتَّخصيص توبيخٌ وإنكارٌ لما هم فيه من كُفر وشرك، فالتَّخصيصُ قَصْدٌ لقوم بأعيانهم، طَغَوا وبَغَوا، فنَفْيُ الوليِّ والشَّفيعِ إغلاظٌ وزجرٌ لِمَن كفر، وبُعدٌ عنِ النَّفع الَّذي كان سيكون لو آمنوا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/ 99.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 507.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

دلالةُ كاف الخطاب في ﴿لَكُم﴾:

لُفِتَ الكلامُ إلى الخطاب في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾؛ لأنَّه أقعدُ في التَّنبيه[1]، فإذا كان النِّسيانُ والغَفلة طبعًا للكفّار، فإنَّ كاف الخطاب هنا جاءت تمهيدًا صالحًا لما سيأتي بعدَها مِن خطاب.

دورُ السّياق في لفت الانتباه واستدعاءِ الفهم

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجُمْلة ﴿لَكُم﴾:

تقديمُ شِبه الجملة ﴿لَكُم﴾ فيه دليلٌ على تعجيل العقاب والجزاء القاسي؛ تخويفًا وزجرًا لهم على موقفهم المُخزي، فهُم المخصوصون بكلِّ ما مِن شأنه إهلاكُهم وتدميرُهم، والجزاءُ من جِنس العمل الَّذي اتَّخذوه طبيعةً لهم.

مُفادُ الصّيغة تعجيلُ العقوبة مع السُّخرية

الموقع النَّحويُّ والبلاغيُّ لقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

وقعت شبهُ الجملة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ حالًا من ﴿وَلِيّ﴾ على القاعدة المشهورة: نعت النَّكرة إذا تقدَّم عليها؛ صار حالًا، وقد تقدَّمت شبه الجملة (من دون) على النَّكرة ﴿وَلِيّ﴾، وترتيب التَّركيب: (ما لَكُمْ مِنْ وليٍّ مِنْ دُونِهِ)، وإنَّما تقدَّمت هنا شبهُ الجملة على صاحبها، لقطع الأمل في وجود مَن ينصرُهم مِن غير الله، فكان التَّعجيلُ بالحال قبلَ صاحبها، مع دلالة ﴿مِّن﴾ على ابتداء الغاية، فكان النَّفيُ المطلق لوجود النّاصر، فالتَّعبيرُ القرآنيُّ يقول: ليس لكم ابتداءً وخاتمةً وليٌّ ولا شفيع؛ لأنَّه إذا لم يُرِد بكم خيرًا؛ فلا سماءَ عنه تظلُّكم، ولا أرضَ بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يُناصِرُكم، ولا أحدَ - إذا لم يُعْنَ بشأنكم في الدُّنيا والآخرة - ينظر إليكم[2].

تقدُّمُ الحالِ لقَطعِ حبلِ الأملِ في نُصرة غيرِ الله لهم

دلالةُ الحرف والتَّنكير في السّياق الأثير:

جاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾؛ لتدلَّ على التَّوكيد والاستغراق وعموم النَّفي، وقوله: ﴿مِن وَلِيّ﴾ أي: يلي

نفيُ كلِّ وليٍّ وشفيع منوطةٌ بالزَّجر والتَّخويف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 231.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 139.

أمورَكم، ويقوم بمصالحكم، وينصرُكم إذا حلَّ بكم شيء ممّا تُنْذَرون به[1]، وكونها للتَّوكيد لتَقدُّم النَّفي بـ ﴿مَا﴾ عليها، وكونُ مجرورِها نكرةً مؤكِّدةً على نفي جنس كلِّ وليٍّ وشفيع؛ إمعانًا في الزَّجر والتَّخويف، وذهابِ النَّصير والواقي.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾:

تـعـدُّدُ أوجـهِ الإعراب مفيدٌ في البيان عنِ المراد

يَحتمِل الموقعُ النَّحوي للفظ ﴿وَلِيٍّ﴾ أن يكون مبتدأ مؤخَّرًا، مجرورًا لفظًا، مرفوعًا مَحَلًّا، بضمَّة مُقدَّرة منعَ من ظهورها اشتغالُ المَحلِّ بحركةِ حرفِ الجَرِّ المُؤكِّدِ، ويجوز أن يكون هو اسم ﴿مَا﴾ مؤخَّرًا، على اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ تعمل عملَ (ليس)[2].

فائدةُ إعادةِ ذِكرِ (لا) مع الشَّفيع:

نـفـيُ الـولايـة والشَّفاعة معًا تـأكـيـدٌ لـجَلال المولى وقُدْرته

فائدةُ إعادة (لا) في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: هو تأكيدُ النَّفي، وذلك أنَّ (لا) متضمِّنةٌ معنى (مِن) الاستغراقيَّة، يقول النُّحاة: إنَّها نظير (إن) في توكيد الإيجاب[3]، ولهذا فائدةٌ، وهو تعليق النَّفي بكلٍّ من المعطوف ﴿شَفِيعٍ﴾، والمعطوف عليه ﴿وَلِيٍّ﴾؛ كَيْلا يُتَوَهَّمَ أن المنفيَّ هو المجموع، من حيثُ هو مجموع، فيجوز حينَئذٍ ثبوتُ أحدِهما[4]، أي: ثبوتُ الولاية، أو ثبوتُ الشَّفاعة، مع أنَّ الصِّفتَين ليستا ثابتَتَين لِمَن كَفَر.

بلاغةُ تقديمِ نفي الولاية، على نفي الشَّفاعة:

نـفـيُ الإطـمـاع مـن سـوى الله في نُصرة القريب والبعيد

الوليُّ هو مَن يتولّى أمرَكَ، لكنَّه قد يَضْعُفُ عنِ النُّصرة، والشَّفيعُ مُتَجَوَّزٌ به للنّاصِر، فإذا خذلَكُم لم يبقَ لكم وليٌّ، ولا ناصر[5]، فيأتي دورُ الشَّفيع وهو الَّذي يتوسَّط للدِّفاع عنك، وقد يكون أجنبيًّا عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 226.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن: 7/ 570.
(3) السّامرائيّ، أسئلة بيانية، ص: 198.
(4) الجرجانيّ، حاشية الجرجانيّ على الكشّاف: 1/ 57.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 219.

المشفوع له، وقد يكون قريبًا، فكان النَّفيُ للقريب الوليِّ، والبعيد أو القريب الشَّفيع.

سِرُّ إيثارِ لفظة ﴿شَفِيعٍ﴾:

الرَّدُّ على ادّعائهم شفاعةَ الأصنام

التَّعبيرُ بالشَّفيع في قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ من قبيل المُشاكلة التَّقديريَّة؛ لما أنَّ المشركين المُنذَرين كثيرًا ما كانوا يقولون في آلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا، ويزعمون أنَّ كلَّ واحد منها شفيعٌ لهم[1]، وقد يقال: لم يَجرِ للشَّفيع ذِكْرٌ قبلَ هذا، ولكنَّ الَّذينَ خُوطِبوا كانوا يقولون: إنَّ الأصنامَ شُفَعاؤنا عندَ اللَّهِ، فالذِّكْرُ جرى بعدُ في الشُّفَعاء، والقرآن حاضر لكلِّ قول يقولونه.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾:

توبيخٌ على إغفال النِّعَم؛ لأنَّ إغفالها ممّا يُكره ويُذَمُّ

الفصل بالأسلوب الإنشائيِّ جاء تذييلًا للآية الكريمة؛ إظهارًا للغَفلة والنِّسيان، وضَعفِ تَذَكُّرِ النِّعَم والآلاء الَّتي أسبغها اللَّهُ عليهم، فهو ربطٌ لآخرِ الآية الكريمة بأوَّلها، وقد يقال: هو توقيفٌ وتنبيهٌ، وإظهارٌ لموضع التَّقصير منهم[2].

نُكْتَةُ إيثارِ ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ على (تَتَفَكَّرُونَ):

نسيانُ آلاءِ الله وأنعُمِه غباءٌ في العقل وضعفٌ في القلب

في إيراد التَّذكُّر دونَ التَّفكُّر ونحوه، إشارةٌ إلى أنَّ أمرَ آلهتِهم مركوزٌ في العقول، لا يتوقَّف إلّا على التَّذكير[3]، والاقتصارُ على العقل يعني: أنَّ الآلهة المزعومة لا قيمةَ لها في قلوبهم وأفئدتهم، وإنَّما هو التَّقليدُ الأعمى وحدَه، فقد ألِفُوا آباءَهم عابدين للأصنام، فصاروا إلى ما صار إليه آباؤهم.

بلاغةُ الاستفهام في سياق الكلام:

إنكارُ إهمال النَّظر والتَّدبُّر منهجٌ في التَّربيَةِ مُؤثِّر

في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ إنكارٌ على عدم تدبُّرهم في ذلك،

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 118.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 315.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 194.

وإهمالِهمُ النَّظرَ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ، ومع الإنكارِ التَّوبيخُ والزَّجرُ، والتَّذَكُّرُ: مشتقٌّ مِنَ الذِّكْر الذي هو بضَمِّ الذّالِ، وهو التَّفكُّر والنَّظر بالعقل[1]، والاستفهامُ قد يُضاف إليه مع الإنكارِ التَّوبيخُ؛ لعدم تَذَكُّرهم مع وضوح دلائل التَّذكُّر، والمراد: التَّذكُّر في صفات آلهتِهم المُنافيَة لمقامِ الإلَهيَّة، وفي صفات الإلهِ الحَقِّ التي دَلَّت عليها مصنوعاتُه[2].

نُكْتَةُ توسُّطِ الفاء بين همزةِ الإنكار والمُنْكَرِ عليه:

الإشارةُ إلى شِدَّة غفلتِهم تقويمٌ للحال والمآل

في الفاء من قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وجهان: **الأَوَّل:** أن تكون عاطفةً على محذوف، أي: أتسمعون هذا فلا تتذكَّرون، **الثّاني**: أنَّ تقديمَ الهمزةِ من أجل صدارتها، أي: بعدما أوضحتُه مِنَ الدَّلائل الظّاهرة المقتضيةِ لشِرْعَة التَّذكُّر، إشارةً إلى أنَّ ما صنعوه ناشئٌ عنِ الغَفلة[3].

بلاغةُ الحذفِ للجملة قبلَ الفاء:

إنكارُ الهدى وعدمُ التَّذكُّر مع السَّماع دليلٌ على عدم الارتداع

تقدير المحذوف في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: ألا تسمعُون هذه المواعظَ، فلا تتذكَّرون بها، أو أتسمعونها، فلا تتذكَّرون بها، فالإنكارُ على الأَوَّل متوجِّهٌ إلى عدم السَّماعِ وعدم التَّذكُّر معًا، وعلى الثّاني: على عدم التَّذكُّر مع تحقُّقَ ما يُوجِبُه مِنَ السَّماعِ، فلا أحدَ مخلوقٌ عبثًا، ولا شيءَ متروكٌ سُدًى، إلّا ويدُ التَّدبير ظاهرةٌ في خَلْقِه، أفلا تتذكَّرون، كلُّ شيءٍ حيثما امتدَّ البصرُ مُتقَنُ الصُّنع، بديعُ التَّكوين، يتجلّى فيه الإتقانُ والتَّدبير[4].

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾:

مراعاةُ الفواصل وتعدُّدُ النِّعم ونوعُ المفعول

لحذفِ مفعول ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ أكثرُ من نُكْتَة: النُّكتة الأولى: تناسبُ الفواصل بين الآي القرآنيَّة، وذلك أنَّ السّابق على هذه الفاصلة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 211.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 329.
(3) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/ 87.
(4) محمّد نديم، التّضمين النّحويّ، ص: 330.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، واللّاحق لها ﴿تَعُدُّونَ﴾، فكان غرضُ الحذف هنا لفظيًّا، النُّكْتةُ الثّانية: كثرةُ المنسيِّ مِنَ النِّعم الَّتي أسبغها اللّٰه عليهم، فَلِعدمِ حياطة الفاصلة لهذي النِّعم؛ حُذِفَ المفعول، معَ اتِّهامهم بكفرهم بالمُنعِم، مع أنَّه لا معبودَ لكم غيره، فوجب إفرادُه بالعبادة وإخلاصُ العمل له[1]، النُّكتة الثّالثة: التَّعدُّد الوظيفيُّ في المحذوف، فقد يكون مفعولًا به، أو جارًّا ومجرورًا، أو مفعولًا مطلقًا، وهذا ما عليه المفسِّرون، فالتَّقدير: أفلا تتذكَّرون المواعظَ[2] والنِّعَمَ والآلاء، أو أفلا تتذكَّرون ما علمتموه من أنَّه خالقُ السَّموات والأرض[3]، أو جارًّا ومجرورًا: في قدرته ومخلوقاته[4]، أو مفعولًا مطلقًا، أي: تذكُّرًا عظيمًا[5]، أو تَذَكُّرَ تَدبُّرٍ[6]، وقد يكون الفعل على معنى الوقوع، أي: يقع منكم تذكُّرٌ، فتُميِّزوا بينَ الحقِّ والباطل، بأن تذكروا مآلكُم من أنفسِكم، بأنَّ مَن غاب عن مربوبهِ فسد أو كاد[7].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوليُّ والشَّفيع:

الـشَّـفـيـعُ قد يـكـون قـريـبًـا أو بعيدًا

الوليُّ: مشتقٌّ مِنَ الولاء، بمعنى: العَهدِ والحِلْفِ والقَرابة، ومن لوازم حقيقةِ الولاء: النَّصرُ والدِّفاعُ عنِ المولى، وأُريد بالوَليِّ: المشاركُ في الرُّبوبيَّة، والولايةُ أصلٌ صحيح يدلُّ على القُرْب[8]، والشَّفيع: الوسيط في قضاء الحوائج، من دفع ضُرٍّ، أو جَلْبِ نفعٍ[9]، وليس شرطًا أن يكون قريبًا منك.

(1) مكيّ، الهداية في بلوغ النّهاية: 4/ 5746.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 118.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 135.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 66.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 231.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 284.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 165.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 211.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 211.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السّجدة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين خَلْق الكونِ وعظَمةِ الخالق في تدبيرِه أمرَ السَّماواتِ والأرض

جاءت الآيةُ مناسبةً لما قبلها، وترشيحًا لعظَمة الخالق المُدبِّرِ المهيمنِ على السَّماوات والأرض، أو استئنافًا وتفسيرًا للمراد بالاستواء: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: كلَّ أمرِ هذا العالَم، بأن يفعلَ في ذلك فعلَ النّاظرِ في أدباره؛ لإتقانِ خواتِمِه ولوازمِه، كما نظر في إقباله لإحكام فواتحِه وعوازمِه، لا يَكِلُ شيئًا منه إلى شيء مِن خَلْقِه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدَبِّرُ﴾: (دبر) أصلٌ يدلُّ على آخر الشَّيء وخلفِه، والتَّدْبيرُ: أن يُدَبِّرَ الإنسانُ أمرَهُ، وذلك بأن ينظرَ إلى ما تصير عاقبتُهُ وآخِرُهُ، وهو دُبُرُهُ(2)، ودبَّرتُ الأمرَ تدبيرًا، فعلتُه عن فكر وروية(3)، وتدبير اللّه تعالى: مقاديره وأفعاله المُحكَمة في الوجود.

2) ﴿يَعْرُجُ﴾: (عرج) أصلٌ يدلُّ على سموٍّ وارتقاء(4)، والعُرُوجُ: ذهابٌ في صعود، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [المعارج: 4]، ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾ [الحجر: 14]، والمَعارِجُ: المصاعد، قال تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: 3]، وليلة المِعراج سُمّيت لصعود الدُّعاء فيها؛ إشارة إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، وعَرَجَ عُرُوجًا وعَرَجانًا: مشى مشيَ العارِج، أي: الذّاهب في صعود(5)، والمعنى المراد في الآية هو الارتقاء والصُّعود.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرج).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرج).

3) ﴿مِقۡدَارُهُۥٓ﴾: (قدر) أصلٌ صحيح يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكُنهِه ونهايته، فالقَدْر: مبلغُ كلِّ شيء، وقدَّرتُ الشَّيءَ أقدِرُهُ وأقْدُرُه مِنَ التَّقدير، وقَدَّرته أُقَدِّرُه[1]، ومِقدارُ الشَّيءِ للشَّيءِ المُقدَّر له، وبه، وقتًا كان أو زمانًا أو غيرهما، قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: 4][2]، وهو المعنى المراد في الآية.

4) ﴿تَعُدُّونَ﴾: (عد) أصلٌ صحيح واحد، لا يخلو من العدِّ الَّذي هو الإحصاء، ومن الإعداد الَّذي هو تهيئة الشَّيء، وإلى هذين المعنيين ترجع فروع الباب كلُّها، فالعَدُّ: إحصاءُ الشَّيء، تقول: عددتُ الشَّيء أعُدُّهُ عَدًّا، فأنا عادٌّ، والشَّيءُ معدودٌ، والعَديد: الكثرة، وفلانٌ في عِداد الصّالحين، أي: يُعَدُّ معهم، والعدد: مِقدارُ ما يُعَدُّ[3]، وهو في الآية بمعنى إحصاء العدد.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تدبير أمر السَّماء والأرض من شؤون الألوهيَّة

تتعدَّد المعاني الإجماليَّة لهذه الآية المباركة، **فالمعنى الأوَّل**: على أنَّ تدبير أمرِ الدُّنيا جاء بأسبابٍ سماويَّةٍ مِنَ الملائكةِ وغيرها، نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرضِ، وهذا التَّدبير يثبت في علمه موجودًا بالفعل، في بُرهةٍ مِنَ الزَّمان متطاولةٍ، والمرادُ: بيانُ طولِ امتدادِ ما بين تدبيرِ الحوادث وحدوثِها من الزَّمان، **والمعنى الثّاني**: على أنَّه يُدبِّر أمرَ الحوادثِ اليوميَّةِ بإثباتها في اللَّوحِ المحفوظِ، فينزلُ بها الملائكةُ، ثمَّ تعرجُ إليه في زمانٍ هو كألف سَنَة ممّا تعدّون، فإنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرةُ خمسمئة عام، وأمّا المعنى الثّالث؛ فهو: يدبِّرُ المأمورَ به مِنَ الطّاعاتِ مُنزَّلًا مِنَ السَّماء إلى الأرض بالوحي، ثمَّ لا يعرُج إليه خالصًا، كما يرتضيه إلّا في مُدَّة متطاولة؛ لِقلَّة المُخلِصين والأعمالِ الخُلَّص[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدد).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 220، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 80.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

نهايةُ العظَمةِ والإحاطةِ والتَّفضُّلِ في الخالقِ المُدبِّرِ الأجلِّ

فُصِلت هذه الآية عن سابقتها لكمال اتِّصالها بها، فهي صفةٌ أخرى من صفاته ﷻ، فقد دلَّ بكونه خالقًا للسَّموات والأرض في ستَّة أيّام، وبكونه مستويًا على العرش، على نهاية العظَمة وغاية الجلالة، ثمَّ أتبعَها بهذه الجملة؛ ليَدلَّ على أنَّه لا يحدثُ في العالَم العُلويِّ، ولا في العالَم السُّفليِّ أمرٌ مِنَ الأمور، ولا حادثٌ من الحوادث، إلّا بتقديره وتدبيره وقضائه وحُكمه، فيصير ذلك دليلًا على نهاية القُدرة والحِكمة والعِلْم والإحاطة والتَّدبير، وأنَّه سبحانه مُبْدِعُ جميعِ الممكنات، وإليه تنتهي الحاجات[1]، وسبحانَ المُتفضِّل على عباده بإيضاح الحُجج، وإزالةِ الشُّكوك، والدُّعاءِ إلى سبيل الرَّشاد، مع غِناهُ عنهم، وقُدرتِه عليهم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يُدَبِّرُ﴾، مادَّةً وصيغةً:

عظَمةُ الخالقِ وحِكمتُه وهيمَنتُه

يرسم التَّعبيرُ القرآنيُّ منظورًا شاملًا ضخمًا من السَّماء إلى الأرض، بكلمتين اثنتين: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾، وهو ما يمنح المؤمنَ رصيدًا ضخمًا من ذخائر الكمال والجمال، ليتملَّى آياتِ الإحسان المنبثقة من جمال صَنعة الخالق، ويعرض صفةَ الأُلوهيَّة في صفحة الوجود والهيمنة على الكون في أوجز وأعجز تعبير: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾، ومجالُ تدبيرِه أوسعُ وأشملُ مِنَ السَّماء والأرض، فهو الَّذي يُقدِّر أوائلَه وأواخرَه، وينسِّقُ أحوالَه ومقتضياته، ويرتِّب مقدِّماتِه ونتائجَه، ويختار النّاموسَ الَّذي يحكم خطواتِه وأطوارَه ومصائره[2]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع؛ ليدلَّ على تَجَدُّد هذا التَّدبير، وعدم انقطاعه، فضلًا عن تصويره لهذا الفعل مشهدًا حيًّا أمامَ القارئ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/ 192.

(2) نديم فاضل، التّضمين النّحويّ في القرآن، ص: 330.

سِرُّ إسناد التَّدبير لذاته العَليَّة:

أصلُ كلِّ تدبير هو التَّدبيرُ الإلهيُّ الجدير

إسنادُ التَّدبيرِ إلى ذاته سبحانه في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ تدبير العِباد عند تدبيره لا أثرَ له[1]، فتدبيرُ كلِّ بشرٍ راجعٌ إلى المُدَبِّر الأعظم، وكلُّ تدبيرٍ عاقبتُه غيرُ محمودةٍ لم يأخذ من نَفَس التَّدبير الإلهيِّ الأعظم، فهو الذي يقوم لهم بتدبير شؤونهم، حيثُ لم يُدبِّروا معه، فمَن لم يُدَبِّر؛ دُبِّر له، فالفاعلُ لهذه الأمورِ هو الحقُّ المنفردُ بالوجود، وكلُّ ما سواه باطل[2].

فائدةُ إضمار لفظ الجلالة:

الإيجاز والاختصار المستفاد مهمٌّ في البيان المُراد

الإضمار بعد الإظهار، غرضُهُ الإيجازُ والاختصار، الَّذي هو فرع عن أصلِ طلبِ الخِفَّة[3]؛ لأنَّ التَّركيب يستغني بالحرف الواحد، فيكون ذلك الحرف كجُزء من الاسم[4]، وهذا واضح، فقد ذُكِرَ الاسمُ العَلَم (اللّه)، ثمَّ عاد عليه الضَّمير؛ إيجازًا واختصارًا، وبعثًا للرَّشاقة في التَّركيب القرآنيِّ، الَّذي يربِط بالضَّمير في حال عدم دلالةِ الرَّبط بالاسم الظّاهر على فائدة جديدة.

بلاغةُ المجاز أو الكناية في تدبير الأمر:

بيان أنَّ إحكام التَّدبير من فعل العزيزِ القدير

في التَّركيب كنايةٌ عمَّن يفعلُ فعلَ مَن ينظر في أدبار الأمور، فلا يفعل إلّا ما هو في غاية الإحكام[5]، يَجِلُّ عن أن يُرام بنقض، بل هو بالحقيقة الَّذي يعلم أدبارَ الأمورِ وعواقبَها، لا يشغلُه شأنٌ عن شأن، مع أنَّ هذا العالَمَ - من أعلى العرش إلى ما تحت الثّرى - محتوٍ على أجناسٍ وأنواعٍ وفصول، وأصناف وأشخاص، لا يحيط بها سواه، وذلك دالٌّ قطعًا على أنَّه سبحانه في ذاته

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 108.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/ 469.

(3) تمام حسّان، البيان في روائع القرآن: 1/ 137.

(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 21.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/ 81.

وصفاته مُتعالٍ عن مشابهة المُحْدَثات، واحدٌ أحدٌ صَمَدٌ، ليس له أحد كفوًا[1].

نُكْتَةُ تضمينِ التَّدبيرِ معنى الإنزال:

الملائكة يفعلون ما يؤمرون وهم يُـدبِّـرون ما به يُكَلَّفون

الفعل ﴿يُدَبِّرُ﴾ قد يكون متضمِّنًا معنى (يُنزِّل)، وفي التَّضمين تظهر قوَّةُ الفعلَيْن: التَّدبير والإنزال، قال ابن عبّاس: يُنزِّلُ القضاءَ والقدرَ، وقد يكون الإنزال هنا هو إنزال الوحي مع جبريل[2]، وقد قيل: يُدبِّر أمرَ الدُّنيا أربعةٌ: جبريلُ، وميكائيلُ، وملكُ الموت، وإسرافيلُ، صلواتُ اللّهِ عليهم أجمعين، فأمّا جبريل؛ فمُوكَّلٌ بالرّياح والجنود، وأمّا ميكائيلُ؛ فمُوكَّلٌ بالقَطْر والماء، وأمّا مَلَكُ الموت؛ فمُوكَّلٌ بقَبْضِ الأرواح، وأمّا إسرافيل؛ فهو يَنزِل بالأمر عليهم[3]، وقيل: والتَّدبير تنزيلُ الأمور في مراتبها، والنَّظرُ في أدبارها وعواقبها[4]، وقد يقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: يُريده تعالى على وجه الإتقان، ومراعاةِ الحِكمة؛ مُنزِلًا له مِنَ السَّماء إلى الأرض، وإنزالُه من السَّماء باعتبار أسبابه، فإنَّ أسبابه سماويَّةٌ، مِنَ الملائكة عليهم السلام وغيرِهم[5].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾:

استغراقُ التَّدبير كـلَّ المـوجـودات دليلٌ على عظَمة المخلوقات

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ عَلَمٌ على أنَّ أمر الكونِ واضحٌ جليٌّ، له مُدبِّرٌ، فالألف واللّام جنسيَّةٌ استغراقيَّة، أي: يُدَبِّر كلَّ أمر في الكون، ويَحُوطه، بحيثُ لا يخرج عن تصرُّفه شيءٌ منها، فجميعُ ما نُقِل عن سلف المفسِّرين في تفسير الأمر، يرجِعُ إلى بعض هذا العموم[6]، فلا يشغَلُه شأنٌ عن شأن؛ لأنَّ تدبيره للكبير كتدبيره للصَّغير، لا تختلف بالنِّسبة إلى قدرته أحوالُ شيءٍ من ذلك في الإيجاد والإعدام والإحياء.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 272.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 86.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 86.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 11.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 118.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 212.

سِرُّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ دون غيره:

بيانُ أنَّ الأشياء كلَّها بأمر الله تعالى

لمّا كان الحدثُ عظيمًا، وفيه إنكارٌ وإشراكٌ واتّهامٌ بافتراء؛ وظَّفَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ الدّالَّة على عِظَم الموقف وقُوَّته، إضافةً لسعةِ معناها، وتعدُّد مشاربِها، فـ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ يدلُّ على وجوه من المعاني، منها: القضاء، كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]، يعني: يقضي القضاء، والأمر: الدّين، كقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 93]، والأمر: الوحي، أو أمر الدُّنيا، وأصلُ هذا كلِّه واحدٌ، لأنَّ الأشياء كلَّها بأمر الله تعالى، فسُمّيت الأشياءُ أمورًا[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ابتداءُ الغايةِ يحكي الجبروتَ والقُدرةَ المُطلقةَ لرَبِّ الملكوت

تدلُّ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ابتداء الغاية[2]، وهو المعنى الرَّئيسُ لها، حتّى إنَّ كلَّ المعاني الأخرى نابعةٌ منه، وهي في موقعها دالَّةٌ على أنَّ ابتداءَ كلِّ شيء مصدرُه واحدٌ، وهو اللّهُ ﷻ، فترجَمَ الحرفُ عظَمة الخالقِ، وابتداءُ كلِّ شيء من عنده، فدلَّ ذلك على الهيمنة والقُدرة المُطلقة.

دلالةُ (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلالـــةُ كـلٍّ مِـنَ الجنسيَّة والعهديَّة على القدرة المطلقة للخالق

(أل) في قوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّة، بدليل جوازِ وضع (كلٍّ) مكانَ (أل)، أي: كلُّ سماء، وكلُّ أرض، ويجوز أن تكون (أل) عهديَّةً، أي: السَّماء الَّتي تعرفونها، والأرض الَّتي تدركونها، وسواءٌ كانت (أل) جنسيَّةً استغراقيَّةً أو عهديَّةً، ففي الكلمتين دليلٌ على القُدرة المطلقة للخالق ﷻ.

نُكْتَةُ إفرادِ لفظة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

بـيـانُ الـقُـرب لإمكان المشاهدة

لمّا كان المقصودُ للقُرب إنَّما هو تدبير ما يمكن مشاهدتهم له مِن العالَم؛ قال تعالى مُفردًا: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: فيُنزِّل ذلك الأمرَ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 465.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 117.

الَّذي أتقنَه، كما يتقنُ مَن ينظر في أدبار ما يعمله، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: غيرَ متعرِّض إلى ما فوقَ ذلك، على أنَّ السَّماء تشمل كلَّ عالٍ، فيدخلُ جميعُ العالَمِ العُلويِّ، والأرضَ تشمل كلَّ ما سَفُل، فيشملُ ذلك العالَمَ السُّفليَّ[1].

دلالةُ الموقع النَّحويِّ لشبه الجملة:

السِّياق يفيد الحاليةَ والثَّبات وعدمَ الانتقال

لِشبه الجملة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ موقعُ النَّصب على الحالية[2]؛ لأنَّه مسبوق بمعرفةٍ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾، والحال هنا ثابت غيرُ منتقلٍ؛ للدِّلالة على عظمة الأمر، وتعلُّقه بعظيم، على عكس طبيعته في الانتقال وعدمِ الثَّبات.

دلالةُ إفرادِ لفظة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾:

بيان التَّفرُّد وعدمِ التَّفاوت في الأمور

دلَّ الإفرادُ في لفظة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ على أنَّ وحدة التَّدبير وإحكامَه لكلِّ أمر من الأمور، فلا أمرَ صعبٌ غير مدبَّر، وإنَّما الكلُّ هيِّنٌ على اللّه، فالإفرادُ لبيان الإحكام والتَّفرُّدِ في كلِّ أمر، وعدمِ التَّفاوت في القدرة، وقد يقال: الأمرُ واحد الأُمور، وهو كنايةٌ عن جميع الأمور[3].

دلالةُ تدبيرِ الأمر ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

كلٌّ إلى الله راجعٌ وإلى الله المنتهى والمصير

أفاد قولُه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ تدبير الأمور مِنَ السَّماء إلى الأرض مِن وقت خلقِهما وخَلْقِ ما بينهما، يستقرُّ على ما دُبِّر عليه، كلٌّ بحسب ما يقتضيه حالُ تدبيره مِن استقراره، ويزول بعضُه، ويبقى بعضُه، ما دامت السَّماواتُ والأرض، ثمَّ يُجْمَع ذلك كلُّه، فيصيرُ إلى اللّه مصيرًا مناسبًا لحقائقه، فالذَّواتُ تصير مصيرَ الذَّوات، والأعراض والأعمال تصير مصيرَ أمثالِها، أي: يصير وصفُها ووصفُ أصحابِها إلى عِلْمِ اللّه وتقدير

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 203.
(2) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 7/ 147.
(3) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 7/ 147.

الجزاء، فذلك المصيرُ هو المُعَبَّر عنه بالعُرُوج إلى اللّه، فيكون الحسابُ على جميع المخلوقات يومَئِذٍ[1].

دلالةُ تعدية الفعل ﴿يَعۡرُجُ﴾ بـ (إلى):

لا تأثير للأسباب في أقدار الله الوهّاب

تعدية الفعل ﴿يَعۡرُجُ﴾ بحرف الانتهاء (إلى)، يفيد أنَّ تلك الأمورَ المدبَّرةَ تصعد إلى اللّه تعالى، فالعروج هنا مستعار للمصير إلى تصرُّف الخالق، دونَ شائبةِ تأثير من غيره، ولو في الصُّورة، كما في أحوال الدُّنيا من تأثير الأسباب[2].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ والفعل في قوله: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾:

قِلَّةُ الخالِصِ مِنَ الأعمال تناسبُ العُروجَ لا التَّصعُّد

لمّا كان الصُّعود أشقَّ مِنَ النُّزول على ما جرت به العوائدُ، فكان بذلك مستبعدًا، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾، أي: يصعدُ الأمر الواحد - وهو مِنَ الاستخدام الحَسَن - إليه، أي: بصعود الملكِ إلى اللّه، أي: إلى الموضع الَّذي شرَّفَه، أو أمرَه بالكون فيه[3]، وقد يقال: إنَّ الأمْرَ المأمور به من الطّاعات، لا يصعد إليه خالصًا كما يريده، ويرتضيه؛ لقلَّة عُمّال اللّه، والخُلَّصِ من عباده، وقِلَّةِ الأعمال الصّاعدة؛ لأنَّه لا يُوصَف بالصُّعود إلّا الخالِصُ[4]، فالحرف ﴿ثُمَّ﴾ بدلالته على البُعد والصُّعوبة، يؤكِّد أنَّ الفعل ﴿يَعۡرُجُ﴾ كنايةٌ عن قِلَّة الإخلاص؛ لأنَّه لا يُوصَف بالصُّعود، ولا يقوى على العُروج إلّا العمل الخالِصُ، وقد تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مرجع الأشياء إلى تصرُّفه، بعد صدورها من لدنه أعظمُ وأعجبُ[5].

نُكْتَةُ إضمارِ فاعل ﴿يَعۡرُجُ﴾:

الاتِّساع في تحديد الفاعل المستفاد؛ لتأكيد الطّاعة والانقياد

إضمارُ الفاعل في قوله: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ يُحْدِث اتِّساعًا في تحديد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 213.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 232.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 507.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 213.

ماهيَّة الفاعل، فقد يكون الفاعل هو المَلَك الَّذي ينزل بأمر اللّه وتدبيره، ثمَّ يعرج، وقد يكون الفاعل لفظةَ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾[1]، ونُكْتَةُ الاتِّساع هنا انقيادُ كلِّ المخلوقات لإرادة اللّه وحدَه، فسواءٌ أنْزَل المَلَكَ، أم الأمرَ، أم غيرَهما، فالجميعُ لا يعصي اللّه ما أمرَه، ويفعل ما يُؤْمَر به.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بـ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾:

دلالـةُ الـعُـروج عـلى ثـبـات العِلْم ورسوخِه وتَمَكُّنِه

التَّعبيرُ بالفعل ﴿يَعْرُجُ﴾ يُراد بِه الصُّعودُ والارتفاع، أي: يصعد، ويرتفع ذلك الأمرُ بعد تدبيره إلَيْهِ ﷻ، وهذا العروجُ مجازٌ عن ثبوته في علمه تعالى، أي: تعلُّق علمِه سبحانه به تعلُّقًا تنجيزيًّا، بأن يعلمه ﷻ موجودًا بالفعل، أو عن كتابته في صحف الملائكة عليهم السلام، القائمين بأمره ﷻ موجودًا كذلك في يوم كان مقدارُهُ ألفَ سنةٍ ممّا تعدّون[2]، وقد يقال: المعارج منازل من الرِّفعة الاعتباريَّة، ترتقي فيها الملائكة، فهي معارج جعلها اللّه للملائكة، فقرَّب بها من منازل التَّشريف[3].

دلالةُ عود الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾:

الـحُـكـم لله ﷻ وإلـيـه منتهى الأعمال وجزاؤها

الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ من قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، يعود إلى اللّه ﷻ، والعروج إليه تعالى: الصَّيرورةُ إليه سبحانه، لا ليُثْبَتَ في صحف الملائكة، بل ليَحْكُمَ ﷻ فيه[4]، وقد يُقال: إنَّ الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السَّماء على لغة مَن يُذكِّرُها، أو على مكان المَلَكِ الَّذي يرجع إليه، أو على اسم اللّه تعالى، والمراد: إلى الموضع الَّذي أقرَّه فيه، وإذا رجعت إلى اللّه؛ فقد رجعت إلى السَّماء، أي: إلى سِدْرة المنتهى، فإنَّه إليها يرتفع ما يُصْعَد به مِنَ الأرض، ومنها ينزل ما يهبط به إليها[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 80.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 118.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 213.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 119.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 86.

دلالةُ الجارِّ في قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ﴾:

بيانُ طولِ اليوم ومشقَّتِه باعتباره متميِّزًا بذلك

قيل: إنَّ الحرف ﴿فِي﴾ بمعنى اللّام، والمعنى: يدبِّر الأمرَ ليومٍ مقداره كذا، ثمَّ يَعرُج إليه تعالى فيه، كما تقول: قصدت، ونظرت في الكتاب، أي: قصدت إلى الكتاب، ونظرتُ فيه[1]، والصَّحيح: أنَّ ﴿فِي﴾ على بابها مِنَ الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، ولم تأتِ بمعنى اللّام؛ لأنَّه لا تناوبَ بينَ الحروف، والمعنى: إنَّ العروجَ طالَ في هذا اليوم طُولًا بالغًا، بحيثُ كان اليومُ ظرفًا لهذا العروج وزمنًا له.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٖ﴾ في السّياق المُحكم:

إبرازُ ملامحِ يومِ القيامة بالإبهام والشِّدَّة والتَّعظيم

التَّنكير قد يكون للنَّوعيَّة، أي: إنَّ هذا اليومَ ليس كنوع أيّامكم، وقد يكون تنكيرُ اللَّفظة دالًّا على الشّيوع والإبهام، فقد يكون يومًا من أيام الدُّنيا المعروفة[2]، وقد يكون المراد هنا يوم القيامة[3]، وقد يُقْصَد بالتَّنكير التَّعظيمُ مع التَّهويلِ والشِّدَّة والمَشقَّة وبيانِ عظَم قَدرِه[4]، والتَّنبيهُ على عِظَم القُدْرة، وسعةِ ملكوت اللّه وتدبيره، وليس من غرض القرّاء تعيينُ أحدِ اليومين، ولكن حصولُ العِبرة بأهوالهما[5].

نُكْتَةُ دخول ﴿كَانَ﴾ في الجملة:

بيانُ أنَّ الاستمرار منذرٌ بالتَّهديد والوعيد والبَوار

الإتيان بـ ﴿كَانَ﴾؛ للدِّلالة على الاستمرار[6]، فهي ماضٍ مع دلالته على الدَّوام، فضمَّت زمنين: الماضي والحاضر، فهي تشير إلى اقتران مضمونِ الجملة بالزَّمان الماضي، مِن غير تعرُّضٍ للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ [النساء: 96]، ولذلك يُعَبَّر عنها بأنَّها تُرادِفُ (لم يزل)[7]، لمحاولة رسمِ صورةٍ لطُول اليوم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 119.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 290.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 387، وعبد العال سالم، المشترك اللّفظي في الحقل القرآنيّ، ص: 70.
(4) ابن عادل، اللّباب: 15/ 474.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 213.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 239.
(7) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 100.

عودُ الضَّمير في قوله: ﴿مِقۡدَارُهُۥٓ﴾:

علَّةُ استعمال الإضمار الإيجازُ والاختصار

الهاء في لفظة ﴿مِقۡدَارُهُۥٓ﴾ تعود على أقرب مذكور، وأقربُ مذكور هنا لفظة ﴿يَوۡمٖ﴾، والمعنى: كان مقدار اليوم، والرَّبط بالضَّمير غرضُه الإيجاز والاختصار؛ لعدم إعادة الكلمة ثانية من دون إضافة فائدة للمعنى، وقد يقال: الهاء في ﴿مِقۡدَارُهُۥٓ﴾ راجعة إلى التَّدبير، والمعنى: كان مقدارُ ذلك التَّدبيرِ ألفَ سنة من سِني الدُّنيا، أي: يقضي أمرَ كلِّ شيءٍ لألف سنة في يوم واحد، ثمَّ يُلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت؛ قضى لألف سنةٍ أخرى، ثمَّ كذلك أبدًا، وقيل: الهاء للعروج، والمعنى: أنَّه يُدبِّر أمرَ الدُّنيا إلى أن تقوم السّاعة، ثمّ يعرج إليه ذلك الأمرُ، فيَحْكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، وقيل المعنى: يُدبِّر أمرَ الشَّمسِ في طلوعها وغروبها، ورجوعِها إلى موضعها مِنَ الطُّلوع، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة[1].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿أَلۡفَ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

العدد وتطاول الزَّمن في الآية على المجاز لا الحقيقة

معنى قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي: في بُرهة متطاولة من الزَّمان، فليس المراد حقيقةَ العدد، وعبَّر عن المدَّة المتطاولة بالألف؛ لأنَّها منتهى المراتب وأقصى الغايات، وليس مرتبة فوقها إلّا ما يتفرَّع منها من أعداد مراتبه، وقد يُقال: وألف سنة على حقيقتها، وهي مسافة ما بين الأرض ومُحدَّب السَّماء الدُّنيا بالسَّير المعهود للبشر، فإنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمئة عام، والسَّماء كذلك، كما جاء في الأخبار الصَّحيحة، والمَلَكُ يقطع ذلك في زمان يسير، فالكلام على التَّشبيه، فكأنَّه قيل: يريد تعالى الأمرَ متقنًا، مُراعًى فيه الحكمةُ بأسباب سماويَّة، نازلةٍ آثارُها وأحكامُها إلى الأرض، فيكون كما أراد سبحانه، فيَعْرُج ذلك الأمر

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 86.

مع المَلَك، ويرتفع خبرُه إلى حضرته سبحانه، في زمان هو كألف سنةٍ ممّا تعدّون[1].

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ:

تصوير اليوم بين اليُسر والشِّدَّة وبينَ الهَول والسُّرعة والبُطء

بين آيتي السَّجدة والمعارج تشابهٌ لفظيٌّ، إلّا أنَّه لا فرقَ بين قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وبين قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ [المعارج: 4]؛ لأنَّ ذلك إذا كان إشارةً إلى دوام إنفاذ الأمر، فسواءٌ عُبِّرَ عنه بألفِ سنةٍ أو بخمسينَ ألفَ سنةٍ لا يتفاوت، إلّا أنَّ المبالغة بالخمسين أكثر، وقيل: ألفُ سنة وخمسونَ ألفَ سنةٍ كلُّها في القيامة، يكون على بعضهم أطول، وعلى بعضهم أقصر، معناه: يدبِّر الأمرَ من السَّماء إلى الأرض مدَّةَ أيّام الدُّنيا، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي: يرجع الأمرُ والتَّدبير إليه بعد فناء الدُّنيا، وانقطاع أمرِ الأمراء، أو حُكمِ الحُكماء، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وهو يوم القيامة، فأمّا قوله: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ [المعارج: 4]؛ فإنَّه أراد على الكافر، أن يجعل ذلك اليومَ عليه مقدارَ خمسين ألف سنة، وعلى المؤمن دونَ ذلك، ويجوز أن يكون هذا إخبارًا عن شدَّتِه ومشقَّتِه وهوله[2]، وقيل: أراد بقوله: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ [المعارج: 4] مدَّةَ المسافة بين الأرض وسِدرة المُنتهى، الَّتي هي مقامُ جبريل عليه السلام، يقول: يسير جبريل والملائكة الَّذين معه من أهل مقامِه مسيرةَ خمسين ألف سنة، في يوم واحد من أيام الدُّنيا[3]، وقيل: الوجود مِن علوِّه إلى سُفْلِه، مِنَ الملائكة مَن يقطعُه في مدَّةٍ ما، ويقطعه غيرُه في أكثر منها أو أقلَّ[4]، وقد يقال: إنَّ الآيتين ليستا على مورد واحد، بل الأولى تتحدَّث عن أمر لا تتحدَّث عنه الأخرى، فالآية الأولى تتحدَّث عن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 117.
(2) ابن عادل، اللّباب: 15/ 474.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 3/ 402.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 387.

مدَّة يوم معراج الأوامر، ومدَّتُه ألف سنة، والثّانية تتحدَّث عن يوم القيامة، ومدَّتُه خمسون ألف سنة، كما هو ظاهر مِنَ السّياق: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠﴾ [المعارج: 1 - 10][1]، وقد يقال في بيان المتشابه في الفرق بين الآيتين: إنَّ الحقَّ تعالى حيثُ لم يختصَّ بمكان دونَ مكان، وكانت الأمكنةُ في حقِّهِ تعالى كلُّها واحدةٌ، وهو موجود معها، وفيها بعلمه وأسرار ذاته، كان العروج إنَّما هو إليه على كلِّ حال، بعُدت المسافة، أو قَرُبت، لكن لمّا علَّقَ العروجَ بتدبير الأمور وتنفيذها؛ قرَّبَ المسافة؛ ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ القضاء نافذٌ فيه بسرعة، ولمّا عَلَّقَ عروجَ الملائكة والرّوح إلى مطلق الذّات المقدَّسة؛ بَعَّدَ المسافة، زيادةً في عُلُوِّ شأنه، ورِفعة قَدْرِه[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالسَّنة دونَ العام:

الإشـارة بـالسَّـنة إلى حُـرّيَّة الهبوط والصُّـعود في ذلـك الـزَّمـن الموعود

نُكْتَةُ توظيفِ السَّنةِ هي دلالةُ الاتِّساعِ وعدمُ التَّقيُّدِ بوقت مُحدَّد؛ لأنَّ السَّنة تعني أيَّ عام، فالعامُ يبدأ من أوَّل المحرَّم إلى آخر ذي الحِجَّة، والسَّنة من كلِّ يوم إلى مثله من القابلة[3]، وهذا دالٌّ على مطلق الصُّعود والهبوط للأمر، أمّا لفظة (العام)؛ ففيها التَّحديد الَّذي لا يناسب القُدرةَ المُطلقة للمُدَبِّر، وقد تكون قرينة ذلك شبهَ الجملة ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فهي دالَّةٌ على أنَّ العَدَّ يكون في أيِّ زمان، وليس محدَّدًا بوقت بعينه، وقد يُضاف إلى ذلك: أنَّ العام أقلُّ أيّامًا

(1) المطيري، دعاوى الطّاعنين في القرآن، ص: 289.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 386.
(3) القسطلانيّ، إرشاد السّاري: 5/ 255، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 438.

مِنَ السَّنة[1]، فعُبِّرَ بالأطول لطول السَّنة، قال البقاعيُّ: ولمّا كان المقصود هنا التَّطويل، فعَبَّر بالسَّنة تنبيهًا عليه[2].

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾:

ابتداءُ الغاية يشي بطول اليوم وامتداده

(مِن) في قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ لابتداء الغاية، وكأنَّ التَّعبير القرآنيَّ يفسِّر ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، أي: مِن بَدْءِ عَدِّكُم، وهذا يشي بتناهي اليوم في الطّول على حسب أفهامنا وعقولنا.

معنى (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾:

اتِّساع وظيفة الأداة بين الموصوليَّة والمصدريَّة

تحتمل (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الموصوليَّةَ والمصدريَّة، فإذا كانت موصوليَّةً؛ فالمعنى: مِنَ الَّذي تَعُدّون، وإن كانت مصدريَّةً، فإنَّ المعنى: مِن عَدِّكم.

بلاغةُ موقعِ ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ النَّحويِّ:

رسمُ صورة اليوم ومغزى العدِّ الموسوم

يجوز أن تكون جملة: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ صفةً لـ ﴿أَلۡفَ﴾، وأن تكون صفةً لـ ﴿سَنَةٖ﴾[3]، فإذا كانت صفةً لـ ﴿أَلۡفَ﴾؛ فهي في محلِّ نصب؛ لأنَّ الصِّفة تتبع الموصوف، فلفظةُ ﴿أَلۡفَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، ويجوز أن تكون في محلِّ جرٍّ تبعًا لكلمة ﴿سَنَةٖ﴾ المجرور، وعلى كلٍّ؛ فالمحلُّ الإعرابيُّ داعٍ إلى بيان أنَّ هذا اليومَ فيه وجهُ شبهٍ من الأيام الَّتي نعدُّها.

نُكْتَةُ حذفِ العائد في ﴿تَعُدُّونَ﴾:

إطلاقُ المعنى وجواز أن يكون المعدود يومًا أو سنة

لم يذكرِ التَّعبيرُ القرآنيُّ عائدَ فعل ﴿تَعُدُّونَ﴾، فلم يقل: (تعدّونه) أو (تعدّونها)؛ وذلك لإطلاق ماهيَّة العَدِّ، فقد يُطلق العَدُّ على اليوم، ويُراد به سنة، فلمّا كان الحذفُ؛ كان الاتِّساعُ، وطلبُ الإيجاز، والدِّلالةُ على عموم العدِّ، ويُضاف إلى ذلك: رعايةُ الفاصلة

(1) السّهيليّ، الرّوض الأنف: 3/ 86.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 67.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1047.

الَّتي تنتهي بحرف النّون السّاكن، كما في الآيات قبلها ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿يَهۡتَدُونَ﴾، ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ (ما) دون (الَّذي):

دلالـةُ الاتّساع فـي المعنـى في السّياق المُحكم

(ما) في قوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بمعنى (الّذي)، فكلاهما اسمُ موصولٍ، وعندما تُفسَّر (ما)؛ فإنَّها تُفسَّر بـ (الَّذي)، لكن (ما) أعمُّ وأشمل؛ لأنَّها تُطلَق على كلِّ شيء، وتُطلق على ما ليس بشيء[1]، فهي أعمُّ؛ لأنَّ من سماتها فرطَ الإبهام[2]، وكأنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ يقول: (ممّا تعدّون، وممّا لا تعدّون)، ثمَّ إنَّ (ما) هيَّأت التَّركيب لأن يكون موصولًا، أو مصدرًا مؤوَّلًا (من عَدِّكُم)، أمّا (الذي)؛ فنَصٌّ في الاسم الموصول، فكان تعدُّد الوظائفِ في التَّركيب أولى من وظيفة واحدة.

دلالةُ ﴿تَعُدُّونَ﴾، مادَّةً وصيغةً:

اختلافُ السِّنين من قـوم لقوم أمـرٌ مـعـروف مألوف

لمّا كانتِ السُّنونُ قد تختلف؛ قال تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ لأنَّ أيّامَكم تناسبُ أوهامَكم، وأزمانَكم تناسب شأنَكم، وهو حليمٌ لا يستطيل الزَّمان، وقادرٌ لا يخاف الفَوت[3]، فالفعلُ رُوعيَت فيه العقولُ والأفهامُ الَّتي تحملونها، وتعتقدونها، وأمّا التَّعبيرُ بالفعل المضارع؛ فيدلُّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ، في عدِّهم السِّنين والأيام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّنَةُ والعام:

العام أخصُّ مِنَ السَّنة وكلاهما مستعمَلٌ في القرآن بما يناسب دلالتَه

السَّنة، تعني: أيَّ عام، فالعام يبدأ من أوَّل المحرَّم إلى آخر ذي الحجَّة، والسَّنة من كلِّ يوم إلى مثله من القابلة[4]، وقد يُضاف إلى

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 228.
(2) ابن قيم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 2/ 217.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 67.
(4) القسطلانيّ، إرشاد السّاري: 5/ 255، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 438.

ذلك: أنَّ العام أقلُّ أيامًا مِنَ السَّنة[1]، فالعامُ أخصُّ مِنَ السَّنة، فعلى هذا تقول: كلُّ عام سنةٌ، وليس كلُّ سنةٍ عامًا، وقيل: العامُ كالسَّنة، لكن كثيرًا ما تُستعمَل السَّنةُ في الحول الَّذي يكون فيه الجَدْبُ والشِّدَّة، ولهذا يُعبَّر عن الجَدب بالسَّنة، والعام فيما فيه الرَّخاءُ والخِصْب[2].

العَدُّ والإحصاء:

الإحصاءُ أعمُّ مِنَ العدِّ في الاستعمال المعتمد

الإحصاء: عَدٌّ مع الحفظ، وفيه معنى الإحاطةِ باستيفاء عددِ كلِّ شيء[3]، أمّا العدُّ؛ فليس يُشترط فيه الحفظُ، فالعَدَدُ ضمُّ أعدادٍ بعضها إلى بعض[4]، وعليه فالإحصاء عَدٌّ وزيادة، فهو أعمُّ مِنَ العَدِّ، وفيه تدقيقٌ ومعرفة بخصائص الشَّيء وصفاته تفصيلًا بعد عَدِّه إجمالًا؛ لذلك قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]، فقد عَلِم صفاتِ كلِّ واحد منهم، وحالاتِه وخصائصَه، إحصاءً تفصيليًّا، فضلًا عن عدِّه إجمالًا، وهذا من بديع عِلْم اللّه ﷻ بخَلْقه، ومن روائع نظمه، وهنا قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النّحل: 18]، فإن استطعتم عدَّها على سبيل الافتراض لا الواقع - والعدُّ أسهل - فإنَّكم لن تبلغوا إحصاءَها[5].

(1) السّهيليّ، الرّوض الأنف: 3/ 86.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (عوم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عدد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عدد).
(5) عبد الله الهتاري، الفرق بين العد والإحصاء، ملتقى أهل التفسير.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾

[السّجدة: 6 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تدبير اللـه لـلأكـوان وبـين مـراحـل خَلْق الإنسان

لَمّا ذكرَ اللهُ ﷻ في الآياتِ السّابقة كيفيَّةَ خلقِ السَّماواتِ والأرض في ستَّة أيّام، ثمَّ استوى على العرش، وذكر مِن خَلْقِه العظيم السَّماوات والأرض والعرش، وأنَّ الخَلْقَ لا تستغني عنه، لضعفها وحاجتها؛ دلَّ ذلك على علمه المطلق للغيب والشَّهادة، ودلَّ على إحسانه وتفضُّله في تدبير شؤون هذا المخلوق الَّذي صوَّره وأحسن تصويره، فكانتِ الآيات أدلَّةً قاطعة على هيمنته وعِلْمِه المُطلق، وحُسْنِ تدبيره، على الرَّغم من قلَّة الشُّكر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أصلٌ صحيح يدلُّ على تَسَتُّر الشَّيء عن العُيون، والغيب: ما غاب، ممّا لا يعلمه إلّا اللّه[1]، والغَيْبُ: مصدر غابَتِ الشَّمسُ وغيرُها؛ إذا استترت عن العين، واستُعمل في كلِّ غائِبٍ عن الحاسَّة، وعمّا يَغيبُ عن علم الإنسان، بمعنى الغائِبِ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٧٥﴾ [النّمل: 75]، ويقال للشَّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ما يغيب عنكم وما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).

تشهدونه، والغَيْب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، ما لا يقع تحت الحواسّ[1]، والمراد بالغيب في الآية: ما لا يعلمه إلّا الله.

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعِلْم وإعلام، ومن ذلك لفظ الشَّهادة، وهو يجمع الحضور والعِلْم والإعلام، يقال: شهد يشهد شهادة[2]، والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، لكنَّ الشُّهود بالحضور المجرَّد أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهادَةُ: قولٌ صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ما يغيب عن حواسِّ النّاس وبصائرهم، وما يشهدونه بهما[3].

3) ﴿نَسْلَهُۥ﴾: (نسل) أصل صحيح يدلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه، والنَّسْل: الولد؛ لأنَّه يُنْسَل من والدته، وتناسلوا: وُلِدَ بعضُهم من بعض[4]، والنَّسل: الخلق، والنَّسل: الذُّرّيَّة، والجمع أنسال، وكذلك النَّسيلة، وقَدْ نَسَلَ يَنْسُلُ نَسْلًا، وأَنْسَلَ وتناسلوا: أنسلَ بعضُهم بعضًا، وتناسل بنو فلان؛ إذا كَثُر أولادُهم، قال ابن برّي: يقال: نسل الوالدُ ولدَه نسلًا[5]، والمراد بالنَّسل في الآية الولد والذُّرّيَّة، أو الخلق.

4) ﴿سُلَٰلَةٍ﴾: (سلّ) أصلٌ يدلُّ على مَدِّ الشَّيء في رفق وخفاء، ثمَّ يُحمَل عليه[6]، والسَّلُّ: انتزاعُ الشَّيءِ وإخراجُهُ في رِفْقٍ، سَلَّهُ يَسُلُّهُ سَلًّا، واسْتَلَّهُ فانْسَلَّ[7]، والسُّلالة: ما سُلَّ من صُلْب الرَّجُل وتَرائب المرأة، كما يُسَلُّ الشَّيءُ سَلًّا، والسَّليلُ: الولد، سُمّي سَليلًا حين يَخرُج من بطن أُمِّه، والسُّلالة: الماءُ يُسَلُّ من الظَّهْرِ سلًّا، والسُّلالة: النُّطفة والولد[8].

5) ﴿مَّهِينٍ﴾: (مهن) أصلٌ صحيح يدلُّ على احتقار وحَقارةٍ في الشَّيء، منه قولهم: مهين، أي: حقير، والمهانة: الحقارة، وهو مهين بيِّن المَهانة[9]، والمَهين: المُستضعف، قال

(1) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلّ).
(7) ابن سيده، المحكم: (سلل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهن).

تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أرادَ الضَّعيف، وهُوَ فعيل من المهانة[1]، والمعنى المِحوريُّ: خُلُوُّ الشَّيءِ من مادَّة الغِلَظِ والشِّدَّة، فيكون ضعيفًا أو سَهْلًا[2].

6) ﴿سَوَّىٰهُ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامة واعتدال بين شيئين، يقال: هذا لا يساوي كذا، أي: لا يعادله، ويقال: أسوى الرَّجلُ؛ إذا كان خَلْقُه وولدُه سَويًّا[3]، وتسويةُ الشَّيء: جَعْلُه سواءً في الرِّفعة أو الصِّفة، والمعنى المِحوريُّ: استقامةُ ظاهرِ الشَّيء أو سطحه، لامتلاء غِئور وسَطِه، أي: إكمال نقصِ ذلك الغِئور[4].

7) ﴿وَنَفَخَ﴾: (نفخ) أصلٌ صحيح يدلُّ على انتفاخ وعُلُوٍّ، ومنه انتفخ الشَّيءُ انتفاخًا[5]، والنَّفْخُ: نَفْخُ الرّيحِ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [طه: 102]، ومنه نَفْخُ الرُّوح في النَّشأة الأُولى، قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29] يقال: انتفَخ بطْنُه، ومنه استُعيرَ: انتفَخَ النّهارُ؛ إذا ارتفع[6].

8) ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: (فأد) أصلٌ صحيح يدلُّ على حُمًّى وشِدَّةِ حرارة، من ذلك: فأدتُ اللَّحم: شويتُه، وهذا فئيدٌ، أي: مشويٌّ، والمَفأدُ: السَّفُّود، وممّا هو من قياس الباب الفؤادُ، سُمّي بذلك لحرارته[7]، والفُؤادُ كالقلب، لكن يقال: له فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّد، وجمع الفؤاد: أفئدةٌ[8]، وفَأَدْتُه فهو مَفْؤودٌ: أصبتُ فُؤادَهُ[9]، وفَأَدَه يَفْأَدُه فَأْدًا: أصابَ فُؤادَهُ، وفُئِدَ فَأْدًا: شَكا فُؤادَه، ورَجُلٌ مَفْؤُودٌ: جبانٌ[10]، وقيل: الفُؤادُ: وِعاءُ القلب، أو داخِلُه، أو غِشاؤُه، والقلبُ حَبَّتُه[11]، وقد وصف النَّبيُّ ﷺ الأفئدةَ بالرِّقَّةِ، والقُلُوبَ باللّين، فقال: «أتاكُم أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدةً، وألينُ قلوبًا»[12].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 251.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مهن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفخ).
(6) الرّاغب، المفردات: (نفخ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(8) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (فأد).
(10) ابن سيده، المحكم: (فأد).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (فأد).
(12) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4127)، ومسلم في صحيحه، برقم: (52).

المَعنى الإجْماليُّ:

تتناول الآياتُ القدرةَ المطلقة للّه ﷻ، فهو المُدبِّر لهذه الأمور، وهو العالم بجميع الأشياء، يعلم ما يغيب عن الأبصار، ممّا يجول في خَلَجاتِ النَّفس، وما لا تدركه العينُ المجرَّدة، ويعلم ما هو مشاهَدٌ تُعاينه الأبصار، مع عِزَّته ورحمته بعباده، ودليلُ العظَمة والرَّحمة أنْ خلق الأشياء مع الإتقان والإحكام، وبدأ خلْقَ آدمَ من طين، ثمَّ جعل ذُرّيَّة الإنسانِ يتناسلون من امتزاج نطفة الرَّجل بماء المرأة، فيتمُّ التَّوالدُ والتَّناسلُ وبقاءُ النَّوعِ الإنسانيِّ من خُلاصةٍ من ماء ضعيفٍ مُمْتَهنٍ، ثمَّ بعدَ خَلْقِهِ من تراب جعله سويًّا مستقيمًا، فقوَّم أعضاءَه، وعَدَّلها، وأتمَّها، ونفخ فيه الرّوحَ الَّتي هي من أمر اللّه، والَّتي لا يعرف حقيقتَها إنسانٌ، فبدأ يتحرَّك، وينمو، وأنعم عليه بالحواسِّ، فمنحه السَّمعَ والأبصارَ والعقول، ومع كلِّ ذلك؛ فإنَّكم - أيُّها النّاس - لا تقابلون هذه النِّعمَ بالعِرفان والوفاء، والشُّكرِ والامتنان، وإنَّما تشكرون ربَّكم قليلًا على هذه النِّعَمِ الَّتي رزقكم إيّاها، باستعمال تلك الحواسِّ في طاعته واتِّباع مرضاته.

تـجـلّي دلائــلِ عـظـمـة الـلـه تعالى في مراحل خـلـق الإنـسـان البديعة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصل ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ عمّا سبقها:

نُكْتَةُ الفَصلِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، هو كمالُ الاتِّصال؛ لتعلُّق هذه الصِّفات بموصوفٍ واحدٍ، هو اللّهُ ﷻ، ويمكن أن يكون الفصلُ للاستئناف البيانيِّ؛ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر: كيف يُدبِّر الأمرَ مِنَ السَّماء إلى الأرض؟ أو لماذا يُدبِّر الأمر؟ فكانت الإجابة: لأنَّه يعلم غيبَ السّماوات والأرض، ولعلَّ مِن أغراض الفصل التَّمهيدَ لاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يدلُّ على أمرين: **الأوَّل:** عظمةُ الخالق وكمالُه المطلق المتناهي، بما يدلُّ عليه اسمُ الإشارة، الَّذي يدلُّ على البعيد المُعَظَّم، **الثّاني**: ربطُ الكلام واتِّصالُه بوسيلة

أهـمّـيَّـة بـيـانِ الـكـمال المُطلق مـع الاخـتـصـار والإيـجـاز

من وسائل الرَّبط، والرّابط هنا اسمُ الإشارة، وقد أشار علماءُ العربيَّة إلى أنَّ اسم الإشارة من روابط الجُمَل[1]، مع ما فيه من اختصار منطقٍ، فبدلًا من القول: (ذلك الخالق، المدبِّر هو عالم الغيب)، فكان اسمُ الإشارة أخصرَ في الكلام، ودالًّا على المحذوف المفهوم من سياق الكلام.

بلاغةُ إعراب ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

ديمومةُ العِلْم واستمرارُه يُناسِب اسميَّة الجملة

اسم الإشارة مبتدأ، و﴿عَٰلِمُ﴾ هو الخبر، و﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ مضاف إليه، ثمَّ العاطف والمعطوف ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، إذًا الجملةُ هنا جملةٌ اسميَّة، اتَّكأت على المبتدأ والخبر، بما يعني ثباتَ العِلْم وديمومتَه واستمرارَه.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

بيانُ عظَمة الخالق وهيمنَتِه على الموجودات

جيء بالإشارة إلى اسم الجلالة بعدَ ما أُجريَ عليه من أوصاف التَّصرُّف بخلق الكائنات وتدبير أمورها؛ للتَّنبيه على أنَّ المشار إليه باسم الإشارة حقيقٌ بما يَرِد بعدَ اسم الإشارة من أجل تلك الصِّفات المتقدِّمة[2]، من كونه ربَّ العالمين، المُدبِّرَ، القادرَ، المُتحكِّمَ، وقد تستعمل العربُ الإشارةَ إلى البعيد الغائب مكانَ الإشارةِ إلى القريب الحاضر[3]، فيكون اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ دالًّا على اسم الإشارة (هذا)؛ للإيذان بعُلُوِّ شأنه وكونِه في الغاية القاصية من الفضل والشَّرف[4].

فائدةُ تعريفِ طَرَفي الإسناد:

بيانُ اختصاص الله ﷻ بالعِلْم الشّامل

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تعريفٌ لطرفَي الإسناد يُفيد الاختصاص[5]، فالتَّعريفُ واشٍ باختصاص الله تعالى بغيب السَّماوات والأرض، لا عالمَ لهما غيرُه، ففي التَّعريف فرطُ علمٍ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 647.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 214.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/ 39.
(4) القنوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 1/ 73.
(5) محمّد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 338.

بشؤون هَذي المخلوقات، من خالقٍ أحدٍ صَمَد، فكأنَّ التَّعريف هنا - إضافةً إلى الاختصاص - قُصِدَ به المبالغةُ في قَصْر المُسنَد على المُسنَد إليه، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿عَٰلِمُ﴾:

الإدراكُ التّامُّ بحقائق الأشياء وطبيعتها

اسم الفاعل ﴿عَٰلِمُ﴾ دالٌّ على ثبات العِلْم ودَيمومته؛ لأنَّ اسم الفاعل يدلُّ على تمكُّن الفعلِ مِنَ الفاعل، حتّى بات اسمًا له، إضافةً إلى أنَّ (العلم) إدراكُ الشَّيء بحقيقته، وهذا الإدراكُ ضربان، أحدهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيء، والثّاني: الحُكم على الشَّيء[1]، فكان العالِمُ الحَقُّ هو الله.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

حَصْرُ كلِّ ما خُلِقَ في لفظتَين جامِعتَين محيطٌ بالمعنى المتُوخَّى

نُكْتَةُ التَّعبير باللَّفظتين: أنَّ الله تعالى أراد بـ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ الآخرة، وبـ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الدُّنيا، وقيل: أراد بـ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما غاب عنِ المخلوقين، وبـ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما شُوهِد مِنَ الأشياء، فكأنَّه حصرَ بهذه الألفاظ جميعَ الأشياء[2].

نُكْتَةُ تقديم عِلم الغيب على الشَّهادة:

بيانُ كمالِ العِلم وأنَّ عِلم الله لا تَحُدُّه حُدود

قُدِّمَ العِلم بالغيب على الشَّهادة، في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّه أقوى وأشدُّ إنباءً عن كمال العِلْم[3]، ثمَّ كان هذا التَّقديمُ للإشارة إلى أنَّ عِلْم الله عِلْمٌ مُطلق، لا تَحُدُّه حدودٌ، فيستوي لديه القريبُ والبعيد، والظّاهرُ والخفيُّ؛ إذ لا قُرْبَ وبُعْد، ولا خفاءَ وظهور؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكون بالإضافة إلى العِلْم القاصرِ المحدود، الَّذي يتناول شيئًا، ويقصر عن شيء، أمّا العِلْمُ الكاملُ المطلق، فحقائقُ الأشياءِ كلُّها واقعةٌ في دائرة هذا العِلْم كحقيقةٍ واحدة[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 358.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 139.

(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.

نُكْتَةُ ترتيب ﴿عَٰلِمُ﴾، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

العِلمُ أصلُ كلِّ صفةٍ نبيلةٍ وخاصّيَّةٍ أصيلةٍ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وفيها الأخبار: ﴿عَٰلِمُ﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، حيثُ إنَّ العِلْمَ إحاطةٌ بما غاب عنِ الخَلْق وما حَضَر، ولمّا بيَّن سبحانه أنَّه عالِمٌ؛ ذكر أنَّه (عزيز) قادر على الانتقام مِنَ الكفرة، (رَحيمٌ) واسعُ الرَّحمة على البررة[1]، فكان العِلْمُ أصلَ كلِّ فعل صادر مِنَ اللّه ﷻ.

نُكْتَةُ تأخير ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وتقديم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾:

مناسبةُ الصِّفتَين للسّابق واللّاحق موفيَةٌ بالبيان السّامق

أخَّر تعالى صفة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، مع أنَّ رحمته سبقت غضبه؛ ليُوصله بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فالمناسبةُ حاصلة؛ بسبب قُرب المسافة بين الرَّحيم والمحسن، فبينهما لينٌ ولطف، فكان التَّقديم والتَّأخير، إضافةً إلى ما سبق فإنَّ لفظة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ تحمل معاني القوَّة والقهر، وهذا يناسب معنى العِلم.

حكمةُ التَّذييل بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

القدرة المطلقة مع إنذار الكفّار وتأنيس النَّبيِّ المختار

مناسبة وصفِه تعالى بـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، عقبَ ما تقدَّم من أنَّه خلق الخلقَ بمحض قدرته بدون مُعين، فالعزَّة - وهي الاستغناء عن الغير - ظاهرة، وأنَّه خلقهم على أحوالٍ فيها لطفٌ بهم، فهو رحيم بهم فيما خلقهم؛ إذ جعل أمورَ حياتهم ملائمةً لهم، فيها نعيم لهم، وجنَّبهم الآلام فيها، فهذا سبب الجمع بين صفتَي العزيز والرَّحيم هنا، على خلاف الغالب من ذكر الحكيم مع العزيز[2]، ثمَّ في اسمه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ تناغمٌ مع الإنذار والتَّهديد للمعاندين، وفيه تأنيس أيضًا للنَّبيِّ ﷺ[3]، فـ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ هو الَّذي لا يُغلَب، ولا يُقهر، فلا يَلويه أحدٌ عن عِلْمه، ولا عن مُراداته في كَوْنه، ومع عِزَّته فهو سبحانه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾[4].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 15/ 447.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.
(3) محمود سعد، العزف على أوتار الذكر، ص: 41.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11798.

دلالةُ المبالغة في لفظي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

ثباتُ الصِّفات مع الدَّعوة للطّاعة والإقلاعِ عن الذَّنب

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صفتان مشبَّهتان، جاءتا على صيغة (فَعيلٌ)؛ للمبالغة في تحقُّقِهما، ومِن سمات الصِّفة المشبَّهة الدِّلالةُ على الثَّبات والدَّيمومة، وشِدَّة اتِّصاف الصِّفة بصاحبها، وهذا كائن في الصِّفتين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فإنَّهما تُوجبان الخوفَ والرَّجاءَ اللَّذَين بهما لزومُ الطّاعات، والرَّغبةُ فيما علا مِنَ الدَّرجات[1]، أمّا ثباتُ الرَّحمةِ؛ فَلِلإقلاع عنِ الذُّنوب، والعودةِ للخالق البارئ.

علاقةُ قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ بما قبله:

الإحسانُ في كلِّ شيء دليلُ العظمة والكمال

في الآية الرّابعة بيَّن اللهُ ﷻ دليلَ الوحدانيَّة بآيات الآفاق بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، وأتمَّه بتوابعه ومكمِّلاته، وفي الآية التّالية ذَكَرَ الدّليلَ الدّالَّ على الوحدانيَّة من الأنفس بقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، يعني: أحسن كلَّ شيء ممّا ذكره، وبيَّن أنَّ الَّذي بين السَّموات والأرض خَلَّقُه.

دلالةُ الوجوه الإعرابيَّة للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾:

أثرُ السّياق في بيان الثَّبات والاعتراف بعظَمة الخالق

الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، يجوز فيه أن يكون خبرًا رابعًا، - الأوّل: ﴿عَٰلِمُ﴾، والثّاني والثّالث: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - ، أو نعتًا، أو خبرًا لمبتدأ مُضمَر، وأن يكون منصوبًا على المدح[2]، وهذه الأوجهُ النَّحويَّةُ، جعلتِ الاسمَ الموصولَ في سياق الجملة الاسميَّة الدّالَّةِ على الثَّبات والدَّيمومة، وجعلتْهُ كذلك في سياق الجملة الفعليَّة عند النَّصب على المدح، فالاسمُ الموصول في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به لفعل محذوف، تقديره: (أمدح)، وفيه اعترافٌ بعظَمة الخالق المحسن إلى عباده.

---

(1) الإسكافيّ، غرّة التّنزيل: 1/ 963.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 543.

بيانُ الارتقاء في الخَلْق مع التَّمهيد لذِكْر الصِّلة

دلالةُ الاسم الموصول وصلتِه:

استُعْمِلَ الاسمُ الموصول وصلتُه، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ للارتقاء في الاستدلال، وهو مشوب بامتنان على النّاس بأن أحسن خَلْقَهم، في جملة إحسان خَلْق كلِّ شيء[1]، إضافةً إلى أنَّ الاسم الموصول فيه تمهيدٌ للصِّلة بعدَه ﴿أَحۡسَنَ﴾، والماضي دالٌّ على ثبات الإحسان واستقراره، كما أنَّ في الفعل ﴿أَحۡسَنَ﴾ إرشادًا إلى أنَّه لا ينبغي لأحد أن يستقبح شيئًا من المخلوقات[2]، وقد يُضاف إلى ذلك التَّشويقُ؛ انتظارًا لذِكْر الصِّلة، فالاسم الموصول اسمٌ ناقص، فتنتظر النَّفسُ صلتَه وما تحويه من دلالات، فيصير النّاقصُ كاملًا بصلته الَّتي تُكْمِل معناه ومُرادَه، كما أنَّ في الاسم الموصول إشارةً إلى خطورة جملة الصِّلة، وكأنَّها أخصُّ العلامات[3].

بيانُ الحِكمة والمصلحة في حُسْن الخَلْق مع اتِّساع المعنى

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَحۡسَنَ﴾:

نُكْتَةُ التعبير بلفظ ﴿أَحۡسَنَ﴾، أنَّه ما مِن شيء خَلَقَهُ اللّه إلّا وهو مُرتَّب على ما اقتضته الحكمةُ، وأوجبته المصلحةُ، فجميعُ المخلوقاتِ حسنةٌ، وإن تفاوتت إلى حَسَنٍ وأحسن، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين: 4][4]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ الكلمةَ على وزن (أفعل)، وفيه اتِّساع في المعنى المُراد، فقد يدلُّ على الجَعْل، فيكون المعنى الأول: جعله حَسَنًا، والثّاني: أحكم كلَّ شيء، والثّالث: أحسنَه، ولم يتعلَّمه من أحد، كما يقال: فلانٌ يُحْسِن كذا، والرّابع: أنَّ المعنى ألهَمَ خَلْقَه كلَّ ما يحتاجون إليه، كأنَّه أعلمهم كلَّ ذلك وأحسنهم، والخامس: أحسن إلى كلِّ شيء خَلْقَه[5]، ويقال إضافةً إلى ذلك: إنَّ المراد بالحُسْن ليس مجرَّدَ حُسْنِ الصّورة، وإنَّما هو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 138.

(3) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللّغوية واللّمحات البيانيّة: 4/ 542.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 508.

(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 438.

الحُسْن الَّذي يتجلّى في إحكام الصُّنعة، ودقَّة التَّنسيق، وروعةِ التَّأليف، وتجاوبِ النَّغم، ووحدةِ الغاية، وإن اختلفت الاتِّجاهات، وتعدَّدت الأنغام: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك: 3][1].

حكمةُ التَّعبير بلفظة ﴿كُلَّ﴾:

بيانُ تساوي كلِّ الخلق في الإيجاد والحُسْن

لفظة ﴿كُلَّ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، أفادتِ العمومَ، والظّاهر أنَّه عموم الأفراد، أي: أعطى كلَّ شيءٍ مِنَ الأشياء الأمرَ الَّذي طلبَه بلسان استعدادِه، مِنَ الصّورة والشَّكلِ والمنفعةِ والمضرَّة، وغيرِ ذلك، أو الأمرَ اللّائق بما نيْطَ به مِنَ الخواصِّ والمنافع المطابقِ له، كما أعطى العينَ الهيئةَ الَّتي تُطابق الإبصار، والأُذنَ الشَّكل الَّذي يوافقُ الاستماع، وكذلك الأنفُ واليدُ والرِّجلُ واللِّسانُ، كلُّ واحدٍ منها مطابقٌ لما عُلِقَ به مِنَ المنفعة، غيرَ نابٍ عنه[2]، وذلك بيانٌ للقدرة المطلقة، والحِكمة العظيمة، من خلال عدمِ التَّفاوت فيما خُلِقَ.

دلالةُ تنكير لفظة ﴿شَيۡءٍ﴾:

إبرازُ اللَّفظ في السِّياق الكريم للعموم والتَّعظيم

دلَّ التَّنكير للَفظة ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾، على العموم؛ ليشملَ كلَّ مخلوقٍ، سواء أكان عاقلًا أم غير عاقل، صغيرًا أم كبيرًا؛ بيانًا للقُدرة المُطْلَقة، والهيمنة العظيمة على كلِّ مخلوق، وقد يُفيد التَّنكيرُ هنا التَّعظيمَ والتَّكريمَ، بقرينة صلةِ الموصول ﴿أَحۡسَنَ﴾، فكلُّ شيءٍ حسنٌ جميل، فناسبَ جمالُ الشَّيء خالقَ الشَّيء وتدبيرَه وإحسانَه.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿خَلَقَهُۥۖ﴾:

بيانُ ما في الخَلْق مِنَ الامتنان وخصوصًا في خَلْق الإنسان

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥۖ﴾ قراءتان، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿خَلۡقَهُۥۖ﴾ ساكن اللّام، فهو هنا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 504.

منصوب على البدليَّة، وقيل: منصوب على أنَّه مصدر منصوب لفعل محذوف، وهو مذهب سيبويه، ورجَّحه على بدل الاشتمال، بأنَّه أبلغُ في الامتنان؛ لأنَّه إذا قال: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ كان أبلغَ مِن (أَحۡسَنَ خَلۡقَ كلِّ شَيۡءٍ)؛ لأنَّه قد يَحۡسُن الخَلۡق، وهو المحاولة، ولا يكون الشَّيءُ في نفسه حسنًا، وإذا قال: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ اقتضى أنَّ كلَّ شيء خَلَقَه حَسنٌ، بمعنى أنَّه وضع كلَّ شيء في موضعه، وقرأ الباقون بتحريك اللّام[1]، ويجوز على قراءة التَّسكين أن يكون الفعل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ هنا معناه: أَلۡهَمَ، وأنَّ هذه الآية بمعنى قوله تعالى: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه: 50]، أي: أَلۡهَمَ[2]، ويجوز فتحها على الفعل الماضي، فيكون المعنى أحسنَ خَلۡقَ كلِّ شيء خَلَقَه[3]، ويتكامل المعنى القرآنيُّ من خلال القراءتَيۡن، فاللّه تعالى أحسن في كلِّ شيء خَلَقَهُ، ويَخۡلُقهُ، وفي كلِّ شيء مخلوقٍ من مخلوقاته.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾:

دلالـــــةُ التَّخصيص بعد التَّعميم للتكريم والتعظيم

الواو في قوله: ﴿وَبَدَأَ﴾ عاطفةٌ، وهو تخصيص بعد تعميم خلق الإنسان، وهو آدم عليه السلام، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي ذريته[4]، والتَّخصيصُ بعدَ التَّعميم دالٌّ على التَّفرُّد والتَّكريم، فهو ليس كلَّ المخلوقاتِ، وإنَّما هو خَلۡقٌ ممتازٌ عن غيره.

دلالة الفعل ﴿وَبَدَأَ﴾ في التَّركيب:

ارتباطُ علاماتِ التَّكريم والإبداع والسّيادة بالإنسان

للفعل ﴿وَبَدَأَ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ عِدَّةُ دلالاتٍ تُشير إلى الاهتمام والرِّعاية والاصطفاء، فالفعل بمعنى: أنشأ الأشياءَ، واخترعَها ابتداءً من غير مثال[5]، ثمَّ فيه معنى الإبداع،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 347، وابن عادل، اللّباب: 15/ 447، وهي قراءة: نافع وعاصم وحمزة والكسائيّ وخلف.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 327.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 347.

(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 346.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).

نقول: جاء بأمر بَديء، أي: عجيب، وبَديءُ مِن: بدأت، فالبَديء: هو الأمرُ البَديع، وفي البَدْءِ معاني السّيادةِ والسُّؤْدُد[1]، ولو خلا التَّركيب مِن الفعل ﴿وَبَدَأَ﴾؛ لفاتت هذه المعاني الملتصقة بالفعل.

دلالةُ التَّعبير بلفظة ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾:

غرضُ اللَّفظ إرادةُ الجِنس مع دلالة الاشتقاق

جاءت لفظةُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ مُعَرَّفةً بالألف واللّام، وهذا التَّعريفُ دالٌّ على الجنس، والجِنسُ يفيد الاستغراق، أي: كلُّ إنسان، وإن أُريدَ بالإنسان هنا الإنسانُ الأوَّلُ سيِّدُنا آدم[2] عليه السلام، ولعلَّ التَّعبيرَ بالإنسان دونَ آدمَ؛ لأنَّ جِنس الإنسان هو المقصود بالخطاب بهذا القرآن[3]، ثمَّ إنَّ لفظة الإنسان تقع على الواحد والجميع[4]، إضافةً إلى أنَّ لفظة ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ مأخوذة مِنَ النِّسيان[5]، فينسى مِنَنَ الإلهِ عليه، وهو خالقُهُ، فكان لفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هو الأنسب والأولَى.

دلالاتُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن طِينٖ﴾:

بيانُ بدء الخَلق والمَقدرة عليه وتعظيم المخلوق

دلَّت ﴿مِن﴾ الجارَّةُ في قوله: ﴿مِن طِينٖ﴾ على ابتداء الغاية[6]، فمعنى ذلك: أنَّ أوَّل الخَلْقِ كان مِنَ الطّين الذي جمع بينَ الماء والتُّراب، وفيه إلفاتٌ إلى وحْدَة من وحَدات هذا الخَلْق، وإشارةٌ إلى مواطن هذا الحُسْن منه، وهو خَلْق الإنسانِ من طين، ففي هذا الطّين - الَّذي قد تنبو عنه العين، ويتحاشاه النَّظر - حُسْنٌ رائعٌ، وجلالٌ مهيبٌ؛ إذا استطاع النّاظرُ أن ينفذ إلى ما وراء هذا الظّاهر الَّذي يراه، وأن يتجاوز هذه القِشرةَ السّوداءَ المُعْتِمَةَ مِنَ الطّين، فإنَّ وراء هذه القشرةِ عالمًا يَمُوجُ بألوانٍ زاخرةٍ زاهيةٍ مِنَ الحياة، فما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(4) ابن عادل، اللّباب: 14/ 176.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 215.

هذه الأناسيُّ الَّتي تتحرَّك على ظهر الأرض، وتملأُ الحياةَ حركةً وعُمْرانًا، إلّا بعضُ هذا الطِّين الَّذي نَمشي عليه، ونَنْطَلق فوقَه، فهذا الطِّين ليس في عين ذوي البصائِر طينًا جامِدًا، صامتًا، كئيبًا، وإنَّما هو الجَمالُ كلُّه، والحُسْنُ كلُّه، تفتَّقت عنه بقدرة العزيز الرَّحيم هذه الحياةُ المُتَدَفِّقَةُ، من إنسانٍ، وحيوانٍ، ونبات، فَبَدْءُ خَلْقِ الإنسانِ من طين، هو نقطةُ الابتداء الَّتي يَبدأ العقلُ مسيرتَه منها، إلى حيثُ يلتقي بالإنسان في أكمل صورته، وأعظم مواقفه، وعندئذٍ يرى كيفَ تدبيرُ الله، وقُدرَتُه[1]، فكان التَّنكيرُ هنا للتَّعظيم.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق المُحكم:

بيانُ عظمةِ التَّحويل مِن حالة لحالة

الأصل في ﴿ثُمَّ﴾ أنَّها تُفيد التَّراخي الرُّتْبيَّ والزَّمنيَّ، ولمّا كان قَلْبُ الطِّينِ إلى هذا الهيكل على هذه الصّورة بهذه المعاني أمرًا هائلًا؛ أشار إليه بأداة البُعد في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾[2]، و﴿ثُمَّ﴾ يتقارب معناها مع معنى الاسم المشتقِّ مِنَ الكلام، فهي حرف عطفٍ، ولفظُها كلفظة (الثَّمِّ)، وهو رَمُّ الشَّيء بعضه إلى بعض، والمعنى في ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة قريب من هذا؛ لأنَّه ضَمُّ شيءٍ إلى شيء بينهما مُهْلة[3]، فكان مناسبًا لوجود المُهْلة بينَ الخلق من طين، ثمَّ جعلِ نسلِه من سلالة، فالمعنيان المختصّان بـ﴿ثُمَّ﴾ قد اجتمعا هنا.

نُكْتَةُ التَّعبير بالجَعْل مع النَّسل:

عموميَّة لفظِ الجَعْل وتغيُّرُ أحوالِ الإنسان

لفظ ﴿جَعَلَ﴾ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ مِن (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائر أخواتهما[4]، وكثيرًا ما يأتي فعل الجَعْل بعد الخَلْق في القرآن الكريم - كما هو في هذه الآيات - للدّلالة على أنَّه ليس إيجادًا من عدمٍ على غير مثالٍ سابق كالخلق، بل هو تحويلٌ وتصييرٌ مِن حالة

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 609.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(3) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 124.
(4) الرّاغب، المفردات: (جعل).

إلى أخرى بعد تمام الخلق، فقد أشار في هذه الآيات إلى أنَّه أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأنَّه بدأ خلق آدمَ من طين، ثمَّ بعد ذلك جعل نسلَ آدمَ من سلالة من ماء مهين، فالجَعْلُ هنا هو تصييرٌ وتحويلٌ، بعد خلق أبي البشريَّة على غير مثالٍ سابقٍ.

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّسل، مادَّةً وصيغةً:

بيانُ الانفصال من الوالد مع الامتداد وعدمِ الانقطاع

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّسل في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾؛ لأنَّ النَّسل يعني الولد؛ لكونه ناسلًا من أبيه، منفصلًا عنه، ثمَّ في معنى النَّسل دلالةُ التَّوالد، يقال: تناسلوا، أي: توالدوا[1]، فسُمِّيت الذُّرِّيَّة نسلًا؛ لأنَّها تنسل منه، أي: تنفصل منه، وتخرج من صلبه[2]، وفي هذا دلالةٌ على الاستطالة والامتداد، وعدم الانقطاع، فالنَّسل امتدادُ الشَّيء خارجًا، أو متسيِّبًا من أصله أو مَقرِّه بلُطف ومفارقة[3].

نُكْتَةُ الإضافة في قوله: ﴿نَسۡلَهُۥ﴾:

شِدَّةُ اتِّصال الفرع بالأصل مع الرَّبط بالضَّمير

في الإضافة في قوله: ﴿نَسۡلَهُۥ﴾ نكاتٌ، أوَّلها: الإضافة دالَّةٌ على ربط آخر الكلام بأوَّله، فالحديث عن الإنسان، فلو كان التَّعبير (ثمَّ جعل النَّسل)؛ لما كان ثَمَّة ارتباطٌ بين اللَّفظتَين ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ و﴿نَسۡلَهُۥ﴾، فالضَّمير عاملٌ رئيس من عوامل الرَّبط في الجملة، وثانيها: الإضافة جعلت الارتباطَ وثيقًا بين الأصل وفرعه، فهما واحد، وإن تعدَّدت المراحلُ، وثالثها: أنَّ الإضافة بالهاء مهَّدت لكلِّ الضَّمائر الآتية بعدَه في ألفاظ ﴿سَوَّىٰهُ﴾، ﴿فِيهِ﴾، ﴿رُّوحِهِۦۖ﴾.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾:

بيان أنَّ جنس الإنسان يتلاءم مع ابتداء الغاية في الخَلْق

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن طِينٖ﴾ بيانيَّة، متعلِّقة بمحذوف، وهو صفة للسُّلالة، أي: خلقناه من سلالة كائنةٍ من طين[4]، وقيل: ﴿مِن

(1) الرّاغب، المفردات: (نسل).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 503.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نسل).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 565.

﴿سُلَٰلَةٍ﴾ يتعلّق بـ ﴿خَلَقَهُۥ﴾، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، أي: إنَّ بَدء الخَلْق من هذا الطّين(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، وتنكيرها:

الإشــــارة إلى الـبُـعـد عـن الكَدر والشَّقاء مـع الالـتـصـاق بـأحـوال خَـلْـق الإنسان

(السُّلالة) في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢﴾ على وزن (فُعالَة)، وهو بناء يدلُّ على القِلَّة، كالقُلامَة، وهي من سَلَلْتُ الشَّيءَ من الشَّيءِ، أي: استخرجْتهُ منه، ومنه قولهم: (هو سُلالة أبيهِ)، كأنَّه انسلَّ من ظهره، وفيها معنى البُعد عنِ الكدر والشَّقاء، فالسُّلالة الخُلاصةُ؛ لأنَّها تُسَلُّ من بين الكَدَر(2)، ودلالة التَّنكير واشيةٌ بعظَمة تلك السُّلالة، مع تمام الالتصاق بأحوال المخلوق.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾:

تلاحم معاني حرف المعنى في دلالته على المراد

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بيانٌ لسلالة، فالسُّلالة هي الماء المهين، هذا هو الظّاهر لمتعارف النّاس، ولكن في الآية إيماءٌ علميٌّ لم يدركه النّاسُ إلّا في هذا العصر، وهو أنَّ النُّطفة يتوقَّف تكوين الجنين عليها؛ لأنَّه يتكوَّن من ذرّات فيها، تختلط مع سُلالة من المرأة، وما زاد على ذلك يذهب فضلةً، فالسُّلالةُ الَّتي تنفرز من الماء المهين هي النَّسل، لا جميعُ الماءِ المهين، فتكون ﴿مِّن﴾ - في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ - للتَّبعيض أو للابتداء(3).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

احتمالُ معنى الجملة للحقيقة أو المجاز اتِّساعٌ في الدَّلالة

في وصف النُّطفة بأنَّها ماء مهين إشارةٌ إلى أنَّها شيء رخيصٌ مبتَذَلٌ، لا يَرَى فيها الإنسانُ شيئًا ذا بالٍ، فما هي إلّا ماءٌ مستَقْذَر، هكذا يبدو في ظاهر الأمر، ويمكن حمل المعنى على المجاز أو على الاستعارة، حيث شُبِّهَ الماء بالإنسان؛ لأنَّه أصل خِلْقَته، وأُسندت إليه

(1) ابن عادل، اللّباب: 14/ 176.
(2) ابن عادل، اللباب: 14/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.

صفةُ المهانة، وهي من صفات الإنسان، قال تعالى حكايةً على لسان فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزّخرف: 53]، ويمكن أن يكون مجازًا مرسلًا، باعتبار ما سيكون، ويمكن أن يكون ﴿مَّهِينٍ﴾ على وزن فعيل مِن المِهنة، وهي الخدمة، يقال: مَهَنَ القومَ يمهَنُهُم مهنةً؛ إذا خَدَمَهم[1]، وقد يقال: إنَّ الغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبارُ بنظام التَّكوين؛ إذ جعل اللّهُ تكوينَ هذا الجنس المكتمِلِ التَّركيب، العجيبِ الآثارِ من نوع ماء مهراق، لا يُعْبَأُ به، ولا يُصان[2].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ والفعل ﴿سَوَّىٰهُ﴾:

إفـادةُ السّياقِ العنايةَ بالمخلوق وهيئته في كلِّ مراحل الخَلْق

أشار التَّعبيرُ بالفعل (سوّى) في قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ إلى عظَمة ما بعدَ ذلك من خَلْقِهِ وتطويره، فالتَّسوية تعديلٌ يُراد منه التَّخطيطُ والتَّصوير، وإبداعُ المعاني[3]، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، فتكون التَّسويةُ بعد جَعْلِ النَّسلِ من سلالة، وذلك بعد خلق آدم[4].

عودُ ضميرِ المفعول في ﴿سَوَّىٰهُ﴾:

تجميلُ الأصل والفرع ذو أثر في الدِّلالة مكين

الضَّمير في قوله: ﴿سَوَّىٰهُ﴾ قد يكون المقصود به آدم، وقد يكون لنسله[5]، فالاتِّحاد قائمٌ بينَ الأصل والفرع، بحيثُ إنَّهما لا ينفصلان، فالأصل قد سُوِّي، وكذا الفرع، بحيثُ صارا في الجمال والتَّسوية سواءً بسواء، وقد يقال: الضَّمير المنصوب في ﴿سَوَّىٰهُ﴾ عائد إلى نسله؛ لأنَّه أقرب مذكور، ولأنَّه ظاهر العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾، وإن كان آدمُ قد سُوِّي، ونُفِخَ فيه من الرّوح، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 72][6].

(1) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 7/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 244.
(4) ابن عادل، اللّباب: 15/ 478.
(5) الإيجيّ، تفسير الإيجيّ جامع البيان: 3/ 328.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.

شـدَّةُ الاتِّصال بينَ الأب وذريَّته مظهرٌ للاستمرار والتَّعاقب

بلاغةُ الاستخدامِ في ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾:

قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ الآية، فيه أسلوب الاستخدام، وهو أن يُؤتى بلفظ له معنيان فأكثر، مُرادًا به أحدُ معانيه، ثمَّ يُؤتى بضميره مُرادًا به المعنى الآخر، أو يُراد بأحد ضميريه أحدُ المعنيين، ثمَّ يرادُ بالضَّمير الآخر معناه الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۞﴾ [المؤمنون: 12]، فإنَّ المُراد به آدمُ عليه السلام، ثمَّ أعاد الضَّمير عليه، مُرادًا به ولدُه، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۞﴾ [المؤمنون: 13][1]، وهذا يشبه ما نحن فيه، فالاسم هنا: (خَلْقَ الإنْسانِ)، ثمَّ أعاد الضَّمير على نسله وذريَّته، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾، والغرض الإلفات إلى شِدَّة اللُّصوق بين الأب الأوَّل وذُرّيَّته، لدرجةٍ جعلتِ الاسمَ والضَّمير كأنَّهما شيءٌ واحد.

دلالـةُ الفعل عـلى التَّـمـيُّـز وصـلاحـيَّـتـه للتَّكليفات

بلاغةُ قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾:

في توظيف الفعل ﴿وَنَفَخَ﴾ تمثيلٌ لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادَّة القابلة لها، وليس هناك نافخ ولا منفوخ، وقد يقال: إنَّ هذه النَّفخةَ الإلَهيَّةَ هي سِرُّ تميُّز الإنسان عن سائر مخلوقات الله في الأرض، وهي الَّتي أهَّلَتْهُ لإسجاد الملائكة له، ولاصطفاء الله بعضَ البشرِ للوحي والنُّبوَّة والعِلْم، بل هي المؤهَّلة لهم، لكلِّ ما يتجلّى به سبحانه عليهم، ويَخصُّهم به من مخاطبةٍ وتكليفات ومحاورات، ولولا تلك النَّفخةُ الإلهيَّة ما كان البشر أهلًا لشيء من ذلك كلِّه[2]، وقد يقال: إنَّ الدِّلالةَ الاشتقاقيَّة للفعل فيها معنى العُلُوِّ والرِّفعة، فإنَّه يقال: انتفخ النَّهار؛ إذا عَلا[3]، ويؤكِّد التَّكريمَ الظَّرفُ ﴿فِيهِ﴾

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 104.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفخ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفخ).

الدّالُّ على الاحتواء والوعاء[1]، فصار الإنسانُ وعاءً لهذا النَّفخ، وصارت النَّفخةُ محيطةً الإنسانَ من جميع جوانبه؛ لأنَّ الظَّرفيَّة تمكُّنٌ واستقرار.

نُكْتَةُ إضافةِ الرّوح إلى ضمير الجلالة:

إضافةُ الرّوح إلى بارئها رمزٌ للتَّشريف والتَّكريم

الإضافةُ في قوله: ﴿مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتكريم، كبيت اللّه، وناقةِ اللّه[2]، والمضاف يكتسب قيمتَه مِنَ المضاف إليه، فعظَمة الضَّميرِ العائد إلى اللّه، عظَّمَ المضاف (روح)، وقد تكون نُكْتَةُ الإضافةِ قائمةً في الإيماء إلى أنَّ له شأنًا ومناسبةً ما إلى حضرة الرُّبوبيَّة[3]، وقد يقال: إضافة الرّوح إلى ضمير الجلالة؛ للتَّنويه بذلك السِّرِّ العجيب الَّذي لا يعلم تكوينَه إلّا هو تعالى، فالإضافة تُفيد أنَّه مِن أشدِّ المخلوقات اختصاصًا باللّه تعالى، وإلّا فالمخلوقات كلُّها للّه[4]، فهي إضافَةُ مُلْكٍ إلى مالِكٍ، وخَلْقٍ إلى خالِقٍ[5].

معنى الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾:

مطلقُ الجمع في السّياق مفيدٌ تعديدَ النِّعم

الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ لمطلق الجَمْع، وهي تُفيد مع معطوفها بيانَ تعديدِ النِّعم الَّتي أنعمها اللّهُ على الإنسان، مِن خَلْقٍ وتسوية، وجَعْلٍ للأعضاء الَّتي يحيا مِن خلالها.

سِرُّ التَّعبير بالجَعْل دون الخَلْق:

عموميَّةُ الجَعْل مفيدةٌ للمُراد المُستفاد

الجَعْلُ أعمُّ مِنَ الخَلْق والصُّنع[6]، ومِن ثَمَّ فكلُّ جَعْلٍ خَلْقٌ، وليس كلُّ خَلْقٍ جَعْلًا، فكان الجَعْلُ أعمَّ وأشملَ، إضافةً إلى أنَّ الخَلْق إنشاءٌ وإيجاد، أمّا الجَعْلُ؛ فإنشاءٌ وإبداع، ففيه أيضًا عموم، فكأنَّ الجَعْلَ خَلْقٌ وزيادة.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226.
(2) الخازن، لباب التّنزيل: 3/ 403.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 388، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 121.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 216.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 433.
(6) الرّاغب، المفردات: (جعل).

بلاغةُ الالتفاتِ من ضمائر الغَيْبة إلى الخطاب:

إفادةُ السّياق إبرازَ عظمةِ النِّعم والتَّوبيخ على قِلَّة الشُّكر

عدلتِ الآيةُ الكريمة من الغيبة إلى الخطاب، في قوله: ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾؛ تنبيهًا على جَسامَة نِعَم هذه الجوارحِ، وتوبيخًا على قِلَّة الشُّكر عليها(1)، ثمَّ في المخاطبة تكريمٌ وعناية وحفل، فمِثْلُكم يستحِقُّ أن يُخاطَب، ويُمْتَنَّ عليه بالنِّعَم، ويُضاف إلى ذلك: أنَّ الخطاب يكون مع الحيِّ، فلمّا قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ خاطَبَهُ من بَعْدُ، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾(2).

معنى اللّام في ﴿لَكُمُ﴾، وفائدةُ مجيئها:

بيانُ العنايةِ وقَصْرُ الاهتمامِ على كلِّ مراحل التَّكوين

اللّام في ﴿لَكُمُ﴾ دالَّةٌ على التَّخصيص، فالإنسانُ هو المقصود بهذا الجَعْل وهذا الاختصاصِ؛ كي تكتملَ هيئَتُه الحسنة الطَّيِّبة، وفيه كافُ الخِطاب التي تُشير إلى كرامة الإنسان، وأنَّه أهلٌ لخطاب اللّه تعالى، فاستحقَّ كافَ الخطاب مع التَّخصيص؛ عنايةً بكلِّ مرحلة من مراحل التَّكوين، وإحسانًا لهذا المخلوق الَّذي يُصْنَع على عين اللّه.

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ على المفاعيل:

الاهتمامُ بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر مفيدٌ في الإبانة

نُكْتَةُ تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعولِ الصَّريح، أساسُها الاهتمامُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ إلى المُؤخَّر، مع ما فيه من نوع طُولٍ يُخِلُّ تقديمُه بجزالةِ النَّظم الكريم، أي: خلق لمنفعتكم تلك المشاعرَ؛ لتعرفوا أنَّها نِعَمٌ جليلةٌ(3)، وقد يُضاف إلى ذلك: أنَّ السِّرَّ هنا التَّعجيلُ بالبشارة والنِّعمة؛ جلبًا للمَسرَّة والشُّكر.

نُكْتَةُ إفرادِ السَّمع دون الأبصار والأفئدة:

توحُّد قوَّة السَّمع لورود لفظِها مصدرًا

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، ذَكَر في السَّمع المصدرَ، وفي البصر والفؤاد الاسمَ، ولهذا جمعَ الأبصار

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 436.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 141.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.

والأفئدة، ولم يجمع السَّمع؛ لأنَّ المَصدر لا يُجمَع، وذلك لحكمة، وهو أنَّ السَّمع قوَّةٌ واحدة، ولها فعلٌ واحد، فإنَّ الإنسان لا يَضْبِط في زمانٍ واحد كلامين، والأذن محلُّه، ولا اختيارَ لها فيه، فإنَّ الصَّوت من أيِّ جانب كان يصل إليه، ولا قدرةَ لها على تخصيص القوَّةِ بإدراك بعضٍ دونَ بعض، وأمّا الإبصارُ؛ فمَحلُّه العينُ، ولها فيه شِبهُ اختيار، فإنَّها تتحرَّك إلى جانب مرئيٍّ دون آخر، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراك، وله نوعُ اختيار، يلتفت إلى ما يريد دونَ غيرِه، وإذا كان كذلك، فلم يكن للمَحلِّ في السَّمع تأثير، والقوَّةُ مستبدَّة، فذكر القوَّةَ في الأُذن، وفي العين والفؤاد للمَحلِّ نوعُ اختيارٍ، فذَكَر المَحلَّ؛ لأنَّ الفعل يُسنَد إلى المختار، ألا ترى أنَّك تقول: سمع زيد، ورأى عمرو، ولا تقول سمع أذن زيد، ولا رأى عين عمرو، إلّا نادرًا؛ لما بيَّنّا أنَّ المختار هو الأصل، وغيره آلته، فالسَّمعُ أصل دونَ محلِّهِ لعدم الاختيار له، والعين كالأصل، وقوَّةُ الإبصار آلتها، والفؤاد كذلك، وقوَّةُ الفهم آلته، فذكر في السَّمع المصدرَ الَّذي هو القوَّة، وفي الأبصار والأفئدة الاسمَ الَّذي هو محلُّ القوَّة، ولأنَّ السَّمع له قوَّة واحدة، ولها فعل واحد، ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما، ويدركُ في زمان واحد صورتين وأكثر، ويستبينهما[1]، وممّا قيل في سِرّ إفراد السَّمع ما نقله رشيد رضا عن شيخه محمَّد عبده، فقال: "وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والإفراد رأيًا آخر؛ إذ لو صحَّ ما قيل: فإنَّ البصر أيضًا مصدر، فلماذا جمعه؟ والذي أراه: أنَّ العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات، فليس النّاسُ فيه سواء، فجُمِع لاختلاف النّاس فيه، وأنواعِ تصرُّفهم في وجوهه بخلاف السَّمع، فإنَّ أسماع النّاس تتساوى في إدراك المسموعات، فلا تتشعَّب تشعُّبَ العقول في إدراك المعقولات، وأمّا الأبصار؛ فهي مثلُ العقولِ في التَّشعُّب، وأعظم مُعين للعقول في إدراكها؛ لأنَّ أنواع المبصرات كثيرةٌ، فتُعطي للعقل موادَ كثيرة، والسَّمع لا يُدرِكُ إلّا الصَّوت"[2].

نُكْتَةُ التَّقديمِ والتَّأخير بين وسائل الإدراك:

نُكْتَةُ التَّقديم والتَّأخير في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، هو التَّرتيب على مقتضى الحكمة؛ وذلك لأنَّ الإنسان يسمع أوَّلًا مِنَ الأبوين أو النّاس أمورًا، فيفهمُها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.

(2) رضا، تفسير المنار: 1/ 121.

ترتيب الموجودات في الإنسان دقَّةٌ في تحديد وظائفها

ثمَّ يحصل له بسبب ذلك بصيرةٌ، فيبصرُ الأمورَ، ويُجريها، ثمَّ يحصل له بسبب ذلك إدراكٌ تامٌّ وذهنٌ كامل، فيستخرج الأشياء من قِبَله، ومثاله: شخص يسمع من أستاذ شيئًا، ثمَّ يصير له أهليَّةُ مطالعةِ الكتب، وفهْمِ معانيها، ثمَّ يصير له أهليَّةُ التَّصنيف، فيكتبُ من قلبه كتابًا، فكذلك الإنسانُ يسمعُ، ثمَّ يُطالع صحائفَ الموجودات، ثمَّ يعلمُ الأمورَ الخفيَّة[1].

نُكْتَةُ الاقتصارِ على هذه النِّعم دونَ غيرها:

بهذه النِّعم يُدرَكُ الحقُّ ويُتوصَّل للهُدى

غرضُ الخَلْق هو الوصول للحَقِّ وإدراكِه، وبالسَّمع والبصر والفؤاد، تتمُّ هذه العمليَّة، فالغرضُ الرَّئيس هنا إدراكُ الحقِّ والهُدى[2]، فلذلك خُصَّت هذه النِّعمُ بالذِّكر دونَ غيرها، فضلًا عن كون هذه النِّعم الثَّلاثة هي نوافذُ المعرفةِ بالنِّسبة للإنسان.

نُكْتَةُ العدولِ عن أسماء الفاعلين:

بيانُ المِنَّة بالحواسِّ مع دلالة الرَّوعة والجلال فيما أُعطي للنّاس

العدول عن أن يقال: (وجعلكم سامعين مبصرين عالمين)، إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾؛ لأنَّ ذلك أعرقُ في الفصاحة، ولما تُؤْذِن به اللّام من زيادة المِنَّة في هذا الجَعْل؛ إذ كان جَعْلًا لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس مِنَ السَّمع والأبصار والأفئدة بفعل الجَعْل مِنَ الرَّوعة والجلال في تمكُّن التَّصرُّف، ولأنَّ كلمة (الأفئدة) أجمعُ من كلمة (عاقلين)، فالفؤادُ يشمل الحواسَّ الباطنة كلَّها، والعقلُ بعضٌ منها[3].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

بيانُ أنَّ التَّرتيبَ يُراعَى لرعاية ترتيبِ حصولها في واقع الوجود

بين آيتي السَّجدة والبقرة تشابهٌ لفظيٌّ، ففي السَّجدة قُدِّم السَّمعُ والأبصارُ على الأفئدة، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾، عكس آية البقرة، حيثُ قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 141.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 217.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]؛ لأنَّه روعيَ في آية السَّجدة ترتيبُ حصولِها في الوجود، فإنَّه تُكتَسب المسموعاتُ والمبصرات قبلَ اكتساب التَّعقُّل[1]، وهذا ما لم يكن مُراعًى في سورة البقرة، حيثُ بدأ بالقلوب الَّتي هي الأنسب لما بدأ فيه السّياق: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [البقرة: 10].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾:

بيانُ حالِ قُبْحِ الكفّار وقصورِهم عن شُكرِ المنعمِ الغفّار

تذييل الآية الكريمة بقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ وذلك لبيان قُبح هؤلاء الَّذين لا يشكرون، أو يشكرون قليلًا، وفي تقديم اللَّفظة مع فصلها عمّا سبق إشارةٌ إلى قصورهم وجَحدهِم ناحيةَ نِعَمِ اللّه.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿قَلِيلٗا﴾، بينَ الحقيقة والكناية:

قِلَّةُ الشُّكرِ وعدمُه سواء وهو داءٌ ما له دواء

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾، لفظة ﴿قَلِيلٗا﴾ في النَّظم القرآنيِّ اسمُ فاعل منتصبٍ على الحال من ضمير ﴿لَكُمُ﴾، و﴿مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ في تأويل مصدر، وهو مرتفعٌ على الفاعليَّة بـ ﴿قَلِيلٗا﴾، أي: أنعم عليكم بهذه النِّعَم الجليلة، وحالكم قِلَّةُ الشُّكر، ثمَّ يجوز أن يكون ﴿قَلِيلٗا﴾ مستعملًا في حقيقته، وهي كون الشَّيء حاصلًا، ولكنَّه غيرُ كثير، ويجوز أن يكون كنايةً عنِ العدم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النّساء: 46]، وعلى الوجهين يحصل التَّوبيخ؛ لأنَّ النِّعم المستحقَّة للشُّكر وافرةٌ دائمة، فالتَّقصير في شكرها وعدمِ الشُّكر سواء.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَلِيلٗا﴾:

بيانُ أنَّ قلَّةَ الشُّكرِ هي ديدَن أهلِ الكفر

التَّنكير للفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ للتَّقليل، وهو بيانٌ لكفرهم بتلك النِّعم بطريق الاعتراض التَّذييليِّ، على أنَّ القِلَّة بمعنى النَّفي، كما يُنبئ عنه ما بعدَه، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون[2]، وفيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 217.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 81.

تحذيرٌ للمُخاطَبين على سوء تصرُّفهم وفعلِهم القبيح، بترك الشُّكر على النِّعم.

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَشۡكُرُونَ﴾:

تمكين معنى قلَّة شكرهم لبيان المراد مِنَ السّياق

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ مصدريَّةٌ، والتَّقدير: قليلٌ شكرُكُم، وهي مؤكِّدة للقِلَّة، أي: شكرًا قليلًا، أو في زمان قليل تشكرون ربَّ هذه النِّعم فتوحِّدونه، وتعبدونه[1]، فالتَّوكيدُ تمكينٌ لمعنى عدم الشُّكر، وإزالةُ ما يعتري السّامعَ مِن شَكٍّ في وجود الشُّكر، وقد تكون ﴿مَّا﴾ بمعنى (الَّذي)، فكأنَّه قال: (فقليل الَّذي تشكرون)[2]، فلا تُعَدُّ زائدةً في الكلام.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ كثرةِ نِعَمِ اللهِ وآلائه ولزومُ الشُّكر

في الشُّكر امتلاءٌ بالنِّعم، وقد جاء الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾؛ لأنَّ اللهَ أحسن كلَّ شيءٍ في الإنسان، بَدءًا من خلقه وتسويته وتصويره وإبداعه، فوجب الشُّكرُ على المَرء لكمال صنع اللهِ، وبيان فضل اللهِ على النّاس بالإيجاد، وفي التَّعبير بالمضارع دلالةٌ على أهميَّة الاستمرار في الشُّكر ودوامِه، واستحضارُ صورتِه دومًا؛ اعترافًا بالفضل والآلاء الَّتي أسبغها اللهُ على البشر ظاهرًا وباطنًا، ثمَّ إنَّ العمدة في الشُّكر صرفُ تلك القوى - الَّتي هي في أنفسها نِعَمٌ باهرة - إلى ما خُلقت هي له[3]، وقد يكون في التَّعبير إشارةٌ إلى كفرهم، كأنَّ قِلَّة الشُّكر مفضيةٌ إلى كثرة الكفر وتمكُّنِه.

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

بيانُ العموميَّة والعجز عن إحصاء نِعَم الله

لحذف مفعول ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ نُكتٌ: أوَّلها: التَّعميم، ليَعُمَّ شكرُ اللهِ، أو تشكرون النِّعمَ، أو غيرَ ذلك، ثانيها: رعايةُ الفاصلة القرآنيَّة، فالفاصلة قائمة على حرف النّون السّاكِن ما قبلَها (﴿طِينٍ﴾،

---

(1) المظهري، التّفسير المظهري: 7/ 269.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 35.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 257.

﴿مَّهِينٍ﴾، ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، ﴿كَٰفِرُونَ﴾)، فلو ذُكِرَ المفعولُ؛ لما روعيت الفاصلة، وثالثها: كثرةُ النِّعم الَّتي أسبغها اللّه على العباد، فلِعدم إمكانيَّة العباد عدَّها وحصرها؛ جاء حذف المفعول، رابعها: في الحذف إشارةٌ إلى أهمّيَّة جَعْل الشُّكرِ عادةً وعبادة، حتّى وإن لم يُعْطَ الإنسانُ ما يريده، بدليل حذف المتعلِّق (لي)، فعدمُ تخصيص المشكور دالٌّ على أنَّ الشُّكر يجب أن يكون طبيعةً في الإنسان، بحيثُ لا تخلو ساعةٌ من شُكر.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْق والجَعْل:

في الجَعْل معاني التَّصيير والتَّضمين

الخَلْقُ فيه معنى التَّقدير، والجَعْل فيه معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، ويؤيِّده أنَّ (جَعَلَ)، لم يصحب السَّموات والأرض، وإنَّما لزمتها (خَلَقَ)، وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السَّموات والأرض، والجعل إلى الظُّلمات والنّور مصداق للمميَّز بينهما[1]، وقد يقال: (جعل) أعمُّ من خلق؛ لأنَّه لا يقال فيما ليس بمخلوق، و(الخلق) لا يقال فيما ليس بموجود[2]، وقيل: (الخلق) في القرآن - في كلِّ موضع ورد فيه - هو الإيجاد، إيجاد غيرِ الموجود، وإظهاره للوجود، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [التّغابن: 3]، فالخَلْق: هو الإيجاد من عدم، وهو ممّا انفرد بهِ اللّهُ ﷻ، ولهذا كان من صفاته الكريمة: الخالق، أمّا (الجعل)؛ فهو إضافةٌ تلحق المخلوقَ، وتكشف عن صفته، وتُبرز طبيعتَه، وهو توجيه الخالق للمخلوق،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف مع حاشية الانتصاف لابن المنيّر: 2/ 3، وقد نقله بنصّه كثيرٌ من المفسّرين كالرّازي وأبي حيّان.
(2) الشّهاب، حاشية الشّهاب على البيضاوي: 4/ 5.

ليُعْطَى وظيفته، ويُحَقِّق وجوده، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: 7]، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: 9 - 11]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السّجدة: 24][1]، وقيل: الخَلْق يكون عن عدم سابق، حيثُ لا تتقدَّمُ مادَّةٌ ولا سببٌ محسوس، والجَعْل يتوقَّف على موجود مغاير للمَجعول، يكون منه المجعول أو عنه، كالمادَّة والسَّبب[2].

النَّسْلُ والذُّرِّيَّة:

الذُّرِّيَّة أعمُّ مِنَ النَّسل وكلاهما مفردة قرآنيَّة وجيهة

النَّسل: يعني الولد؛ لكونه ناسلًا من أبيه، منفصلًا عنه، ثمَّ في معنى النَّسل دلالةُ التَّوالد، يقال: تناسلوا، أي: توالدوا[3]، فسُمّيت الذُّرّيَّة نسلًا؛ لأنَّها تَنْسُل منه، أي: تنفصل منه، وتخرج مِن صلبه[4]، وفي هذا دلالةٌ على الاستطالة والامتداد، وعدم الانقطاع، فالنَّسلُ امتدادُ الشَّيء خارجًا أو متسيِّبًا مِن أصله أو مَقَرِّه بلطف ومفارقة[5].

أمّا الذُّرّيَّة؛ فنَسْلُ الرَّجل، على وزن (فُعّولة)، من ذَرَوت أو ذَرَيت، لكنَّ فيها معانيَ إضافيَّة، فقد تكون مِنَ الذَّرْء، بمعنى الخَلق، أو مِنَ الذَّرِّ، بمعنى التَّفريق[6]، وفي الذُّرّيَّة معنى التَّكثير، تقول: ذَرأ الشَّيء، أي: كثَّره[7].

التَّسوية والتَّصوير:

بينهما في الدّلالة عمومٌ وخصوصٌ

التَّصوير ضربان: أحدهما: محسوس يدركه الخاصَّة والعامَّة، بل يدركه الإنسان بالمعاينة، والثّاني: معقول يدركه الخاصَّة دون العامَّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسانُ بها من العقل، والرّويَّة، والمعاني

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/ 123.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 129.
(3) الرّاغب، المفردات: (نسل).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 503.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نسل).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 156.
(7) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (الذرية).

الَّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصُّورَتَيْن أشار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64][1].

أمّا التَّسويَةُ؛ فجَعْلُ الأعضاء سويَّة سليمة، معدَّة لمنافعها، وهي في الأصل: جَعْلُ الأشياء على سواء، فتكون على وفق الحِكمة ومقتضاها، بإعطائها ما تتمُّ به.

وكأنَّ التَّسويَةَ جزء من التَّصوير، فالتَّصوير عامٌّ، يدلُّ على الهيئة الخارجيَّة، وهذا تسوية أيضًا، ويزيد التَّصوير في كونه دالًّا على العقل والرّويَّة، وهذا ما ليس في التَّسويَةِ.

الفؤاد والقلب:

الفؤاد غشاء القلب وهو مجموع العضوِ الأشرف في الجسم

لم يفرِّق أهلُ اللُّغة بين الفؤاد والقلب، بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر، وقيل: الأفئدة توصف بالرِّقة، والقلوب باللّين؛ لأنَّ الفؤاد غشاءُ القلب، إذا رقَّ؛ نفذ القولُ فيه، وخَلَص إلى ما وراءَه، وإذا غَلُظَ؛ تعذَّر وصولُه إلى داخله، وإذا صادف القلبُ شيئًا؛ عَلِق به إذا كان ليِّنًا[2]، وقيل: القلب هو العَلَقة السَّوداء في جوف الفؤاد، دون ما يكتنفها من اللَّحم والشَّحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد، ومنهم مَن قال: القلبُ والفؤادُ لفظان مترادفان، وكيف كان؛ فيجب أن يُعْلَم أنَّ من جملة العضو المسمَّى قلبًا وفؤادًا موضعًا، هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأنَّ معظم جِرْم هذا العضو مسخَّر لذلك الموضع، كما أنَّ سائر الأعضاء مسخَّرة للقلب، فإنَّ العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه، أعني: العقل والفرح والحزن، وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيُشبه أن يكون اسمُ القلب اسمًا للأجزاء الَّتي تحلُّ فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسمًا لمجموع العضو[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 433.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 532.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠﴾ [السّجدة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيَة دليلٌ على سابقتها وهي تحوي ذِكْرَ الأصول الثَّلاثة

جاءت هذه الآية دليلًا على ما سبقها، فإنَّه لمّا قال: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ بيَّن عدمَ شُكرِهم بإتيانهم بضِدِّه، وهو الكفر، وإنكارِ قُدرته على إحياء الموتى، والحقُّ كلَّما ذكر أصلين من الأصول الثَّلاثة، لم يترك الأصل الثّالث، فإنَّه لمّا ذكر الرِّسالة بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ ذكر الوحدانيَّة بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾، وذكر الأصل الثّالث، وهو الحشر، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَلۡنَا﴾: (ضلّ) أصل صحيح يدلُّ على ضياع الشَّيء وذهابه في غير حَقِّه، يقال: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضُلُّ لغتان، وكلُّ جائرٍ عن القصد ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ بمعنًى، ورجلٌ ضِلّيل ومُضَلَّلٌ؛ إذا كان صاحبَ ضلالٍ وباطل[2]، وضلَّ الرَّجلُ الطَّريق، وضَلَّ عنه، أي: زَلَّ عنه، فلم يهتدِ إليه؛ فهو ضالٌّ[3]، والضَّلالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [يونس: 108]، ويقال: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عنِ المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، فإنَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (ضلل).

الطَّريق المستقيم الَّذي هو المرتضى صعب جدًّا، وقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كناية عن الموت واستحالة البدن[1].

2) ﴿خَلْقٍ﴾: (خلق) أصل يدلُّ على تقدير الشَّيء، ومنه قولهم: خلقتُ الأديمَ للسَّقاء؛ إذا قدّرته[2]، والخَلْقُ أصله: التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمل في إيجاد الشَّيء مِنَ الشَّيء، نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النّحل: 4]، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ [المؤمنون: 12]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [الرّحمن: 15]، وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى[3]، والمعنى المِحوريُّ: تهيئة مادَّةٍ غُفْلٍ؛ لتكون شيئًا مُعَيَّنًا مُرادًا[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

استبعادُ المكذِّبينَ الجزاءَ والحساب؛ لإنكارهمُ البعثَ ولقاءَ الله

في الآية الكريمة يتبيَّن أنَّ المكذِّبين يستبعدون التَّفرُّق والغياب في باطن الأرض؛ لذا قالوا مستفهمين مُنكرين: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾، أي: لمبعوثون بعثًا جديدًا، بزعمهم أنَّ هذا من أبعد الأشياء؛ وذلك لقياسهم قدرةَ الخالقِ بقدراتهم، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنَّما هو ظُلْمٌ وعِناد، وكفرٌ بلقاء ربِّهم وجَحْدٌ، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾:

التَّعجيب من حال الكفّار وبيانُ موقفِهم

الواو في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ حاليَّة، والحال للتَّعجيب

(1) الرّاغب، المفردات: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلق).

منهم، كيف أحالوا إعادةَ الخَلْق، وهم يعلمون النَّشأة الأولى، وليستِ الإعادة بأعجبَ من بَدء الخَلْق، وخاصَّةً بدءَ خَلْق آدمَ عن عدم، وخلوُّ الجملةِ الماضويَّة عن حرف (قد)، لا يقدح في كونها حالًا على التَّحقيق، وقد يقال: الواو للعطف على ما سبق منهم، فإنَّهم قالوا: محمَّد ليس برسول، واللّٰه ليس بواحد، وقالوا: الحشر ليس بممكن[1].

عودُ الضَّمير بالجمع في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾:

الرِّضا بالقول اشتراك فيه

الضَّمير في الفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ واوُ الجماعة، علمًا بأنَّ القائل واحدٌ، وهو أبيُّ بنُ خَلَفٍ، وإنَّما كانت الواو هنا لبيان رضاهم بقولِه[2]، فإذا رَضُوا بقوله؛ فكأنَّ الجميع قد قال ما قال، فأُسند القولُ إلى الكلِّ لموافقتهم له، وعدمِ إبداء الاعتراض على ما قال، ثمَّ إنَّ القول فيه دليلٌ على غاية كفرانهم بنِعَم اللّٰه، ونهاية عَمَهِهم وسَكْرتهم فيه[3].

غرضُ الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة:

بـيــانُ مـلـمَـحِ الإعـراض وقِلَّةِ العناية

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ خطاب، ثم التفت النَّظم القرآنيُّ منه إلى الغَيبة، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾، وغرضُ الالتفات من الخطاب للغَيبة بيانُ أباطيلِهم بطريقِ الالتفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ما ذُكر من عدمِ شُكرِهم بتلك النِّعَم، موجبٌ للإعراضِ عنهم، وتعديدِ جناياتِهم لغيرهم[4]، فكأنَّ عقابَ قِلَّة الشُّكر أو عدمِه هو الإهمال وعدمُ الحَفْل؛ جزاءً وِفاقًا لمواقفهم المخزية ونسيانِهم ربَّهم، وقد يُضاف إلى ذلك الإيذانُ بالغضب من قولهم[5].

تغايرُ القول بينَ الماضي والمضارع:

بـيــانُ حـداثـة كفرهم بالرِّسالة وقِـدَمِ كُفرانِهم بالحَشْر

فقد قال تعالى في أوَّل السّورة في تكذيبهم الرَّسول في الرِّسالة:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(3) الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 141.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 247.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، وذلك بلفظ المستقبل، وقال في تكذيبهم إيّاه في الحشر ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ بلفظ الماضي؛ وذلك لأنَّ تكذيبهم إيّاه في رسالته لم يكن قبل وجوده، وإنَّما كان ذلك حالةَ وجودِه، فقال: ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني هم فيه، وأمّا إنكارهم للحشر؛ فكان سابقًا صادرًا منهم ومن آبائهم، فقال: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾[1]، ومن ناحية أخرى: فالفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يتلاءم مع جو الماضي المسيطر على السياق هنا (﴿أَحۡسَنَ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَبَدَأَ﴾، ﴿جَعَلَ﴾، ﴿سَوَّىٰهُ﴾، ﴿وَنَفَخَ﴾، ﴿وَجَعَلَ﴾، ﴿وَقَالُوٓاْ﴾).

دلالة الهمزة في ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾:

التَّعجُّبُ من حالهم وإنكارِه

الاستفهام بالهمزة في ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ للتَّعجُّب والإحالة، أي: أظهروا في كلامهم استبعادَ البعثِ بعد فناء الأجساد واختلاطِها بالتُّراب، مغالطةً للمؤمنين، وترويجًا لكفرهم[2]، وفي الاستفهام بالهمزة دلالةٌ على غاية كفرانِهم بنِعَم اللّه، ونهاية عماهم وسكرتهم[3].

بلاغةُ تكرارِ الهمزة في ﴿أَءِذَا﴾ ﴿أَءِنَّا﴾:

تأكيد التَّعجُّبِ والحَيْرة مفيدٌ في البلاغ

تكرارُ الهمزةِ لتأكيد التَّعجُّب والإنكار[4]، من كونهم سيُعادُون ثانيةً في خَلْق جديد، فالتَّكرارُ تمكُّن مِنَ التَّعجيب الَّذي يُناوِش عقولَهم وعقيدتَهم، فدلَّت كثرةُ الاستفهام على الحَيرة والشَّكِّ والتَّردُّد.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

بيان التَّعجُّب والإنكار واستبعادُ حصولِ الجواب

الجملة الشَّرطيَّة: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ قائمةٌ على السَّبب والنَّتيجة، أو حصولِ الجزاء على حصول الشَّرط

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142، والرّازيّ قد أشار إلى الآية: (38) من سورة يونس، والأَولى أن نشير إلى الآية الثالثة من السورة نفسها للترابط الحاصل بينهما، ويبقى الفضل للدّالّ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 218.

(3) النّخجواني، الفواتح الإلهيّة: 2/ 141.

(4) الإيجي، تفسير الإيجي: 3/ 328.

في المستقبل، وفيه معنى التَّعجُّب والإنكار والاعتراف بما سيكون بعد الموت.

فائدة الشَّرط بـ (إذا) دون (إن):

تيقُّنُ وقوعِ الموت أمرٌ واقعٌ ما له مِن دافع

الجملة الشَّرطيَّة المبدوءة بـ (إذا) دالَّةٌ على أنَّ ضلالهم في الأرض بعد موتهم أمرٌ مقطوع به، لا شكَّ فيه، وهذا واقع مشاهد؛ فلا أحدَ يُنكر الموتَ، بخلاف (إنَّ) الدّالَّة على الشَّكِّ في الأمر، وأنَّ قطعيَّتَهُ غيرُ متيقَّنة، ولليقين في (إذا) جاء بعدَها الفعلُ الماضي ﴿ضَلَلۡنَا﴾ لا المضارع (نضلُّ)؛ لتيقُّن حدوثِ الفعل، فكان المناسبُ هنا توظيفَ (إذا) لا (إن).

بلاغةُ التَّعبير بالضَّلال:

اتِّساع المعاني في اللَّفظ

لفظ ﴿ضَلَلۡنَا﴾ يحمل معاني الغَيبوبة والبُطلان، فالعرب تقول للشَّيء إذا غلب عليه غيرُه حتّى خفيَ أثرُه: قد ضَلَّ، ويحمل معنى: غِبْنَا في الأرض، ويحمل معنى: الذَّهاب والضَّياع والصَّيرورةِ ترابًا، والدَّفنِ والهلاكِ[1]، وهذا ما لا يحمله لفظٌ آخَرُ يضارع بلاغةَ هذا اللَّفظ الكريم.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

بيانُ التَّمكُّنِ والالتصاق مفيدٌ في الإبانة عنِ المراد

قوله: ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، الأصل في دلالة ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة، وظرفيَّتها هنا مكانيَّة؛ لأنَّ مجرورها مكان ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وتوظيفها هنا دالٌّ على المبالغة والتَّمكُّن مِنَ الأرض، فحرفُ الوعاءِ دالٌّ على إحاطة الأرض بهؤلاء، بحيثُ إنَّهم يلتصقون بها، ففي المسألة رسوخ، وهذا في ظنِّهم مانعٌ من العَود والخَلق الجديد، وفيها مع الظَّرفيَّة معنى المصاحبة[2].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اتِّساع المعنى في اللَّفظة مفيد في البيان

تحتمل (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قوله: ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن

(1) القنوجي، فتح البيان: 11/ 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 218.

تكون عهديَّةً، أي: الأرض المعروفة لديهم، وتحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقية، أي: كلُّ الأرض، وأيُّ مكان فيها، والمعنيان مُرادان، وقد يكون تنوُّع دلالة (أل) دالًّا على تنوُّع عقولِ أصناف الكافرين، فصِنفٌ ينظر للأرض الَّتي تحت قدميه، فهو غارق فيها، وصنفٌ ينظر لكلِّ الأرض، فدلَّت الأداة على تحيُّرهم وتعجُّبهم واختلاف عقولهم، وإنِ اتَّحدوا على الكفر.

بلاغةُ الاستفهام في الآية الكريمة:

الاستفهام للإنكار مبينٌ عن دلالة السّياق

في قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾ الهمزةُ لتذكيرِ الإنكارِ وتأكيده، فالمَعنى على تأكيدِ الإنكار، لا إنكارِ التَّأكيد، كما هو المتبادَرُ من تقدُّم الهمزةِ على (إنَّ)، فإنَّها مؤخَّرةٌ عنها في الاعتبارِ، وإنَّما تقديمُها عليها لاقتضائِها الصَّدارةَ[1].

بلاغةُ توالي المُؤكِّدات في الآية:

تمكُّنُ التَّعجُّب وإنكارُ الإعادة

قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾، أُكِّدت الجملةُ بـ (إنا)، وكذا بلام الابتداء المقترنة بالظَّرف (في)، واسميَّة الجملة الدّالَّة على الثَّبات وتمكُّن التَّعجُّب من نفوسهم، وكأنَّ التَّعجُّب واشٍ بإنكار الحساب والعقاب في المفضي إليه الخلق الجديد، والمعنى: "لَتقومون كما كنتم قبلَ الموت، قيامًا لا شكَّ فيه، والإخبار به مستحِقٌّ لغاية التَّأكيد"[2].

بلاغةُ توجيه القراءات القرآنيَّة في الآية:

بيانُ التَّعجُّب والرَّفض للموقف كلِّه موتًا وبعثًا

قرأ ابن عامر وأبو جعفر: ﴿وَقَالُوٓاْ إِذَا ضَلَلۡنَا﴾ بغير استفهام، وعليه فإنَّ جواب (إذا) يكون محذوفًا، وتقديره: إذا ضللنا في الأرض؛ نبعث، ويكون إخبارًا منهم على طريق الاستهزاء[3]، و﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾ على وجه الاستفهام؛ لأنَّهم كانوا يُقرّون بالموت،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 451.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 433، وابن الجزري، النشر: 1/ 372.

ويشاهدونه، وإنَّما أنكروا البعثَ، ويكون الاستفهام في البعث دونَ الموت[1]، وقد تكون القراءتان معبِّرتين عن فريقين: فريقٍ موقنٍ أشدَّ الإيقان بالموت، وآخَرَ يخالجه الشَّكُّ والرَّيب، فاستُخدم الاستفهامُ، وقد يكون الاستفهام متَّجهًا إلى الموقف كلِّه الموت والبعث، وإثباته في الموت والبعث لبيان شِدَّة تعجُّبهم ورفضهم لما سيؤول إليه حالهم.

نُكْتَةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة في ﴿لَفِى﴾:

بيانُ التَّمكُّن والاحتواء في سياق المعنى

الأصل في (في) بيانُ الظَّرفيَّة، وهي في قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ ظرفيَّةٌ مكانيَّةٌ، والظَّرفيَّةُ وعاءٌ واحتواءٌ وشمول، فدلَّت (في) على عمق الأرض واتِّساعها، بحيثُ حَوتهم جميعًا، لا فرقَ بين إنسان وآخر، كلُّهم ضالّون فيها، فكانتِ الأرضُ صاحبةَ تمكُّنٍ واحتواءٍ لهم، بحيثُ لا تُبْقي، ولا تَذَر، ويُؤكِّد هذا المعنى لامُ التَّوكيد المتَّصلة بالظَّرف، فالتَّوكيد تمكينٌ، وإزالةُ شكٍّ.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿خَلْقٍ﴾:

بيانُ مُفادِ السِّياقِ للتَّعظيم والتَّعجيب

تنكير قوله: ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ لتعظيم شأن ذلك الخَلق، والإشعار بأنَّه على وجه غيرِ متعارف ولا معتاد[2]، وفيه الإيذانُ بأنَّه حقيقٌ بأن يُبحَثَ عنْهُ، ويُهتمَّ بمعرفته[3].

نُكْتَةُ وصفِ الخَلْق بالجديد:

بيانُ اعتقادِهم الانقطاعَ عن حياتهم الأولى

وصف الخلق بالجديد - في قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ - لأنَّ الجديد هو المُهيَّأُ بالقطع إلى التَّكوين قبلَ التَّصريف في الأعمال، وأصل الصِّفة القطع[4]، فكانتِ الجِدَّةُ وصفًا لهم؛ لأنَّهم سيُقطعون، وينقطعون عنِ الحياة، فصار مناسبًا لحالهم التي يتعجَّبون منها، ثمَّ إنَّ لفظة ﴿جَدِيدٍۭ﴾ بوزن فعيل، وفيها اتِّساع؛ إذ تحتمل الفاعليَّةَ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 35.
(2) البيضاويّ، تفسير البيضاوي: 5/ 140.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 128.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 282.

والمفعوليَّة، فجَديد بمعنى (فاعل) من جَدَّ، كحديد من حَدَّ، وقيل: بمعنى مفعول من جَدَّ النسّاجُ الثّوبَ؛ إذا قطعَه[1].

دلالةُ الإضرابِ في ﴿بَلۡ﴾:

ملمَح الانتقالِ من حالٍ شنيع إلى حالةٍ أشنع

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وجهان؛ **الأوّل**: أنَّه إضراب وانتقال عن بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بلقاء ملائكة ربِّهم عند الموت، وما يكون بعدَه جميعًا، **والثّاني**: هو إضرابٌ وتَرقٍّ مِنَ التَّردُّد في البعث واستبعاده، إلى الجَزم بجَحْدِه، بناءً على أنَّ لقاء الرَّبِّ كنايةٌ عن البعث[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بالاسميَّة في الآية:

بيانُ ثباتِ كفرِهم بلقاء الله جلَّ في علاه

أفادت اسميَّة جملة: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أنَّهم ثابتون على الكفر بلقاء اللّه، دائمون عليه، وهو ممّا أنذرتهم به آياتُ القرآن، فالتَّكذيبُ بلقاء اللّه تكذيبٌ بما جاء به القرآن، فهم لا يؤمنون، وإنَّما يؤمن بآيات اللّه الذين ذُكِرت أوصافُهم هنا[3]، فالجملةُ الاسميَّةُ في التَّركيب تُحقِّق معاني الثَّبات والقوَّة، فهي أقوى من الجملة الفعليَّة، وثباتُ الاسميَّة دالٌّ على انطماس بصائرهم، واستيلاء العِناد والجهلِ عليهم، فهم بلقاء ربِّهم يوم القيامة كافرون جاحدون؛ لأنَّهم قدِ استبعدوا إعادتَهم إلى الحياة بعدَ موتهم، مع أنَّ اللّه تعالى قد أوجدهم، ولم يكونوا شيئًا مذكورًا.

معنى الباء في قوله: ﴿بِلِقَآءِ﴾:

بيانُ أنَّ الاستنكار كان بسبب كفرهم بلقاء الله تعالى

الباء في قوله: ﴿بِلِقَآءِ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّة التَّعليليَّة، أي: إنَّهم كفروا باللّه بسبب هذا اللِّقاء الَّذي أنكروه، وبالغوا في رفضه وكُفرانه، وكأنَّ الباء مع متعلِّقها هي الَّتي امتحنت إيمانَهم واختبرتْهُ ومحَّصَتْهُ، فكانتِ النَّتيجةُ الخسارَ والتَّبار.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 242.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 81، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 123.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 219.

التَّشنيع على الرَّغم من الإضافة إليه للتَّكريم

فائدة التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّة وإضافتِه إليهم:

التَّعبير بلفظ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فيه مزيدُ تشنيع على الكفّار، فالرَّبُّ هو الَّذي يحمي، ويَكلأ، وهو الَّذي يمنح الهبات، وإكمالَ الصّورة من سمع وبصر، فكيف يكفرون بلقاء ربٍّ له عليهم فضلُ كرم وعطاء؟ ثمَّ إنَّ لفظ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ هو المناسب لما قبلَه من سياق النِّعم والآلاء، وعادةُ القرآنِ أن يُضيف لفظةَ (ربّ) إلى الضَّمائر أو الأسماء الظّاهرة، فلم يُعَرَّف لفظ (رب) بالألف واللّام في كلِّ القرآن، وفي إضافتهم له تشريفٌ وتكريم، وإظهارٌ لمكانة المخلوق عند الخالق، ولو كافرًا، ومن ثَمَّ فالإضافة غرضُها إعادةُ التَّفكير في موقفهم المعاند، وتهييجُ عقولِهم وإلهابُها؛ حتّى يعودوا إلى الجادَّة، ويبتعدوا عن طريق الغواية، ثمَّ في التَّعبير بالرَّبِّ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَحْسُن بالمُحْسِن أن يُنَغِّصَ إحسانَه بترك القصاص مِنَ الظّالم الكائن في القيامة[1].

بيانُ تخصيص اللِّقاء بالإنكار مع رعاية الفاصلة

بلاغةُ تقديم شِبه الجملة على الخبر:

في قوله: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾، قُدِّمَت شِبه الجملة على الخبر، وفي هذا التَّقديم ثلاث فوائد: الأولى: أنَّ تقديم المجرور جاء لرعاية الفاصلة[2]، فالفاصلة ﴿كَٰفِرُونَ﴾ سبقها النّون ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، ولحقها النّون أيضًا ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، فلو تأخّرت شِبه الجملة ما لوحِظَ هذا الإبداع اللَّفظيُّ، والثّانية: لتخصيص الكفر بلقاء اللّه ﷻ؛ تمكينًا لرفض اللّقاء، وإنكارًا لإمكان حدوثه، أي: إنَّه ليس لهم جحودُ قدرةِ اللّه تعالى على الإعادة؛ لأنَّهم يعترفون بقدرته، ولكنَّهم اعتقدوا أنَّه لا حسابَ عليهم، وأنَّهم لا يَلقَون اللّهَ تعالى[3]، والثّالثة: أنَّ فيه توبيخًا وتقبيحًا لموقفهم المعاند، الَّذي لا مسوِّغ له سوى العناد والتَّكبُّر وضيقِ العقل.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 247.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 219.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 92.

علَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

بيانُ سَترهم للحقِّ وأنفتهم من الإقرار بالأمر

التَّعبيرُ بلفظ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لبيان إنكارهم للبعث عنادًا، وسترهم لما في طباعهم من أدلَّته؛ لما غلب عليهم من الهوى القائد لهم إلى أفعالٍ، منعهم مِنَ الرُّجوع عنها الكِبرُ عن قَبول الحقِّ، والأَنَفة مِنَ الإقرار، بما يلزم منه نقصُ العقل[1]، فهُم كاملون في الكفر، عريقون فيه، بُعَداء معزولون عن منهج الرُّشدِ، كما أنَّ فيه رعايةَ الفاصلة المبنيَّة على حرف النّون.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 247.

﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة: 11]

الرَّبطُ بين الكفر بلقاء الله وبين تكليف ملك الموت بقبض الأرواح

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعدَّدتِ المناسباتُ المتعلِّقة بهذه الآية، فكانت المناسبة الأولى: أنَّهم لَمّا جحدوا لقاءَ ملائكةِ ربِّهم عند الموت، وما يكون بعدَه؛ ذَكرَ لهم حديثَ إماتة مَلَكِ الموت إيّاهم؛ إيماءً إلى أنَّهم سيُلاقونه، وحديثَ الرُّجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء، وثَمَّةَ مناسبةٌ أخرى لما قبلَ الآية، تتمثَّل في أنَّهم لَمّا أنكروا البعثَ والمَعاد؛ ردَّ عليهم بما ذُكِر؛ لتَضَمُّن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ البعثَ وزيادةَ ذِكْر إماتة مَلَكِ الموت إيّاهم، وكونه مُوكَّلًا بهم؛ لتوقُّف البعث على وفاتهم، ولتهديدهم وتخويفهم، وللإشارة إلى أنَّ القادر على الإماتة، قادرٌ على الإحياء، أمّا المناسبة الثّالثة لهذه الآية وتعلُّقها بما قبلها: فذلك لِرَدِّ ما يُشْعِرُ به كلامُهم، مِن أنَّ الموت بمقتضى الطَّبيعة، حيثُ أسندوه إلى أنفسهم، في قولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فليس عندهم بفعل الله تعالى ومباشرةِ ملائكته[1].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: (وفّى) كلمة تدلُّ على إكمال وإتمام، ومنه الوفاء: إتمامُ العهد وإكمالُ الشرط، ووَفَى: أوفى، فهو وفيٌّ، ويقولون: أوفيتُك الشَّيء؛ إذا قضيتَه إيّاه وافيًا، وتوفّيت الشَّيء، واستوفيته؛ إذا أخذته كلَّه حتّى لم تترك منه شيئًا، ومنه يقال للميت: توفّاه الله[2]، وتوفيَة الشَّيء: بذلُه وافيًا، واستيفاؤه: تناولُه وافيًا، قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقال تعالى:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 124، 125.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾ [المطففين: 2]، وقد عُبِّر عن الموت والنَّوم بالتَّوفّي، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر: 42][1]، والمراد بالتوفّي في الآية: الموت.

2) ﴿وُكِّلَ﴾: (وكل) أصلٌ صحيح يدلُّ على اعتماد غيرك في أمرك[2]، والتَّوْكيلُ: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النّساء: 81][3]، والمعنى المِحوريُّ: ترك أمر، أي: تفويضُ القيام به إلى مَن فيه الكفايةُ للقيام به، وليس الضعفُ والعَجْزُ والبِطْءُ شروطًا، بل هي حالات خاصَّة، والتَّوكيل قد يكون للتَّكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام: 89][4]، والمعنى المراد بالآية: كلَّفناهُ بقبض أرواحكم.

المَعنى الإجْماليُّ:

المصير المحتوم بالرُّجوع إلى الله الحيِّ القيّوم

في الآية الكريمة حسمٌ من الرَّسول ﷺ بتوجيهٍ من ربِّه؛ رادًّا على مزاعمهم الباطلة، وأنَّ مَلَك الموت الَّذي وكِّل بقبض أرواحكم هو وأعوانُه سيتوفّاكم، وستعودون إلى الله يومَ القيامة للحساب والجزاء، والظّاهر أنَّ ملك الموت شخص معيَّن، وقد سُمّي في بعض الآثار بـ (عزرائيل)، وهو المشهور، وله أعوان - كما ورد في الحديث - ينتزعون الأرواحَ من سائر الجسد، حتّى إذا بلغت الحلقوم؛ تناولها مَلَكُ الموت[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

الـرَّدُّ على المنكرين مع تكريم الإنسان كونَه إنسانًا

فصلت الآية عن سابقتها: أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 245.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(3) الراغب، المفردات: (وكل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وكل).
(5) الصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 2/ 462.

﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾، لأنَّها جاءت ردًّا على قولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدِۭ﴾، فالحقُّ الذي قال: أنا خلقتُ الإنسان، لم يقُل: وأنا سأعدمه، إنَّما قال: سأتوفّاه، فهو عندي كاملٌ بروحه وبذَرّاته التَّكوينيَّة، والَّذي خلق في البَدْء، قادرٌ على الإعادة وجمع الذَّرّات الَّتي تشتَّتت[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

بيانُ الحقِّ مع ضرورة تغيير المنكر

في توظيف الفعل ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، دلالاتٌ متعدِّدة، أوَّلها: بيانُ الحقِّ، والرَّدُّ على زعمِهم الباطلِ[2]، ثانيها: التَّنبيه على ضرورة تبليغ الرِّسالة الموحاة من الله تعالى، وأعظم مَن يبلِّغ الرِّسالة هو الرَّسول محمَّد ﷺ، وكأنَّ التَّعبير: قل لهم نيابة عنّا بعدما سمعتَ قولَهم وإنكارَهم، وثالثُها: في الفعل ﴿قُلۡ﴾ توجيهٌ بضرورة الدَّعوة بالقول، وتغييرِ المنكر باللِّسان، رابعُها: في وجود الفعل ﴿قُلۡ﴾ تطمينٌ وتأنيسٌ لرسول الله ﷺ، بأنَّ ربَّه حاضرٌ معه، ومؤيِّدٌ له، وناصره من هؤلاء المُنكِرين.

نُكْتَةُ التَّعبير بجملة ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾:

التَّذكيرُ بالموت مع ضرورة الاستعداد للقاء الله

قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، أي: يستوفي نفوسَكم، لا يترك منها شيئًا، أو لا يُبْقي منكم أحدًا، والتَّفعُّل والاستفعال يُستعمل أحدُهما مقامَ الآخر، يقال: تقصَّيته واستقصيته، وتعجَّلتُه واستعجلته[3]، وفي الفعل تذكيرٌ لهم بالموت، وهم لا ينكرون ذلك، ولكن ألهتْهُم الحياةُ الدُّنيا عنِ النَّظر في إمكان البعث والاستعداد له، فَذُكِّروا به[4]، وقد عُبِّرَ عنِ الموت بالتَّوفّي؛ لأنَّه لا يكون الموتُ حتّى

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/ 11816.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 82.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 7/ 269.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 220.

يستوفي الحَيُّ ما قَدّر اللّهُ له من حياة، دونَ زيادة أو نقصان[1]، والتَّعبير بالفعل المضارع أفاد التَّجدُّدَ الاستمراريَّ، فضلًا عنِ استحضار صورتِه، وهو يفعل ذلك.

توجيهُ قراءة ﴿تَرْجِعُونَ﴾ وبلاغتها:

الرجوعُ إلى الله حاصلٌ لا محالةَ سواءٌ كان قَسْرًا أو عن إرادة.

في قوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ قراءتان؛ قراءةُ الجمهور بضمِّ التّاء وفَتْحِ الجيم مبنيًّا للمفعول ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وقراءةُ يعقوب بفتح التّاء وكَسْرِ الجيم، مَبنيًّا للفاعل ﴿تَرْجِعُونَ﴾ [2]، مِنْ رَجَع رُجوعًا، فالحجّةُ لمن ضَمَّ: أنّه أراد: تُرَدُّون، على اعتبارِ أنّ اللّه أرجعهم قَسْرًا فلا يستطيعون فَكاكًا، والحجّة لمن فَتَحَ: أنّه أراد: تَصيرون[3]، أي: (سيصير رجوعكم إلينا، وستأتوننا بأنفسكم، كأنّكم مضبوطون على ذلك)، أي: (سواءٌ أردتم الرّجوعَ إلى اللّه أم لم تريدوه فإنّكم إليه راجعون على كلّ حال).

غرضُ إسناد التَّوفّي إلى ملك الموت:

بيانُ أنَّ التَّخويف والزَّجر والقدرة المطلقة لله ﷻ

الغرض من إسناد التَّوفّي إلى ملك الموت، زيادةُ التَّخويفِ مِنَ الموت[4]؛ لتذكيرهم به، فاللّفظُ يُشْعِرِ أنّه مُسَلَّط عليهم، مُتَوجِّه لهم يريدُهم، وهم لا يستطيعون رَدًّا ولا فرارًا من مصيرهم، وفي ذلك كلِّه إنذارٌ وتخويف؛ تنبيهًا لضرورة تركِ معتقداتهم الفاسدة، ثمَّ إنَّ الموت يقوم به رسولٌ من رُسل اللّه، مُهِمَّتُهُ هي قبضُ الأرواح من الأجساد، بعد أن تستوفيَ أجلها، وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ الذي إليه الموتُ، له أيضًا الحياةُ قبلَ الموت، وبعدَ الموت، فمَن أعطى الحياة، ثمَّ سلبَها، لا يَعْجِز أن يعطيَ ما سلب[5].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 613.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 669، وابن الجزريّ، النّشر، النشر في القراءات العشر: 2/ 343، والبنّا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعةَ عشرَ، ص: 439.

(3) ابن خالويه، الحُجَّة في القراءات السَّبْع، ص: 249، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 220.

(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 614.

بيانُ وحدة العمل مع توزيع الأدوار

فائدةُ مجيء التَّوفّي مسندًا للمفرد والجمع:

فائدة التَّنوُّع بين الإفراد والجمع: أنَّ مَلَك الموت هو المَلَكُ الموكَّل بقبض الأرواح، وقد ورد ذكره في القرآن مفردًا - كما هنا - وورد مجموعًا في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، وذلك أنَّ اللّه جعل ملائكةً كثيرين لقبض الأرواح، وجعل مُبَلِّغَ أمرِ اللّه بذلك مَلَك الموت (عزرائيل)، فإسناد التَّوفّي إليه كإسناده إلى اللّه - في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزّمر: 42] - وجعل الملائكة الموكَّلين بقبض الأرواح أعوانًا له، وأولئك يُسَلِّمون الأرواحَ إلى مَلَك الموت، مُرادًا به الجنس، فتكون كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61][1].

التَّعريف بمهامِّ المَلَك في السّياق

دلالةُ إضافة المَلَك إلى الموت:

الإضافة في هذا التَّركيب الكريم دالَّةٌ على أنَّ عمله الرَّئيس هو قبض الأرواح لكلِّ حيٍّ، فالإضافة هنا إضافة تعريف بمهامِّ هذا الملك، وفي هذه الإضافة تحذير لكلِّ عاصٍ شاردٍ عن المنهج الرَّبّانيِّ؛ لأنَّ مَلَك الموت سيطاله، وإن عاش أمدًا بعيدًا، ففيه دليل على أنَّهم لا يخرجون عن قبضة تصرُّفه طرفة عين، لا في حال الحياة، ولا في حال المَمات[2].

مراحل الموت بين اللّه والمأمورين

بلاغة المتشابه اللَّفظيِّ في جهات إسناد التَّوفّي:

من بلاغة ذلك الإسناد: أنَّ إماتة الملائكةِ هو القبضُ والنَّزعُ، وإماتة ملكِ الموت هو الدُّعاءُ والأمر، يدعو الأرواحَ، فتجيبُه، ثمَّ يأمر أعوانَه بقبضها، ثمَّ يذهبون بها إلى عِلّيين، وقبضُ الحقِّ تعالى: خَلْقُ الموتِ فيه[3]، وقد يقال: لا منافاةَ؛ لأنَّ اللّه تعالى هو المُتَوفّي حقيقةً بخَلْق الموت، وأمْرِ الوسائط بنزع الرّوح، وهم غيرُ مَلَك الموت، أعوانٌ له ينزعونها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 220.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 390.

من الأظافر إلى الحلقوم، فصحَّت الإضافاتُ كلُّها[1]، وصيرورةُ الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ مِنَ اللّه، هذا هو الإذنُ، والإذن يقتضي مأذونًا، والمأذون هم ملائكةُ الموتِ الَّذين أذِنَ لهم مَلَكُ الموتِ بذلك، ومَلَكُ الموتِ تَلَقَّى الإذنَ مِنَ اللّه ﷻ[2]، فالحَدثُ مِنَ اللّه تعالى مَرَّةً، ومِن رئيس الملائكة مَرَّةً، ومن مُساعديه من الملائكة مرَّةً أُخرى، إذًا الأمرُ إمّا للمُزاولة مباشرةً، وإمّا للواسطة، وإمّا للأصل الآمر[3].

دلالةُ الاسم الموصول وصلتِه:

الوعيد وتسخير المخلوقات لأمره

الفائدة المتعلِّقة بالاسم الموصول وما معه في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، التَّعريضُ بالوعيد، فإنَّه مُوكَّل بكلِّ ميّت بما يناسب معاملتَه عند قبض روحه، وفيه إبطالٌ لجهلهم بأنَّ الموت بيد اللّه تعالى، وأنَّه كما خلقهم يميتهم، وكما يميتهم يحييهم، وأنَّ الإماتة والإحياء بإذنه، وتسخير ملائكته في الحالين، وذلك إبطالٌ لقولهم: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: 24][4].

معنى الباء في قوله: ﴿بِكُمْ﴾:

بيانُ شِدَّة التصاق مَلَكِ الموت بالمرء

الباء في قوله: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ تدلُّ في اللُّغة على الإلصاق والاختلاط بتعبير سيبويه، وهذا دليلٌ على شِدَّة التصاق الشَّيء بالشَّيء، فهو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد، ثمَّ التَّعبير بالباء "إشارةٌ إلى أنَّه لا يغفُلُ عنكم، وإذا جاء أجلُكم؛ لا يُؤَخِّركم؛ إذ لا شُغْلَ له إلّا هذا"[5].

دلالةُ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

بيانُ شأنِ الرُّجوعِ إلى الله وأنَّه لا مَفَرَّ منه

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 11/ 20.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/ 1803.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 7877.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 220.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

لأنَّ الجزاء يحصل عن رجوع النّاس إلى ربِّهم، والتَّراخي الرُّتبي دالٌّ على أنَّ الرُّجوع إلى اللّه أعظمُ شأنًا منَ التَّوفّي؛ لأنَّ الرُّجوع فيه حساب وجزاء، يُجازَى كلٌّ بعمَله، فيقابَلُ المُحسِنُ بإحسانه، والمسيءُ بإساءته، ففي الرُّجوع تبيانٌ للحقِّ بما ليس في التَّوفّي.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾:

القَصْرُ مع تحقيق الوعيد ورعايةِ الفاصلة

لتقديم شِبه الجملة في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ نُكَتٌ، الأولى: تحقيق القَصْرِ، أي: إنَّهم راجعون إلى اللّه وحدَه لا غيره، الثّانية: تحقيقُ الوعيد لِمَن كَفَر بهذا اليوم، فهو راجع إلى اللّه رَغْمًا عنه؛ لأنَّ قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ هو مناط إنكارهم[1]، الثّالثة: رعايةٌ للفاصِلَة، ففاصلةُ الآيات قبلها: (﴿كَٰفِرُونَ﴾، ﴿تَشْكُرُونَ﴾)، وبعدَها ﴿مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: 12]، ورعاية الفاصلة مطلبٌ مهمٌّ مِن مطالب الإعجاز الصَّوتيِّ في القرآن؛ لذا كان التَّقديم.

فائدة التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم:

متابعةُ اللَّفظة في السّياق مع التَّبكيت وبيان العدل

التَّعبير بالرَّبِّ مضافًا لضميرهم في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، فيه ثلاثُ فوائدَ، أمّا الأُولى: فلغلبة لفظ الرَّبِّ بالإضافة إلى الضَّمير في هذا السّياق، فقبلَ الآيةِ الَّتي نحن بصددها قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾، وبعدَها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: 12]، أمّا الثّانية: ففيها تبكيتٌ لهم على كفرهم وعدم إيمانهم، على الرَّغم مِنَ النِّعم والآلاء التي أسبغها عليهم ربُّهم، أَمّا الثّالثة: فمِن سمات الرَّبِّ العدلُ والكمالُ، ففي رجوعهم استيفاءٌ لحقِّهم ساعةَ إحسانهم وإساءَتهم.

نُكْتَةُ التَّعبير بجملة ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

حتميَّةُ العودة إلى اللّه مصيرٌ لا انفكاك منه

للتَّعبير بالفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾ نُكَتٌ، فمعنى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تصيرون إلى حُكم اللّه تعالى، فيجازيكم على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 220.

أعمالكم الصّالحة والسَّيِّئة بما يناسب أعمالَكم، وأُطلِق على المصير إلى حُكم الله (رجوعٌ إلى الله)، على طريقة التَّمثيل بحال من كان بعيدًا عن سيِّده أو أميره، فعمل ما شاء، ثمَّ رجع إلى سيِّده أو أميره، فإنَّه يلاقي جزاءَ ما عمله[1]، وفي التَّعبير بالفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ إتمام لإحسانه وربوبيَّته، بأن يُجازي كُلًّا بما فعل، كما هو دأب الملوكِ مع عبيدهم، لا يَدعُ أحدٌ منهم الظّالمَ من عبيده مهملًا[2]، ثمَّ إنَّ الرُّجوع هو العَود إلى ما كان منه البَدءُ، أو تقديرُ البَدءِ مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاته كان رجوعه أو جزءٌ من أجزائه أو بفعل من أفعاله[3]، والتَّعبير بصيغة المضارعيَّة أفاد التَّجدُّد الاستمراريَّ، فضلًا عنِ استحضار الصّورة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّوفّي والموت:

عموميَّةُ التَّوفّي وخصوصيَّةُ الموت

التَّوفّي المُسندُ إلى الله في القرآن، ليس كُلُّه بمعنى الموت، بل إنَّه يَرِدُ فيه بمعنيَيْن؛ **الأوَّل**: الموتُ، فاللّهُ يتوفّى النّاسَ، أي: يُميتُهم، ويَقبضُ أرواحهم، قال تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ [يونس: 104]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ [النّحل: 70]، **الثّاني**: النَّومُ، فاللّهُ يتوفّى النّاسَ، أي: يجعلُهم ينامون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ [الأنعام: 60]، ومعنى الآية: اللّهُ يجعلُكم تَنامون في اللَّيل، ويقبضُ أرواحكم أثناءَ نومكم، ثمَّ يُعيدُ أرواحَكم إلى أجسادكم عندَ استيقاظكم، ويبعثُكم في النَّهار، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 343.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 250.

(3) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللّغويّة: 3/ 332.

تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزّمر: 42]، فقد اعتبرتِ الآيةُ النَّومَ مَوْتًا، وقسَّمت النّاسَ بالنَّوم إلى قسمَيْن: أُناسٌ ينامون، ويموتون أثناءَ النَّوم؛ لأنَّ اللّهَ أنهى آجالهم أثناءَ النَّوم، وقبضَ أرواحَهم، ولم يُرْجِعْها إلى أبدانهم: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الزّمر: 42]، وأُناسٌ ينامون، ويتوفّى اللّهُ أرواحهم أثناءَ النَّوم، ثمَّ يُعيدُها إلى أجسادهم عند الاستيقاظ؛ لأنَّه بقيَتْ في أعمارهم بقيَّةٌ: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الزّمر: 42]، والفريقان يتوفّاهم اللّهُ أثناءَ نومهم: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزّمر: 42]، والتَّوفّي معناه: القبضُ، أي: اللّهُ يَقبضُ أرواح الأنفس كلِّها حين نومها، فإن انتهى عُمُرُ بعض الأنفس؛ أمسكَ أرواحها أثناء نومها، وإن بقي في عُمُرِ بعض الأنفس بقيَّةٌ؛ أعادَ لها أرواحها، وتدلُّ الآيات السّابقة على أنَّ التوفّي في القرآن بمعنى: "القبض"(1).

الرُّجوع والعَوْد:

العَودُ أعمُّ مِنَ الرُّجوع في الاستعمال

الرُّجوعُ: فِعْلُ الشَّيء ثانيةً، ومصيرُه إلى حال كان عليها، والعَود: يُستعمل في هذا المعنى على الحقيقة، ويُستعمل في الابتداء مجازًا، قال الزَّجّاج: يقال: قد عاد إليَّ مِن فلانٍ مكروهٌ، وإن لم يكن قد سبقه مكروهٌ قبلَ ذلك، وتأويلُه: أنَّه لحقَني منه مكروهٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88]، والمعنى: أو لتدخلنَّ في ديننا، فإنَّه ﷺ، لم يكن على دينهم قط(2).

(1) الخالديّ، القرآن ونقض مطاعن الرّهبان، ص: 193.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حـالُ المجرمين يوم القيامة

لمّا ذكرت الآية السّابقة إنكار المشركين للبعث، وبيَّنت أنَّهم يرجعون إلى اللّه ﷻ، وتقرَّر دليل البعث بما لا خفاء فيه ولا لَبس شرع في بعض أحواله[1]، فجاءت هذه الآية ببيان حالهم عند الرُّجوع إلى اللّه على سبيل الإجمال بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾؛ يعني: لو ترى حالهم وتُشاهدُ استخجالهم لَترى عجبًا[2]، فهذه الآية نتيجةٌ مُترتِّبةٌ على الآية التي تسبقُها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَاكِسُواْ﴾: (نكس) أصلٌ يدلُّ على قلب الشَّيء، ومنه (النَّكسُ): قلبُكَ شيئًا على رأسه[3]، و(نكَسَ رأسَه)؛ أي: أمالَه، و(النّاكِسُ): المُطأطِئُ رأسَه من ذُلٍّ[4]، و(النُّكْسُ) في المرض: أن يعودَ في مرضِه بعد إفاقتِه، ومنه (النُّكْسُ) في العمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: 68]، ويدور المعنى المحوريُّ حول انقلاب الشَّيء أو ارتدادِه عن مُطَّرِدِ حاله واتجاهِه كالسَّهم المذكور، والقصيرُ ارتدَّ امتداده إلى داخله، والفرس الذي لا يسمو برأسه يتَّجه به إلى أسفلَ بعكس المعتاد من الخيل[5]، والمقصود بالآية: خَفَضوا رؤوسهم علامةً على الذُّلِّ والنَّدامةِ.

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 207.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نكس).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نكس).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حالُ المجرمين واعترافُهم بعد فوات الأوان

جاء البيان الشّافي في الآية الكريمة الذي يرسم حال المشركين حين معاينة العذاب، فهم واقفون بين يدي اللّه أذلّاءَ ناكسي رؤوسِهم من الحياء والخجل، وعلى الرُّغم من ذلك طالَبوا بالرُّجوع إلى الدُّنيا ليعملوا عملًا صالحًا، يُعلنون يقينَهم باللّه وصدقَ وعده، وأنَّهم قد سمعوا وأبصروا واتَّعظوا، نادمين على ما فعلوا، في مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة، والإقرار بالحقِّ الذي جحدوه، ولكنَّ هذا كلّه جاء منهم بعد فوات الأوان، حيث لا يُجدي اعترافٌ ولا إعلانٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

استحضارُ صورة عذاب المجرمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ استئنافيَّة، وفائدتها استحضار صورة المجرمين عامَّةً يوم القيامة[1]، ويمكن أن تكون عاطفة، عَطفت جملةَ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ على: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ [السجدة: 11] في الآية السّابقة عليها، فهي داخلة تحت الفعل: ﴿۞قُلۡ﴾ [السجدة: 11] السّابقِ في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: 11]؛ والتَّقدير على العطف: قل يا محمَّد للمُجرِم: ولو ترى[2].

سرُّ التَّعبير بـ(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

تعدُّدُ دلالاتها إلى الامتناع والتَّمنّي والتَّعجُّب

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾؛ لتعدُّد دلالاتها، فيجوز أن تكون (لو) هي الامتناعيَّةَ، فتكونَ دالَّةً على الشَّرط؛ أي: لو ترى حالهم لرأيت شيئًا عظيمًا، فالجوابُ محذوف[3]، ويجوز أن تكون للتَّمنّي، كأنَّه قال: وليتك ترى، والتَّمنّي لرسول اللّه

---

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 578.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428، وأبو جعفر النحاس، إعراب القرآن: 3/ 201.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.

ﷺ، كما كان التَّرجّي له في قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ [السجدة: 3]؛ لأنَّه تجرَّع منهم الغُصَص، ومن عداوتهم وضِرارهم، فجعل الله له تمنّيَ أن يراهم على تلك الصِّفة الفظيعة من الحياء والخزي والغمِّ؛ ليشمت بهم، ويجوز أن تكون بمعنى التَّعجيب من حال الكفّار وما حلَّ بهم[1].

بلاغة التَّعبير بالشَّرط وحذفِ جواب (لو):

بيانُ شدَّةِ العذاب وعدمِ تصوُّر ماهيَّته؛ لتذهبَ النَّفس فيه كلَّ مذهب

يأتي النَّظم الكريم بالشَّرط في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ لتشويق السّامع إلى الجواب المُترتِّب على الشَّرط؛ انتظارًا لنتيجة الرُّؤية وتلهُّفًا إلى معرفتها، ولكنَّه حُذف هنا لأنَّ المُراد الإشارةُ إلى أهول وأشنع وأشدِّ ما يقع على المجرمين؛ إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيُّله[2]، فيُعطي اتِّساعًا في تصوُّر المحذوف، فتكثر التَّقديرات له، وتذهب فيه النَّفس كلَّ مذهب، فيكون التَّقدير: لَرأيتَ أمرًا عظيمًا، أو لَرأيتَ أسوأ حال تُرى[3]، فالحذف قائم كي يُصوِّر فظاعةَ حالهم وهول موقفهم بين يدَي ربِّهم، فلا يُتصوَّر العذاب الذي سيحلُّ بهم؛ لقوَّته وشدَّته.

وممّا يذكر في سرِّ حذف الجواب أنَّ (لو) لمّا ربطت إحدى الجملتين بالأخرى حتَّى صارتا جملةً واحدةً أوجَبَ ذلك لها طولًا فخُفِّفَ بالحذف، خصوصًا مع الدّلالة على ذلك، ويُضاف أيضًا لبيان سبب الحذف ملاحظةُ مواقع التَّفخيم والتَّعظيم، وكذلك لعلم المُخاطب أو لقصد المُبالغة؛ فلو صُرِّحَ بالجواب لوقف الذِّهن عند المُصرَّح به، فلا يكون له ذلك الوَقعُ[4]، والسّياق لا يأبى أن يكون الحذف لهَوانِهم؛ لأنَّه ما جرَّأهم على العصيان إلا صفة الإحسان، فلا يصلح لهم إلا الخزيُ والهَوانُ[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 360، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 360.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 183.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.

الثّابتُ في علم اللّه بمنزلة الواقع

سرُّ التَّعبير عن العلم بالرُّؤية:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ دون العلم، فلم يقل: (ولو تعلم)؛ لأنَّ الثّابت في علم اللّه بمنزلة الواقع[1]، فإخبارُ اللّه تعالى أصدقُ من رؤيا العين، فحين يُخبِرُ اللّه ﷻ بأمر فمعنى ذلك أنَّه أصدَقُ ممّا ترى بعينك؛ لأنَّ النَّظر قد يغشاه ما يصرفه عن المرئيِّ، أمّا إخبار اللّه عن شيء فهو الحقُّ[2]، وإن كان أمرًا غيبيًّا، فالقرآن حين يُعبِّر عن أمر غيبيٍّ يأتي بالفعل: (يرى)[3]، مع جواز أن يكون من رُؤية العين[4]؛ لأنَّ إخبار اللّه تعالى لا يحتمل الشَّكَّ.

وقد يكون سرُّ التَّعبير بالرُّؤية دون العلم أنَّ معنى الآية مُتعلِّق بالمحسوس، وهذا مناسب لرؤية حال المجرمين يوم القيامة وهم ناكسو رؤوسهم، ومثل هذا المشهد يتعلَّق بالرُّؤية دون العلم.

تصويرُ حال المجرمين يوم يأتي مصداق ما كذَّبوا به

دلالة التَّعبير بالمضارع في: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

جاء التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ للدَّلالة على استحضار الصُّورة التي يؤول إليها حال المجرمين يوم القيامة، وكلِّ مَن سار على دربهم في إنكار البعث، وهذا الاستحضار له وقعُه الشَّديدُ في نفس السّامع، فضلًا عن تصوير المشهد أمام أعينهم.

سوءُ حال المجرمين غيرُ خافٍ على كلِّ من يتأتّى منه رؤيةٌ

دلالةُ حذف الفاعل والمفعول في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

لم يُصرِّحِ النَّظمُ الكريمُ بفاعلِ الفعل ﴿تَرَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ لغرضٍ دلاليٍّ يتمثَّل في العموم والشُّمول الذي لا يختصُّ براءٍ مُعيَّن، فأفادَ تناهي حالهم في الظُّهور حتَّى لا يختصَّ به مُخاطبٌ[5] دونَ مُخاطبٍ، فالحال أظهرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 220.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 711817.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 12/ 7043.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1048.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.

من أن يجهله أحدٌ، والمرادُ بيانُ كمالِ سوءِ حالهم، وبلوغُها من الفظاعةِ إلى حيثُ لا يختصُّ استغرابُها واستفظاعُها براءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ يتعجَّبُ من هولِها وفظاعتِها[1].

ويحتملُ أن يكون خطابًا للرَّسول ﷺ دون غيره؛ لعلمه بعقاب اللّه لهم أكثرَ من غيره، ولما فيه من ترويحٍ عنه ﷺ؛ فإنَّهم كانوا يُؤذونه بالتَّكذيب[2].

وحُذِفَ المفعول أيضًا لإفادة العموم، وما يحملُه من التَّهويل والتَّشنيع، ويكون تقدير الكلام: (ولو ترى حالَ المجرمين وما هم فيه من الخزي والفضيحة وأنواع الكروب التي لحِقَتْ بهم لَرأيت أمرًا عظيمًا).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِذِ﴾ دونَ (إذا):

الحدَثُ المُترقَّبُ المتوقَّعُ منَ الله بمنزلةِ الموجود المقطوع في تحقُّقِه

آثرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بـ﴿إِذِ﴾ الدّالَّة على الماضي دونَ (إذا) التي تدلُّ على المستقبل، مع أنَّ تصوير حالة المجرمين وما يحصل لهم في الآخرة يُناسبُه التَّعبيرُ بـ(إذا)، التي تُفيد تحقُّق الوقوع في المستقبل، لكنَّ التَّعبير جاء بـ﴿إِذِ﴾؛ لأنَّ الحدَثَ المُترقَّبَ المتوقَّعَ منَ اللّه بمنزلة الموجود المقطوع في تحقُّقه[3]، فالحدَثُ دالٌّ على الاستقبال، وأشار التَّعبير بـ﴿إِذِ﴾ إلى تيقُّن الحدوث؛ لأنَّه منَ اللّه القادر المُهيمن، مالك كلِّ زمان ومكان، فالثّابت في علم اللّه بمثابة الواقع، ويجوز دلالة ﴿إِذِ﴾ على المستقبل فتكونُ بمعنى: (إذا)[4].

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

كلُّ مُجرمٍ سينال جزاء قبيح عمله

تحتملُ (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ العهديَّة؛ أي: إنَّهم هم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10]، بدليل التَّوعُّدِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 83.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 510.

(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 576.

بالنّار، وقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا غيرَ مُوقنين، وتحتملُ الجنسيَّة؛ أي: جنس المجرمين، وهؤلاء المجرمون من جملتهم[1]، فكلُّ مجرم - سواءٌ أكان معهودًا أم غير معهودٍ - سينالُ جزاء قُبح أعماله، فكان التَّعريف هنا دلالةً على كمالهم في الإجرام، وعراقَتِهم في الكفر.

وآثر النَّظم الكريم الوصفَ بـ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دونَ غيره منَ الأوصاف نحو (الظّالمون - الكافرون)؛ للتَّشنيع عليهم.

دلالةُ الإظهار دون الإضمار في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

بيانُ شدَّة الذَّمِّ والتَّوبيخ لهؤلاء المُنكرين

آثر النَّظم القرآنيُّ الإظهار في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، ولم يقل: (ولو تراهم)؛ لقصدِ التَّسجيل عليهم بأنَّهم في قولهم ذلك مُجرمون؛ أي: آتون بجُرم، وهو جُرم تكذيب الرَّسول ﷺ وتعطيل الدَّليل[2]، والمراد بهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: 10]، فهو إظهارٌ في مقام الإضمار، ومعلومٌ عند النُّحاة أنَّ الرَّبط بالضَّمير هو الأصلُ في الكلام[3]، والتَّعبير بالضَّمير ليس فيه توبيخ وذمٌّ لهؤلاء، فيفوتُ بذلك الذَّمُّ والتَّشنيعُ عليهم، فكان الإظهارُ في موضع الإضمار واصفًا لحالهم القبيحة ذامًّا لهم، مُشهِّرًا بهم.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

ثباتُ المجرمين على ما يُخجِلُهم يوم القيامة

عدَلَ النَّظم الكريم عن الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دون (أجرموا)؛ للدَّلالة على ثبوت وصف الإجرام فيهم لدرجة أنَّه صار عنوانًا ووصفًا لهم، بخلاف التَّعبير بالفعليَّة؛ فإنَّه يدلُّ على تجدُّد فعل الإجرام منهم، والمقام

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82، وابن عطية: المحرر الوجيز: 4/ 360.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 647.

هنا يُناسبه التَّعبير بالاسميَّة؛ لأنَّ ذلك في يوم القيامة؛ فلا مجال لتجدُّدِ الفعل هناك.

نكتةُ التّعبير بـ﴿نَاكِسُواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

بيانُ ذلِّ المجرمين وسوءِ العاقبة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ﴿نَاكِسُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ دون غيره منَ الأوصاف التي ذُكرت في مواضعَ أخرى، كقوله: ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 43]، وقوله: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ [المنافقون: 5]، فخَصَّ المشهد هنا بتنكيس الرُّؤوس؛ لأنَّ النّاكس هو الذي يجعلُ أعلى الشَّيءِ إلى أسفلَ، وهي علامة الذُّلِّ والنَّدامة[1]، وهو نظير فعلهم في الدُّنيا من تقديم الأدنى على الأعلى، والحقُّ ﷻ سيفعل في كلِّ مُخالف في الآخرة من جنس ما فعلَ في الدُّنيا، وهؤلاء الذين نكَّسَ اللّه رؤوسهم في الآخرة فعلوا ذلك في الدُّنيا [2]، فالجزاء من جنس العمل.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بصيغةِ اسم الفاعل ﴿نَاكِسُواْ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ صفة النَّكس لرؤوسهم ثابتةٌ، وأنَّها حالة طويلة ممتدَّة يكونون عليها.

سرُّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾:

ثباتُ الخزي لهم يوم القيامة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالجملة الاسميّة في قوله: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ دونَ الفعليَّة (ينكسون رؤوسهم)؛ لتقرير ثباتهم على نكسِ رؤوسهم، خجلًا وحياءً وخزيًا عندما تبدو مثالبُهم وهَناتُهم بصورة دميمة شوهاءَ تبعثُ على الهُزْءِ بهم والسُّخرية منهم، كأنَّ ذلك استمرَّ منهم، لا يرتفع لهم رأس، ولا يمتدُّ منهم طَرفٌ[3]، فالاسميَّة هنا مُشعِرة بهيئةٍ دائمةٍ لا تتغيَّر ولا تنمحي.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11816.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 521.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿رُءُوسِهِمۡ﴾:

تخصيصُ الرَّأس بالذَّمِّ والمهانة؛ لأنَّه يحوي أشرفَ الأعضاء

أضاف التَّعبير القرآنيُّ لفظ (الرُّؤوس) إلى ضمير الغيبة ﴿رُءُوسِهِمۡ﴾؛ للنَّصِّ على أنَّ التَّنكيس لرؤوسهم هم دون غيرهم؛ لأنَّهم ساروا في طريق الإنكار للبعث، وهذا الإنكار فيه قلبٌ للحقيقة العقليَّة والشرعيَّة.

فائدةُ التّعبير بالعِنديّةِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

قهرُ المجرمين والتمكُّنُ منهم

للتَّعبيرِ بلفظ العِنديَّةِ دون غيرها من ألفاظ الظَّرفية نحو (أمام) فوائدُ، فهو دالٌّ على القهر والتَّمكُّن، فالعنديَّةُ عنديَّةُ السُّلطةِ؛ أي: وهم في حكم ربِّهم لا يستطيعون مَحيدًا عنه، فشبَّه ذلك بالكون في مكان مختصٍّ بربِّهم في أنَّهم لا يُفلِتُون منه[1]، ومع القهر والتمكُّن يكون بيان شدَّة الخجل؛ لأنَّ المربوبَ إذا أساء إلى الرَّبِّ ثمَّ وقف بين يدَيه يكون في غاية الخجل[2].

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيّة في قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

تذكيرُ النّاس بضرورة العودة إلى الله قبل فواتِ الأوانِ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالرُّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لما فيه من تذكيرهم بأنَّ مربوبَهم الحقيقيَّ هو اللّٰه الذي يقفون بين يديه، والتَّعبير بالرُّبوبيَّة مظِنَّة طلب التَّعطُّف والتَّرفُّق بهم، لكنَّهم يُقابَلون بالرَّفض التّامِّ لِما أرادوا؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما نسوا لقاء ربِّهم خذَلَهم الرَّبُّ ونسيَهم، فلم يأبَه لطلبِهم وإرادةِ رجوعهم.

بلاغةُ حذف جملةِ القول:

الإشارةُ إلى خجلهم وقلَّة العناية بقولهم

جاءت جملةُ القول: (يقولون) أو (قائلين) حالًا أو في موضع الحال؛ إشارةً إلى غاية خجلهم الذي لا يحقُّ لهم معه التَّكلُّم[3]، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

يكون مع الخجلِ التَّهافتُ على النِّداء بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ للإسراع بالنِّداء طلبًا للإجابة.

والحذفُ دالٌّ على قلّة الالتفات لقولهم، وعدم العناية به بعد فوات الأوان، وممّا يُذكر في سرِّ حذف القول هنا أيضًا أنَّه جعلَ الوقفَ جائزًا عند قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[1].

وقد قدَّر بعض العلماء فعلًا آخرَ، هو: (يستغيثون)[2]، إضافةً للفعل: (يقولون)، وفيه ملحَظُ طلب الغوث؛ لأنَّهم في موقف المهانة والصَّغار فكان تقدير: (يستغيثون) مُنسجمًا مع هذا المعنى.

دلالةُ النِّداء بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾:

الشُّعور المُطلق بالضَّعف وقلَّة النَّصير

دلَّ النِّداء من المجرمين بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ مع إضافتهم لفظَ الرُّبوبيَّة إلى ضميرهم على إحساسِهم بالضَّعف والهوان، وحاجتِهم إلى قوَّة كبرى يُعتَمَد عليها، فكان اختيار النِّداء بلفظ الرَّبِّ في قولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لما فيه منَ المُبالغة في الوصف[3].

والرَّبُّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيء إلى كماله شيئًا فشيئًا [4].

ويُضافُ إلى ذلك المناسبةُ بين لفظي: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ و﴿رَبَّنَآ﴾، فالعِنديَّة عند ﴿رَبِّهِمۡ﴾، فناسب هذا النِّداءَ بـ﴿رَبَّنَآ﴾.

وقيلَ: إنَّ المجرمين تبرَّؤوا ممّا قالوا من إنكار البعث، ويقولون: (لا ربَّ لنا غيرُك)، وأنَّى لهم ذلك بعد فواتِ الأوان؟!.

دلالةُ حذف حرف النِّداء:

مُسارعةُ النّادمين إلى طلب الصَّفح والمعذرة

حذفُ حرف النِّداء من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، والتَّقديرُ: (يا ربَّنا)؛ لِما في الحذف من شعورهم بقربهم الشَّديدِ

(1) النسفي، تفسير النسفي: 3/ 8.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 428.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.

من ربِّهم، فكان الحذف مُناسبًا لما عجَّلوا بطلبه؛ لهول الموقف، فلا يُريدون إطالة أمد وقوفهم بين يدي ربِّهم على هذه الحالة المُنكسرة أمام أعين النّاس.

سرُّ التَّعبير بالإبصار والسَّمع:

مُحاولةُ المشركين تدارك أسباب النَّجاة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإبصار والسَّمع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾؛ لأنَّهما مسؤولان عمّا يُحدِثُه المرء من حُسن أو قُبح؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: 36]، كما أنَّ في توظيف الفعلين دلالةً واعترافًا بعدم نفعِهما عند مُجابهة الرُّسل، فكأنَّهم يقولون: (كنّا عُميًا وصُمًّا فأبصرنا وسمعنا)[1]، فكانت نعمتا البصر والسَّمع مُعطَّلتَين عن إدراك الحقِّ، بل كانتا رأسًا في مُحاربة الحقِّ والتَّقليلِ منه والسُّخرية من مبادئه وأتباعه.

نكتةُ حذف مفعولَي الإبصار والسَّمع:

اتِّساعُ المعنى بتعدُّدِ المُبصَر والمسموع

نكتةُ الحذف هنا الاتِّساعُ في المحذوف على أوجُهٍ مُتعدِّدة، فيجوز أن يُقدَّر لكلٍّ من الفعلين مفعولٌ مناسب له ممّا يُبصرونه ويسمعونه، بأن يُقال: أبصرنا البعثَ الذي كنّا نُنكره وما وعدتَنا به على إنكاره، وسمعنا منك ما يدلُّ على تصديق رسلك عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ويجوز أن يُقال: أبصرنا البعثَ وما وعدتَنا به، وسمعنا قولَ الرُّسل؛ أي: سمعناه سمعَ طاعةٍ وإذعانٍ.

ويجوزُ أن يُقال: أبصرنا قُبحَ أعمالنا التي كنّا نراها في الدُّنيا حسنةً، وسمعنا قولَ الملائكة لنا: إنَّ مردَّكم إلى النّار.

ويجوزُ أيضًا أنَّهم أرادوا: أبصرنا رسلَك، وسمعنا كلامَهم حين كنّا في الدُّنيا.

(1) الكشاف، الزمخشري: 3/ 510.

ويجوزُ: أبصرنا آياتِك التَّكوينيَّةَ، وسمعنا آياتِك التَّنزيليَّةَ في الدُّنيا، فلك الحجَّةُ علينا وليس لنا حجَّةٌ فارجِعْنا[1].

هذا، ويجوز أن تكون الهمزةُ للتَّصيير، وهذا معنًى من معاني (أفعلَ)، فيكون التَّقديرُ: (صِرْنا ممَّن يسمع ويُبصر)[2]، فلا يُحتاج إلى تقدير مفعول.

نكتةُ تقديم الإبصارِ على السَّمع:

مُعاينةُ الكفّار ما وعدهم الله ورسوله به يوم القيامة

نكتة تقديم الإبصار على السَّمع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ - مع أنَّ الغالب في آيات القرآن الكريم تقديمُ السَّمع على البصر - أنَّ الكلامَ عن المجرمين الذين كانوا في الدُّنيا يسمعون عن القيامة وأحوالها ولا يُبصرون، إلّا أنَّ ما يسمعونه كان يدخل في مجال الشَّكِّ والظَّنِّ، ولو تيقَّنوا لآمَنُوا، أمّا في الآخرة فقد أبصروا ما كانوا يسمعون عنه؛ لأنَّهم أصبحوا في مجال اليقين، وهو ميدانُ البصر (عينُ اليقين)، والآخرة ميدان الرُّؤية، وليست ميدانَ السَّمع، وقد قيلَ: (ليس الخبرُ كالمُعاينة)، فعندما رأوا في الآخرة ما كانوا يسمعونه ويشكُّون فيه تغيَّر الحالُ، ولذا اقتضى تقديمَ البصر على السَّمع[3].

وممّا يُذكر أيضًا في سرِّ التَّقديم ما اكتشفَه العلماء حديثًا من أنَّ سرعةَ انتقالِ الصُّورةِ تزيدُ على سرعةِ انتقالِ الصَّوت، فالصُّورةُ تنتقلُ بسُرعةِ ثلاثمئةِ ألفِ كيلو مترٍ في الثّانيةِ، أمّا الصَّوتُ فلا ينتقلُ إلّا بسرعةِ ثلاثمئةٍ وثلاثين مترًا في الثّانيةِ، فلمّا كان الحديثُ عن إنشاءِ السَّمعِ والأبصارِ قُدِّم السَّمعُ على البصرِ في سبعَ عشرةَ آيةً، وحينَ انصبَّ الحديثُ على فعلِ الإبصارِ، حيث إنَّ الصُّورَ تراها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 125.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 290.
(3) فاضل السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني: 70.

العينُ قبلَ سماعِ الصَّوتِ قُدِّم الإبصارُ على السَّمعِ، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1].

سرُّ التَّعبير بالإبصارِ دون الرُّؤية:

العلمُ بالشَّيء إمّا بالعين أو بالقلب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإبصار دون الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾؛ لِما تتميَّز به مادَّةُ الإبصار في هذا المشهد، وذلك لأنَّ مادةَ (بصر) تتميَّز بالوضوح في رؤية الشَّيء، بخلاف مادَّة (رأى)؛ فإنَّها تدلُّ على العلم بالشَّيء إما بالعين أو بالقلب، ولمّا كانت مادة (بصر) تدور باستعمالاتها حول الإدراك بحاسَّة البصر، وهي العين، أو الإدراك بالبصيرة، وهي القلب أو العقل، والمشهد هنا يُناسبه التَّعبير بالبصر؛ لأنَّه يتناسب مع ما رأوه أمام أعيُنهم من الآيات الكونية في مشهد يوم القيامة؛ لذلك آثر البيان القرآني التَّعبير بالبصر دون الرُّؤية.

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾:

تمنّي الكفّار الرُّجوعَ لعمل أعمالٍ صالحة

آثر القرآن الكريم العطفَ بالفاء دون غيرها من حروف العطف؛ لأنَّها تحمل معنى الإفصاح؛ فهي الفاء الفصيحة[2]، التي تُفصح عن شرط مُقدَّر، فكأنَّ الكلامَ: (فإنّا أيقنّا وأبصرنا وسمعنا فارجِعْنا)، والحذف هنا دالٌّ على شدَّة تمنّيهم الرُّجوعَ إلى الدُّنيا؛ تمسُّكًا بالأمل في البُعد عن العذاب الشَّديد.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالفاء أيضًا: أنَّها تُفيد سرعة التَّرتيب والتَّعقيب؛ فبمُجرَّد البصر والسَّماع طلبوا الرُّجوع إلى الدُّنيا للعمل الصّالح.

علَّةُ اقتران الفعل بـ(نا) الفاعلين:

اتِّحادُ قول المجرمين ورجائهم عندما كُشِفَ لهم جزاؤهم

اقترن الفعل ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ بـ(نا) الفاعلين لأمرين: **الأول**: دلالة

(1) محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: 1/ 133.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 578.

الاتِّحاد في القول والرَّجاء، فكأنَّ فريق المجرمين اتَّفقوا على هذا القول بعد تأكُّدهم منَ العذاب المُهين، **والثّاني**: التَّناسب الحاصل في الأفعال التي اقترنت بـ(نا)، وهي: ﴿أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، ويلي ذلك التَّعبيرُ بالجمع ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

نكتةُ اختيار الفعل (رجع) دونَ غيره:

الإلــحــاحُ في الطَّلب مع بيان كذبِهم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ(الرُّجوع) دون (الرَّدِّ) في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالرَّجعُ في اللغة: ردُّ الشَّيء إلى أوَّل حاله؛ بخلاف الرَّدِّ؛ فهو صرف الشَّيء عن وجهه؛ لذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلقًا، وهذا ما يتناسب مع حال المُجرمين؛ فهم يتمنَّون الرُّجوع إلى الدُّنيا على أيِّ حالة، والفعل (رجع) فيه دلالةٌ على الإلحاح على تغيير حالهم البائسة؛ لأنَّ الرُّجوع انقلاب الشَّيءِ إلى حال قد كان عليها[1]، فحالهم التي كانوا عليها حال التَّكذيب والصَّمم والإعراض عن الدَّعوة، ومن ثَمَّ فالفعل يشي من طَرْفٍ خفيٍّ بأنَّهم كاذبون في دعوتهم، مُستمرُّون في الخداع، مُنغمسون في التَّقليل من أنفسهم بكذبهم.

دلالةُ صيغة الأمرِ في: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾:

بيانُ ذلِّ الكفّار وهـوانِـهـم مع اليأس

دلَّ أسلوبُ الأمر هنا على الدُّعاء، وهذا تعبير سيبويهِ في باب الأمر والنَّهي، فالدُّعاء بمنزلة الأمر والنَّهي، وإنَّما قيل: (دعاءٌ)؛ لأنَّه استُعظِمَ أن يُقال: (أمرٌ أو نهيٌ)[2]، فخطاب اللّه ﷻ ينبغي أن يُعبَّر عنه بالألفاظ التي تليق بالذّات الإلهيَّة، فكان الأولى أن يُقال: فعلُ دعاءٍ، لا فعلُ أمرٍ، فدلَّ الفعل ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ على الدُّعاء والتَّضرُّع والخشوع، تمهيدًا للاستجابة إلى رجائهم ودعائهم، وفيه منَ الضَّعف والهوان وعدم تملُّك أمرهم ما فيه، فهم والذِّلَّة والمسكنةُ سواءٌ.

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 492.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 142.

دلالةُ حذف مُتعلَّق الرُّجوع:

شــدَّة رغـبـة المـجـرمـين بـالرُّجوع الذي سيتغيَّر حالهم بعده

حُذِفَ مُتعلَّق الرُّجوع للفعل: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾؛ لأنه يُعلَم من سياق الكلام، فهم قد عُرِضوا على النّار، ومن ثمَّ فمُتعلَّق الرَّجوع هو: (إلى الدُّنيا) التي هي دار الأعمال، فهؤلاء لا يُريدون ذكر ما هو معلوم، والحذف دالٌّ هنا على أيِّ رجوع مهما كان أمره، فالمهمُّ أن يرجعوا، ففي حذف المُتعلَّق بيانُ شدَّة الرَّغبة في هذا الرُّجوع الذي سيتغيَّر حالُهم بعدَه.

دلالةُ الموقع الإعرابيّ لـ﴿نَعۡمَلۡ﴾:

بيانُ الرَّغبة في العمل تخلُّصًا من شؤم المصير

دلَّ الجزم في الفعل ﴿نَعۡمَلۡ﴾ على أنَّه مُتعلِّقٌ بما قبله، وهو فعلٌ سُبِقَ بفعل الأمر ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾، وللنُّحاة طريقتان في إعرابه: الأولى: أنَّ الفعل المجزوم واقعٌ في جواب الطَّلب فجُزِمَ به، والثّانية: أنَّ الفعل مجزوم على أنَّه جواب شرط محذوف[1]، وتقدير الجملة: (إن نرجعْ نعملْ صالحًا)، وارتباط الجواب بما قبله ارتباطُ سبب ونتيجة، وهذا يرسم صورة الصّادق الرّاغب في العمل تلوَ العمل كي يتخلَّص من شُؤم عاقبتِه، وعلى الطَّريقة الثّانية بحذفِ أداة الشَّرط وفعل الشَّرط طلبًا للإسراع في العمل الصالح وتخلُّصًا من العذاب المُهين.

نكتةُ التَّعبير بالعمل دون الفعل:

فـــي الـعـمـل قصديَّةٌ ومُثابرةٌ وامـتـدادُ زمـانٍ ليست في الفعل

آثر النَّظم التَّعبير بالعمل دون الفعل؛ لأنَّ العمل أخصُّ من الفعل، فكلُّ عمل فعلٌ، ولا ينعكس[2]، وهذا يحمل قصديَّة الفعل والتَّوجُّهَ إليه؛ لأنَّ فيه امتدادَ زمان[3] غير الفعل، ومن ثمَّ عبَّر عن الفعل بـ﴿نَعۡمَلۡ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أن ما كان يُطلب منهم في الدُّنيا هو العمل الصّالح، الذي ذكره القرآن في آياتٍ كثيرةٍ في مدحه لأهل

---

(1) السيوطي، همع الهوامع: 2/ 540.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109 - 110.

(3) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

الإيمان؛ لجمعِهم بين الإيمان والعمل الصّالح؛ لذلك كان مطلبُهم الرُّجوعَ للعمل الصّالح.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿نَعۡمَلۡ﴾:

المُثابرةُ على الأعمال الصّالحة وعدمُ التَّسرع في أدائها

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿نَعۡمَلۡ﴾؛ لأنَّه يرمي إلى ديمومةِ العمل واستمرارِه؛ أملًا في الخروج من المأزق الذي هم فيه، فكأنَّ المقصود هنا المُثابرة على الأعمال الصّالحة لا الإتيانُ بها مرَّةً أو بسرعةٍ.

نكتةُ تنكير في قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾:

عموميَّةُ صلاح العمل مع تعظيمِه

أفاد التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ العمومَ والشُّمولَ؛ لكلِّ عملٍ يُعمل، في إشارةٍ منهم إلى التَّمسُّكِ بحبال الأمل والنَّجاة ممّا ينتظرهم من مصير، وقد يكون التَّنكير للتَّعظيم؛ فإنَّ العمل الذي سيقومون به شأنُه عظيم؛ ليُناسب عظمةَ الموقف وشدَّته، فكأنَّ التَّنكير أفاد الرَّغبة في كمال العمل والتَّناهي فيه؛ لتعويض ما فات.

دلالةُ التَّعبير بالإفراد في: ﴿صَٰلِحًا﴾ دونَ الجمع:

العملُ الصّالح ليس من طباع المجرمين الثّابتةِ التي درَجوا عليها بل هي أمرٌ مُحدَثٌ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمفرد في: ﴿صَٰلِحًا﴾ دون الجمع (صالحات)؛ للإشارة إلى أنَّ العمل الصّالح ليس من طِباعهم الثّابتةِ التي درَجوا عليها، وإنَّما هي أمرٌ مُحدَثٌ، فعبَّر عن ذلك بالمُفرد: ﴿صَٰلِحًا﴾، ولأنَّ التَّعبير بالجمع فيه الإشارة إلى تفخيمه؛ والدَّلالةُ على التَّعدُّد والتَّنوُّع، وهذا غير مُرادٍ هنا؛ لأنَّهم كاذبون في دعواهم الإيمانيَّة، ومعلوم أنَّ الإيمان حتى يثبُتَ ويقوى يلزمُه كثرة الأعمال الصّالحة وتعدُّدُها وتنوُّعها[1]، وهم على غير إيمانٍ أصلًا؛ لأنَّهم مُدَّعون.

(1) الأمين الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 131.

وكذلك التَّعبير بالمُفرد أخفُّ في الاستعمال من التَّعبير بصيغة الجمع، والموقف يُناسبه هنا التَّعبير بالمفرد مراعاةً للحالة التي هم عليها.

سرُّ فصل قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

إيقانُ المُجرمين يوم القيامة بصدق ما دُعوا إليه منَ الإيمان في الدُّنيا

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّ الجملة استئنافيَّةٌ تُفيد التَّعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصّالح الذي زعموه في قولهم: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّهم صاروا مُوقنين بحقيقة ما دعاهم إليه الرَّسول ﷺ.

وقد يُقال: إنَّه استئناف لم يُقصد به التَّعليل، وعلى التَّقديرين هو مُتضمِّن لادِّعائهم صحَّةَ الأفئدة، والاقتدارَ على فهم معاني الآيات والعمل بما يُوجِبُه[1].

سرُّ التّعبير بالجملة الاسميَّة دون الفعليَّة:

ثبـاتُ يقين المجرمين بقدرة الله المطلقة

جاء التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ دون الفعليَّة؛ للدَّلالة على أنَّهم ثابتون على الإيقانِ وكمالِ رغبتهم فيه، بعد أن ظهرت أمامهم العواقب المُنادية عليهم بالويل والثُّبور؛ لذلك كان قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يعني أشدَّ الإيقان وأكملَه بقدرة الله وعظمتِه، وكلُّ ذلك للجدِّ في الاستدعاءِ؛ طمعًا في الإجابةِ إلى ما سألوه[2] من إعادة وإرجاع لبدء حياة جديدة مبدَؤُها ومُنتَهاها العمل الصّالح.

وقد يُضاف إلى ذلك بيانُ حالهم ساعة التَّكلُّم، فالمعنى: (إنّا مُوقنون أنّا في الحال آمنّا)[3].

دلالةُ التَّأكيد بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

ازديادُ المجرمين ثباتًا في ادِّعائهم الإصلاحَ لو مُنحوا فرصةَ العودة

دلَّ التَّعبير بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ على التَّأكيد، وفائدتُه إظهار ثباتهم على اليقين وكمالِ رغبتهم فيه، وممّا يُذكر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 125.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 143.

في سرِّ التَّأكيد بـ (إنَّ) أنَّها بمنزلة إعادة الجملة مرَّتين[1]، فبدلًا من أن يقولوا: (أيقنّا أيقنّا)، قالوا: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، مع ملاحظة أنَّ اسم الفاعل ﴿مُوقِنُونَ﴾ كذلك يدلُّ على الثَّبات مُقارنةً بالفعل، فتعدَّدت التَّأكيدات منَ الكفّار لمُحاولة إثبات صدقِهم وندمِهم.

نكتةُ حذف النُّون في: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾:

اختصارُ العبارة لتتناسبَ مع مُسارعتهم في القول

حُذفت النُّون في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ لمناسبة ما جاء في السُّورة من طريقة التَّوكيد، فكلُّ الآيات التي أُكِّدت بـ (إنَّ) مع النُّون جاءت بنون واحدة لا نونين، فكان التَّناسب حاصلًا في التَّعبير بنون واحدة مع (إنَّ) التَّوكيديَّة.

وقد يُقال: إنَّ حذف النُّون سببُه السُّرعة في القول وعدمُ تفصيل حالهم عكسَ (إنَّنا)؛ لأنَّ زيادة المبنى دالَّة على زيادة المعنى.

سرُّ التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ دون غيرها:

الإيمان لفظٌ عامٌّ واليقين لفظٌ خاصٌّ

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ دونَ (مؤمنون)؛ لأنَّ اليقينَ من صفة العلم فوق المعرفة والدِّراية وأخواتها، يُقال: علمُ يقينٍ، ولا يُقال: معرفةُ يقينٍ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[2]، أمّا الإيمان فلفظ عامٌّ يُطلق على عدد منَ الأشياء؛ فقد يكون تارةً اسمًا للشَّريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ، وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: 69]، ويُوصف به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا باللّٰه وبنبوَّته، وتارةً يُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [الحديد: 19]، ويُقال لكلِّ واحدٍ من الاعتقاد والقول الصِّدق والعمل الصّالح: إيمانٌ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 188.
(2) الراغب، المفردات: (يقن).
(3) الراغب، المفردات: (أمن).

ويصلحُ أن يكون اليقينُ نتيجةً للإيمان، فالإيمان مرحلة من مراحل اليقين؛ لأنَّ المشهد يتعلَّق بأحوال الآخرة وما فيها من جزاءٍ وعقاب للكافرين، الذين كانوا يُنكرون أمور البعث في الدُّنيا؛ فلمّا رأوا ذلك رأيَ العين عبَّروا عنه باليقين، ولأنَّ الإيمان يكون في الدُّنيا وليس في الآخرة؛ فلا يتناسبُ معها التَّعبير بالإيمان.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مُوقِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بيانُ قدرة المُجرمين على الفهم والعلم ولكنْ بعد فوات الأوان

آثر النَّظم التَّعبير باليقين في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ لبيان ادِّعائهم صحَّةَ الأفئدةِ والاقتدارَ على فهم معاني الآياتِ والعمل بمُوجبِها، كما أنَّ ما قبله ادِّعاءٌ لصحَّة البصر والسَّمع، كأنَّهم قالُوا: (وأيقَنّا وكنّا من قبلُ لا نعقلُ شيئًا أصلًا)[1]، ففي التَّعبير إشعارٌ بالنَّدامة والحسرة على ما فاتهم منَ الإيقانِ بقدرة اللّه وعظمتِه، وفيه طمع فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدُّنيا، وأنَّى لهم ذلك، فقد حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّه، فإنَّهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبون[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق: ﴿مُوقِنُونَ﴾:

إفادةُ العمومِ وتناسبُ رؤوسِ الآي

حُذِفَ مُتعلَّق قوله: ﴿مُوقِنُونَ﴾ لأمرين: **الأوَّل**: اتِّساعُ المعنى المترتِّبِ على حذف المُتعلَّق، فيجوز أن يكون المحذوف: (بالبعث)، أو (بالذي قال الرَّسول)[3]، **الثَّاني**: تناسبُ رُؤوسِ الآي، وذلك أنَّ الآيات تنتهي بالنُّون.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُرم والفِسقُ والكفرُ:

الجُرمُ يُستعمل للذَّنب الغليظ

الجُرم لا يُطلق على مُطلقِ الذَّنب، إنَّما يُطلق على الذَّنب الغليظ، فالمُجرم مَن حمَلَ جُرمًا[4]، وكلُّ مُجرمٍ في القرآن قُصِدَ به الكافرُ[5]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 82.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 291.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 435.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرم).
(5) الكفوي، الكليات فصل الميم، ص: 802.

أمّا الفِسقُ فخروجٌ عن حجر الشَّرع، وذلك من قولهم: (فَسَقَ الرُّطَبُ)، إذا خرج عن قشره، وهو أعمُّ منَ الكفر، ويقع بالقليل منَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعُورف فيما كان كثيرًا، وأكثر ما يُقالُ: (الفاسقُ) لِمَن التزم حُكمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيلَ للكافر الأصليِّ: (فاسقٌ) فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمَه العقل واقتضَتْه الفطرة، قال اللّه تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55]؛ أي: مَن يستُر نعمةَ اللّه فقد خرج عن طاعتِه، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾، فقابَلَ به الإيمانَ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[1].

الإبصارُ والرُّؤيةُ والنَّظر:

لا يلزم من نفي النَّظر نفيُ الإبصارِ

النَّظرُ: تقليبُ البصر والبصيرة لإدراك الشَّيء ورُؤيته، وقد يُرادُ به التَّأمُّل والفحصُ، وقد يُرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحصِ، وهو الرَّويَّةُ، ويُستعملُ النَّظر في التَّحيُّر في الأمور، نحو قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: 55][2]، أمّا الرُّؤيةُ فأصلُها رؤية العين، ثمَّ استُعملت في العلم؛ لوقوع العلم مع الرُّؤية، كما أنَّ أصل البصر بصرُ العين، ثمَّ سُمّي العلمُ بصيرة وبصرًا؛ لأنَّه قد يقع مع بصر العين ورُؤية العين[3].

ومنَ الفروق بين النَّظر والبصر أنَّه لا يلزم من نفي النَّظر نفيُ الإبصار، لجواز قولهم: (نظرتُ إليه فلم أُبصره).

(1) الراغب، المفردات: (فسق).
(2) الراغب، المفردات: (نظر).
(3) العسكري، الأشباه والنظائر، ص: 236.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13]

لا يــلــزم من نفي النَّظر نفيُ الإبصارِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا طلب المُجرمون في الآية السّابقة أن يعودوا إلى الدُّنيا مرَّةً أخرى؛ ليعملوا عملًا صالحًا، جاءت هذه الآية الكريمة ردًّا ضِمنيًّا على ما طلبوا مِنَ العودة للحياة الدُّنيا في قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾، وبيانُه أنَّه تعالى قال: إنّي لو أرجعتُكم إلى الإيمان لهدَيتُكم في الدُّنيا، ولمّا لم أهدِكُم تبيَّن أنّي ما أردتُ وما شئتُ إيمانَكم فلا أَرُدُّكم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته[2]، والحقُّ: المُطابقة والمُوافقة؛ يُقالُ: حقَّ الأمرُ يحِقُّ ويحُقُّ حقًّا وحُقُوقًا: صار حقًّا وثبَتَ؛ وأحقَّه: صيَّره حقًّا[3]، ومن ذلك (الحَقُّ) نقيضُ الباطلِ، وهو الشَّيءُ الثّابت الرّاسخ المُتمكِّنُ بشريعةٍ صحيحةٍ، أو عُرفٍ عامٍّ، ويدورُ المعنى المحوري له حول تمكُّنِ الشَّيءِ في عُمقِ مقرِّه[4].

2) ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾: (جنّ) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّترُ والتَّستُّرُ[5]، وجَنَّ الشَّيءَ يجُنُّه جَنًّا: ستَرَه، وكلُّ شيءٍ سُتر عنكَ فقد جُنَّ عنكَ، والمعنى المحوريُّ سترُ الشَّيء بكثيفٍ يعلوه أو يكونُ الشَّيءُ في أثنائه؛ كالشَّجر والنَّخل والعِنَب تُظِلُّ ما تحتَها وتستُرُه[6]، والجِنُّ: نوعٌ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 144.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنن).

العالَم سُمُّوا بذلك لاجتنانِهم عن الأبصارِ، ولأنَّهم استَجَنُّوا منَ النّاس فلا يُرَون، والجِنُّ خِلافُ الإنسِ، والواحِدُ: جِنّيٌّ، سُمّيت بذلك لأنَّها تَخفَى ولا تُرَى[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مشيئةُ الله في هدايةِ خلقِه

يُبيِّنُ اللّه ﷻ في هذه الآية أنَّه لو شاء هداية النّاس جميعًا وتوفيقَهم إلى الطاعة لآتى كلَّ نفسٍ هُداها، فتهتَدي بالإيمان والطاعة باختيارٍ منها وكسبٍ لها، ولكنْ لم نشأ توفيقَ النّاس جميعًا إلى ذلك، بل حقَّ القولُ منّي وثبت لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والنّاس الذين يختارُون الضَّلالة، ويسلكون الطَّريق المُؤدّيَ إلى جهنَّمَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَوۡ﴾:

يجوز في الواو أن تكون عاطفةً أو اعتراضيَّةً للحال، فإذا كانت عاطفةً فهي تعطفُ على ما قُدِّر قبل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾؛ أي: ونقولُ: (لو شئنا)[2]، فهي معطوفةٌ على الآية السّابقة: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وإذا كانت اعتراضيَّةً فهي تعترضُ بين القولِ المُقدَّرِ قبل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾، وبين الجواب عنه بقوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ﴾، فالواو التي في صدر الآيةِ اعتراضيّةٌ، وهي من قَبيلِ واو الحال[3].

نكتةُ التَّعبير بـ(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾:

الهدايةُ التي يتعلَّقُ بها الفوز بالآخرة هي هدايةُ الدُّنيا

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾؛ لأنَّها حرف امتناع لامتناع تدلُّ على ارتباط الجواب بالشَّرط، والمعنى: أنَّه لو تعلَّقت مشيئَتُنا تعلُّقًا فعليًّا بأنْ نُعطيَ كُلَّ نفسٍ منَ النُّفوس البَرَّة والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمانِ والعملِ الصّالحِ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 83.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 222.

لأعطيناها إيّاه في الدُّنيا، التي هي دارُ الكسبِ، وما أخَّرناه إلى دارِ الجزاءِ[1]؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ﴿وَلَوْ﴾ لبيان شدَّة ارتباطِ الشَّرطِ بالجواب، فالجوابُ: ﴿لَآتَيْنَا﴾ مُمتنعٌ؛ لامتناع الشَّرطِ: ﴿شِئْنَا﴾، وفي هذا دليلٌ على شدَّة ارتباطِ الهداية بالمشيئة الإلهيَّة.

فائدةُ التَّعبير بالشَّرطيَّة:

تسليةُ الرَّسول ﷺ وتأنيسُه

الغرضُ منَ التَّعبير بالشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي﴾ هو إرادةُ تسليةِ الرَّسول ﷺ[2]، وتأنيسُه بسبب ما يُقابله من لَأيٍ ومشقَّةٍ يُسبِّبُها له الكفّار المجرمون، ويُضاف إلى ذلك أنَّ الجملة الشَّرطيَّةَ جاءت جوابًا لقولهم: ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾، كما ذكر بعض العلماء[3].

وقد يُقال: إنَّ بناء الكلام على الشَّرط فيه تشويقٌ لطلب الجواب المُتعلِّق بالشَّرط، فكان في الشَّرط جذبًا للانتباه وإيقاظًا للأذهان.

سرُّ التَّعبير بالمشيئة دونَ الإرادة:

المشيئةُ تقتَضي الوجودَ لا الإرادةَ

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمشيئة دون الإرادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لوجودِ فرق بينهما، فالإرادة تكون لِما يتراخى وقتُه، ولما لا يتراخى، بخلاف المشيئة فهي لما لم يتراخَ وقتُه، ولأنَّ الإرادة هي العزمُ على الفعل أو التَّرك بعد تصوُّر الغاية المُترتِّبة عليها، فهي أخصُّ منَ المشيئة؛ لأنَّ المشيئة ابتداء العزم على الفعل، فنسبتُها إلى الإرادة كنسبة الضَّعف إلى القوَّة، والظَّنِّ إلى الجزم؛ فإنَّك ربَّما شئت شيئًا ولا تُريده لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيٍّ، وأمّا الإرادة فمتى حصلَت صدَرَ الفعلُ لا محالة[4]، وبناءً على هذا فالمشيئة والإرادة مُتغايران؛ لأنَّ المشيئة منَ الله تقتَضي وجود الشَّيء، أمّا الإرادة فلا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 83.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 4.
(3) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 150.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 74.

تقتَضي الوجود، مثلَ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 31][1]؛ لذلك آثر الذِّكر الحكيم معنى المشيئة؛ لأنَّه يقتَضي الوجودَ لا محالة، فلا رادَّ لمشيئتِه.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿شِئۡنَا﴾ دونَ المضارع:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالماضي ﴿شِئۡنَا﴾ دونَ المضارع (نشاء)؛ للدَّلالة على أنَّ مشيئة اللّه في عدم هداية الكفّار والمجرمين أمرٌ أزليٌّ قدَّره اللّه ﷻ لعلمِه بما يكونون عليه من أمر الكفر وإنكار البعث.

دلالةُ إسناد المشيئة إلى نونِ العظمة:

تربيةُ المهابة في نفوس الخلائقِ مع الثِّقة فيما قدَّره اللّه

أُسنِد الفعل (شاء) إلى نونِ العظمة (نا) في قوله: ﴿شِئۡنَا﴾، تربيةً للمهابة في نفوس الخلائق، مع الثِّقة فيما قدَّره اللّه ﷻ للخلائق، وفيه إبرازٌ لقيمة المشيئة الصّادرة منَ اللّه ﷻ؛ فالفعل يكتسبُ قيمتَه ممّا اتَّصل به، وفعل المشيئة اتَّصل بـ(نا) العظمة، فصارتِ المشيئة عظيمةً لعظَمة مَن شاءها، وللدَّلالة على السَّيطرة والهيمنة، فالملك ملكه، والتَّصرُّف تصرُّفه، والحكم حكمه، فالعظمة تأبى أن يكون لغير اللّه شيء يستقلُّ به، أو يكونَ في ملكه ما لا يريدُ[2].

نكتةُ حذفِ مفعول المشيئة:

حـذفُ المفعول لغرضِ التَّعميم وللعلمِ به

حُذِفَ مفعولُ المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ لأغراضٍ:

الأوَّل: الغالبُ في فعل المشيئة الواقعِ شرطًا استغناؤُه عن المفعول بما يدلُّ عليه جوابُ الشَّرط، والمعنى: (لو شئنا لجبَلْنا كلَّ نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيارٍ كما جُبلت العجماواتُ على ما أُلهِمت إليه من نظامِ الحياة)[3].

---

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية: 4/ 149.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 223.

والثّاني: قد يُحذَف مفعولُ الفعل المُتعدّي ويُنزَّل منزلة اللّازم لإثبات معنى فعل الفاعل، والتَّقدير: (منه المشيئة الحقيقيَّةُ لا من غيره)[1].

والثّالث: العموم والشُّمول لكلِّ ما في الكون؛ فكلُّ ما في الكون تحت مشيئتِه وإمرته.

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لَآتَيۡنَا﴾:

بيانُ قوَّة الإيتاء الممنوحِ من الله تعالى

جاءت اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَآتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ جوابًا لأداة الشَّرط الامتناعيَّةِ (لو)، وجوابُها يجوز فيه الإتيانُ باللّام، ويجوز عدم الإتيان بها، فيجوز في غير القرآن أن يُقال: (ولو شئنا آتينا)، غيرَ أنَّ اللّام هنا جاءت لتأكيدِ قوَّة الإيتاء الصّادرِ من اللّه إذا شاء ذلك، فالإرادةُ نافذةٌ، والقدرةُ لا يُعجِزُها شيءٌ.

سرُّ التَّعبير بالإيتاءِ في قوله: ﴿لَآتَيۡنَا﴾:

يُسرُ هداية مَن شاء الله هدايتَهم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإيتاء في قوله: ﴿لَآتَيۡنَا﴾ لِما يحملُه هذا الفعل من اليُسر والسُّهولة في هداية اللّه لَمن شاء هدايتَهم، وأيضًا في عدم هداية من لم يُرد اللّه أن يهديَه، فلا يُعجزه شيءٌ، وفيه إشارة إلى عظمة فعل اللّه تعالى في مشيئة الهداية وعدمِها؛ لأنَّه منَ الأمور العِظام.

دلالةُ إسناد الفعل إلى نون العظمة:

تعدُّدُ نِعم الله تعالى على العباد

دلَّ التَّعبيرُ بنون العظمة في قوله: ﴿لَآتَيۡنَا﴾ على قوَّة الإيتاء وعظمَته، وعلى التَّناسب والتَّآخي بين ﴿لَآتَيۡنَا﴾ و﴿شِئۡنَا﴾، إضافةً إلى أنَّ الإيتاء يتعدَّدُ بتعدُّدِ المُؤتَى[2]، فكان الأوفقُ توظيفَ (نا) العظمةِ، ويُضافُ إلى ذلك دلالةُ المفعول به والمُضافِ إليه ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾، فضميرُ العظمة هنا أوفقُ بالكثرة الدّالِّ عليها ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾[3].

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية: 4/ 149.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 126.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 126.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾:

قدرةُ الله تعالى مُحيطةٌ ونافذة على التَّصرُّف

دلَّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾ على الإحاطة والشُّمول، والقدرةِ المُطلقةِ النّافذة على الإيتاء والتّصرُّفِ، وهذا الشُّمولُ والعموم يتلاءم مع تنكير لفظةِ ﴿نَفۡسٍ﴾ الدّالَّة على الإحاطة التّامَّة بكلِّ المخلوقات، وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بقوله: ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾ الإذعانُ والخضوعُ والتَّسليمُ بالقدرة المُطلقةُ للّه ربِّ العالمين، والانصياعُ لأوامره ونواهيه.

علّةُ إسناد الهداية إلى النَّفس:

بيانُ اختصاص كلِّ نفس بهدايةٍ تُناسبُها

أُسنِدت الهدايةُ إلى النَّفس في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ لأنَّ المُراد هُدى المعونة، وإلّا فقد هَدى اللّهُ جميعَ النّاس هُدى الدَّلالة على طريق الخير، فالذي أخذ بهدى الدَّلالة يأخذ هُدى المعونة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: 17](1)، فدلَّ ذلك على أنَّ لكلِّ نفسٍ هدايةً خاصَّةً بها.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿هُدَىٰهَا﴾:

يـنـكـشِـفُ للإنسان بالتَّدبُّرِ عواقبُ الأعمال

دلَّت الإضافةُ إلى الضَّمير في قوله: ﴿هُدَىٰهَا﴾ إلى أنَّ الغرض منه تمكُّنُ النَّفس منَ الهداية والرَّشاد والتَّوفيق وصالح الأعمال تمكُّنًا شاملًا(2)، ولمّا أراد أن يكِلَ إلى الإنسان تعميرَ هذا العالَم، وأن يجعلَه عُنوانًا لعلمِه وحكمتِه، وأن يُفضِّلَه على جميع الأنواع اقتَضَى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلًا يُدرِكُ به النَّفعَ والضُّرَّ، والكمال والنَّقص، والصَّلاح والفساد، والتَّعمير والتَّخريب، وتنكشف له بالتَّدبُّرِ عواقبُ الأعمال المُشتبهةِ والمُموَّهة، بحيث يكونُ له اختيارُ ما يصدُرُ عنه من أجناسِ وأنواعِ الأفعالِ الَّتي هي في مكنتِه بإرادةٍ تتوجَّه إلى الشَّيء وضدِّه(3).

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11825.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 223.

تصحيحُ الفهم وتحقيقُ الاختصار في النَّظم

بلاغةُ الإيجاز بالحذفِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ﴾ للدَّلالة على الاستدراكِ، وفائدتُه: تصحيح الفهم واعوجاجِ التَّفكير، وقد جاءت (لكنْ) دالَّةً على الاختصار بالحذف منَ التَّركيب؛ إذْ حذَفَ مُعظم ما أريدَ بحرفِ الاستدراكِ، فالمعاني المترتِّبةُ على وجود (لكنْ) أن يُقدَّرَ: (ولكنّا لم نشأ ذلك بل شئنا أن نخلُقَ النّاس مُختارين بين طريقَي الهدى والضَّلال، ووضعنا لهم دواعي الرَّجاء والخوفِ)(1).

تحقُّق الوعد الإلهيِّ وعدمُ إخلافِ الميعاد الذي واعدَه الله لخلقِه

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿حَقَّ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل ﴿حَقَّ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّه بمعنى: ثبت وتوجَّبَ، ودلَّ على القدرة المُطلقة وعدم إخلافِ الميعاد؛ لأنَّ إخلاف الميعاد إنَّما يكون لعجزٍ أو نسيان أو حاجة، ولا شيء من ذلك يليقُ بجناب اللّه، أو يحلُّ بساحتِه(2).

ترابطُ النَّظم القرآنيّ بالإشارة إلى معهودٍ سابقٍ

نكتةُ العدول عن الإضافة إلى التَّعريف:

عدَلَ النَّظم القرآنيُّ عن الإضافة إلى التَّعريف، فلم يقل: (حقَّ قولي) بل قال: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾؛ لأنه أُريد الإشارة إلى قولٍ معهودٍ، وهو ما في سورة (ص): ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 84 - 85] أي: حقَّ القول المعهودِ(3).

تعظيمُ شأن القول ودفعُ اللّبس بأنَّ هناك مَن حَقَّ قولُه مع الله

دلالةُ التَّعبير بـ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنِّي﴾:

جاء التَّعبير بـ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنِّي﴾ للدَّلالة على ابتداء الغاية، والغرض منه تعظيم شأن هذا القول بأنَّه منَ اللّه، ليكتسب قوَّته وجلالَه، كما عَدل النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ عن ضمير العظمة إلى ضمير النَّفس لإفادة الانفرادِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 223.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 224.

بالتَّصرُّفِ ولأنَّه الأصلُ، مع ما في هذا الاختلاف من التَّفنُّن[1]، ودفع اللَّبس بأنَّ هناك مَن حقَّ قولُه مع الله، فلو قيلَ: (منّا) لظُنَّ أنَّ أحدًا شاركَ الله في حقّيَّة القولِ، وهذا ما لم يكُنْ، فكان إفرادُ الضَّمير هو الأنسبَ.

وقد يكونُ علَّةُ إفراد الضَّمير القلَّةَ الدّالَّ عليها قولُه تعالى ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فهي أقلُّ عددًا من تركيبِ ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾[2].

وقيلَ: إنَّ السَّبب في إفرادِ الضَّمير أنَّه لمّا استوفى الأمرُ حدَّه منَ العظمة لفَتَ الكلامَ إلى الإفراد؛ دفعًا للتَّعنُّتِ[3].

نكتةُ اللّام في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسم، والغرض من ذلك تعظيم القول وتفخيمُه، والمعنى: (أُقسِمُ لأملأنَّ جهنَّم منَ الجِنَّة والنّاس أجمعين).

نكتةُ الإفراد في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾:

توحيدُ الإملاء وعدمُ تعدُّده

لم يقل الحقُّ: (لنملأنَّ)، وإنَّما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾؛ لأنَّ الإملاء لا تعدُّدَ فيه، فتوحيد الضَّمير أوفَقُ به، وقد يُقالُ: إنَّه وحَّد الضَّمير في الوعيد لِما أنَّ المعنيَّ به المشركون، فكأنَّه أخرجَ الكلام على وجهٍ لا يتوهَّمُ فيه مُتوهِّم نوعًا من أنواع الشَّركة أصلًا[4].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾:

ضيقُ المكان على أهل النّار زيادةٌ في العذاب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بفعل الامتلاء في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾؛ لأنَّ الملءَ مقدار ما يأخذه الإناء الممتلئ، وهو بهذه الصّيغة يدلُّ على أنَّ الامتلاء لجهنَّم يكون مُتجدِّدًا حالًا بعد حالٍ، وفي ذلك إشعارٌ بجمع

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 224.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 126.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 126.

كلِّ مَن تبع إبليسَ وأعوانَه إلى جهنَّم، وإشارةٌ إلى ضيق الفسحة عليهم، فلا يجدون أمامَهم إلّا العذابَ.

حتميَّةُ نفاذ حكمِ الله وحكمتِه

دلالةُ تتابع المُؤكِّدات في ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾:

تتابعت المُؤكِّدات باللّام الواقعة في جواب القسم المُقدَّر، مع نون التَّوكيد الثَّقيلة المُلازمة للفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾؛ تغليظًا للقول وتثبيتًا، فقد صار أمرُ الملءِ مُحكمًا نافذًا بحيث لا يتغيَّر ولا يتبدَّلُ ولا يتخلَّف، مع بيان التَّحذير الشَّديد لكلِّ مَن يخافُ منهج اللّه، سواءٌ أكان منَ الجنِّ أم من الإنس؛ فالجزاء من جنس العمل، وقد يُقال: إنَّ التَّأكيداتِ جاءت دفعًا لإنكارهم[1].

أُعدَّت النّار للعُصاة والكفّار منَ الجنَّة ومنَ النّاس

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾:

دلَّت ﴿مِنَ﴾ هنا على بيان الجنس[2]، فقد وضَّحت مُبهمًا؛ لأنَّ الجملة قبلَها ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ عامَّة، فجاءت ﴿مِنَ﴾ وبيَّنت جنس مَن يدخلُ جهنَّم، ويجوز أن تدلَّ ﴿مِنَ﴾ على التَّبعيض من باب تلاحم معاني ﴿مِنَ﴾؛ فيكون المعنى: إنَّ جهنَّم ستمتلئُ ببعض الجِنَّة والنّاس، وهم العُصاة والكفّار، فأدَّت ﴿مِنَ﴾ الجارَّةُ دلالتَين مختلفتَين يحتملُهما السّياقُ.

الجزاء من جنسِ العمل

سرُّ التَّعبير بـ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون غيرها:

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بجهنَّم في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ دون غيرها من أوصاف النّار، إشارةً إلى ما كان يفعلُه المجرمون منَ التَّجهُّم في وجوه المؤمنين والتَّكبُّرِ عليهم، فكان الجزاءُ من جنس العمل.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 251.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3775.

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾:

إحاطةُ العذاب يوم القيامة بكلِّ كافرٍ منَ الجنِّ والإنس

جاء التَّعريف بـ (أل) في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ للعهد، والمراد: عُصاتُهما، ويُؤيِّده الآيةُ المُتضمِّنة خطاب إبليسَ، ويجوز أن تكون هنا جنسيَّةً تعني جميع جنس الجنِّ والنّاس من الكفَرة، وتكون الإحاطةُ والشُّمولُ لكلِّ كافر منَ الفريقَين[1].

سببُ تخصيص ﴿ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بالذِّكر:

بيانُ أنَّ الحساب متعلِّقٌ بمَن كُلِّف بالعمل والطّاعة

خصَّ النَّظم الكريم ﴿ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بالذِّكرِ لأنَّهما الثَّقلان المُكلَّفان[2]؛ فهما المُحاسَبان على أعمالهما، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، لذا خُصّا بالذِّكر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه عصمَ الملائكةَ من عملٍ يستَوجبون به العذاب[3].

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ على ﴿وَٱلنَّاسِ﴾:

الجنَّة أسبَقُ في المعصية منَ الإنس

قدَّم النَّظمُ ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾؛ لأنَّ الجنَّة أسبقُ في الوجود منَ الإنس، وهم الذين أضَلُّوا النّاس، مع استعظام النّاسِ لأمر الجنَّة؛ لذا قُدِّموا، وأيضًا كأنَّ لفظة ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ تعني: التّابعين لهم والمُقتَفين أثرَهم.

دلالةُ التَّعبير بلفظ: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

جاءت لفظةُ: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ لتأكيد شُمول تثنية كلا النَّوعين؛ الجنِّ والنّاسِ، لا لشُمول جميع الأفراد، مع القدرة المُطلقة على شُمول جميع الأفراد، وقد يُضاف إلى دلالة ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّها دالَّةٌ على أنَّ الملءَ سيكون في وقتٍ واحد من دون تأخيرٍ أو تمهُّلٍ، وفي هذا دلالةٌ على الهيمنة والسَّيطرة من ربِّ العالمين.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 128.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/ 6770.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 391.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفسُ والرُّوحُ:

الـرُّوحُ الـذي به الحياةُ والنَّفسُ التي بها العقلُ

منَ اللُّغويّين مَن سوَّى بين النَّفس والرُّوح، وقال: هما شيء واحد، إلّا أنَّ النَّفسَ مُؤنَّثة والرُّوحَ مُذكَّرة، وقيلَ في التَّفريق بينهما: الرُّوح الذي به الحياةُ، والنَّفسُ التي بها العقلُ، وسُمّيت النَّفس نفسًا لتولُّدِ النَّفَس منها واتّصاله بها، كما سمَّوا الرُّوح روحًا؛ لأنَّ الرَّوحَ موجودٌ به، وقيلَ: إنَّ الفرق بينهما بحسب الاعتبارات، فمنَ الرُّوح عفافُه وفهمُه وحلمُه وسخاؤُه ووفاؤُه، ومنَ النَّفس شهوتُه وطَيشُه وسفهُه وغضبُه، فلا يُقالُ في النَّفس: هي الرُّوحُ على الإطلاق حتَّى يُقيَّدَ(1).

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيــتــاءُ أقــوى مـنَ الإعـطـاءِ في إثباتِ مفعوله

هناك فرقٌ بين الإيتاء والإعطاء في القرآن الكريم، فالإيتاء أقوى منَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له مُطاوعٌ، يُقالُ: (أعطاني فعَطَوتُ)، ولا يُقالُ في الإيتاء: (آتاني فأتيتُ)، وإنَّما يُقالُ: (آتاني فأخذتُ)، والفعل الذي له مُطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الذي لا مُطاوعَ له؛ لأنَّك تقول: (قطعتُه فانقطعَ)، فيدلُّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قبولِ المحلِّ، لولاه لَما ثبت المفعول، ولهذا يصح: (قطعتُه فما انقطعَ)، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوع له ذلك؛ لأنَّ هذه أفعالٌ إذا صدرَتْ منَ الفاعل ثبت لها المفعولُ في المحلِّ، والفاعلُ مُستقلٌّ بالأفعال التي لا مُطاوعَ لها، فالإيتاء إذن أقوى منَ الإعطاء(2).

وفي الإعطاء دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء، ويُؤيِّدُه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ فإنَّه كان له منعُ مَن شاء منه

(1) الزبيدي، تاج العروس: (نفس).

(2) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 488.

كالمالك للملك، وأمّا عندما ذكرَ القرآنَ وحيثُ كانت أمَّة النَّبيِّ مُشاركين له في فوائدِه، ولم يكُن له منعُهم منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87].

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤﴾ [السجدة: 14]

عاقبةُ الأعمال القبيحة دخولُ النّار

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّن للمُجرمين في الآية السّابقة أنَّه لا رُجوعَ إلى الدُّنيا نبَّههم في هذه الآية على ما عملوا من تدنيس نفوسهم بفعل المعصية منَ الكفر والتَّكذيب؛ لذلك كانت هذه الآيةُ الكريمة نتيجةً لما سبقَها، فما سبقها قسَمٌ ربّانيٌّ بأنَّه سيملأ جهنَّمَ منَ الجِنَّة والنّاس أجمعين، وفي هذه الآية تحقيقٌ للوعيد المذكور بأنَّهم سيذوقون العذاب بسبب أعمالهم الخبيثة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُواْ﴾: (ذوق) أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشَّيء من جهة تطعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منه مجازًا[1]، وكثُر استعماله في القرآن في العذاب؛ لأنَّ ذلك وإن كان في التَّعارف للقليل فهو مُستَصلَحٌ للكثير، فخصَّه بالذِّكر ليعُمَّ الأمرين، والمعنى المحوريُّ: معرفةُ طعم الشَّيء؛ أي: وقعه على الحسِّ بالتَّناول منه؛ أي: إدخاله مَنفَذَ الباطنِ؛ كمعرفة طعم المطعوم والمشروب بتناوُله، ومُعظم ما جاء في القرآن من التَّركيبِ ذَوقٌ مجازيٌّ[2].

2) ﴿ٱلْخُلْدِ﴾: (خلد) أصلٌ واحد يدلُّ على الثَّبات والمُلازمة، فيُقال: (خلَدَ): أقام، و(أخلَدَ) أيضًا، ومنه: (جنَّةُ الخلد)[3]، والخُلُود: هو تبرّي الشَّيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأ عنه التَّغيير والفساد تصفُه العرب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذوق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).

بالخلود، كقولهم للأثافي: (خوالد)، وذلك لطول مُكثها لا لدوام بقائها، يُقال: (خلَدَ يخلُدُ خُلودًا)، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: 129][1]، والمعنى المحوريُّ: بقاء الشَّيء لازمًا موضعَه أو حالَه أمدًا طويلًا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـجـزاءُ مـن جنسِ العمل

في الآية تقريعٌ وتخويفٌ بوقوع العذاب للمُجرمين بسبب نسيانهم هذا اليومَ، تقولُ لهم الخزنةُ حين دخولهم النّارَ: ذوقوا العذاب الأليم؛ لأنَّكم استخففتُم بهذا اليوم ونسيتُموه، والجزاء من جنس العمل، فإذا نسيتُموه فقد نسيناكم؛ جزاءً وفاقًا لأفعالكم، فلتَذوقوا العذاب بسبب أعمالكم السَّيِّئة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

الـعـذابُ بعد الاعتراف

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لدلالتها على تفريع الجواب عن إقرارهم، وفيه إلزام لهم بموجب هذا الاعتراف؛ أي: فيتفرَّع على اعترافكم بحقّيَّة ما كان الرَّسول يدعوكم إليه أن يلحقَكم عذاب النّار، وهذا التَّفريع من كلام المُخاطب فيه إلزام بالحجَّةِ عليهم[3]، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ جوابًا عن قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ الذي هو إقرار بصدق ما كانوا يُكذِّبون به، فالفاءُ لترتيب الأمر بالذَّوق على ما قبلَه، وقد تكون الفاء الفصيحةَ؛ أي: إنْ نسيتُم هذا كلَّه فذوقوا[4].

دلالةُ التَّعبير بالأمر في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

توبيخُ المُجرمين بعد فوات الأوان يـزيـدُ الألـمَ والحسرةَ

دلَّ الأمر بـ﴿فَذُوقُواْ﴾ على توبيخ أهل النّار لتركهم العمل

(1) الراغب، المفردات: (خلد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 224، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 290.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 579.

الصالح الذي يكون سببًا للنَّجاة، ويلزم من هذا التَّوبيخ زيادةُ الألم النَّفسيِّ؛ لأنَّ الإنسان إذا وُبِّخ على عمله ازداد ألمًا وحسرةً، وممّا يزيد الألمَ النَّفسيَّ أنَّ الأمر وُجِّه لهؤلاء المُجرمين والمُعذَّبين وهم في النّار؛ فليس المرادُ الذَّوقَ على حقيقته؛ لأنَّهم في النّار يُعذَّبون، فهو من باب التَّهكُّم، وفيه إشارةٌ إلى ما هم فيه من نكسِ الرُّؤوس والخِزْيِ والغمِّ[1].

بلاغةُ التَّعبير بالذَّوق:

كلُّ ما يجده المُجرمون يوم القيامة لونٌ من ألوان العذاب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالذَّوق في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ من باب التهكُّم بهم؛ لأنَّ حقيقتَه إدراكُ المطعوماتِ، والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه، فالمُفارقة قائمةٌ في فعل الأمر، فساعةَ ينتظرون التَّكريم بالذَّوق يأتي العذاب بالتَّذوُّق جزاءً وفاقًا لما كانوا يعملون.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالذَّوق أنَّه يدلُّ على الوعيد العظيم لهم؛ حيث جعل ما هم فيه منَ العذاب الشَّديد بمنزلة الذَّوق لمقدِّمة الطَّعام؛ فكذلك عذابهم الذى يُعذَّبون به يعقبُه ألوانٌ من العذاب أشدُّ، فحاسَّة التَّذوُّقِ تتَّصل بلونٍ من ألوان التَّرف في الحياة، ولا سيَّما الأكل والشُّرب، فبهما قِوام حياة الإنسان؛ لأنَّهما ضرورتان للحياة لا مُجرَّدُ ترف فيها، وهذا أنكى في التَّعذيب والإهانة، وقد يُعبَّر بالذَّوق عمّا يطرأ على النَّفس وإن لم يكن مطعومًا؛ لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم[2].

بلاغةُ المجاز في التَّعبير عن الإحساسِ بالذَّوق:

قمَّة ألوان التَّعذيب لاتِّصال الذَّوق بقِوام الحياة

تظهرُ بلاغة المجاز في التَّعبير بالفعل: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾، فلم يُستعمَلْ في حقيقته،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 128.

(2) القرطبي، تفسير القرطبي: 14/ 98.

وهو إدراكُ المطعومات، بل استُعمل مجازًا في معنى الإحساس بحاسَّة اللَّمس، وهو مجازٌ مُرسل علاقتُه اللُّزوميَّةُ؛ فالإحساس لازم للتَّذوُّق، ويجوز أن يكون التَّعبيرُ بـ﴿فَذُوقُواْ﴾ من باب الاستعارة؛ لأنَّ الذَّوقَ أقوى الحواسِّ المُباشرة للجسم؛ فشُبِّه به إحساسُ الجلد، وتكون الاستعارة تصريحيَّةً تبعيَّةً[1].

سرُّ حذف مفعولِ: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

حُذِفَ مفعول: ﴿فَذُوقُواْ﴾ لدلالة السّياق عليه، ويكونُ التَّقدير: (فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب إلى أن تسألوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا)[2].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

بيانُ سببِ ذَوقهم العذابَ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ للسَّببيَّة، وفيه إشعارٌ بأنَّ تعذيبَهم ليس لمُجرَّد سبق القولِ المُتقدِّم[3]، بل بالقول المُتقدِّم عليهم، وإيغالِهم في الكفر وتركِ ما أمرَ الله به؛ فالتَّعليلُ بالسَّببيَّة أساسُه اختيارُهم بترك ما أمر به، وبُعدِهم عن منهج الله.

سرُّ التَّعبير بـ(ما) في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾:

تعدُّدُ وظائف (ما) وتنوُّعُ المعاني المُترتِّبة عليها

آثر النَّظم التَّعبير بـ(ما) في قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾؛ لتعدُّدِ وظائفِها، وتنوُّعِ معانيها؛ فيجوز أن تكونَ مصدريَّةً غيرَ زمانيَّة؛ أي: بنسيانِكم[4]، على أنَّها وما بعدها مصدر مُؤوَّل تقديرُه: بنسيانِكم، ويكونُ التَّعبير بالمصدر المُؤوَّل أجدَى منَ التَّعبير بالمصدر الصَّريح؛ لأنَّ المصدر المُؤوَّل لا يُوصَف، أمّا الصَّريح فيُوصَف، وعدمُ وصف المصدر الصَّريح دالٌّ على بلوغ الغاية في النِّسيان مع القُبح الشَّديد للنِّسيان؛ أي: التَّرك والإهمال لما جاء به الرُّسل، إضافةً إلى ذلك فالمصدر المُؤوَّل من (ما) والفعل حدَّد الزَّمن بأنَّه الماضي، أمّا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 225.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 225.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 290.
(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 289.

المصدر الصَّريح فليس فيه دلالةٌ على الزَّمن؛ كعادة المصدر، فكان التَّعبير بالمصدر المُؤوَّل أجدَى وأنفعَ.

ويجوز أن تكون (ما) اسمًا موصولًا بمعنى: (الذي)؛ أي: فذوقوا بالذي نسيتُموه؛ أي: تركتُموه، فتكون (ما) هنا دالَّةً على أنَّ ما جاء به الرُّسل هو الدّين، فيكون نسيانُ الدّين وتركُه قُبحًا تلوَ قُبحٍ؛ لأنَّ تركه يعني إذاقةَ العذاب وإهمالَ اللّه لهم بنسيانهم وتحريقِهم بالنّار.

دلالةُ الفعل: ﴿نَسِيتُمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إنكارُ الواضح أمرٌ فاضح

دلَّ الفعل: ﴿نَسِيتُمۡ﴾ على وجود أمرٍ ظاهرٍ واضحٍ للعيان، لكنَّهم أنكروا الأمر الظّاهر؛ لخُبث أنفسهم، كمَن يُنكر أمرًا كان قد علمَه وفطن إليه جيِّدًا[1]، وفي هذا غفلةٌ منهم وتعالٍ على المنهج الربّانيِّ، فكان النِّسيانُ والتَّرك والإهمال، فكأنَّ الفعل يكشف عن مدى استخفافهم به، وإخلاء أنفسهم من كلِّ شعور يصل بينهم وبينه[2].

وممّا يُذكر في سرِّ اختيار التَّعبير بالنِّسيان الدَّلالةُ على أنَّ إنكارهم للبعث لم يكن جهلًا منهم، بل جاء بعد ظهور أماراته ووضوح علاماته؛ فكان إنكارهم بمثابة التَّرك لما هو معلوم، ويُؤكِّد ذلك التَّعبيرُ بصيغة الماضي، التي تدلُّ على تحقُّق الوقوع، وأنَّه أمر ترسَّخ فيهم حتَّى صار طبيعةً لهم يُعرَفون بها في ترك أوامر اللّه وإهمالها.

إضافةُ اللِّقاء إلى اليوم:

الإسراعُ في التَّخويف إبرازًا لقسوة العذاب

إضافةُ اللِّقاء إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ يتحقَّق بها أغراضٌ: **الأوّل:** تخصيص اللِّقاء باليوم، فلا تمهُّلَ ولا تأخيرَ ولا تسويفَ، وفيه تحديدُ زمن اللِّقاء في اليوم لا بعدَه؛ إمعانًا في بيان الثُّبور والهلاك، **والثاني:** تعديدُ مواقع النَّعتِ بعده ﴿هَٰذَآ﴾، وفي التَّعدُّد تنويعٌ للمعنى وبسطٌ له على ما سيأتي في المسألة التّالية.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 145.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 617.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير باليوم دون غيره من أسماء الزَّمان في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾؛ لأنَّ لفظ (اليوم) له في اللُّغة أكثرُ من إطلاق، وليس المُراد تحديدَ يوم بعينه؛ وإضافةُ (يوم) إلى ضمير المُخاطبين تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يُنكرونه، فلمّا تحقَّقوه جُعل كأنَّه أشدُّ اختصاصًا بهم على طريقة الاستعارة التهكُّميَّة[1].

تعدُّدُ الأوجه الإعرابيَّة للفظة: ﴿لِقَآءَ﴾:

تـعـدُّدُ أسباب العذاب

جاءت لفظةُ: ﴿لِقَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ منصوبةً على المفعوليَّة، لكنْ يتعدَّدُ العامل، فيحتمل أن يكون منصوبًا بـ﴿فَذُوقُواْ﴾؛ أي: ذوقوا لقاءَ يومكم بما نسيتُم، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسيُّ هو الميثاقَ الذي أُخِذ منهم بقولِه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، أو بما في الفطرة منَ الوحدانيَّة، فيُنسى بالإقبال على الدُّنيا والاشتغال بها، ويحتمل أن يكون منصوبًا بقوله: ﴿نَسِيتُمۡ﴾؛ أي: بما نسيتُم لقاء هذا اليوم ذوقوا[2].

سرُّ التَّعليق بنسيانهم اللِّقاء:

نـــســـيـــانُ الآخـــرة بسبب الانغماس بنِعَم الدُّنيا

جاء التَّعبير القرآنيُّ بقوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ دون أن يقول: (بما نسيتُموني)؛ لتنزيه المولى ﷻ عن هذا النِّسيان؛ لأنَّ الله ﷻ قيُّومٌ على ملكه له الخلقُ والأمر؛ فرزقه لخلقه مُتجدِّدٌ، وعطاؤه موصولٌ، فلا ينبغي لعاقل أن ينسى رزقَه، وما فعلَه المُجرمون في الدُّنيا منَ الإنكار إنَّما هو خروجٌ عن منطق العقل والفطرة.

فائدةُ التَّعبير باسم الإشارة القريب: ﴿هَٰذَآ﴾:

تعدُّدُ المُشار إليه مع الإشـارة إلى حضورِ العذاب

اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه؛ **أحدُها**: أن يكون إشارةً إلى اليوم؛ أي: (فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم)، **وثانيها**: أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 225.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 145.

يكون إشارةً إلى لقاء اليوم؛ أي: (فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء)، **وثالثها**: أن يكون إشارةً إلى العذاب؛ أي: (فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم)[1].

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالإشارة للقريب أنَّها دالَّة على أمرٍ معلوم مُشاهَدٍ لا غائبٍ؛ مُبالغةً في التَّخويف والتَّعذيب، وللدَّلالة على تحقُّق هذا اليوم، وأنَّه اليومُ الذي ما كان ينبغي أن يغفُلوا عنه.

دلالةُ تعدُّد الموقع النَّحويِّ لقوله: ﴿هَٰذَآ﴾:

تعدُّدُ المواقع معه تعدُّدُ ألوان العذاب

يتعدَّد الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿هَٰذَآ﴾ بناءً على دلالتها وما أشارت إليه، فإذا كانت تُشير إلى لفظة: ﴿لِقَآءَ﴾ فهي نعتٌ في محلِّ نصبٍ؛ لأنَّ ﴿لِقَآءَ﴾ مفعولٌ به، وإذا كانت تُشير إلى لفظة ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾ فهي نعتٌ في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّ ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾ مضافٌ إليه، ومعلومٌ أنَّ النَّعت يتبعُ المنعوت في الإعراب، ويجوزُ في لفظة ﴿هَٰذَآ﴾ أن تكون مفعولًا به في محلِّ نصب للفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾[2]، وعلى كلٍّ فتعدُّد المواقع هنا فيه تنويعٌ لألوان التَّخويف والسُّخرية، أو لتعدُّد المُخاطبين في السّياق وإن اتَّفقوا على الكفر، أو جيء باسم الإشارة للتَّهويل[3].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾:

التَّشديد في العذاب والإهانة

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فالمُجرمون إذا سمعوا ما علموا منه أنَّهم مُلاقو العذاب من قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾، تطلَّعوا إلى معرفة مدى هذا العذاب المَذُوق، وهل لهم منه مخلصٌ؟ وهل يُجابون إلى ما سألوا منَ الرَّجعة إلى الدُّنيا؛ ليتداركوا ما فاتهم منَ التَّصديق؟ فأُعلِمُوا بأنَّ الله مُهمِلٌ شأنَهم؛ أي: لا يستجيبُ لهم، وهو كنايةٌ عن تركهم فيما أُذيقوه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 145.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 21/ 108.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 128.

الجزاءُ مِن جنس العمل

دلالةُ تتابع المؤكّدات في قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾:

تتابعت المُؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾، وذلك ببناء الجملة من (إنَّ) واسمها وخبرها الفعل الماضي، والغرضُ هو تشديدٌ في الانتقام منهم(1)، وعراقةُ عقوبتهم المُنتظرة مع تأكيد ذلك.

النِّسيان في حقِّ الله تعالى مقصودٌ به التَّرك والتخلّي

دلالةُ إسناد النِّسيان إلى ضمير العظمة:

أُسنِد النِّسيان إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ من باب المجاز، وذلك من باب تشبيه معاملة الله ﷻ لهؤلاء بمُعاملة مَن لا يُعتدُّ به ولا يُلتَفتُ إليه، والدَّليلُ على إرادة ذلك التَّشبيه أنَّ الله نفى عن نفسه النِّسيانَ في أكثرَ من آية في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ [مريم: 64]، وعلى هذا يكون المرادُ به التَّركَ، وليس النِّسيانَ بمعناه الحقيقيِّ؛ لأنَّ الله مُنزَّهٌ عنه، وفيه دلالةٌ على القدرة والتَّحكُّم، فسبحانه يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء.

دلالةُ التَّعبير بالماضي في: ﴿نَسِيتُمۡ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿نَسِيتُمۡ﴾ على خلاف مُقتَضى الظّاهر من التَّعبير بالمضارع الذي يدلُّ على الحال؛ لإفادة تحقُّق الفعل حتَّى كأنَّه مضى ووقع(2).

بيانُ عدلِ الله المُطلق في الجزاء يوم القيامة

قيمةُ المُشاكلة بين ﴿نَسِيتُمۡ﴾ و﴿نَسِينَٰكُمۡۖ﴾:

غرضُ المُشاكلة بين اللَّفظَين، وهي الاتِّفاقُ في اللَّفظ مع الاختلاف في المعنى، فإنَّ الله تعالى لا ينسى، وإنَّما المُراد: نتركُكم في العذاب تركَ الشَّيء المَنسيِّ، وغرضُ المُشاكلة إظهارُ العدل المُطلق في الجزاء وأنَّه من جنس العمل المُجازَى عنه(3)، فجزاء الإحسان إحسانٌ، وجزاء السَّيِّئة سيِّئةٌ مثلُها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 226، والبيضاوي، تفسير البيضاوي: 4/ 221.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 226.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 226.

دلالةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَذُوقُواْ﴾:

إهمالُهم التَّدبُّر في حلولِ هذا اليوم عرَّضَهم لإذاقةِ العذاب

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ على قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ﴾؛ للجمع بين الذَّوقين، فأفاد العطف بالواو تأكيد تسليط العذاب عليهم، فالعطف مُراعًى فيه ما بين الجملتين منَ المُغايرة بالمُتعلِّقات، ولمّا كانت القيودُ مُغايرةً اقتضت أن تُعتبر الجملةُ الثّانية مُفيدةً فائدةً أخرى، فالجملة الأولى تضمَّنت أنَّ من سبب استحقاقهم تلك الإذاقةَ إهمالَهم التَّدبُّرَ في حلول هذا اليوم، والجملة الثّانية تضمَّنت أنَّ ذلك العذاب مُستمرٌّ، وأنَّ سبب استمرار العذاب وعدمَ تخفيفه أعمالُهم الخاطئةُ، وهي أعمُّ من نسيانهم لقاء يومِهم ذلك[1].

دلالةُ التَّكرار في الفعل: ﴿وَذُوقُواْ﴾:

تأكيدُ العذاب وبيانُ استمراره

كرَّر النَّظم الحكيم الفعل: ﴿وَذُوقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لقصد التَّأكيد؛ أي: ذوقوا العذاب الدّائمَ الذي لا ينقطع أبدًا بما كنتم تعملونه في الدُّنيا منَ الكفر والمعاصي[2]، وفي هذا زيادةُ تخويف وإرعاب، وممّا يُذكر في سرِّ تكرار الفعل: ﴿وَذُوقُواْ﴾ أنَّه يجعل الإذاقة إذاقتَين، وكأنَّ عذاب الإذاقة ينتظرهم في كلِّ مكان يتوجَّهون إليه، فالعذاب بالمرصاد لكلِّ مُجرم منهم، وفيه زيادة التَّقريع والتَّأنيب[3].

نكتةُ ذكر مفعولِ ﴿وَذُوقُواْ﴾:

بيانُ العموميَّة والتَّخصيص مع الإطلاق والتَّقييد

ذكرَ النَّظم الكريم مفعول ﴿وَذُوقُواْ﴾، ولم يذكره في أوَّل الآية؛ للتَّخصيص بعد التَّعميم، ذلك أنَّ العذاب في الذَّوق الأوَّل عذابٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 226.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 291.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 150.

عامٌّ ربَّما يمتدُّ، وربَّما لا يمتدُّ، فجاء المفعول هنا بالتَّركيب الإضافيِّ: ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ ليقطع أملَهم في فناء النّار، وليُؤكِّد استمراريَّة العذاب وعدمَ نفادِه، فهؤلاء سيظلُّون في عذاب خالد دائم لا ينقطع، فجعلَ حذفُ المفعول التَّركيبَ الأوَّل احتماليًّا، أمّا ذكرُ المفعول هنا فقد جعل التَّركيب يقينيًّا، وقد يُقال: حُذِفَ المفعولُ في الذَّوق الأوَّل للإطلاق، وذُكِرَ المفعول في الذَّوق الثّاني للتَّقييد.

غرضُ إضافة العذاب إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾:

بيانُ كمالِ السَّخَط الإلهيِّ على المُجرمين

غرضُ الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ بيانُ كمال السَّخَط، والدَّلالةُ على غاية التَّشديد في الانتقام منهم[1]، بسبب ما تركوه إهمالًا واتِّباعًا للشَّهوات، فكما استمررتم في شهواتكم استمررنا في عذابكم الخالدِ في جهنَّم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العذاب دائمٌ غيرُ مُنقطع؛ لأنَّ العذاب إذا كان له نهايةٌ ومدَّةٌ كان فيه نوعٌ منَ التَّخفيف في ظنِّ المُعذَّبين والأملِ بالخروج منَ النّار؛ لذلك جاء التَّعبير ليقطعَ هذا الأمل.

دلالةُ التَّعبير بالباء في: ﴿بِمَا﴾:

العذابُ في الآخرة مُسبَّبٌ عن الأعمال الدُّنيويَّة

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِمَا﴾؛ لأنَّها دالَّة على السَّببيَّة والمُقابلة، وترسمُ غاية العدل والإنصاف، فذوق العذاب له أسبابُه، والسَّبب الرَّئيس هنا هو العمل الذي بلغ العراقة في القُبح والخِسَّة.

سرُّ التَّعبير بـ(ما):

الدَّلالةُ على تنوُّعِ إجرامهم وكفرهم

آثر التَّعبيرَ بـ(ما) في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دون غيرها؛ لتعدُّد معناها، فتصلح أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم تعملون، وتصلح أن تكون مصدريَّةً؛ أي: بعملكم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 128.

يُحاسَبُ المُجرم على أعماله التي أصرَّ عليها

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿كُنتُمْ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل: ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: بما تعملون؛ للدَّلالة على أنَّ أعمالهم القبيحة التي كانوا يعملونها منَ الكفر باللّٰه والتَّكذيب لرسوله ﷺ، والإنكار للبعث، لم يكن عملًا عارضًا بل كان مُتأصِّلًا فيهم، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّهم لا يعملون أعمالَ خيرٍ ألبتَّةَ.

في (العمل) قصديَّةٌ ومُثابرةٌ ليست في (الفعل)

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نكتةُ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ هنا أنَّ (العمل) أخصُّ منَ (الفعل)، كلُّ عملٍ فعلٌ، ولا ينعكس[1]، وهذا يحملُ قصديَّةَ الفعل والتَّوجُّهَ إليه، فعمل المعصية صار طبيعةً وديدنًا؛ لأنَّ فيه امتدادَ زمانٍ[2] غير الفعل، ومن ثمَّ عبَّر به، كما أنَّ التَّعبير بالعمل يحمل المُثابرةَ عليه لا الإتيانَ به مرَّةً أو بسرعةٍ[3]، ويُؤكِّد ذلك التَّعبيرُ بصيغة المُضارع التي تُدلُّ على تجدُّد أعمالهم المذمومةِ واستمرارِهم عليها.

قُبحُ الأعمال ورعايةُ الفاصلة

فائدةُ حذف مفعول: ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

في حذف مفعول: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فائدتان:

الأولى: دلالةُ الإطلاق وعدم التَّقييدِ والشُّمول، أي: أنَّكم ستذوقون العذاب بسبب كلِّ أعمالكم التي عملتموها، فكأنَّ حذف المفعول به دالٌّ على قُبح كلِّ أعمالهم، فهي والقبحُ سواءٌ، فقد أتوا بفنونِ الكفرِ والمعاصي التي كانُوا مُستمرّين عليها في الدُّنيا"[4].

والثّانيةُ: رعايةُ الفاصلة؛ لأنَّ الآيات السّابقةَ جاءت على حرف

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109 - 110.

(2) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

(3) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84.

النون المسبوق بحرف مدٍّ (موقنون، أجمعين، تعملون، تستكبرون)، وهذا جانبٌ مرعيٌّ في النَّظم القرآنيِّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّسيانُ والسَّهوُ والغفلةُ:

السَّهوُ: غفلةُ القلب عن الشَّيء بحيث يتنبَّه بأدنى تنبُّهٍ، والنِّسيانُ: غيبةُ الشَّيء عن القلب بحيث يحتاج إلى تحصيلٍ جديدٍ، وقيلَ: النِّسيانُ: زوالُ الصُّورة عن القوّةِ المُدركة مع بقائها في الحافظة، والسَّهوُ: زوالُها عنهما معًا، والغفلةُ: تشملُ الأمرَين؛ إذ الغفلةُ عمّا أنت عليه لتفقُّدِه سهوٌ، وعمّا أنت عليه لتفقُّدِ غيره نسيانٌ، وقيل: السَّهوُ يكون لما علِمَه الإنسان، ولما لا يعلَمُه، والنِّسيانُ لِما غربَ بعد حضورِه[1].

السَّهوُ غفلةُ القلبِ عن الشّيءِ والنِّسيانُ غيبةُ الشَّيءِ عن القلب والغفلةُ تشمل الأمرين

(1) الكفوي، الكليات، ص: 506.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥﴾ [السجدة: 15]

بيانُ صفات المؤمنين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا تحدَّثت الآياتُ السّابقة عن المُجرمين وأحوالهم والجزاء المُعدِّ لهم؛ ذكر في هذه الآية المؤمنين وبعضَ أوصافهم منَ الخشوع والتَّسبيح والحمد والتَّواضع.

ومنَ المُناسبة أيضًا أنَّه لمّا ذكر في الآيات السّابقة أنَّ الحامل للمُجرمين على الكفر وإنكار البعث الكبرَ؛ ذكر في هذه الآية علامةَ أهل الإيمان بأنَّهم بادروا إلى إظهار التَّذلُّل والخضوع للّه ربِّ العالمين، بأن يخرُّوا للّه سُجَّدًا تعظيمًا له وإقرارًا بالعبوديَّة له وحدَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَرُّواْ﴾: (خرّ) أصلٌ واحدٌ، وهُو اضطِرابٌ وسقوطٌ مع صوتٍ[1]. (خرَّ الرَّجلُ يخُرُّ) إذا سقَط بضمِّ الخاء، و(يخِرُّ) بكسرِ الخاء[2]، و(خرَّ) بمعنى: هَوَى من عُلوٍ إلى سُفلٍ، و(خرَّ لوجهِه يخرُّ خرًّا وخُرورًا): وقع كذلك، وفي التَّنزيل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: 109]، وقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾، فاستعمال الخرِّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السُّقوطِ، وحصولِ الصَّوت منهم بالتَّسبيح[3]، والمعنى المحوريُّ: هُويُّ الشَّيء بقوَّةٍ، كالماء المُشتدِّ الجرْيِ لانحِدارِه عادةً[4].

المَعنى الإجماليُّ:

بعضُ صفات المؤمنين

في هذه الآية الكريمة ذكرٌ لبعض أوصاف المُؤمنين؛ لأنَّ صفاتِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خرر).
(3) الراغب، المفردات: (خرر).
(4) ابن سيده، المحكم: (خرر).

عديدةٌ، فهم الذين إذا ذُكِّروا بالآيات خرُّوا ساجدين، وسبَّحوا وحمدوا ربَّهم؛ فقالوا: سبحان اللّه والحمد للّه، مع ظهورِ تواضُعِهم، فهم لا يستكبرون عن عبادته بقلوبهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

التَّباينُ التّامُّ بين طائفتَي الإيمان والكفر

فُصِلَ قولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير عدمِ استحقاقِهم لإيتاءِ الهدى، والإشعارِ بعدمِ إيمانِهم لو أوتوه بتعيينِ مَن يستحقُّه بطريق القصر، كأنَّه قيلَ: إنَّكم لا تُؤمنون بآياتنا الدّالَّة على شؤوننا، ولا تعملون بمُوجبِها عملًا صالحًا ولو أرجعناكم إلى الدُّنيا[1].

وممّا يُذكر في سبب الفصل أنَّ الآية الكريمة استئنافٌ ناشئٌ عن قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: 3] الآية، فبعد أن أنحى بالتَّقريع والوعيد للكافرين على كُفرهم بلقاء اللّه، بما أفادت اسميَّةُ جملةِ: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ [السجدة: 10] دلَّ ذلك على أنَّهم ثابتون على الكفر بلقاء اللّه دائمون عليه، وهو ممّا أنذرَتْهم به آياتُ القرآن، فالتَّكذيبُ بلقاء اللّه تكذيبٌ بما جاء به القرآن فهم لا يُؤمنون، وإنَّما يُؤمنُ بآياتِ اللّه الذين ذُكرت أوصافُهم هنا[2].

بلاغةُ القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

الـخـضـوعُ لله في مُقابلة الكفر والتَّكبُّر

تظهر بلاغة القصر في بدء الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا﴾، وفي هذا دليل على تخصيص طائفةٍ تُؤمن باللّه وما جاء به رسلُه، وتُبعِدُ أهلَ الكفر عن طريق الإيمان بالقصر، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: يُؤمن بآيات اللّه الذين إذا ذُكِّروا بها لم يتريَّثوا عن إظهار الخضوع له، دونَ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: 10]؟[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84، والآلوسي، روح المعاني: 21/ 130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

ويدلُّ القصر هنا على تيئيس الرَّسول ﷺ من إيمانهم، مع التَّعريض بهم بأنَّهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم، ولا يُغيظونهم بالتَّصلُّبِ في الكفر[1].

وفيه دلالةٌ على تقرير عدم استحقاق هؤلاء المُجرمين لإيتاء الهدى، ويكون المعنى: (ما يُؤمن بآياتنا الدالَّة على التَّوحيد وسائر المُعتَقَدات إلّا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّدًا)[2].

نكتةُ التَّعبير بالمُضارع في: ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

تجدُّد الإيمان منَ الذين اهتَدَوا مع رُسوخِه

إيثارُ صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ﴾ دون الماضي المناسب لسياق الإيمان؛ لأنَّ المؤمنين قد حصل إيمانُهم فيما مضى؛ فكان التَّعبير بالماضي آثرَ بحكاية حالهم؛ لكنَّ القرآن جاء بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾؛ لما تُشعر به من أنَّهم يتجدَّدون في الإيمان ويزدادون يقينًا وقتًا فوقتًا[3]، فالمُضارع دالٌّ على استحضار صورة إيمانهم الرّاسخ الثّابت الذي لا يتزعزعُ، بل يزداد قوَّةً ومتانةً حتَّى صاروا يُعرَفون به لتمسُّكِهم به.

سرُّ التَّعبير بالآيات دون غيرها وجمعها:

المؤمنُ يتَّبع جميع الآيات الإلهيَّة مع كثرتها وتنوُّعها

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالآيات في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دون غيرها كالمُعجزات باعتبار دلالتها على الحقِّ، فهي تشمل الآياتِ العقليَّةَ المنشورةَ في الكون، والآياتِ النَّقليَّةَ من المُعجزات ونحوِها، ولتشملَ آياتِ القرآن الكريم، والسّياقُ في الآية يُؤيِّدُ ذلك.

ودلَّ الجمع بـ(آياتنا) على كثرة الآيات وتنوُّعِها التي يجب الإيمانُ بها، والعمل بموجبها، وقد يُضاف إلى ذلك عدمُ الفرق بين آيةٍ وآيةٍ، فهم يُؤمنون بكلِّ الآيات آيةً آيةً، وهذا فيه منَ الشُّمولِ ما فيه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 266.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

نكتةُ إضافة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى ضمير العظَمة:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُها وبثُّ المهابة في نفوس المُعرِضين عنها

في الإضافةِ ثلاثُ نكاتٍ: الأولى: تشريفُ تلك الآيات، فالمضافُ يكتسب كرامتَه ممّا أُضيف إليه، فقد أُضيفت الآياتُ إلى العظيم، فصارت عظيمةً لاقترانها بعظيم، والثّانيةُ: بيانُ المُناسبة بين الجمع (آيات) و(نا) العظمة، التي تستلزم الهيمنةَ والسَّيطرةَ والعظمةَ والقدرةَ الباهرةَ على إيجاد الآيات الكونيَّةِ، والثّالثةُ: إيرادُ نونِ العظمةِ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة في قلوب مَن لم يُؤمنوا.

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تخصيصُ الآياتِ وقَصْرها على المؤمنين حقًّا

أفاد تقديمُ النَّظم الكريم شبهَ الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ التَّخصيصَ، فهؤلاء لن يُؤمنوا إلّا باللّه وآياته، ثمَّ في التَّقديم هنا إلماحةٌ إلى ذكرها مرَّتين في هذا السّياق، مرَّةً بالاسم الظاهر مُقترنًا بـ(نا) العظمة، وثانيةً بالضَّمير ﴿بِهَا﴾، وتأخيرُها عن موضوعها يُفوِّتُ هذه النُّكتةَ التَّركيبيَّةَ الشَّريفةَ.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المدحُ وعلوُّ الشَّأن في الإيمان مع الرُّسوخ فيه

عبَّر النَّظم الكريم عن المُؤمنين بالاسم الموصول المُختصِّ بالعاقل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾، بعد أن أتى بصيغة المُضارع المُشير إلى التَّجدُّد، مع أنَّهم عُرِفوا بالإيمان فيما مضى؛ لأنَّ الصِّلةَ الدّالَّ معناها على أنَّهم راسخون في الإيمان[1]، وكونُ الاسم الموصول مُختصًّا بالعاقل من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع، ممّا يدلُّ على عُلوِّ الشَّأن[2]، ويُضاف إلى قيمة التَّعبير بالاسم الموصول الشَّوقُ إلى صلتِه وما تحويه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(2) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 34.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الموصوليَّة:

رسوخُ الإيمان وثباتُهُ في قلوبهم

الجملة الموصوليَّة أفادت المدح وعُلوَّ الشَّأن للمؤمنين، "فإتيانُ الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاستصحابُ"[1]، وفي ذكر الصِّلة والموصول تمهيدٌ وتوطئةٌ لذكرِ الجملة الشَّرطيَّة بعدَها.

وفي التَّعبير بجملة الصِّلة دلالةٌ على رُسوخِهم في الإيمان، حيثُ عبَّر عن إبلاغِهم آياتِ القرآن وتلاوتِها على أسماعِهم بالتَّذكير، وهذه الصِّفة التي تضمَّنتها جملةُ الصِّلة هي حالُهم التي عُرفوا بها؛ لقوَّة إيمانهم، وتميَّزوا بها عن الذين كفروا[2].

فائدةُ التَّعبير بالشّرط في قوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾:

تحقُّقُ التَّذكير والصِّلة بالله تعالى

من سمات الظَّرف ﴿إِذَا﴾ الدَّلالةُ على التَّكرار وتحقُّق الوقوع[3]، وهذا يعني أنَّ التَّذكير مُستمرٌّ لا ينتَهي؛ كي تظلَّ القلوبُ مُتعلِّقةً بالله، وفي الأداة دلالةٌ على الرِّعاية والاهتمام، فالتَّذكير المُتواصلُ فيه إلماحةٌ إلى محبَّة الله العبدَ لمُواصلة الخرورِ والسُّجود.

دلالةُ التَّعبير بالجملة الشرطيَّة:

الإيمانُ بالله وإقامةُ العبادة له مُرتبطٌ بتذكير الله لعباده

في التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ دلالةٌ على اتِّصال تعلُّق حصول الجواب (الخرور والسُّجود) بحصول الشَّرط ﴿ذُكِّرُواْ﴾ مع وجود التَّلازم بين الشَّرطِ والجواب[4].

سرُّ التَّعبير بالتَّذكير دونَ غيره:

الإشارةُ إلى تحقُّقِهم بمضمونِ المُذكَّر به

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالتَّذكير في قوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾؛ لأنَّ التَّذكير يقتَضي أنَّ ما تتضمَّنه الآيات حقائقُ مُقرَّرة عندهم لا يُفادون بها فائدةً لم تكن حاصلةً في نفوسهم، ولكنَّها تُكسِبُهم تذكيرًا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذاريات: 55][5].

---

(1) محمد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الأول، ص: 187.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(3) حسن طبل، بلاغة الالتفات، ص: 135.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالتَّذكير الإشارةُ إلى بعض النِّسيان الذي يعتَري النَّفس البشريَّة، لكن سُرعان ما تعودُ إلى حظيرة الإيمان.

نكتةُ بناء الفعلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

الاتِّساع في وقتِ ومكانِ تذكير المؤمنين

قصَدَ النَّظمُ الكريم من بناء الفعل: ﴿ذُكِّرُواْ﴾ إلى ما لم يُسمَّ فاعلُه الاتِّساعَ في الزَّمان والمكان والمُذكِّر، فالتَّذكير عامٌّ؛ أي: ذُكِّروا بها من أيِّ مُذكِّرٍ كان في أيِّ وقتٍ كان[1]، فالفائدةُ حاصلةٌ في نفوسهم، وهذه هي حالُهم التي عُرفوا بها؛ لقوَّة إيمانهم، وتميَّزوا بها عن الذين كفروا[2]، وعلى ذلك فالغرضُ من بناء الفعل التَّركيزُ على مسألة التَّذكير بوجهٍ عامٍّ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿خَرُّواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سرعةُ التَّأثُّر بالتَّذكير والآياتِ والمُبادرةُ بالسُّجود

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالخَرِّ في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ﴾ دون السُّقوط؛ لأنَّ التَّعبير بهذا الفعل فيه تنبيهٌ على اجتماع أمرَين: السُّقوطِ، وحُصولِ الصَّوت منهم بالتَّسبيح[3]، بخلاف السُّقوطِ؛ فإنَّه يدلُّ على طرح الشَّيء إمّا من مكان عالٍ إلى مكان مُنخفض، وفي التَّعبير بـ﴿خَرُّواْ﴾ الدَّلالةُ على المُبادرة والإسراع، فكأنَّهم بادَرُوا إلى السُّجود مُبادرةَ مَن سقطَ من غير قصدٍ، خُضَّعًا للّه من شدَّةِ تواضُعهم وخشيتهم وإخباتِهم له خضوعًا ثابتًا دائمًا[4]، وفيه إشارةٌ إلى تنزيههم عن التَّسويف بسبب ما نطقَت به الآياتُ مِنَ الوعدِ والوعيد[5]؛ فهم يُقبلون على الآيات دون تردُّدٍ أو تلعثُمٍ.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿سُجَّدَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

دلالـةُ السُّجود على شكر النِّعم

آثر القرآن الكريم التَّعبير بلفظ ﴿سُجَّدَا﴾ دون غيرها؛ لأنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 254.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(3) الراغب، المفردات، ص: 277.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 254.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 84.

السُّجود عبارةٌ عن التَّذلُّل للّه وعبادته، وهو نوعان: سجودُ اختيار، وهو خاصٌّ بالإنسان، وبه يستحقُّ الثَّواب نحو قوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩ ٦٢﴾ [النجم: 62]، وسجودُ تسخير: وهو للإنسان والحيوان والنَّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرعد: 15]، والآياتُ الدّالَّة على ذلك في القرآن كثيرةٌ.

ولأنَّ السُّجود يُطلق على الرُّكن المعروف منَ الصَّلاة وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن وسجود الشُّكر؛ لهذه المعاني آثر القرآن الكريم التَّعبير به مُناسبةً لسياق الآية، حيث وقعت لفظة ﴿سُجَّدٗا﴾ حالًا مُبيِّنةً للقصد من ﴿خَرُّواْ﴾؛ أي: سُجَّدًا للّه وشكرًا له على ما حَباهُم به من العلم والإيمان كما دلَّ عليه بقوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾[1]، ففيه التَّواضعُ والخشوع للّه تعالى.

وتدلُّ الصّيغةُ (فُعَّل) على الحركة الظّاهرة، وهي أبرز دلالاته، مع تكثير القيام بالفعل[2] ببنائه على التَّضعيف في العين، فكانت الحركة الظّاهرة مع كثرتها علامةً على التَّناهي في الخشوع والخضوع والتأثُّر بما يُتلى عليهم من آياتٍ عظيمةٍ.

سرُّ التَّعبير بجمع التَّكسير في قوله: ﴿سُجَّدٗا﴾:

ثبات وصف السُّجود لهؤلاء المؤمنين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بجمع التَّكسير ﴿سُجَّدٗا﴾ دون جمع المذكَّر السّالم (ساجدين)؛ لأنَّه دالٌّ على وصفٍ ثابت لهؤلاء؛ فهم أهل السُّجود والتَّأثُّر؛ فجمع التَّكسير يميلُ إلى الاسميَّة والثَّبات، أمّا جمع المُذكَّر السّالم (ساجدين) فإنَّه يميلُ إلى الفعليَّة لا الاسميَّة، فجمع المُذكَّر السّالم يُشير إلى الحدث، أمّا جمع التَّكسير فيدلُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية العربية، ص: 135.

على صفةٍ ثابتةٍ لهم[1]، فكان الأولى التَّعبيرَ بجمع التَّكسير زيادةً في مدحهم وثبات موقفِهم وحرصِهم على الخرور سُجَّدًا دومًا.

دلالةُ التَّعبير بالواو في: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾:

الجمعُ بين السُّجود والتَّسبيح من صفات المؤمنين

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ دون غيرها؛ لأنَّها دالَّة على مُطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، فهي دالَّة على أنَّهم جمعوا معانيَ السُّجود والتَّسبيح؛ تبيانًا لهيمنة الذِّكر والتَّسبيح على حالتهم الظّاهرة، ممّا يعني التَّأثُّر الشَّديد بما يُتلى عليهم من آياتٍ بيِّناتٍ، وكأنَّ أعظم الدَّرجات "استغراقُ قلوب العباد في درجات التَّنزيه ومنازل التَّقديس"[2]، وفي الواو الجامعة إشارةٌ إلى حال كاملي الإيمان وعُلوِّ شأن السُّجود والتَّسبيح والتَّحميد والتَّواضُع لعظمته ﷻ[3].

نكتةُ تقديم الخَرِّ على التَّسبيح:

دلالةُ الخَرِّ على الحركة غير الإراديَّة

قدَّم الخَرَّ على التَّسبيح في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ﴾؛ لأنَّه انفعالٌ قهريٌّ لا دخلَ للعقل فيه ولا للتَّفكير، فالسّاجدُ يستطيع أن يسجُدَ بهدوءٍ ونظامٍ، أمّا الذي يخرُّ فلا يُفكِّر في ذلك، وهذا أشبَهُ بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: 26]؛ أي: سقطَ عليهم فجأةً، وهذا الانفعالُ يُسمَّى: انفعالًا نُزوعيًّا ناتجًا عن الوجدان، والوجدانُ ناتجٌ عن الإدراك[4]، ومن ثَمَّ كان تقديم الخَرِّ على التَّسبيح أولى؛ لأنَّ التَّسبيح يخلو من هذا الانفعال القسريِّ، فكان في الخَرِّ وصفٌ للحالة النَّفسيَّة التي كانوا عليها ساعةَ سماع آياتِ التَّذكير.

---

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية (بتصرف)، ص: 130 وما بعدها.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 480.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 139.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9129.

سرُّ التَّعبير بالتَّسبيح: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شأنُ أهل الإيمان تنزيه الله تعالى قولًا كان أو فعلًا

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالتَّسبيح في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾؛ لأنَّه يدُلُّ على تنزيه اللّه تعالى، وجُعل عامًّا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نيَّةً، وآياتُ القرآن الدّالَّةُ على هذا ظاهرةٌ وجليَّةٌ؛ فمعنى (سبحان اللّه): تنزيهُ اللّه تعالى مُطلقًا عن كلِّ ما لا ينبغي أن يُوصفَ به، وهذا هو شأنُ أهل الإيمان في تنزيه اللّه تعالى قولًا كان أو فعلًا، ويُؤكِّد هذا التَّعبيرُ بالماضي الذي يدلُّ على رُسوخ صفة التَّسبيح فيهم، كأنَّها صارت صفةً من صفاتِهم.

سرُّ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

اتِّصالُ الحمد بالخُرورِ من دون فاصلٍ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ دالَّةٌ على المُلابسة[1]، وهي دالَّةٌ على شدَّة الاتِّصال، فكأنَّ التَّسبيح والحمد كانا مُتلازمَين مُتلاصقَين؛ إلماحًا إلى كثرة ذكرِهم للّه وتنزيهِه وتعظيمِه.

دلالةُ الجمع بين التَّسبيح والحمد وتقديمُه:

الإشارةُ إلى حال المؤمن ظاهرًا وباطنًا

جمع القرآن الكريم بين التَّسبيح والحمد في قوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وذلك باعتبار الزَّمان المُمتدِّ المُتَّسع للتَّسبيح والحمد، أو لأنَّ الحمد باللِّسانِ والتَّسبيحَ بالقلب أو العكس، أو الحمد يتضمَّنُ التَّسبيحَ أو العكس، وقُدِّم التَّسبيح على الحمد من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية؛ لذلك جُعل التسبيح أصلًا والحمدُ قيدًا[2].

نكتةُ إضافة الحمد إلى لفظ الرُّبوبيَّة في: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾:

بيانُ قيمةِ الحمد وشرفِه

أُضيفَ الحمد إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ إظهارًا لشرف الحمد وفضله، والتَّرغيب فيه، مع كونهم مُوفَّقين لهذا الحمد من ربِّهم، فهو الدّالُّ عليه، وبتوفيقه حمدوا ربَّهم أعظم الحمد، فهو المُربّي الهادي إلى الخير، ثمَّ إنَّهم قد حازوا الشَّرفَ الأكمل بنسبتهم إلى ربِّهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 267.

فائدةُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

بيانُ علَّة التَّسبيح والتَّحميد

جاءت لفظةُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ للإشعارِ بعلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وبأنَّهم يفعلونهما بمُلاحظةِ رُبوبيَّته تعالى لهم[1]؛ فالدّاعي إلى كثرة الذِّكر شعورُ هؤلاء المُؤمنين بحفظِ اللّه لهم؛ فجاء التَّسبيحُ والتَّحميدُ نتيجةً للحفظ والرِّعاية من ربِّهم.

نكتةُ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضميرهم: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

بيانُ تكريمِهم وعلوِّ مكانتِهم

أضاف النَّظم الكريم لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ إلى ضميرهم تكريمًا وتشريفًا لهم، فالمُضافُ يكتسبُ عظمتَه أو خسَّتَه من المُضاف إليه، وقد أُضيفوا إلى ﴿رَبِّهِمۡ﴾؛ إشارةً إلى علوِّ منزلتهم، وتمكُّن الإيمان والذِّكر منهم، وفيه أنَّهم يستحقُّون التَّربية التي تعني الحفظ والكلاءة من ربِّهم.

دلالةُ التَّعبير بالواو مع الجملة الاسميَّة:

بيانُ حالتِهم الثّابتة من التَّواضع والانكسارِ

جاءت الجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ مُقترنةً بواو الحال من الفعل ﴿خَرُّواْ﴾[2]؛ لبيان حالتهم، وهي التَّواضعُ والخضوعُ للّه ﷻ، وأكَّد ذلك التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة الدّالَّة على الثَّبات والدَّوام وعدم الانفكاك عن التَّواضع، فهي حالتُهم الثّابتةُ التي تعيش معهم حِلًّا وترحالًا، فالتَّواضعُ صار طبيعةً وديدنًا لأمثالهم، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على الدَّوام في عدم الاستكبار؛ لأنَّ الاستكبار عن الإيمان بالآيات كفرٌ.

فائدةُ توسُّط النَّفي بـ﴿لَا﴾ بين المُسند إليه والمُسند الفعليِّ:

اختصاصُهم بالتَّواضع والتَّعريضُ بالكفّار

توسُّط النَّفي بـ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ لإفادةِ اختصاص المؤمنين بعدم التَّكبُّر؛ أي: دون المُشركين الذين كان الكبرُ خُلقَهم، فهم لا يرضَون لأنفسهم بالانقياد للنَّبيِّ ﷺ منهم، وقالوا:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84.
(2) مكي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 568.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ [الفرقان: 21][1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ:

كمالُ تحقُّقِهم بالعبوديَّة

في التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ دلالةٌ على نفي تكبُّرهم في كلِّ زمان ومكان، فالمضارع يُفيد عدم تجدُّد الاستكبار؛ بسبب ثباتِ إيمانهم.

دلالةُ زيادةِ السّين والتّاء في نفي الاستكبارِ:

طلبُ الزِّيادة مِنَ التَّواضع والإخباتِ

يأتي (تفعَّل) بمعنى: (استفعلَ) مثل: (تكبَّرَ واستكبرَ)[2]، غيرَ أنَّ زيادة الهمزة والسّين والتّاءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ تدلُّ على أنَّ بناء الفعل بناءُ مبالغة، يدلُّ على الاجتهاد في الاستزادة مِنَ التَّواضع وعدم الاستكبار، فكأنَّهم يطلبونه طلبًا.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق الاستكبار في: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾:

إفادةُ العموم والمُحافظةُ على رؤوسِ الآيِ

حذفَ النَّظم الكريمُ المُتعلَّق في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾، فلم يذكر ربُّنا لا يستكبرون عن ماذا، ونكتةُ ذلك قائمةٌ في وصف حياتهم وشخصيّاتهم، وكأنَّ حياتَهم كلَّها تواضعٌ في تواضعٍ، فالعموم هنا هو المُسيطر على حالتهم، ويُضافُ إلى ذلك الأثرُ الكبير للتَّسبيح والسُّجود في التَّواضع وعدم الاستكبار، وفي هذا تعريضٌ بالمُستكبرين وذمٌّ لفعلهم، وممّا يُذكر في سرِّ حذف المُتعلَّق إضافةً لما سبق فائدةٌ لفظيَّةٌ تتعلَّقُ بالمُحافظة على رُؤوس الآي؛ فقبلَها: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وبعدها: ﴿يُنفِقُونَ﴾، والجانبُ الصَّوتيُّ مهمٌّ للغاية في دلالة الحذفِ.

دلالةُ السَّجدةِ في هذه الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩﴾ موضعُ سجدةٍ من سجدات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 315.

التَّخلُّقُ بأخلاق الصّالحين

تلاوة القرآن، فيها دعوة القارئ إلى التَّخلُّق بأخلاق الذين أثنى الله عليهم بأنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات الله سجدوا؛ فالقارئُ عليه أن يقتديَ بهم[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 228.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من صفات أهل الإيمان التعلق بالله تعالى دائمًا

لّما ذكر الله ﷻ في الآية السّابقة الدَّرجة العالية للمؤمن الذي إذا ذُكِّر بالقرآن حصلَ منه سجودٌ بالأعضاء، وحمدٌ وتنزيهٌ باللِّسان، وخضوعٌ بالقلب والجَنان، ذكر في هذه الآية صنفًا آخرَ من أهل الإيمان، وهم الذين تتجافى جُنوبهم عن المضاجع، ويبتعدون عن الفراش الفخيم، ويُهرَعون إلى الصَّلاة داعين ربَّهم خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَجَافَىٰ﴾: (جفو) يدُلُّ على أصلٍ واحِدٍ، وهو نُبُوُّ الشَّيءِ عن الشَّيءِ[1]، والمعنى المحوريُّ تباعدُ الشَّيءِ عن مقرِّه الذي حقُّه أن يستقرَّ فيه، ومنه: (تجافَى جنبُه عن الفراشِ): نَبا، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ أي: تتباعدُ؛ لسهرِهم في قيام اللَّيل والعبادة[2]؛ أي: ترتفع وتتنحَّى[3]، والتَّجافي: التَّباعد والمُتاركة.

2) ﴿جُنُوبُهُمۡ﴾: (جنب) أصلانِ مُتقاربانِ؛ أحدُهما: النّاحيةُ، والآخرُ البُعدُ[4]، والمعنى المحوريُّ: ناحيةٌ منَ الشَّيءِ خارجيَّةٌ غليظةٌ أو شديدةٌ تُكملُ تجوُّفَه وتحفظُ ما بداخله، كشِقِّ الإنسان يُكملُ بناءَ جوفِه وبدنِه، وكجانِبَي الوادي يُكملانِ تجوُّفَه ويحفظانِ ماءَه، وكلاهما خارجيٌّ شديدٌ غليظٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جفو).
(3) أبو البقاء الكفوي، الكليات: فصل التاء.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جفو).

3) ﴿ٱلۡمَضَاجِعِ﴾: (ضجع) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لُصوقٍ بالأرضِ على جَنْبٍ[1]، و(ضُجوعًا)، بالضَّمِّ: وضعَ جنبَه بالأرضِ، (المَضْجَعُ) كمَقْعَدٍ: موضِعُه، والجمعُ: (المضاجعُ)[2]، فالمَضْجَعُ: اسم مكانٍ من ضجَعَ: فراشٌ؛ مكانُ النَّومِ والرّاحة، والمعنى المحوريُّ: استِلقاءٌ أو انطِراحٌ بثِقَلٍ، كـ(الاضطِجاع) لِثقَلِ البدنِ أو استِرخائِه، وكمَيلِ الثَّنايا، والأصلُ فيها أن تكون قائمةً شديدةً، فكأنَّما ذهبت القوَّةُ التي تنصبُها فمالَتْ[3].

4) ﴿وَطَمَعًا﴾: (طمع) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على رجاءٍ في القلبِ قويٍّ للشَّيءِ[4]، والطَّمَعُ: نزوعُ النَّفسِ إلى الشَّيءِ شهوةً له، (طَمِعْتُ أطمَعُ طمعًا وطُماعيةً)، فهو (طَمِعٌ وطامعٌ)[5]؛ لذلك يدورُ المعنى المحوريُّ حولَ مُحاولةِ الإطباقِ على الشَّيء وضمِّه مع تهيُّؤٍ يُقوّي الرَّجاء في ذلك[6].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

هذه الآيةُ تذكر صنفًا آخرَ من أهلِ الإيمان من صفاتهم السَّهرُ وقلَّةُ النَّوم، مُتعبِّدين داعين ربَّهم خوفًا من ناره وطمعًا في جنَّته مع عدم نسيانِهم حقوق العباد، فهم يُؤدُّون زكاةَ أموالهم فرضَها ونفلَها.

يسعى أهل الإيمان إلى كل ما يقربهم إلى الله تعالى

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل قولِه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلت الآيةُ في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ عمّا قبلَها لأنَّها جاءت استِئنافًا[7] لبيانِ بقيَّة محاسنِهم، وهم المُتهجِّدونَ باللَّيلِ[8].

فضلُ قيام اللَّيل والالتجاءِ إلى الله تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضجع).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (ضجع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(5) الراغب، المفردات: (طمع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طمع).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 84.

ولبيان صفةٍ جديدةٍ لهولاء المُؤمنين السّاهرين ذكرًا للّه ﷻ، التّاركين مضاجعَهم رغبةً في كرم اللّه وعطائه، ورهبةً من نارِه، أو لبيان نوعٍ من أنواع طاعاتهم[1]، ولأنَّها حالٌ من الموصول؛ أي: الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا ومن حالهم تتجافى جنوبُهم عن المضاجعِ، فثَمَّ ترشيحٌ لصفات المُؤمنين؛ فهم يخرُّون ويُسبِّحون ولا يستكبرون.

دلالةُ التَّعبير بالمُضارع ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كـثرةُ الـسَّـهـر طاعةً لله وذكرًا له

آثر القرآن الكريمُ التَّعبير بالتَّجافي دون غيره منَ الألفاظ؛ لأنَّه يحمل معنى التَّباعد والمُتاركة والارتفاع عن ملذّاتِ النَّفس، من باب تقديم القربِ إلى اللّه على حظوظ النَّفس، وفيه تصويرٌ لحالة النَّفس عند مُنازَعتِها لرغباتها، وذلك بجَعل جفوةٍ تكون فاصلةً بين رغبةِ النَّفس وداعي القُرب إلى اللّه.

وجاء التَّعبير بالمضارع هنا لإفادة تكرُّر ذلك وتجدُّدِه منهم في أجزاءٍ كثيرة منَ الأوقات المُعدَّة للاضطجاع، وهي الأوقاتُ التي الشَّأنُ فيها النَّوم، وهذا التَّجافي يتكرَّرُ في اللَّيلة الواحدة، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم يُكثرون السَّهر بقيام اللَّيل والدُّعاء للّه[2]، فكان في توظيف المضارع بيانُ حالتِهم الشَّريفة، ويُؤكِّد ذلك صيغةُ (التَّفاعل) التي تدلُّ على المُبالغة في تحسين ذلك بإزالةِ النَّوم بالكلّيَّة، وذلك ببُعد جُنوبِهم عن المضاجع.

بلاغةُ الكناية في مُجافاة الجُنوب عن المضاجع:

التِذاذُ النُّفوس بالقيام ومقاومة دعوةِ المضاجع

تظهرُ بلاغة الكناية في رسم صورةٍ مرئيَّةٍ حركيَّةٍ تهزُّ الوجدان، هي صورة المضاجعِ في اللَّيل تدعو الجُنوبَ إلى الرُّقاد والرّاحة والتِذاذِ المنام، لكنَّ هذه الجنوبَ لا تستجيبُ، وإن كانت تبذُلُ جهدًا في مُقاومة دعوةِ المضاجع المُشتهاةِ؛ لأنَّ لها شغلًا عن المضاجع اللَّيِّنة والرُّقادِ اللَّذيذ، شغلًا بربِّها، شغلًا بالوقوفِ في حضرتِه.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 293.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

سرُّ تخصيص الجُنوبِ مع دلالةِ الإضافة:

المؤمن لا يغفل عن عبادة خالقه

خصَّص القرآن الكريم ذكر الجُنوب دونَ غيرها في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾؛ لأنَّ للجُنوبِ إلصاقًا واتِّصالًا تامًّا بالفُرُش وموضعِ النَّوم، ودلَّت الإضافةُ في قوله: ﴿جُنُوبُهُمۡ﴾ على أنَّ الجنب جزءٌ منهم، وفي هذا إشارةٌ إلى تجافي الجسم كلِّه عن النَّوم.

دلالةُ تعدية الفعل: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ بـ﴿عَنِ﴾:

تناسبُ الفعل والحرف في الدَّلالة على التَّرك

تعدَّى الفعلُ ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾؛ لأنَّه مُناسبٌ لموقف التَّجافي؛ ذلك أنَّ الحرفَ ﴿عَنِ﴾ دالٌّ على المُجاوزة، والمُجاوزةُ تركٌ وبُعدٌ، فكان ثَمَّ تناسبٌ بين الفعل والحرف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ ودلالةُ تعريفها بـ(أل):

عموميَّةُ المضاجع والتَّعريضُ بالكفّار

آثر التَّعبيرَ بالمضاجع دونَ غيرها؛ لأنَّها تُطلَقُ على الفُرُش، وهي جمعُ (مَضْجَع)، وهو مكانُ الضَّجْعِ؛ أي: الاستلقاء للرّاحة والنَّوم، و(أل) فيه عوضٌ عن المضاف إليه؛ أي: عن مضاجعِهم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: 41]؛ أي: مأواهم، وهذا تعريضٌ بالمشركين؛ إذ يُمضون ليلَهم بالنَّوم لا يصرفُهم عنه تفكُّرٌ، بل يسقُطون كما تسقطُ الأنعامُ[1].

وقد يُقالُ: إنَّ (أل) هنا جنسيَّةٌ؛ أي: إنَّهم يتجافَون عن كلِّ مَضْجَعٍ، سواءٌ أكان يخصُّهم أم ليس خاصًا بهم؛ فكان التَّعبيرُ بالألف واللّام أوعَبَ وأشملَ من الإضافة.

نكتةُ التَّعبير بقوله: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾:

الدُّعاء والصَّلاةُ من بابٍ واحدٍ

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير بالفعل: ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ لأنَّه يُطلَقُ على معانٍ مُتعدِّدة؛ منها الدُّعاء والعبادة والصَّلاة، وهذا المعنى يُرشِّحه سياقُ الآية؛ لأنَّ الدُّعاء والصَّلاة من باب واحد في المعنى؛ حيث قال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 227.

بعده: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، وفي أكثر المواضع التي ذُكرت فيها الزَّكاة ذُكرت الصَّلاةُ قبلَها؛ كقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]، فيكون التَّعبير عن الصَّلاة بالدُّعاء من باب المجاز المُرسل بذكر الجزء (الدُّعاءِ) وإرادةِ الكلِّ (الصَّلاةِ)، أو المحلّيَّة لأنَّ الصَّلاة محلُّ الدُّعاء.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

استمرارُ المؤمنين وثباتُهم على الدُّعاء

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار في الدُّعاء، وهو مُناسبٌ حقَّ المُناسبة؛ لأنَّه لمّا كان هجرانُ المَضْجَع قد يكون لغير العبادة بيَّن أنَّه لها بقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ﴾، فهو بيانٌ لحالهم؛ أي: داعينَ[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيّة وإضافتِه إلى ضميرِهم:

تواترُ إحسانِه والمُناسبةُ اللَّفظيَّةُ بين الآيات

آثر التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة وإضافته إلى ضميرهم؛ للتَّنبيه على أنَّ دُعاءهم إنَّما يكون بملاحظة ربوبيَّته، وأنَّ إجابة الدُّعاء واستجابتَه من آثار التَّربية[2]، ولأنَّه هو الذي أحسن إليهم بعطفه وكلاءته وحفظه مُعتادًا ذلك منه، فالإحسان يتواترُ مرَّةً بعد مرَّةٍ، ويُضاف إلى ذلك التَّناسبُ الحاصل بين هذه الآية والتي قبلها بذكر ﴿رَبَّهُمۡ﴾ في التَّسبيح بحمدِه ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾، ودُعائه ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾.

نكتةُ التَّعبير بقوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾:

تواضعُ المؤمنين واستصغارُهم أعمالَهم

نكتةُ التَّعبير بهذين اللَّفظين الإشارةُ إلى أنَّهم لشدَّة معرفتهم بنقائصِهم لا يعُدُّون أعمالَهم شيئًا، بل يطلبون فضلَه بغير سبب وإن كانوا مُجتهدين في طاعتِه[3]، ومن ثمَّ كان التَّعبير بالطَّمع دون

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 210.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 268.

(3) الشربيني، السراج المنير: 3/ 210.

الرَّجاء، وفيه إشارةٌ إلى خوفهم من عدم إجابة الدُّعاء أو عدم قَبوله لما يلحقُهم منَ التَّقصير في شروط قَبول الدُّعاءِ.

دلالةُ الموقع النَّحويِّ لقوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾:

الإعرابُ دالٌّ على وصفِ حالهم الدّائمة

يجوز هنا النَّصبُ على الحاليَّة؛ أي: خائفين طامِعين، والحالُ يصفُ هيئَتَهم المُتلبِّسةَ بالخوف والطَّمع، ويجوزُ النَّصبُ على المفعول المطلق على تقدير: يخافون خوفًا ويطمعون طمَعًا، والنَّصبُ على المصدريَّة دالٌّ على حدثٍ دون اقترانٍ بزمنٍ، فكأنَّ حالهم في كلِّ وقت هو الخوفُ والرَّجاء؛ فقد صارا علامتَين من علامات التَّعلُّق باللّه دومًا.

غرضُ تقديم الخوف على الطَّمع:

التَّخلية قبل التَّحلية منهجٌ قرآنيٌّ

تقديمُ الخوف على الطَّمع من باب التَّخلية والتَّحلية، فالتَّخلية بمعنى أنَّ خوفَهم كان من سخَطِه وعقابِه، فإنَّ أسباب الخوف من نقائصهم كثيرةٌ، سواءٌ أعرَفُوا سببًا يُوجب خوفًا أم لا؛ لأنَّهم لا يأمَنُون مكرَ اللّه الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يُسأل عمّا يفعل، وأمّا ﴿وَطَمَعٗا﴾ فتحليةٌ؛ أي: طمعًا في رضاه المُوجبِ لثوابِه، قال ابن عبّاس: "خوفًا من النّار وطمعًا في الجنَّة"[1]، فكان تقديمُ الخوف على الطَّمع مُناسبًا، ويُضافُ إلى ذلك عادة القرآن المُتأصِّلةُ، ذلك أنَّ القرآن إذا جمع الخوف والطَّمع فإنَّه يُقدِّم الخوف على الطَّمع دومًا.

وقدَّم الخوف تنبيهًا على أنَّ اللّائق بحال أهل الإيمان تغليبُ الخوف على الرَّجاء، وإن اجتهد في تحصيل الرِّضا، وجمع بينهما في وصف حالهم في الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من خواصِّ المؤمن الكامل؛ لذلك مدحَهم اللّه تعالى بهما ترغيبًا لهما[2].

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 210.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 268.

بلاغةُ الطِّباقِ بين الخوفِ والطَّمع:

شـرحُ أحـوالِ النَّفس المتُقلِّبة

الطِّباقُ في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ يشرحُ أحوالَ النَّفس المُختلفة، ويُوضِّحُ ماهيَّتَها، وهؤلاء يعيشون دومًا في كنَفِ اللّه، مرَّةً يخافونه بالغيب، ومرَّةً يطمعون في جنَّتِه، فحالُهم دومًا التَّعلُّقُ باللّه في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ثمَّ إنَّ الخوف يأتي لقاء ما يقومُ به البشرُ من أخطاءٍ، لكنَّهم يعودون ثانيةً إلى حظيرة الإيمان والعمل الصّالح، فيطمعون في جنَّته، فاللَّفظتان ترسُمان صورةَ النَّفس المُتقلِّبة الحائرةِ بين جنَّةٍ ونارٍ.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾:

الـجـمـعُ بين الـجـانـبَـين المعنويِّ والمادّيِّ

الواو هنا جاءت عاطفةً لجملة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ على جملةِ: ﴿يَدۡعُونَ﴾، وتأتي قيمةُ العطف من كون هؤلاء يهتمُّون بالجانبَين: الجانبِ المعنويِّ (الصَّلاة والدُّعاء)، والجانب المادّيِّ (الإنفاق)، وهذا يعني شُمولَ الفهم وعُمومَه، وقد يدلُّ العطف أيضًا على الاهتمام بنقاء النَّفس، وذلك بالصَّلاة والدُّعاء والاهتمام بالغير من خلال الإنفاق، فجَمَعت الواو بين خيرَي الدُّنيا والآخرة.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

سماحةُ الإسلام في طـبـيـعـة النَّفس البشريَّة

دلَّت (مِنْ) في الآية الكريمة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ على التَّبعيض، وعلامةُ التَّبعيض وضعُ لفظة (بعض) مكانَ (مِنْ) [1]، والتَّبعيضُ هنا مُناسبٌ لطبيعة النَّفس البشريَّة المُحِبَّة للمال والحريصةِ عليه؛ ذلك أنَّ الإنفاقَ يكون من بعض ما رُزقوا، لا كلَّ ما رُزقوا، وهذا يعني أنَّ حذف (مِنْ) سيُحمِّل النَّفس فوق طاقتها؛ لأنَّ المعنى سيكون: (وما رزقناهم ينفقون)، وهذا يعني أنَّهم سيُنفقون كلَّ ما رُزقوا، وهو مُنافٍ لطبيعة الشَّرع والنَّفس.

وممّا لُوحظ في التَّعبير القرآنيِّ أنَّ أسلوب ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 309.

﴿يُنفِقُونَ﴾ وردَ في القرآن في أحدَ عشرَ موضعًا[1]، وهذا فيه ملاحظةٌ لطبيعة النَّفس البشريَّة التي تُحبُّ المال حبًّا جمًّا، ومن ثمَّ فإنفاقه كلِّه أمرٌ عسير عليها، حتَّى وإن بلغَت منَ التُّقى مبلغَه.

وقد يُقالُ: للإشعار بأنَّهم يُنفقون بعضَ أموالهم مُبتَعدين عن الإسراف والتَّبذير حتَّى لا يتركُوا ورثَهم عالةً يتكفَّفون وجوه النّاس.

ويُلاحظ أنَّ معنى التَّبعيض يحملُ معنى ابتداء الغاية، وهذا يعني سرعةَ الإنفاقِ والاهتمامَ به، ففي كلِّ تبعيضٍ معنى الابتداء[2].

دلالةُ التَّعبير بـ(ما) في ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

بيانُ عمومِ الإنفاق

التَّعبير بـ(ما) يحملُ اتِّساعًا في المعنى؛ لأنَّ (ما) تُطلق على كلِّ شيء، وما ليس بشيء، ومن ثَمَّ فالإنفاق هنا مُحتملٌ، فقد يُقصَدُ به الصَّدقةُ الواجبة، وقد يُقصَدُ به صدقةُ النَّفل[3]، و(ما) هي التي أحدَثَتْ هذا الاتِّساع، وكلاهما محتملٌ، وفي التَّعبير بـ(ما) إشارةٌ إلى أنواعٍ أخرى منَ الرِّزق؛ كالعلم والتَّواضع والحلمِ، والمؤمن مُطالَبٌ بأن يظهرَ أثر ذلك في تعامُلِه مع الآخرين.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الوعدُ بالرِّزق لكلِّ مخلوقٍ طمأنةً للنُّفوس

آثر القرآن التَّعبير بالرِّزق؛ لأنَّه يُطلق على كلِّ ما يكتسبُه الإنسان، فهو من اللّٰه ربِّ العالمين، وكلِّ ما يُنتَفَعُ به، ويُطلَقُ على العطاء الجاري دُنيويًّا أو أُخرويًّا، وفي هذا دلالةٌ على أنَّه يحملُ على العموم في المأكل والمشرب والملبس، وكلُّ ذلك مصدرُه من اللّٰه تعالى؛ فهو الرَّزّاق ذو القوَّة المتينُ، وجاء التَّعبير بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقه أزلًا؛ فاللّٰه كتب لعبده رزقَه وأجلَه، وفي هذا طمأنةٌ للبطون الجائعة والنُّفوس القلقة.

(1) أحمد درويش، دقائق المعاني في القرآن والسنة من خلال تلاحم معاني حرف الجر (من)، ص: 53.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 461.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 293.

دلالةُ اقتران الفعل: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ بالضَّمير:

عظمةُ الرِّزق وقيمتُه

اقترانُ الفعل: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ بالضَّمير: (نا) يُفيد تعظيمَ هذا الرِّزق؛ لكونِه من عند الله تعالى، والشَّيء إذا نُسِب لله اكتسبَ عظمتَه وقيمتَه، وهؤلاء المُنفقون إنَّما يُنفقون من فضل الله الكريم لا حيلةَ لهم فيه، بل بحَولِه وقوَّته يرزُقُهم ربُّهم[1].

نكتةُ تقديم شبه الجملةِ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

الاختصاصُ والقصرُ ومُراعاةُ رُؤوسِ الآيِ

لتقديم شبه الجملة على الفعل والفاعل في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ نكتتان؛ الأولى: لفظيَّةٌ، وهي مُناسبة رؤوس الآيات التي تنتهي بحرف النُّون وقبلها الحرفُ السّاكن (يستكبرون، يعملون)، وهذا منَ الإعجاز الصَّوتيِّ في القرآن الكريم، والثّانية: دلاليٌّ لبيان الاختصاص أو القصر؛ أي أنَّ الإنفاقَ ممّا أعطاه الله دونَ غيره[2].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾:

الـدَّوامُ والاستمرارُ

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالفعل المضارع: ﴿يُنفِقُونَ﴾ دونَ الماضي (أنفَقُوا)؛ ليُشعِرَ بأنَّ الإنفاقَ منهم يتجدَّدُ بين وقتٍ وآخرَ؛ فالمضارع تجدُّدٌ واستمرارٌ واستحضارٌ للصُّورة، مع مُناسبتِه للفعل ﴿يَدۡعُونَ﴾ الذي قبلَه.

سرُّ التَّعبير بـ﴿يُنفِقُونَ﴾ دونَ غيره:

شُموليَّةُ الإنفاقِ وعُموميَّتُه

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالإنفاق في قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ دون (يُزكُّون) أو (يتصدَّقُون)؛ لأنَّه يشملُ الفرضَ والنَّفل، وكأنَّ الفعل ضمَّ معنى الفرض في الزَّكاة والنَّفلِ في الصَّدقة، وهذا يعني أنَّ الإنفاقَ أعَمُّ، فالمُنفِقُ أعلى حالًا منَ المُزكّي؛ لأنَّ المُزكّيَ يُخرِجُ ما وجبَ عليه فرضًا، أمّا المُنفقُ فيُنفق في الفرض والنَّفل والمادّيِّ والمعنويِّ بوجهٍ عامٍّ، فليس الأمرُ مقصورًا على المال، بل الرِّزق هو

---

(1) هنداوي، الإعجاز الدلالي في القرآن الكريم، ص: 208.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/ 3065.

كلُّ ما يُنتَفَعُ به، فالقوَّةُ رزقٌ، والعلم رزقٌ، والحكمةُ رزقٌ، والتَّواضعُ رزقٌ، وكلُّ ما فيه حركةٌ للحياة رزقٌ، فإنْ لم يكن عندك مالٌ لتُنفقَ منه فعندك عافيةٌ تعمل بها لتحصُلَ على المال، وتتصدَّقُ بها على العاجز والمريض، وإن كان عندك حلمٌ، فإنَّك تُنفقُه بأن تقيَ الأحمقَ من تصرُّفاتٍ قد تُؤذي المُجتمعَ وتُؤذيك، وإن كان عندك علمٌ فأنفِقه لتُعلِّم الجاهلَ، وهكذا نرى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تستوعبُ جميع حركةِ الحياة[1].

سرُّ اختلافِ مراتب العبادة:

تـعـدُّد مـراتـبِ العبادة

في هذه الآية والتي قبلَها إشارةٌ إلى مرتبتَين مختلفتَين، فكأنَّ في الآية الأولى إشارةً إلى المرتبةِ العاليةِ؛ وهي العبادةُ لوجه اللّه تعالى مع الذُّهول عن الخوف والطَّمع، بدليل قولِه تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ﴾، فإنَّه يدلُّ على أنَّه عند مُجرَّد الذِّكر يُكونُ منهم السُّجودُ وإن لم يكن خوفٌ وطمعٌ، وفي الآية الثّانية إشارةٌ إلى المرتبتَين الأخيرتَين، وهي العبادة خوفًا كمَن يخدم الملك الجبّار مخافةَ سطوتِه أو يخدمُ الملك الجوادَ طمعًا في برِّه[2].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/ 129.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 146.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتطلع نفس العابد إلى ما أعد له من المثوبة

لمّا ذكر في الآيات السّابقةِ جزاء المُستكبرين وما أعدَّ لهم منَ العقاب، تطلَّعت النَّفسُ إلى معرفة جزاء المُتواضِعين؛ فجاءت هذه الآيةُ جوابًا على تطلُّعِهم بما أعدَّه اللّٰه لهم من ثوابٍ بقوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُخۡفِيَ﴾: (خفي) أصلان مُتباينان مُتضادّان؛ فالأوَّل السَّترُ، والثّاني الإظهارُ[1]. (خفيَ الشَّيءُ خُفْيَةً): استترَ، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: 55]، و(الخِفاءُ): ما يُستَرُ به كالغِطاءِ، و(خَفَيْتَه): أزلتَ خفاءَه، وذلك إذا أظهرتَه، و(أخفَيْتَه): أوليته خَفاءً، وذلك إذا سترتَه، ويُقابَلُ به الإبداءُ والإعلانُ، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1][2].

2) ﴿قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾: (قرر) أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهما على بردٍ، والآخرُ على تمكُّنٍ، فالأوَّلُ: القُرُّ، وهو البردُ، والأصلُ الآخرُ: التَّمكُّنُ، يُقالُ: (قَرَّ واستَقَرَّ)، وفي الدُّعاء: (أقرَّ اللّٰه عينَه)؛ أي: أعطاه حتَّى تقرَّ عينُه فلا تطمحَ إلى من هو فوقَه[3]، والمعنى المحوريُّ: ثَباتُ ما شأنُه التَّسيُّبُ وامتِساكُه في قاعٍ عميقٍ مُستديرٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرر).
(2) الراغب، المفردات: (خفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرر).

المَعنى الإجْماليُّ:

الجزاء عند الله تعالى من جنس العمل

بيَّنت هذه الآيةُ الجزاءَ الذي أعدَّه اللّه تعالى للمُؤمنين من جنس أعمالهم، ففي الجنَّة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذلك كلُّه بسبب عملهم الطَّيِّب وإخباتِهم للّه ﷻ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ﴾:

عظمةُ العطاء مع سترِ العلم عنه

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّها سببيَّةٌ، أو فصيحةٌ، والمعنى: أُكرِمُوا إكرامًا فوق مأمولهم، وأُعطوا فوق رجائهم، فلا تعلمُ نفسٌ قدر هذا العطاء وهذا الإكرام[1]، ففي الكلام حذفٌ للتَّركيز على ما أُعدَّ لهؤلاء، ويجوزُ أن تكون الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ﴾ رابطةً للّاحق بالسّابق، وأصلُ النَّظم: (فلا يعلمون) والعدولُ لتعظيم الجزاء[2].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ﴾:

التَّعبير بالمُضارع المنفيِّ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ﴾ دالٌّ على عدم العلم المُتواصل المُستمرِّ للجزاء المُعَدِّ لهم، مهما أُوتوا من علم ومعرفة؛ لِعظَم جزائهم وخفائِه وعُلوِّ شأنِه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَفۡسٌ﴾:

دلالـةُ العموم لكلِّ نفسٍ

أفاد التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ الشُّمولَ والعموم لكلِّ نفس قريبةٍ أم بعيدةٍ، ملكًا أم نبيًّا؛ لأنَّها نكرةٌ، وجاءت في سياق نفيٍ؛ فدلَّت على عموم كلِّ نفسٍ[3]، ويجوزُ أن يكون المعنى: لا تبلغُ نفس من أهل الدُّنيا معرفةَ ما أعدَّ اللّه لهم؛ فدلَّ على أنَّ المُراد بـ﴿نَفۡسٌ﴾ في هذه الآية أصحابُ النُّفوس البشريَّة، ولعلَّ

---

(1) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 152.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 130.
(3) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 152.

لفظة ﴿نَفۡسٞ﴾ تذهبُ إلى نفوسِ المُكرَّمين؛ فهم أنفسُهم لا يعلمون ما أُخفيَ لهم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أُخۡفِيَ﴾:

عظمةُ المَخفيِّ

آثر النَّظم الحكيم التَّعبير بـ﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أُخۡفِيَ﴾؛ لأنَّها تحتمل الموصوليَّةَ والاستفهاميَّةَ[1]، فالموصوليَّةُ بمعنى (الذي)؛ أي: لا تعلم نفسٌ الذي أُعدَّ لهم، وأمّا الاستفهاميَّةُ: فـ﴿مَّآ﴾ مُبتدأ، وجملة ﴿أُخۡفِيَ﴾ خبره، وجملة ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ تسدُّ مسدَّ مفعولَي ﴿تَعۡلَمُ﴾، وعلى كلٍّ منَ الموصوليَّة والاستفهاميَّة فالإبهامُ للتَّعظيم؛ لأنَّه بمعنى: (أيّ شيء).

نكتةُ توظيفِ الفعل ﴿أُخۡفِيَ﴾:

الجزاءُ من جنس العمل

لمّا أخفى هولاء المُتذكِّرون أعمالَهم بالصَّلاةِ في جوف اللَّيل والإنفاقِ سرًّا وغيرِ ذلك من أعمال الطّاعات، ولا يُراؤون بها أخفَى اللّه جزاءَهم[2]؛ لعظمتِه وعدمِ تخيُّلِه، فالجزاء من جنس العمل، محجوبٌ في التَّعبير والتَّصوير، لكي يتناسقَ مع جوِّ عبادتِهم في اللَّيل، حيث لا يطَّلع عليهم أحدٌ إلّا اللّه، وكأنَّ هذه الصَّلاة المستورة في جُنحِ الظَّلام يُناسبُها جزاءٌ خاصٌّ مستورٌ أيضًا[3].

بلاغةُ توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿أُخۡفِيَ﴾:

إخفاءُ العطاء هو قمَّةُ العطاء

قرأ حمزةُ ﴿مَّآ أُخۡفِي لَهُم﴾ ساكنةَ الياء، وجعلَه فعلًا مُستقبلًا؛ أي: أُخفيّ أنا، فالفاعلُ هو اللّه جلَّ وعزَّ، فهو يُخبر عن نفسه؛ أي: ما أُخفي أنا لهم، وحجَّتُه ما يتَّصلُ بالحرف، وهو قولُه قبلَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

وأمّا قراءةُ الباقين: ﴿مَّآ أُخۡفِيَ﴾ بفتحِ الياء جعلوه فعلًا ماضيًا

(1) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 152.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 257.
(3) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 307.

على ما لم يُسمَّ فاعلُه، ويُقوّي بناءَ الفعل للمفعول به قولُه: ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، فأبهم ذلك كما أُبهم قولُه: ﴿أُخۡفِيَ لَهُم﴾، ولم يُسنَدْ إلى فاعلٍ بعينِه[1]، فإخفاءُ الفاعلين دالٌّ على تعدُّدِهم وكثرتِهم.

سرُّ بناء الفعل: ﴿أُخۡفِيَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

تعظيمُ ما أُعدَّ لهم من جزاءٍ

بُني الفعلُ ﴿أُخۡفِيَ﴾ للمفعول في قراءة الجماعة تعظيمًا لما أُخفي، فيذهبُ الفِكر في المَخفيِّ كلَّ مذهبٍ[2]، وهو تعبير عظيم يشي بحفاوةِ اللّه سبحانه بالقوم وتولّيه بذاته العليَّة إعدادَ ما ادَّخرَه لهم عنده منَ الحفاوة والكرامة ممّا تقرُّ به العيون، وهذا المُدَّخر الذي لا يطَّلع عليه أحدٌ سواه، فهو يظلُّ عنده خاصَّةً مستورًا حتى يكشفَ لأصحابِه عنه يوم لقائه.

سرُّ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لَهُم﴾:

اخــتــصــاصُ المُــؤمــنــين واستِحقاقُهم لهذا التَّكريم

التَّعبير باللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ العطايا لهم دون غيرهم؛ لأنَّ اللّام لها معانٍ مُتعدِّدةٌ؛ الملك والبيان والاستحقاقُ والإضافة والتَّخصيص[3]، فكأنَّها ملكُهم وهم المُستحقُّون لها، المُهَيمنون عليها، جزاءً من ربِّك عطاءً حسابًا، وفي هذا منَ التَّكريم والاحتفاء ما فيه؛ تقديرًا لثباتهم على إيمانهم، وصبرهم على مشاقِّ الأعمال وسهرهم، وكأنَّ هؤلاء استحَقّوا أن يمتلكوا ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، نتيجةَ أعمالهم الشَّريفة.

دلالةُ إضافة القُرَّة إلى ﴿أَعۡيُنٖ﴾:

المذخورُ في غايةِ الحُسنِ

في إضافة القُرَّةِ إلى الأعيُنِ على الإطلاقِ لا إلى أعيُنِهم تنبيهٌ على أنَّ ما أُخفي لهم في غاية الحُسنِ والكمال[4]، ويُؤكِّدُ ذلك أنَّ

---

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 569، وابن الجزري، النشر: 2/ 374.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 257.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 129.

قُرَّة العين تُطلَقُ على ثلاثة أقوال: **أحدُها:** على دمعتِها، وهي التي تكونُ مع الضَّحك والسُّرور، ودمعةُ الحزن حارَّة، **والثاني**: على نومِها لأنَّه يكونُ مع ذهاب الحُزن والوجع، **والثّالث**: على حضورِ الرِّضا[1].

وهذه المعاني تدلُّ على غاية السُّرور والحُبور عند أهل الإيمان بما أعدَّه اللّه لهم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أَعۡيُنٖ﴾ مُنكَّرةً دون (عيون):

عـادةُ القرآن التَّفريقُ في التَّعبير بين أعيُنِ الخلقِ وعيونِ الماء

آثر القرآن الكريمُ التَّعبير بـ﴿أَعۡيُنٖ﴾ جمعَ قلَّة دونَ (عيون) جمعَ كثرةٍ؛ لأنَّ هؤلاء قليلٌ مُقارنةً بغيرهم، وقد يُقالُ: إنَّ لفظة ﴿أَعۡيُنٖ﴾ على مدار القرآن كلِّه إذا جاءت على وزن (أفعُل) جمعًا للقلَّةِ فإنَّها الأعينُ الباصرةُ، أمّا جمع الكثرة (عيون) فإنَّها لأعيُنِ الماء، لم يشذَّ جمعٌ واحدٌ عن هذه العادة القرآنيَّةِ في التَّفريق بين أعيُنِ الخلق وعيون الماء، وخُصَّ كلٌّ منهما بصيغة جمعٍ.

أمّا التَّنكيرُ في لفظ ﴿أَعۡيُنٖ﴾؛ فلأجل تنكير القُرّة؛ لأنَّ المُضاف لا سبيلَ إلى تنكيره إلّا بتنكير المُضاف إليه، ويجوز أن يُقالَ في تنكير ﴿أَعۡيُنٖ﴾: إنَّها أعيُنٌ خاصَّةٌ، وهي أعيُن المُتَّقين[2].

مُناسبةُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ لـ ﴿قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾:

العطاءُ نتيجةُ العملِ

العلاقةُ بين الطَّرفين علاقةُ عطاء وجزاء؛ ذلك أنَّ العين لمّا كانت لا تقَرُّ إلّا عند الأمن والسُّرور قال: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾؛ أي: من شيءٍ نفيسٍ سارٍّ تقرُّ به أعينُهم لأجل ما أقلعوها عن قرارِها بالنَّوم[3]؛ فسهَرُ العين نتيجةُ إعطائها القرَّة السَّعيدة.

دلالةُ الموقع النَّحويِّ لقوله: ﴿جَزَآءَۢ﴾:

عظمةُ الجزاء وعلُوُّ شأنِه

تحتملُ اللَّفظة إعرابين؛ فهي مفعولٌ مطلق أو مفعولٌ لأجله،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 487.

(2) الزمخشري، الكشاف عند تفسيره في الفرقان: 76: 3/ 296.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 257.

والمعنى هنا: (جُزُوا جزاء) هذا على المفعول المطلقِ، أو أُخفيَ للجزاء، وهذا للمفعولُ له، وإخفاؤه لعلوِّ شأنِه[1].

سرُّ التَّعبير ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟﴾:

العملُ سببٌ في ارتقاء الدَّرجات يوم القيامة

الباءُ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّة، وهي دالَّةٌ على أنَّ الأعمال سببٌ رئيسٌ في رفع الدَّرجات، وليس في أصل دخول الجنَّة، و(ما) اسم موصولٌ، أو مصدريَّة، عبَّر بها لأنَّها دالَّة على شمول أعمالهم لكلِّ خير، فهي عامَّةٌ وليست مُحدَّدةً، وهذا واشٍ بكثرة الأعمال الصّالحة التي مكَّنَتهم منَ الوصولِ إلى أعظم الدَّرجات.

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿كَانُوا۟﴾:

استمرارُ أثر العمل ماضيًا وحاضرًا

الإتيانُ بـ﴿كَانُوا۟﴾ للدَّلالة على الاستمرار[2]، فهي ماضٍ مع دلالتِه على الدَّوام، فضمَّت زمنَين، الماضيَ والحاضرَ، فهي تُشير إلى اقتران مضمون الجملة بالزَّمان الماضي من غير تعرُّضٍ للانقطاع؛ كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها تُرادِفُ: (لم يزل)[3]؛ لبيان أنَّ الماضيَ حاضرٌ معهم، فعملهم الصّالحُ هو المُؤيِّد والنّاصر، ولا يُفيدُ حذفُ ﴿كَانُوا۟﴾ الدَّلالةَ على الزَّمنَين.

نكتةُ التَّعبير بالعمل دون الفعل:

في العمل قصديَّةٌ ومُثابرةٌ وامتدادُ زمانٍ ليست في الفعلِ

سرُّ ذلك أنَّ العمل أخَصُّ منَ الفعل، فكلُّ عملٍ فعلٌ، ولا ينعكسُ[4]، وهذا يحمل قصديَّةَ الفعل والتَّوجُّهَ إليه، فالعمل الصّالح صار طبيعةً ودَيدنًا؛ لأنَّ فيه امتدادَ زمانٍ[5] غير الفعل، ومن ثَمَّ عبَّر

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 580.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 239.
(3) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 100.
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109 - 110.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

فقال: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، "حيثُ كان المقصود المُثابرةَ على العمل لا الإتيانَ به مرَّةً أو بسرعةٍ[1]، والمضارع دالٌّ على هذا الامتداد والمُثابرة.

نكتةُ حذف مفعولِ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

عمومُ العمل مع مُناسبة رؤوسِ الآيِ

في حذف مفعول ﴿يَعْمَلُونَ﴾ نكتتان: الأولى: شُمولُ العمل واتِّساعُه، فليس ثمَّ نصٌّ على عملٍ بعينه، وإنَّما دَيدنُهم العملُ الصّالح الذي يُعرَفون به، والثّانية: لفظيَّةٌ، وهي مُناسبةُ رؤوسِ الآياتِ التي تنتهي بحرفِ النُّونِ وقبلَها الحرفُ السّاكنُ ﴿يُنفِقُونَ﴾، و﴿يَسْتَوُۥنَ﴾، وهذا منَ الإعجاز الصَّوتيِّ في القرآن.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(خرَّ) و(سقطَ):

الخُرورُ: سقوطٌ شديدٌ قويٌّ، وكلُّ ما في القرآن من (خرَّ) هو سقوطٌ بحتٌ، أو سقوطٌ لحالٍ؛ كالسُّقوطِ صعقًا، أو للرُّكوع والسُّجود[2]، أمّا السُّقوطُ: فهو طرحٌ من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ مُنخفضٍ[3]، وليس شرطًا أن يكون شديدًا.

(1) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 387.

(2) الراغب، المفردات، ابن منظور لسان العرب: (خرر).

(3) الراغب، المفردات: (سقط).

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾ [السجدة: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا يستوي المؤمن الطائع مع غيره

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقة جزاء المؤمنين الذي لا يعلمه أحدٌ، ولا رأته عينٌ، ولا سمعت به أذنٌ، ولا خطرَ على قلب بشرٍ، بعدما ذكرت الآيات السّابقة جزاء الكافرين المُعدَّ لهم في الآخرة، جاءت هذه الآية الكريمة ببيان وجهِ المُفارقة بين فريقَي الإيمان والكفر، بأنَّهما لا يستَويان عند اللّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاسِقًاۚ﴾: (فَسَقَ فلانٌ): خرجَ عن حِجْرِ الشَّرع، وذلك من قولهم: (فَسَقَ الرُّطَبُ) إذا خرج عن قشرِه، وهو أعمُّ منَ الكفر، والفِسْقُ يقعُ بالقليل منَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعُورف فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقالُ: (الفاسقُ) لِمَن التزمَ حكمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِها، وإذا قيلَ للكافر الأصليِّ: (فاسِقٌ)، فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمَه العقلُ واقتَضَتْه الفِطرةُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50][1]، والمعنى المحوريُّ: خروجُ الشَّيءِ عن غلافِه (حَدِّه) أو حيِّزه لحدّةٍ أو فسادٍ؛ كحال تلك الفواسقِ في طبائعِها وما يصدُرُ عنها[2].

2) ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾: (سوي) أصلٌ يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين[3]، والمُساواة: المُعادلةُ المُعتبرةُ بالذِّراع والوزن والكيل، يُقالُ: هذا ثوبٌ مُساوٍ لذاك الثَّوب، وهذا الدِّرهم مُساوٍ لذاك الدِّرهم، وقد يُعتبر بالكيفيَّة نحوُ: هذا السَّوادُ مُساوٍ لذلك السَّواد، وإن

(1) الراغب، المفردات: (فسق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).

كان تحقيقُه راجعًا إلى اعتبار مكانِه دونَ ذاتِه، والمعنى: لا يستوي المُؤمنون والفاسقُون عندَ اللّه يومَ القيامة[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفاوتُ المنازل بين المُؤمن والكافرِ

بدأت الآيةُ بالمُقارنة بين فريقَي الإيمان والكفر، وأنَّهما لا يستَويان؛ هل يستَوي المُؤمن باللّه ورسوله، المُطيعُ لأمره ونهيه، والكافرُ الخارجُ عن طاعةِ ربه، المُكذِّبُ رسل اللّه إليه؟ والجوابُ: لا يستَوي المؤمنون والفاسقون أبدًا في الدُّنيا والآخرة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بيانُ تفصيلِ الجزاء

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه في معنى الاستئنافِ البيانيِّ[2]، وذلك لبيان مبدأ الجزاء العادل، الذي يُفرِّقُ بين أهل الإيمان وأهل الفسق في الآخرة، وأساسُ الجزاء العملُ على أساسٍ منَ العدل المُطلق.

بلاغةُ الاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَن﴾:

إنكارُ المُساواة بين الفريقَين

تظهر بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَفَمَن﴾ بالإنكارِ على مَن حاولَ المُساواة بين المُؤمن والفاسقِ بعد ظُهور ما بينهما منَ التَّباين، فلا مُساواةَ بين كونِ المؤمن الذي حكيت أوصافُه الفاضلةُ كالفاسق الذي ذُكرت أحوالُه القبيحةُ العاطلةُ، فالإنكارُ يُفيدُ أنَّه لا تقارُبَ بينهم فضلًا عن التَّماثلِ[3]، وهو إنكارٌ بتنزيل السّامع منزلةَ المُتعجِّب منَ البَون بين جزاءِ الفريقَين في ذلك اليوم، فكان الإنكارُ مُوجَّهًا إلى ذلك التَّعجُّب في معنى الاستئنافِ البيانيِّ[4].

(1) الراغب، المفردات: (سوا).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.
(3) الشهاب، حاشية الشهاب: 5/ 83.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.

سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿أَفَمَن﴾:

آثر النَّظم التعبيرَ بالفاء في قوله: ﴿أَفَمَن﴾ دونَ غيرها؛ لتنوُّع المُرادِ منها؛ فقد تكون استئنافيَّةً لا موضعَ لها[1]، وقد تكونُ عاطفةً على محذوفٍ يقتَضيه السّياقُ[2]، فهي بناءً على ذلك تفريعٌ على ما تقدَّمَ منَ الآيات منَ الوعد للمُؤمنين والوعيد للكافرين[3].

تنوُّعُ دلالات حروف المعاني دليلٌ على إعجاز القرآن

بلاغةُ التَّشبيه في الآية:

تظهرُ بلاغة التَّشبيه في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ باستعمال الكاف هنا للتَّشبيه في الجزاء[4]، فهو تشبيهٌ تامٌّ مُفصَّلٌ، ويكون معناه: أيستَوي الإنسانُ الذي آمنَ بالغيب وآمنَ باللّه، وآمنَ بالجنَّة، وآمنَ بالنّار، مع الفاسق الذي خلعَ عن نفسه عباءة الإسلام، وخرجَ من دين اللّه ﷻ، وخرجَ عن طاعةِ ربِّ العالمين سبحانه؟ فلا يستَوي المُؤمنُ مع الفاسق لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

بيانُ البُعد بين طرفَي الإيمان والفسقِ

دلالةُ التَّعبير بـ﴿كَانَ﴾ مع دلالة الاسميَّةِ:

دلَّ التَّعبير بلفظ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ على أنَّ إيمانَه أمرٌ قدَّره اللّه أزلًا لتحقُّق علمِه باختياره للإيمان والعمل على تحقيقِه، وفي قوله: ﴿كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ دلالةٌ على علم اللّه ﷻ الأزليِّ باختيار الإنسان للفسقِ، والعمل على تحقيق ذلك بخروجه عن دائرة الإيمان، ويُؤكِّد ذلك التَّعبيرُ بالاسميَّة ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ و﴿فَاسِقٗاۚ﴾ التي تدلُّ على ثُبوت هذا الوصف وتحقُّقِه واستقراره حتَّى صار علَمًا عليه.

رسوخُ الوصفِ لكلا الفريقين مِن الأزل

سرُّ اختيار ﴿فَاسِقٗاۚ﴾ دونَ (كافرًا):

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بالفسقِ في قوله: ﴿فَاسِقٗاۚ﴾ دونَ (كافرًا)؛ لأنَّ الفسقَ أعمُّ منَ الكفر؛ فأصلُ الفسق: الخروجُ، من

عموميَّةُ لفظ الفسقِ فالفاسقُ كافرٌ وزيادةٌ

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1049.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 582.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير:21/ 231.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.

(فسَقَتِ الثَّمرةُ) إذا خرجَتْ من قشرِها، ثمَّ استُعمل في الخروج عن الطّاعة وأحكامِ الشَّرعِ مُطلقًا، فهو أعمُّ من الكفر، وقد يُخصُّ به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55][1]، والمرادُ به: مَن ليس بمُؤمنٍ بقرينة قوله بعده: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ فالمرادُ: الفسقُ عن الإيمانِ[2].

نكتةُ تنكير ﴿مُؤْمِنًا﴾ و﴿فَاسِقًا﴾:

العـمـوم والشُّمولُ

التَّنكير في اللَّفظتَين يُشير إلى العموم والشُّمول بين كلِّ مُؤمن وكلِّ فاسقٍ؛ فلا يستَوي أيُّ مؤمنٍ مع أيِّ فاسقٍ ألبتَّةَ؛ لِما بينهما من بُعدٍ، وفي التَّنكير بيانُ التَّعظيم والتَّحقير في آنٍ واحدٍ، فالتَّعظيمُ للمؤمن، والتَّحقيرُ للفاسق.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿مُؤْمِنًا﴾ و﴿فَاسِقًا﴾:

بيانُ التَّناقض الكبير بين الفريقَين

بلاغة الطِّباق قائمةٌ على بيان التَّناقض الكبير بين طرفَين، والطَّرفان هنا: (مؤمن) و(فاسق)، ومن ثَمَّ فالطِّباق بينهما يرسمُ صورةً لفريقَين؛ أحدُهما يسير على خُطا الهدى، وآخرُ يسير على طريق الضَّلال، وفي هذا تحريكٌ للعاقل كي يُفكِّر في خير الطَّريقَين، ثمَّ في الطِّباق بيانُ العلم الشّامل المُحيطِ باعتقادات البشر وتصوُّراتهم، وفي ذلك إشارةٌ للسَّيطرة التي يختَصُّ بها اللّه ﷻ.

سرُّ العدول عن المُتعارف في نفي مُشابهة الأخسّ بالأشرفِ:

شـدَّةُ التَّشنيعِ عليهم بقَلْبِهم المفاهيمَ العقليَّةَ البديهيَّة

المُتعارفُ نفيُ مُشابهة الأخسِّ بالأشرفِ؛ لكنَّه في هذه الآية عكسَ تنبيهًا على أنَّهم لاستحسانِ الكفر جعلَه أصلًا مُشبَّهًا به، والإيمانُ مُشبَّهًا وفرعًا، وفيه مُبالغةٌ في بيان كمال شناعتِهم في فسقِهم وكُفرِهم[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 272.

نكتةُ بناء الآيةِ على الاستفهامِ لا الخبريَّة:

إلجاءُ الخصم إلى الاعترافِ بالقضيَّة

جاء بناءُ الآية على الاستفهام دونَ الخبر في قوله: ﴿أَفَمَن﴾؛ لإلجاءِ الخصم إلى الاعترافِ بالقضيَّةِ، وهذا الأسلوبُ يُسمَّى: أسلوبَ الإقناع التَّأكيدي، وهو أن تجعلَ الخصم هو الذي ينطقُ بالحكم، كأن تقولَ لِمَن يُنكر فعلَك بصيغة السُّؤال: ألم أُقدِّم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا؟ وأنتَ لا تسألُه إلا إذا وثقتَ بأنَّ جوابَه لا بدَّ أن يأتي وفقَ مُرادك، وعندها يكونُ كلامُه حجّةً عليه؛ لذلك طرحَ الحقُّ سُبحانه هذه المسألةَ في صورة سؤالٍ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾، ولا بدَّ أن نقول نحن في جواب هذا السُّؤال: لا يستوي مُؤمن وفاسقٌ، ومن يقُلْ بهذا فقد وافقَ مُرادَ ربِّه[1].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ دونَ (لا يستويان):

نفيُ المُشابهة بين المؤمن والفاسق مع إرادة العموم

جاء التَّعبير القرآنيُّ في نفي المُساواة بقوله: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾، ومُقتَضى الظّاهر أن يأتي على صيغة التَّثنية، فيُقالُ: (لا يستَويان)؛ لكنَّ التَّعبير القرآنيَّ جاء بالفعلِ على صيغةِ الجمع، وفائدتُه التَّصريحُ به مع إفادةِ الإنكار، لنفي المُشابهةِ بالمرَّة على أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه، ثمَّ إنَّ الفعل هنا جاء لبناء التَّفصيل الآتي عليه: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾، علمًا أنَّ الجمع هنا جاء لِمُلاحظة لفظة ﴿أَفَمَن﴾[2]؛ فهي تصلحُ للمُفرد والجمع، وقد يكون اللَّفظُ مُفردًا لكن يُراد به العموم؛ أي: المؤمنون والفاسقون، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الاثنَين جماعةٌ فجاز ﴿يَسۡتَوُۥنَ﴾؛ لأنَّ المؤمن والكافر صارا كأنَّهما جماعةٌ.

نكتةُ فصلِ ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ عمّا قبلَها:

الانسجامُ بين أوَّلِ الآية وآخرِها

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ كأنَّه جوابٌ للسُّؤالِ: ﴿أَفَمَن كَانَ

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11842.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 85.

مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾[1]، فبين أوَّلِ الآية وآخرِها انسجامٌ، فجواب الاستفهام هو عدم الاستواء والتَّماثلُ، فكأنَّ جملةَ ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ عطفُ بيانٍ للمقصود من الاستفهامِ[2].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11842.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [السجدة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـجـزاء من جنس العمل

لمّا ذكرت الآية السّابقة أنَّ المُؤمن والفاسقَ لا يستَويان بطريق الإجمال بيَّن في هذه الآية عدمَ استوائهما على سبيل التَّفصيل، فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾: (أوى) أصلان: أحدُهما: التَّجمُّعُ، والثّاني: الإشفاقُ، والمأوى: مكانُ كلِّ شيءٍ يُأوَى إليه ليلًا أو نهارًا[1]، والمعنى المحوريُّ: ضمٌّ مع ضعفٍ ما، كما في الإيواءِ للنُّصرة والحياطةِ والحمايةِ من عدوٍّ أو جوٍّ يضرُّ التَّعرُّضُ له[2].

2) ﴿نُزُلَۢا﴾: (نزل) كلمةٌ صحيحةٌ تدُلُّ على هُبُوطِ شيءٍ ووُقوعِه[3]، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنّازل منَ الزّاد، والمعنى المحوريُّ: انحِدارٌ أو انفِصالٌ وخُلوصٌ إلى مقرٍّ أو حيِّزٍ يُوجد فيه بقوَّةٍ، فالوجودُ معنًى لزوميٌّ هنا؛ كالنُّزول في المنزِلِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ الذين صدَّقت قلوبُهم بآيات الله ورُسله، وعملوا صالح الأعمال، فلهم جنّاتُ المأوى التي فيها المساكنُ والدُّور والغُرفُ العالية، التي أُعِدَّت وهُيِّئَت لتكونَ ثوابًا وجزاءً وتكريمًا لهم على أعمالهم الحسنةِ، وأفعالهم الطَّيِّبة التي فعلوها في الدُّنيا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أوو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزل).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿أَمَّا﴾ في قوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تفصيلُ الحال ورفعُ الشَّكِّ وربطُ الجزاء بالعمل

تظهر بلاغةُ التَّعبير بـ﴿أَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ حيث صُدِّرت الآيةُ الكريمة بها تفصيلًا لمراتب الفريقَين بعد نفي استوائِهما، أو بعد ذكر أحوالِهما في الدنيا[1]، ويكون ذلك من عدَّةِ جوانبَ: **الأوَّلُ**: أن ﴿أَمَّا﴾ أداةُ تفصيلٍ، وهي تتكرَّرُ في الكلام تمهيدًا لذكرِ فريقٍ آخرَ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾، **والثّاني**: أنَّها دالَّة على التَّوكيد الذي يُزيلُ الشَّكَّ من نفس المُخاطب، وتُمَكِّنُ الحقيقةَ من نفسِه، بحيث يرسخُ في الذِّهن مصيرُ الفريقَين، **والثّالثُ**: أنَّها تُفيدُ الشَّرط بدليل وجود الفاء في الجواب ﴿فَلَهُمۡ﴾، وهذا يدلُّ على حُسنِ عاقبة المُؤمن وقُبحِ عاقبة الفاسقِ، فالذي يعملُ الصّالحات جزاؤُه الجنَّةُ، وأمّا الفاسقُ فمصيرُه النّارُ، وفي هذا بيانٌ للعدل المُطلق للّه ﷻ، وفيه بيانُ قوَّةِ الارتباطِ بين الشَّرطِ والجواب؛ تطمينًا لقلب المؤمن، وتحذيرًا للفاسق.

سرُّ التَّعبير بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ (مَنْ):

علُوُّ شأن المؤمنين وبيانُ كرامتِهم

آثرَ النَّظمُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ (من آمنوا)؛ للفرقِ بينهما عمومًا وخُصوصًا، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يختَصُّ بالجمع العاقل، أمّا (مَن) فهي عامَّةٌ؛ لأنَّها تُستَعملُ للمُفرد والمُثنَّى والجمع والعاقلِ وغير العاقل[2]؛ لذلك كان التَّعبيرُ، بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّه نصٌّ في المراد، وكونُه مُختصًّا من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع، ممّا يدُلُّ على علوِّ الشَّأن[3].

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنون):

إيثارُ القرآن الكريم للاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلتِه فيه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 131.
(2) ابن هشام، شرح قطر الندى وبلّ الصدى، ص: 101.
(3) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإنجاز، ص: 34.

ثباتُ الإيمان في نفوسهم وظهوره في سلوكهم وطبائعهم

إيماءٌ إلى ثباتِ ذلك الإيمانِ في نفوسِهم، وظهورِه في سُلوكِهم وطبائعِهم، فالجملةُ الموصوليَّةُ أفادتِ المدح والتَّقريظ، ويُؤكِّد ذلك إتيانُ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا قُصِدَ به التَّلبُّسُ والاستصحابُ[1]، إضافةً إلى ذلك أنَّ الاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمنٍ ماضٍ مُحدَّد، عكس اسم الفاعل الذي لا يدلُّ على زمان مُحدَّد، كما أنَّ الضَّمير (واو الجماعة) في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيه قصديَّةُ الإيمان والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم، فكان الأولى التَّعبير بالاسم الموصول، إضافةً لذلك فهو تمهيدٌ يصلحُ للآية التي تليه، والتي تبدأ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾، فثَمَّ تناسبٌ بين الآيتَين.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون المُضارع:

ثباتُ الإيمان في نفوس المؤمنين حتَّى صار الإيمان علامةً لهم

جاء التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له[2]، فالإيمان ثابتٌ كالجبال الرَّواسي لا يتزحزحُ؛ لأنَّه ملَكَ عليهم نفوسَهم، فصاروا معروفين به، وللإشارة إلى أنَّ الكريم المُطلقَ شأنُه ألّا يستردَّ ما يُعطي[3]، وعطيَّةُ الإيمان أعظمُ عطيَّةٍ، وأفخَمُ هديَّةٍ.

دلالةُ اختيارِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دونَ (أسلَمُوا):

الإيمانُ تنزيهٌ وتوحيدٌ وتوصيفٌ للقوم المؤمنين

في هذا الاختيار فائدتان: الأولى: مُناسبة ما قبلَها في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾، ولو جاء التَّعبير بـ(أسلموا) لربَّما ظنَّ ظانٌّ أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات قومٌ غير الذين وُصفوا بالإيمان، الثّانية: الإيمانُ تنزيهُ الله عن الشِّرك وتوحيدُه في العظمة[4]، كما أنَّ الإيمان صفةُ القلب؛ أي: آمنوا بقلوبهم[5]، وهذا مُناسبٌ لأعمال

(1) محمد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الأول، ص: 187.
(2) ابن جني، الخصائص: 3/ 334.
(3) النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: 36.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 118.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/ 461.

قلوبهم وخفائها فكان ﴿ءَامَنُواْ﴾ هو الأنسبَ، ولأنَّ الإيمان يشملُ الإسلام؛ فكلُّ مُؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مُؤمنًا في الغالب.

سرُّ اختيار وصف ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ (الخيراتِ):

الصّالحات خيرٌ مُطلقٌ أمّا الخيراتُ فهي نسبيَّةٌ

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بوصفِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون (الخيرات)؛ لأنَّ الأعمال الصّالحاتِ تضمُّ في أحشائها الأعمالَ الخيرات، وتختصُّ بالأفعال[1]، أما الخيراتُ فهي مُقيَّدة، وذلك بأنَّ الخير لإنسانٍ يكون شرًّا للآخر، كالمال الذي ربَّما كان خيرًا لزيدٍ وشرًّا لعمرو، ولذلك وصفَه اللّٰه تعالى بالأمرَين[2]، فكانت الصّالحاتُ خيرًا مُطلقًا، أمّا الخيراتُ فصالحاتٌ مُقيَّدةٌ، وممّا يُذكرُ في سرِّ اختيار الصّالحاتِ أنَّها تكونُ وفق شروطِ قَبول الأعمال الصّالحة منَ الإخلاص والاتِّباع للكتاب والسُّنَّة.

دلالةُ حذفِ مُتعلَّق الإيمان:

عُموميَّةُ الإيمان وشُمولُه

حُذِفَ مُتعلَّق الفعل في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لشُموله كلَّ ما أمر اللّٰه بالإيمان به، فهم مُؤمنون باللّٰه وملائكتِه وكتبه ورسله، وقضائه وقدَره، خيره وشره، حلوه ومُرِّه، تبعًا لإيمانهم باللّٰه، لا يتزحزَحُون قيدَ أنمُلةٍ؛ فإيمانُهم بكلِّ ما سبق يعني أنَّ الإيمان راسخٌ في نفوسهم.

دلالةُ عطف عملِ الصّالحات على الإيمان:

الإيـمـانُ يدعو للعمل الصّالح

دلَّ عطف (العمل الصّالح) على (الإيمان) في قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على عدَّة فوائدَ: الأولى: الإيمانُ وإن كان يدخلُ فيه جميع الأعمال الصّالحة، إلا أنَّ قوله: (آمَنَ) لا يُفيد إلا أنَّه فعلَ فعلًا واحدًا من أفعال الإيمان، فلذا حسُنَ أن يقولَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[3]، كي تتعدَّد الأعمالُ، والثّانية:

---

(1) الراغب، المفردات: (صلح).

(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 572.

(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 1/ 57.

قولُه ﴿ءَامَنُواْ﴾ يُفيد الماضي، و﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيد المستقبل، فكأنَّه تعالى قال: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أوَّلًا ثمَّ داوَمُوا عليه آخرًا، ويدخلُ فيه جميعُ الأعمال الصّالحات[1]، والثّالثة: العطف هنا فيه ترتيبٌ بين الإيمان والعمل الصّالح، فالإيمانُ هو الدّاعي الرَّئيس للعمل الصّالح؛ فالعمل الصّالح هو التَّصديق الحقُّ للإيمان وبرهانٌ عليه، وفي هذا دليلٌ على شدَّة الارتباط بين الإيمان والعمل الصّالح.

سرُّ حذف الموصوف وإبقاءِ الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

اتِّصافُ المؤمن بعمل الصّالحات وحدَها دون غيرها

ذكر النَّظم الكريم الصِّفة وحذفَ الموصوفَ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الفعل دالٌّ على تقدير مصدره؛ كأن تقولَ في (قمتُ طويلًا حسنًا)؛ أي: قيامًا طويلًا حسنًا[2]، فالتَّعبيرُ المُقدَّرُ (الأعمال)؛ أي: الأعمالُ الصّالحاتُ، ثمَّ إنَّ إقامة الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مقامَ الموصوف تُشعِرُ بأنَّ الموصوف (الأعمال) حاضرٌ لا غائبٌ[3]، فكأنَّ عملَ الصّالحات همُّهم الآكدُ الذي لا يتحوَّلُ ولا يتغيَّر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصل ألّا يصدرَ من أهل الإيمان إلّا الأعمالُ الصّالحةُ.

سرُّ التَّعبير بالجمع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ المُفرد:

كثرةُ الأعمال الصّالحة مع تنوُّعها وتعدُّدِها

التَّعبير بالجمع فيه فائدتان: الأولى: الإشارةُ إلى كثرة المجموع تفخيمًا في مقام الثَّناء والمدح؛ لذا درجَ القرآن على استخدام الجمع في الثَّناء على المؤمنين بعملهم الصّالح، فلم ترد الصّالحاتُ مُفردةً ألبتَّةَ مع تكرُّر وُرودِها جمعًا اثنتَين وستّين مرَّةً في الذِّكر الحكيم، وفي ذلك تكثيرٌ للأعمال الصّالحات تمهيدًا لمُقابلتها بواسع مغفرته ورضوانِه[4]، الثّانية: الجمعُ دالٌّ على التَّعدُّد والتَّنوُّع وشُمولِ كلِّ ما

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 1/ 57.
(2) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 202.
(3) البغدادي، خزانة الأدب: 8/ 377.
(4) الأمين الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 130/ 131.

تستطيعُه النَّفسُ من خير، فهم لا يُصرُّون على عملٍ واحدٍ فقط، وإنَّما يُحيطون أنفسهم بكلِّ ما يُقرِّبهم من ربِّهم، ينشغلون به، ولا يتركون فرصةً منَ الدَّهر إلّا وكانوا في مُقدِّمة مَن يفعلون الصّالحات حتَّى صار ذلك طبيعةً وسجيَّةً، وكأنَّ الإيمان حتى يثبُتَ ويقوَى يلزمُه كثرةُ الأعمالِ الصّالحة وتعدُّدُها وتنوُّعُها[1].

سرُّ ذكر العمل الصّالح في التَّفصيل دون الإجمال:

دخـولُ الجنَّةِ يتطلَّبُ الإيمانَ والعمل

ذكر القرآن الكريم العمل الصّالح في تفسير حديثه عن الفريقَين في قوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون أن يذكره مع الآية السّابقة في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾، وذلك للتَّنبيه على أنَّ الإيمان وحدَه كافٍ في دخول الجنَّة؛ لكنَّ الفلاح الكامل يكون لَمن جمع بين الإيمان والعمل الصّالح؛ لذلك اكتَفَى التَّعبير القرآنيُّ بذكر الإيمان في الإجمال في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا﴾، وضمَّ العمل الصّالح إليه في التَّفصيل[2].

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَلَهُمۡ﴾:

ربـطُ الكـلام مـع السُّـرعـة والتَّشويقِ

الفاء هي الرّابطة لدلالةِ الشَّرط؛ فهي التي تُقوّي العلاقة بين الشَّرط والجواب، وتُفيد مع ربط الكلام دلالة سرعة الجزاء المُترتِّب على العمل، مع بيان التَّشويق لمعرفة الجواب، ودلالة اللّام على تخصيص حُسن الجزاء للمؤمنين، فهم مُستحقُّون لذلك نتيجة طاعتِهم وعبادتِهم.

دلالةُ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿فَلَهُمۡ﴾:

زيـادةُ الإكـرام للمُؤمنين

آثر القرآن التَّعبير باللّام في قوله: ﴿فَلَهُمۡ﴾ لدلالتها على معنى التَّمليك، وفى هذا زيادةُ إكرام؛ لأنَّه لمّا لم يكُن للمؤمنين خروجٌ عنها قال: لهم الجنَّة[3]، مع ملاحظةً أنَّه أكَّد كلا الجزاءَين بذكر مُرادفٍ

---

(1) الأمين الخضري، الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، ص: 131.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 273.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 147.

لمدلوله مع زيادة فائدةٍ، فجملةُ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ إلى آخرها مُؤكِّدةٌ لمضمون جملةِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ إلى آخرها[1].

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فَلَهُمْ﴾:

التَّخصيص وتعجيلُ المسرَّة

أفاد تقديمُ شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ التَّخصيصَ والقصرَ على هؤلاء المُؤمنين، وفيه الاعتناء بهم، والتَّعجيلُ بالمسرَّة والفرحةِ، وفيه تقويةٌ وتوكيدٌ لما ينتظرُهم من حسن الجزاء.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿جَنَّٰتُ﴾ جمعًا:

التَّناسبُ مع كثرة العمل وتغايُرِه

تظهرُ بلاغة التَّعبير في ذكر الجنّات جمعًا في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ في عدَّةِ أمورٍ: **الأوَّل:** التَّناسبُ بين الصّالحات والجنّات في الجمع، فكثرة الصّالحات يُناسبه كثرةُ الجنّات، **والثّاني**: دلالةٌ على شدَّة التَّكريم، والتَّماهي فيه، فليس لهم جنَّةٌ واحدةٌ، إنَّما جنّاتٌ، **والثّالث**: بيانُ الاتِّساع والتَّمدُّد في الجنّات بحيث لا تشتاق أنفسهم لشيء إلا وجَدوه، فالجنّاتُ لهم وحدَهم، **والرّابع**: تعدُّدُ أصناف المؤمنين وتغايرُ أعمالهم قلَّةً وكثرةً، فلكلِّ فريق جنَّةٌ تختصُّ به، أو أنَّ الجنّات كلَّها مُخصَّصةٌ للجميع.

نكتةُ إضافة ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾:

ثباتُ النَّعيم في الجنّات

في الإضافة هنا مدحٌ للجنّات؛ حيث أُضيفت الجنَّةُ إلى ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ لأنَّها المأوى الحقيقيُّ للبشر، وإنَّما الدُّنيا منزلٌ مُرتَحلٌ عنه لا محالةَ[2]، فكانت هي المستقرَّ والملجَأ.

دلالةُ التَّعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾:

دلالةُ العهديَّة في الألف واللّام

الألف واللّام في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يُفيدُ العهد؛ أي: مأوى المُؤمنين، قال تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾ [النجم: 15]، ويجوزُ أن تكون اللّام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 85.

عِوَضًا عن المُضاف إليه؛ أي: مأواهم، بقرينة قوله في مُقابلِه: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ويجوز أن تكون (أل) لإفادة العموم؛ لأنَّ الجِنان كلَّها مأوى ومسكنٌ حقيقيٌّ بالمعنى اللُّغويِّ؛ فلا يُرادُ هنا ما هو اسمٌ خاصٌّ بالدَّرجة المخصوصة[1].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾:

التَّكريمُ والأمنُ

التَّعبير بلفظةِ ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فيه منَ التَّكريم ما فيه؛ لأنَّ ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هو المكان الذي يأوي إليه الإنسانُ، ويلجَأُ إليه؛ ليحفظَه من كلِّ مكروهٍ؛ فالجنَّةُ مأوى المُؤمن، تحفظُه منَ النّار وأهوالِها[2].

سرُّ التَّعبير بـ﴿نُزُلًا﴾ دونَ (ثوابًا):

التَّكريمُ وانتظارُ المزيد

آثر القرآن الكريم التَّعبير بلفظ ﴿نُزُلًا﴾ دونَ (ثوابًا)؛ لأنَّ النُّزل في الأصل ما يُعَدُّ للنّازل من الطَّعام والشَّراب والصِّلة؛ ثمَّ عمَّ كلَّ عطاء؛ لذلك كان التَّعبير بلفظة: ﴿نُزُلًا﴾ لما فيها منَ التَّكريم، ولأنَّها دالَّةٌ على ما بعدها، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ بعدها أشياءَ؛ لأنَّ النُّزل ما يُقدَّم للضَّيف وقتَ نُزوله، وهو شيءٌ قليلٌ تمهيدًا لِما أُعِدَّ له منَ الإكرام والإنعام[3].

دلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِمَا﴾:

سببيَّةُ العمل في نيلِ درجاتِ الجنَّة

الباءُ في قوله تعالى: ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّة؛ فكان المعنى أنَّ العمل مُؤثِّر تأثيرًا كبيرًا في مقامِهم العظيم منَ الجنّات؛ أي: بسبب الذي كانوا يعملونه في الدُّنيا منَ الأعمال الصّالحة، وكونُ ذلك سببًا بمُقتَضى فضله تعالى ووعدِه، وهذا لا يُنافي حديثَ: «لا يدخلُ أحدُكم الجنَّة بعملِه».

ويجوز أن تكون الباء للمُقابلة والمُعاوضة؛ أي: فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونَه[4].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 273.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11843.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 133.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 133.

دلالةُ التَّعبير بـ(ما):

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ لدلالتها على العموم المُناسب لكثرة تلك الأعمالِ؛ لأنَّ (ما) تُطلق على كلِّ شيءٍ وما ليس بشيءٍ، فكان العمل وكثرتُه سببَين في نيلِهم الثَّوابَ الأعظَمَ.

تنوُّعُ أعمالِهم الصَّالحةِ وكثرتُها

فائدةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

الفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ دالٌّ على الحال والاستمرارِ، واستحضار الصُّورة، فحياتُهم عملٌ في عملٍ، لا ملَلٌ ولا سأمٌ؛ فكأنَّ نفوسَهم وُطِّنت على العمل؛ لا تتركُه ألبتَّةَ، مع مُلاحظة اقترانِ الفعل: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالفعل ﴿كَانُوا﴾ الدّالَّة على توكيد عملِهم واستمرارِه.

حياتُهم عملٌ في عملٍ لا ملَلٌ ولا سأمٌ

نكتةُ حذف مفعولِ العملِ:

حُذِف المفعولُ به هنا لمُناسبةِ رؤوس الآيِ الكريمة؛ فالآياتُ تنتهي بالنُّون: ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾، ومع إقامة رؤوس الآي تتأتَّى العموميَّةُ والشُّموليَّةُ في الحذفِ؛ فهم يعملون كلَّ ما يُرضي اللّه من خيرٍ وبرٍّ وعبادةٍ وصلاةٍ وإنفاقٍ، لا يتوقَّفون عن ذلك؛ لذلك كان جزاؤُهم عظيمًا؛ مُناسبةً لكثرة أعمالِهم الصّالحةِ.

اتِّساعُ العمل وشُمولُه

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يختلف الجزاء يوم القيامة بحسب اختلاف الأعمال في الدنيا

بعد أن ذكر في الآية السّابقة الفريقَ الأوَّل، وهم الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وما أعدَّه اللّه لهم منَ النُّزل الكريم، جاءت هذه الآية بذكر الفريق الثّاني، الذين خرجوا عن الإيمان باللّه وطاعته، وذكرِ الجزاء المُعدَّ لهم بقوله: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ التي يُخلَّدون فيها ولا يجدون مهربًا من الخروج منها كلَّما أرادوا الخروج.

المَعنى الإجْماليُّ:

العذاب يوم القيامة أنواع

وأمّا الذين كفروا باللّه وخرجوا عن الطّاعة فمأواهم النّار التي يأوون إليها ويستقرُّون فيها، ثمَّ ذكر تعالى سوء حالهم فيها، فقال: كلَّما عزموا على الخروج منها من شدَّة العذاب والأهوال، أُعيدوا فيها، بسبب تكذيبهم، وقيلَ لهم تأنيبًا وتقريعًا: ذوقوا عذاب النّار الذي كنتم به تُكذِّبون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَأَمَّا﴾:

ربطُ جزاء الفريقَين إتمامًا للحكم

(أمّا) في اللُّغة دالَّة على التَّفصيل، غير أنَّ دلالتَها على التَّفصيل تتعلَّق بتكرارها، وقد جاءت ﴿وَأَمَّا﴾ مُكرَّرةً بعد العطف بالواو، فالواوُ هنا هي التي ربطت الفريقَين فكان الحكم تامًّا بيِّنًا.

دلالةُ التَّعبير بـ(أمّا) في النَّظم الكريم:

جاءت الآيةُ الكريمة مسبوقةً بـ(أما) لتُؤكِّد دلالة التَّفصيل في الآية السّابقة عليها: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مع الدَّلالة على التَّوكيد

الذي يُزيلُ الشَّكَّ من نفس المُخاطب، وتُمَكِّنُ الحقيقةَ من نفسه بحيثُ يرسخ في الذِّهن مصيرُ الكفّار، وتُفيدُ الشَّرط بدليل وجود الفاء في الجواب ﴿فَلَهُمْ﴾، وهذا يدلُّ على قُبحِ عاقبة الفاسق، وفي هذا بيانٌ للعدل المُطلق للّه ﷻ، وبيانُ قوَّة الارتباط بين الشَّرط والجواب؛ تحذيرًا للفاسق.

تفصيلُ حال الكافر ورفعُ الشَّكِّ وربطُ الجزاء بالعمل

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾:

في إيثار القرآن للاسم الموصول مع صلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ إيماءٌ إلى ثبات ذلك الفسق في نفوسهم، وظهورِه في سلوكهم وطبائعهم، فالجملة الموصولةُ أفادت الذَّمَّ والتَّقريع، "فإتيانُ الموصول الماضي قُصِد به التَّلبُّسُ والاستصحاب"(1)، كما أنَّ الاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمانٍ ماضٍ مُحدَّد،، والضَّمير (واو الجماعة) في ﴿فَسَقُواْ﴾ فيه قصديَّةُ الفسق والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم، فكان الأولى التَّعبير بالاسم الموصول، إضافةً لذلك فيه مُشاكلة؛ فهو مُناسبٌ للآية التي قبلَها التي وصفَت المُؤمنين بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فثمَّ تناسبٌ بين الآيتَين في التَّعبير بالموصول وصلتِه، ويُمكن أن يُقال: إنَّ التَّعبير بالموصول فيه تشويقٌ إلى ذكر الصِّلة، وفيه بيانٌ لمأواهم القبيح.

ثباتُ الفسق في نفوسهم وظهورُه في سلوكهم

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ﴾:

الفاء رابطةٌ للنَّظم هنا، وتدُلُّ على أنَّ التَّركيب تركيبُ شرط، فهي واجبةٌ بعد (أمّا) الشَّرطيَّة، وتدلُّ في أحشائها على شدَّة ترابطِ الشَّرط بالجواب فكأنَّه قال: (هؤلاء الفاسقون لن يُؤَخَّرُ عذابهم)، فثمَّ اتِّصالٌ وثيقٌ بين الشَّرط والجواب بوجود الفاء.

ارتباطُ الجواب بالشَّرط وسرعةُ العذاب

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ للفاسقين:

المأوى هو المكان الذي ينزلُ فيه الإنسان على هواه، أمّا هؤلاء

التَّهكُّم والسُّخرية بالفاسقين

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم القسم الثالث الجزء الأول، ص: 187.

فينزلون هنا رُغمًا عنهم، فهو لا يحمي وإنَّما يُخيف ويُرهِبُ، ويحتمل في الكلام وجهًا آخرَ، وهو أنَّ الكلام هنا على سَبَق التَّهكُّم والسُّخرية، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][1]، ففي الوقت الذي يتوقَّعون فيه الحماية والكلاءة تفجَؤُهم النّارُ بعذابها ولهيبها، ويجوز أن يكون من باب المُشاكلةِ؛ لأنَّه لمّا ذكر أحد الفريقَين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأنَّ لهم جناتِ المأوى، ذكر في الصِّنفِ الآخرِ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ فمأواهُم النّار[2].

بلاغةُ المُقابلة بين جزاء الفريقَين:

بُعد المنزلتَين تكريمًا وإهانةً مع العدالة المُطلقة

المُقابلة تُحدِثُ في النَّفس تفكيرًا تلوَ تفكير ببيان الحُسنِ والقُبحِ في آنٍ واحد، فبضدِّها تتميَّز الأشياء، ففي ذكر الجنّات في جَناب المؤمنين تنشيطٌ للذِّهن وتعزيزٌ له بضرورة التَّمسُّك بالعمل الصّالح نيلًا لجزائِه، في مُقابل القُبح في سوء عاقبة الفاسقين بالنّار، وفيه أيضًا إعمالٌ للعقل وتنبيهٌ للفكر بضرورة ترك كلِّ ما يُقرِّب منها وتُجنِّبه، فكانت المُقابلة دليلًا على بُعد ما بين الجزاءَين رفعةً وسُفولًا، وإشارةً إلى تكريم فريقٍ وتحقيرِ فريقٍ، وبيانًا للعدالة الإلهيَّة التي تجزي كلًّا بما عمل، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

نكتةُ ذكر العمل مع المؤمن وعدمِ ذكرِه مع الفاسق:

العملُ المُعتَبر يوم القيامة هو العمل المحمودُ

ذكرُ العمل الصّالح مع الإيمان في قوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليلٌ على أنَّ العمل الصّالح له مع الإيمان أثرٌ، أمّا الكفر إذا جاء فلا التفاتَ إلى الأعمال، فلم يقل: (وأمّا الذين فسقوا وعملوا السَّيِّئات)؛ لأنَّ المرادَ من ﴿فَسَقُواْ﴾: كفروا، ولو جُعِل العقاب في مُقابلة الكفر والعمل، لظنَّ ظانٌّ أنَّ مُجرَّد الكفر لا عقابَ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11843.
(2) ابن تمجيد، حاشية ابن التمجيد على القونوي: 15/ 274.

عليه، وإنَّما العقابُ على العمل[1]، وهذا يدلُّ على أنَّه لا قيمةَ لعملٍ مع كُفرٍ؛ لذا لم يذكر العمل مع الفَسَقة.

نكتةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ عن سابقتِها:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ عمّا قبله لأنَّه استئنافٌ لبيانِ كيفيَّةِ كونِ النّارِ مأواهم؛ يُروَى أنَّه يضربُهم لهَبُ النّار فيرتفعون إلى طبقاتِها حتَّى إذا قربُوا من بابِها وأرادُوا أن يخرُجوا منها يضربُهم اللَّهبُ فيهوُون إلى قعرِها، وهكذا يُفعَلُ بهم أبدًا[2].

بيانُ كونِ العذاب جسديًّا ونفسيًّا

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿كُلَّمَآ﴾ في الآية:

تتمثَّلُ أبلغيَّةُ ﴿كُلَّمَآ﴾ في أنَّها دالَّةٌ على التَّكرار، والتَّكرارُ إعادةُ محاولةٍ مرَّةً تلوَ مرَّةٍ، فهم مُجتهدون اجتهادًا عظيمًا في النَّأي بأنفُسِهم عن العذاب، وفي مُحاولتهم تكرارَ الهروب إشارةٌ إلى شدَّة العذاب الذي يتلقَّونه مع غِلَظِه وقسوتِه.

تكرارُ العمل مرَّةً تلوَ مرَّةٍ

دلالةُ الفعل: ﴿أَرَادُوٓاْ﴾ في السّياق:

دلَّ الفعل ﴿أَرَادُوٓاْ﴾ على أنَّ هناك محذوفًا في السّياق، وتقديرُ الكلام: (كلَّما أرادوا أنْ يخرُجوا منها فخرجوا أُعيدُوا فيها)، وقد يكون الفعل هنا دالًّا على المُداناة والمُشارفة؛ كقولِه: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][3]؛ أي: شارَفَ على أن ينقَضَّ.

الحذفُ مع دلالة المُشارفةِ

فائدةُ التَّعبير بالمصدر المُؤوَّل: ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمصدر المُؤَوَّل: ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾ دونَ المصدر الصَّريح (الخروج)؛ لأنَّ المصدر المُؤوَّل لا يُوصَفُ، فكأنَّهم حاولوا الخروج الذي لا وصفَ له تأكيدًا على مُحاولتهم المُستميتة في الخروج، ثمَّ إنَّ المصدر المُؤوَّل دالٌّ على الزَّمن والحدَث، فالحدثُ مُحاولةُ الخروج، والزَّمن هو الحالُ والاستقبال بدلالة الفعل

المُحاولةُ المُستميتةُ للخروج في كلِّ وقتٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 147.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 86.

(3) النيسابوري، تفسير النيسابوري: 5/ 71.

المضارع، أمّا المصدرُ الصَّريحُ فهو حدَثٌ غيرُ مُقترنٍ بزمنٍ، ففي المصدر المُؤوَّل دلالتان، أمّا الصَّريحُ ففيه دلالةٌ واحدة.

دلالةُ التَّعبير بـ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهَآ﴾:

عدمُ احتمالِهم شدَّةَ العذاب بمجرَّدِ دخولهم النّار

دلَّت (مِنْ) هنا على ابتداء الغاية؛ فهم لم يُطيقُوا ما هم فيه، فبمُجرَّد تعذيبهم أرادوا الفرارَ هارِبين منَ العذاب البئيسِ.

دلالةُ بناء ﴿أُعِيدُواْ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

التَّركيز على عمليَّة الإعادة مع كثرة المُتابعين لهم

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿أُعِيدُواْ﴾ مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ تركيزًا على حالةِ الإعادة، فكأنَّ الإعادة تتمُّ بلا مُهلةٍ أو توانٍ؛ نظرًا لارتباط الجوابِ: ﴿أُعِيدُواْ﴾ بفعل الشَّرط ﴿أَرَادُوٓاْ﴾، وقد يُقالُ: إنَّ البناء هنا يدُلُّ على كثرة المُتابعين لحركاتِ وسكناتِ الفَسَقة، فليس المُعيدُ واحدًا، وإنَّما قد يتعدَّدُ ويتمدَّدُ، وفي البناء لما لم يُسمَّ فاعلُه تمهيدٌ للفعل الذي يليه: ﴿وَقِيلَ﴾ كي يكون بين الفعلَين تناسبٌ وتناسقٌ.

نكتةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِيهَا﴾ دونَ (إليها):

شدَّةُ عذاب الفَسَقة تنكيلًا واستهزاءً

المعنى الأصيلُ للحرف (في) هو الظَّرفيَّةُ، والظَّرفيَّةُ احتواءٌ وضمٌّ، فكأنَّهم أُعيدوا إلى وسطها؛ إمعانًا في العذاب والتَّنكيل بهم، فكما كنتم رؤوسًا في التَّكذيب ستكونون رؤوسًا في الإهانةِ والتَّهكُّم والتَّحقيرِ، فدلالةُ (في) تعني الاستقرارَ والثَّبات، ويكون المعنى: كلَّما أرادوا أن يخرُجوا منها فخرجُوا من مُعظمِها أُعيدوا فيها، وهذا المعنى يُشير إليه التَّعبير بقوله: ﴿فِيهَا﴾ دونَ إليها[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ﴾:

الجمعُ بين العذابين

دلَّت الواو هنا على اجتماع عذابَين: عذابِ الإعادة، وعذابِ المُراقبة والقول بالرُّجوع، فكان فيها شدَّةُ الزَّجر والتَّخويف مع الإغاظةِ والشَّماتة بهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 134.

نكتةُ بناء الفعلِ: ﴿وَقِيلَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

التَّركيز على القول مع تعدُّدِ القائلين

بناء الفعل: (قيلَ) لما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ دالٌّ على التَّركيز على القول لا القائل؛ لأنَّ في القول إغاظةً لهم، فإنَّ في القول تشديدًا عليهم وزيادةً في غيظِهم[1]، فقرعُ أسماعِهم بهذا المكروه هو مُضاعفةٌ للبلاء، ومُزاوجةٌ بين المكروه والمكروه، فهو الزَّجر والتَّأنيبُ وزيادةُ الحسرة في قلوبهم، كما أنَّ للحديث عن المحبوب لذَّةً في السَّمع، ووقعًا في القلب، إلى ما له من لذَّةٍ في مرأى العين، ومذاقِ اللِّسانِ[2].

ويُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ السَّبب في البناء لما لم يُسمَّ فاعلُه تعدُّدُ القائل، فقد يكون القائلُ لهم هذه المقالة خزنةَ جهنَّم منَ الملائكة، أو القائلُ لهم اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ[3].

دلالةُ اللّام في قولِه: ﴿لَهُمۡ﴾:

تخصيص العذاب ترصُّدٌ ومُراقبةٌ

دلَّت اللّام هنا على تخصيصِهم بالقول، فالعذابُ سيفٌ مُصْلَتٌ على رقابِهم، لا يستطيعون فكاكًا، والتَّخصيصُ ترصُّدٌ ومُتابعةٌ إضافةً إلى ما فيه من قصديَّةٍ، فكما قصدوا التَّكذيب، فالعذابُ قاصدُهم مُتربِّصٌ بهم.

دلالةُ التَّعبير بالأمر في قولِه: ﴿ذُوقُواْ﴾:

الجزاءُ مِن جنس العمل

عبَّر النَّظم الكريم بالأمر في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ تهكُّمًا وسخريةً، فإذا كنتم تسخرون منَ العذاب ولا تعترفون به فإنّا نسخرُ منكم كما كنتم تسخرون.

بلاغةُ الاستعارة في قولِه: ﴿ذُوقُواْ﴾:

قوَّةُ العذاب وتجدُّدُه

عبَّر النَّظم الحكيم بالفعل: ﴿ذُوقُواْ﴾، لما فيه منَ الإشارة إلى معنًى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 86.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 623.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 293.

حكميٍّ، وهو أنَّ المُؤلم إذا تمكَّن، والألمَ إذا امتدَّ؛ لم يبقَ به شعورٌ تامٌّ، وهنا إشارةٌ إلى أنَّ الألمَ لا يسكنُ عنهم، بل يردُ عليهم في كلِّ حالٍ أمرٌ مُؤلمٌ يُجَدَّدُ[1]، فكانت الاستعارةُ هنا دالَّةً على ألمٍ مُتجدِّدٍ لا يسكنُ ولا يهدأُ، فاستعارَ الفعلَ ﴿ذُوقُواْ﴾ ليُمثِّل تجربةَ المُعاناةِ أو الألمِ النّاتجِ عن العذاب، ممّا يُعطي انطباعًا حسّيًّا للمُستمع حولَ شدَّة هذا العذاب، على الرُّغم من أنَّه لا يُمكنُ تذوُّقُ العذاب كما يُذوقُ الطَّعامَ.

نكتةُ إظهارِ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ في موضع الإضمار:

التَّهديدُ وحكايةُ القول

الإظهار في موضع الإضمار فيه نُكتتان، الأولى: أنَّ سياق الآية التَّهديدُ، وفي إظهار لفظ النّار منَ التَّخويف ما ليس في الإضمار[2]، الثّانية: أنَّ الجملة الواقعةَ بعد القول حكايةٌ لما يُقالُ لهم يوم القيامة عند إرادتهم الخروجَ منَ النّار، فلا يُناسب ذلك وضع الضَّمير؛ إذ ليس القولُ حينئذ مُقدَّمًا عليه ذكرُ النّار، وإنَّما ذكرَها سُبحانه قبلُ إخبارًا عن أحوالهم[3].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه في: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾:

ثباتُ التَّكذيب في نفوسِهم وظهورُه في سُلوكِهم

في إيثار النَّظم التَّعبير بالموصول مع صلته: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إيماءٌ إلى ثبات ذلك التَّكذيب في نفوسِهم، وظُهوره في سلوكِهم وطبائعِهم، فالجملةُ الموصولة أفادَت الذَّمَّ والتَّقريع، "فإتيانُ الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاستِصحابُ"، إضافةً إلى ذلك أنَّ الاسم الموصولَ مع الفعل الماضي دلَّ على زمانٍ ماضٍ مُحدَّدٍ،، كما أنَّ الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فيه قصديَّةُ الكذب والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم، فكان الأولى التَّعبيرَ بالاسم الموصول، ويُمكن أن يُقالَ: إنَّ التَّعبير بالموصول فيه تشويقٌ إلى ذكرِ الصِّلة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 231.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 134.

دلالةُ الباء في قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾ سببيَّةٌ، فكأنَّهم اتَّخذوا العذاب ونارَه سببًا للتَّكذيب ومُحاولةِ التَّنفير من ذلك العذاب.

نكتةُ تقديم شبه الجملةِ: ﴿بِهِۦ﴾:

الاهتمامُ بالمُتقدِّم ومُراعاةُ رُؤوس الآيِ

التَّقديم هنا غرضُه الاهتمام بالمُتقدِّم وهو العذابُ، فالتَّركيز عليه لِعظَمِه وشدَّته، ثمَّ في التَّقديم مُراعاةٌ لجانبٍ صوتيٍّ هو رؤوسُ الآيِ، فلو جاء التَّركيبُ على أصلِه بأنْ قيلَ: (كنتم تُكذِّبون به) لَمَا رُوعي رُؤوسُ الآيِ الذي بُنيت عليه السُّورةُ من مثلِ: ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾، ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ﴿تُكَذِّبُونَ﴾.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استمراريَّةُ الكذب وعدَمُ انفِكاكِهم عنه

توظيفُ الفعل المضارع دالٌّ على طبيعةٍ واستمراريَّةٍ في التَّكذيب، فكأنَّهم جعلوا الكذبَ مركبًا يسيرون به ولا يتركونه قيدَ أنملةٍ، فصار علامةً على سُلوكِهم، وصاروا مُستحقّين شدَّةَ العذابِ لشدَّةِ التَّكذيب، ولعلَّ الصّيغةَ الصَّرفيَّةَ للفعل (كذَّبَ) دالَّةٌ على شدَّةِ التِصاقِهم بالكذبِ، فـ(كذَّبَ) بوزن (فعَّلَ)، والمعنى الصَّرفيُّ: النَّسبُ إلى الكذبِ[1]، فـ(كذَّبَ)؛ أي، نُسِبَ للكذبِ، والمنسوب لشيءٍ لا ينفكُّ عنه، ففي المضارع والصّيغة الصَّرفية قدحٌ وذمٌّ لطريقتِهم في الحياة.

دلالةُ حذف مُتعلَّق: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

التَّشنيعُ عليهم لعموم تكذيبهم

حُذِفَ مُتعلَّق ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ لإفادة العموم، حيث كذَّبوا بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به عقيدةً وشريعةً؛ فكذَّبوا اللّه ورسولَه، وكذَّبوا آياتِ القرآن وما فيه من أحكامٍ.

رابعًا: المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

تشابهَتْ هذه الآيةُ مع الآية في سورة الحجِّ في قولِه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ

(1) الشيخ الحملاوي، شذا العرف، ص: 31.

تـعـدُّدُ أنـمـاطِ الــعـــذاب في سورةِ الحجِّ دونَ الـسَّـجدةِ داعٍ لذكرِ (من غَمٍّ)

﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: 22]، والنّاظرُ في الآيتَين يجدُ أنَّ قوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ [الحج: 22] ذُكر في سورة الحجِّ دونَ سورة السَّجدة، وسرُّ ذلك أنَّ المُراد بالغمِّ الكربُ والأخذُ بالنَّفسِ حتَّى لا يجدَ صاحبُه مُتنفَّسًا، وما قبلَه منَ الآيات يقتضي ذلك، وهو: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: 19] إلى قولِه ﴿مِنْ حَدِيدٍ ٢١﴾ [الحج: 21]، فمَن كان في ثيابٍ من نارٍ، وفوقَ رأسِه حميمٌ يذوبُ من حرِّه أحشاءُ بطنِه، حتَّى يذوبَ ظاهرُ جلدِه، وعليه مُوكَّلون يضربونه بمقامعَ من حديدٍ، كيف يجدُ سرورًا، أو يجدُ مُتنفَّسًا من تلك الكُرَب التي عليه؟.

وليس في السَّجدة من هذا ذكرٌ، وإنَّما قبلَها: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾(1)، فكان تعدُّدُ أنماطِ العذاب في سورة الحجِّ داعيًا إلى ذكرِ ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ [الحج: 22]، وهذا ما خلَتْ منه سورة السَّجدةِ.

تكرارُ مادَّة القول في السَّجدة دونَ الحجِّ

ومنَ المُتشابه أيضًا نكتةُ ذكرِ القولِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ﴾ في السَّجدةِ، وعدمِ ذكرِه في الحجِّ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 22].

القولُ في سورة الحجِّ مُضمَرٌ، وخُصَّ بالإضمار؛ لطولِ الكلام بوصفِ العذاب، وما في السَّجدة بالذِّكر لِقصرِه، وخُصَّت السَّجدةُ بالإظهار مُوافقةً للقول قبلَه في مواضعَ، منها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ﴾ [السجدة: 3]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ [السجدة: 10]، ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ [السجدة: 11]، و﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾، وليس في الحجِّ شيءٌ منه، ثمَّ في ذكر القول في السَّجدة إشارةٌ إلى تعدُّدِ القائلين، وفيه إشعارٌ بمُراقبة أعمالهم وتحرُّكاتهم، وفي هذا تخويفٌ وترهيبٌ لهم، أمّا آيةُ الحجِّ فيكفي ما فيها من ترهيبٍ بذكر تقطيع الثّياب

(1) الكرماني، أسرار التكرار: 1/ 181.

وصبِّ الحميمِ فوق الرَّأس، ووُجودِ مقامعِ الحديد، فهذا كافٍ شافٍ في التَّخويف والزَّجر، فلم تكن المسألةُ مُحتاجةً إلى القول؛ لأنَّ ما هم فيه لا يحتاجُ قولًا؛ فالفعلُ هنا أبلَغُ منَ القول.

وقد يُقالُ: إنَّ ذكر القول في السَّجدة هنا في الآية العشرين: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ هناك قولًا محذوفًا في الآية الرابعةَ عشرةَ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ ... ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ فكان التَّناسبُ حاصلًا بين أجزاء السُّورة.

ومنَ المتُشابه اللَّفظيّ أيضًا:

قولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تشابهَ مع قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: 42]، والنّاظرُ في الآيتَين يجدُ اختلافًا في التَّعبير بالاسم الموصول، والضَّميرُ في سورة السَّجدة جاء بالتَّذكير، أمّا في سورة سبأ فقد جاء بالتَّأنيث.

وذلك لثلاثةِ أوجُهٍ: **الأوَّل**: أنَّه خصَّ العذابَ في السَّجدة بالوصفِ اعتناءً به لمّا تكرَّرَ ذكرُه في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: 21]، فكان المُناسبُ أن يُوصفَ العذابُ في سورة السَّجدةِ فيُقالَ: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

الثّاني: أنَّه تقدَّمَ في السَّجدة ذكرُ النّار: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، فكان الأصلُ أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المُضمر، فيُقال: (ذوقوا عذابها)، لكنَّه جعلَ الظّاهر مكان المُضمر، فكما لا يُوصَفُ المُضمر لم يُوصَفْ ما قام مقامَه، وهو النّارُ، فوصفَ العذابَ في سورة السَّجدة بالأدنى والأكبر، ولم يصفِ النّارَ.

الثّالث: أنَّه امتنعَ في السَّجدة وصفُ النّار، فوُصِفَ العذابُ، وإنَّما امتنع وصفُها لتقدُّم ذكرِها، فإنَّك إذا ذكرت شيئًا ثمَّ كرَّرت ذكرَه لم يجُزْ وصفُه، كقولك: (رأيتُ رجلًا فأكرمتُ الرَّجلَ)، فلا يجوزُ وصفُه؛ لما يُوهمُ أنَّه غيرُه[1].

وقد يُضافُ إلى تغايُر الوصف أنَّ الذي في السَّجدةِ: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في حقِّ مَن يُقرُّ بالنّار ويجحَدُ العذابَ، وفي سبأ في حقِّ مَن يجحدُ أصلَ النّار:

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 396.

﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ: 42]، ويحتملُ أنَّ الذي في السَّجدةِ وصفَ النّار أيضًا، وذُكِّرَ حملًا على معنى الحريقِ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَسُّ والذَّوقُ:

المَسُّ يكونُ فيما فيه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ

المَسُّ أوَّلُ مُلاقاةِ الجسمِ للنّار، أمّا الإذاقةُ فهي أوَّلُ مُلاقاةِ الطُّعومِ للِّسانِ[2]، والمَسُّ يكونُ فيما فيه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ، ويكونُ في كلِّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى[3]، وأصلُه فيما يقِلُّ، أمّا ما كثُرَ فيُطلَقُ عليه الأكلُ، وقد كثُرَ استخدامُ الذَّوقِ في العذابِ في لغة القرآن، وإنْ جاء في الرَّحمةِ[4].

(1) الزركشي، البرهان: 2/ 63.
(2) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/ 446.
(3) الراغب، المفردات: (مسس).
(4) الراغب، المفردات: (ذوق).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من عذابِ الآخرة إلى التَّحذير من عذاب الدُّنيا

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة مآلَ الفاسقين في الآخرة، وأنَّهم سينالون جزاءهم العادل على تكذيبهم الجائر في نار جهنَّم؛ ناسب ذِكرُ ما سيكون لهم في الدُّنيا من العذاب الآجل، فذكر سبحانه العذابَ الأدنى، وهو ما كان للمشركين من عذاب الهزيمة والقحط والجوع، لعلَّهم إذ ذاقوا العذاب الأدنى؛ انتبهوا، فعادوا إلى رشدهم، فالآية السابقة تخويفٌ ووعيدٌ من عذاب الآخرة، وهذه الآية تخويفٌ من عذاب الدُّنيا، فهي تنبيهٌ وتحذير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾: (دنو) أصلٌ واحدٌ يُقاسُ بعضُهُ على بعضٍ، وهو المقاربةُ، ومن ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، مِن: دنا يدنو[1]، والدُّنُوُّ: القرب بالذّات، أو بالحكم، ويُستعمل في المكان والزَّمان والمنزلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ [النجم: 8]، ويُعبَّر بالأدنى عن الأقرب، فيُقابل بالأقصى نحو: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][2]، ويدور معنى المفردة حول قرب الوصول إلى المَقَرِّ المرادِ أو المعتاد[3]، والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، أي: العذابُ الأقرب في الدُّنيا، قبل العذاب الأبعد في الآخرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دنى).
(2) الراغب، المفردات: (دنا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دنو).

2) ﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾: (كبر) أصلٌ يدُلُّ على خلافِ الصِّغَرِ[1]، وكَبُرَ بضم الباء يكبُر، أي: عظُم فهو كبير، والكِبَر نقيض الصِّغَرِ[2]، والعذابُ الأكبرُ هنا بمعنى: الأعظم والأشدِّ من العذاب الأقرب، وهو عذاب الدُّنيا، وتدور المفردة حول معنى نموِّ حجم الشَّيء وزيادته بالنِّسبة لحجمه أو حجم غيره[3]، والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾، أي: عذاب الآخرة الذي هو أعظمُ وأكبرُ مِن جميع أنواع عذاب الدُّنيا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عذابُ الدُّنيا أمَلٌ في الرُّجوعِ إلى الإيمان

يُقْسِمُ الحقُّ ﷻ في هذه الآية بإذاقةِ الكافرين بعضَ العذاب لا كلَّه، وهو عذابُ الدُّنيا، مِنَ القتل والأسر والبلاءِ، وما مُحنوا به مِنَ السَّنَةِ سَبْعَ سنين، مع تأخير عذاب الآخرة، وهو الأكبرُ؛ رجاءَ عودتهم ورجوعهم إلى حظيرة الخوف والخشية من اللّه ﷻ، ففي الآية إخبارٌ بأنَّ لهم عذابًا آخرَ لا يبلغُ مبلغَ عذاب النّار الموعودين به في الآخرة[4]، إن لم يرجعوا إلى فطرتهم ودينهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تقديرُ القَسَم المحذوف حاضرٌ في معاني الواو

وجَّهَ المعربون الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾، توجيهين: أحدُهما: أنَّها عاطفةٌ[5]، واللامُ داخلةٌ في جواب القسم المحذوف، والآخرُ: أنَّها حرفُ قسم وجرٍّ، والمقسمُ به محذوفٌ، واللّامُ واقعةٌ في جواب القسم[6]، والتَّقديرُ: واللّه لنذيقنَّهم، وفي إيقاع القسم مِمَّن لا يُخلف الميعاد أعظمُ زاجرٍ وأبلغُ رادعٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) ابن منظور، لسان العرب:: (كبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 232.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 583، وصافي، الجدول: 21/ 117.
(6) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 38.

بلاغةُ التَّوكيد وجزالته:

قــوَّةُ التركيب مــع قـصدية الـتَّـعـذيـب وفخامة التأديب

صُدِّرت الجملة باللام في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ لقصدية التعذيب والإهانة للمجرمين جزاءَ ما اقترفوه من آثام، مع عراقة الإذاقة بالعذاب، وقد أدَّت نون التوكيد الثَّقيلة دورًا وظيفيًّا في بيان ثقل العذاب الذي ينتظرهم وقسوته، فالنّون على قوَّتها هي للاختصار والإيجاز؛ لأنَّها طوت ذِكرَ ثلاثة أفعال في حرف واحد، فلا إثقال في التركيب مع قوَّة التَّشديد، فكان ذِكْرُها دلالةً على فخامة العذاب وتكراره مَرَّةً تِلْوَ الأخرى مع منحهم الوقت للرجوع للإيمان، وإن كان العذاب شديدًا؛ فَشِدَّةُ عذاب الدُّنيا أقلُّ عذابًا مِنَ الآخرة.

نكتةُ إسناد فعل الإذاقة إلى ضمير العظمة:

تعظيمُ العذابِ وإدخالُ البشرى في قلوب المؤمنين

أُسْنِدَ فِعلُ الإذاقةِ إلى ضمير العظمة، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ لتعظيم العذاب، وبيان شدَّته وغلظته مع الاعتناء بشأنه، ولتعجيل البشرى للمؤمنين؛ لأنَّ الضَّمير المتَّصِل المنصوب في الفعل ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ يعود إلى كفّار قريش[1]، فتعجيل البشرى بتعذيبهم يُدخل الطُّمأنينة في قلوب الذين آمنوا، ويزيدُهم ثقةً بنصر الله تعالى.

بلاغةُ استعمال مفردة الذَّوق:

للاستعارةِ شأنٌ بـديـعٌ في بيان المعاني وإيصال المراد

آثرَ النَّظم الكريم استعمال مفردة الذَّوق، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ دون التَّعذيب، فلم يقل: (ولنعذِّبنَّهم)؛ لما في التعبير بالإذاقة من قوَّة البيان، فالمقصود بالإذاقة التَّعذيب، فشبَّه وصول العذاب إلى الأبدان والأنفس بالإذاقة على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، والتَّعبير بالاستعارةِ أبلغ؛ لأنَّ حسَّ الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، وللذَّوق فضلٌ على غيره مِنَ الحواسِّ، ذلك أنَّ الإنسان إذا رأى شيئًا لم يعرفه؛ شمَّه، فإن عرفه؛ ذاقه لما يعلم أنَّ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 363.

للذوق فضلًا في تبيين الأشياء، ويُضاف إلى ذلك أنَّ القرآن لم يذكر الذَّوقَ في بسط جمال الجنَّة، والتَّلذُّذ بمباهجها وشرابها وطعامها، ممّا يدلُّ على أنَّه خُصِّص للكافرين والعاصين والجبابرة، وهو يدلُّ على مرتبة بهيميَّة، هي شأنُ أهلِ النّار الذي يطعمون فيه من العذاب لتُملأ البطون[1].

بلاغةُ حذفِ مُتَعَلِّق الفعل:

طيُّ القبائحِ ترهيبٌ من العذاب وإطماعٌ في الإنابة

حُذِفَ متعلِّق فعلِ الإذاقة، في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، - والتعذيب لا يكون إلّا بسبب أعمال المعذَّبين ومعاصيهم - والتقدير: (ولنذيقنهم جزاء ما كانوا يعملون من العذاب)؛ لدلالة السّياق على الحذف، فلا عذاب إلّا بعملٍ قبيح، ونكتةُ الحَذْفِ الإجمال لما فيه من الإبهام المشبع بالتَّرهيب والتَّخويف، ولفتح باب الهداية وتجنُّب سوء المصير فأيُّ لسانٍ أشرفُ من لسان العرب، وأعلى مرتبةً أن يجوز فيه هذا الاختصار الشَّديد مع الإشارة إلى المعنى[2]؟.

دلالةُ استعمال حرف ﴿مِّنَ﴾:

ابتداءُ العذابِ الدُّنيويِّ ردعٌ من العذابِ الأخرويِّ

حرف الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ لابتداء الغاية، أي: لتكونَنَّ الإذاقة ابتداءً مِنَ العذاب الأدنى، قبل العذاب الأكبر والأشدِّ والأغلظ، ففيه من التَّرهيب والوعيد ما يُدهِشُ المتأمِّل؛ إذ جعل إذاقة العذاب مبتدئةً من عذابِ الدُّنيا، لتكون البداية بيِّنةً في أذهان المُعَذَّبين، ولتكون العبرة حاضرةً في عقول المتفكرين، والموعظة مؤثِّرةً في نفوس المخاطَبين.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

جميعُ أنواعِ العذابِ الدُّنيويِّ بما في ذلك غزوة بدرٍ وما أصابهم فيها

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ للجنس، فيدخل فيه كلُّ ما كان في الدُّنيا من بلاء أصاب المكذِّبين، من مجاعةٍ وقتلٍ ومصائب وبلايا

(1) أحمد ياسوف، جماليات اللفظة القرآنية، ص: 104.

(2) القصاب، النكت الدالة على البيان، ص: 596، وذكر القصاب قيمة الحذف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ [العنكبوت: 55].

وأمراض وجوعٍ، فكُلُّ ذلك مِنَ العذاب الأدنى، وقد عَذَّبهم اللّه تعالى بكلِّ ذلك في الدُّنيا بالقتل والجوع والشَّدائِدِ والمصائب في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم(1)، وتحتمل أن تكون (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ عَهْدِيَّةً؛ لأنَّهم رَأوا العذاب فعلًا بالهزيمة في غزوة بدر، وأصابهم الجدب والقحط نتيجةَ الدُّعاء عليهم بأن تكون سنونُهم كَسِني يوسف.

دلالةُ وصف ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ بـ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ و﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾:

بيانُ القرب للزَّجر والرَّدع والكبر للإحاطة والشِّدَّة

وُصِف لفظُ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ الدُّنيويِّ بصفةِ ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾؛ لتمييزه عن عذابِ الآخرة، وللدِّلالة على قربه، فإنَّ العذابَ القريبَ أوفى في زجرِ غير المؤمنين - وإن كان أخفَّ - من عذاب الآخرة الغيبيِّ، ووُصِفَ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ الأخرويُّ بصفة ﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾؛ لأنَّه العذاب المحيط الذي لا مهربَ منه ولا منجى ولا ملجأ(2)، فكان وصفُ عذاب الدُّنيا بالأدنى؛ لأنَّه لا نسبة له إلى عذاب الآخرة، فعذاب الدنيا لا يكون شديدًا، ولا يكون مديدًا، وأمّا عذاب الآخرة؛ فشديدٌ مَديدٌ(3).

بلاغةُ فنِّ الاحتباك:

النَّظمُ القرآني ينتقي ما يُحقِّق مرادَ الكلام ومقصود البيان

اختار النَّظم الكريم مفردة ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ وصفًا لعذاب الدُّنيا، و﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ وصفًا لعذاب الآخرة، مع أنَّ مقتضى الظّاهر أنَّ ما يقابل الأدنى هو الأقصى بمعنى الأبعد، وما يُقابل الأكبر هو الأصغر؛ وذلك لأنَّ المقصودَ هو التخويف والتهديد، وهذا إنَّما يحصل بالقرب لا بالصغر، وبالكبر لا بالبعد، بالإضافة إلى أنَّ صفة الأصغر حصلت بمقتضى المقابلة، ولأنَّه منقضٍ بموت المعذَّب، وصفة الأقصى لعذاب الآخرة حصلت كذلك بمقتضى المقابلة، ولأنَّه واقعٌ في الآخرة، فحصلت المقابلة من حيث

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 632.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11846.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 148.

التَّضمُّن، وصرَّح بما هو آكد في التَّخويف[1]، ففيه فنُّ الاحتباك، والتقدير: (ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأقصى، والعذاب الأصغر دون العذاب الأكبر)، ومن ثمَّ اختير الوصفُ بما هو أصلح للتَّخويف من الوصفين الآخرين؛ لحكمةٍ بالِغةٍ مفادها العلم التامُّ بأحوال النُّفوس بحيث يُخاطَبون بما يهزُّ مشاعرَهم ويحرِّك أفئدتهم للرُّجوع ترغيبًا وترهيبًا.

بلاغةُ تعريف الصفات دون تنكيرها:

شِدَّةُ العذابِ في إطلاقِه لا في تقييده

جاء التَّعبيرُ بصيغة اسم التفضيل المُحَلَّى بالألف واللام لِلَفظَي ﴿ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ و﴿ٱلۡأَكۡبَرِ﴾، وذلك لإفادة التَّماهي في الشِّدَّة، فيُقصد به تفضيلُه على كُلِّ ما سواه مطلقًا[2]، ومِن ثمَّ فلا تقدير لحرف الجَرِّ في اسم التفضيل المقترن بالألف واللّام، ولم يُنكَّر، فيُقال: (عذابٌ أدنى وعذابٌ أكبر) مع ملاحظة معنى ﴿مِّنَ﴾؛ لأنَّه ليس مرادُه: (عذابٌ أدنى من غيره أو أكبر من غيره)، بل المراد مطلق العذاب، فلا عذاب أشد من المذكور في الدُّنيا والآخرة.

بلاغةُ الاستئناف البياني:

رُبَّ تعذيبٍ آجِلٍ دافعٌ لعذابٍ دائم

فُصِلت الجملة الإنشائيَّة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ حكمة إذاقتهم العذاب الأدنى في الدُّنيا بأنَّه لرجاء رجوعهم، أي: رجوعهم عن الكفر بالإيمان[3]، فكأنَّه قيل: لماذا يُعَذَّبون في الدُّنيا العذاب الأدنى؟ فيأتي الجواب كاشفًا عن الرَّأفة بهم والشفقة عليهم، حتّى يعودوا إلى الدين الحقِّ، ويبتعدوا عن غيِّهم وعنادهم، فكان التَّماسك بين أوَّل الكلام وآخره، وهذا من شبه كمال الاتِّصال؛ لأنَّ الجملة الثانية جاءت جوابًا عن سؤال يُفْهَم مِن الجملة الأولى.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 132، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 148.
(2) طه الجندي، التناوب الدلالي بين صيغ الوصف العامل، ص: 88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 232.

معنى (لعلَّ) وغرض استعمالها:

تحتمل أداة (لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ معنيين: **الأوَّل:** معنى التَّرجّي والتوقُّع[1]؛ ليكون حالهم حالَ من يُرجى رجوعُه عن فِسقه عند مَن ينظره[2]، أي: (نذيقهم العذاب إذاقةً يقول معها القائل: لعلَّهم يرجعون بسببه)[3]، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّ هذا العذاب الذي يقع للمشركين في هذه الدنيا، يكون لبعضهم فيه عِبرة وموعظة، فيرجع عن غَيِّه وضلاله[4]، وأمّا **المعنى الآخر**؛ فهو معنى التَّعليل[5]، أي: (أذقناهم العذاب الأدنى كي يرجعوا، أو ليرجعوا)، كما أثبت ذلك الكسائيُّ والأخفش.

تقارب معنى الرَّجاء والتَّعليل في إيقاع التَّعذيب

بلاغةُ استعمال مفردة الرجوع:

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمال مفردة الرجوع، في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ دون ما يُرادفه من ألفاظٍ من مثل: (يعودون)؛ وذلك لأنَّ لفظَ الرجوعِ أوسعُ في الدِّلالة من لفظِ العودة، فيُستعمل لفظ الرُّجوع في معنى الرُّجوع عن الشَّيء وإلى الشَّيء[6]، والمعنى الظّاهر في الآيةِ هو الرُّجوع إلى الدّين الحقّ، ويحتمل الرجوع عن الكفر، والمعنيان مرادان؛ إذِ الرجوع إلى الفطرة والحقِّ هو رجوعٌ عن الكفر والباطل.

الرُّجوع عن الكفر والباطل إلى الفطرة والحقِّ

غرضُ حذفِ متعلِّق الرُّجوع:

جاء التَّعبير بحذف متعلِّق فعل ﴿يَرۡجِعُونَ﴾، فلم يُذكَر أهو رجوعٌ إلى الشَّيء أو عن الشيء؛ فحُذِفَ المتعلِّق، وذلك للاختصار، فإنَّ المحذوف قد دلَّ عليه السياق، والحذف فيه إعمالٌ لذهن المتأمِّل في لفظ الرجوع، مع ما فيه من مراعاة الجانب الصوتيِّ في موافقة

دلالةُ السّياق تُحرِّك الأذهان لفهم المقصود

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 331، والزمخشري، المفصل، ص: 400.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 261.
(3) الشربيني، السراج المنير: 3/ 213.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 614.
(5) المرادي، الجنى الداني، ص: 580، وابن هشام، مغني اللبيب، ص: 379.
(6) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 4/ 491.

رؤوس الآي قبلها وبعدها، فالعناية قد انصبَّت على الجانبَين الدِّلاليِّ والصَّوتيِّ.

بلاغةُ المجاز المرسل في ذكر الكلِّ دون البعض:

قيم الهداية مبثوثةٌ في نظم القرآن ودقائق تعبيره

ضمير الرَّفع في قوله تعالى: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ - وهو واو الجماعة - مجازٌ مُرسَلٌ علاقته كُلّيَّة، حيث ذكر الكلَّ، وأراد الأكثر، فهناك من المشركين مَن استوى إنذاره مع عدم إنذاره، فلم يقل: (لعلَّ أكثرهم يرجع)، فقد رجع كثيرٌ منهم خوفًا من السَّيف، فلمّا رأوا محاسنَ الإسلام؛ كانوا من أشدِّ النّاس فيه رغبةً وله حُبًّا[1]، وذلك لبناء قيم الهداية في نفوسهم، وللإيماء إلى أنَّ الرجوع إلى الحقِّ وعن الباطل قد يكون لجميعهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 261.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السجدة: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أظلمُ النّاس من ذُكِّر بأشدِّ أسباب التَّذكير ثم عاند في كفره

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة غرَضَ إذاقة المشركين عذابَ الدُّنيا قبل عذابِ الآخرة، وهو الرُّجوع إلى الحقِّ وترك الباطل؛ ناسب أن يذكر شأنَ من لم يرجع عن باطله، وبقي في غيِّه، بأنَّه أظلم النّاس؛ لأنَّه عندما ذُكِّر بآيات الله أعرض عنها، فاستحقَّ بذلك وصْفَ الإجرام، فهو انتقالٌ من بيان نزول الرَّحمة في التَّعذيب، إلى بيان حال من عاند، وأصرَّ على تكذيبه وكُفره وظُلمه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَظۡلَمُ﴾: (ظلم) أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وضع الشيء غير موضعه تعدّيًا[1]، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظلمت السِّقاء؛ إذا تناولته في غير وقته[2]، ومدار معنى هذا اللَّفظ حول حَجْب ما ينبغي أو ما يُستحَقُّ، أي: مَنعُه وانتقاصُه[3]، ومعنى اللفظ في الآية: هو ظلم النَّفس في إصرارها على التَّكذيب بآيات الله تعالى بعد الإبانة والإيضاح.

2) ﴿أَعۡرَضَ﴾: (عرض) بناءٌ تكثر فروعه، وهي مع كثرتها ترجع إلى أصلٍ واحد، وهو العرض الذي يخالف الطول[4]، والإعراضُ عن الشَّيء: الصَّدُّ عنه، ويُقال: أعْرض فلانٌ، أي: ذهب عَرْضًا وطولًا[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الراغب، المفردات: (ظلم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(5) الفارابي، المنتخب من صحاح الجوهري: (عرض).

والمعنى المحوريُّ: اتِّساع ما يواجه النّاظر من الشَّيء الكثيف[1]، ومعناه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ﴾، أي: لم يؤمن بها، ولم ينتفع بها، بل كفر بها، واستكبر عنها.

3) ﴿مُنتَقِمُونَ﴾: (نقم) يدلُّ على الإنكار والكراهة، وتأتي صيغة الافتعال للأخذ بمقتضى ما في النَّفس مِن غضب وإنكار، وأصل صيغة (افتعل)؛ لتحصيل الفعل للنَّفْس، وهو الاتِّخاذ، وتأتي للاجتهاد في أداء الفعل بالمبالغة فيه، فما جاء في القرآن من هذا الجذر على صيغة (فعل)؛ فهو بمعنى المبالغة في كراهة الشيء[2]، وما جاء على صيغة (افتعل) وما تَصَرَّف منها؛ فهو لمقتضى الكراهة، وهو العقوبة[3]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: 55] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران: 4]، فمعنى الانتقام التَّعذيبُ الشَّديدُ في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

من لم تُصلحه المشاهدات؛ حلَّت به النِّقمات

تُبيِّنُ الآية الكريمة أنَّه لا أحد أظلم مِمَّن توالى عليه التذكير بآيات الله مرَّةً بعد مرَّةٍ، ثُمَّ أعرض، وصدَّ عن سبيل الله تعالى، فإنَّه سيناله عذابٌ من الله شديد انتقامًا منه؛ لأنَّ العناد بعد رؤية الحقائق البيِّنات، والدلائل الواضحات، لهو أشدُّ مِنَ العناد بدونها، فإنَّ للمشاهدة وقعًا لا يغادر القلب السَّديد حتى يُصلحه، فإن لم تُصلِحْه المشاهدات؛ وقع عليه انتقامُ الجبّار.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

الواو تحتمل الاستئنافَ والعطفَ

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستئناف[4]، وتحتمل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نقم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نقم).
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 21/ 118.

العطف على ما سبق، إمّا على الآية السّابقة، والمعنى: لنذيقنَّهم، ولا يرجعون، فيكونون قد ذُكِّروا بآيات الله من النِّعَم أوّلًا والنِّقَم ثانيًا، ولم يؤمنوا، فلا أظلم منهم أحد؛ لأنَّ مَن يكفر بالله ظالمٌ، فإنَّ الله لذوي البصائر ظاهرٌ، لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهِدٍ يشهد عليه، بل هو شهيدٌ على كُلِّ شَيءٍ[1]، وإمّا عطفًا على جملة: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ [السجدة: 15]، حيث اقتضت أنَّ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ﴾ [السجدة: 10]، ليسوا كأولئك، فانتقل إلى الإخبار عنهم بأنَّهم أشدُّ النّاس ظلمًا؛ لأنَّهم يُذَكَّرون بآيات الله حين يُتلى عليهم القرآن، فيُعرِضون عن تدبُّرِها، ويَلغون فيها[2].

بلاغةُ الاستفهام ومعناه:

أعظمُ النّاس جرمًا من أعرض بعد البيان

وَقَعَ الاستفهام بأداة (مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ على معنى: (لا أحد أظلمُ مِمَّن هذه صفته)[3]، فالمرادُ نفيُ الأظلميَّة عن كلِّ أحدٍ، وإثباتُها لِمَن هذه صفته، فيكون خبرًا[4] وتقريرًا، وهذا من أفصح التقرير أن يوقف الأمر على ما لا جواب له فيه إلّا الذي يريد خصمه، مع ما في الاستفهام من معنى التَّهويل والتَّفظيع لمن سلك مسلك الإعراض بعد البيان، والعناد بعد الاتِّضاح.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَظۡلَمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أظلمُ النّاس من كفر ثمَّ أعرض بعد التَّذكير

جاء استعمال مفردة الظلم، في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾، بصيغة اسم التفضيل، وذلك لبيان أنَّهم أظلم النّاس، فإنَّ الإعراض بعد التَّذكير هو ظلمٌ سحيقٌ، فالتَّعبير باسم التفضيل في سياقه يدلُّ على تماهي هذا الظالم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 149.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 233.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 363.
(4) الزركشي، البرهان: 3/ 97.

الذي لم يرعوِ، ولم ينصع لآيات اللّه، فكان أشدَّ الناس ظلمًا وبُعدًا عن الحقِّ الواضح الظاهر، وفي صيغة اسم التفضيل معنى التَّعجُّب؛ لأنَّهم ظلموا أنفسهم مرَّتين: ظلموها أوَّلًا بإطفاء جذوة الإيمان الَّتي أودعها اللّه فطرَتَهم، وظلموا أنفسهم ثانيًا؛ إذ أبوا أن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى تعاطي الدواء الذي يشفي هذا الداء الذي مَكَّنوه منهم، فأفسد فطرتهم[1].

توجيهُ إشكال في الحكم بالأظلميّة على أنواعٍ متباينة:

الأظلميَّةُ وصفٌ تتساوى فيه الأنواع أو تتباين باعتبارات مختلفةٍ

تكرَّرت صيغةُ ﴿أَظۡلَمُ﴾ في القرآن في أكثر مِن موضع، من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [الأنعام: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 32]، وكلُّ واحدةٍ منها تقتضي أنَّ المذكورَ فيها لا يكونُ أحدٌ أظلمَ منه، فكيف يُوصفُ غيرُه بذلك؟.

والجواب أنْ يُخَصَّ كلُّ واحدٍ منها بمعنى صلتِهِ، كأنَّه قال: لا أحدَ من المانعين أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجدَ اللّه، ولا أحدَ من المفترين أظلمُ مِمَّن افترى على اللّه، ولا أحدَ من الكذّابين أظلمُ مِمَّن كَذَب على اللّه تعالى، أو أن يتعلَّق الجواب بالتَّخصيص والأسبقيَّة، أي: إنَّه لمّا لم يُسْبَقْ أحدٌ إلى مثلِه؛ حَكَم عليهم بأنَّهم أظلمُ مِمَّن جاء بعدَهم سالكًا طريقتَهم في ذلك، وتخريجٌ ثالثٌ يتعلَّق بالتساوي بين كُلِّ هؤلاء، فهؤلاء جميعًا متساوون في الأظلميَّة، فلم يكنْ أحدٌ مِمَّن وُصِف بذلك يزيدُ على الآخر؛ لأنَّهم متساوون في ذلك، وصار المعنى: لا أحدَ أظلمُ مِمَّن مَنَع، ومِمَّن افترى، وممَّن ذُكِّر، ولا إشكالَ في تساوي هؤلاء في الأظلميَّة، ولا يَدُلُّ ذلك على أنَّ أحد هؤلاء يزيدُ على الآخرِ في الظُّلم[2].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 625.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 2/ 77.

غرضُ استعمال الاسم الموصول:

جاء استعمال الاسم الموصول (مَن)، في قوله تعالى: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾؛ لاشتمال عموم الظالمين، فإنَّه اسمٌ موصولٌ مشتركٌ، يصلح للمفرد والمثنى والجمع، لا يَدُلُّ على شخص بعينه، وإنَّما ينتظم كلَّ فَرْدٍ ذُكِّر بآيات ربِّه، ولم يُؤمن بها، فالجملة الموصوليَّة مع الماضي "قُصِدَ بها الالتباس والاستصحاب"[1]، وفي ذكر الصِّلة والموصول دلالة على أنَّ التَّذكير قد حدث بناء على دلالة الماضي في الفعل ﴿ذُكِّرَ﴾ الواقع صلة للموصول، وقد أفاد الاسم الموصول التَّشويق إلى ذكر الصِّلة ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾، ثمَّ في الصِّلة والموصول تمهيدٌ لذكر ما بعد حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ بذكر الفعل ﴿أَعۡرَضَ﴾؛ لبيان وقت الإعراض.

كلُّ مَن ذُكِّر بالآيات ثمَّ أعرض عنها؛ فداخلٌ في مفهوم الأظلميَّة

نكتةُ استعمال فعل ﴿ذُكِّرَ﴾ مادَّةً وصيغة:

بُني فعل ﴿ذُكِّرَ﴾ للمفعول لقصد الاتِّساع في الأشخاص والزمان، فالتذكير عامٌّ، أي: ذَكَّر بها أيُّ مُذَكِّرٍ كان في أيِّ وقتٍ كان[2]، فالمقصود التَّنبيه على معنى التذكير بوجه عام، وفي اختيار فعل ﴿ذُكِّرَ﴾ إشارة إلى مسلك النِّسيان والترك والإهمال الذي انتهجه المذكَّرون، مع أمل أن يُدركوا ما تركوه، فينجوا مِن العذاب الأكبر الذي أُعدَّ لهم.

الإهمال والنسيان سِمتا المُعرِض الغافل

نوعُ الباء ومعناها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ على الإلصاق، وهو معنًى لا يفارق الباء[3]، والإلصاق يعني: شِدَّة اتِّصال الشيء بالشيء، والآيات هنا اتَّصلت بالذِّكر اتِّصالًا وثيقًا، وتلبَّست به، فما مِن ذِكرٍ إلّا وتكون الآيات أداتَهُ المكينة التي تُبيِّن، وتُرشِدُ، وتهدي السبيل.

شِدَّة اتِّصال الذِّكر بالآيات

(1) محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/ 187.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 254.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 36.

غرضُ إضافة لفظ الآيات إلى لفظ الرُّبوبيَّة:

شرفُ الآيات بشرف مَن أُضيفت إليه

أُضيف لفظُ الآيات إلى عنوان الرُّبوبيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ بقصد تشريف تلك الآيات، فالمضاف يكتسب كرامته ممّا أضيف إليه، فكيف إذا أُضيفت إلى العظيم، وبيان كمالها لنسبتها إلى الرَّبِّ سبحانه.

نكتةُ جمعِ الآيات:

إقامةُ الحجَّةِ الوافية بكثرة الأدلَّة وتنوُّع البراهين

جُمِعت الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ لاستلزام الهيمنة والعظمة والقدرة الباهرة على إيجاد الآيات الكونية، ولبيان الكثرة المتناهية، فالآية ليست واحدة، وإنَّما متعدِّدة؛ لتناسب كلَّ عقلٍ وفهْم، فكان الجمع مستوعبًا لعقل كلِّ مَن يعقل، وفَهْم كلِّ مَن يفهم، وبها أُقيمت الحُجَّة على المكذِّبين، فإنَّ مَن لم تتبيَّن له آية؛ بانت له أخرى.

نكتةُ اختيارِ الإظهار دون الإضمار:

عند مواضع الشَّرف يزداد الإنكار على المكذِّب المعُانِد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥﴾ [السجدة: 15] جاء لفظ الآيات مضافًا إلى الضَّمير، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جاء لفظ الآيات مضافًا إلى لفظ الرُّبوبية، فيُسأل عن نكتة الإظهار هنا، والإضمار في المتقدمة، والجواب: أنَّ الإضمار جاء في سياق الحديث عن المؤمنين، فكان الإضمار فيه إكرام وعناية ورعاية وتقريب لجانب المؤمنين، وإشعار بالخصوصيَّة، بينما في هذه الآية فالإضافة اكتست بالجلال والهيبة والتشريف من لفظ الرُّبوبيَّة، ففيه زيادة في الإنكار على المُعرِض المُجرِم، ولبيان الفرق بين الفريقين.

سرُّ إضافة الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير المُفرَد:

جاء استعمالُ عنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى الضَّمير المفرد ﴿بِـَٔايَٰتِ

عند تمامِ النِّعمة تكمل المنَّة ويزداد توبيخ المُكذِّب وتقريع المُعرِض

﴿رَبِّهِۦٓ﴾؛ لزيادة الإنكار على المعرض، فإنَّ مَن تولَّى تذكيره هو ربُّه الذي خلقه، وربّاه، فهو المربّي لهم بالإيجاد وإدرار النِّعم[1]، ومِن هذه النِّعم تذكيرُ المُعرِض بالآيات الواضحات، كما أنَّ الربَّ سبحانه سببٌ في وصول النّاس إلى درجة الكمال؛ لأنَّ الرُّبوبيَّة في الأصل بمعنى التربية، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى كماله شيئًا فشيئًا[2].

ولم يُجمع الضَّمير، فيقال: (بآيات ربهم) - والكلامُ عائدٌ على الاسم الموصول المقتضي العمومَ والشمولَ - لمراعاة الاسم الموصول (من) من حيث اللفظ، وللإيماء إلى عراقة كفرهم واحدًا واحدًا على الرَّغم من رعايتهم وإمهالهم واحدًا واحدًا، فالإفرادُ انصبَّ على كلِّ معرضٍ وحده، وهذا أشدُّ في التَّعريض في الوعيد، وللإيماء إلى مسؤوليَّة كلِّ واحدٍ عن تصرُّفاته، فلكلِّ فردٍ تذكيرٌ، ولِكُلِّ فَردٍ مسؤوليَّةٌ ينبغي أن يتحمَّلها.

بلاغةُ استعمال حرف التراخي:

رتبةُ الإعراضِ بعد رتبة التَّذكير مستبعدةٌ في العقول السليمة

جاء حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾؛ لقصد الدِّلالة على تراخي رتبة الإعراض عن الآيات بعد التذكير بها تراخيَ استبعادٍ وتعجيبٍ من حالهم[3]، فالإعراض عن مثل آيات اللّٰه في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السَّبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعَدٌ في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: (وجدتَ مثلَ تلك الفرصة، ثمَّ لم تنتهزها!) استبعادًا لتركه الانتهاز[4]، وفائدةُ ﴿ثُمَّ﴾ أنَّها تُعطي معنى استمراريَّة تأثير الآيات، فالمعنى: أنَّ من وقع له التذكير بها في وقتٍ ما، فأخذ يتأمَّل فيها، ثمَّ أعرض عنها بعد ذلك، ولو بألف عام، فهو أظلم الظالمين[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/ 338.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/ 338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 233.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 515.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 262.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

للسياق الأثر الكبير في توجيه معاني الحروف

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ [الكهف: 57]، بحرف الفاء، بينما في سورة السجدة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾، فجاء بحرف التراخي، فيُسأل عن حكمة ذلك؟.

وذلك أنَّه لمّا ذَكَر في آية الكهف إرسالَ الرُّسل، فذكر إعراض الأقوام عقب دعاء الرُّسل إيّاهم عند جدالهم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [الكهف: 56]؛ كان التَّعقيب بيِّنًا، فورد بالفاء، وأمّا آية السجدة؛ فلم يقع فيها ذكر إرسال الرُّسل، ولا شكَّ أنَّ استحقاق جزائهم بذلك إنَّما هو في تماديهم في الكفر مدى حياتهم إلى الوفاة، فكان المناسبُ حرفَ التراخي[1].

نكتةُ تعديةِ فعل الإعراض بحرف (عن):

تجاوزُ الآياتِ وتركُها دليلُ المُكنة في الغفلة والكبر

دلَّ حرف (عن) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ على معنى أنَّهم نسوا الذِّكر والآيات متجاوزينها إلى طريق الضَّلالة والاستكبار والفسق، وفي المجاوزة تعمُّدٌ وإهمالٌ وعدم اعتبار لهذه الآيات على الرغم مِن كثرتها وتتابعها وتنوُّعها، ثم إنَّ فعل ﴿أَعۡرَضَ﴾ جاء متعدّيًا بحرف الجرِّ (عن) في القرآن كلِّه.

علَّة فصل جملة التذييل:

الانتقام من المجرمين جزاءٌ عادل وطُمأنينة واجبة

فُصِلت الجملة المؤكِّدة: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البيانيِّ الناشئ عن تفظيع ظلم الذي ذُكِّر بآيات ربِّه، فأعرض عنها؛ لأنَّ السّامع يترقَّب جزاء ذلك الظالم[2]، فكأنَّ سائلًا قد سأل: ما جزاء هؤلاء الذين أعرضوا؟ فجاء الجواب: إنّا منهم منتقمون، فالجملة وعدٌ ووعيدٌ، وعدٌ للمؤمنين بنصرهم على

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 320.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 233.

عدوِّهم، ووعيدٌ وتهديدٌ للكفّار الذين لم يؤمنوا بآيات ربِّهم، فهو شبه كمال الاتصال؛ لأنَّ الجملة الثانية جاءت جوابًا عن سؤال يُفهم مِن الجملة الأولى.

فائدةُ تتابُع المؤكِّدات:

ثباتُ الانتقام وعراقته مع الإيجاز

جاءت جملة: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مشتملةً على أكثر من تأكيد، من مثل الجملة الاسميَّةِ وأداة (إنَّ)، وفائدة التوكيد إظهار الثبات في الانتقام وكمالِ الرغبة فيه، فهو بمنزلة إعادة الجملة مرَّتين[1]، فالتركيب رشيقٌ، لا يحمل ما يعكِّر صفوه، وعُبِّر بصيغة العظمة؛ تنبيهًا على أنَّ الذي يحصل لهم من العذاب لا يدخل تحت الوصف على مجرَّد العِداد في الظالمين، فكيف إذا كانوا أظلم الظالمين[2]؟.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ جمعٌ مُحَلًّى بـ(أل)، فهو دالٌّ على العموم، فيدخل فيه كلُّ مجرم أعرضَ عن الآيات، والمذكورون في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ [السجدة: 12]، وكلُّ مجرم بصفةٍ عامَّةٍ.

فائدةُ إيثارِ إظهار لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

المعرِضُ عن الذِّكر مجرمٌ مستحقٌّ للانتقام المبين

آثرَ النظمُ الكريم إظهارَ لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دون الإضمار، فلم يقل: (إنّا منهم منتقمون)؛ وذلك لقصد التسجيل عليهم بأنَّهم في إعراضهم مجرمون، أي: آتون بجُرم، وهو جُرم تكذيب الرسول ﷺ وتعطيل الدليل[3]، وفائدةٌ أخرى: وهي أنَّه لمّا جعل المعرِض أظلَمَ من كُلِّ ظالم، ثم توعَّد المجرمين عامَّةً بالانتقام منهم؛ دلَّ على إصابة الأظلم النَّصيبَ الأوفرَ من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 188.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 213.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 221.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 515.

بالإضافة لما في الإظهار من العموم الزمانيِّ والمكانيِّ، فَمَن فعل فِعلَهم؛ استحقَّ عقابهم، لكن لو جاء التركيب: (إنا منهم منتقمون)؛ لاحتمل الدِّلالة على قومٍ بأعينهم، فكان الإظهارُ عامًّا، والإضمار خاصًّا، والعموم أولى في التَّحذير لكلِّ من تسوِّل له نفسُه الإجرامَ والصدَّ عن سبيل اللّه تعالى، ويُضاف إلى ذلك بيانُ السَّبب، فسبب الانتقام هو الجرم المرتكب، ولو جاء بالضَّمير؛ لما ظهر سببُ الانتقام، ولكان السَّببُ هو مجرَّد الإعراض لا الجرم.

غرضُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّمت شِبهُ الجملة ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ لتحقيق غرض الحصر والتخصيص، ففيه مِنَ التَّرهيب والتخويف والتَّهديد لكلِّ مجرمٍ في كلِّ زمان ومكان أنَّه مرصود بالانتقام.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

شـدَّةُ الانـتـقـامِ عــدلٌ اقـتـضـاه شديد الكفران

جاء اختيار مفردة الانتقام، وهي المكافأة بالعقوبة على ذنبٍ عظيم، وهذا فيه من الشدَّة والقسوة المنبئة عن عظيم ما اقترفه المجرمون، وتنماز الصيغة بأنَّها اسمُ فاعل، دالٌّ على الثبات، أي: إنَّ الانتقام عريقٌ ثابتٌ لا يتزعزع، بالإضافة إلى كون اسم الفاعل من وزن (افتعل) الدّالِّ على معنى الإصابة مع التصرُّف والطلب والاجتهاد[1]، وهذه دالَّة على شدَّة الانتقام وقسوته ودوامه عليهم في الدُّنيا إمّا باطنًا بالاستدراج بالنِّعم، وإمّا ظاهرًا بإحلال النِّقم، وفي الآخرة بدوام العذاب على ممرِّ الآباد[2]، ويُضاف لذلك دلالةُ الجمعِ الدالِّ على الكثرة، فالانتقامُ كائنٌ من قِبَل اللّه تعالى، أو ملائكته بأمره سبحانه.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 74.

(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 213.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعراضُ والنأي:

الإعراض في المعنويّات والحسّيّات بينما يغلب النَّأي في الحسّيّات

الإعراض عن الشيء أن يوليه عُرض وجهه[1]، والنأي: أن يلوي عنه عطفه، ويوليه ظهره، وهو صرف وإبعاد بقوَّة[2]، ففي الإعراض صدٌّ، وليس شرطًا الابتعاد، أمّا النأي فَصَدٌّ مع تباعد، ويأتي الإعراض معنويًّا وحسيًّا، بينما يغلب على النّأي الجانب الحسّيُّ.

الإجرام والظُّلم:

الإجرام ظلمٌ مختصٌّ بالجنايات والظُّلم أعمُّ

الظُّلم وضع الشَّيء غير موضعه تعدّيًا[3]، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، أمّا الإجرام؛ فيُستعمل في كلامهم لاكتساب المكروه، ولا يكاد يقال للكسب المحمود، وجَرَمَ إليهم، وعليهم جَريمة، وأجْرَم: جنى جِناية[4]، فالإجرام: ظلمٌ يختصُّ بالجنايات، والظُّلم أعمُّ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض)، والزمخشري، الكشاف: 2/ 689.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نأى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جرم).

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣﴾ [السجدة: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وحدة الرِّسالة يُتوقَّع معها تقارب موقف المدعوّين

لَمّا ذكرتِ الآيات السّابقة موقفَ الظالمين والمجرمين من آيات اللّه تعالى، تكذيبًا وإعراضًا؛ ناسب ذكر تأنيسٍ لرسول اللّه ﷺ، الذي كذَّبه قومُه، واتَّهموه باتِّهاماتٍ بَشِعةٍ، بذكر موسى عليه السلام، للرَّبط بين العقيدة الواحدة والدعوة الواحدة لبيان وحدة الرِّسالات والكتب وما واجهه الرُّسل الكرام صلوات اللّه عليهم وسلامه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرۡيَةٖ﴾: (مري) أصلٌ يدلُّ على مسح شيء واستدرار، ومنه مري الناقة، وذلك إذا مُسِحت للحلب، يُقال: مريتها أمريها مريًا، ثمَّ استُعمل فيما يكون فيه استخراج بحيلة من باطن[1]، وأصبح يُطلق في المتعارف على الشكِّ والتَّردُّد، والمحاجَّة فيما فيه مرية[2]، والمراء يكون بسبب الشكِّ وعدم اليقين[3]، فالمِراء يوصل صاحبه إلى استخراج الحُجَّة من الخصم بحيلةٍ للوصول إلى مبتغاه، والمراد في الآية الشَّكُّ والتَّردُّد.

المَعْنى الإجْماليُّ:

هداية الرُّسل واحدةٌ ومقاصد كُتُبهم مُتَّحِدة

تتناول الآيةُ الكريمةُ - في إشارة سريعة - ما كان لسيِّدنا موسى عليه السلام، فقد أوتي التوراة، ثُمَّ يأتي نهي رسول اللّه ﷺ عن الشَّكِّ في ذلك، لتثبيته على الحقِّ الذي جاء به، وتقرير أنَّه الحقُّ الواحد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرى).
(2) الراغب، المفردات: (مرى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرى).

الثابت الذي جاء به موسى في كتابه، والذي يلتقي عليه الرَّسولان، ويلتقي عليه الكتابان، فإذا كان كتاب موسى هدًى ونورًا لبني إسرائيل؛ فكتابك هدًى لقومك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للاستئناف، فالجملة استئنافٌ قُصِد منه الإخبار لتسلية النَّبيِّ ﷺ.

معنى اللّام وحرف التَّحقيق:

كمال الاعتناء بالخبر لإيقاع تمام التسلية

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ داخِلَةٌ في جواب القَسَم المحذوف، والتقدير: (واللّه لقد آتينا موسى الكتاب)، و(قد) حرفُ تحقيق وتوكيد لجملة القسم، وجاءت المؤكِّدات؛ لبيان كمال الاعتناء بالخبر الملقى على سمع رسول اللّه ﷺ بغرض تسليته، فالتَّخلُّص إلى قِصَّة الكليم مَسلاةٌ لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسَّلام[1].

فائدةُ الجملة الخبريَّة:

البشارة بالنَّصر والتمكين قياسًا على السابقين

الجملة الخبرية: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وعدٌ بالنَّصر وتذكيرٌ بالمعاناة، فكما عانى موسى عليه السلام، وكُذِّب فإنَّك ستعاني وتُكذَّب يا محمد، لكنَّ الدعوة سيكون لها النَّصر والتمكين، فكما مَكَّن اللّه لموسى، ونجَّى قومه؛ ستكون لك ولقومك التنجية.

ويجوز أن يكون من فائدة الجملة الخبرية التنبيهُ على أنَّ إيتاءَه - أي الكتاب - لرسولِ اللّه ﷺ كإيتائه لِمُوسى عليه السلام[2].

نكتةُ إسناد فعل الإيتاء إلى ضمير العظمة:

عظمةُ الإيتاء من عظمة المؤْتي

أُسنِدَ فعلُ الإيتاء إلى ضمير العظمة للدِّلالة على عظمة ما أوتي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 86.

موسى عليه السلام، فالإيتاء منسوبٌ إلى الذّات العظيمة، فكان عظيمًا لذلك، ودلَّ الضَّميرُ على كمال إيتاء موسى الكتاب وشِدَّة الاعتناء به، فهو إيتاءٌ ليس كغيره من الإيتاءات، فسبب الإيتاء هو إرشاد قومِه إلى الحقِّ كما هو شأنُ الكتبِ الإلهيَّة، والعمل بما فيها من الشَّرائعِ والأحكام[1].

بلاغةُ التَّقديم بين مفعولَيِ الإيتاء:

التَّقديمُ لما يُناسب الخبر الذي سيق له الكلام

يحتمل أن يكون ﴿مُوسَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مفعولًا به أوَّل، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مفعولًا ثانيًا على التَّرتيب الظاهر بين المفعولين، ويحتمل أن يكون هناك تقديم وتأخير، فيكون ﴿مُوسَى﴾ مفعولًا ثانيًا مقدَّمًا، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مفعولًا أوَّل مؤخَّرًا، وعلى الاحتمالين، فإنَّ النَّظم قد اعتنى بتقديم ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام؛ لأنَّه موطن التَّسلية، فإنَّ الإخبار قُصد به تسلية الرَّسول بالرَّسول، فقُدِّم ما يُناسب الغرض الذي سيق له الكلام.

توجيهُ تخصيص موسى عليه السلام بالذِّكر:

تخصيص موسى بالذِّكر لاعتبارات سياقيَّة وحِكَم زمانيَّة

خصَّ النَّظم الكريم ذِكرَ موسى عليه السلام دون غيره من الرُّسل الكرام، كعيسى عليه السلام مع قرب عهده، لكثرة انتشار أهل الكتاب الذين يؤمنون به من اليهود والنصارى، ولأنَّه موضع إجماعٍ منهم على ذلك، فجاء القرآن الكريم بالمُجمَع عليه لا المُختلَف فيه[2]، ويضاف إلى ذلك أنَّ سَيِّدنا عيسى عليه السلام جاء لإصلاح اليهود وإعادتهم إلى سواء السَّبيل، فموسى عليه السلام هو الأصل، وعيسى مُتَمِّمٌ لما بدأه موسى عليه السلام؛ فكان الأنسبُ ذِكْرَ سيِّدنا موسى عليه السلام، بالإضافة إلى أنَّ اختيار موسى عليه السلام كان لِحِكْمَةٍ، وهي أنَّ أحدًا من الأنبياء لم يؤذِه إلّا الذين لم يؤمنوا به، غير قوم موسى فقد آذوه بالمخالفة والاتِّهام والمطالبة بما لا يليق كطلب رؤية اللّه جَهْرَةً[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 137.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 149.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 149.

فائدة ذكر اسم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ دون التوراة:

المناسبةُ بين ألفاظِ الكُتُبِ السماويَّة مع تحقيق الكتابة

تعريفُ الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد، فالمقصود بالكتاب التوراة[1]، وجاء استعمال لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بَدَلًا من التوراة لتحقيقِ المجانسةِ بينها وبينَ الفرقان[2]، وليكون مجانِسًا لذكر القرآن باسم الكتاب في أوَّل السورة: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة: 2]، كما أنَّ القرآن والتوراة وُصِفا بكونهما مكتوبَين، وهذا ما لم يفده ذِكْرُ اسْمَيهما صراحةً.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاءُ إمّا فصيحة وإمّا تفريعيَّة عاطفة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ فصيحة[3]، وهي التي تُفصح عن شرطٍ مقدَّر، أي: (إذا عَلِمت هذا؛ فلا تكن في مرية من لقاء أخيك موسى)، ويجوز أن تكون الفاءُ عاطفةً تفريعيَّةً، وهي تُؤذِن بأنَّ معرفتك بأنَّ موسى عليه السلام أوتي التوراة ينبغي أن تكون سببًا في إزالة الرَّيب، والمقصود منه نهيُ أُمَّته ﷺ، والتعريض بِمَن اتَّصف بذلك[4].

غرضُ النَّهي وبلاغته:

النَّهي عن المرية ممَّن لم تقع منه مدحٌ وثناءٌ مع التَّعريض بمن وقعت منه

النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾ مستعملٌ في طلب الدوام على انتفاء الشَّكِّ، فهو نهيٌ مقصودٌ منه التثبيت، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: 109]، وليس لطلب إحداث انكفافٍ عن المرية؛ لأنَّها لم تقع من قبل[5]، وقد يكون النهي مُوَجَّهًا لأُمَّته؛ إرشادًا إلى ضرورة اليقين والتسليم والبُعدِ عن الشَّكِّ، وقد يكون كنايةً تعريضيَّةً بمن وقع في مِريَةٍ وشَكٍّ، بالإضافة إلى ما فيه من الإلهاب والتهييج للثَّبات على الحقِّ وعدم الحيدة عنه، وفيه

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل: 7/ 86.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 38.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 135.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 235.

حثٌّ على اكتساب المعارف المُزيلة للشكِّ، واستعمالها في مواجهة الخصوم[1]، وقد يكون النَّهيُ بيانًا عن العفو عن حديث النفس الواقع من الأُمَّة على ما بيَّنه ﷺ[2].

توجيهُ احتمالات عَود ضمير المخاطَب:

يحتمل أن يكون الخطاب للرَّسول أو لغير مُعَيَّنٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ يحتمل أن يكون مُوجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ، وهو نهيٌ مقصودٌ منه التَّثبيت، وهو ظاهر الآية، ويحتمل أن يكون الخطاب - في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن﴾ - لغير معيَّن، وهو موجَّهٌ للذين امتروا في أنَّ القرآن أُنزل من عند الله تعالى، سواء أكانوا المشركين أم الذين يُلَقِّنونهم من أهل الكتاب، أي: لا تمتروا في إنزال القرآن على بَشَر، فقد أنزل الكتاب على موسى، فلا تكونوا في مرية من إنزال القرآن على محمد، وعليه فالنَّهي مستعمل في حقيقته من طلب الكفِّ عن المرية في إنزال القرآن[3].

توجيهُ المتشابه اللفظي:

حذفُ النّون متعلِّقٌ بمعنًى إشاريٍّ لطيفٍ

أُثبتَتِ النون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، وحُذِفت في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: 17].

وذلك لأنَّ غرض النَّهي في سورة هود تثبيتُ الرَّسول ﷺ، ونهيٌ له عن أقلِّ ريبةٍ أو عن أيِّ شَيءٍ مِنَ الرّيبة أصلًا، والكلام في القرآن وفي قومه، فكان النَّهي عن أي شيء مِنَ الريبة[4]، أمّا آية السجدة؛ فالكلام فيها عن التوراة لا القرآن، فجاء على الأصل وإثبات النون.

---

(1) إبراهيم الهدهد وآخرون، موسوعة الفروق اللغوية واللمحات البلاغية: 4/ 340.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 262.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 235.

(4) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 78.

بلاغةُ التَّعبير بالظَّرفية دون (فلا تكن ممتريًا):

المبالغة في النهي دليل أهمّيَّة شأن المتحدَّث عنه

حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ دالٌّ على الظرفية، والظرفيَّة مجازٌ في شدَّة الملابسة، أي: لا يكن الشَّكُّ مُحيطًا بك ومُتَمَكِّنًا منك، فلا تكن مُمتريًا في أنَّك مثله سينالك ما ناله من قومه[1]، ودخل حرف الظَّرفيَّة على لفظ ﴿مِرْيَةٍ﴾ دون أن يُقال: (فلا تكن مُمتريًا)؛ لأنَّ اسمَ الفاعل دالٌّ على النَّهي عن الثُّبوت، وليس فيه دلالة على إحاطة المرية، أمّا الجارّ والمجرور؛ فدالّان على قوَّة الامتراء وشدَّته، وضرورة التَّخَلُّص من قيوده.

غرض تنكير ﴿مِرْيَةٍ﴾:

نُكِّر لَفظُ ﴿مِرْيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ﴾؛ للعموم، أي: لا يكن لأيَّة مِرْيَةٍ أثَرٌ في الشَّكِّ والتَّرَدُّد في شأن لقاء موسى عليه السلام، وقد يكون التَّنكير دالًّا على التعظيم، أي: في مِرْيَةٍ شَديدةٍ من لقائه.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ومعناها:

النَّهي عن المرية ابتداءً من اللقاء

تدُلُّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ على ابتداء الغاية، أي: فلا تكن في مريةٍ ناشئةٍ من اللقاء والإتيان.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

أفخمُ التَّراكيب ما احتوت معانيَ ظاهرةً وكنائيَّةً

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾، إمّا أن يعود على موسى عليه السلام، والمعنى: فلا تكن في مرية من لقاء موسى يوم القيامة، ويكون زمن القيامة محذوفًا، ودليله العقل؛ فإنَّ لقاء موسى لا يكون إلّا في القيامة، وهو الظّاهر من السياق، وهو كناية عن البعث، أو ليلة أسري بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ودليله ما روي في هذا الشَّأن، وإمّا أن يعود على الكتاب، والمعنى: فلا تكن في مريةٍ من لقاء موسى التوراة[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 235.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 8/ 342.

أو أن يعود الضَّمير إلى الكتاب المتقدِّم، والمرادُ غيره على طريق الاستخدام، أو إرادة العهد، أو تقدير مضاف، أي: تلقّي مثله، أي: فلا تكن في مرية من كونه وحيًا مُتَلَقًّى مِن لدنه تعالى، والمعنى: (إنّا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقَّيناه من الوحي مثل ما لقَّيناك، فلا تكن في شك من أنَّك لُقّيت مثله)(1).

براعةُ المجازِ في التَّعبير عن الإصابة باللِّقاء:

تجنيبُ النَّبي ما يُــؤذي سمعه وقلبه

اللِّقاء: مصادفةُ فاعِلِ الفِعْلِ مَفْعولَه، ويُطلق مجازًا على الإصابة، كما يُقال: لقيت عناءً، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ مجاز، أي: لا تكن في مرية في أن يصيبك ما أصاب موسى من قوم فرعون من التَّكذيب والوعيد والأذى، وعليه فهذا هو لقاء موسى عليه السلام، والتعبير باللقاء دون الإصابة لتجنيب الرسول ﷺ ما يؤذي سمعه بذكر إصابته، وقد يكون اللَّفظ جاريًا على التشبيه البليغ كقوله: هو البدر، أي: من لقاء كلقائه(2)، وهذا الوجه هو أقرب الوجوه لتنزيل النهي على ظاهره، أي: (فإن كنت في شكٍّ من إيذاء قومك، فلا تتردَّد في اعتقاد ذلك، فإنَّك ستلاقي ما لاقاه موسى عليه السلام).

نوعُ الواو ودلالتُها:

بيانُ مزايا الكليم ترجمةٌ لواسع لطف الكريم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ للعطف، فقد جمعت بين ميزتين لسيِّدنا موسى عليه السلام، الأولى: أنَّ اللّه قد آتاه الكتاب، وهذا تكريمٌ وتعظيمٌ، والأخرى جعله هداية لقومه بنفسه وبالتوراة، فعطف فعل (جعلناه) على فعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾، فهي بيانٌ لمكارم سيِّدنا موسى عليه السلام واستحقاقه عطاءات اللّه عز وجل.

تعيينُ مرجع الضمير:

الضمير في الفعل ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 235.

﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يجوز عوده إلى موسى أو إلى كتابه، وكلاهما مستساغٌ، لكن عوده إلى موسى يجعله مصدر الهداية، أمّا عود الضَّمير على الكتاب؛ فهذا يعني أنَّ الكتاب هو مصدر الهداية، فكلاهما سببُ هُدًى[1]، والأوفق في الاحتمال أنّه عائدٌ على موسى عليه السلام؛ لدلالة السّياق والمعنى عليه، وهو يتضمَّن الكتاب؛ إذ هداية موسى لقومه لا تكون إلّا بالتوراة.

جمعُ المعاني أولى من انفرادها عند الاحتمال

غرضُ تنكير لفظ ﴿هُدَى﴾:

نُكِّر لفظ ﴿هُدَى﴾، وأُتي به مصدرًا للتعظيم، فلم يقل: (وجعلناه هاديًا)، وإنَّما قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدَى﴾؛ لبيان المبالغة في الوصف، فالمصدر دالٌّ على الكمال والعراقة في الهداية، فوصفه بأنَّه هُدًى للمبالغة في حصول الاهتداء به[2]، وهذا ما لا يفيده اسم الفاعل، فقصارى اسم الفاعل الدِّلالةُ على ثبات الحدث، أمّا المصدر؛ فدالٌّ على الحدث كُلِّه مع المبالغة فيه وديمومته؛ لأنَّه ليس للمصدر دلالةٌ على الزمان، فكأنَّه حوى كلَّ الأزمنة.

التَّعظيم مع المبالغة في الوصف

دلالةُ اللّام في تحقيق الأغراض البلاغية:

اللام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدَى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دالَّةٌ على تخصيص بني إسرائيل بهذا الهدى، والتخصيص فيه تعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يشكروا نعمة الله على أن أرسل إليهم محمَّدًا بالقرآن؛ ليهتدوا، فأعرضوا، وكانوا أحقَّ بأن يحرصوا على الاهتداء بالقرآن وبهدي محمد صلى الله عليه وسلم[3]، أمّا سبب تخصيص بني إسرائيل بالذِّكر؛ فلأنَّهم أكثر المنتفعين به، وقيل: لأنَّه لم يتعبَّد بما في كتاب موسى عليه والسلام ولدُ إسماعيل عليه السلام[4].

تخصيصُ الهُدى ببني إسرائيل بغرضِ التَّعريض بالمشركين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 236.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 236.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 235.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 135.

التَّعريضُ بمن ينتسب إلى الخليل عليه السلام

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنَّ هذه عادة القرآن في نسبة قوم موسى عليه السلام إلى إسرائيل، فذِكرُهم ببني إسرائيل يُلاحظ فيه النَّسب، ففيه تعريضٌ بمن يدّعي الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام من قريش، والمقام هنا مقام هداية ورشد وإمامة، فكان الأنسب التعبيرَ بلفظة ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لدلالتها على عبادة اللّه وتوحيده.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المرية والشَّكُّ:

الشكُّ عامٌّ والمرية أخصُّ

المرية - بالكسر وبالضم - التردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشَّكِّ، والامتراء والمماراة: المحاجَّة فيما فيه مرية[1]، والامتراء: هو الشَّكُّ الذي يدفع إلى المِراء والمجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (مرا).

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكتابُ الحقُّ يُنتج أئمَّة الهدى والخير

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة إيتاء موسى عليه السلام الكتاب، وجعله هدًى لبني إسرائيل؛ ناسب بيان أثر ذلك في بني إسرائيل، وهو أنَّه جعل منهم أئمَّة هدًى، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه سيكون في قومه هداةً مهديّين بأمر الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَئِمَّةٗ﴾: (أمم) أصلٌ لما انضمَّ إليه غيره، والإمام هو المؤتَمُّ به (أي: المتبوع)، إنسانًا كان (كأن يُقتدى بقوله أو فعله) أو كتابًا أو غير ذلك، مُحِقًّا كان أو مبطلًا، وجمعه: أئمَّة[1]، وهو كُلُّ مَن ائتمَّ به قومٌ سواء كانوا على الصراط المستقيم أم ضالّين: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71]، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: 12]، أي: قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم الذين ضعفاؤهم تبع لهم[2]، والأئمَّة في الآية أئمَّة الخير.

2) ﴿يُوقِنُونَ﴾: (يقن) أصلٌ لسكون الشَّيء واستقراره، واليقين: سكون الفهم مع ثبات الحكم وإزاحة الشَّكِّ، وتحقيق الأمر اليَقين من صفة العلم فوق المعرفة والدِّراية وأخواتها، يُقال: عِلْمٌ يَقينٍ، ولا يُقال: معرفة يَقينٍ[3]، ويدور معنى المفردة حول ثبوت الشَّيء واستقراره في حيِّزه محفوظًا، يُقال: يَقِنَ الأمرُ، أي: ثبت ووضح، فاليقين سكون النَّفْس وثَلَجُ الصدر بما عُلِم[4].

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أمّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (يقن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يقن).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الصَّبر واليقين ركنا الإمامة وأصل الهداية والاهتداء

تُخبر الآية الكريمة بأنَّ اللّه تعالى جعل من بني إسرائيل أئِمَّةً في الخير والصلاح، يهدون غيرهم إلى الطَّريق الحق، بأمر اللّه وإرادته وفضله، وقد وفَّقهم لذلك حين صبروا على أداء ما كُلِّفوا به من عبادات، وحين تحمَّلوا الشدائد والمحن في سبيل إعلاء كلمة اللّه تعالى، فجَعْلُهم أئِمَّةً في الخير لم يكن اعتباطًا، وإنَّما كان بسبب صبرهم على الأذى، وعلى مشاقِّ الدَّعوة إلى الحقِّ، وعلى كل أمْرٍ يستلزم الصَّبر وحبس النفس، وإيقانهم إيقانًا جازمًا بأنَّهم على الحقِّ الذي لا يحوم حوله باطلٌ، وبأنَّهم متّبِعون لشريعة اللّه تعالى التي لا يَضِلُّ من اتَّبعها، وسار على نهجها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ وفوائدُه الدِّلاليَّة:

تكريمُ بني إسرائيل عند اتِّباع الهدى وبشارةٌ لهذه الأمَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾؛ للعطف، عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ففي العطف تكريم وعناية ببني إسرائيل حين جعل منهم أئمَّة، وفي العطف إشارةٌ إلى تفضيل سيدنا موسى عليه السلام وقومه، فتعدَّدت النِّعم بوجود المنهج ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ووجود من يبلغ المنهج، وفيه بشارة للرَّسول ﷺ بأنَّه سيجعل في أُمَّته أئِمَّةً يهدون كذلك بكتابك[2]، وفيه تحريضٌ بعد تحريضٍ للعرب، من مشركين ومؤمنين، أن يلوذوا بحمى هذا الكتاب، الذي أنزله اللّه بلسانهم، وجعلهم مستفتح دعوتهم إلى دين اللّه، فالحديث هنا خبرٌ يُراد به سَوق العِبرة والعظة إلى المشركين.

نكتةُ إسناد فعل الجعل إلى ضمير العظمة:

تشريفُ أئمَّة الهدى وإكرامهم

في إسناد فعل الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 154.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 149.

﴿بِأَمۡرِنَا﴾، إلى ضمير العظمة مناسبةٌ لفظيَّةٌ بينه وبين ما سبقه من أفعال: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ و﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾، وكمال اهتمام بجعل الذين صبروا أئمَّة، وتشريف لأولئك الأئمَّة؛ إذ الجعل كان من الله تعالى.

نوعُ (مِن) ودلالتها البلاغيَّة:

اهتداءُ بعضِ الأمَّة كفيلٌ بنشر الهدى وإنبات الثرى

حرف (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ للتبعيض، أي: وجعلنا بعض بني إسرائيل أئمَّة، وهو دالٌّ على أنَّ الذي يصلح للإمامة هم ثُلَّةٌ من بني إسرائيل، وفيه بيان القرآن لواقع بني إسرائيل، فكان منهم الهداة المهديون، وهذا من إنصاف القرآن، فليسوا جميعًا فسقةً ضالّين، بدليل شهادة القرآن لهم: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: 113][1].

فائدة تقديم شبه الجملة على المفعول:

العناية بالمُقدَّم لبيان شأنه ورفعة أمره

قُدِّمت شبهُ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، فلم يقل: (وجعلنا أئمَّة منهم)؛ للعناية والاهتمام، أي: من بني إسرائيل؛ لأنَّه الذي شاع عن بني إسرائيل أنَّهم قد كثُر منهم الضَّلال والمعصية، فكان تقديمهم للاعتناء بشأنهم، والتَّنبيه على أنَّ الأئمَّة كانوا منهم.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

جميعُ الرسل أئمَّة بخلاف الأتباع فالإمامة لبعضهم

يُسأل عن سرِّ ذكر (مِن)، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾، وحذفها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الأنبياء: 73].

حُذِفَ حرف (مِن) في آية الأنبياء؛ لأنَّ الحديث عن الأنبياء، وجميع الأنبياء أئمَّة يتبعهم الناس، أمّا في سورة السجدة؛ فالحديث

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11851.

عن بني إسرائيل، والأئمَّة هم بعضهم، وليسوا جميعهم، فكان المناسب ذكر (مِن) التي تفيد التبعيض.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿أَيِمَّةً﴾:

صلاحُ الأمَّة باقتدائها بأخيارها وعلمائها

آثرَ النَّظم الكريم استعمال لفظ ﴿أَيِمَّةً﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ ليدخل فيها العلماء والأنبياء والمصلحون والرَّبّانيّون والأحبار، مِمَّن يتَّبعهم النّاس في أمور الخير والهدى بقرينة ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، فنكتة استعمال اللفظة التَّوسُّعُ في دلالة الكلمة[1]، فجاءت الكلمة دالَّةً على العموم، مع بلاغة الإيجاز في التَّعبير، والعناية بالمقصود وهو بيان صلاح الأُمَّة في الاقتداء بأخيارها.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿أَيِمَّةً﴾ وجمعها:

الإيماءُ إلى سننِ اللهِ تعالى في الدَّعوة والصبر

نُكِّرَ لفظ ﴿أَيِمَّةً﴾؛ لتعظيم هذه الفئة الصابرة وتشريفها، مع الإشارة إلى قِلَّتها بقرينة ﴿مِنْهُمْ﴾ الدالَّة على التبعيض، وجمع القِلَّة ﴿أَيِمَّةً﴾ بوزن (أفعلة)، فكان جمع القِلَّة مناسبًا للتَّبعيض، وللإيماء إلى سنن اللّه تعالى، بأنَّ القِلَّة المسلمة يومذاك في مَكَّة ينبغي أن تصبر، كما صبر المختارون من بني إسرائيل، فكان تنكير التقليل مناسبًا لزمن النزول، في كونهم نسيج وحدهم في الدعوة والتضحية.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

الاتِّساق بين الصيغ المنتقاة والمعاني المرتجاة

جاء التعبير بصيغة المضارع ﴿يَهْدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ للدِّلالة على العمل الدؤوب في الدَّعوة إلى الخير وعدم التواني في التَّبليغ؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على الحال والاستمرار، ففي المضارع مدحٌ لهم بِحُبِّهم دعوة الناس للهداية، وإقبالهم على الخير نفعًا للناس، فالجملة الفعلية في محلِّ نصب صفة للفظة ﴿أَيِمَّةً﴾، ونعت النكرة فيه معنى التخصيص، فأهَمُّ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 296.

صفة في الأئمة هي صفة الدعوة والهداية، والمضارع مُتَّسِقٌ مع ذكر الصَّبر الدّالِّ على الاستمرار والتَّجَدُّد في قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾، وهي إشارة هدائية لهذه الأمَّة بضرورة الصَّبر على دعوتهم إلى الله ﷻ.

نوع الباء ودلالتها:

يجوز في حرف الباء في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ السببيَّة، أي: بسبب أمرنا لهم بالدَّعوة، ويجوز أن يكون بمعنى اللّام أي: لأمرنا، أي يهدون الناس لديننا(1).

نكتةُ إضافة لفظ الأمر إلى ضمير العظمة:

تشريفُ الأمر وتعظيم صاحبه سرّا القبول

أُضيف لفظ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ إلى ضمير العظمة؛ للتَّشريف والتكريم، فالمضاف يكتسب قيمته ممّا أُضيف إليه، ولفظ (أمر) أضيف إلى العظيم، فصار الأمر عظيمًا، وفيه إشارةٌ إلى ضرورة الاهتمام به والانشغال به دومًا عمّا سواه، فالانشغال بالأمر تنفيذٌ لكلام الآمر، ففي كلِّ هداية تلبُّسٌ بالأمر، فهو المبدأ والمنتهى على دوام الهداية.

نكتةُ استعمال لفظ الأمر:

احتمل لفظ (الأمر) في قوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أن يكون واحد الأمور وواحد الأوامر، أي: إنَّهم كانوا هُداةً بسبب اتِّباع أمر الله لهم، أو بسبب التزام أوامر الله تعالى، أي: دينه.

لطيفةٌ في جمع ﴿أَيِمَّةً﴾ وإفراد (الأمر):

وحدةُ الغاية تجمعُ تعدُّدَ الأئمَّة

جاء لفظ ﴿أَيِمَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ جمعًا، وجاء (الأمر) بالإفراد، وذلك لبيان أنَّ كثرة الدُّعاة لا يعني التفرُّق والشتات، فهُم يرجعون إلى غاية واحدة صادرة عن الواحد الأحد سبحانه، فالمنهج واحد، والأئمَّة الذين

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 109.

يدعون إليه كُثُرٌ، لكلٍّ منهُم أسلوبٌ يخدم وحدة الغاية، وهي عبادة اللّٰه تعالى وحده.

نوعُ ﴿لَمَّا﴾ وبيان تَعَلُّقها:

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ(جعلنا)، أي: (جعلناهم أئمة حين صبروا)، وهي حرف وجود لوجود، وتُسمّى التوقيتيَّة، وجوابها محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، والتقدير: لمّا صبروا؛ جعلنا منهم أئمَّة[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

سببُ الإمامةِ في الدّين الصبر والثبات حتى الممات

قرأ حمزة والكسائي ورويس: ﴿لِمَا صَبَرُواْۖ﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، وقرأ الباقون: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ بالتشديد[2]، والمعنى على التخفيف: جعلناهم أئمَّة لصبرهم، واللام هنا حرف جرٍّ يفيد التعليل، وما بعده اسم موصول بمعنى الذي، أو (ما) مصدريَّة، وهي وما بعدها مؤوَّل بمصدرٍ، تقديرُه: (لصبرهم)، والمعنى على قراءة الجمهور: أنَّها حكاية المجازاة والسَّبب والنَّتيجة، أي: لمّا صبروا؛ جعلناهم أئمَّة، وأصل الجزاء في هذا كأنَّه قال: إن صبرتم؛ جعلناكم أئمّة؛ فإنَّهم لمّا صبروا؛ جُعلوا أئمَّة[3]، والقراءتان في الجملة ملتقيتان في معنًى واحد، وهو أنَّهم أصبحوا أئمَّة عند تحقيق الصبر، والثبات على الدين.

نوعُ الواو ودلالتها:

بالصَّبر واليقين تُنال الإمامة في الدين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ عطفت الجملة على فعل ﴿صَبَرُواْۖ﴾، فكان العطف دالًّا على قضيَّتَي اليقين والصَّبر، وذلك تحقيقٌ لمن يقول: بالصَّبر واليقين تُنال الإمامة في الدّين، أي: جعلهم اللّٰه أئِمَّةً يهدون بإذن اللّٰه تعالى للتَّوحيد والعبادة؛ بسبب صبرهم ويقينهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 588.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 347.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 569.

فائدةُ ذِكر فعل ﴿وَكَانُواْ﴾:

ديدنُ الصّابرين الثَّباتُ في دائرة اليقين

آثرَ النَّظم الكريم ذِكْرَ فِعْلِ ﴿وَكَانُواْ﴾، فلم يقل: (لما صبروا وأيقنوا)؛ وذلك للدِّلالة على الاستمرار[1]، وبيان أنَّ يقينهم بالله تعالى ديدنُهم وحالُهم المُتَجَدِّدَة، فهي تشير إلى "اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرُّض للانقطاع كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها ترادفُ لم يزل"[2]؛ لبيان استمرارهم في العمل الدائم مع اليقين الذي لا ينتهي.

دلالةُ الباء السَّببيَّة:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ سببيَّةٌ، فإنَّ الآيات هي المُعينة على اليقين الحقِّ، وهو ما يُميِّز الدين الحنيف في جميع الشرائع السَّماوية، فيقينهم بسبب الأدِلَّة لا بسبب التقليد.

تعيينُ المراد بلفظ الآيات:

الآياتُ الـواردة في الـتَّـوراة وما فيها مِـن دلائـلَ وحُجَجٍ

الآيات في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ هي ما في التَّوراة مِن الشرائع والمواعظ، وإطلاق لفظ الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات؛ لأنَّها معجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر، فكانت دلالات على صِدق محمَّد ﷺ، وهذا نحو ما وقع في حديث رجم اليهوديَّين من قول الراوي: فوضع اليهودي يده على آية الرجم، أي: الكلام الذي فيه حكم الرجم في التوراة، فسمّاه الراوي آية مشاكلة لكلام القرآن، وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله ﷺ بأنَّهم يكونون أئمَّة لدين الإسلام وهداة للمسلمين؛ إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم، وصبروا على مشاقِّ التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 239.

(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 100.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 238.

تعظيمُ الآيات وتفخيمها وتشريف الموقنين بها

نكتةُ جمع الآيات وإضافتها إلى ضمير العظمة:

أُضيف لفظ الآيات إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ لتشريفها وتعظيمها وتفخيم شأنها، كما أنَّ الشَّيء الذي يوقن به، ويثبت عليه هو عظيمٌ شريفٌ، وللدَّلالة على كمالها لنسبتها إلى الرَّبِّ ﷻ، وجمع الآيات يستلزم العظمة والقدرة الباهرة والمدح والتكريم لهؤلاء الأئمَّة الذين يؤمنون بالآيات كلِّها، فكان في الجمع إيذانٌ برضا اللّه عنهم ليقينهم.

إظهارُ العناية والاهتمام بشأن الآيات

غرضُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّمت شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للاهتمام بشأن الآيات[1]، وللإشعار بأهمّيَّة آيات اللّه في حياة البشر، وبقيمتها العظيمة في رحلة امتحانهم، فالإيقانُ بها هو الذي يُصَحِّحُ مسيرتهم، ويُقوِّمُ سلوكهم، وليس الغرض حصرَ الإيقان بها، فأركان الإيمان التي يجب الإيقان بها لا تقتصر على آيات اللّه[2]، بالإضافة لذلك فالتقديم يحقِّق غرضًا صوتيًّا، وهو المحافظة على رؤوس الآي.

الدِّين رأسُ الأمر وجناحاه الصَّبر واليقين

علَّةُ اقتران الصَّبر باليقين:

اقترن ذكرُ الصبر باليقين في قوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾، والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية اللّهِ عَبْدَهُ إلى أصول الدين، والمراد بالصَّبر: العمل بمقتضى اليقين؛ إذِ النَّفس تعرف أنَّ المعصية ضارَّة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلّا بالصبر؛ فيكون الصبر نصفَ الإيمان لهذا الاعتبار[3].

دلالةُ استعمال لفظ ﴿يُوقِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

جاء التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للدِّلالة على دوام اليقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 238.

(2) عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 1/ 385.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 399.

إذا دقَّ الفهم ورجح العمل؛ ثبت اليقين ونال به صاحبه المدح

واستمراريَّته في سلوك أولئك الأئمَّة، مع ما في انتقاء مفردة اليقين من المدح لهم، فاليَقينُ من صفات العلم التي هي فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، فيُقال: علم يَقينٍ، ولا يُقال: معرفة يَقينٍ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[1]، ففي التَّعبير بالفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾ دليل على العراقة في الفهم والمعرفة والثبات على الحقِّ، واليقين الجازم بأنَّهم على الحقِّ الذي لا يحوم حوله باطلٌ، وبأنَّهم مُتَّبِعون لشريعة اللّه تعالى التي لا يضلُّ مَنِ اتَّبعها وسار على نهجها[2].

(1) الراغب، المفردات: (يقن).

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 156.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٢٥﴾ [السجدة: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد إجمال الحديث عن أهل الهدى تَحسُنُ الإشارة إلى المخالفين

لمّا ذكرتِ الآية السابقة وجود أئمَّة هدًى في بني إسرائيل؛ عُلِم أنَّ هناك من خالف هؤلاء الأئمَّة، وهذا ممّا جرت به عادة البشر من وجود فريق الحقِّ والضَّلال، فناسب ذكر الحكم بين الفريقين، فذكرت الآية أنَّ الله ﷻ هو من يفصل بين أهل الحقِّ وأهل الباطل يوم القيامة، وليس الأمر بالضَّرورة أن يكون في الدُّنيا، سواء قلنا بين بني إسرائيل على ما يقتضيه خصوص السياق، أو بين عموم البشر على ما تقتضيه دلالةُ العموم، ويدخل بنو إسرائيل دخولًا أوّليًّا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡصِلُ﴾: (فصل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز الشَّيء مِنَ الشَّيء وإبانته عنه، يُقال: فصلت الشَّيء فصلًا[1]، والفَصْلُ: إبانة أحد الشَّيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، ويُستعمل ذلك في الأفعال والأقوال نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾ [الدخان: 40]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصافات: 21]، أي: اليوم الذي يبيِّن الحقَّ مِنَ الباطل، ويَفْصِلُ بين الناس بالحكم[2]، وهو المقصود في الآية.

المَعنى الإجماليُّ:

يوم الفصل لا ظلم ولا هزل

تُخاطب الآية الكريمة رسول الله ﷺ، مخبرةً عمّا سيكون بين فريقَي الهدى والضلالة يوم القيامة مِنَ الحكم بين الناس، وبيان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(2) الراغب، المفردات: (فصل).

مآل الاختلاف الذي كان بينهم في الدُّنيا، فيُميَّز بين المحقِّ والمبطل يوم القيامة، ويجازي كلًّا بما يستحقُّ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين والبعث والثواب والعقاب(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

وجودُ الاختلاف بين أتباع النَّبيّين سنة اجتماعية

فُصِلَتِ الآية الكريمة عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يُثير سؤالًا في نفس السامع من المؤمنين الذين سمعوا الآية السّابقة، فما حال بقيَّة بني إسرائيل، هل كانوا مهتدين، أو كان فيهم أئمَّة ضلالة؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بما سيكون بين الفريقين في الآخرة.

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات:

الاختلافُ في مسائلِ الهدى والضَّلال مؤذِّنٌ للفصلِ يومَ القيامة

جاءت الآيةُ الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مؤكَّدة بعدد من المؤكِّدات، وهي: ﴿إِنَّ﴾، وضمير الفصل، واسميَّة الجملة، وفائدة ذلك تحقيق الأمر في نفوس المخاطَبين، وأنَّ الاختلاف بينهم له أثره البالغ المترتِّب عليه حكمٌ فاصل، مع زيادة تثبيت القصَّة والحكم بأنَّ الله بيده الفصل والحكم بين أفراد بني إسرائيل الذين ضلّوا، وحادوا عن طريق الحقِّ، وفيه تثبيت ليقين المؤمنين ببيان أهل الصدق من أهل الكذب.

غرضُ اختيار عنوان الرُّبوبيَّة:

الفصل بين العباد من مقتضيات الرُّبوبيَّة

آثر النَّظمُ الكريم اختيارَ عنوان الربوبية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ لأنَّ الاعتناء والكلاءة وكمال الاهتمام من مقتضيات الربوبيَّة، فكان ذكر الرَّبِّ هو الأنسب،

(1) الصابوني، صفوة التفاسير: 2/ 465.

إضافة إلى أنَّ الرَّبَّ هو المحسن للنَّبيِّ بإيصاءِ الأنبياء به، فوصفه في كُتُبهم، وجعله صاحب لواء الحمد يوم القيامة[1]، وقد جاء لفظ الرَّبِّ في السورة سبع مَرّات، وهو سببٌ رئيس في إيثار التَّعبير بالربوبيَّة، أمّا لفظ الجلالة (الله)؛ فلم يرد في السورة على مدارها إلّا مَرَّةً واحدة.

كرامةُ النَّبيِّ حاضرةٌ في خطابٍ مستمرٍّ إلى يوم القيامة

غرضُ إضافة لفظ الرُّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

أُضيف لفظُ الربوبية إلى ضمير المخاطَب المرادِ به النَّبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لغرض تكريم الرَّسول ﷺ وتشريفه، فالمضاف يكتسب كرامته ممّا أُضيف إليه، وفي كاف الخطاب دلالة على أنَّ رَبَّه هو الذي علَّمه، وأعلمه ما كان في الأمم السابقة، ويحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمَّته: تحذيرًا وإيماءً إلى وجوب تجنُّب الاختلاف الذي لا يدعو إليه داعٍ في مصلحة الأمَّة وفهْم الدين[2].

اختصاصُ الله ﷻ بالقضاء بين البشر مع قطع معذرتهم

غرضُ القصر بضمير الفصل:

جاء ذِكرُ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ للقصر بغرض التَّخصيص والتَّأكيد وبيان أنَّ الفصل في يوم القيامة ليس إلّا إليه وحده، ولا يقدر عليه أحدٌ سواه، ولا يُفوَّض إلى مَن عداه[3]، وفي هذا دليل على أنَّه هو وحده الحاكم يوم القيامة لا شريك له؛ إيماءً إلى أنَّ ما يُذكر في القرآن من بيان بعض ما اختلفوا فيه على أنبيائهم ليس مطموعًا منه أن يرتدعوا عن اختلافهم، وإنَّما هو للتسجيل عليهم وقطع معذرتهم؛ لأنَّهم لا يقبلون الحجَّة فلا يُفصل بينهم إلّا يوم القيامة[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 238.
(3) إسماعيل حقي، روح المعاني: 7/ 127.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 238.

بلاغةُ استعمال مفردة الفصل:

كثرةُ دلالات فعل الفصل من قطع وتنحية ومطاوعة ومباعدة

جاء اختيار فعل ﴿يَفۡصِلُ﴾ دون (يقضي) - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ - للدِّلالة على القطع والتنحية وكونه حاجزًا بين الشَّيئين[1]، وهذا دالٌّ على قوَّة الحسم، والعدالة المطلقة من قِبَل الله ﷻ، كما أنَّ الفعل فيه معنى المطاوعة مع اقترانه بمطاوعه، فإنَّه يُقال: فصلته، فانفصل[2]، ففيه مع القوَّة والجزالة اليسرُ والسهولةُ بالنِّسبة للّه ﷻ، فإذا فصل بين العباد فُصل بأيسر الأمور، مع ما فيه من المباعدة والتفريق بين المتخاصمين، يُقال: فصل الشَّيْء عَن غَيره فصلًا، أي: أبعده[3]، فلأجل هذه الدِّلالات والمعاني جيء بهذه المفردة دون رديفاتها.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

أولى الأقوال في القبول العمومُ ويدخل فيه ما دلَّ عليه السّياق

يحتمل مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أن يعود على الأنبياء وأُممهم، أو على المؤمنين والمشركين[4] عامَّةً، ويجوز أن يعود الضمير هنا على أهل الصلاح وأهل الضلال من بني إسرائيل بدلالة السياق القرآني، وتعدُّد المرجع يُعطي اتِّساعًا في الفهم، والتركيب يحتمل تلك الاحتمالات، وأولاها في القبول العموم؛ لدخول البقيَّة فيه، والسياق وإن كان لدلالته حضور، فإنَّ للعموم قبولًا لا يُتغاضى عنه.

توجيهُ تخصيص اسم القيامة بالذِّكر:

القيامةُ هو الاسم العلم الأشهر على يوم الفصل والجزاء

آثر النظم الكريم اختيارَ اسم يوم القيامة بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، دون البعث والجزاء والحساب والفصل والتغابن؛ وذلك لأنَّ اسم القيامة هو الاسم العلم الأشهر

---

(1) ابن سيده، المحكم: (فصل).
(2) الجوهري، مختار الصحاح: (فصل).
(3) المعجم الوسيط: (فصل).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 87.

على ذلك اليوم، ودلَّ فعل ﴿يَفۡصِلُ﴾ على غاية الخبر وفائدته، فكان ذِكرُ القيامة مناديًا على جميع المنتسبين للرِّسالات الإلهيَّة، ورادًّا على المنكرين للبعث مِنَ المشركين.

دلالةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

الإحاطة الشاملة بأفعال العباد دقيقها وجليلها

استُعمل حرف الظرفية في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للدِّلالة على العموم والشمول للذي كان يختلف فيه المختلفون، فيشتمل على جميع الاختلافات ما دقَّ منها وما جلَّ، مع الإحاطة الشاملة بكلِّ أفعال العباد؛ ليجازي كلًّا بما صنع، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، فكان في حرف الظرفية إشارةٌ إلى سَعة علم اللّه تعالى، وعدله المطلق.

بلاغةُ اختيار الاسم الموصول (ما):

كثرةُ اختلافهم واتِّساعه في جميع المجالات

جاء استعمال الاسم الموصول (ما) دون (الذي) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُوٓاْ﴾؛ لأنَّه أعمُّ وأشمل، حتى قال النُّحاة: إنَّه يقع على كلِّ شيء، ويقع على ما ليس بشيء؛ لأنَّه اسم مبهمٌ شديد الإبهام[1]، وهو دالٌّ على استيعابه لكلِّ ما اختلفوا فيه، وكأنَّهم ما وُجِدوا إلّا ليُحدِثوا اختلافًا فيما بينهم، فعموميَّة (ما) دالَّةٌ على عموميَّة اختلافاتهم وكثرتها؛ بدلالة الفعلين ﴿كَانُوٓاْ﴾، و﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ الدّالَّين على الاستمرار؛ لذا كان استعمال (ما) أدقَّ مِن (الذي).

غرضُ تقديم شبه الجملة:

العنايةُ ببيان سبب الفصل ورعاية الفواصل

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الفعل في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، فلم يقل: (فيما كانوا يختلفون فيه)؛ للاهتمام والتخصيص، فإنَّ ذِكر المختلف فيه ملحوظٌ فيه التَّنبيه على سبب الفصل، فما حُكِم بينهم إلّا بسبب وجود عِلَّة الاختلاف، مع مراعاة الفاصلة، فهما غرضان، أحدهما دلاليٌّ، والآخر لفظيٌّ.

(1) السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 139.

المختلفون مواقفهم شديدةُ التَّباين بقصدٍ وثبات

نكتةُ استعمال مفردة الاختلاف مادَّةً وصيغةً:

جاء استعمال فعل ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ دون (يختصمون)، ونحو ذلك من الأفعال الرديفة؛ وذلك لأنَّ الاختلاف أعمُّ الأفعال في هذا الباب، فيدخل فيه التخاصم والتجادل والمماراة والشِّقاق، ويُومئ فعل الاختلاف إلى تباين المواقف؛ لأنَّ الاختلاف أن يأخذ كلٌّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله[1]، وهذا سبيل المختلفين من المؤمنين والكافرين، لكلٍّ طريقه الذين يسلكه، ولمّا كان الاختلافُ بين الناس في القول قد يقتضي التَّنازع؛ استُعير ذلك للمنازعة والمجادلة[2]، وجاء فعل (اختلف) على وزن (افتعل)، وهذه الصيغة دالَّة على العمل تلو العمل، والاكتساب والتَّصرُّف، ففيه قصديَّة بالتقابل الشَّديد بين رأيين لمحاولة تغلُّب كلٍّ منهما على مخالفه، والفعل المضارع يُفضي إلى الاستمرار في الخلاف والدوام مع ما فيه مع استحضار صورة كلِّ فريق يخالف الآخر.

---

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (خلف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (خلف).

﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾ [السجدة: 26]

تأمُّل أحداث الماضي يقود إلى الإيمان الصادق بالقادم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة حال المعرضين عن ذكر اللّه تعالى، وأنَّهم أصبحوا في الدُّنيا سرابًا لا وجود لهم ولا حضور، ثمَّ ذكرت أمر الفصل بين المختلفين يوم القيامة؛ ناسب أن يذكر حال القرون الأولى التي أُهلكت، وأصبحت أثرًا بعد عين، وآيةً وعِبرةً لمن كان في قلبه إيمانٌ ويقينٌ؛ لتكون محرِّكًا للإيمان، ومهمازًا نحو الخير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِ﴾: (هدي) أصلٌ يَدُلُّ على التَّقدُّم للإرشاد، والهداية: دلالةٌ بلُطف، والهادي: الدليل؛ لأنَّه يَقْدُم القوم نحو وجهتهم ليدلَّهم، وهَداه: تقدَّمه، ثمَّ منه الهدى: الرَّشاد، والدَّلالة ضدُّ الضلال، والجمهورُ الأعظَمُ مِمّا في القرآن من هذه المادَّة هو بمعنى التَّوجيه إلى سبيل الرُّشد خاصَّةً (دون الغيِّ) سواء ذُكِر المهديُّ إليه أم لم يُذكر، ومعنى الآية: (أو لم يتقدَّم أمامَهم، ويعرفوا أنَّ مَن قبلهم هلكوا بتَمَرُّدِهم على اللّه، فيتبيَّنوا أنَّ الرُّشد والنَّجاة إنَّما هي في الإسلام للّه)[1].

2) ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: (قرن) أصلٌ يدُلّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، والقَرْن هم القوم المقترنون في زمن واحد[2]، والأُمَّة تأتي بعد الأمَّة، جيلٌ ينشأ بعد جيلٍ كأنَّها دفعة من الناس خارجة أو ناشئة بعد دفعة[3]، والقَرْنُ: مِثلك في السِّنِّ، تقول: هو على قَرْني، أي: على سنّي، والقَرْنُ من الناس: أهلُ زمانٍ واحدٍ، قال:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (هدى).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (قرن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرن).

إذا ذهب القَرْنُ الذي أنت فيهمُ *** وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنت غريبُ[1]

والمقصود به في الآية: هي الأمم الماضية التي كذَّبت أقوامها، فأهلكها اللّه تعالى بما وعدها به من العذاب الماحق.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا انطمست البصائر؛ سُدَّت الأبصار

تتكلَّم الآيةُ الكريمة عن كُفّار قريش الذين لم يتبيَّنوا حال الأمم المهلَكة، ممّا يرونه مِن آثارهم الغابرة، ومساكنهم الدارسة، أي: أغفَلَ هؤلاء المشركون عمّا أصاب الظالمين من قبلهم، ولم يتبيَّن لهم - لانطماس بصائرهم - أنَّ اللّه قد أهلك كثيرًا مِن أهل الأزمان السّابقة مِن قبلهم؛ بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، وإيثارهم الكفر على الإيمان[2]، مع كثرة الآيات المرسلة إليهم؟.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

الغفلةُ وعَدَمُ الإفاقة من الضَّلالة فاقّةٌ

افتُتِحت الآية القرآنية: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بهمزة الاستفهام؛ لغرض التقرير والإنكار، لتقرير كثرة الآيات المشاهدة والمحسوسة، مع إنكار إصرارهم على الكفر وعدم اهتدائهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب الاهتداء[3]، مع ما في الاستفهام من تسجيل أقسى أنواع الجهالة والعناد عليهم، وتهديد كفّار مكَّة بالعذاب المُهلِك كما فُعِل بقرنائهم مِن القرون السابقة.

تعيين المعطوف عليه وأثره في تكثير المعاني:

الإعراضُ والغفلةُ مقدمة انعدام الاهتداء وذهاب البصيرة

جاء حرف العطف الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ بين همزة الاستفهام وأداة النفي، وللمفسرين طريقتان في تعيين المعطوف عليه، فإمّا أن يكون المعطوف عليه مذكورًا في السياق السابق،

(1) الجوهري، الصحاح: (قرن).

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 157.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 157.

وهو هنا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾[1]، وإمّا أن يكون محذوفًا مقدَّرًا من ضدِّ المنفيِّ، فيكون التقدير: (أجهلوا، وضلوا، ولم يهدِ لهم)، وهما طريقتان مسلوكتان في كُتُب التفسير، وتقدير المحذوف هو الأليق بالإيجاز.

نكتةُ تعدية فعل الهداية باللام:

عُدّي فعلُ ﴿يَهْدِ﴾ باللّام؛ ليتضمَّن معنى التَّبيين والإرشاد، فنُفي عنهم الهداية والتبيُّن والرشاد، وجعل ذلك متأصِّلًا فيهم، فلم يهدِ لهم؛ لأنَّهم غير متفكِّرين، ولا متدبِّرين.

عِلَّةُ حذف المفعول:

حُذِفَ مفعول فعل ﴿يَهْدِ﴾؛ ليكون الاهتمام مُنصَبًّا على فعل الهداية، ولتنزيل فعل ﴿يَهْدِ﴾ منزلة الفعل اللازم، فهو من قبيل (فلان يعطي)، في أنَّ المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول[2].

بلاغةُ إسناد فعل الإهلاك إلى الضَّمير:

قوّةُ التَّهديد الشديد ناشئةٌ عن مصدر الإهلاك والوعيد

أُسند فعل الإهلاك إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ وذلك لبيان عظمة هذا الفعل وفخامة وقعه، وشِدَّة سطوته، بغرض زيادة الترهيب والوعيد، مع مناسبة ضمير العظمة لكثرة القرون المُهلَكة، ويدلُّ على ذلك قرينة ﴿كَمْ﴾ الدالَّة على الكثرة مع جمع لفظة ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الدالَّة على التماهي في الكثرة، فكانت ألفاظ الآية مُرَشِّحَةً لمعنى الإهلاك المحاط بالوعيد الشديد، مع المناسبة بين الضمائر الدالَّة على العظمة المذكورة في السياق من مثل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾، و﴿ءَاتَيْنَا﴾، و﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾، فكان التَّناسب حاصلًا بين الضَّمائر في الآيات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 239.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 136.

دلالةُ دخول ﴿مِن﴾ على الظَّرف:

قربُ حلول العذاب ونزول الإهلاك

دَلَّ حرف ﴿مِن﴾ على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾، أي: إنَّ الإهلاك قد بدأ من قَبْل المخاطَبين، وفي دخول حرف ابتداء الغاية على الظرف المضاف إلى الضمير العائد على المعرِضين المُكَذِّبين، تلويحٌ بنزول الإهلاك وتحقُّق العذاب، أي: إنَّ الإهلاك قد بدأ من قبلهم ولا مانع أن يصلهم قريبًا، لاسيَّما مع تقدُّم قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾.

نكتةُ تقديم الظَّرف:

قُدِّم الظرف ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾؛ للتخويف والترهيب بأنَّ مصير المشركين سيكون كمصير القرون السابقة، مع إدخال العظة والعبرة في قلوبهم؛ طمعًا في الاستجابة والإنابة.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ومعناها:

ذِكرُ القرون السابقة إجمالًا وتفصيلًا لتحذير الكفار وترهيبهم

يحتمل أن يكون حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ دالًّا على بيان الجنس، فيدخل فيه جميع القرون باعتبار ما وصلهم من أخبار بعض الأمم المُهلَكة، وفيه تحذيرٌ وترهيبٌ لكلِّ كافر على مدار الزمن من عاقبة الكفر، وفيه تخويفٌ لكفّار مكَّة؛ لأنَّ كفرهم سيجعلهم أهلًا لهذا الإهلاك، وقد تكون ﴿مِّنَ﴾ زائدة جارَّة لمميِّز ﴿كَمۡ﴾ الخبرية لوقوع الفصل بينها وبين مميّزها فإن ذلك يوجب جره بـ (من)[1].

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾:

التَّهديد بالإيماء قياسًا على القرون السّابقة

القرن هم القوم المقترنون في زمان واحد، فالمدَّة التي يجتمع فيها قوم، ثم يفترقون بالموت هي قرن؛ لأنَّ الذين يأتون بعدهم أقوام آخرون اقترنوا اقترانًا آخر، فهُم قرن آخر، ولمّا كان أعمار الناس في الأكثر الستين والسبعين والثمانين - لا جرم - قيل: القرن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 137.

هو الستون، أو السبعون، أو الثمانون، والتحقيق أنَّ المرادَ به أهل كلِّ عصر، فإذا انقضى منهم الأكثر؛ قيل: قد انقضى القرن، وفي اختيار هذه اللفظة وجمعها، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تعريضٌ بما اجتمع عليه المشركون وقت نزول الوحي، فإنَّ اقترانهم واجتماعهم على التَّكذيب لا يُكسبهم قوَّة النَّجاة، فكان ذكر هذا اللفظ دون مرادفاته فيه تهديدٌ ووعيدٌ ضِمنيٌّ، كأنَّه قيل لهم: لا تغترّوا بما اجتمعتم عليه، فمصيركم مصير القرون الأولى.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

احتمال عود الضَّمير على أهل مكَّة أو الأمم المُهلَكة

يحتمل عودُ الضمير في فعل ﴿يَمْشُونَ﴾ للمخاطَبين، وهم أهل مَكَّة؛ تنبيهًا لهم وإقامةً للحجَّة عليهم، فهم يمشون في مساكن المُهلَكين، ويُشاهدون آثارهم، وهو ما يقتضيه الظَّاهر، ويحتمل أن يكون للمهلَكين من عاد وثمود وقوم لوط، ففعل ﴿يَمْشُونَ﴾ كون في موضع الحال، أي: أُهلكوا وهم ماشون في مساكنهم[1]، آمنون متصرِّفون في مساكنهم، لم يمنعهم عن التمتُّع والتصرُّف مانعٌ من مرض ولا غيره، فجاءهم الإهلاك بغتةً على حين غفلةٍ منهم به[2].

دلالةُ تعدية فعل المشي بحرف الظَّرفيَّة:

توبيخُ أهل مَكَّة وتقريعهم لِتَأمُّلِهم آثارَ الإهلاك

تعدَّى فعلُ المشي في قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ بحرف الظرفيَّة، والظرفيَّة تَمَكُّنٌ وإيغالٌ وتعمُّق، فإذا حملنا عود الضَّمير على أهل مكَّة؛ دلَّ ذلك على أنَّهم يعرفون تلك المساكن، وقد تأمَّلوها، وعرفوا آثارها، وتفكَّروا في كيفيَّة نزول العذاب فيها، فكانوا يمشون متأمِّلين فيها، لا مسرعين منها، ففيه إقامة للحجَّة عليهم، وتأنيبهم وتقريعهم في عنادهم وإعراضهم.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 365.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 395.

عود الضَّمير على القرون كنايةٌ عن شِدَّة الغفلة

وإذا حملنا عود الضَّمير على القرون الأولى؛ فإنَّ حرف الظرفيَّة يدلُّ على أنَّهم كانوا يمشون في مساكنهم، وقد أحاطت بهم الغفلة، فلم يُبصروا إلّا مساكنهم وما فيها من متاع، فهي كناية عن شدَّة الغفلة، فهي تعريض بأهل مكة لمشابهتهم لهم في ذلك.

بلاغةُ استعمال مفردة المسكن:

الجمعُ بين معنَيَي السكون والتَّملُّك لما في فقدهما من شديد الوعيد

آثر النَّظمُ الكريم استعمال لفظ المساكن في قوله تعالى: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾؛ لجمعِ مَعْنَيَين موجودَين في لفظَي (البيت والمنزل)، وللإشارة إلى شدَّة الهول ووقع الصَّدمة؛ لأنَّ لفظة (مساكن) دالَّةٌ على السكون والهدوء والتملُّك؛ لأنَّ المسكن دارٌ بغير أجرة[1]، وعليه فإنَّ الإهلاك أشدُّ وطأةً، وأكثرُ كُلفةً، وهذا اللفظ يناسب بلاغة العرب الفاقهين لغة القرآن، فجاء اللَّفظ مزلزلًا هامِسًا بأهمّيَّة التَّمسُّك بالهدى والبُعد عن الكفر والضَّلال؛ لئلّا يقع عليهم ما يُزيلهم من الوجود، مع فقد رجاء النَّجاة.

نكتةُ فصل جملة التذييل:

آثارُ السابقين دلائلُ وآياتٌ مُرشِدَةٌ للإيمان

بَيْنَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾، وما قبلها ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾، كمالُ انقطاعٍ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، ونكتة الفصل بيانُ أنَّ ما ذُكِرَ هو آياتٌ ودلائِلُ عظيمةٌ مِن اللّه ﷻ، فما ذُكر السابقون ولا ذُكِرَت آثارُهم إلّا لتكونَ آية الآيات، فيتَّعظ منها المشركون المعاصرون لرسول اللّه ﷺ.

نكتةُ توالي المؤكِّدات:

مُنكِرُ الآيات المشاهَدة فاقِدٌ للنَّظر الصحيح والعقل الصريح

توالت المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾ بالجملة الاسميَّة، و﴿إِنَّ﴾، واللام المزحلقة المؤكِّدة، وفائدة التوكيدِ تحريكُ القلوب المُنكِرَة، وهزُّ العقول الجامدة، فإنَّ مَن ينكر تلك الآيات المشاهدة فاقدٌ للعقل والقلب معًا، مع إظهار ثبات الآيات وكثرتها،

(1) الراغب، المفردات: (سكن).

وهذا فيه التذكير والإرشاد، ويضاف إلى ما سبق أنَّ التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾ بمنزلة إعادة الجملة مَرَّتَين[1]، فبدلًا مِن تَكرار الجملة مَرَّتَين مِن دون توكيدٍ جاءت مَرَّةً واحِدَةً بالتوكيد، فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍۚ﴾، فحمل التَّوكيد هنا دلالة الإيجاز.

دلالةُ دخول حرف الظرفيَّة على اسم الإشارة:

اسم الإشارة استجمع العِبَر والدلالات والعظات مِن قصص السّابقين

حرف الظرفيَّة الداخل على اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍۚ﴾ دليلٌ على طلب النَّظر في آثارهم وضرورة التأمُّل والاعتبار، واسم الإشارة للبعيد يُشير إلى وضوح تلك الآيات، فهي في مكان عالٍ بعيد يراه الجميع، ولا يخفى على أحد، وتكمن بلاغة إدخال حرف الظرفيَّة على اسم الإشارة في بيان أنَّ اسم الإشارة قد استجمع جميع العِبَرِ والدلالات على أنَّ الإهلاك قد يقع عند الإصرار على الإعراض، فالنَّظر فيما دلَّ عليه اسم الإشارة.

علَّةُ تقديم شبه الجملة:

العنايةُ بالخبر موضع الفائدة

قُدِّم ذِكرُ شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم إنَّ (آيات)؛ لدخول اللام المزحلقة عليها، فلا يُقال: (إنَّ لآياتٍ في ذلك)، بينما يقال: (إنَّ آياتٍ في ذلك)، هذا من الجانب النحويِّ، أمّا الجانب البلاغي؛ فالتقديم للاهتمام والعناية بذكر العِبَرِ مِن سير السابقين وآثارهم وما آلت إليه أخبارهم.

نكتةُ جمع لفظ ﴿لَآيَٰتٍۚ﴾:

كثرةُ الآيات دليل الرَّحمة وبرهان الهداية

جُمِعَ لفظ الآيات، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍۚ﴾؛ لبيان الكثرة الكاثرة مِنَ الآيات المتنوِّعة، فالآية ليست واحدة، وإنَّما متعدِّدة؛ لتناسب كُلَّ عقل وفهم، فكان الجمع مستوعبًا لعقل كلِّ مَن يعقل، وفهم كُلِّ من يفهم، ففي ذلك مراعاةٌ لجانب الهداية، وبيان

---

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 402.

رحمة اللّه تعالى في عباده المعرضين، كما أنَّ الجمع يُناسب القرون والمساكن[1]، فالجمع يقابل الجمع.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٍۚ﴾:

نُكِّرت الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾؛ لتعظيم الآيات وبيان فخامة شأنها، ولبيان مَنزِلتها، مع الإمهال والترك لوقت طويل من إنزال الآيات تترى؛ عَلَّهم يرجعون إلى الجادَّة.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

تبكيتُ المشركين بعد تقريرهم لتحريك الهداية في القلوب

جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ استفهامًا تقريريًّا مشوبًا بالتَّوبيخ؛ لأنَّ اجتلاب المضارع، وهو فعل ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ مُؤْذِنٌ بأنَّ استماع أخبار تلك الأمم متكرِّرٌ متجدِّدٌ، فيكون التَّوبيخ على الإقرار المستفهم عنه أوقع[2]، ففيه زيادة في تبكيتهم وتقريعهم[3]، مع إظهار غفلتهم ونسيانهم، وبيان موضع التَّقصير منهم بعدم العظة والاعتبار، وفيه حضٌّ لهم على الاستماع إلى الآيات الدالَّة على سوء عاقبة الظالمين، بتدبُّرٍ وتعقُّلٍ واتِّعاظٍ، وتحوُّلٍ من الباطل إلى الحقِّ، قبل أن يحِلَّ بهم ما حَلَّ بأهل الأزمنة الغابرة[4].

معنى الفاء وتعيين المعطوف عليه:

شـدَّةُ الغافلين تُنزلهم منزلة الصُّمِّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، إمّا أن تكون عاطفة على محذوف، والتقدير: (أغَفَلوا هذا فلا يسمعون؟)[5]، أو: (أصَمُّوا فلا يسمعون؟)، وإمّا على الاستئناف، أي: (ألا يسمعون بعدما أوضحتُه من الدلائل الظاهرة المقتضية لشرعة السماع والاستجابة؟) إشارةً إلى أنَّ ما صنعوه ناشِئٌ عن الغفلة والاستكبار عن سماع الحقِّ.

---

(1) النيسابوري، تفسير النيسابوري: 5/ 440.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 239.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 157.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 157.
(5) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 586.

الجمع بين حاسَّتي النَّظر والسَّمع للحضِّ على الاهتداء

بلاغةُ التَّصدير الأسلوبي:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ مناسبة بين صدر الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ وفاصلتها: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، وذلك بأسلوب الاستفهام المتضمِّنِ الحَضَّ على طلب الهداية بالنَّظر والسَّماع، فبدأت بالإشارة إلى النَّظر، فإنَّ التَّبيُّن ممّا وقع للقرون السابقة في آثارهم يكون بحاسَّة البصر، وخُتِمت بالتَّصريح بحاسَّة السَّمع، للحضِّ على حسن التَّأمُّل والتَّفكُّر، فحصل التَّناسب بين الصدر والفاصلة في الأسلوب، واستجماع الحواسِّ الحاضَّة على الاهتداء.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيان والهدى:

البيانُ إظهار المعنى للنَّفس كائنًا ما كان، فهو في الحقيقة مِن قبيل القول، والهدى بيان طريق الرُّشد؛ ليُسلك دون طريق الغيِّ، هذا إذا أُطلِق، فإذا قُيِّد؛ استُعمل في غيره، كقوله: (هدى إلى النار) مثلًا[1].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 109.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾ [السجدة: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من الـتَّرهـيـب إلى الـترغـيـب ومـن الدليل السَّمعي إلى الـدلـيـل المشاهد

لمّا ذكرتِ الآية السّابقة إهلاك القرون المكذِّبة، وهذا فيه ترهيب ووعيد ظاهر؛ ناسب الانتقال إلى التَّرغيب، فذكر في هذه الآية سَوقَ الماء إلى الأرض الجرز؛ لإحيائها وإخراج الزَّرع للنّاس؛ رحمةً بالخلق، ولمّا ذكر في الآية السابقة الإنكار على المشركين عدم سماعهم؛ ناسب الانتقال إلى إنكار عدم إبصارهم ما تُخرِجُه الأرض من الخيرات التي يأكلون منها، ففي المناسبة انتقالان، مِنَ التَّرهيب إلى الترغيب، ومن إنكار عدم سماع أخبار الأمم السابقة، إلى إنكار عدم إبصار المشاهدات الواضحة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُوقُ﴾: (سوق) أصلٌ واحِدٌ وهو حَدْوُ الشيء، يُقال: ساقه يسوقه سوقًا[1]، والمعنى: الدفع إلى الأمام أو إلى أعلى بقُوَّة، فَسَوقُ الإبلِ ونحوِها هو حثٌّ وحَملٌ على الإسراع[2]، فهو تتابع الأشياء حتى تصل إلى غايتها المرادة، والمراد في الآية سَوق الماء حتى يصل إلى غايته المقصودة لإحياء الأرض الموات.

2) ﴿ٱلۡجُرُزِ﴾: (جرز) أصْلٌ واحدٌ، وهو القَطْعُ، يقال: جَرَزْتُ الشَّيءَ قطعْتُهُ[3]، يُقال: أرض جُرُز: لم يُصبها مطرٌ، والجمع أجراز[4]، وقيل: الجُرُز أن تكون الأرض لا نبات فيها، كأنَّها تأكل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سوق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرز).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جرز).

النَّبت أكلًا[1]، وفي الكلمة أربع لغات: جُرُز، وجُرْز، وجَرْز، وجَرَز[2]، فالمقصود بالجرز في الآية: الأرضُ المقطوعةُ عن الماء والنَّبات، فلا نبات فيها ولا حياة.

3) ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾: (نعم) أصلٌ يدلُّ على رِقَّة الشيء وليونته وخلوِّه من الغِلَظ والخشونة، والنَّعَمُ (وجمعه أنعامٌ): الإبل والبَقر والغنم، لطراوة عيش صاحبها بها، ولِحِلِّ لحومها وألبانها، ومنافعِ أصوافها وأوبارها وجلوده[3]، ويُقال: إنَّ العرب إذا أفردت النَّعَمَ؛ لم يريدوا بها إلّا الإبل، فإذا قالوا الأنعام؛ أرادوا بها الإبل والبقر والغنم[4]، وهو المراد في الآية.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

سَـــوقُ المـــاء لإخـراج النَّبات دلـيـل رحـمـةٍ وبرهانُ نعمةٍ

تنكر الآية الكريمة على المشركين عدم تفكُّرهم في خلق اللّه ﷻ، وما أوجده من آيات ودلائل كونيَّة تدُلُّ على رحمته وحكمته، وأنَّه الخالق ﷻ، الذي يخضع له العباد، وتنحني له الرقاب، فتُبَيِّن الآية الكريمة آيةً كونيَّةً، وهي سَوقُ الماء من مكان إلى آخر لا ماء فيه ولا نبات، مقطوع عن الحياة، فيُخرج اللّه به الزَّرع؛ لينتفع منه العباد وأنعامهم، بعد أن كانوا مُجدِبين، ففي الآية دليلٌ على البعث، وبرهانٌ على الرَّحمة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

عـنـد جـحـود الإنعام الواضح يـقـع الإنـكـار الفاضح

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾، غرضه: التقرير والإنكار، تقريرٌ لكثرة النِّعم التي أسبغها

(1) الهروي، تهذيب اللغة: (جرز).
(2) ابن سيده، المحكم: (جرز).
(3) ابن سيده، المحكم: (نعم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نعم).

اللّٰه عليهم، وإنكارٌ لعدم اهتدائهم بها إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب الاهتداء، وشديد احتياجهم إلى هذه النِّعمة عند وقوعها، فإذا زاد الاحتياج إلى نعمة اللّٰه تعالى، واشتدَّ، ثمَّ جاءت النِّعمة للإنقاذ من موتٍ مُهلِك، كان المتوقَّع الشُّكر، لا الازدياد كفرًا وعنادًا، فهذا غاية الكفران، الذي يستحقُّ معه صاحبُه غايةَ النُّكران.

تعيينُ المعطوفِ عليه بين المذكور والمقدَّر:

التَّوبيخ المقترن بالتَّهكُّم أبلغ في الإنكار

جاء حرف الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بين همزة الاستفهام وأداة النفي، وللمفسِّرين طريقتان في تعيين المعطوف عليه، فإمّا أن يكون المعطوف عليه مذكورًا في السياق السابق، وهو هنا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾[1]، وإمّا أن يكون محذوفًا مُقَدَّرًا، والتَّقدير: (أعَمُوا، ولم يروا؟)، وتقدير المحذوف دالٌّ على أمرين: إثبات العمى لهم، ثمَّ نفي الرؤية عنهم، وهذا أبلغ في التَّوبيخ لما فيه من التَّهكُّم بهم.

نكتةُ استعمال حرف (لم) في النفي:

مناطُ الاستدلال علـى البعـث بالواقع المشاهد

اختار النظم الكريم حرف النَّفي (لم) دون (لا)، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾؛ لأنَّه دالٌّ على نفي ما مضى، لا ما يُستقبل، وهو الأنسب بغرض الاستفهام، فإنَّ الاستدلال نيط هنا بالرؤية؛ لأنَّ إحياء الأرض بعد موتها ثم إخراج النَّبت منها دلالة مشاهدة[2]، فوقع الاستفهام الإنكاريُّ عليهم فيما هو مُشاهد متحقَّق، وهو ما يُناسبه حرف النَّفي (لم).

نكتةُ استعمال فعل ﴿يَرَوۡاْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

ما تـراه الأعين أوقـعُ في الاستدلال ممّا يُسمع في الآذان

اختار النَّظم الكريم فِعْلَ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، والرؤية عِلْمٌ وزيادة، ففي الرؤية نظر بالبصر، وفي العلم نظر بالبصيرة، فكان الفعل ﴿يَرَوۡاْ﴾ أشمل من الفعل (يعلم)، وكأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.

الرائي "يعلم علمًا هو في ظهوره كالمحسوس بالبصر"[1]، والاستدلال بالرؤية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ نكتته: أنَّ إحياء الأرض بعد موتها، ثمَّ إخراج النَّبت منها دلالة مشاهدة[2]، فكان التَّعبير المناسب لذلك فعل ﴿يَرَوۡاْ﴾، مع دلالة المضارعة المنفيَّة بحرف (لم) على أهمّيَّة الرؤية لما شوهد، واستقرَّ في الأذهان، مع الإيماء إلى ضرورة استدامتها واستمرارها فيما هو قادم، وأنَّها يجب أن تكون رؤية تمعُّنٍ وتذكُّرٍ وعِظَةٍ وتعقُّلٍ، يُهتدى بها إلى قدرة الخالق ﷻ.

فائدةُ التَّوكيد وبلاغته:

الـشَّـكُّ فيما تـقـتـضـيـه الـواضـحـات كالشَّكِّ فيها

أُكِّدت الجملة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾، دون أن يقول: (أولم يروا سوقنا)؛ لإفادة قدرة الله تعالى المطلقة في سوق الماء، بما لا يدع مجالًا لإنكار منكرٍ وشكِّ شاكٍّ، كما أنَّ التَّوكيد بمنزلة تَكرار الجملة مرَّتين[3]، ولبيان أنَّ مثل هذا الأمر ثابتٌ في نفسه، واضحٌ للعيان، والشَّكُّ فيما يقتضيه كالشَّكِّ فيه.

نكتةُ إسنادِ فعلِ السَّوق إلى ضمير العظمة:

سَوق الماء عظيمٌ فـي مـقـصـده ومظهره

أُسنِدَ فعل ﴿نَسُوقُ﴾ إلى ضمير العظمة؛ لمناسبة الضَّمير قبله في ﴿أَنَّا﴾، ونون العظمة دالَّةٌ على فعلٍ عظيمٍ لا يستطيعه إلا الخالق ﷻ، وهو سَوقُ الماء من مكانٍ إلى مكانٍ، بغرضِ إحياء الأرض الموات، ليأكل منها النَّاس والأنعام، وفي هذا الإسناد تعظيمُ أمرِ سَوق الماء وتعظيم غايته ومقصده.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿نَسُوقُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سَـوق الـماءِ من آثار قيُّوميَّة الله تعالى على خلقه

دلَّ فعل ﴿نَسُوقُ﴾ على قيُّوميَّته تعالى على الخلق، في استمرارٍ وديمومةٍ لا تتعلَّق بزمنٍ دون زمنٍ، فدلَّ ذلك على تكريم الإنسان عامَّةً، ودلَّ المضارع على استحضار الصورة الباهرة الدالَّة على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 177.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.
(3) الزركشي، البرهان: 2/ 402.

القدرة المطلقة[1]، وفي فعل السَّوق تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ، فسَوقُه الماءَ إلى الأرض هو سَوق السحاب الحاملة إيّاه بالرّياح التي تنقل السحاب من جوٍّ إلى جوٍّ، فشُبِّهت هيئة الرياح والسحاب بهيئة السائق للدّابَّة[2].

بلاغةُ اجتماعِ المجاز والحقيقة في لفظ ﴿ٱلْمَآءَ﴾:

ذِكرُ المقاصد أبلغُ من ذكر الوسائل

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْمَآءَ﴾، وأراد السَّحاب، فهو مجازٌ مرسل من باب إطلاق الحالِّ وإرادة المحلِّ، فإنَّ الذي يُساق من مكان إلى آخر هو السَّحاب المثقل بالماء، لكن لمّا كان المقصدُ من سَوق السَّحاب الماءَ؛ ذُكِر بهذا الاعتبار، فالماء هو المقصود بالفعل، وهذا من بلاغة المجاز أن جعل المقصود ظاهرًا بالذِّكر، الذي هو موضع المنَّة.

أو أن يكون المراد بالماء مياه الأنهار الَّتي تُنقل من مكانٍ لآخر، فيكون اللَّفظ على حقيقته، والصَّحيح أنَّ اللَّفظ محتمل للحقيقة والمجاز، فإذا أُريد السحاب؛ فهو على المجاز، وإذا أُريد مياه الأنهار والينابيع؛ فهو على الحقيقة، ولا إشكال في حمل اللَّفظ المشترك على الحقيقة والمجاز عند المحقِّقين.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تعريف لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للجنس، فيُقصدُ بها كلُّ أرض جرز، ويبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام، فهي لجنس الأرض الموصوفة بأنَّها جُرُز.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلْجُرُزِ﴾:

سَـعـة المـعـاني وتنوُّعها مُعينٌ عـلـى انـطـلاقـة الفكر واتِّساعه

الجرزُ وقعت نعتًا للفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وجاء استعمالها لتعدُّد دلالاتها، فالجُرز الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، والجرز هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.

القَطْع، وكأنَّها المقطوع عنها الماء والنَّبات، وتكون الأرض الجرز الأرضَ الظَّمأى أو الميتة العطشى، وهي التي لا تُنبت شيئًا، أو الغليظة[1]، فدلَّ الوصف بهذه المفردة ﴿ٱلْجُرُزِ﴾ على اليبس والعطش والقطع والغلظ، فكان في إحيائها دلالةُ القدرة المطلقة للّه ﷻ، كما أنَّ هذا اللَّفظ يصلح أن يكون للأرض الَّتي لم يصلها ماء السماء منذ فترة بعيدة، والتي لا يصلها ماء السَّماء بتاتًا، وإنَّما تصلها مياه الأنهار، وهذه السَّعة مرادة، لسَعة التَّدبُّر والتَّفكُّر في رعاية اللّه تعالى وعنايته بخلقه.

نوعُ الفاء ودلالتها:

دلَّت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ على الترتيب والتَّعقيب، وفيها إشارة إلى السرعة وطيِّ الحدث؛ لبيان القدرة المطلقة للّه تعالى، وتحتمل الفاء الاستئناف المنقطع عمّا قبله[2].

نكتةُ إسنادِ فعل الإخراج إلى الضَّمير:

جاء إسناد فعل الإخراج إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾؛ ليناسب ما قبله في قوله تعالى: ﴿نَسُوقُ﴾، فالَّذي يسوق الماء بقصد قد أبان عن هذا القصد، وهو إخراج الزرع للأكل.

نوعُ الباء ومعناها:

خروجُ الزَّرع مشهد يُحيي النُّفوس ويمحو الأرض اليبوس

يعود الضَّمير المجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الماء، ويجوز في الباء أن تكون دالَّةً على الملابسة، أي: نخرج الزرع ملتبسًا بالماء، ويجوز أن تدلَّ الباء على العنديَّة، والمعنى: فنخرج عنده الزرع[3]، وهذا المشهد المتعلِّق بإخراج الزَّرع فوق ما فيه من عظمة وقدرة يفتح نوافذ القلب المغلقة؛ لاستجلاء هذه الحياة النامية واستقبالها والشعور بحلاوة

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 110.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 111.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 137.

الحياة ونداوتها، والإحساس بواهب هذه الحياة الجميلة الناضرة إحساس حبٍّ وقربى وانعطاف مع الشعور بالقدرة المبدعة واليد الصناع، التي تشيع الحياة والجمال في صفحات الوجود.

غرضُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المفعول، في قوله تعالى: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾؛ للعناية بشأن الماء، فهو مقصود السياق، وموضع المِنَّة، مع العلم بأنَّ الإخراج يكون به لا بغيره.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿زَرۡعٗا﴾ وتنكيرها:

الـزَّرعُ مقصود النـاس وأعظم ما يُطلب

آثر النظم الكريم اختيار مفردة الزرع في قوله تعالى: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾، والزَّرْعُ هو الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهيَّة دون البشريَّة، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 64]، فنسب الحرث إليهم، ونفى عنهم الزَّرْعَ، ونسبه إلى نفسه، والزَّرْعُ في الأصل مصدر، وعُبِّر به عن المزروع في الآية: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾[1]؛ تشريفًا للزَّرع، ولأنَّه أعظمُ ما يُقصد من النَّبات[2]، والتَّنكير للتَّعظيم والتشريف والعموم.

بديعُ فنِّ الاكتفاء:

المـقـصـودُ بالسياق مأكول الإنسـان فهو موضع المنة

في قوله تعالى: ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ اكتفاء، فذكر الزرع، وهو مأكول الناس، ولم يذكر مأكول الأنعام مع ذكرها، ففُهِمَ أنَّه ذكر الزَّرع، واكتفى به عن ذكر مأكول الأنعام، والتقدير: ونخرج به زرعًا وكلأً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم[3]، وذلك للتَّنبيه على كرامة الإنسان، وأنَّه المقصود بالسياق، والأنعام ذُكرت باعتبارها مِنَّةً أخرى من مِنَنِ اللّه تعالى، وبقاؤها بوجود الماء الذي هو أصل الحياة.

(1) الراغب، المفردات: (زرع).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 441.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.

فنُّ الإدماج:

جمعُ أغراض الاحتجاج والاستدلال والامتنان في عبارة واحدة

جملة ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ إدماجٌ بالامتنان[1]، من اللّه ﷻ، فالسياق في الاستدلال على البعث وتقريبه وإمكانه بإخراج النَّبات من الأرض الجرز، لبيان التوحيد ووجوب طاعة الخالق، وأُدمِج في هذا الاستدلال الامتنانُ ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾ إدماجَ غرضٍ في غرض.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

الأكلُ أصل استمرار الحياة وتجدُّد الامتنان

دلَّ الفعل المضارع ﴿تَأۡكُلُ﴾ على بيان ديمومة نعمة الأكل، مع التَّنبيه على أنَّ الأكل لا يتوقَّف، فبتوقُّفه تتوقَّف الحياة، ويتحقَّق الموت، فالوظيفة الرئيسة لهذا الزرع الإبقاء على حياة البشر وما يمتلكونه من أنعام وزروع، فالحياة تستمرُّ بالمحافظة على النَّفس والمال.

نوع (من) ومعناها:

بيانُ تلاحم معاني (من) وارتباطها بالسياق

حرف الجرِّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ﴾، يحتمل معنى التبعيض، أي: يأكل الإنسان والأنعام بعض الزَّرع؛ لصعوبة أكل الزرع كلِّه، وتحتمل البيان، أي: تأكله أنعامهم وأنفسهم، وتحتمل أن تكون لابتداء الغاية، والمعنى: أنَّ الأكل يكون ابتداءً مِنَ الزَّرع الذي تخرجه الأرض، وفي هذا المعنى دليل على الاستفادة الكبيرة من الزرع بمجرَّد نضجه، وقبل نضجه، فدلَّ المعنيان على أهمّيَّة الزرع للبشر وأنعامهم.

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

رعايةُ المقصود بالامتنان في سياق الكلام

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُ﴾ على المسند إليه، في قوله تعالى: ﴿تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ﴾؛ لبيان أنَّ الزرع هو موضع الأهمّيَّة بعد ذكر الماء، وهو ثمرة سوق الماء إلى الأرض الجرز، وبه تستمرُّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 241.

الحياة وتدوم، فناسب في الجارِّ والمجرور هنا، وفي جملة ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾، تقديمُ المقصود بالامتنان.

نكتةُ إضافةِ الأنعام إلى الضَّمير:

أُضيف لفظ ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ إلى الضَّمير؛ للتَّناسب بين المعطوف ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ والمعطوف عليه ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ في أنَّ كليهما مضاف لضمير ذي مرجع واحد، وفيه تكريم بأن جعل الأنعام مُلكًا لهم.

فائدةُ تقديم الأنعام على البشر:

تقديمُ الوسيلة على الغاية بالترقّي مِن الأدنى إلى الأشرف

قُدِّم ذِكْرُ الأنعام على البشر في قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾، فبدأ بالأدنى ثُمَّ ترقّى إلى الأشرف، وهم بنو آدم[1] على سبيل التَّرقّي، ولتقوية موضع الامتنان؛ لأنَّ بها قِوامَهم في مَعايِشهم وأبدانهم، ولأنَّ السياق لمُطلق إخراج الزَّرع[2]، فإنَّ ذِكر الأنعام المتكاثرة بالأكل مِن المزروع منَّة أخرى مِن منن إخراج الزَّرع، ولتقديم الوسيلة على الغاية، فإنَّ الأنعام وسيلة لقيام الإنسان واستمراره في الحياة، ثمَّ إنَّ الأنعام تأكل غالب المزروع، وقليله هو الذي يأكله الإنسان.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

الإنكار على انعدام التَّأمُّل مع بيان إتقان الصَّنعة

جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ تقريرًا وإنكارًا عليهم لعدم تفكُّرهم في مشاهد الحياة الدّالَّة على كمال الصُّنع الرَّبّانيِّ وإتقانه، ولإظهار الغفلة الشَّديدة عن أسباب البقاء للجنس البشري، وللإيماء إلى أنَّ البصر طريقٌ من طُرُقِ الاهتداء، وفيه حضٌّ على التَّأمُّل في هذه النِّعم، والحرص على شكر المنعم عليها، وإخلاص العبادة له[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 441.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 270.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 158.

نوعُ الفاء ومعناها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ عاطفة على محذوف، أي: (أعموا فلا يُبصرون؟)، وفيه تهكُّمٌ بهم لعدم إبصارهم المشاهدات الواضحة وضعف نظرهم وتدبُّرهم.

بلاغةُ ختم فاصلة الآية بذكر الإبصار:

الانتقالُ من نفي الإبصار المشوب بالعلم إلى نفي الإبصار جملة

لوحظ أنَّ الآية السابقة جاء الاستفهام التقريريُّ الإنكاريُّ فيها بذكر السماع ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾، بينما في هذه الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾، فجاءت بذكر الإبصار؛ لأنَّ ذلك ممّا يتبيَّن بالرُّؤية وما فوق هذه المناسبة مناسبة[1]، ففيه تأكيدٌ لقوله في أوَّل الآية: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، والفرق بين الرؤية والإبصار: أنَّ الرؤية هي إبصار مشوبٌ بالعلم والمعرفة، بينما الإبصار فمحض الحاسة المبصرة، فلمّا أنكر عليهم عدم علمهم بما يُشاهدون؛ انتقل إلى الإنكار عليهم بعدم إبصارهم جملةً، وهذا أردع في الإنكار، وآلم في خطاب العقلاء.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرؤية والعلم:

الـرؤيـةُ أخـصُّ مـن الـعـلـم في المعلومات وأعمُّ منه في الحقيقة والمجاز

الرؤيةُ لا تكون إلّا لموجود، والعلم يتناول الموجود والمعدوم، وكلُّ رُؤيةٍ لم يُعرض معها آفة؛ فالمرئيُّ بها معلومٌ ضرورة، والرؤية في اللغة على ثلاثة أوجه: أحدها العلم، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ [المعارج: 7]، أي: نعلمه يوم القيامة، وذلك أنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ، والآخر بمعنى الظن، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾ [المعارج: 6]، أي: يظنونه، ولا يكون ذلك بمعنى العلم؛ لأنَّه لا يجوز أن يكونوا عالمين

(1) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 275.

بأنَّها بعيدة، وهي قريبة في علم اللّه تعالى، واستعمال الرؤية في هذين الوجهين مجاز، والثالث رؤية العين، وهي حقيقة[1].

البور والجرز:

الـجـرز الأرض التي انقطع عنها المـاء فلم تنبت والـبـور الأرض الـفـاسـدة بعد صلاح

الجُرُز: هو القَطْعُ، يُقالُ: جَرَزْتُ الشَّيْءَ، قَطَعْتُهُ[2]، يُقال: أرض جرز: لم يصبها مطر، والجمع أجراز[3]، والجرز: أن تكون الأرض لا نبات فيها، وقيل: الجرز: الأرض التي لا تُنبت كأنَّها تأكل النَّبت أكلًا[4]، أمّا البوار؛ ففرط كساد، ولمّا كان فرط الكساد يؤدّي إلى الفساد؛ قالوا: كسد حتى فسد، وقد يكون البوار بمعنى الهلاك[5]، أمّا الأرض البوار؛ فهي التي لم تُزرعْ، والبوُر في كلام العرب: لا شيء، يقال: أصبحت أعمالهم بورًا، ودُورهم قبورًا، وكلُّ ما في مادة (بور) في القرآن الكريم؛ هو من الخُسر بالضلال والكفر، وإنَّه لأفدح الفساد والهلاك، منقولًا إليها من أصل معناها في البوار والكساد[6].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 263.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرز).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جرز).
(4) الهروي، تهذيب اللغة: (جرز).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بور).
(6) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص: 625.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ
لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٢٩ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة: 28 - 30]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الأدلَّة اليقينيَّة على البعث إلى موقف المنكرين

لمّا ذكرت الآيات السابقة الأدلَّة والبراهين على البعث اليقين؛ ناسب بيان موقف المشركين من البعث والإحياء بعد الموت، مع الإرشاد إلى اتِّخاذ موقفٍ حاسمٍ في القضايا الكبرى الحاسمة، فإنَّ المنكرين إذا أصرُّوا على كفرهم وإنكارهم؛ فلا ينفعهم بصر أو بصيرة، ولا رؤية أو رأي، ولا علم أو معرفة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَتْحُ﴾: (فتح) أصلٌ يدلُّ على إزالة الإغلاق والإشكال، وذلك ضربان: أحدهما يُدرك بالبصر كفتح الباب ونحوه، وكفتح القفل والغلق والمتاع، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ [يوسف: 65]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحجر: 14]، والثاني: يدرك بالبصيرة كفتح الهمِّ، وهو إزالة الغمِّ[1]، والفتح الفصل بين جماعتين، واختلف في المراد بالفتح في الآيات، فقيل: الفتح الأول هو يوم نصر المؤمنين على الكافرين، وقيل: القيامة، والفتح الثاني، قيل: العذاب، وقيل: القيامة[2].

2) ﴿يُنظَرُونَ﴾: (نظر) أصلٌ صحيحٌ ترجع فروعه إلى معنًى واحد وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينته، ثمَّ يُستعار، ويُتَّسَعُ فيه[3]، ومن المعاني المتعلِّقة بالفعل (نظر)، وهو المعنيُّ في الآية: الإمهال

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (فتح).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 198.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

والانتظار المأخوذ اشتقاقيًّا مِنَ التَّرقُّب والتفحُّص؛ لأنَّ التفحُّص والتَّأمُّل يستغرقان زمنًا، أي: لا يُؤَخَّرون للتوبة والمراجعة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تهكُّمُ الجاهل حتفُه وحذر العاقل نجاته

تُبيِّن الآية الكريمة ما كان من المؤمنين بتحدّيهم المشركين بأنَّ اللّٰه سيفتح بينهم، وينصرهم، وتظهر حُجَّتهم، فكان الكافرون يُكرِّرون التَّهكُّم بالمسلمين بالسؤال عن وقت هذا الفتح استفهامًا مستعملًا في التكذيب[2]، فكان الردُّ عليهم بأنَّه يومٌ سيُقاسون فيه، ولن ينفعهم إيمانهم المزعوم، وعلى الرَّسول ﷺ الإعراض الوقتي عنهم مع التهديد بأنَّ ما ينتظرهم قاسٍ وشديد.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الإيجاز والحذف:

الأقوالُ المذكورة كاشفة عن أفعال مطويَّة

في الكلام حذفٌ وطيٌّ، وتقديره: وبعد ما سمعوا منك - يا أكمل الرُّسل - أنَّ ربَّك يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، يقولون مستهزئين متهكِّمين: (﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ ...)[3]؛ لأنَّهم لن يقولوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ إلّا إذا كان قد قيل لهم: (إنَّ هناك فتحًا وفصلًا بيننا وبينكم)، فردَّ كُفّار مَكَّة بالاستفهام المنطوي على الاستهزاء والسخرية، فكانت جملة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ صادرةً بسبب مواقف موجودة.

نوعُ الواو ودلالتها:

تحتمل الواو الاستئناف والعطف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استئنافيَّة، جاءت ردًّا على استهزاء المشركين وسخريتهم[4]، وتحتمل أن تكون عطفًا على جملة: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، أي: أعرضوا عن سماع الآيات والتَّدبُّر فيها،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 242.
(3) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 144.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 590.

وتجاوزوا ذلك إلى التَّكذيب والتهكُّم بها[1]، بل يسألون عن يوم الفتح بغرض الهزءِ والسخرية.

بلاغةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

تصوير قولهم الساخر للتَّعجيبِ من جهلهم

جاء التَّعبير بصيغة المضارع: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لتصوير قولهم الدالِّ على الاستعجال والتكرير مع التورُّك على المسلمين الضعاف، والتمادي في السُّخرية منهم، وفيه إفادة التَّعجيب منه، كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74]، مع إفادة تكرُّر ذلك منهم واتِّخاذهم إيّاه[2]، والتَّعبير بواو الجماعة فيه دليلٌ على اتِّفاقهم على القول وتماديهم فيه، فكأنَّه شُغْلُهم الشاغل لا ينفكُّون عنه، ولا يتزحزحون.

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

مقتلُ المُكذِّب غروره وهلاكُ المنكر عنادُه

دلَّ الاستفهام باسم ﴿مَتَىٰ﴾ المتعلِّق بالزمن على البُعد والسخرية مع غرور واستخفاف بالوعيد، فقد كان هذا النَّصر غايةً بعيدة المنال أمام المؤمنين، فما زالوا قلَّة مُستَضعفة[3]، مع ما فيه من معنى الاستبطاء، والمعنى: لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذي يتمُّ فيه الحكم بيننا وبينكم، فإن كنتم صادقين في قولكم، فادعوا ربَّكم أن يعجِّل بهذا اليوم[4].

فائدةُ ذِكر اسم الإشارة القريب:

آثر النَّظم الكريم ذِكرَ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾، مع إمكان الاستغناء عنه بذكر ﴿ٱلۡفَتۡحُ﴾، ونكتته: بيان تحقيرهم وقلَّة اكتراثهم بهذا الفتح[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 243.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11872.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 157.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 243.

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿ٱلۡفَتۡحُ﴾:

إبرازُ مقصود المتكلِّم من خصائص نظم القرآن

جاء استعمال لفظ الفتح، في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لاستكمال قصد المشركين التهكُّميِّ، فهم يردِّدون كلمة الفتح التي تداولها المؤمنون بقصد بيان نصر الله تعالى، على اختلاف المفسِّرين في المراد بها[1]، والَّتي تداولها المشركون ترديدًا لما قاله المؤمنون بقصد الهزء والسُّخرية، فدلَّت لفظة الفتح على أزمان مختلفة مع إشارتها إلى الحكم والقضاء والنُّصرة، وسَعتها الدِّلاليَّة مقصودة بالإضافة إلى مقصود السياق من إيراد هذه اللَّفظة.

نكتةُ استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا):

استعمل النظم الكريم لفظَ ﴿إِن﴾ الدّالَّ على عدم يقينيَّة تحقُّق المشروط، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، مع أنَّ المؤمنين قطعًا صادقون؛ لبيان موقف المشركين، لا لبيان حقيقة الأمر المبين.

غرضُ الإتيان بالجملة الشَّرطيَّة:

الجهل بالمعتقدات يقود إلى تكذيب الصادقين

جاء التَّعبير بالجملة الشرطيَّة: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، بعد جملة الاستفهام: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لبيان لحن قولهم، وجهلهم بأمور الاعتقاد الحقِّ، فإنَّ العلم بالشيء إجمالًا لا يقتضي العلم بتفصيل أحواله حتّى يُنسب الذي لا يعلم تفصيلَهُ إلى الكذب في إجماله، والمعنى هنا: إن كنتم صادقين في أنَّه واقع؛ فبيِّنوا لنا وقته، فإنَّكم إذ علمتم به دون غيركم، فلتُعلِموا وقته[2]، فدلَّت جملة: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ على الجواب المحذوف، والتقدير: إن كنتم صادقين؛ فمتى هذا الفتح؟.

فائدة ذكر ﴿كُنتُمۡ﴾:

تهكُّمُ المكذِّب يُحيط بالصِّدق كلِّه زمانًا ومكانًا

ذكر النَّظم الكريم فعل ﴿كُنتُمۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ بغرض بيان شدَّة التَّهكُّم، فإنَّ فعل ﴿كُنتُمۡ﴾ دالٌّ على أنَّ

(1) الماوردي، تفسير النكت والعيون: 4/ 368.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 243.

الصِّدق ديدنهم، والمشركون يُشكِّكون في هذه القضيَّة، فآل الأمر إلى زيادة التَّهكُّم، فكأنَّهم يقولون: إن كنتم صادقين في كلِّ أوقاتكم، فهو تشكيكٌ في كلِّ ما يدَّعون صِدقهم فيه، فضمَّ الفعل زمنين، الماضي والحاضر، فهو يشير إلى "اقتران مضمون الجملة بالزمان الماضي من غير تعرُّض للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها ترادُفٌ لم يزل"[1]، وفي مجيء ﴿كُنتُمْ﴾ محافظة على رؤوس الآي المنتهية بالنون المسبوقة بحرف مدٍّ.

بلاغةُ فعل الأمر وغرضه:

تأييدُ المؤمنين ووعيد المكذِّبين سنَّةُ ربِّ العالمين

أفاد فعل الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ وجوبَ الاستجابة إلى تنفيذ أمر الله بالمواجهة الصَّريحة، وتبليغ ما به أُرسِل، فللدَّعوة رسولٌ يذود عنها بكلِّ قُوَّةٍ، وهو يستمدُّ قوَّته من الله تعالى، فالله هو المؤيِّد، وهو النَّاصر، فإذا علَّمه هذا القول؛ فهو ناصره، وفيه تهديدٌ ووعيد بالمتهكِّمين به وبالمؤمنين.

نكتةُ إضافة ﴿يَوْمَ﴾ إلى ﴿ٱلْفَتْحِ﴾:

براعةُ الجواب مع تحقيق البشارة والنذارة

أُضيف الظرف في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْفَتْحِ﴾، وفي الإضافة جواب عن ﴿مَتَىٰ﴾ الدالَّة على الزَّمان، فكان ذِكرُ الظَّرف تعيينًا لزمانه، فلمحت الإضافة السؤال، مع الدِّلالة على سرعة الفصل بذكر لفظة ﴿يَوْمَ﴾، وفي هذا تقريب للبشارة المتعلِّقة بفريق الإيمان، مع الزَّجر والتَّخويف المتعلِّقَين بفريق الكفار.

نكتةُ إظهار لفظ ﴿ٱلْفَتْحِ﴾:

مقابلةُ الهزء بقوَّة البيان لا بالتَّواري والاختزال

تعريفُ لفظ ﴿ٱلْفَتْحِ﴾ للعهد[2]، وقد أُظهر هذا اللفظ لتربية المهابة والخوف في النُّفوس، فإنَّه يومٌ عظيم يُفصَل فيه بين الحقِّ

(1) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 100.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 366.

والباطل، ولبيان أنَّ هذا الفتح الذي تَسْخَرون مِن مجيئه سيكون، فقابل تهكُّمَهم بقوَّة البيان، لا بالتَّواري بالإضمار والاختزال، وهذه تربيةٌ بديعة من نظم القرآن، فإنَّ شأنَ أهلِ الحقِّ ألّا يخجلوا من حقِّهم الذي يُؤمنون به، فعليهم أن يُواجهوا بكلمات الثَّبات والإيمان، وأن يأتوا على المكذِّبين بالكرِّ بعد الفرِّ.

بلاغةُ الكناية:

نفيُ نفعِ الإيمان نـفـيٌ لـلإيـمـان أصالة

النَّفعُ ما يُستعان به في الوصول للخيرات، وما يتوصَّل به للخير[1]، فدلَّ فعل ﴿يَنفَعُ﴾ على استمرار الخير وديمومته مع استحضار صورته، ونفيه في هذه الآية دالٌّ على تبكيتٍ وسُخريةٍ مِنَ الذين كفروا، وذهاب إيمانهم هباءً منثورًا إن وُجد، فمعنى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾: أنَّهم لا إيمان لهم حتّى ينفعهم[2]، فهي كنايةٌ عن انعدام الإيمان المقبول؛ بقصد الحضِّ عليها، وهذا شأن النَّظم المعجز، بثُّ قيم الهداية في ثنايا الكلام والتراكيب.

بلاغةُ الإظهار في موضع الإضمار:

الـكـفـرُ سبب الـخـيـبـةِ لـلـمستهزئين وغيرهم

إظهار لفظ المفعول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في مقام الإضمار، في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ﴾، فلم يقل: (لا ينفعهم إيمانهم)؛ لقصد التسجيل عليهم بأنَّ كفرَهم هو سببُ خيبتهم[3]، مع كونه تعميمًا بعد تخصيص[4]؛ لأنَّ الكفّار فيهم مَن استهزأ، ومَن لم يستهزئ، فكان قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عامًّا لجميع الكفّار.

غرضُ استعمال الاسم الموصول دون الظاهر:

التَّـعـلـيـلُ بما في حيِّز الصِّلة وإظهار ثباتهم على الكفر

آثر النَّظم الكريم استعمالَ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون الاسم الظاهر (الكافرين)؛ لبيان أنَّ كفرهم ثابتٌ، وهو

(1) الراغب، المفردات: (نفع).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 242.
(4) الشهاب، حاشية الشهاب: 7/ 155.

سبب ما هم فيه مِن الخسران المبين يوم الفصل العظيم، و"إتيان الموصول الماضي قُصد به الالتباس والاستصحاب"[1]، إضافةً إلى أنَّ الاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحَدَّدٍ، كما أنَّ الضمير (واو الجماعة) في ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ فيه إظهار قصدية الكفر والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول محقِّقًا المقصودَ مِنَ الكلام.

نكتةُ تقديم المفعول على الفاعل:

حسنُ البيان في تكرير ما يدعو إلى التَّحسير

قُدِّم المفعول به ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ على الفاعل ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾؛ للإيجاز وحسن البيان، ولو جاء الفاعل متقدِّمًا؛ لقيل: (لا ينفع إيمان الذين كفروا أنفسهم) ونحو ذلك، ولا يخفى قوَّة ما جاء عليه النَّظم المعجز، بالإضافة إلى أنَّ الفاعل فيه ضمير يعود على المفعول به المتقدِّم، وتقدُّمُ الفاعل ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾ على المفعول به ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حينئذٍ مُمتنَعٌ حتّى لا يعودَ الضَّميرُ على متأخِّرٍ لفظيٍّ، وتقديم المفعول على الفاعل، معناه ذكر الكافرين مرتين، مرَّة بالاسم الموصول، ومرَّة بالضَّمير في ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾، وتكرار الذِّكر تكرير للتَّبكيت والتحسير بعدم نفع الإيمان، ففي التَّكرير زيادة تقرير.

فائدةُ إضافة الإيمان إلى الضَّمير:

أُضيفَ لفظُ الإيمان إلى الضَّمير؛ لتحقيق نكتة تقديم المفعول على الفاعل، وللتَّهكُّم بهم، فلا إيمان لهم أصلًا، وللتَّنبيه على الإيمان النّافع، وهو إيمان المؤمنين، فهو مدحٌ لهم، وقدحٌ للكافرين.

بلاغةُ الأسلوب الحكيم:

توجيهُ الأذهان إلى النافع على التحقيق لا إلى غيره عند التدقيق

لمّا كان سؤالُ الكافرين عن يوم الفتح سؤالَ استهزاءٍ وسخريةٍ؛ أمر اللّه رسوله ﷺ بأن يجيبهم على طريقة الأسلوب الحكيم بأنَّ يوم الفتح الحقِّ هو يوم القيامة، وهو يوم الفصل، حين ينقطع

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/ 187.

أمل الكفّار في النَّجاة والاستفادة من النَّدامة والتوبة، فلا يجدون إنظارًا لتدارك ما فاتهم، مع ما في هذا الجواب من الإيماء إلى أنَّ زمن حلوله غيرُ معلوم للنّاس، وأنَّه ممّا استأثر اللّه بعلمه؛ فعلى الكيِّس الفطن الاحتياط للنَّجاة، فتقرَّر الأسلوب الحكيم من العدول عن تعيين يوم الفتح المسؤول عنه، إلى تعيين يوم الفتح الحقِّ[1]، الذي يجب أن يسألوا عنه، ففائدة هذا الأسلوب هو التَّنبيهُ على أنَّه ليسَ ممّا ينبغي أنْ يُسألَ عنه؛ لكونِه أمرًا بيِّنًا غنيًّا عن الإخبارِ به، وإنَّما المحتاجُ إلى البيانِ عدمُ نفعِ ذلك الإيمانِ وعدمُ الإنظارِ[2].

نوعُ الواو ومعناها:

نـفـيُ الـتَّـأخـير زيـــــادةٌ في التَّحسير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ حرف عطف على جملة: ﴿لَا يَنفَعُ﴾[3]، ومجموع الجملتين أفاد التَّهديد والوعيد، فإيمانهم غير نافع؛ ليُنقذهم من العذاب، ولا يؤخِّرون عن العذاب، ونفي التَّأخير زيادة في التحسير، وفيه إلماح إلى ضرورة الاستعداد للعذاب المنتظر، وهذا العطف من شواهد عطف الجملة الاسميَّة المنفيَّة على الفعليَّة المنفيَّة.

بلاغةُ تقديم المسند إليه المنفيِّ على المسند الفعليِّ:

تـقـويـة الـحُـكـم وتقريره في ذهن السامع لأهمّيَّة مضمونه وبالغ خطورته

قُدِّم المسندُ إليه المنفيُّ على الخبر الفعليِّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم الإسناديِّ[4]، وتقريره في ذهن السّامع عن طريق تكرُّر الإسناد، حيث نجِد الحديث عنهم تكرَّر مرَّتين: مرَّةً بالضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾، ومرَّةً بالضَّمير المتَّصل في فعل ﴿يُنظَرُونَ﴾؛ لأنَّ الجملة من الفعل والفاعل خبر عن هذا الاسم المتقدِّم، وقد تتأتَّى التقوية من كون الجملة صارت جملة اسميَّة لا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 242.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 88.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 137.
(4) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 232.

فعلية، والاسميَّةُ أشدُّ توكيدًا وثباتًا، وفي هذا إشارةٌ إلى انعدام الإمهال، وسرعة العذاب.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿يُنظَرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعدُّد الدلالة بين نفي الإمهال وإثبات الإهمال نفيٌ للرَّحمةِ وإثباتٌ للعذاب

جاء استعمال مفردة الإنظار في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، والإنظار هو الإمهال والتأخير عن العذاب، فعذابهم عاجل لا يقبل التأخير، مع ما في هذا الفعل من إلماحة إلى معنى نظر الرحمة، فنفى عنهم الظّاهر، وهو الإمهال، والمعنى الإشاري وهو نفي الرحمة عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ [آل عمران: 77]؛ لأنَّ النظر يُعطي شيئًا من الحنان والشفقة، وبذلك تكون لا يُنظرون، أي: لا ينظر إليهم أبدًا، فكأنَّهم أهملوا إهمالًا تامًّا[1]، والتَّعبير بصيغة المضارع الواقع خبرًا، فيه إشارة إلى أنَّ النفي هو للإنظار والإمهال، فلا يقع الإنظار بتاتًا فضلًا عن الاستمرار، وبُني الفعل للمفعول دون الفاعل، فلم يقل: (ولا يُنظِرهم)؛ لحسن البيان في بناء النظم على ما جاء عليه، ولإفادة عموم نفي الفعل.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ هي الفصيحة المُفصِحة عن مقدَّر محذوف، والتقدير: إذا علمت حال هؤلاء الذين كفروا يوم القيامة، فأعرض عنهم.

بلاغةُ فعل الأمر وغرضه:

الأمرُ بالإعراض يعني التَّهديد بنفاد العذر في الإبلاغ

دلَّ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ على انحسام الموقف بين النَّبي وأهل الشِّرك من قومه؛ لأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه، وبذل أعلى جهده في إبلاغها مبشرًا ومنذرًا، فلم يزدهم ذلك إلّا عنادًا وضلالًا[2]، فغرض الأمر التَّأييس من إيمان المجادلين من الكافرين

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/ 681.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 631.

المتصدّين للتَّمويه على دهمائهم، وهذا إعراضُ متاركة عن الجدال وقتيًّا لا إعراضٌ مستمِرٌّ[1] عن الكفّار، وأُكِّد دلالة الإعراض بحرف الجرِّ (عن) الدالِّ على المجاوزة والإهمال، وفي الأمر إشارة إلى أنَّه ينبغي الإعراض عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين؛ إذا لم ينجع فيهم الإرشاد والنَّصيحة[2]، وتسلية الرسول ﷺ، فالداعي رفيق، والهادي شفيق، مع تهديدهم وتخويفهم[3].

دلالةُ العطف بالواو:

بعد الأمر بالإعراض جاء الأمر بالانتظار، في قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾، واقتضى العطفُ الجمع بين أمرين: الإعراض عن الكافرين جملة، وانتظار مجيء الحقِّ، ففيه بالغ التهديد بنفاد العذر المبين.

دلالةُ حذف المفعول:

رُبَّ محذوفٍ أبلغ من مذكورٍ

حذف مفعول ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾؛ للتهويل، أي: انتظر أيّامًا يكون لك فيها النَّصر، ويكون لهم فيها الخسران، ففي الأمر بالانتظار تعريضٌ بالبشارة للمؤمنين بالنظر، وتعريضٌ بالوعيد للمشركين بالعذاب في الدارين[4]، مع حذفِهِ في اسم الفاعل ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾؛ لما دلَّ عليه السياق، أي: منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم[5].

بلاغةُ الاستئناف البياني:

الكافرُ العنيد ينتظر العذاب ولا يُبالي

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾؛ لما يحويه من الإجابة عن سؤالٍ متوقَّعٍ، وهو ما حال أولئك عند الإعراض وانتظار حكم الله فيهم، فكان الجواب: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾، مع ما فيه من تعليل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 243.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 139.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 271.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 243.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 244.

الأمر، أي: انتظر؛ لأنَّهم منتظرون غير مبالين بما سيقع عليهم من وعيد الحق سبحانه، بل يظنون أنَّهم سيُخرجونكم، ويقتلونكم، وفي التَّعليل تهكُّمٌ ضمنيٌّ بهم، مع الإشعار بالوعيد، فقد نزَّلهم منزلة من ينتظر العذاب غير مبالين بسطوته.

دلالةُ التَّوكيد:

يقعُ التَّوكيد مع العجب والدهشة

دلَّ التوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ بأداة (إنَّ)، والجملة الاسمية، مع الإخبار باسم الفاعل ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾، على إثبات توصيف حالهم؛ فإنَّ العاقل قد يتردَّد في شأنهم، وهل يُعقل الانتظار بعد الإعراض والانتظار؟ فكان التَّوكيد؛ لبيان حالهم التي تدعو إلى الدهشة والرجفة، من سوء الكفران، وفرط العناد.

بلاغةُ الجناس المستوفى في المقابلة اللفظية:

الفرق بين الانتظارين كاشفٌ عن التَّغاير بين الفريقين

أحدث الجناس المستوفى بين الفعل ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾، واسم الفاعل ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾، جرسًا صوتيًّا بديعًا، حيث جذب الانتباه إلى تغاير الانتظارين، أي: وانتظرْ هلاكهم، فإنَّهم ينتظرون هلاكك، فانتظار النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله تعالى بعد وعده، وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان، وانتظار النَّبيِّ النَّصر مِن الله، وهم ينتظرون النَّصر مِن آلهتهم، وانتظار النَّبي عذابهم بنفسه، فإنَّهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّأجيل والإرجاء والإملاء والإنظار:

التَّأجيل تأخيرٌ محدود والإرجاء قد يصاحبه حبسٌ والإملاء يصاحبه الاستدراج والإنظارُ إمهالٌ

التأجيل: تأخيرٌ مع ضرب مُدَّةٍ مُحَدَّدةٍ للشَّيء المُؤَجَّل، وأصله استيفاء الأجل[2]، والإرجاء تأخير، وقد يكون معه الحبس، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 152.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أجل).

[36](1)، أمّا الإملاء؛ فأشدُّ من الإمهال؛ لأنَّه يتضاعف به العذاب(2)، ويصاحبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يحسب المتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا، فيُؤخذ بالعقوبة(3)، أمّا الإنظار؛ فهو الإمهال والانتظار المأخوذ اشتقاقيًّا من الترقُّب والتفحُّص؛ لأنَّ التفحُّص والتأمُّل يستغرقان زمنًا، وهو قريب من المعنى المحوريِّ المأخوذ من مواجهة العين بترقُّب وتهيُّؤ للالتقاط(4).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/ 332.
(2) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 305.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 284.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نظر).

سُورَةُ الأَحزَابِ

سُورَةُ الأَحْزَاب

❁ التّعريف العامّ بالسّورة:

سورة الأحزاب مدنيّة عند جمهور العلماء[1].

وهي السّورة الثّالثة والثّلاثون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق؛ جاءت بين سورتي السّجدة وسبأ، وهي سَبْعونَ وثَلاث آيات عند جَميع أهل العدَد لَيْسَ في ذلك اخْتِلاف[2].

وأمّا ترتيبها النّزوليّ فهي السّادسة في تَعْدادِ نُزولِ السّوَرِ المدنيّة، نزلت بعد البقرة والأنفال وآل عمران والحشر والجمعة، وهي السّابعة والتّسعون على الراجح في ترتيب نزول القرآن كلّه، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الجمعة وقَبْلَ سورَةِ النّساء[3]؛ وقيل بعد سورة الأنفال وقبل سورة المائدة[4].

فضائل سورة الأحزاب:

لم يثبت في فضائلها أحاديث صحيحة على وجه الخصوص، سوى ما ورَد فيها وفي أخواتها أنّها من المثاني، فعن واثِلَةَ بْنِ الأسْقَعِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المَئِينَ، وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»[5].

دلالة التوقيت الزمني لنزول السورة:

ويبدو من خلال موضوعاتها التي عالجَتْها، ومن قراءة كتب السّيرة النّبويّة أنّها نزلت في نحو السّنة الرّابعة أو الخامسة للهجرة، حيث وقعت غزوةُ الأحزاب، حينَ أحاط بالمدينة جيوشُ قريشٍ وأحابيشهم وحاصروها فترة من الزّمن.

❁ أسماء السّورة الكريمة وسبب التّسميّة:

سُمّيت سورَة الأحزابِ في المصاحِفِ وكُتُب التَّفسيرِ والسُّنَّةِ، وكَذَلِكَ رويَت تسميَتُها

---

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 245.

(2) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 208.

(3) دروزة، التفسير الحديث: 7/ 345.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 245.

(5) ابن حنبل، المسند، الحديث رقم: (17023).

سـورةُ الأحـزاب عُـرفـت بـهـذا الاسم دون غيره

عن ابنِ عبّاسٍ وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ بِأسانيدَ مقبولَةٍ؛ ولا يُعرَفُ لَها اسمٌ غَيرُه ووَجهُ التَّسميَةِ أنَّ فيها ذِكرَ أحزابِ المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ ومَن تَحَزَّبَ معَهُم، أرادوا غزو المسلِمين في المدينَة فردَّ الله كيدَهُمَ وكفى الله المؤمنين القتالَ[1].

وأمّا وجه ارتباط اسمها (الأحزاب) بمحور السّورة، فإنّها سُمّيت بها لأنّها معجزة رسول الله ﷺ، حيث نصره الله على الأحزاب الذين حاصروه في المدينة بالرّيح والملائكة، وميّز الله تعالى له فيها بين المؤمنين والمنافقين[2].

كما أنّ تسمية السورة بالأحزاب إنّما كان لارتباط هذه الغزوة الفاصلة في حياة النّبيّ ﷺ وأصحابه بمِحوَر السّورة، القائمِ على تأصيل الجانب الإداريّ وتفعيله عامّةً في حياة المسلمين، وتنظيم أمورهم وترتيب ملفّاتهم؛ لأنّ الإدارة تقوم على إنجاز الأهداف، من خلال القيام بالوظائف الإدارية الخمسة: التخطيط، والتنظيم، والتوظيف، والتوجيه، والرقابة؛ والتي من شأنها أن تحفظ المجتمع وتضمَن له بقاءه واستمراره إزاء التّحدّيات الكبيرة التي تعرِض له.

لذا، فإنّ تسميتَها بالأحزاب ارتبط بأكبر تحدٍّ عرفته المدينة الإسلاميّة الأولى في عهد النّبيّ ﷺ، حيث واجهتْ هذا التّحدّيَ الضّخم وتجاوزته، بأنْ حقّق الله للمؤمنين النّصر، وهزم الأحزاب التي أحاطتهم من كلّ جانب، لما علمه ﷻ في قلوبهم من الإيمان الذي ضمن لهم مجتمعًا إداريًّا متماسكًا، من خلال قائده، وتوجيهاته التي يتلقّاها عن ربّه، ومن خلال التّنظيم السّليم لهذا المجتمع الجديد النّاشئ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 245.
(2) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 3/ 22.

المِحوَر العامّ لسورة الأحزاب:

تتمحْوَر السّورة حول ذبّ الأذى عن النّبيّ ﷺ والمؤمنين، والأمر بالتأسّي به

تعرّضت سورة الأحزاب لمجموعةٍ من الموضوعات المختلفة، والمحاوِر المتنوّعة:

أولًا: تظهر فيها جليًّا قضايا التوحيد والإيمان والعقيدة، وما يتبعها من أثرٍ في الجهاد، وفي تنظيم الحياة الإنسانية؛ وتُقتَبسُ منها تشريعاتٌ إداريّة، بها تنتظم الإدارةُ في الدولة، بدءًا من القائد، وانتهاءً بالجنود أو بالأفراد.

ثانيًا: يجد المدقّق في السورة أمرًا لا يكاد يوجد في غيرها، وهو مِحوَر السورة الأساس، والذي تغذيه وتنسجم معه بقية موضوعات السورة، ويتناغم مع اسم السورة؛ وهذا الموضوع هو ذبُّ الأذى عن رسول الله ﷺ، وعن المؤمنين من بعده، وقد جاء لفظ الأذى ومشتقّاتِه في السورة سبعَ مرّات، وهو يعادل ثُلُثَ مشتقّات لفظ الأذى في القرآن الكريم كلِّه، ولم تنفرد سورةٌ غيرُ سورةِ الأحزاب بمثل هذا العدد ولا قريبٍ منه.

❁ موضوعات السورة وخصائصها:

إنّ هذه السورة هي السورة الوحيدة التي جاء فيها أمرُ اتّباع النبيّ ﷺ بلفظ الأسوة: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: 21]؛ ولفظُ الأسوة إمّا من الأسى الذي هو الألم أو الحزن، وإمّا مِن المواساة التي هي رفع الألم أو الحزن، ففي اللفظ إشارةٌ إلى أنّ حياة رسولِ الله ﷺ لم تكن حياةَ رغَدٍ، كأنّه يقول: (لقد كان لكم في رسول الله قدوةٌ حسنة، إنّما كانت حياتُه شدّةً وأذًى)، وأمّا ما جاء في سورة الممتحنة من التأسّي بإبراهيم عليه السلام وأصحابه، فليست أسوةً عامّة، بل هي أسوة خاصّة بموقف يتعلّق بالإيمان والكفر، والولاء والبراء؛ بينما الأسوة هنا عامّة، بل بالغ القرآن في عمومها، فلم يجعلها في أقواله ولا أفعاله ولا غير ذلك، بل جعلها في ذاته

الشريفة الموصوفةِ بالرّسالة، لتشمَل كُلَّ ما بلّغه وما وصل إلينا منه، وكأنّ الأذى مذْ جاءته الرسالة قد أحاط به من كلِّ جانب.

الخصائص الموضوعية لسورة الأحزاب:

تميّزت سورة الأحزاب بخصائص موضوعيّة أفردتها عن غيرها من السّور

أولًا: حفلت السورة بالعديد من الموضوعات والأحكام التي لم ترِدْ في سورة أخرى: كالحديث عن قضيّة التبنّي، وتخيير زوجات النبيّ ﷺ، وأنّهنّ لسنَ كبقيّة النّساء، وزواج زينب، وأحكام زواج النبيّ ﷺ، والأمر بالحجاب، والحديث عن الأمانة والظهار، والتوارث بين الأقارب دون غيرهم.

ثانيًا: كان لشخصيّة النبيّ ﷺ حضورُها الخاصّ في هذه السورة، حيث ذُكر بوصف النبيّ نحو خمسةَ عشَر مرة[1]، ونوديَ بوصف النبوّة في أربعة مواضع[2]، ولا يخفى أن وصفه بالنبوة - وما في تضامين هذه اللفظة من معاني النَّبْوة والارتفاع - إنّما جاء من علوِّ منزلته التي اختاره الله فيها، وهذا ما يهيء له أن يكون مبلغًا وقائدًا لأمّته؛ فالعلوّ فيه معاني الرفعة والسلطة والرقابة والاختيار، فبيته قدوة وهو خير أسوة لباقي أفراد المجتمع، وهذا يتّفق مع شخصيّة السورة في تنظيم المجتمع وإعادة هيكلة بناءه من خلال بيت القائد والمربّي فيه، وذُكر بوصف الرسالة نحو أربع عشرة مرة[3]، وذكر باسمه (محمّد ﷺ) مرّةً واحدة[4]، وهي ربع المرّات التي ذكر فيها باسمه في القرآن[5]؛ وهذا يعطي مؤشّرًا على عناية القرآن الكريم بذكره في جلّ آيات السورة، فضلًا عن تصدّي هذه السورة لنصرته والذبّ عنه، وعن وجوب تقديم طاعة الرسول ﷺ

(1) الآيات: 1، 6، 13، 28، 30، 32، 38، 45، 50 (ثلاث مرات)، 53 (مرتين)، 56، 59.

(2) الآيات: 1، 28، 45، 50.

(3) الآيات: 12، 21، 22 (مرتين)، 29، 31، 33، 36 (مرتين)، 40، 53، 57، 66، 71.

(4) الآية: 40.

(5) المرات الأخرى: آل عمران: 144، محمد: 2، الفتح: 29.

على طاعة الإنسان لنفسه، وعن وجوب التأسّى به، وعن وجوب الابتعاد عن كلّ ما يؤذيه أو يجرح شعوره، وعن وجوب الخضوع لحكم اللّه تعالى ولحكم رسوله ﷺ.

ثالثًا: إنّها السورة الوحيدة التي أشارت إلى ولايته على المؤمنين [الأحزاب: 6]، وأنّها قدّمت النبيَ ﷺ على سائر أولي العزم من الرسل السابقين [الأحزاب: 7]، وأنّها انفردت ببعض أوصافه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب: 45].

رابعًا: قرَّرت السورة أنّه الأسوة للمؤمنين [الأحزاب: 21]، وأمرتهم بالصلاة عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: 56]، وحذّرت من إيذائه [الأحزاب: 57]، وعَطفت ذكرَ الرسول ﷺ على لفظ الجلالة نحو إحدى عشَر مرّة[1].

خامسًا: هذه السّورة الكريمة تُعدّ على رأس السّور القرآنيّة التي اهتمّت ببيان فضل نساء النبيّ ﷺ وحقوقهنّ، وواجباتهنّ وخصائصهنّ، لذلك أكثرت السّورة من ندائهنّ ومخاطبتهنّ، وبيان ما يتعلّق بهنّ من أحكام وتشريعات: فذكرت تخييرَه لأزواجه [الأحزاب: 28 - 29]، وتوسّعت في الحديث عن أزواجه وما يتعلق بهنّ من أحكام، وبيّنت نفيَ الرجس عن أهل بيته [الأحزاب: 30 - 34]، وانفردت بذكر أمر زواجه من زينب [الأحزاب: 37]، وذكرت ما أحلّ اللّه له من الزوجات [الأحزاب: 50]، وذكرت أحكام دخول بيته [الأحزاب: 53].

سادسًا: تفرّدت السّورة كذلك دون غيرها من السّور بحديثها عن غزوة الأحزاب وبني قريظة وما يتعلّق بتفاصيل الأحداث التاريخيّة لهاتيْن الغزوتيْن.

سابعًا: تميزت هذه السورة بالحديث عن المنافقين وصفاتهم وطبعائهم، فذُكروا فيها بوصف النفاق نحو سبعِ مرّاتٍ[2]، من أوّل آية وحتّى آخر آية؛ ويأتي عدد مرّات ذكرهم في الترتيب الثاني بعد سورة التوبة، وكذا ذَكرت من في قلوبهم مرض نحو ثلاثِ مرات، وهذا العدد لم يرِدْ في سورةٍ أخرى[3]؛ فضلًا عن وصفهم بالإرجاف والتعويق وغيرهما.

ثامنًا: ذكرتْ هذه السورة أوصافًا نفسيّة وفعليّة للمنافقين لم ترد في سورةٍ أخرى؛ وذلك لخصوصيّة موضوعها، واستقلالِ شخصيتها، فقد أخذت هذه السورة على عاتقها

(1) الآيات: 12، 22 (مرتين)، 29، 31، 33، 36، 37، 57، 66، 71.
(2) الآيات: 1، 12، 24، 48، 60، 73 (مرتين).
(3) الآيات: 12، 32، 60.

كشفَ حقائقَ وأساليبَ وصفاتٍ خاصّةٍ بهم، ترتبط بجوّ هذه السورة وموضوعها الذي تعالجه، لتكمل مشوار السور الأخرى التي فضحت أساليبَ أخرى لهم، كسورة النساء والتوبة وغيرهما.

تاسعًا: ذُكرت المعاصي والذنوب بدرجاتها وأسمائها المختلفة في هذه السورة بشكل لافت، من مثل: الكفر، النفاق، الخطأ، الفاحشة، الرجس، الجناح، المعصية، البهتان، الإثم[1]؛ وهي قضيّة تتّفق مع شخصيّة السّورة، التي قامت على تنظيم المجتمع وتقوية إدارته والفصل بين الأصناف.

عاشرًا: هنالك قضيّةٌ وظاهرة أخرى لافتة في هذه السورة، وهي الحديث عن أنواع المشاعر الإنسانيّة، لا سيما المتعلّقة بالخوف، وتصويرُه تصويرًا حيًّا؛ وكذا بيان درجات ردود الفعل البشريّ إزاءَ أيِّ حدثٍ جللٍ من حيث الاندهاش والإنكار، وفي النهاية التسليم للواقع، وهذا يدعو لدراسة الإعجاز النفسيّ في هذه السورة، أثناءَ حديثها عمّا جرى يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: 10 - 11]، والحديثِ عن الخوف [الأحزاب: 19]، وعنِ الرّعبِ [الأحزاب: 26]، وعنِ الخشية [الأحزاب: 37]، و[الأحزاب: 39]، وعنِ الحُزن والرضى [الأحزاب: 51]، وعنِ الإرجاف [الأحزاب: 60]، والإشفاق [الأحزاب: 72]، ولا شكّ أنّ إبراز هذه المشاعر الإنسانيّة، وكشفَ أستار غَيبِها يرتبط تمامًا بجوّ هذه السورة وطبيعةِ مهمّتها، والنّماذج التي ساقتْها لتقرير هذه المهمّة.

تميّزت سورة الأحزاب بخصائص أسلوبيّة أفردتها عن غيرها من السّور

الخصائص الأسلوبية لسورة الأحزاب:

ميّزت أساليبُ وقضايا لغويّة عديدة سورة الأحزاب عن غيرها من السور، وإن شاركتها بعض السور في شيءٍ من هذه الأساليب، فمنها:

(1) الآيات: 1، 5، 8، 30، 33، 36، 37، 38، 50، 55، 58.

أولًا: مطلعها: شابه مطلع سورتَين في القرآن، (الطلاق) و(التحريم) المدنيَّتَين، كلّها بدأت بقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ ثمّ بدأت الأحزاب بوصيّته ﷺ بالتّقوى، وجاءت سورة الطلاق لتذكّر بثمرات التّقوى ومظاهره، وشاركت سورة التّحريم سورة الأحزاب الحديثَ عن نساء بيت النّبوّة والوصايا للمؤمنين، وجاءت حافلةً بالنّداءات للنبيّ والمؤمنين والكافرين، تمامًا كالنّداءات في سورة الأحزاب.

ثانيًا: يتعانقُ مطلع سورة الأحزاب مع خاتمتها؛ فبدأت السورة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وخُتمت ببيان أنّ هذه الأوامر والنواهي إنما هي من المفهوم العامّ للأمانة التي كُلّف بها الإنسان: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾ [الأحزاب: 72 - 73]؛ فكانت خاتمتُها من ردّ العجُز على الصّدر.

ثالثًا: من مميّزات سورة الأحزاب الأسلوبيّة أنّه ورد الفعل (كان) بكثرة في آيات السّورة وفي فواصلها، حيث ورد في السورة نحو (33) مرة، وجُلّها في فواصل آياتها؛ وفاقتْها بهذا سورةُ النساء، التي ورد فيها هذا الفعل نحو (68) مرّة، وجلّها في الفواصل كذلك، وإن اشتركت السورتان في ترصيع فواصلهما بأسماء الله الحسنى بشكل لافت، فإنّه في سورة النساء جاءت أسماء الله الحسنى في فواصل آياتها بأكثر من (50) آية، لا يقلّ منها عن (40) آية دخلت على فاصلتها (كان)؛ وكذا في سورة الأحزاب، حظيت نحو (20) آية بأسماء الله الحسنى، دخلت على أكثرها (كان) في نهاية هذه الفواصل.

رابعًا: كثرة استعمال أسلوب القصر في آيات سورة الأحزاب بطرائقه المختلفة، لا سيما أسلوب الاستثناء بعد النفي، حيث ورد في نحو (12) آية[1].

خامسًا: جاءت كلمة (القلب) نحو (10) مرّات في هذه السورة[2]، وهي بذلك من أكثر

(1) الآيات: 6، 12، 13، 14، 16، 18، 20، 22، 39، 52، 53، 60.
(2) الآيات: 4، 5، 10، 12، 26، 32، 51، 53 (مرتين)، 60.

السور التي ذكرت فيها هذه الكلمة، وسبقها بذلك سورة التوبة التي شابهت هذه السورة في إعادة تنظيم علاقة المجتمع المسلم بغيره من المجتمعات، وإعادة تصويب العلاقات الدوليّة والداخليّة للمجتمع المسلم؛ وهذه المهمّات تحتاج قبل كلِّ شيءٍ إلى سلامة القلوب، فالقلب هو مَلِك الأعضاء، وهو مناط الأمر والصلاح والفساد.

سادسًا: جاءت كلمة (الأذى) ومشتقّاتها وصيغها المختلفة نحو (7) مرّات في هذه السورة[1]؛ وهي نحو ثُلُثِ المرّات التي وردت فيها في القرآن الكريم؛ لا سيما في النهي عن إيذاء النبيّ ﷺ وأهلِ بيته.

سبعًا: انفردت سورة الأحزاب بألفاظٍ فريدة في جذرها، لم ترد في غيرها مطلقًا، وهي: ﴿جَوۡفِهِۦۚ﴾ [الأحزاب: 4] و﴿يَثۡرِبَ﴾ [الأحزاب: 13] و﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: 18] و﴿سَلَقُوكُم﴾ [الأحزاب: 19] و﴿نَحۡبَهُۥ﴾ [الأحزاب: 23] و﴿صَيَاصِيهِمۡ﴾ [الأحزاب: 26] و﴿زَيۡدٌ﴾ [الأحزاب: 37] و﴿وَطَرٗا﴾ [الأحزاب: 37]؛ وجاءت هذه الكلمات الفريدة منسجمةً ومتساوقةً مع شخصيّة السورة وموضوعاتها ومحاورها التي عالجتها، بحيث أصبحت علامة فارقة لها عن غيرها من السور.

ثامنًا: انفردت السورةُ باشتقاقاتٍ وصيَغٍ لم ترد إلّا في هذه السورة، وإن كان ورد لها اشتقاقاتٌ وصيَغٌ أخرى في غيرها من سور القرآن، مثل: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾ [الأحزاب: 60] و﴿أَقۡطَارِهَا﴾ [الأحزاب: 14] و﴿قَلۡبَيۡنِ﴾ [الأحزاب: 4] و﴿تَخۡضَعۡنَ﴾ [الأحزاب: 32] و﴿تَبَرَّجۡنَ﴾ [الأحزاب: 33] و﴿تَبَرُّجَ﴾ [الأحزاب: 33] وغيرها.

مناسبة سورة الأحزاب بالسّور المجاورة لها:

اتّصال سورة الأحزاب بسورة السجدة:

جاءت سورة الأحزاب في التّرتيب المصحفيّ بعد سورة السّجدة، وقد خُتمت سورة السجدة بأمر النّبيّ ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم، في قول الله تعالى ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ [السجدة: 30]؛ وبُدئت سورة الأحزاب بأمره ﷺ بالتقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتّباع ما أوحي إليه من ربه، والتوكل عليه، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

(1) الآيات: 48، 53 (مرتين)، 57، 58، 59، 69.

كما أنّ سورة السّجدة قامت على تعظيم أمر النّبوّة، ببيان عظمة الله الذي أنزل الكتاب، وأنّه خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، وأنّه استوى على العرش، وأنّه يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض، وأنّه عالم الغيب والشّهادة، وأنّه أحسنَ كلَّ شيء خلقَه، إلى آخر هذه التّجلّيات العظيمة للقدرة والرّحمة والغضب، ثمّ تأتي سورة الأحزاب يَشيع فيها التّشريع والإنباء، وتُظهر مكانةَ النبيّ ﷺ، ومكانةَ أهل بيته باعتباره المبلّغ بالقرآن، ثمّ عرضتِ السّورة صورةَ ما حول بيت النبوّة، فبيّنت تحقيق الانفصال بين طوائف وفرق المدينة إزاءَ الحدث الجلل الذي ألمّ بها عندما حاصرتها الأحزاب وبلغت القلوب الحناجر، فانقسم النّاس إلى مؤمنين صابرين، وإلى كافرين منكرين، وإلى أصناف متفرّقة من أهل النّفاق، منهم المعوّقون، والمُرجِفون، والمُثبِّطون؛ فسورة السّجدة كأنّها صوت الألوهيّة في رحَموتها وجبَروتها واقتدارها، وسورة الأحزاب تتخلّل الحياة وتداخلها، وتصحّح أخطاءها وتشرّع لسدادها وصوابها(1).

اتّصال سورة الأحزاب بسورة سبأ:

وأمّا وجه ارتباط سورة الأحزاب بسورة سبأ التي تلتْها في ترتيب المصحف الشّريف، فذلك أنّ سورة سبأ افتتحت ببيان صفات المُلك التامّ والقدرة الشاملة التي تناسب ختام الأحزاب في تطبيق العذاب وتقديم الثواب، فقال تعالى في نهاية سورة الأحزاب: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 73]، وقال سبحانه في مقدّمة سورة سبأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: 1 - 2]؛ ولا يخفى ما بين تذييل الآيتين من الارتباط: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب: 73]، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ: 2].

ثمّ إنّه جاء في سورة الأحزاب سؤال الكفّار عن الساعة استهزاءً: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: 63]، وفي سورة سبأ حكايةُ إنكارهم لها صراحةً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: 3].

(1) أبو موسى، محمد، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 29 - 31.

ومن براعة الانتقال بين السّورتين أنِ اختُتِمت سورة الأحزاب بالحديث عن عَرض الأمانة على السّماوات والأرض: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ [الأحزاب: 72]، وبُدِئَت سورة سبأ بالحديث عن السّماوات والأرض ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ [سبأ: 1].

ومن لطيف التّناسب بين السّورتين أن الرّيح كانت نعمةً من نعم اللّه على المؤمنين، وجنديًّا من جنوده أرسلها على الأحزاب، وفي سورة سبأ كانت أيضًا نعمةً من نعم اللّه تعالى على نبيّه سليمان عليه السلام، وكانت جنديًّا من جنوده بأمر اللّه، تأتمر بأمره، وتسير معه حيث يشاء.

ومنه أنّ في سورة الأحزاب وصيّةَ نساء بيت النبوّة بتقوى اللّه وشكرِه على نعمه، حتّى يذهب عنهم الرّجس أهل البيت، وفي سورة سبأ وصيّة آل داود كذلك: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾

[الأحزاب: 1 - 3]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

توجيهُ الرسول والمؤمنين إلى ما يُعينُ على الإعراضِ عن الكافرين

لمّا خُتمت سورةُ السجدة بأمر الرسول ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظارِ ما يحكمُ به فيهم ربُّ العالمين سبحانه، في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ [السجدة: 30]، بعد تحقيق أنّ تنزيلَ الكتاب مِنْ عند المُدَبِّر لهذا الخلق كلّه، والنّهي عن الشكِّ في لقائه: افتتح هذه السورةَ بأمر النبيِّ بأساس ذلك والمعينِ عليه، وهو التقوى؛ ثم عطف عليه النهيَ عن طاعة المُخالفين، مُجاهرين كانوا أو مُتَساترين، والأمرَ باتّباع الوحي الذي أعظمُه الكتابُ، تنبيهًا على أنّ الإعراض إنّما يكون طاعةً لله مع مراعاةِ تقواه[1]؛ ثمّ أمره أيضًا بما يعين على تحمّل الأعباء، ويقوّيه في مواجهة الضغوط والأزمات، وهو التوكُّل على الله القادرِ على أن يكفيَ مَنْ توكّل عليه ويرعاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُطِعِ﴾: (طوع) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الإِصْحابِ والِانْقيادِ، يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انْقادَ مَعَهُ ومَضَى لِأَمْرِهِ؛ وأَطاعَهُ بِمَعْنَى طاعَ لَهُ؛ ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوَعَهُ[2]، ويُعَرَّف الطَّوْعُ بأنّه: الانقيادُ، ويضادّه الكَره[3]، قال تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 273 بتصرف.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).

(3) الفراهيدي، العين: (طوع).

[فصلت: 11]؛ والطّاعَةُ مثله لكنّها أكثر ما تقال في الائتمار لِما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌۚ﴾ [محمد: 21][1]، ومعناه في الآية ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾: لاتفعلْ ما يأمرونك به أو يطلبونه منك.

2) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: (وحي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ في إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ، فالوَحْيُ: الإِشَارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ؛ وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فَهُوَ وحْيٌ كَيْفَ كانَ[2]، والوحْي يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتّعريض، وقد يكون بصوتٍ مجرّد عن التّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حُمل على ذلك قولُه تعالى عن زكريّا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، فقد قيل: رَمَزَ، وقيل: أشارَ، وقيل: كَتَبَ[3]، والمقصود في الآية ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾: ما يَتَضَمَّنُه القرآنُ الموحَى به مِن أوامرَ ونواهٍ، وكلّ ما يأتيك من عند الله.

3) ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ - ﴿وَكِيلٗا﴾: (وكل) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أَمْرِكَ؛ مِنْ ذَلِكَ الوُكَلَةُ، يَقولونَ وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، والتَّوَكُّلُ مِنْهُ، وهوَ إِظْهارُ العَجْزِ في الأَمْرِ والاِعْتِمادُ عَلَى غَيْرِكَ[4]، والتَّوَكُّلُ يقال على وجهين، أحدهما: تَوَكَّلْتُ لفلان بمعنى: تولّيت له، والآخر: وكّلْتُه فَتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدتُه، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التوبة: 51]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: 3][5]؛ ما يفيد أن معنى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ اعتمد عليه، ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾: أي كافيًا ومعينًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تبدأ الآيات الكريمة في مطلع سورة الأحزاب بنداء رسول الله ﷺ بوصف النبوّة، تقديرًا لشأنه وتفخيمًا لقدره، وتوجيهًا إلى أهمّيَّة ما يأتي بعد النداء مما يعين على استمرار إعراضه عن الكافرين، من أمرٍ بالمداومة على تقوى الله تعالى والخوف منه، والاستمرارِ في عدم طاعة الكافرين والمنافقين فيما يطلبون ويرغبون ويزيّنون،

(1) الراغب، مفردات القرآن: (طوع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحى)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (وحى).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (وحى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل)، وابن منظور، لسان العرب: (وكل).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (وكل).

نـهـيٌ مَـحـوطٌ بما يُعينُ عليه ويُـســاعــدُ في القيامِ به

والاستعاضةِ عن كلامهم وآرائهم بوحي اللّه تعالى المشتمل على ما فيه مصلحة الرسول ومصالحُ أمَّته، مع ضرورة الثبات والاستمرار في التوكّل على اللّه تعالى في كلِّ الأمور، لأنَّه سبحانه القادرُ على كفايته، وكفاية كُلِّ مَنْ يتوكل عليه، وإعطائهم جميعَ ما يرغبون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (يا) ونكتة نداءِ القريب بها:

الخطابُ الذي يأتي بعد حرفِ النداء مَعْنيٌّ به جِدًّا

(يا) في قول اللّه تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ حرفُ نداءٍ يستعمل للبعيد، وهو أكثرُ حروف النداء استعمالًا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها؛ وقد يُنادى بها القريب توكيدًا[2]، وفي الكشّاف: "(يا) حرف نداء، وُضع في أصله لنداء البعيد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المُؤذِن بأنَّ الخطابَ الذي يَتْلوه مَعْنِيٌّ به جِدًّا"[3]، ففي النداء تمهيد وتوطئة للإقبال على خطاب الرَّسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة.

أهــمّ أغــراض السّورة: أحوال النبي، وتوجيهه بتأدية مراد ربّه على أكمل وجهٍ

وافتتاح السّورة بنداء النبي ﷺ مُؤذِن بأنَّ الأهمَّ من سَوق هذه السورة يخصُّ أحوال النبيّ ﷺ، وقد نودي فيها خمسَ مرّات في افتتاح أغراضٍ مختلفة من التشريع، بعضها خاصّ به، وبعضها يتعلّق بغيره وله ملابسة له: فالنداء الأوّل: لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربّه؛ والنداء الثاني: لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه؛ والنداء الثالث: لافتتاح بيان تحديد تقلّبات شؤون رسالته في معاملة الأمة؛ والنداء الرابع: في طالعة غرض أحكام تزوّجه وسيرته مع نسائه؛ والنداء الخامس: في غرض تبليغه آدابَ النساء من أهل بيته ومن المؤمنات.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 169 وما بعده بتصرف.
(2) ابن هشام، مغنى اللبيب: 2/ 429.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.

وفي هذا النداء الأوّل افتتح به الغرضَ الأصليَّ لبقيَّة الأغراض، وهو تحديد واجباتِ رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداءُ الدين أعمالَه[1]؛ ففي هذا النداء التهيئةُ والتوجيهُ إلى أهمّيَّة ما يأتي بعد النداء من أوامرَ ونواهٍ، لا سيما النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، لِما في النّهي من معاني الزجر التي تحتاج إلى التمهيد بالملاطفة والمؤانسة[2].

سرّ النداء بصيغة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

حَـثُّ الـنـاسِ على فِعل الأمور العظام يقتضي نداءَهم بالآكَدِ الأبْلَغِ

(أيّ) في قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اسمٌ مبهمٌ مُفتقِرٌ إلى ما يوضّحه ويُزيل إبهامَه، ولا يُعلم المقصودُ بالنداء إلّا بإردافه نعتًا يُزيل إبهامَه، ودخول (ها) على نعت (أيّ) في النداء توجب التنبيه على أنَّه المقصود بالنداء؛ وهي في هذه الصيغة تعاضِدُ حرفَ النِّداء وتُقَوّيه، فتزيدُه قوّةً وتأكيدًا[3]، والسرُّ في كثرة النداء بهذه الصيغة في كتاب الله المجيد: هو استقلالُها بأوجهٍ من التأكيد وأسبابٍ من المبالغة، لأنّ كلّ ما نادى الله له عباده - من أوامره، ونواهيه، وعِظاته، وزواجره، ووعده، ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغيرِ ذلك ممّا أنطق به كتابه - أمورٌ عِظام، وخطوبٌ جسام، ومعانٍ عليهم أنْ يتيقّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، إذ هم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكَد الأبلغ[4]؛ وتأدية مراد الله تعالى على وجهه الأتمّ، بالإعراض عن الكافرين، والمداومةِ على تقوى الله تعالى، وعدمِ طاعة الكافرين والمنافقين في مطالبهم، والاكتفاءِ بالوحي الإلهيّ، والتوكّلِ على الله تعالى من عِظام الأمور، لأنّها تحدّد طريق الهداية الأكمل، وسبيلَ الرشاد الأمثل، الموصِلَين إلى الفلاح.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 249.

(2) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 304.

(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 403، والهروي، الأزهية، ص: 107.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1/ 90.

فائدة تعريف ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وموقعه من الإعراب:

المقصودُ بالنداء هو الرسولُ، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين

تعريف ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ بـ(أل) في قول اللّه تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ لتعريف العهد؛ وهي تدل على أنّ المقصود الأوّل بهذا النداء هو رسول اللّه ﷺ، ثمّ يأتي بعده بالتبعيّة جميعُ أفراد أمّته، وليس المَعْنيُّ بالنداء جنسَ الأنبياء والمرسلين، وكلمة ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ تعرب صفةً أو بيانًا لـ(أيّ)، وهي تابعةٌ له في الإعراب بالضمّ.

أغراض النداء بوصف النبوّة:

خطاب النبي ملاطفةٌ وتكريم وتذكيرٌ بمهام النبوة وتعليمٌ بطريقة خطابِه

نودي الرسولُ محمّدٌ ﷺ في القرآن بوصف النبوّة - كما في قول اللّه تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ - لأغراضٍ كثيرةٍ، منها ملاطفتُه ﷺ ومؤانستُه بالإقبالِ عليه وندائِه بما يفيد تفخيمَه وتوقيرَه، وتكريمُه والتحبُّبُ إليه، لندائه بصيغة تجمع معانيَ التنبيه والإثارة والتشويق إلى صفته التي اختاره اللّه تعالى لها، وهى النبوّة؛ ومنها تذكيرُه ﷺ بِمهامِّ النُّبوّة ومتطلّباتها، وإعلامُه وإعلامُ المسلمين بأهمّيّة الأمور التي يُنادَى لأجلها وخطورتها؛ ومنها تعليمُ الأمّة كيفية مخاطبة الرسول ﷺ، وتوجيهُهُم إلى الطريقة التي ينادونه بها[1].

تشريفُ النبي عن أن يُخاطَبَ بما يُخاطبُ به غيرُه

ونداء النبي ﷺ في الآية بوصف النبوّة دون اسمه العلَم تشريفٌ له بفضل هذا الوصف، ليربأ بمقامه عن أن يُخاطب بمثل ما يُخاطب به غيرُه؛ ولذلك لم يُنادَ في القرآن بغير ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أو ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 67]، بخلاف الإخبار عنه، فقد يجيء بهذا الوصف، كقوله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التحريم: 8]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ﴾ [الفرقان: 30]، وقد يجيء باسمه العلَم، كقوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40]، بل قد يتعيّن إجراء اسمه العلم ليوصف بعده بالرسالة، كقوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29]؛ وتلك مقاماتٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 518، بتصرف.

يقصد فيها تعليم الناس بأنّ صاحب ذلك الاسم هو رسول اللّٰه، أو تلقينٌ لهم بأن يسمّوه بذلك ويَدْعوهُ به، فَإنَّ عِلْمَ أَسْمائِهِ منَ الإيمانِ، لئلا يَلْتَبسَ بِغيرِه[1].

وفي نداء الرسول ﷺ بوصف النبوة احتراسٌ وجَبْرٌ لِما يوهِمُه الأمرُ بالتقوى والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين[2]، "جريًا على عادة القرآن الكريم في التعبير بما يُؤانِسُ الرسول ويُزيل ما قد يعلَقُ في نفسه بسبب الأمر أو النّهي أو العتاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: 73]، وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمل: 1 - 2]، وقوله سبحانه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: 43]"[3].

مِنْ عادةِ القرآن الكريم التعبيرُ بما يُؤانِسُ الرسولَ قبل الأمر والنهي

اختلاف القراءات في كلمة ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ وتوجيهها:

قرأ نافع لفظ (النبيّ)، وما جاء منه (النبيّون، والنبيّين، والأنبياء، والنبوّة) حيث وقع في القرآن بالهمز: ﴿ٱلنَّبِيٓءُ﴾، وقرأ الباقون بغير همز[4]، فالحجّة لمن همز أنّه أخذه من قوله: (أنْبَأَ بِالحقِّ) إذا أخبَرَ به، ومنه: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: 31]، والحجّة لمن ترك الهمز أن الهمز مستثقل في كلام العرب فخفّفوه، والثاني: أنّه مأخوذ من النَّبْوَةِ وهي: ما ارتفع من الأرض وعلا؛ لأنّه أخبر عن العالم العلوي، وأتى به عن اللّٰه تعالى[5]، وعلى كلا الاشتقاقين من النُّبوِّ بمعنى الارتفاع والسمو، أو من النَّبَأ، وهو الخبر الصادق ذو الشأن العظيم، يمكن الأخذ بهما جميعًا في آن واحد، وإن كان الاشتقاق الثاني جديرًا بالعناية لسَعة دلالته، وبالنظر في

مِنْ عادةِ القرآن الكريم التعبيرُ بما يُؤانِسُ الرسولَ قبل الأمر والنهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 249.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 142.
(3) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 312.
(4) ابن الجزري، النشر: 01/ 406.
(5) ابن خالويه، الحجة، ص: 80.

النصوص القرآنية، سنلاحظ أنَّ جميع دلالات هذين الاشتقاقين قد اعتمدت فيها بصورة واضحة، فاشتقاق كلمة (نبيّ) من النُّبوِّ، يدلّ على اكتساب مقام النبوة الرفيع، الأمر الذي جعل صاحب هذا المقام يستحق عند بارئه لقب نبي، وأما اشتقاق كلمة (نبيّ) من النَّبَأِ، فيعني الخبر الصادق ذا الشأن العظيم، فكلمة (نبيّ) من هذا المصدر تشير إلى العلوم اللّدنية، والأنباء الهامة ذات الشأن العظيم التي يتلقاها الشخص الذي يبلغ مقام النبوة العلي.

توجيه متشابه الافتتاح بالنداء:

السـورُ الثـلاثُ تـهـتـمُّ بـأمـورٍ تخصُّ الرسولَ والأسـرةَ والمجتمعَ

افتتح النظمُ الكريمُ سورةَ الأحزاب وسورةَ الطلاق وسورةَ التحريم بنداء النبوّة، فقال في أوّل الأحزاب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقال في مفتتح الطلاق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: 1]، وقال في مطلع التحريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾ [التحريم: 1]، وثمّة وشائجُ وعلاقاتٌ تجمع بين السور الثلاث، أدّت إلى افتتاحها بنداء النبوة، منها: اهتمامُ هذه السور بالدعوة إلى توقير النبي ﷺ وإنزاله المنزلةَ اللائقة به، سواءً على مستوى المجتمع، أو بين أصحابه، أو في داخل بيته بين نسائه؛ ومنها: معالجتُها قضايا وأحداثًا تخصُّ الأسرة المسلمة على مستوى الرجل والمرأة والأبناء والبنات؛ ومنها كذلك: الحديثُ عن مفاهيمَ وقيمٍ تخصُّ المجتمع المسلم، وتعمل على ترسيخها فيه.

دلالة الأمر﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

الـدوام على تقوى الله يُعين عـلى الـتـزام الأوامر واجتنابِ النّواهي

أُمِر النّبي ﷺ في مُفتتح السورة وقَبلَ النَّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين وغيرها من الأوامر بالتقوى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ - التي تعني الخوفَ من الله تعالى، والتزامَ أوامره واجتنابَ نواهيه

- لأنّها المعينُ على ما يأتي بعد ذلك من نواهٍ وأوامرَ، فالمُداومة على التحلّي بها ممّا يساعد على تحمّل المهام الثّقال، والمرادُ بالتَّقوى المأمورِ به: الثباتُ عليهِ والدوام، والازديادُ منه؛ فإنَّ له بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مداه، إذ متى أُمر أحدٌ بشيء هو به متلبّس فإنّما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية[1].

دلالة عطفِ ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ بالواو:

عـــدم طـاعـة الـكــافـريــن والمنافقين مسارٌ لتمثُّل التقوى سُلوكًا

الواو في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ لعطف النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين على الأمر بالتقوى، عطفَ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ المعطوفُ داخلٌ في المعطوف عليه، الذي يتّسع ليشملَه ويشملَ غيرَه من النَّواهي والأوامر، وتحرير ذلك أن عدم طاعة الكافرين والمنافقين مسارٌ لتمثّل التقوى سلوكًا في المعاملات، وفي مهامّ الرّسالة والتبليغ.

خَطَرُ الكافرين والـمـنـافـقـين يستدعي تأكيدَ الـنّــهـي عـن طاعتِهم بأكثرَ مِن أسلوبٍ

وعُطفَ الخاصُّ على العام لِسَعَةِ مصطلح التقوى وشمولِه كلَّ الأوامر والنواهي، "وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهي عن طاعتهم ويؤكّده، وكأنّه سبحانه نهى عن طاعتهم مرتين، مرّة عن طريق العموم ومرّة عن طريق التفصيل..، وهذا التحذير آيةٌ من آيات الله، فإن تاريخ الإسلام كله يشهد بأنّهم أعداءٌ حاقدون، يتربّصون به في كل حين، وإنْ لبسوا ثياب الأصدقاء الناصحين"[2].

الغرضُ من النّهي ﴿وَلَا تُطِعِ﴾:

توجيهٌ لما يتعلّق بـمـقـام الـنـبـوّة مــن الــعـــداوة والمطاعن

أشعر النّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ "أنَّ تَشْريعًا عَظيمًا سَيُلْقَى إلَى النبي ﷺ، لا يَخْلو مَنْ حَرَجٍ عليه وعَلَى بَعْضِ أُمَّتِه، وأنَّهُ سَيَلْقَى مَطاعِنَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ"[3]، وفي النهي أيضًا حثٌّ للنبيّ ﷺ وإثارتُه إلى المداومة على عدم طاعتهم،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 367، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.
(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

وعدم الإصغاء لكلامهم، أو التماسِ النُّصح والمشورة منهم، لانعدام صدقهم، وتحقّق مكرهم وكيدهم للإسلام والمسلمين.

بلاغة القصر في جملتَيِ الأمر والنّهي:

تأكيدُ حصر التقوى في التعلّق بالله تعالى دون غيره

في جملتَي الأمر بتقوى الله تعالى، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾: قصرٌ غيرُ اصطلاحيٍّ، لأنّ مرادَهما: "قَصْرُ تَقْوَاهُ عَلَى التَّعَلُّقِ بالله دونَ غَيْرِه، فَإِنَّ مَعْنَى (لا تُطِعِ) مُرادِفُ مَعْنَى: (لا تَتَّقِ الكافرينَ والمُنافقينَ)، فَإِنَّ الطّاعَةَ تَقْوَى؛ فَصارَ مَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ مُفيدًا مَعْنَى: (يا أيُّها النَّبيُّ لا تَتَّقِ إلّا الله)، فَعَدَلَ عَنْ صيغَةِ القَصْرِ، وهيَ أَشْهَرُ في الكَلامِ البَليغ وأَوْجَزُ، إلَى ذِكْرِ جُمْلَتَيْ أَمْرٍ ونَهْيٍ، لِقَصْدِ النَّصِّ عَلَى أَنَّهُ قَصْرٌ إضافيٌّ أُريدَ بِهِ أَنْ لا يُطيعَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ لِأَنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَى أَنْ يُقالَ: (لا تَتَّقِ إلّا الله) لَما أصاخَتْ إلَيْهِ الأَسْماعُ إصاخَةً خاصَّةً، لِأَنَّ تَقْوَى النَّبيِّ ﷺ رَبَّهُ أَمْرٌ مَعْلومٌ، فَسَلَكَ مَسْلَكَ الإِطْنابِ لِهَذا... فَإِنَّ أَصْلَ صيغَةِ القَصْرِ أَنَّها مُخْتَصَرَةٌ مِنْ جُمْلَتَيْ إِثْباتٍ ونَفْيٍ"[1].

مآلُ التشهير بعدم الطاعة اليأسُ من المكايدة

أصل صيغة القصر أنّها مختصرة من جملتَيْ إثباتٍ ونفيٍ، ولكون جملة ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ كالتكملة للتي قبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: عُطفت عليها لاتّحاد الغرض منهما، وقد تعيّن بهذا أن الأمر والنهي ههنا مستعملان في طلب الاستمرار على ما هو ملازم له من تقوى الله، فأشعر ذلك أن تشريعًا عظيمًا سيلقى إليه لا يخلو من حرج عليه فيه وعلى بعض أمّته، وأنه سيلقى مطاعن الكافرين والمنافقين، وفائدة هذا القصر: التّشهير لهم بأنّ النبيّ ﷺ لا يقبل أقوالهم، لِيَيْأَسوا من ذلك، لأنّ المنافقين كانوا يدبّرون مع المشركين المكايدَ، ويظهرون أنّهم ينصحون النبي ﷺ، ويلحّون عليه بالطلبات نصحًا تظاهرًا بالإسلام[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250 - 251.

نوع (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾:

الـكـافـرون والـمنـافـقـون متوافقون على الكيد للإسلام والمسلمين إلى يوم الدين

قد يُراد بالكافرين في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾: المجاهرون بالكفر، لأنّه قوبل بالمنافقين، فيجوز أن يكونوا المشركين كما هو غالب إطلاق هذا الوصف في القرآن؛ ويجوز أن يكونوا اليهود، ولو حُمل على ما يعمّ نوعي الكافرين المجاهرين لم يكن بعيدًا[1]، وعلى هذا فـ (أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ لتعريف الجنس، والمعنى: (لا تطعْ أحدًا من الكافرين والمنافقين)، ولا تستمعْ إليهم، ولا تطلبِ المشورةَ والنصحَ من أحدهم، فكلُّهم متماثلون متشابهون متوافقون على الإضرار بك وبأتباعك إلى يوم الدين.

نكتة عطف ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ على ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الـمـنـافـقـون كـافـرون وإنْ أعلنوا الإسلام وأدّوا شعائِرَه

في قول الله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ عطفُ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ على ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا العطف دلالةٌ على إلحاقهم بهم في حقيقة الكفر، وإن أعلنوا الإسلام، وأدّوا شعائرَه، وأظهروا المحبةَ والودّ، وزيَّنوا كلامَهم بحرصهم على الإسلام والمسلمين، ولا يخفى أنّهم بذلك أشدُّ خطرًا وأعظم ضررًا؛ ولو اقتصر البيانُ القرآنيُّ الكريم على النّهى عن طاعة الكافرين لفُهم جوازُ الأخذِ بنصيحة المنافقين، ولا يخفى أنَّ ذلك غيرُ مراد، لِما فيه من إضرارٍ بالغٍ بالإسلام والمسلمين[2].

لا أحـدَ يَطلبُ مــن الـنـبـي طاعتَه واتّباعَه غـيرُ الـكـافـريـن والمنافقين

وخَصَّ البيان القرآنيُّ الكافرين والمنافقين دون غيرهما بالذكر لِوَجْهَيْن: أَحَدُهُما أنَّ ذِكْرَ الغَيْرِ لا حاجَةَ إلَيْهِ، لِأنَّ غَيْرَهُما لا يَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الاتِّباعَ، ولا يَتَوَقَّعُ أنْ يَصيرَ النَّبِيُّ ﷺ مُطيعًا لَهُ، بَلْ يَقْصِدُ اتِّباعَهُ ولا يَكونُ عِنْدَهُ إلّا مُطاعًا؛ والآخَر أنَّ في قولِ اللّهِ تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ مَنْعٌ للنَّبيِّ ﷺ مِنْ طاعَةِ الكُلِّ، لِأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250 - 251.

(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 305، بتصرف.

كُلَّ مَنْ يَأْمُرُ النَّبيَّ ﷺ بأمْرٍ أمْرَ إيجابٍ، مُعْتَقِدًا عَلَى أنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ يُعاقِبُهُ بِحَقٍّ: يَكونُ كافِرًا، سواءً كان مُجاهِرًا بكفرِه أو منافِقًا به[1].

توجيه متشابه النهي عن الطاعة:

الانشغالُ بالمهامِّ والأعمال النافعة أهمُّ من الردِّ على أذى الكافرين والمنافقين

تكرر النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين بعد مفتتح سورة الأحزاب في الآية الثامنة والأربعين من السورة نفسِها، في قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: 48]، وجاء ذلك في سياق توجيه القرآن رسولَ اللّه إلى المهامّ المنوطة به، والتي منها المداومة على عدم طاعتهم والاستماع إليهم في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٤٨﴾ [الأحزاب: 45 - 48]، عقِبَ إرجاف المنافقين وإيذائهم رسولَ اللّه ﷺ بالكلام في قضيّة زواجه من السيدة زينب بنت جحش، مُطلَّقةِ ابنِه بالتبنّي: زيد بن حارثة رضي الله عنه وأرضاهما، فكان من الضروريِّ التذكيرُ بذلك ليمضي الرسول في طريقه، ويقومَ بمهامّ رسالته، غيرَ عابئٍ بكلامهم، ولا مكترث بأذاهم؛ ومن هنا تتّضح علّة زيادة القيد ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، لاقتران الموقف بهذه الحادثة البائن أذاها.

نكتة الفصل في الآية:

الثقةُ في علم الله وحكمتِه مِنْ بواعثِ التزام أوامرِه واجتنابِ نواهيه

جاءت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مفصولةً عن أوّل الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ﴾، لأنّها بمثابة التعليل لِما سبقها من أمرٍ بالتقوى، ونهيٍ عن طاعة الكافرين والمنافقين، ببيان صدورهما من إلهٍ يتّصف بالعلم والحكمة، أي: (إنّ اللّهَ حَقيقٌ بِالطّاعَةِ لَهُ دونَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ، لِأنَّهُ عَليمٌ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 154.

حَكيمٌ، فَلا يَأْمُرُ إلّا بِما فيهِ الصَّلاحُ)[1]؛ وهذا ما يساعد على امتثالهما، والالتزام بهما، كما هي عادة البيان القرآنيّ في إردافه الأمرَ والنّهيَ بما يُعين عليهما.

ويُمكن أنْ يكونَ سببُ الفصل: ما بين الجملتين مِن الاختلافِ في الخبر والإنشاء فيما يسمى كمال الانقطاع، الذي تنفصلُ به الجملُ لفظيًّا، ولكنّها لا تنقطع عن بعضها معنويًّا.

غرَض تتابع المؤكّدات:

تقوية علم الله ببواطن الأمور، وتأكيد حكمته في النهي عن طاعة هؤلاء

جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾ وبالجملة الاسميّة وبفعل الكينونة الماضي، لتقوية معنى علم الله ببواطن هؤلاء، وحكمتِه البالغة في النّهي عن طاعتهم، ما مِنْ شأنه توكيدُ الامتثال لِما أمَر به، وتقويةُ الاجتناب لِما نَهَى عنه.

بلاغة العدول إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهَ﴾:

التعبيرُ باسم الجلالة يدفع النُّفوسَ إلى الامتثال والالتزام

كان مُقتضى الظاهر أنْ يُقال: (إنّه كان عليمًا حكيمًا)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن التعبير بالضمير إلى التعبير باسم الجلالة العَلَم: ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، الذي يُستعمل في مواضعِ التأليه والتعظيم، وسبب هذا العدول أنّ التعبير بالاسم الأعظم يحقّق المهابةَ والإجلالَ في نُفوس الخلق، ويدفعهم إلى الامتثال والالتزام؛ لا سيما فيما يتَّصلُ برفض طاعةِ الكافرين والمنافقين، الّذين يزيّنون كلامَهم، ويَبْدون فيه ناصحين مُخلِصين حريصين على مصلحة المسلمين، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على الخبر:

العِلْمُ والحكمةُ مِنْ صفات الله الأزليّة الأبديّة

في التعبير بفعل الكينونة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ دلالةٌ على أنّ العِلمَ بحقائقِ الخلق، والحكمةَ في الأوامر والنّواهي: من صفات الله تعالى الأزليّة، وسِماتِه الأبديّة، التي لا تتبدّل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 250.

ولا تتغيّر، ولا تخطيء في حالة من الحالات؛ ممّا يستلزم ضرورةً الاطمئنانَ إلى أمره بالتقوى ونهيِه عن طاعة الكافرين والمنافقين.

فائدة تذييل الآية بوصفَيِ العلم والحكمة:

اللّهُ تعالى عليمٌ بالمصالح والمفاسد، حكيمٌ في الأوامر والنواهي

أوثِر الإخبارُ عن اللّه تعالى بوصفَيِ العلم والحكمة، وتذييل الآية بهما في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: لمناسبتهما الأمرَ بالتقوى، والنّهيَ عن طاعة الكافرين والمنافقين تمامَ المناسبة؛ فوصف العلم يدلّ على علمه سبحانه بفوائدِ التقوى في امتثال الأوامر واجتناب النّواهي وغيره، كما يدلّ على علمه بما تنطوي عليه نفوس الكافرين والمنافقين تُجاهَ الرسول وأتباعه؛ ووصف الحكمة يدلّ على إحاطته بالمصالحِ والمفاسد، ومِن ثمّ فلا يأمرُ إلّا بما فيه مصلحةٌ، ولا ينهى إلّا عمّا فيه مضرّةٌ ومَفسدةٌ.

الغرض من مجيء الوصفين بصيغة المبالغة:

عِلمُ الناسِ قليلٌ مهما كان، وحكمتُهم قاصرةٌ مهما بلَغَتْ

جيء بالوصفين الجليلين في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بزِنَة (فَعيل) للإبلاغ في اتّصاف اللّه تعالى بهما، والدّلالةِ على أنّ الخلق مهما بلغوا فيهما فلن يبلغوا مبلغَه، أو يقتربوا من حقيقة اتّصافه بهما، لأنّ علمَهم - مهما كان - قليلٌ، وحكمتَهم - مهما بلغت - قاصرةٌ، ما يعني تمامَ الافتقار إلى اللّه، وضرورةَ التسليم لِما يأمر به وينهى عنه؛ فالمعنى: "﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالِغًا في العلمِ والحكمةِ، فيعلمُ جميعَ الأشياءِ من المصالح والمفاسدِ، فلا يأمرُك إلا بما فيه مصلحةٌ، ولا ينهاك إلا عمّا فيه مفسدةٌ، ولا يَحكُم إلا بما تقتضيه الحكمةُ البالغةُ"[1].

نكتة تنكير الوصفين ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

أوثر التعبير بالوصفَينِ الجليلَينِ في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.

﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ نَكرتَين مُنَوّنتين، لما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التفخيم والتعظيم؛ كما أنّ تكوينَهما من صيغةٍ تشتمل على حَرْفَي مدٍّ في وسَط الكلمة وآخرَها يدلُّ على اتّساعِهما وشُمولِهما كلَّ الأمور، ومُختَلفَ الأحوال، وأنّه لا مدى لهما ولا حدودَ لاتّساعهما.

لا حُدودَ لِعِلم الله تعالى وحِكمتِه

نكتة تقديم العلم على الحكمة:

قَدَّمَ النظمُ الكريمُ وصفَ العلم على الحكمة في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لأنّ العلمَ مِنْ مُؤهّلات الحكمة، ومن المعينات على تحقُّقِها وحصولِها، فلا حكمةَ لدى أحدٍ مِنْ دون علمٍ.

لا حكمةَ لدى أحدٍ مِنْ دون علمٍ

فائدة العطفِ بالواوِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الواو في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ لعطف الأمر باتّباع الوحي على الأمر بالتّقوى والنّهيِ عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ وهو من عطف العامّ على الخاصّ، لزيادة التقوية والتقرير، وكأنّه أمرٌ ثالثٌ بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، لدخوله في الأمر باتِّباع الوحي[1].

تقوية النّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين

الغرض من الأمر بالاتّباع:

أمْرُ النّبي ﷺ باتّباع الوحي النازلِ إليه مِنَ اللّه في قوله تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ يُقصَدُ منه حثُّه على المداومةِ على ذلك، وإلهابُه وإثارتُه إلى الاستمرار عليه؛ لأنّ مخالفتَه ﷺ ما يوحى إليه أمرٌ غيرُ حاصلٍ أبدًا، وغيرُ مُمكنٍ منه، لِما خُصَّ به من العِصمة الرّحمانيّة، والعنايةِ الربّانيّة.

مخالفةُ النّبيّ ما يوحَى إليه أمرٌ غيرُ مَعْهودٍ مِنه وغَير مَعْروفٍ عَنه

بلاغة الاستعارة في الأمر بالاتّباع:

في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، شُبِّه فيها الالتزامُ بما في وحي اللّه تعالى من

وَحْيُ الله تعالى هو العاصمُ مِنَ الزَّيغ، الحافِظُ مِنَ الخديعة

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 51.

أوامرَ ونواهٍ وتوجيهاتٍ بالاتّباع، الّذي يعني: تَتَبُّع آثار الأشياء[1]، بجامع الاهتداء والوصول إلى المقصود في كلٍّ؛ ثمّ حُذف المشبّه واستُعير الاتّباع للالتزام بالوحي والعمل به على سبيل الاستعارة التَّصريحية، الداعية إلى تَتَبُّع ما في كتاب اللّه تعالى، وشدّة التمسك به، لأنّه العاصمُ من الزيغ، الحافظُ من الخديعة بما يُزَيِّنُه الكُفّارُ والمنافقون، والهادي إلى سواء السبيل.

معنى ﴿مَا﴾:

تفخيمُ الوحي وتعظيمُه وشمولُه كلَّ ما يوحى إلى النبي من أوامرَ ونَواهٍ

﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ اسمٌ موصول عامٌّ في محلّ نصب مفعول به، يدلّ ببنائه المشتمِل على حرفِ مدٍّ في آخره: على تعظيم الوحي وتفخيمه، وبمعناه: على شمولِه كلَّ ما ينزل إلى الرسول ﷺ من الوحي وعمومه؛ ويدخل فيه الأمرُ بتقوى اللّه والنهيُ عن طاعة الكافرين والمنافين دخولًا أوّليًّا برهانيًّا.

نكتة صيغةِ الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

لا يخفى على أحدٍ مصدرُ ما يوحَى إلى النبيّ ﷺ

جيء بالفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه، لأنَّ الاهتمامَ مُنْصَبٌّ على الأمر بالاتّباع، وعدمِ الإنصات لغير وحي اللّه تعالى، ولأنَّ فاعلَ الإيحاءِ ومصدرَه معلومٌ ومعروف، وهو اللّه ﷻ؛ والمعنى: (لا تُنْصِت للكافرين والمنافقين، واتَّبِعِ الوحيَ النازل إليك مِنْ عند اللّه ﷻ).

دلالة التقييد بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾:

النبيُّ منتهى الوحي الربّانيّ، وقدوةٌ للمسلمين مثاليّ

جاء تقييدُ فعلِ الإيحاء بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، وفي ذلك تشريفٌ للنبيِّ ﷺ، وتكريمٌ له من خلال خطابِه وتذكيره بأنّه اختير دون غيره لتلقّي وحي اللّه تعالى، وأنّ هذا الوحي لا ينتهي إلّا إليه، وأنّ عليه أنْ يظلَّ قدوةً

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

للمسلمين في تعظيمه وتقديره باتّباعه والعمل بموجبه، وعدم الإنصات لكلامِ غير كلام اللّه، لأنَّه الأحقُّ والأجدرُ بالإنْصات والاتّباع.

معنى ﴿مِن﴾:

ما كان مصدرُه من اللّه فهو أحقُّ أن يُتَّبع

﴿مِن﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ حرفُ جرٍّ لابتداء الغاية، والجارُّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَۚ﴾ وقعا في محلّ نصبِ حالٍ من ضمير نائب الفاعل المستترِ في قوله ﴿يُوحَىٰٓ﴾؛ وتدلُّ ﴿مِن﴾ في الآية على أنّ مصدر الوحي الذي ينتهي إلى الرسول، والذي يُؤمَر باتّباعه: هو اللّهُ ﷻ، ما يعني ضرورةً إنزالَه المنزلةَ اللائقةَ به، لكونه مِنْ عند اللّه جلّ في علاه.

غرض التّعبير بلفظ الربوبيّة وإضافتِه:

وحيُ اللّه فيه التربية والتوجيه للمصالح والتنفير من المفاسد

جيءَ في قول اللّه تعالى ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ بعنوان الربوبيّة مضافًا إلى الضّمير العائد على النبيّ ﷺ، "والتعرّض لِعُنوان الربوبيّة لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر"[1]، و"لتشريف النبيِّ ﷺ وتكريمه، بإضافة ضميره إلى اسم الجلالة، ولبيان أنَّ الغرضَ الرئيسَ من الأوامر والنواهي التي يشتمل عليها الوحيُ النازل إليه هو التربية والتعليم، والتوجيه إلى ما فيه المصالح والمنافع، والتحذير والتنفير ممّا فيه المضارّ والمفاسد"[2].

علّة الفصل في الآية:

خُبْرُ اللّه موجِبٌ اتّباعَ ما يصدُر منه وحيًا

جاءت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ مفصولةً عمّا قبلها ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، لأنّها كالتعليل الموضِّح سببَ الأمر باتّباع الوحي النّازل إلى الرسول ﷺ من عند اللّه ﷻ؛ ومن ثمّ فُصلت عن سابقتها كما يُفصل الجواب عن السؤال، فيما يسمّى شِبهَ كمال الاتّصال، الذي تتولّد فيه الجملة الثانية من الأولى كما يتولَّد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.
(2) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 306.

الفرعُ من الأصل، ويحتملُ أنْ يكونَ سببُ الفصل: ما بين الجملتين مِن الاختلافِ في الخبر والإنشاء، فيما يسمَّى كمالَ الانقطاع، الذي تنفصلُ به الجملُ لفظيًّا، ولكنّها لا تنقطع عن بعضها معنويًّا.

غرض تتابُعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

الترهيبُ من عدم اتّباع الوحي، والتخويفُ مِنْ عِقابِه

جاء قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ مؤكَّدًا بـ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميّة، وتقديمِ الجارّ والمجرور ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿خَبِيرٗا﴾: لتوكيد إحاطة الله تعالى علمًا وخُبْرًا بمُتّبعي الوحي مِن خَلقه، وتوكيدِ إحاطته عِلمًا وخُبْرًا بمخالفيه، فيجازي المتّبعين خيرًا، ويعاقب المخالفين بما يناسب جرائمَهم؛ "فكأنه قيل: (إن الله خبيرٌ بما تعملونه من الامتثال وتركه، فيرتِّب على كلٍّ منهما جزاءَه وعقابَه)"[(1)]، ووجهُ اقتضاء المقام ذلك أنْ يبلغ الترهيبُ من عدم اتّباع الوحي منتهاه، فيحصل الامتثالُ للأمر والنهي دون تردّد أو اجتهاد خاطئ يبيح للمسلمين أن يستمعوا أو يجتمعوا ويستشيروا الكفّار أو المنافقين في يومٍ من الأيّام.

بلاغة إظهار الاسم الأعظم:

الله تعالى هو الذي سيتولّى حسابَ الناس على ما يعملون

كان مقتضى الظاهر في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ أن يُقال: (إنّه كان بما تعملون خبيرًا)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن التعبير بالضمير إلى التعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، تربيةً للمهابة والإجلال في نفوس الخلق، لاسيّما فيما يتَّصلُ باتِّباع الوحي، وعدمِ الاستماع والانخداع بما يقولُه الكفّارُ والمنافقون ويزيّنونه، "مذكرًا بالاسم الأعظم بجميع ما يدلّ عليه من الأسماء الحسنى، زيادةً في التقوية على الامتثال، مؤكِّدًا للترغيب"[(2)]؛ ولِما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 89.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 282.

فيه مِنْ إشعارٍ بأنَّ اللّهَ هو الذي سيتولّى حسابَ خلقِه على ما يعملون بصفة عامّة، وعلى عدم اتّباعهم الوحيَ بصفة خاصّة.

نكتة دخول ﴿كَانَ﴾ على الخبر:

الخِبرةُ بأفعالِ الخلق وأسبابِها مِنْ صفاتِ الله الأزليّةِ الأبديّةِ

في دخول فعل الكينونة على خبر الحرف الناسخ ﴿إِنَّ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ دلالةٌ على أنّ إحاطة اللّه تعالى علمًا وخُبرًا بما يصدر عن خلقه من أفعال وأعمال، وما يقف وراءها من أغراض وأسباب: من صفات اللّه الأزليّة الأبديّة، التي لا تتبدّل ولا تتغيّر.

معنى الباءِ في قوله ﴿بِمَا﴾:

الإحاطةُ بأفعال الخلق وأسبابِها مِنَ الأعمال الّتي اختَصَّ اللهُ بها نفسَه

الباء الداخلة على الاسم الموصول في ﴿بِمَا﴾ من قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وهو أصل معانيه[1]؛ وفي التعبير به دلالةٌ على أنّ عِلمَ اللّه تعالى وإحاطةَ خبرتِه بحقيقة ما يفعلُه خلقُه من الأعمال التي اختصَّ بها نفسَه، ولم يوكِّل بها أحدًا من الملائكة أو غيرهم؛ وفيه من الترهيب ما يكفي لامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

اللهُ تعالى عليمٌ بكلِّ ما يتجدَّد فعلُه، خبيرٌ بأسبابِه ودوافِعِه

عبّر النظمُ الكريمُ بصيغة المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ لِما يمتاز به من الدلالة على الاستمرار التجدديّ؛ أي أنَّ اللّهَ تعالى خبيرٌ بما يتجدَّدُ مِنْ أعمال خلقه بصفة عامّة، وما يتجدَّدُ منها في اتّباع الوحي وعدم اتّباعه بصفة خاصّة؛ كما أنَّ إحاطته علمًا وخُبرًا بحقيقة الأسباب التي تدفعهم إلى القيام بهذه الأعمال مُتَجَدِّدَةٌ بتجدُّدِها.

نكتة تقديم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

قَدَّم النظمُ البليغ الجارَّ والمجرورَ المصحوبَ بجملة الصلة ﴿بِمَا

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 36.

لا تخفى على الله الأسبابُ الدافعةُ إلى الأعمال، والنّوايا الباعثةُ عليها

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿خَبِيرٗا﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ لِما يُفيده التقديمُ مِنَ الاهتمام ببيان أنّ جميع الأعمال التي حصلت والتي ستحصل غيرُ خافيةٍ على الله تعالى، كما أنّ الأسبابَ الدافعة إليها والنوايا الباعثةَ عليها مرصودةٌ معروفةٌ، لا يعزُب شيءٌ منها عن إحاطة ربّ العالمين العليمِ الخبير.

دلالة الانتقال من خطاب الرسول إلى خطاب الأمّة:

تنزيه النبي عن أن يكون مَظِنّة عصيان الوحي

كان مقتضى الظاهر - جريًا على مخاطبة الآيات للنبيّ ﷺ - أنْ يُقال: (إن الله كان بما تعملُ خبيرًا)، لكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن خطابه إلى خطاب أمّته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾، "لتنزيه الرسول والارتفاع به عن أن يكون مظِنَّة عصيان الوحي، وقبولِ نصيحة الكافرين والمنافقين والخديعة بأقوالهم"[1]؛ وفيه أيضًا "إيماءٌ إِلَى أَنَّ فيما سَيَنْزِلُ مِنَ الوَحْيِ ما يَشْتَمِلُ عَلَى تَكْلِيفٍ يَشْمَلُ تَغْيِيرَ حالَةٍ كانَ النَّبي عليه الصلاة والسلام مُشارِكًا لِبَعْضِ الأُمَّةِ في التَّلَبُّسِ بِها، وهوَ حُكْمُ التَّبَنّي"[2].

توجيه القراءتَينِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

من عظيم قدرة الله سبحانه اطّلاعُه على جميع أعمال الناس

ثبتت في قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ قراءتان متواترَتانِ، فـ"قَرَأَ الجُمْهورُ: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ، عَلَى خِطابِ النَّبي ﷺ والأُمَّةِ، لِأنَّ هَذا الأمْرَ أعْلَقُ بِالأُمَّةِ، وقَرَأ أبو عَمْرٍو وحْدَهُ (بِما يَعْمَلونَ) عَلَى الغَيْبَةِ، عَلَى أنَّهُ راجِعٌ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ، شامِلٌ لِلْمُسْلِمينَ والكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ لِيُفيدَ مَعَ تَعْليلِ الأمْرِ بِالاتِّباعِ تَعْريضًا بِالمُشْرِكينَ والمُنافِقينَ بِمُحاسَبَةِ اللهِ إيّاهُمْ عَلَى ما يُبَيِّتونَهُ مِنَ الكَيْدِ، وكِنايَةً عَنْ إطِّلاعِ اللهِ رَسولَهُ عَلَى ما يَعْلَمُ مِنْهُمْ في هَذا الشَّأْنِ"[3].

(1) المليجي، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 307.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 252.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 253، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 451.

فائدة تذييل الآية بالوصف ﴿خَبِيرًا﴾:

إيثار الإخبار عن الله بالوصف ﴿خَبِيرًا﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، الدالِّ على "معرفتِه ﷻ ببواطن الأمور"[1]، وتذييلُ الآية به: يدفع النفوسَ إلى الحذَر والصدق عند الإقدام على أيّ عمل من الأعمال، سواء أكان هذا العمل ممّا أمَرَ اللّه به، أم كان مما نهى عنه وحذّر منه؛ ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا أمرُه باتّباع الوحي ونهيُه عن طاعة الكافرين والمنافقين، لأنَ التذييل بهذا الوصف يجعل النفوس تذهب في مجال الثواب على الامتثال والعقاب على العصيان كلَّ مذهب، ويتيحُ للعقل أنْ يتصوّر ما يشاء في هذا السياقِ الحافلِ بالترغيب والترهيب.

إثارةُ النفوس إلى أنْ تذهبَ في مجال الثواب والعقاب كُلَّ مَذْهب

غرَض المبالغة في صيغة ﴿خَبِيرًا﴾:

جاء خبرُ ﴿كَانَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ بزنة (فَعيل): ﴿خَبِيرًا﴾، وفي ذلك إبلاغٌ في اتّصاف اللّه تعالى بهذه الصفة، وتحذيرٌ شديدٌ من التهاون في عدم اتّباع الوحي، أو في اتّباع بعضه وترك بعضه الآخر؛ وفيه كذلك تخويفٌ شديدٌ من الاجتراء على طاعة الكافرين والمنافقين والتّساهُل فيه، تحتَ أيِّ مُسَمًّى، وبأيِّ حجّة من الحجج الواهية التي تَظْهر في كل عصر من العصور، لأنّ هذه الصيغة تؤكّد إحاطةَ اللّه تعالى عِلمًا وخُبرًا بحقائقِ هذه الأسباب، ومدى صدق الفاعلين أو كَذِبهم فيها.

التحذير من التّهاون في اتّباع الوحي

نكتة تنكيرِ ﴿خَبِيرًا﴾:

أوثر التعبير بالاسم الجليل ﴿خَبِيرًا﴾ نكرةً مُنَوّنةً في قول اللّه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾، لِما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من التفخيم والتعظيم؛ كما أنّ بناءَه بصيغةٍ تشتمل على حَرْفَيْ مدٍّ في وسط الكلمة وآخرها يدلّ على اتّساع معناه وشموله كلَّ الأعمال

لا حدودَ لإحاطة اللّه تعالى علمًا وخُبرًا بحقائقِ الأمور وأسبابها

(1) الراغب، مفردات القرآن: (خبر).

ومُختلَف الأسباب، وأنّه لا مدى لخبرته، ولا حدودَ لاتّساعها، ولنْ يبلغَ أحدٌ مداها أو يقْتربَ مِن حقيقتها.

معنى واوِ ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾:

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ لعطف الأمر بالتوكّل على الأمر باتّباع الوحي، لكون الآدميِّ في أشدِّ الحاجة إلى تعظيم الترجية[1].

دلالة الأمر بالتوكّل:

صفةُ المؤمنِ: التوكّل على الله في كلّ الأعمال، والالتجاء إليه في كلّ الأحوال

الأمر بالتوكّل على اللّه يعني: تفويضَ جميع الأمور إليه، وتركَ الاعتماد على التدبير، والاعتمادَ عليه سبحانه، لأنّه المحيطُ بكلّ الأفعال، القادرُ على كلِّ الأشياء[2].

وليس المقصودُ من الأمر به في قول اللّه تعالى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إحداثَ التوكّل على اللّه، لأنّ النبيّ ﷺ لا يُتصوَّر منه نسيانُ هذا الأمر المُهِمِّ في جميع أعماله، أو تجاهلُ القيام به، والاعتمادُ على نفسه أو على غير اللّه؛ ومن ثمّ، فالغرض من الأمر في هذا السياق هو ما سبقت الإشارة إليه في الأمرَينِ السابقين، من التهييج والإثارة والحثّ على المداومة على التوكّل على اللّه، والالتجاء إليه، وطلبِ العونِ والتوفيقِ منه في كلّ المهامّ والأعمال.

الاستعانةُ على تقوى الله واتّباعِ وحيه والصبرِ على الأذى فيه: بالتّوكُّل عليه

كما أنَّ الأمر بالمداومة على التوكّل على اللّه وتفويضِ كلِّ الأمور إليه في هذا السياق فيه إرشادٌ إلى ما يُعين على الامتثال لما سبقه مِنْ أوامرَ ونواهٍ؛ لأنّ الإنسانَ لا يستطيع فِعْلَ أيِّ شيء أو تركَه إلا بتوفيق اللّه، فلا بدّ إذنْ من التوكّل عليه، ليتحقّق الالتزامُ بما أمر به، والاجتنابُ لما نَهى عنه؛ وفيه أيضًا "زِيادَةُ تَمْهيدٍ وتَوْطِئَةٍ لِتَلَقّي تَكْليفٍ يَتَرَقَّبُ مِنْهُ أذًى مِنَ المُنافِقينَ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: إنَّ مُحَمَّدًا نَهَى عَنْ تَزَوُّجِ نِساءِ الأبْناءِ وتَزَوَّجَ امْرَأةَ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ حارِثَةَ"[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 90.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 253.

نكتة إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار:

كان مقتضى الظاهر أنْ يُقال: (وتوكَّل عليه)، لكنّ النظمَ الكريمَ عَدَلَ عن تعديَة فعلِ التوكُّل للضمير إلى تعديته لاسم الجلالة العَلَم، فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، لِما يجتمِع في الاسم الأعظم من معاني الألوهيّة والربوبيّة الكافية المانعة المُحقِّقَة كلَّ ما يحتاج إليه أيُّ واحدٍ من خلقه، مهما كان وكيف كان، والمعنى: "(اعتمدْ على اللّه المُحيطِ عِلمًا وقُدرةً)؛ ولتكرير هذا الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء في هذا المقام شأنٌ لا يَخفى"[1].

اسمُ الجلالة جامعٌ لكلّ المعاني التي يُحْتاج إليها في مُختَلف الأحوال

معنى واوِ ﴿وَكَفَىٰ﴾:

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ استئنافيّة، جيء بها للتنبيه على أنّ الاعتمادَ على اللّه تعالى في كلِّ الأمور يكفي العبدَ، ويساعدُه في تحقيق ما يُريد.

بلاغة التّضمين في قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

يُمكن أنْ يُضَمَّن الفعلُ الماضي ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ معنى فعلِ الأمر (اكتَفِ)، ويقوّي ذلك تعديةُ الفعل إلى المعمول بواسطة حرف الباء، فيكون المعنى: (وتوكّل على اللّه، واكتفِ به وكيلًا لأنّه لا أكْفى منه)، وآثر البيان القرآنيّ التعبير عن ذلك بصيغة الماضي لأنَّ مجيءَ المعنى في صورة الخبر يجعله من المُسَلَّمات البدهيّة، التي يجب على المخاطَب أنْ يتلقّاها بالثقة والقبول والامتثال من غير شكٍّ أو تردُّدٍ؛ ثمّ أنّ في التضمين اجتماعًا للمعنيين: معنى الفعل مجرّدًا، ومعناه الذي يُتوصّل إليه بحرف الباء، فيكون المعنى: (اكتفِ باللّه يكفِك).

كفايةُ اللّه تعالى عبدَه من الأمور البَدَهيّة المُسلَّمِ بها

غرض إظهار اسم الجلالة في موضع إضماره:

كان مقتضى الظاهر أنْ يُقال: (وتوكل على اللّه وكفى به وكيلًا)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

في التعبير بالاسم الأعظم اطمئنانٌ وثقةٌ للمتوكِّل على الله

بإضمار اسم الجلالة، لكنّ البيانَ الكريم عدلَ عن التعبير بالضمير إلى التعبير بالظّاهر: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ وذلك للتفخيم، والتعظيم، والثقة، والتطمين، ومثلِ ذلك من المعاني التي يتطلّبُها مقامُ الأمر والنهي بصفة عامّة، ومقامُ الأمر بالتوكّل على اللّه وتفويض الأمر إليه بصفة خاصّة، لِما اجتمعَ في الاسم الأعظم من كلّ معاني الكفاية والوقاية المانعة والمحقِّقة كلَّ ما يحتاج إليه مَنْ يتوكَّلُ عليه، فـ"الإظهار في مقام الإضمار للتعظيم، ولتستقلَّ الجملةُ استقلالَ المثل"[1].

نكتة تنكيرِ ﴿وَكِيلًا﴾ واختيارِ صيغة المبالغة:

الله تعالى يكفي مَنْ توكّل عليه كُـلَّ شيءٍ، أيًّا كان، ومهما كان

أوثر تنكيرُ ﴿وَكِيلًا﴾ وتنوينُه في قول اللّه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لما يفيده التنكير والتنوين من التعظيم، ولما يُفيده من العموم والشمول، الذي يجعل نفس المأمور بالتوكّل تذهب في مجالات الكفاية كلَّ مذهب، وتتصوّر كلَّ ما يُمكنها أنْ تتصوّر، وكأنّ المعنى: (إذا توكلْتَ على اللّه كفاك اللّهُ كلَّ شيء أيًّا كان، ومهما كان، وحيثما كان)؛ يُقوّي ذلك مجيءُ الوصف الجليل بصيغة (فَعيل)، الدالّةِ على أنَّه لا حدودَ لكفايته سبحانه، ولا يُمكن لأحدٍ أنْ يبلغَ مداه فيها.

فإيثار التعبير بالوصف ﴿وَكِيلًا﴾، وتذييلُ الآية به: يؤكّد معنى الاعتماد على اللّه تعالى وتفويض الأمور كلها إليه، ويقوّيه، لأنّ معناه كما قال البقاعي: "(لا أكفى منه لكلِّ مَنْ وكَّله في أمرِه)؛ فلا تلتفتْ في شيء من أمرك إلى شيء، لأنَّه ليس لك قلبان تُصرِّف كُلًّا منهما إلى واحدٍ"[2].

بلاغة التّرتيب في الآيات:

إنّ الأوامرَ والنواهيَ في الآيات، من قولِ اللّه تعالى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 142.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

﴿تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ﴾، وقوله ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾، وقوله ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾: وارداتٌ على نَسَقٍ عجيبٍ وترتيبٍ أنيق؛ فإنّ الاستهلالَ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على أنّ الخطابَ مُشتملٌ على التنبيهِ على أمرٍ مَعْنيٍّ بشأنه، لائحٍ فيه معنى التهييجِ والإلهابِ؛ ومِنْ ثمَّ عُطِفَ عليه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾، كما يُعْطَفُ الخاصُّ على العامِّ؛ وأُرْدِفَ النَّهْيُ بالأمرِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على نحوِ قولِك: لا تُطِعْ مَنْ يخذُلُك، واتَّبِعْ ناصِرَك؛ ثُمَّ أُمِرَ بالتوكُّلِ، تشجيعًا على مخالفةِ أعداءِ الدينِ، والتجاءً إلى حَرمِ جلالِ اللّٰه ليكفيَه شرورَهم.

بديع التناسُق وفريدُ التناسب في الآيـــات: مرسِّخٌ لما تحمله من المعاني

ثُمَّ إنّه عُقِّبَ كلٌّ من تلك الأوامرِ على سبيلِ التتميم والتذييلِ بما يُطابقُه: فعُلِّل النّهيُ عن طاعة الكافرين والمنافقين بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: (اتّقِ اللّٰه فيما تأتي وتَذَرُ في سِرِّك وعلانيتِك، لأنّه عليمٌ بالأحوالِ كُلِّها، يجبُ أن تحذَرَ مِنْ سَخَطِه، حكيمٌ لا يُحِبُّ متابعةَ حبيبِه أعداءَه)؛ وعُلِّل أمرُه باتّباع الوحي بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تتميمًا أيضًا، أي: (اتَّبعِ الحقَّ، ولا تَتَّبِعْ أهواءهم الباطلة وآراءَهم الزائغة، لأنّ اللّٰه يعلَمُ عَملَكَ وعَمَلَهم فيُكافِئُ كُلًّا بما يستحِقُّه)؛ وذُيِّلَ الأمر بالتوكّل على اللّٰه بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تقريرًا وتوكيدًا، بمعنى: (مِنْ حَقِّ مَنْ يكون كافيًا لكلِّ الأمورِ، حَسيبًا في جَميع ما يرجِعُ إليه: أن تُفَوَّضَ الأمورُ إليه ويُتوكَّلَ عليه)(1).

دلالةُ مجيء النهي مَحوطًا بالأوامر المذكورة:

خـطـرُ الـكـفّـار والـمـنـافـقـين لا يـدفـعُــه إلا الاحتماءُ بالله تعالى والتقرّبُ إليه

مجيء النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين في هذه الآيات مَحوطًا بالأمر بتقوى اللّٰه والأمرِ باتِّباع وحيِ اللّٰه تعالى: يَدُلُّ على حرص القرآن على تنبيه النبيّ ﷺ والمسلمين إلى خطورتهم

(1) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 12/ 376.

وضرورة الاحتراس منهم والاستعانة بالله تعالى عليهم؛ كما أنّه يُشعر بتربّصهم للإيقاع بين المسلمين، وتشكيكهم فيما ينزل إلى الرسول من وحي، وهذا ما وضّحته السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12].

وجاء النهيُ عن طاعتهم مصحوبًا بالأمر بالتوكُّل على الله، ليؤكِّد ما سبق من ضرورة الاستعانة بالله تعالى على كيدهم ومكرهم؛ كما أنّه يرشد إلى ما يعين على امتثال ما سبق من نهي وأمر، "فإنّ القلب إذا أحسن التوكّل على الله، وصدق إحساسُه بكفاية ربّه، تتكوّن فيه طاقةٌ هائلةٌ، تمدُّه بزادٍ لا ينفد في مواقفه الصعبة، وأخذه نفسَه على طريق الجِدِّ النّافع"(1).

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوكيل والكفيل والضامن:

يَدُلُّ لفظ (الوكيل) على اعْتِمادِ غَيْرِكَ في أمرِكَ؛ ومنه التَّوكُّلُ، وهو: إظْهارُ العَجْزِ في الأمرِ والِاعْتِمادُ على غَيْرِكَ.

ويدلّ لفظ (الكفيل) على التِزام نفس المَكْفول بِهِ؛ ومِنْه: كفلت الغُلامَ، إذا ضممتَه إليك، ولا تَقول: ضمِنته، لِأنَّك إذا طولبت بِهِ لزمك تَسْليمه، ولا يلزمك تَسْليم شَيْء عَنهُ، وفي القُرْآن: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: 37]، ولم يقل: ضمنها.

أما الضّامن فإنه يكون بالمال؛ ومن الدَّليل على أنّ الضَّمان يكون لِلْمالِ والكَفالَة للنَّفس أنَّ الإنْسان يجوز أن يضمَن من لا يعرفهُ، ولا يجوز أن يكفل من لا يعرفهُ، لِأنَّهُ إذا لم يعرفْهُ لم يتَمَكَّن من تَسْليمه، ويصِحّ أن يُؤَدّيَ عَنهُ وإن لم يعرفْهُ(2).

ولما كان قصدُ الآيات التوجيهَ إلى الاعتماد على الله تعالى، وتفويضِ الأمور كلها إليه وعدم الاعتماد على أحد من الكافرين أو المنافقين: أوثر التعبير بوصف (الوكيل) لأصالته في الدّلالة على ذلك.

---

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 363.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 207.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ [الأحزاب: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الظِّهارُ والتّبنّي مِنْ عادات الكُفّار الجاهليّة، التي تُخالف الفطرةَ الإنسانيّة

بعد أنْ أمرت الآياتُ السابقةُ رسولَ اللّه ﷺ بتقْوى اللّه تعالى واتّباع الوحي النّازلِ إليه، ونهتْه عن الاستماع لكلام الكفّار والمنافقين، والتأثّر بأراجيفهم القاصدة إلى إحداث البلبلة وإثارة القلاقل داخلَ المُجتمع المُسلم، نزل الوحيُ الكريمُ في هذه الآية لإبطال بعض العادات والمزاعم التي روَّجَها الكفّار والمنافقون، لأنّها تُخالف الفطرةَ النقيّة، ولا تستسيغها العقولُ السويّة، كما لا تستسيغُ أن يكون للرجل قلبان في جوفه؛ ومنها زعمُهم أنَّ المرأةَ - بالظِّهار - تصير أُمًّا لزوجها، وزعمُهم أنّ أبناءَ الرجل بالتّبنّي يكونون كأبنائه مِنْ صُلبه في كلِّ شيءٍ.

الشروع في إلقاء الوحي الذي أُمِر النبيُّ باتِّباعه

والآيةُ شروعٌ في إلقاءِ الوحيِ الذي أُمِر النبيُّ ﷺ باتِّباعه، وهذا مَثَلٌ ضربه اللّه تعالى تمهيدًا لِما يعقُبه مِنْ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾، وتنبيهًا على أنَّ كون المُظاهَرِ منها أمًّا، وكونَ الدعيِّ ابنًا - أي بمنزلة الأمِّ والابنِ في الآثارِ والأحكام المعهودة فيما بينهم - في الاستحالةِ بمنزلة اجتماع قلبينِ في جوفٍ واحدٍ؛ وقيل: هو ردٌّ لِما كانتِ العربُ تزعمُ من أنَّ اللّبيبَ الأريبَ له قلبان[1].

التوجيه إلى الإخلاص، بأن يكون الهمُّ واحدًا في أمور الدين والدنيا

ومن أوجه المناسبة أنّه "لمّا كان النازعَ إلى جهتين، والمعالِجَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 90.

لأمرين متباينين كأنّه يتصرّف بقلبين، أكّد أمر الإخلاص في جعل الهمِّ همًّا واحدًا فيما يكون من أمور الدين والدنيا، وفي المظاهرة والتبنّي وما شابهها بضرب المثل بالقلبين"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَلْبَيْنِ﴾: (قلب) أَصْلانِ صَحيحانِ: يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى خالِصِ شَيْءٍ وشَريفِهِ، وهو: قَلْبُ الإِنْسانِ وغَيْرِهِ، سُمّيَ بذلك لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فيهِ وأَرْفَعُهُ[2]؛ وهو: المضغة المعروفة المعلّقة بالنياط[3]، وهو أهمّ ما في الباطن وأقواه، ويُسمح بإطلاقها على القوّة الباطنة: العقل، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وكلُّ ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعها متعلَّق الكلام فيها هو ما أسنده القرآنُ إلى القلب من وظائفِ الفقه والتدبّر والإيمان وضدّه وما إلى ذلك[4].

2) ﴿جَوْفِهِۦ﴾: (جوف) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ جَوْفُ الشَّيْءِ؛ يُقالُ هَذا جَوْفُ الإِنْسانِ، وجَوْفُ كُلِّ شَيْءٍ، وطَعْنَةٌ جائِفَةٌ، إذا وصَلَتْ إِلَى الجَوْفِ[5]، والمعنى المحوريّ: فراغٌ واسع في قلب الشيء وباطنِه، كجوف الإنسان وغيره، فهو غير مُصْمَت، وما فيه رِخْوٌ كلُّه؛ قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[6].

3) ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: (ظهر) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ وبُروزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهورًا فَهوَ ظاهِرٌ، إذا انْكَشَفَ وبَرَزَ؛ والأَصْلُ فيهِ كُلِّه ظَهْرُ الإِنْسانِ، وهوَ خِلافُ بَطْنِهِ، وهوَ يَجْمَعُ البُروزَ والقوَّةَ، والظِّهارُ: قَوْلُ الرَّجُلِ لِامْرَأَتِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمّي[7]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: 3].

4) ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾: (دعو) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ؛ تَقولُ: دَعَوْتُ أَدْعو دُعاءً[8]، ومنه ادّعاء النّسب، وهو ضمُّ المُدّعي نفسَه بالنسب

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(3) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: (قلب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوف).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جوف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر)، والجوهري، الصحاح: (ظهر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

إلى أبٍ أو قوم؛ والواحد دَعيٌّ، والجمع أدعياء، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾، وهم المُتَبنَّوْن[1]، الذين لا يتَّصلون بمن تبنّاهم اتصالًا مباشِرًا بولادةٍ أو زواجٍ أو ملكِ يمينٍ أو غير ذلك.

5) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: (سبل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وعَلَى امْتِدادِ شَيْءٍ[2]؛ والسَّبيلُ: الطّريق الذي فيه سهولة، وجمعه سُبُلٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ [النحل: 15]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [الزخرف: 10]، وقال: ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزخرف: 37]؛ والمقصود به: طريق الحق[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قولُ القرآن في التَبنّي والظّهار هو الحقُّ الواجبُ اتّباعُه

نزلت هذه الآية بعددٍ من التشريعات الواجبِ اتّباعُها والتخلّي عمّا يناقضُها من العادات والأعراف الّتي أرساها الكفّارُ والمنافقون: ادّعاءُ بعض الناس أنَ له قلبين في جوفه، ومسألةُ التّبَنّي، وعادةُ تحريم المرأة بالظّهار وعَدِّها أُمًّا لزوجها، والمعنى: "أنَّ اللّه سبحانه كما لم يَرَ في حكمته أنْ يجعل للإنسان قلبين، لأنّه لا يخلو: إمّا أن يفعل بأحدهما مثلَ ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدُهُما فضلةٌ غيرُ محتاجٍ إليها، وإمّا أنْ يَفعل بهذا غيرَ ما يفعل بذاك، فذلك يؤدّي إلى اتّصاف الجملة بكونه مريدًا كارهًا، عالمًا ظانًّا، موقِنًا شاكًّا في حالة واحدة؛ لم ير أيضًا أن تكون المرأةُ الواحدة أمًّا لرجل زوجًا له، وهما حالتان متنافيتان؛ وأن يكون الرجل الواحد دعيًّا لرجل وابنًا له، لأنّ البُنُوّة أصالةٌ في النسب وعراقةٌ فيه، والدعوةَ إلصاقٌ عارضٌ بالتسمية لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلًا غيرَ أصيل"[4].

(1) الجوهري، الصحاح: (دعا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (سبل).
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 520.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة فصل الآية عن سابقتها:

بيانُ الوحي الذي أمِرَ النَّبيُّ باتّباعه

جملةُ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ قد تكون مستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، بغرض "التَّنْبيهِ إِلَى بُطْلانِ أُمورٍ كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ قَدْ زَعموها وادَّعَوْها؛ وابْتُدِئَ مِنْ ذَلِك بِما دَليلُ بُطْلانِهِ الحِسُّ والِاخْتِبارُ، لِيُعْلَمَ مِنْ ذَلِكَ أن الَّذين اخْتلقوا مَزاعِمَ يَشْهَدُ الحِسُّ بِكَذِبِها يَهونُ عليهم اخْتِلاقُ مَزاعِمَ فيها شُبَهٌ وتَلْبيسٌ لِلْباطِلِ في صورَةِ الحَقِّ، فَيُتَلَقَّى ذَلِكَ بِالإذْعانِ والِامْتِثالِ"[1].

ويمكن أنْ تكون الجملةُ مفصولةً عمّا قبلها لما بين الآيات من اتّصالٍ قويٍّ، وترابطٍ شديد، يُغنيها عن الواصل اللفظيّ، فيما يُسمَّى كمالَ الاتّصال؛ لأنّ الآيةَ تُعدّ بيانًا لما نُهي عنه النبيُّ ﷺ من طاعة المشركين ومن يروّج أفكارهم من المنافقين، في ادّعاءاتهم وأحكامهم الباطلة ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾؛ وبيانًا للوحي الذي أُمر النبيّ باتّباعه والأخذ به: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾؛ فالآيةُ تُنْزَلُ ممّا قبلها منزلةَ التّابع من المتبوع.

معنى ﴿مَّا﴾:

اعتقاداتٌ منفيّةٌ انتفاءً لا يقبلُ الجِدالَ أو المِراء

عُبِّر بـ﴿مَّا﴾ في قول الله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ للدّلالة على النفي والعموم، إذ من خصائصِ (ما) نفيُ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، وهي آكد في النفي من (ليس)؛ وهي أوسعُ استعمالًا منها أيضًا، لأنّ (ليس) مختصّةٌ بنفي الجمل الاسميّة فحسب[2]، والنفي بـ﴿مَّا﴾ هنا أنسبُ لإفادتها الانتفاءَ الذي لا يَقبل الجِدالَ أو المِراءَ، لكون تلك المعتقَداتِ ممّا يخالفُ الأمورَ البدهيّةَ المسلَّمَةَ التي لا يختلف على الإقرار بها اثنان؛ إذ لا خلافَ في استحالة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 254.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

أنْ يكون لرجلٍ قلبان في جوفه، لأنّه لو كان له قلبان لكان شخصين متناقضين في آنٍ واحدٍ، أحدُهما يحبُّ، والآخرُ يكره، ويُقاسُ على ذلك في الاستحالة كونُ الأزواج أمهاتٍ، وكونُ الأدْعياء أبناءً.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿جَعَلَ﴾:

عاداتُ الكافرين تُخالفُ الفطرةَ الإنسانيّة

التعبير في قول اللّه تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ بالفعل ﴿جَعَلَ﴾ الدالِّ على التحويل والتصيير[1]، منفيًّا بـ﴿مَّا﴾ في كل مرّةٍ ورد فيها: يدُلُّ على أنّ الكُفّار صيَّروا هذه العادات إلى خلاف ما هي عليه عند اللّه، وجعلوها مُخالِفَةً للفطرة التي فَطَرَ النّاسَ عليها؛ فاللّه ﷻ لم يَخْلُق للإنسان سوى قلبٍ واحدٍ، ولم يَخْلُقِ الأزواجَ أمّهاتٍ، ولم يخلقِ الأدعياءَ أبناءً، وليس ذلك إلّا مِنْ أقوال الكافرين وصنيعهم.

غرَض إسناد فعل الجعل إلى اسم الجلالة:

الجَعْلَ المَنْفيّ هوَ الجَعْلُ الجِبِلّيُّ الذي هو مِنْ صُنع الله وخَلْقِه

إسناد الفعل ﴿جَعَلَ﴾ إلى اسم الجلالة العَلَم ﴿ٱللَّهُ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾ يدلُّ على أنَّ الجَعْلَ المَنْفيَّ هُنا هوَ الجَعْلُ الجِبِلّيُّ، الذي هو من صُنع اللّه تعالى وخَلْقِه؛ والمعنى: ما خَلَقَ اللّه لرجل قلبين في جَوْفِه، وقَدْ جَعَلَ إبْطالَ هَذا الزَّعْم تَمْهيدًا لإبْطالِ ما تَواضَعوا عليه مِنْ جَعْلِ أحَدٍ ابْنًا لِمَنْ لَيْسَ هوَ بِابْنِه، ومِنْ جَعْلِ امْرَأةٍ أُمًّا لِمَنْ هيَ لَيْسَتْ أُمَّهُ بِطَريقَةِ قياسِ التَّمْثيل؛ أيْ أنَّ هَؤُلاءِ الَّذينَ يَخْتَلِقونَ ما لَيْسَ في الخِلْقَةِ لا يَتَوَرَّعونَ عَنِ اخْتِلاقِ ما هوَ مِنْ ذَلِكَ القَبيلِ مِنَ الأُبوَّةِ والأُمومَة، وتَفْريعِهِمْ كُلَّ اخْتِلاقِهِمْ جَميعَ آثارِ الاخْتِلاقِ، فَإنَّ البُنُوَّةَ والأُمومَةَ صِفَتانِ مِنْ أحْوالِ الخِلْقَةِ ولَيْسَتا مِمّا يَتَواضَعُ النّاسُ عليه بِالتَّعاقُدِ مِثْلَ الوَلاءِ والحِلْفِ[2].

(1) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 255، بتصرف

معنى لامِ ﴿لِرَجُلٖ﴾:

واللام الدّاخِلةُ على (رَجُلٍ) في قول الله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾: حرفُ جرٍّ يفيد التخصيصَ وتقويَة انتفاء الجَعْل لأيِّ رجل.

دلالة التّعبير بوصف الرّجولة دون غيره:

معنى الحياة في الرجل أقوى وأوضحُ منه في غيره

آثر النظمُ الكريمُ التعبيرَ باسم الرَّجُل دون الإنسان أو غيره في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ "لأنَّ معنى الحياة في الرَّجل أقوى وأوضحُ منه في غيره، فإذا كان الرّجل الذي هو مظهر الحياة في أقوى صوَرِها لم يَخْلُقِ اللهُ له قلبين، فغيرُه ممّا خَلق الله أولى بأن يكون له قلبٌ واحدٌ"[1]؛ فالتعبير بالرّجل لأنّه أقوى جِسمًا وعقلًا، فيُفهَم غيرُه من باب الأولى[2]، فـ"خصوصُ الرّجل ليس بمقصود، وتخصيصُه بالذكَر لكمال لزوم الحياة فيه، فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث؟ وأمّا الصّبيانُ فمآلُهم إلى الرجوليّة"[3].

نكتة تنكيرِ ﴿لِرَجُلٖ﴾:

اتّساع النَّفي وعمومُه كلَّ الرجال

أوثر التعبير بلفظِ ﴿لِرَجُلٖ﴾ نكرةً في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ لما يُفيده التنكير الواقع في سياق النفي من العموم والشمول، وهو ما يجعل التعبير شاملًا كلَّ الرجال؛ والمعنى: "(ما جَعَلَ اللهُ لِأيِّ رَجُلٍ مِنَ النّاسِ قَلْبَيْنِ، لا لِجَميلِ بْنِ مَعْمَرٍ ولا لِابْنِ خَطَلٍ"[4]، ولا لغيرهما)، كما يدّعي بعضُ الكافرين والمنافقين.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لِرَجُلٖ﴾:

تأكيد نفي اختصاص الرّجال بوجود قلبين في جوف أحدهم

قَدَّم النظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿لِرَجُلٖ﴾ على المفعول ﴿قَلۡبَيۡنِ﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾

---

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 62.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 283.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 143.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 255.

لأنّ الاهتمام موجَّهٌ إلى نفي اختصاص الرِّجال بوجود قلبين في جوف أحدهم، لأنّ نفي ذلك عنهم يؤدّي إلى انتفائه عن غيرهم من باب الأولى.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾:

عَبَّر النظمُ الكريمُ بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾، مع إمكان التعبير بدونه، لزيادة التوكيد وتقوية نفي أنْ يكون لأيّ رجلٍ قلبان في جوفه؛ ومِن ثَمَّ فإنّ التنكير في ﴿لِرَجُلٍ﴾، وإدخالَ ﴿مِّن﴾ الاستغراقيّة على ﴿قَلْبَيْنِ﴾: تأكيدانِ لما قُصِد من المعنى، كأنَّه قيل: (ما جعل الله لأُمّةِ الرجال، ولا لواحد منهم قلبين البتّةَ في جوفه)[1].

دلالة تثنية القلب:

استحالة وجود قلبين يـدلُّ على استحالة وجودِ أكثرَ منهما

عبَّر النظمُ في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ عن المفعول بـ﴿قَلْبَيْنِ﴾، مُؤْثِرًا التثنيةَ، لأنّه أقلُّ عددٍ يَلي الواحدَ؛ وانتفاءُ وجود قلبين في جوف الرِّجال بصفةٍ خاصّة، وفي قلوب الناس بصفة عامّة: يدلّ على انتفاء وجود ما هو أكثر منهما، لأنّ استحالةَ وجودهما يدلُّ على استحالة وجود ما هو أكثر منهما من باب الأولى.

ففي الآية إثباتُ وجود قلبٍ واحدٍ فقط بالطريقة العقليّة المنطقيّة، فقد "ذُكِرَ في بيان عدم جعله تعالى قلبين في جوف، بناءً على ما هو الظاهر من أنّ المراد بالقلب المضغة الصنوبرية: أنّ النفس الناطقة - وكذا الحيوانيّة - لا بدّ لها من متعلّق، ومتعلّقها هو الروح، وهو جسمٌ لطيف بخاريٌّ يتكوّن من ألطفِ أجزاء الأغذية، لأنّ شدّ الأعصاب يُبطل قوى الحسّ والحركة عمّا وراء موضع الشدّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 516.

ممّا لا يلي جهة الدماغ، والشدّ لا يمنع إلّا نفوذ الأجسام، والتجاربُ الطبيّةُ أيضًا شاهدةٌ بذلك؛ وحيث إنّ النفس واحدةٌ فلا بدّ من عضوٍ واحدٍ يكون تعلّقها به أوّلًا، ثم بسائر الأعضاء بواسطته"[1].

نكتة تنكير ﴿قَلْبَيْنِ﴾:

مِنَ المُستحيل وجودُ قلبين في جوف الإنسان، مهما كان حجم القلب صغيرًا

أوثر تنكيرُ ﴿قَلْبَيْنِ﴾ في قوله تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ لما يُفيده التنكيرُ من العموم والتصغير، فعلى الرغم من صِغَر حجم القلب، إلّا أنّ اللّهَ تعالى لم يَخْلُق في جوفِ أحدٍ من الخلق اثنين منه؛ لأنّ العبرة ليست بالصِّغَر، إنّما هي بالأثر المُتَرتِّب على وجود اثنين من عضوٍ بهذا التأثير في جوف الإنسان؛ لأنّ من البدهيِّ أنْ يحصُل، بناءً على ذلك، تضارُبٌ في المشاعر والرّغَبات، فيكون الرجل مُحِبًّا كارهًا في آنٍ واحد، ويكون كذلك سعيدًا حزينًا، ومقبلًا مدبرًا، وقابلًا رافضًا، وهذا ممّا يستحيل واقعًا ومنطقًا.

فائدة الظّرفيّة ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾:

تَـصَـوُّرُ المعنى الخطأ، واستحضارُه في الذهن: يُؤدّي إلى سُرعة إنكاره

فائِدَةُ ذِكْرِ الظَّرْفِ في قول اللّه تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ - مع أنّ القلبَ لا يكون إلّا في الجوف: زيادَةُ تَصْويرِ المَدْلولِ عليه بالقَلْبِ، وتَجَلّيهِ لِلسّامِعِ؛ فَإذا سَمِعَ ذَلِكَ كانَ أسْرَعَ إلَى الِاقْتِناعِ بِإنْكارِ احْتِواءِ الجَوْفِ عَلَى قَلْبَيْنِ، وذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46] ونَحْوَهُ مِنَ القُيودِ المَعْلومَةِ، وإنَّما يَكونُ التَّصْريحُ بها تَذْكيرًا بِما هوَ مَعْلومٌ، وتَجْديدًا لِتَصَوُّرِهِ[2]؛ ففي ذكر الجوف فائدةُ زيادة التصوير للمعنى المقصود، بحيث إذا سمعه المخاطَب صَوّر لنفسه جوفًا يشتمل على قلبين، فكان ذلك أسرع إلى إنكاره، فضلا عمّا فيه من تعظيم لما قالوه من الجمع بين الزوجة والأمومة، وبين العبوديّة والبنوّة، وإنكارٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 143.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 256، والزمخشري، الكشاف: 3/ 516.

له، ولمّا كان الكلامُ في حال الإنكار والتعظيم أتى بذكر الجوف بأسلوب الإطناب، إذ من المعلوم أنّ القلبَ لا يكون إلّا فيه.

فائدة الجملة الخبريّة:

التعبير بالخبر يدلّ على تنزيل المعنى منزلةَ المُسَلَّمات

أوثر التعبير عن المعنى بالجملة الخبريّة ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾، لينزل مضمونُها لدى المتلقّي منزلةَ الأمور البدهيّة المسلَّمة، التي لا تقبل الجدال أو التردُّد أو الشكّ.

نكتة تتابع أساليب التّوكيد في الجملة:

تأكيدُ بطلانِ وجود قلبين في جوف الإنسان وتقريرُه

حاصلُ أساليب التوكيد المتتابعة في قول اللّه تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ تأكيدُ وتقرير بطلان أنْ يكون لأحدِ الأحياء قلبان، ليتأكَّد تبَعًا لذلك بُطلانُ أنْ تكون الزوجة أمًّا، والمتبَنَّى ولدًا[1].

نوع واو ﴿وَمَا﴾ ودلالتُها:

كونُ الزوجة أُمًّا بمنزلة اجتماع قلبين في جوفٍ واحدٍ في الاستحالة

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ معطوفًا على قوله ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾؛ واختير العطف بالواو التي تفيد المشاركة في الحكم، للتنبيه على أنّ كونَ الزوجة المُظاهَر منها أُمًّا يماثل وجودَ قلبين في جوف الإنسان في الاستحالة وعدم القبول[2].

نكتة تكرار ﴿وَمَا جَعَلَ﴾:

الظِّهار من الجَعْل البشريّ، وليس من الجَعْل الإلهيّ

في تكرار قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ مع قُرْبِ العهد به: تأكيدٌ وتقويةٌ وإبلاغٌ في نفي كون الزوجة التي ظاهر منها زوجُها أمًّا له، ونفيٌ لتحويلِها من دائرة الحِلِّ إلى دائرة الحرمة الأبديّة في شرع اللّه تعالى وفِطرته، وفيه كذلك تنبيهٌ إلى أنّ ذلك ليس من الجعل الإلهيّ، ولكنّه من الجعل البشريّ، يعني: من أفعال النّاس

---

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 63.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 90.

وافتراءاتهم؛ "فالمُرادُ بالجَعْلِ المَنْفيِّ في قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾: الجَعْلُ الخَلْقيُّ أيْضًا، كالَّذي في قَوْلِهِ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾، أيْ: ما خَلَقَهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ، إذْ لَسْنَ كَذَلِكَ في الواقِعِ؛ وذَلِكَ كِنايَةٌ عَنِ انْتِفاءِ الأثَرِ الشَّرْعِيِّ الَّذي هو مِنْ آثارِ الجَعْلِ الخلقيِّ، لِأنَّ الإسْلامَ هو الفِطْرَةُ الَّتي فَطَرَ اللّه النّاسَ عَلَيْها"[1].

نكتة إضافة الأزواج إلى ضمير المخاطَبين:

الزوجان مُقْترنان اقـترانَ المُضاف بالمُضاف إليه

في إضافة الأزواج إلى ضمير المخاطبين من قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ تذكيرٌ بالمزاوجة والالتصاق الحاصلِ بين الرجل وزوجه، والذي تحوّل إلى تباعد وتحريم، بسبب الظّهار الذي كان بعضُ الرجال في الجاهليّة يلجأُ إليه عندما يريد فِراقَ امرأته فراقًا لا رجعةَ فيه.

سِرُّ العدول إلى الخطاب الجمعيّ:

التـنـبـيـهُ إلى كـثرة مُـظـاهـرة المـشـركـين من أزواجهم والإثارةُ إلى التراجع عن ذلك

كان مقتضى الظاهر أنْ يُعَبَّر بصيغة الغائب المفرد، فَيُقال: (وما جعل زوجَه التي يُظاهر منها أُمَّه) بعد قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾؛ ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عدل إلى صيغة الخطاب الجمعيّ، فقال ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ﴾، "لأنّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوبٍ كان أحسن، تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوبٍ واحد"[2]؛ ولِما يُفيده العدولُ إلى صيغة الخطاب الجمعيّ هنا من تنبيه المخاطبين إلى كثرة وقوعهم في هذا الخطأ، وتحذيرهم مِنْ أنَّهم يفعلون ما هو على خلاف الفطرة التي فطرهم اللّه تعالى عليها، فيحصل من التعبير بصيغة الخطاب نوعٌ من الإثارة الباعثة إلى التفكُّر والتدبُّر المُفضي إلى الإقرار بالخطأ والعدول عنه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 257.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 14.

غرضُ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾:

التّشنيع بمُظاهَرَةِ الرجال من أزواجهم

﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ في قول الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ اسمٌ موصول في محلّ نصبٍ صفةً للمفعولِ ﴿أَزۡوَٰجَكُمُ﴾؛ عبَّر به النظمُ الكريمُ ليُتوصّل من خلال صلته ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ﴾ إلى التشنيع بما يقومُ به الرجالُ من المُظاهرة من النساء، بغرض فراقهنّ فراقًا لا رجعةَ فيه، حسب ما كان سائدًا في الجاهليّة ومنتشرًا.

نكتة التعبير بـ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾:

الظّهارُ والطّلاق حالتان تُخالفانِ المعروفَ المعهودَ بين الأزواج

عبَّر النظمُ الكريمُ بـ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ دون (اللّاتي) في الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ جريًا على عادته في التعبير بهذا الاسم في سياق الطّلاق والظّهار؛ "فبما أنّ الطّلاق والظّهار حالتان نادرتان استَعمَل في سياق ذكرِهما الهمزةَ بدلًا من التّاء (اللاتي)، لأنّ الهمزة من الحروف الثّقيلة النّادرةِ الاستعمالِ، فاستعملَها لتناسُب حالتَيِ الظّهار والطّلاق النّادرتين؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ من اللَّأْى: وهو الحبْس، والمُطلّق والمُظاهِر تُحبس عنه امرأته حتّى يقوم بالكفّارة، أو ما هو مطلوب منه شرعًا"[1].

دلالة التّعبير بـ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

استحضار صورة الزوجة وهي تُحَرَّمُ كالأمّ: يُساعِد في التنفير والإنكار

قول الله تعالى ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾: فعلٌ مضارعٌ من (ظاهَرَ)، ومعناه: قول الرجل لامرأته: أَنْتِ عليّ كظهر أُمّي، مُعَبِّرًا عن البطن بالظهر على سبيل المجاز المرسَل لعلاقة المجاورة، ومُؤْثِرًا التعبيرَ بالظهر استقباحًا لذكر البطن، لا سيما بطن الأمّ، لقربها من الفرج. "وهَذِهِ

(1) الهلال، محمد، تفسير القرآن الثري الجامع: 28/ 2.

صيغَتُهُ المَعْروفَةُ عِنْدَهُمْ، وهيَ موجِبَةٌ طَلاقَ المَرْأةِ وحُرْمَةَ تَزَوُّجها مِنْ بَعْدُ؛ لِأنَّها صارَتْ أُمًّا لَهُ"(1).

وإيثارُ هذه الصيغة التي يتوسّطُها ألفُ المدِّ يتناسب مع اعتقاد الكافرين بتحريم المرأة التي يُقال لها ذلك تحريمًا أبديًّا كحُرمة الأمِّ تمامًا بتمام، وأوثر التعبير بالمضارع الذي يفيد التجدُّدَ لدلالته على تجدُّد حصول ذلك من الرّجال واحدًا بعد واحدٍ، بجانب ما يُفيده من استحضار الصّورة الماضية كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ، تبدو فيها الزوجةُ الحلالُ تُعامَل مُعاملةَ الأمِّ في الآثار والأحكام، ما من شأنه أنْ يُساعِد في التنفير والإنكار.

القراءات المتواترة في ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾:

الـظِّـهـارُ فيه تـطاولٌ وإصـرارٌ عــلى جَـعْـل الأزواجِ أُمَّهاتٍ

قُرِئَ الفعلُ ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ من قول الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ بأكثرَ من قراءة؛ حيث قرأ عاصم بِضَمِّ التّاءِ وتَخْفيفِ الظّاءِ وألِفٍ بَعْدَها وكَسْرِ الهاءِ مَعَ تَخْفيفِها ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾؛ وكذلك قرأ حمزة والكسائي وخلف، إلّا أَنَّهُمْ فتحوا التّاءِ والهاءِ ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾؛ وقَرَأَ ابْنُ عامِرٍ كَذَلِكَ إلّا أنَّه بِتَشْديدِ الظّاءِ ﴿تَظَّٰهَرُونَ﴾؛ وقَرَأ الباقونَ كَذَلِكَ، إلّا أَنَّهُمْ بِتَشْديدِ الهاءِ مَفْتوحَةً مِنْ غَيْرِ ألِفٍ قَبلَها ﴿تَظَّهَّرُونَ﴾(2)، فقراءة عاصم بضم التاء وكسر الهاءِ بعد ألفٍ، مضارع (ظاهَرَ)، وقراءة ابن عامرٍ بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء مضارع (تَظاهَر)، والأصل (تتظاهرون) بتاءَيْن فأدغم، وحمزة والكسائي وخلف كذلك، إلّا أنهم خَفَّفوا الظاءَ، والأصل أيضًا بتاءَيْن، إلّا أنهم حَذَفوا إحداهما، وقراءة الباقين بفتح التاءِ والهاءِ وتشديدِ الظاء والهاء دونَ ألفٍ، والأصل: (تَتَظَهَّرون) بتاءَيْن فأدغَم نحو: (تَذَّكَّرون) (3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 256.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 347.
(3) ابن زَنْجلة، حجة القراءات، ص: 703، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 93.

وخلاصته أنّك تَقول: (ظاهر من امْرَأته وظهَّر)، مثل: (ضاعف وضعَّف)، فَتدخل التّاء على كل واحِد مِنْهُما؛ فَيصير: (تَظاهر وتَظَّهر)، ويدّخل حرف المضارعة فَيصير: (يتظاهر ويتظَهر)، ثمَّ تُدْغَم التّاء في الظّاء لمقاربتها فَتصير: (يظّاهر ويظَّهر) بِفَتْح الياء الَّتي هيَ حرف المضارعة لِأنَّها للمطاوعة كَما يفتحها في: (يتدحرج) الَّذي هوَ مُطاوع: (دحرجته فتدحرج)، والمفاعلة (المظاهرة) هنا ليست على بابها؛ لأنها من جهة الأزواج فقط، وأيضًا فإنّ صيغة التشديد في القراءة الأخرى فيها معنى التكرار والإصرار، وهي قراءاتٌ متقاربة، تدلّ بما فيها من مَدٍّ وإدغامٍ على تطاوُلِ المُظاهِرِ وإصراره على جعل الزوجة أُمًّا.

نكتة تعدية ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ بـ(مِنْ):

الظّهار سبب تباعُد الرّجل عن زوجه

عُدّيَ المُضارع ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ بـ(مِنْ) في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾، مع أنّه يتعدّى بنفسه، لتضمُّنه معنى التباعد ونحوه، ممّا فيه معنى التَّجُنُّب وعدم الاقتراب؛ ذلك أنَّ الظِّهار كان طلاقًا وتحريمًا عند أهل الجاهليّة وصدرٍ من الإسلام.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالظّهار:

تَخَيُّلُ تشبيه الزوجة بالدابّةِ المُضْمَر في النفس

في التعبير عن المفارقة بالظّهار في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾ بلاغةُ الاستعارة، وذلك أنّه في قَوْلِهِمْ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أمّي، تَخْييلٌ لِلتَّشْبيهِ المُضْمَرِ في النَّفْسِ عَلَى طَريقَةِ الِاسْتِعارَةِ المَكْنيَّة، إذْ شَبَّهَ الرَّجُلُ زَوْجَهُ حينَ يَغْشاها بِالدّابَّةِ حينَ يَرْكَبُها راكبُها، ثم حذف المشبَّه به ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيّة، وذكر الظّهر تَخْييلًا[1].

نوع واوِ ﴿وَمَا﴾ ودلالتها:

كونُ الأدعياء أبناءً يُماثل في الاستحالةِ كونَ الأزواج أُمّهاتٍ

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ معطوفًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 256.

على ما قبله بالواو التي تُفيد المشاركةَ في الحكم، للدّلالة على أنّ كونَ الأدعياء أبناءً يُماثل كونَ الأزواج أمّهاتٍ، ويُماثل كذلك وجودَ قلبين في جوف الإنسان في الاستحالة وعدم القبول؛ و"هَذا هوَ المَقْصودُ الَّذي له وُطِّئَ بالآيَتَيْنِ قَبْلَهُ، ولِذَلِكَ أُسْهِب الكَلامُ بَعْدَهُ بِتَفاصيلِ التَّشْريعِ فيه، وعُطِفَتْ هاتِهِ الجُمْلَةُ عَلَى اللَّتَيْنِ قَبْلَها لِاشْتِراكِ ثَلاثَتِها في أنَّها نَفَتْ مَزاعِمَ لا حَقائِقَ لَها"[1].

فائدة نفي الجعل وبيانُ مفعولَيه:

عَـدُّ الأدعـيـاء أبناءً من الجَعْل البشريّ، وليس مــن الـخَـلْـق الإلهيّ

يتعدّى الفعل ﴿جَعَلَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ لمفعولين، أوّلهما ﴿أَدۡعِيَآءَكُمۡ﴾، والآخر ﴿أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾، وفي إعادة التعبير به منفيًّا مع قُرب العهد به دلالةٌ على أنّ جعل الأدعياء أبناءً في الأحكام والآثار من عادات البشر وأعرافِهم، وليس من خلق اللّه تعالى وفطرته التي فطر الناسَ عليها؛ "وكانوا في الجاهِلِيَّةِ وصَدْرِ الإسلام إذا تبنَّى الرَّجُلُ ولَدَ غَيْرِهِ صارَ يَرِثُهُ"[2]، ويُعامَلُ معاملةَ ولدِه الحقيقيّ في كلِّ شيءٍ تمامًا بتمام.

نكتة إضافة الأدعياء إلى ضمير المخاطبين:

شــدّة قـرب الأدعـيـاء من الـمـخـاطَـبـين وقوّة ارتباطهم لا يـجـعـلـهـم أبناءهم

في إضافة الأدعياء إلى ضمير المخاطبين في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾: إلماحٌ إلى قوّة التَّقارب وشدّة الاتِّصال الذي صار بين الرجال وأدعيائهم؛ وللإشارة إلى أنَّهم أصبحوا ينزلون منهم منزلة المُضاف من المُضاف إليه.

دلالة التّعبير بلفظة الأدعياء:

الأَدْعياءُ في قول اللّه تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ جَمْعُ (دَعيّ) بِوَزْنِ (فَعيلٍ) بِمَعْنَى مَفْعولٍ، مُشْتَقٌّ مِنْ مادَّةِ الادِّعاءِ؛

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 258.

(2) أبوحيان، البحر المحيط: 8/ 452.

والدَّعيُّ هو: المُتَبَنَّى الَّذي تَبَنّاه رجلٌ فَدَعاهُ ابنَه، ونسبهُ إلَى غَيْرِه[1]؛ "والادِّعاءُ: زَعْمُ الزّاعِمِ الشَّيْءَ حَقًّا لَهُ مِنْ مالٍ أَوْ نَسَبٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ بِصِدْقٍ أَوْ كَذِبٍ"[2]، وفي التعبير به جمعًا دلالةٌ على شيوع هذا اللّقب وانتشارِه بين العرب وقتَ نزول السورة، فجعلُ الأدعياء أبناءً كانت عادةً معروفةً، قبلَ أن يُبطِلَها القرآنُ.

جَعْلُ الأدعياء أبــنــاءً عـــادةٌ معروفةٌ سائدةٌ عند العرب إبّانَ نُزول السّورة

نكتة فصلِ ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾:

جاء قول اللّه تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ مفصولًا عمّا قبله لِما بين الكلامين من كمال الاتّصال، الذي تنزلُ فيه الجملةُ الثانيةُ من الأولى منزلةَ التابع من المتبوع، حيث إنّ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ يمكن أن يكون تأكيدا معنويًّا لبُطلان ما سبقه من عادات الظِّهار والتبنّي، وأنّها لا تَعْدو أنْ تكون مِنْ كلامِ النّاس وافتراءاتهم التي لا تتوافق مع الفطرة السويّة، ولا يقبلُها العقلُ السليمُ؛ ويمكن أن يكون بيانًا لحقيقة هذه العادات، وأنّها من القوانينِ التي سنّها الناسُ وتعارفوا عليها، وألزموا أنفسَهم بها، لكنّها ليست مِنْ وحي اللّه تعالى، ولا مِنْ شَرعِه الحنيف.

تأكيدُ انتفاءِ كونِ الأدعـياء أبناءً وكـونِ الأزواجِ أُمّهاتٍ

إعرابُ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ ودلالتُه:

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ اسمُ إشارة في محلّ رفع مبتدأ، وُضِع في الأصل ليُشارَ به للبعيد، وقد أُشير به هنا إلى ما ذكرَتْه الآياتُ السّابقةُ من الافتراءات التي روّجَها المشركون، والعاداتِ التي اعتقدوها، مِنْ وجود قلبَيْنِ في جوفِ بعض النّاس، ومِنْ كون المرأة المُظاهَر منها أمًّا، ومِنْ كون الأدعياءِ أبناءً للذين تَبَنَّوْهُمْ، وأوثر التعبير به لتمييز المُشار إليه، وتنزيله منزلة الشيء البعيد في الإهانة والتحقير والبُعد عن الصَّواب ومجافاة

تنزيل المشار إليه مَنزلةَ البعيد في الإهانة والبُعْدِ عن الحقيقة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دعا).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 258.

الفطرة والحقيقة، فـ"﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ قيل: إشارةٌ إلى ما يُفهَم من الجمل الثلاث، مِنْ أنَّه قد يكون قلبان في جوف، والظهار، والادّعاء؛ وقيل: إلى ما يُفهم من الأخيرتين؛ وقيل: إلى ما يُفهم من الأخيرة"[1].

نكتة خطاب الجمع في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

هذه ادّعاءاتٌ للمشركين، وافتراءاتٌ منهم، لا سلطانَ لهم بها من الله

في إضافة اسم الإشارة إلى ضمير الجمع في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ من الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ تنبيهٌ للمخاطَبين بأنَّ المشارَ إليه الموغلَ في البُعد عن الحقيقة: من عاداتكم وبنات أفكاركم، ولا حقيقةَ له وراءَ القول وتحريكِ الفم من غير مطابقةِ قلوبكم[2].

نكتة إفراد ﴿قَوۡلُكُم﴾ وإضافتِه:

أحكامُ الظّهار والتّبنّي المخالفةُ للفِطْرة: ليست مِنْ وحي الله في شيءٍ

في إفراد القول في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ دلالةٌ على اتِّفاق المُخاطَبين عليه، واتِّحادهم جميعا في التَّلَفُّظ والأخذ به، وعدم مخالفة بعضهم فيه؛ ما يعني أنّ كلًّا من الظهار والتبنّي له صورةٌ واحدةٌ، وله مفهومٌ واحدٌ لدى الجميع، وفي إضافته إلى ضميرِ جمع المخاطَبين توبيخٌ لهم، وتأكيدٌ لنسبته إليهم، وتبرئةٌ للوَحْي منه؛ كأنَّه قيل: (هو قولُكُم الصادرُ من أفواهكم، الخارجُ من ألسنتِكم، وليس من وحي اللّه تعالى في قريبٍ ولا بعيدٍ).

معنى باءِ ﴿بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾:

تأكيدُ كونِ الظّهار والتَّبنّي من أقوال الكفّار، وعدم الافتراء في نسبته إليهم

الباء في قول اللّه تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاقَ، أو السببيّةَ، أو الاستعانة، وفي التعبير به تأكيدٌ لخروج هذا الكلام من أفواههم، وعدم الافتراء في نسبته إليهم؛ وإشارةٌ إلى أنّهم هم الذين قدَّسوه وألزموا أنفسهم به، مع أنَّه بعيدٌ كلَّ البعد عن كلام اللّه، ومخالِفٌ تمامَ المخالفة للفطرة التي فَطَر النّاسَ عليها.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 145.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 286.

بلاغة الإطناب في قوله ﴿بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾:

ما قاله الكُفّار في الظِّهار والتَّبنّي لا وجـود لـه في الحقيقة والواقع

ذكرُ قَيدِ الأفواه في قول اللّه تعالى ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ معَ أنّ القول لا يكون إلا بالأفواه: إطنابٌ يفيد معنًى جليلًا، وهو أنّ قولَهم لم يكن راسخًا عن يقين واعتقاد، وإنما هو لفظ ينطق به اللسانُ ولا يصدّقه القلب، وإن كانوا أظهروا الاقتناعَ به بترجمته الى فعل؛ لأنّ ما قالوه بشأن الظّهار والتّبنّي لا يزيد عن كونه كلامًا خرج من أفواههم، ولا أساسَ له في الحقيقة والواقع؛ فالزوجة زوجةٌ، والأمُّ أمٌّ، ولنْ تكون الزوجة أمًّا مهما كان، ولنْ يكونَ المُتبنَّى ولدًا بأيّ حال من الأحوال؛ فتقييد القول ﴿بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ - مع أنَّهُ مِنَ المَعْلوم أنَّ القَوْلَ إنَّما هوَ بالأفْواهِ - للإشارة إلَى أنَّهُ قَوْلٌ لا تَتَجاوَزُ دَلالَتُهُ الأفْواهَ إلَى الواقِعِ ونَفْسِ الأمْرِ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ أنْواعِ الوُجودِ إلّا الوُجودُ في اللِّسانِ والوُجودُ في الأذْهانِ دونَ الوُجودِ في العِيانِ؛ فَعُلِمَ مِنْ تَقْيِيدِهِ ﴿بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ أنَّهُ قَوْلٌ كاذِبٌ لا يُطابِقُ الواقِعَ[1].

عـينُ الـضـلال الأخـــذ بـقـول الكاذب اللاغي، وتـركُ قـول الله الحقّ

يشبه الكلامُ الذي يصدر من الفم فقط صوتَ البهائم الذي لا يصدر عن قلب، والكلام الذي بالقلب قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا؛ لأنّ من يقول شيئًا عن اعتقاد قد يكون مطابقًا فيكون حقًّا، وقد لا يكون فيكون باطلًا، فالقول الذي بالقلب - وهو المعتبر من الأقوال - قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا، لأنّه يتبع الوجود؛ وقول اللّه حقّ لأنّه يتبعه الوجود، فإنّه يقول عمّا كان، أو يقول فيكون، وعليه، فقول اللّه خيرٌ من أقوالكم التي عن قلوبكم، فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التي بأفواهكم؟! ومن هنا لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغي وتتركوا قول اللّه الحقّ، فمن يقول بأنّ تزوج النبيّ ﷺ بزينبَ لم يكن حسنًا يكون قد ترك قول اللّه الحقّ وأخذ بقولٍ خرج عن الفم[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 260.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 156.

توجيهُ التّعبير بالأفواه دون اللّسان:

أُسند القولُ في هذه الآية الكريمة إلى الأفواه: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾، بينما أُسند إلى اللّسان في ثمانيةِ مواضعَ من القرآن، وهي في آل عمران، الآية: 78، والنساء، الآية: 46، والنحل، الآية: 62، 116، والنور، الآية: 15، والأحزاب، الآية: 19، والفتح، الآية: 11، والممتحنة، الآية: 2، تأتي كلّها في سياق حديث القرآن عن الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب، ببيان أقوالهم الكاذبة، وافتراءاتهم المخالفة للحقيقة والواقع على كتاب اللّه، وعلى الرسول ﷺ وأزواجه، وعلى المؤمنين والمؤمنات، بغرض إشاعة الفتنة والتشكيك وإثارة البلبلة في مجتمع المسلمين؛ إذِ اللسان هو الوسيلة الفاعلة في ذلك، وله تأثيرٌ كبير في الترويج والانتشار.

الكافرون والمنافقون واليهود لا يتكلّمون إلا بما يُثير الفتنَ ويقلبُ الحقائقَ

أمّا إذا كان ما يصدر عنهم من قبيل الافتراءات والأكاذيب والتُّهم التي لا أساسَ لها من الصحة والمعتقدات الباطلة، كمعتقد الظهار والتبنّي: فإنّ التعبير بالأفواه يكون الأنسبَ، لأنّهم يحاولون إيهام المخاطبين بكون كلامهم انعكاسًا لباطنهم، وأنّهم موقنون بما يقولون وإن لم يكونوا راسخين فيه، بغرض حمل المخاطَبين على تصديقهم واتّباعهم، فقولهم هنا كان عن صورةِ قناعةٍ مترجمة إلى فعل، وإن لم تكن راسخةً متيقّنة لمخالفتها الفطرة، ومجانبتها الواقع؛ ولذلك استعمل لفظ (الأفواه)، وكأنّهم قالوه بملء الفم فقط.

معنى واوِ ﴿وَٱللَّهُ﴾:

الواو في أوّل قول اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ قد تكون للحال، والجملة بعدها حالية تدلُّ على أنّ كلامَ اللّه هو الحقّ الذي لا يأتيه الباطلُ دائمًا وأبدًا؛ وقد تكون استئنافيّة، والجملة بعدها مستأنفة للتنبيه إلى أنّ ما قالوه في الظهار والتّبنّي يخالف كلامَ اللّه وشرعتَه التي لا تخرج عن كونِها الحقَّ الهادي إلى سواء السبيل.

كلامُ الله تعالى هو الحقُّ الذي لا يأتيه الباطلُ دائمًا أبدًا

نكتة تقديم المسند إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾:

في قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ قُدِّم المسند إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبر الفعلي ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ لإفادة قصر قول الحقّ على الله ﷻ دون الكافرين والمنافقين، قصرًا إضافيًّا غرَضُه القَلْبُ، أي: (والله يَقولُ الحَقَّ، لا الَّذينَ وضَعوا لَكُمْ تِلْكَ المَزاعِمَ)[1]، وفي القصر تأكيد بطلان كلامهم عن الظهار والتّبنّي بصفة خاصّة، وتقويةُ كونِه كذِبًا وافتراءً ومُخالِفًا لوحي الله تعالى وشرعِه.

كلامُ الله هو الحقّ، وليس كلام الكافرين والمنافقين

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُ﴾:

عبَّر البيانُ الكريمُ في الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ بالفعل ﴿يَقُولُ﴾ - الدالِّ على التصريح والمجاهرة - مضارِعًا، لما يُفيده المُضارع من الدلالة على الاستمرار التّجدّدي؛ فالوحيُ النازل على رسول الله ﷺ يأتي في كلِّ حادثةٍ ومناسبةٍ بالحقِّ الذي يُناسبها، مصرِّحًا به، معلنا له، سواءً كان ذلك بالإبطال أو الإقرار، وهو يتنزّل بما فيه المصلحةُ للبشريّة كلِّها على مدار الزمان، وليس بما يتناسب مع طبائعِ الناس وعاداتهم في زمانٍ دون زمان، أو مكانٍ دون مكانٍ.

الوحيُ النازلُ إلى الرسول يأتي في كلّ حادثة بما يناسبها

موقع ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الإعرابيّ ومعنى (أل) فيه:

﴿ٱلْحَقَّ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ به للفعل ﴿يَقُولُ﴾، و(أل) فيه لتعريف العهد؛ والمعنى أنّ ما ينزلُ به الوحيُ من كلام الله تعالى لا يخرج عن الحقِّ المعروف المعهود للنّاس، الذي يتوافق مع الفطرة، ولا يلقى شيئًا من الإنكار أو الرفض، وقد تكون اللام للجنس، والمعنى أنَّ كلَّ كلام الله تعالى لا يخرج عن الحقّ ولا يحيدُ عنه، سواء أكان ذلك في موضوعَيِ الظهار والتّبنّي، أم في غيرهما.

كلامُ الله لا يحيدُ عن الحقّ، سواء في الظهار والتّبنّي أوْ في غيرهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 260.

دلالة التعبير عن مفعول القول بالحَقّ:

الحقُّ يَستمد قوَّته من قوّة قائله، والباطلُ يعتمد في بقائه على قوّة الإنسان

عبَّر النظمُ الكريمُ في الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ عن معمول الفعل ﴿يَقُولُ﴾ بقوله ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي هو نقيض الباطل، ليحصُلَ بهذا التعبير نوعٌ من التقابل المعنويّ بين قول الحقّ - الذي هو كلام اللّه - وقولِ الباطل - الذي هو كلامُ الكفّار والمنافقين - فيظهرَ بذلك الصوابُ من الخطأ، والحقُّ من الباطل، وفي التعبير عن المعمول بالحقِّ دلالة على أنّ الحقّ أغلبُ، لأنَّ قوّتَه تُستمدّ من قوّة قائله، وهو اللّه ﷻ، بخلاف الباطل، الذي يعتمد في بقائه على قوّة الإنسان[1].

معنى واوِ ﴿وَهُوَ﴾:

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ لعطف ما بعدها على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾، لاتِّحادهما في المسنَد إليه، وللتَّناسب بين قولِ الحقّ وهدايةِ السبيل.

نكتة إضمار اسم الجلالة:

كلامُ الله يتَّسِمُ بالهداية، وكلامُ الكفار والمنافقين ضلالٌ وغوايةٌ

عُبِّر في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ عن المسند إليه بالضمير (هوَ) العائدِ إلى اسم الجلالة في الجملة السّابقة: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾، جريًا على ما يقتضيه الظاهرُ من إسناد الفعل إلى ضمير المسند إليه الذي سبق ذكرُه في الكلام، ولأنّ الضمير يقوم مقام اسم الجلالة الذي يعود إليه، وفيه ما يدعو إلى التفكّر والتدبّر في سُبُل الهداية التي يتّسم بها كلامُ اللّه تعالى بصفة عامة، وكلامُه عن التّبنّي والظّهار بصفةٍ خاصّة، ومقارنةِ ذلك بالضلالات التي يُروِّجُها الكافرون والمنافقون.

نكتة تقديم المسند إليه ﴿وَهُوَ﴾:

في تقديم الضمير العائد إلى اسم الجلالة: ﴿وَهُوَ﴾ على الخبر

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 65.

الفعليّ ﴿يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا إضافيًّا، يؤكِّدُ حصر هداية السبيل في كلام اللّه دون كلام الكفّار والمنافقين، كما هو الشأن في جملة ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ والمعنى: "وَهوَ يَهْدي السَّبيلَ الحَقَّ، لا الّذينَ أضَلّوا النّاسَ بِالأوْهامِ"[1] والأباطيل.

كلامُ اللهِ هو الهادي إلى سواء السبيل، وليس كلامَ الكفّار والمنافقين

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَهۡدِي﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ التعبيرَ بالفعل ﴿يَهۡدِي﴾ مضارعًا في قوله تعالى ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾، لِما يُفيده المضارعُ من الدلالة على الاستمرار التجدُّديّ؛ فاللّهُ يتولّى هداية خلقه إلى الصواب، وإلى ما فيه صلاحُهم ومصلحتُهم، من خلال الوحي النازل إلى رسوله، الذي يتجدَّد نزولُه بما يحقِّق المصالحَ ويدرأُ المفاسد، وما عليهم إلّا أنْ يَقيسوا ما ليس موجودًا فيه على ما هو موجودٌ فيه، لِتَتَجدَّدَ الهدايةُ كلّما تجدّدتِ الحاجةُ إليها.

كلامُ الله يتجدّد نزولُه بما يَهدي الناسَ ويرشدُهم

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

(أل) الداخلة على ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ لتعريف العهد، تدلّ على أنّ وحيَ اللّه تعالى يهدي خلقه إلى الطريق السهل الميسور، الذي تَجِدُ فيه النفوس راحتَها وقرارها، لأنّه يتوافق مع طبيعتها وفطرتها التي فُطرت عليها، فلن يتعارض معها، ولن تَنْفِر من السير فيه؛ "والسَّبيلَ: الطَّريقُ السّابِلَةُ الواضِحَةُ، أي: الواضِحُ أنَّها مَطْروقَةٌ، فَهيَ مَأْمونَةُ الإبْلاغِ إلَى غايَةِ السّائِرِ فيها"[2].

سبيلُ الله هو الطريقُ الميَسورُ الذي تَجِدُ فيه النفوسُ راحتَها وقرارَها

بلاغة الاستعارة في هداية السّبيل:

في قول اللّه تعالى ﴿يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ استعارةٌ تصريحيّة، شُبِّه فيها التوفيقُ إلى الخير والصواب بالهداية التي تعني الدلالةَ بلطف، بجامعِ الإيصال إلى الغاية والهدف؛ ثم استُعير لفظ الهداية للتوفيق،

توفيقُ الله موصِلٌ للغاية كما السّبيلُ موصِلٌ سالكَه غايتَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 260.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 260.

واشتُقَّ منه ﴿يَهۡدِى﴾ بمعنى: يوفِّق على سبيل الاستعارة التصريحيّة التبعيّة، التي توضّح أثر كلام اللّه في هداية الناس وإرشادهم إلى ما فيه الخير والصواب، سواءً في أمر الظّهار والتّبنّي أو في غيرهما.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَلْق والجَعْل:

الخَلْق: إيجادٌ من عدم؛ والجعلُ: إحداثٌ وتعديلٌ يلحق الموجود

الخَلْقَ: التَّقْدير، والنّاس يَقولونَ: لا خالقَ إلّا اللّه، والمراد أنّ هَذا اللَّفْظ لا يُطلق إلّا على اللّه، إذْ لَيْسَ أحدٌ إلّا وفي فعله سَهْوٌ أو غلطٌ يجْري مِنْهُ على غير تَقْدير، غير اللّه تَعالَى، أمّا الجعل فيكون بِمَعْنى الإحداث، كقَوْله تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقَوله ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [الملك: 23]، ويجوز أن يُقال: إنّ ذَلِك يَقْتَضي أنّه جعلها على هَذِه الصّفة الَّتي هيَ عَلَيْها، كَما تَقول: جعلت الطينَ خزَفًا[1]، ويُفهم من ذلك أنَّ الخلقَ: إيجادٌ من عدم، أمّا الجعلُ فهو إحداثٌ وتعديلٌ يَلْحَقُ الموجودَ، وهو أنسب لسياق نفي إحداث قلبين في جوفٍ، أو الأزواج أمّهات، أو الأدعياء أبناءً، من حيثُ كونه تصييرًا لحالةٍ مخالِفَةٍ للفطرة ومجانِبَةٍ للواقع.

الأبناء والأولاد:

الابــن يـفـيـد الاخـتـصـاص ومـداومـة الصحبة، والولد يقتضي والدا

الأبناءُ ليسوا من صُلبِ الرجل، أما الأولادُ فهم من صُلبه؛ والابْن يَقْتَضي أبًا، والولد يَقْتَضي والدًا؛ والولد يَقْتَضي الوِلادَة ولا يقتضيها الابْن، ولا يُمسى الإنْسان والدًا إلّا إذا صار لَهُ ولد؛ والابْن يُفيد الِاخْتِصاص ومداومة الصُّحْبَة، ولِهَذا يُقال: ابْن الفلاة لمن يداوم سُلوكَها، وتقول تَبَنَّيْتُ ابْنًا إذا جعلتَه خاصًّا بك، وقَوْلنا: هوَ ابْن فلان يَقْتَضي أنه مَنْسوب إلَيْه، ولِهَذا يُقال النّاس بَنو آدم لأنهم منسوبون إلَيْهِ، وكَذَلِكَ بَنو إسرائيل[2]، ولأنّ لفظ الابْن يُفيد النسبة

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136 وما بعدها.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281 وما بعدها.

والِاخْتِصاص ومداومة الصُّحْبَة، ولا يقتضي الولادة؛ فإنّه أنسب لنفي كون الأدعياء إيّاهم.

الأفواه والألسنة:

اللِّسانُ مَعْروفٌ، وهوَ مُذَكَّرٌ، والجَمْعُ أَلْسُنٌ، فَإذا كَثُرَ فَهيَ الأَلْسِنَةُ، ويُقالُ لَسَنْتُه، إذا أخَذْتَهُ بِلِسانِكَ[1]، وهو: الجارحة وقوّتها؛ وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27] يعني به من قوّة لسانه، فإنّ العُقْدَةَ لم تكنْ في الجارحة، وإنّما كانت في قوّته التي هي النّطق به[2].

اللسانُ العضوُ الـذي يـكـون به الـكـلام، والـفَـمُ محـلُّ الـلـسان، والـفـوهُ فتحةُ الفم

وأمّا الفوهُ فسَعَةُ الفَم، ويَقولونَ: إنَّ أَصْلَ الفَمِ فَوَهٌ، ولِذَلِكَ قالوا: رَجُلٌ أَفْوَهُ؛ وجمعُ الفم: أَفواه، وفاهَ الرَّجُلُ بِالكَلامِ يَفوهُ بِه، إذا لَفَظَ بِهِ؛ والمُفَوَّهُ: القادِرُ عَلَى الكَلامِ، وزَعَمَ ناسٌ أَنَّ الفَوَهَ أَيْضًا: خُروجُ الثَّنايا العُلْيا وطولُها[3].

وكلّ موضع علّق الله فيه حكم القول بالفَم فإشارة إلى الكذب، وتنبيه إلى أنّ الاعتقاد لا يطابقه، نحو: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التوبة: 8][4]، ومن هنا اختيرَ لفظُ (الأفواه) في الآية ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾، لما تقدّم من إثبات أن قولهم لم يكن راسخًا عن يقين واعتقاد، وإنّما هو لفظ ينطق به اللسان ولا يصدِّقه القلب، وإن كانوا أظهروا الاقتناع به بترجمته الى فعل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (لسن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوه).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (فوه).

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ [الأحزاب: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإرشادُ إلى طريقة معاملة الأدعياء، بعد إبطال كونهم أبناءً

بعد أنْ خُتمت الآيةُ السابقةُ ببيان أنّ قولَ اللّه في الظّهار والتّبنّي هو الحقّ والهُدى الواجبُ اتّباعُه، جاءت هذه الآية لتُرشِدَ النّاس إلى الطريقة الصحيحة في التعامل مع الأدعياء، حيث أمرَتْهم أن ينسبوهم لآبائهم إذا كان آباؤهم معروفين، لأنَّ ذلك أعدلُ عند اللّه تعالى وأشرفُ للآباء والأبناء؛ أمّا إذا كان آباؤُهم مجهولين فعليهم أنْ ينادوهم بأخي أو مولاي، وأنْ يتركوا نِسبتَهم إلى غير آبائهم الشرعيّين. "فلمّا كان كأنه قيل: فما تقول؟ اهدنا إلى سبيل الحقّ في ذلك! أرشَدَ إلى أمر التبنّي - إشارةً إلى أنّه هو المقصود في هذه السورة، لِما يأتي بعدُ من آثاره التي هي المقصودة بالذّات - بقوله ﴿ٱدۡعُوهُمۡ﴾"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡسَطُ﴾: (قسط) أصلٌ واحد يدلّ على معنيَين متضادّين، فالقَسط بالفتح: الجَوْر، والقِسط بالكسر: العَدْلُ، ويُقالُ من الثاني: أقْسَطَ يُقْسِطُ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42][2]، والجامع بينهما أنّ القِسط هو النّصيب بالعدل، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [يونس: 4]، وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن: 9]، والقَسطُ أن يأخذ قِسط غيره،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قسط).

وذلك جَور، والإقْساطُ: أنْ يُعطيَ قِسْطَ غيره، وذلك إنصافٌ؛ ولذلك قيل: قَسَطَ الرّجلُ: إذا جار، وأقْسَطَ: إذا عدل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: 15][1]، ومعنى ﴿أَقْسَطُ﴾ في هذه الآية: أعدلُ وأفضلُ.

2) ﴿وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْب، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ يُقارِبُني[2]، وكلٌّ من ولِيَ أمرَ الآخرِ فهو وليُّهُ؛ ومنه: فلان أَوْلَى بكذا، أي: أحرى، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾، وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: 68][3]، والمَوالي جمعُ مفردُه: مَوْلَى، والمَوْلَى: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى جَماعَةٍ كَثيرَةٍ، فَهوَ: الرَّبُّ والمالِك والسَّيِّدُ والمُنْعِم والمُعْتِقُ والنّاصِر والمُحِبُّ والتّابع والجارُ وابْنُ العَمّ والحَليفُ والعَقيدُ والصِّهْرُ والعَبْدُ والمُعْتَقُ والمُنْعَمُ عليه[4].

3) ﴿جُنَاحٌ﴾: (جنح) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ والعُدْوانِ، يُقالُ جَنَحَ إِلَى كَذا، أيْ مالَ إلَيْه، والجُناحُ: الإِثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِه عَنْ طَريقِ الحَقِّ[5]، قال تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: مالوا، من قولهم: جنحت السفينة، أي: مالت إلى أحد جانبيها؛ ثُمّ سُمّي كلّ إثم جُناحًا، نحو قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 236] في غير موضع[6]، وقول الله تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ معناه: لا يلحقكم إثم أو ذنب.

4) ﴿تَعَمَّدَتْ﴾: (عمد) أَصْلٌ كَبيرٌ، فُروعُهُ كَثيرَةٌ تَرْجِعُ إلَى مَعْنًى، وهوَ الاِسْتِقامَةُ في الشَّيْءِ، مُنْتَصِبًا أَوْ مُمْتَدًّا، وكَذَلِكَ في الرَّأْيِ وإرادَةِ الشَّيْءِ، والعَمْدُ: نَقيضُ الخَطَأِ في القَتْلِ وغَيْرِه، وإنَّما سُمّيَ ذَلِكَ عَمْدًا لِاسْتِواءِ إرادَتِكَ إيّاهُ[7]؛ والتَّعَمُّدُ خلاف السَّهو، وهو المقصود بالنّيّة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: 93]، وقال هنا: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾[8].

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (قسط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي)، والجوهري، الصحاح: (ولي).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (جنح).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (جنح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمد)، وابن منظور، لسان العرب: (عمد).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (عمد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حكم الخطأ والتَّعَمُّد في مخالفة نهي القرآن عن دعوة الأبناء لغير آبائهم

ترشد هذه الآية المسلمين إلى الطريقة التي يتعاملون بها مع الأدعياء، حيث أمرتهم بأنْ ينْسبوهم إلى آبائهم، لأنَّ ذلك أعدلُ، ودَعَتْهُم إلى أنْ يُخاطبوهم بأخي ومولاي إن كانوا لا يعرفون آباءهم، وبيّنت أيضًا أنّ اللّه تعالى لنْ يؤاخذهم على ما أخطأوا فيه من نسبة بعض الأبناء إلى غير آبائهم، ولكنّ المؤاخذةَ ستكون على ما كان من ذلك على سبيل التعمّد المُخالِف لِما أمَر اللّهُ به، وبشَّرَتِ الآيةُ - في ختامها - الجميعَ بأنّ اللّهَ سبحانه واسعُ المغفرة لمن عرف خَطَأه، واستغفر ربَّه منه، وتراجع عنه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل قوله ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾:

الآيـة منفصلة اللفظِ عن سابقتها، متّصلةُ المعنى بها

جاء قولُ اللّه تعالى ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ مفصولًا عمّا قبله لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، فيما يُسمّى كمالَ الانقطاع، الذي تنفصل بسببه الجملُ لفظيًّا؛ لكنّ ذلك لا يعني أنَّها غيرُ متّصلةٍ في المعنى، إذِ الآيةُ الثانية توضّح كيفيّة التعامل مع الأدعياء حالَ كون آبائهم معروفين أو غير معروفين، فهي وثيقةُ الصلة بما قبلها، والفصل بينهما إنّما كان بسبب اختلافهما خبرًا وإنشاءً.

وقد يكون الفصل بين الجملتين بسبب شِبه كمال الاتّصال، الذي تُجيب فيه الآيةُ الثانيةُ عن سؤال تثيره الأولى في نفس المتلقّي عن كيْفيّة التّعامل مع الأدعياء، بعد إبطال عادة التّبنّي التي كانت أساسَ التّعامل معهم في الآثار والأحكام.

دلالة الأمر ﴿ٱدۡعُوهُمۡ﴾ ومرجِع الضمائر فيه:

التوجيهُ إلى الطريقةِ المستقيمة التي يجبُ التعاملُ بها مع الأدعياء

قول اللّه تعالى ﴿ٱدۡعُوهُمۡ﴾ في الآية الكريمة ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فعلُ أمرٍ، والضمير المرفوع فيه (الواو) يعود إلى

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 174 بتصرف.

المخاطَبين، والضمير المنصوب (هُمْ) يعود إلى الأدعياء؛ والمراد بالدعاء: النسب؛ والغرض من الأمر: التوجيه والإرشاد إلى الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المسلمون مع الأدعياء، لِما فيها من الصواب والعدل، والانسجام مع الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، بجانب العدالة التي تستلزم إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

معنى لامِ ﴿لِآبَآئِهِمۡ﴾:

اللام في قول الله تعالى ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِآبَآئِهِمۡ﴾ هي لام الاستحقاق[1]، الدالّة على أنّ مَنْ يجب أنْ يُنسب إليه الابنُ هو الأبُ الذي كان سببًا رئيسًا في وجوده، وليس أحدًا غيره.

نكتة تقييد فعل الأمر بالآباء:

النسبُ للآباء الشرعيّين شرفٌ للآباء والأبناء على السَّواء

قُيِّد فعلُ الأمر في قول الله تعالى ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِآبَآئِهِمۡ﴾ بالآباء دون الوالدين، جريًا على ما درج عليه اللسانُ العربيُّ في إطلاق الأب على "كلِّ من كان سببا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره، ولذلك يُسمّى النبيُّ ﷺ أبا المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾"[2]؛ فالآباءُ أعمُّ وأشملُ، والنّسب إليهم أعدلُ وأفضلُ لِما فيه من شرفٍ لكلا الطرفين، ثمّ إنّ الآباء ألصقُ بالنّسَب، وأكثرُ ارتباطًا به من حيث حفظه؛ ومدار الحديث إنّما هو عن النّسب، وادّعاء الولد لغير أبيه خرمٌ للحفظ.

نكتة فصلِ ﴿هُوَ أَقۡسَطُ﴾:

لـزوم الأعـدلِ في ميـزان الله مقصَدٌ شرعيٌّ شريف

جاء قولُ الله تعالى ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مفصولًا عمّا قبله لشبه كمال الاتّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ الثانيةُ عن سؤالٍ دارَ في ذهن المُتَلَقّي عن السبب في عدم نسبة الأدعياء إلى الَّذين قاموا بتَبنّيهم، فتأتي الجملةُ الثانيةُ لتُبَيّن أنَّ نسبَتَهم لآبائهم الحقيقين هي الأعدلُ والأفضلُ.

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.

(2) الراغب، مفردات القرآن: (أب).

مرجع الضّمير ﴿هُوَ﴾ وفائدته:

لا وجهَ أعدلُ من نسبة الولد الى أبيه حقيقةً

الضميرُ المنفصلُ المرفوع ﴿هُوَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ "عائِدٌ إلَى المَصْدَرِ المَفْهوم مِنْ فِعْلِ الأمر ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾، أي: الدُّعاء لِلْآباء"(1)؛ و﴿أَقْسَطُ﴾ خبره، والتّعبير به يفيد القصر: (فلا وجهَ أعدلُ من نسبة الولد إلى أبيه حقيقةً).

دلالة التّعبير بمادّةِ القسط:

نسبةُ الأبناء للآباء الشرعيّين أشدُّ حِفظًا للحقوق، وأكثرُ مُراعاةً للأحكام

لفظُ ﴿أَقْسَطُ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ معناه: أعدل، وفي التعبير بمادّة القِسط دلالةٌ على أنَّ نسبة الأبناء إلى آبائهم الشرعيّين أعدلُ وأفضلُ وأحفظُ للحقوق والأحكام المتعلّقة بالأبناء الحقيقيّين ممّن تمَّ تبنّيهم؛ إذْ ممّا يُجانِبُ العدالةَ ويَبْتَعِدُ عنها أنْ يكون الدَّعيُّ كالابن من الصُّلب في الميراث وفي المسكن وغيرهما، وممّا يُخالف الأحكامَ أن يُسمح للدعيّ بمخالطة النساء غيرِ المُحرَّمات من أزواج الرَّجل وبناته؛ وهذا ما يؤكِّد العدالةَ فيما يأمر به القرآنُ الكريمُ ويقوّيها، ويزيدُ من الإقناع به.

دلالة التّعبير بصيغةِ ﴿أَقْسَطُ﴾:

دعوةُ الأبناء للآباء الشرعيين أدْخَلُ في باب العدل مُطْلَقًا

لفظُ ﴿أَقْسَطُ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ على وزن (أفْعَل)، ومعناه هنا الزيادة المطلَقة، أي: غيرُ المقيَّدة بمفضّلٍ عليه؛ فإنّ الدعوة إلى غير الآباء ليس فيها شيءٌ من القسط، والمراد: أنَّ الدعوة إلى الآباء أدخلُ في باب القسط والعدل مطلقًا(2)؛ فاسْمُ التَّفْضيلِ مَسْلوبُ المُفاضَلَةِ، أيْ: هوَ قِسْطٌ كامِلٌ، وغَيْرُهُ جَوْرٌ عَلَى الآباءِ الحَقِّ والأدْعياءِ، لِأنَّ فيهِ إضاعَةَ أنْسابِهِمُ الحَقِّ(3).

النسب للآباء أكثرُ عدلًا من النسب لغير الآباء

وقد تكون المفاضلةُ مقصودةً باستعمال صيغة ﴿أَقْسَطُ﴾، ويكونُ (أفعل) على بابه، والمعنى: أنّ النسب للآباء أكثرُ عدلًا من النسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 261.
(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني: 67 بتصرف.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 262.

لغير الآباء؛ كَأَنَّهُ قالَ: (ذَلِكَ أَقْسَطُ مِنْ قَوْلِكُمْ هوَ ابْنُ فُلانٍ)[1]، ويكون الكلامُ واردًا على سبيل التهكُّم، لأنَّ الدعوة إلى الآباء لا توصَف بالقسط والعدل إلّا على جهة الاستهزاء والتهكُّم[2].

دلالة التعبير بالظَّرف ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾:

الإثارة والتحفيز إلى تنفيذ الأمر بدعوة الأبناء إلى آبائهم الشرعيّين

الظّرف في قولِ اللّه تعالى ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ متعلّقٌ بالخبر ﴿أَقۡسَطُ﴾، وفي هذا التّعليقِ نوعٌ من الإثارة والتّحفيز إلى تنفيذِ الأمر بدعوة الأبناء إلى آبائهم الشرعيّين، لِما فيه من الإشارة إلى أنَّ نِسْبَتَهم لآبائهم عدلٌ يجبُ أنْ تحرصَ النفوسُ عليه، حُبًّا في اللّه سبحانه، وحِرصًا على مرضاتِه.

معنى فاءِ ﴿فَإِن﴾:

حالُ الدّعيّ لا يخلو مِنْ أنْ يكونَ معروفَ الأب أو مجهولَه

الفاءُ في قول اللّه تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ للتفريع، إذ لا يخلو حالُ الدعيّ من أنْ يكون معروفَ الأبِ أو مجهولَه؛ فبعد بيان كيفيّة التعامل معهم في حالِ معرفة آبائهم انتقل البيانُ إلى توضيح كيفيّة التعامل في حال عدم معرفة آبائهم الحقيقيّين، ليكونَ التشريعُ جامعًا مستوفيًا.

بلاغة التّعبير بأسلوب الشرط:

نُدرةُ الحال تستلزم الإيضاح والبيان والإثارة والتشويق

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أسلوب الشرط عند الحديث عن كيفيّة التّعامل مع الأدعياء في حال عدم معرفة آبائهم، فقال اللّه تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾؛ وذلك لنُدرة هذه الحالة وخروجِها عن المألوف، إذِ الأصلُ أنْ يكونَ الابنُ معروفَ الأبوَين، فلمّا كانت حالةُ الجهل بالأب قليلةً نادرةً: استلزم ذلك إيضاحَ كيفيّة التعامل فيها باستعمال أسلوب الشرط المُكَوّن من جملتين، تَتَرَتَّب الثانيةُ منهما على الأولى ترتُّبَ المسبَّبِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 156.

(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 67.

على السَّبَب، بجانب ما في أسلوب الشرط من إثارةٍ وتشويقٍ إلى جملة الجواب، التي تَتَضَمّنُ الحُكمَ الواجبَ اتّباعُه، حتّى إذا ورد ثبَتَ في نفوس المخاطَبين، وتمكّن في عقولهم أنْ يُنادوا الأدعياءَ بإخوانهم أو مواليهم إذا لم يعرفوا آباءهم.

نكتة التعبير بـ(إنْ):

الغالبُ الأعمُّ أنْ يكون الابنُ معروفَ الأب

أوثر التعبير في قول اللّه تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ بـ(إنْ) التي تفيد الشكَّ أداةً للشرط، للدلالة على أنَّ الغالبَ الأعمَّ أنْ يكون الابنُ معروفَ الأبوَين، وأنَّ النادرَ الشاذَّ ألّا يكون له أبٌ يُنسب إليه؛ ومن ثَمّ استُعملت (إنْ) لبيان كيفيّة التعامل مع الأدعياء في هذه الحالة القليلة النّادرة.

نكتة التّعبير بالمُضارع ﴿تَعۡلَمُوٓاْ﴾:

استحضار حالة الجهل بالآباء يدفع النفوس إلى الالتزام بما ورد من تشريع

عبَّر النظمُ الكريمُ في جملة الشرط من قول اللّه تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ بالمُضارع ﴿تَعۡلَمُوٓاْ﴾ المنفيِّ بـ﴿لَّمۡ﴾، للدّلالة على تجدُّد الجهل بالآباء على الرغم من السّعي لمعرفتهم، والحرصِ على العلم بهم حتّى يُنْسَبَ إليهم أبناؤهم؛ بجانب ما يُفيده التعبيرُ بالمضارع من استحضار حالة الجهل بالآباء كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ، تدفع الجميعَ إلى قَبول ما يُؤمَرُ به، والامتثالِ للتّعاملِ معهم من خلاله.

معنى فاءِ ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾:

الإرشاد إلى ما ينبغي استعمالُه من الألفاظ في حالِ جهل الآباء

الفاء في قول اللّه تعالى ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ من الآية الكريمة ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ هي الداخلة على جواب الشرط، المُفيدةُ معنَى التسبُّبِ، الدالِّ على أنّ ما ينبغي قولُه للأدعياء عند الجهل بآبائهم هو: إخوانُنا أو موالينا، والمعنى: "(قولوا لَهُمْ إخْوانُنا وأخو فُلانٍ، فَإنْ كانوا مُحَرَّرينَ فقولوا مَوْلَى فُلانٍ)"[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 156.

نكتة التعبير بالإخوان جمعًا:

مخاطبةُ الجميع بالتّشريع تؤكّد عدمَ التّساهلِ فيه

قول الله تعالى ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ من الآية الكريمة ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: (هم إخوانكم)؛ وجُمِعَ "تَأْكيدًا لِلتَّشْريعِ بِعَدَمِ التَّساهُلِ في بَقاءِ ما كانوا عليه بِعُذْرِ أَنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ آباءَ بَعْضِ الأَدْعياءِ، وتَأْنيسًا لِلنّاسِ أَنْ يَعْتاضوا عَنْ ذَلِكَ الِانْتِسابِ المَكْذوبِ اتِّصالًا حَقًّا لا يَفوتُ بِهِ ما في الِانْتِسابِ القَديمِ مِنَ الصِّلَةِ، ويَتَجافَى بِهِ عَمّا فيهِ مِنَ المَفْسَدَةِ"[1].

معنى ﴿فِي﴾:

الدّينُ يجمعُ أتباعَه، كما يَجمعُ الظرفُ مُحتوياتِه

﴿فِي﴾ من قول الله تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ "لِلظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ، أَيْ: إِخْوانُكُمْ أُخُوَّةً حاصِلَةً بِسَبَبِ الدّينِ؛ كَما يَجْمَعُ الظَّرْفُ مُحْتَوَياتِه، أَوْ تُجْعَلُ ﴿فِي﴾ لِلتَّعْليلِ والتَّسَبُّبِ؛ أَيْ: إِخْوانُكُمْ بِسَبَبِ الإِسْلامِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]، أَيْ: لِأَجْلِ اللهِ"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

التبنّي ممتنعٌ شرعًا، لكنْ تبقى حقوقُ الأخوّة في دين الإسلام

(أل) الدّاخلة على ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قول الله تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ لتعريف العهد؛ إذِ المقصود بالدين هنا: الدينُ المعهود المعروف، وهو دين الإسلام، وما شرّعه من حقِّ النّصرة والنصيحة والدعاء والمحبّة والتعاون والسلام، واتّباع الجنازة، وغير ذلك من حقوق الأخوّة التي تجب في الإسلام.

نكتة عطفِ ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾:

مِنْ مقاصدِ التّشريعِ التّوسعةُ على النّاس في كيفيّة التّعامُل مع الأدعياء

جيء بقول الله تعالى ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ معطوفا على ما قبله في قول الله تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾، وعُطف بالواو التي تفيد التخييرَ بين لَقَبَيِ الأُخوّة والموالاة، للتّوسعة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 262.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 262.

على النّاس في طريقة التعامل مع الأدعياء؛ وليكون التشريعُ تامًّا شاملًا كلَّ الحالات التي يكون عليها الدَّعيّ، فَهُمْ لا يَعْدون أنْ يوصَفوا بالإخْوانِ في الإسْلام إنْ لَمْ يَكونوا مَواليَ، أَوْ يوصَفوا بالمَوالي إنْ كانوا مَواليَ بِالحِلْف أَوْ بِوِلايَةِ العَتاقَة، وهَذا اسْتِقْراءٌ تامٌّ، والواوُ لِلتَّقْسيم، وهيَ بِمَعْنَى (أوْ)، فَتَصْلُحُ لِمَعْنَى التَّخْيير، أَيْ: (فَإنْ لَمْ تَعْلَموا آباءَهُمْ فادْعوهُمْ إنْ شِئْتُمْ بِإخْوانٍ وإنْ شِئْتُمْ ادْعوهُمْ مَواليَ إنْ كانوا كَذَلِكَ)؛ وهَذا تَوْسِعَةٌ عَلَى النّاسِ[1].

معنى واوِ ﴿وَلَيۡسَ﴾:

نفيُ المُؤاخذة على الخطأ في أمرٍ مّا: يدلُّ على تحريم العَمْد فيه

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ لِعَطْف ما بعدها على جُملة ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾، "لِأَنَّ الأَمْرَ فيها لِلْوُجوب، فَهوَ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ لِتَحْريمِه، كَأَنَّهُ قيلَ: (وَلا تَدْعوهُمْ لِلَّذينَ تَبَنَّوْهُمْ إلّا خَطَأً)"[2].

نكتة التعبير بحرف الجرّ (عَلَى):

التنفيرُ مِنْ تَعَمُّد نسبة الأدعياء إلى غير آبائهم

في إدخال حرف الاستعلاء المسبوق بفعل النَّفي على ضمير المُخاطبين في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ دلالةٌ على انتفاء لِحاقِ الإثم بالمخاطبين حالَ الخطأ في نسبتهمُ الأبناءَ إلى غير آبائهم الشرعيّين، بأيّ صورة وبأيّ شكل، ولا يخفى ما فيه من تشبيه الجُناح - وهو أمرٌ معنويّ - بشيء محسوس، يمثّل عبئًا شديدًا على المخاطَبين الّذين يتعمَّدون نسبة الأدعياء إلى غير آبائهم، تنفيرًا منه، وتحذيرًا من الإصرار عليه.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تَطْمين المخاطَبين بعدم المؤاخذة على ما صدر منهم خطأً

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على اسم ليس ﴿جُنَاحٞ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ لأنَّ الاهتمام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 262.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 264.

موجَّهٌ إلى نفي وقوع الإثم على المخاطبين فيما أخطأوا فيه من نسبة الأدعياء إلى غير آبائهم.

الغرض من تنكيرِ ﴿جُنَاحٌ﴾:

لا جُناحَ على مَنْ نَسب الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيّين على سبيل الخطأ

عبَّر النظمُ الكريمُ بالمُسند إليه ﴿جُنَاحٌ﴾ نكرةً في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ لِما يُفيدُه التنكيرُ من العموم والشمول، الدّالِ على انتفاء أيِّ قَدْرٍ من الإثم عمّن نَسَبَ الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيّين على سبيل الخطأ، سواءً كان ذلك قبل نزول الآية أو بعدها؛ "فَوُقوعُ ﴿جُنَاحٌ﴾ في سياقِ النَّفْيِ بِـ(لَيْسَ) يَقْتَضي العُمومَ، فَيُفيدُ تَعْميمَ انْتِفاءِ الإِثْمِ عَنِ العَمَلِ الخَطَأِ، بِناءً عَلَى قاعِدَةِ عَدَمِ تَخْصيصِ العامِّ بِخُصوصِ سَبَبِهِ الَّذي وَرَدَ لِأَجْلِهِ، وهوَ أَيْضًا مَعْضودٌ بِتَصَرُّفاتٍ كَثيرَةٍ في الشَّريعَةِ"[1].

معنى حرف الجرّ (في):

عبّر بالحرف (في) المُفيد للظرفية في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ لتأكيد أنَّ الخطأ لا إثمَ فيه بأيِّ حالٍ وبأيِّ وجهٍ، ولو عبَّر بالباء لظُنَّ أنَّ فيه إثمًا[2].

معنى (ما):

وجـودُ الخَطأ شرطٌ لِعَدَمِ المُؤاخذة

(ما) في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلّ جرٍّ بحرف الظرفيَّة، والجملة بعده لا محلّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، والتعبير باسم الموصول (ما) يدلّ بمعناه وبنائه المختوم بألفِ المدّ على أنَّه لا مُؤاخذَةَ ولا حرجَ في نسبة الأدعياء إلى غير آبائهم الشرعيّين، مهما بلغ وتكرّر، طالَما كان على سبيل الخطأ، ليس فيه شيءٌ من التعمُّد.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 265.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 289.

دلالة التّعبير بـ﴿أَخۡطَأۡتُم﴾ ماضيًا:

وُقوعُ الخطأ وتأكُّدُ حُصولِه هو السَّببُ في رفع الحرج ونفيه

عبَّر النظمُ القرآني بالفعل ﴿أَخۡطَأۡتُم﴾ ماضيًا في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ للدلالة على أنّ تَحَقُّقَ الخطأ، وقيامَ المخاطَبين بنسبة الأدعياء إلى غير آبائهم بدون عمدٍ أو إصرارٍ على مُخالفة التّوجيه القرآنيّ بشأن دعوتهم لآبائهم الحقيقيّين: هو السببُ في رفع الحرج ونفيه، ويدخل في الخطأ: "قَوْلُ القائِلِ لِغَيْرِهِ: يا بُنَيَّ، بِطَريقِ الشَّفَقَةِ، وقَوْلُ القائِلِ لِغَيْرِهِ: يا أبي، بِطَريقِ التَّعْظيمِ، فَإِنَّهُ مِثْلُ الخَطَأِ؛ ألا تَرَى أنَّ اللَّغْوَ في اليَمينِ مِثْلُ الخَطَأِ وسَبْقِ اللِّسانِ، فَكَذَلِكَ سَبْقُ اللِّسانِ في قَوْلِ القائِلِ: ابْني، والسَّهْوُ في قَوْلِهِ: ابْني مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ إلَى إثْباتِ النَّسَبِ سَواءٌ"[1]، ويدخل فيه كذلك: "ما يَجْري عَلَى الأَلْسِنَةِ خارِجًا مَخْرَجَ الغالِبِ فيما اعْتادوهُ أنْ يَقولوا: فُلانُ ابْنُ فُلانٍ لِلدَّعِيِّ ومُتَبَنِّيهِ"[2].

دلالة إسناد الخطأ إلى ضمير المخاطَبين:

الخطأُ الّذي لم تَتَشَرّبْه القلوبُ: حقيقٌ بعدم المؤاخذة

مما يُلحَظُ في البناء التركيبيّ للآية أنَّها أسندت فعل الخطأ إلى ضمير المخاطبين المُعبِّر عن ذواتهم في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾، في حين أسْندتْ فعلَ التَّعَمُّد إلى القلوب في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾؛ والسرُّ في إسناد فعل الخطأ إلى ذوات المخاطبين دون قلوبهم هو الدلالة على أنّ الخطأ كان عابرًا ولم يُقصد إليه ولم تتشرَّبْ به القلوبُ، وما كان كذلك فهو حقيقٌ بعدم المؤاخذة والإثم.

معنى باءِ ﴿بِهِۦ﴾ ومرجع الضمير:

كلُّ ما يَصْدُرُ على سبيل الخطأ لا إثمَ فيه، ولا جُناحَ على قائله

الباءُ في قول اللّه تعالى ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق أو السببيّة، والضمير المجرور فيه يعود إلى

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 156.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 264.

نسبة الأدعياء لغير آبائهم الشرعيّين على سبيل الخطأ؛ والمعنى: أنّ كلَّ الكلام الذي يَصْدُرُ على سبيل الخطأ في هذا الموضوع بصفة خاصّة، وفي أيِّ أمرٍ بصفة عامّة: لا إثمَ فيه، ولا جُناحَ على قائله.

معنى واو ﴿وَلَٰكِن﴾:

استيفاءُ التشريعِ ببيان حُكمِ مَنْ يتعمَّدون نسبة الأبناء إلى غير آبائهم

الواو في أوّل قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ لعطف ما بعدها على جملة ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾؛ جيء بها لبيان الحُكم الشرعيّ فيمن يتعمدّون نسبةَ الأبناء إلى غير آبائهم الحقيقيّين بعد النَّهي عنْ نسبتهم إلى غيرهم فيما سبقها، وبها يصيرُ الحُكْمُ مُستَوْفًى.

فائدة الاستدراك بـ(لَكِنْ):

الاستدراكُ يؤكِّدُ إثْمَ مَنْ تعمّد نِسبةَ الأبناء لغير آبائهم

(لَكِنْ) الوارد في قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ حرفُ استدراكٍ غيرُ عاملٍ بسبب تخفيف النّون، جيء به لتنبيه المخاطبين إلى أنّ ما يأتي بعده مغايرٌ في الحكم لِما قبله؛ بجانب ما فيه من تأكيد حصول الجُناح ولَحاقِ الإثم بِمَنْ تعمّد مُخالفةَ النّهي عن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم.

معنى ﴿مَّا﴾ ومَوقِعُه الإعرابيّ:

حصول تعمُّدِ القلب مستدرَكٌ على انتفاء الجناح تأكيدًا وتحذيرًا

﴿مَّا﴾ في قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلّ رفعٍ على أنّه مبتدأٌ محذوفُ الخبر لدلالة ما سبق عليه؛ والتقدير: (وَلَكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ فيهِ الجُناحُ)، وقيل: إنّه في محلّ جرٍّ عطفًا على اسم الموصول المجرور في جملة ﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم﴾؛ والمعنى: (وَلكِنَّ الجُناحَ فيما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُمْ)[1].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَعَمَّدَتۡ﴾ ماضيًا:

الضُّلوعُ في التَّعمُّدِ يَستوجِبُ الجُناحَ والمؤاخذة

آثر النظمُ الكريمُ التعبيرَ بفعل التَّعمُّد - الدالِّ على ضدِّ الخطأ - ماضيًا في قول الله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، لدلالته

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 453.

بزمانه على تحقّق التَّعمُّد وتأكُّد حصولِه، وببنائه المشتمِل على حرفٍ مُضَعَّفٍ في وسطه على ضُلوعهم في التّعَمّد، وتيقُّنِهم مِنْ حُرمة نسبة الأبناء إلى غير آبائهم، وأنَّهم مع ذلك أقبلوا على فِعله، وتعمّدوا القيامَ به.

بلاغة المجاز في إسناد فعل التَّعمُّد إلى القلوب:

المُــتــعــمِّــدون يُــقــبــلــون على المخالفة إقبالَ المستهين بأمر الشارع الحكيم

في قول اللّه تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ إسنادُ التّعمُّد إلى القلوب، وهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه الآليّة، حيث أُسند الفعلُ إلى الجارحة (القلوب) التي هي آلتُه، لبيان مدى تَغَلْغُل التعمُّد في قلوب فاعليه وإقبالِهم عليه إقبال المُستهين بما أمر به الشارعُ الحكيمُ من نسبة الأبناء إلى آبائهم الحقيقيّين؛ ولو قيل: (ولكن ما تعمّدتُم) لَمَا كان له هذا الأثرُ البليغ.

بلاغة الحذف في الجملة:

تذهب النفوسُ في عقاب تَعَمُّد مُخالفةِ النَّهي كلَّ مذهبٍ

قول اللّه تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ جملةٌ اسميّةٌ حُذِف منها الخبر، إذِ التقدير: (ولكن ما تعمّدتْ قلوبُكم فيه الجُناحُ والإثمُ)؛ والسرُّ في حذفه: الدلالةُ على أنَّ المؤاخذةَ والعقابَ على تعمُّد نسبة الأبناء إلى غير آبائهم أمرٌ بدهيّ لا يحتاج إلى تصريح، بجانب كون حذف الخبر مثيرًا للنفوس كَيْ تذهبَ في تَصَوُّر عقابِ المُتَعَمِّدِ كلَّ مذهبٍ، ومن ثَمّ تزداد خوفًا ونفورًا من فعل المنهيّ عنه.

بلاغة المقابلة بين ﴿أَخۡطَأۡتُم﴾ و﴿تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾:

تـمـيـيزُ الـخـطـأ مِـنَ الـتَّـعـمّـد في نسبة الأبناء إلى آبائهم

بين قول اللّه تعالى ﴿أَخۡطَأۡتُم﴾ وقوله ﴿تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ مقابلةُ معنيَين بمعنيين، حيث قابل النظمُ الكريم بين فعل الخطأ المُسنَد إلى ضمير المخاطَبين المُعَبِّر به عن ذواتهم في الطرف الأول، وفعل التَّعمُّد المُسند إلى قلوبهم في الطرف الثاني، وهي مقابلة توضّح أنّ المعفوَّ عنه في موضوع نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الحقيقيّين هو الخطأ الذي لم يتغلغلْ في القلوب، ولم يكنْ فيه بادرةُ عَمْدٍ، وأنَّ

المُؤاخذَ عليه في الموضوع نفسه هو تعمُّدُ نسبة الأبناء إلى غير آبائهم بعد النهي عن ذلك، لدلالته على أنّ القلوبَ تَشَرَّبتْ به، واستهانتْ بما نهى اللّهُ تعالى عنه.

معنى الواو في جملة الفاصلة:

المغفرةُ والرحمةُ حالُ الله الَّذي لا يتبدَّل ولا يتغيَّر

الواو في قول اللّه تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ قد تكون استئنافيّةً جيء بها للتنبيه ولَفتِ النظر إلى اتّصاف اللّه بهذين الوصفين عَقِبَ الحديث عن الخطأ والتَّعَمُّد في موضوع نسبة الأبناء إلى آبائهم جريًا على عادة البيان القرآنيّ في إتّباع التكليف بما يعُين عليه ويثير إلى القيام به؛ وقد تكون الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حاليّة تدلُّ على أنَّ شأنَ اللّه وحالَه الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر أنّه غفورٌ رحيمٌ.

غرَض التّعبير بالجملة الاسميّة:

منهجُ البيانِ القرآنيّ التعبيرُ بما يرفع الحرجَ عن المُخطئين

عُبّر في قول اللّه تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ بالجملة الاسميّة في أصلها، لِما تُفيدُه الاسميّةُ من ثبوت كون اللّه تعالى غفورًا رحيمًا ودوامِه، لمناسبة ذلك حالَ المخاطبين الراجين رفع الحرج عنهم بسبب مخالفتهم التشريعَ القرآنيّ، وخطئِهم في نسبة الأبناء لغير آبائهم.

نكتة دخول (كانَ) على الجملة:

المغفرةُ والرحمةُ من صفاتِ اللهِ الأزليّة الأبديّة

عبَّر النظمُ الكريمُ في الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ بفعل الكينونة (كانَ) دون أن يقالَ (إنَّه غفورٌ رحيم): لتأكيد دوام اتّصاف المولى سبحانه بصفتَي المغفرة والرحمة، وأنّه لا يصدر فيهما عن ضعف، وإنّما يفعل ذلك لأنَّهما صفتان أزليّتان لا ينفكّان عنه، ولا يبلغ أحدٌ مبلغَه فيهما؛ إذْ لا أعظمَ من اللّه سبحانه، ولا أكرمَ منه.

العفوُ والمؤاخذةُ صورتان من صور مغفرة الله ورحمته التي لا تتناهى

دلالة التعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

آثر النظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الحقِّ ﷻ في خاتمة الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ باسم الجلالة الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ لكون هذا الاسم

جامعًا لكلّ صفات الجلال والكمال، ولبيان أنّ العفوَ عن الخطأ والمؤاخذةَ على التَّعَمُّد في موضوعي الظهار والتّبَنّي وغيرهما صورتانِ من صوَر مغفرة اللّه ورحمته التي لا تتناهى.

نكتة تقديم صفة المغفرة على الرّحمة:

من السُّنّة في البيان القرآنيّ إذهابُ ما يعلقُ بالنفوس بعد وقوعها في الخطأ

قدَّم النظمُ الكريمُ صفة المغفرة على الرحمة في قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لأنّ الرحمة سببٌ في حصول المغفرة؛ فهو من تقديم الثمرة على العلَّة، كأنَّه قال: (غفر لكم لأنَّه رحيمٌ بكم)، وختم بالرحمة لإذهابِ ما يُمكن أنْ يعلَق بالنفوس من خوفٍ وقلقٍ بسبب ما حصل من خطأٍ في نسبة الأبناء لغير آبائهم الشرعيّين. "فالمَغْفِرَةُ إذا ذُكِرَتْ قَبْلَ الرَّحْمَةِ يَكونُ مَعْناها أنَّهُ سَتَرَ عَيْبَهُ ثُمَّ رَآهُ مُفْلِسًا عاجِزًا فَرَحِمَهُ وأعْطاهُ ما كَفاهُ؛ وإذا ذُكِرَتِ المَغْفِرَةُ بَعْدَ الرَّحْمَةِ - وهوَ قَليلٌ - يَكونُ مَعْناها: أنَّهُ مالَ إلَيْهِ لِعَجْزِهِ فَتَرَكَ عِقابَهُ ولَمْ يقتصرْ عليه، بلْ سَتَرَ ذُنوبَه"[1].

غرض المبالغة في صيغ الاسميْن الجليليْن:

مَغْفِرةُ الله ورحمتُه لا يُقادَر قدرُهما ولا يُتَصَوَّرُ حدُّهُما

في قول اللّه تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ خبران جيء بكلّ واحدٍ منهما على صيغةٍ من صيَغ المبالغة، لبيان سَعَةِ عَفوِ اللّه تعالى ورحمته، وقدرته على المغفرة عن خلقه على ما كان منهم، وبلوغِه في هاتين الصفتين وغيرهما مبلغًا لا يقُادر قدرُه، ولا يُتَصَوَّرُ حدُّه؛ وهذا من شأنه أن يثير النفوس إلى الاستبشار بالعفو عمّا كان، ويدفعَها إلى الالتزام بما تمّ الأمر به، والانتهاءِ عمّا حَصَلَ التحذيرُ منه في موضوعي الظِّهار والتَّبنّي وغيرِهما.

نكتة تنكير الوصفين الجليليْن:

تقويةُ عزيمة المخاطبين على التزام الأوامر واجتناب النواهي

جيء بالوصفين الجليلين في قول اللّه تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ نكرتين مُنَوّنتين، لِما يُفيده التنكيرُ والتنوينُ من التعظيم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 157.

والتفخيم، ما من شأنه أنْ يزيدَ من استبشار النفوس بمغفرة اللّه تعالى ورحمته، فيقوَى عزمُها على التزام الأوامر واجتناب النواهي.

فائدة تذييل الآية الكريمة بالوصفَين الجليلَيْن:

تأكيدُ ضرورة العمل بالتَّشريع قَدْرَ الوُسع والاستطاعة

أوثر الإخبار عن اللّه تعالى بوصفَي المغفرة والرحمة في قول اللّه تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وتذييلِ الآية بهما لتقوية ما ورد فيها من عفوٍ عن الخطأ، ونهيٍ عن التعمُّد في موضوعَي الظِّهار والتَّبنّي، وتأكيدِ ضرورة العمل بالتشريع النّازل فيهما قدرَ الوُسع والاستطاعة؛ والمعنى: (وَكانَ اللّه غَفورًا لِلْعامِدِ إذا تابَ، رَحيمًا حَيْثُ رَفَعَ الجُناحَ عَنِ المُخْطِئِ)[1]، فجُمْلَةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تَعْليلُ نَفْيِ الجُناحِ عَنِ الخَطَأ، بِأنَّ نَفْيَ الجُناحِ مِنْ آثارِ اتِّصافِ اللّه تَعالَى بِالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ بِخَلْقِه[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القسط والعدل:

القسطُ هو العدلُ البيِّنُ الظاهرُ، أمّا العدل فمنه ما هو خفيٌّ

القسْطَ هوَ: العدْل البَيِّن الظّاهِر؛ ومِنْه سُمّي المِكْيالُ قِسطًا، والميزانُ قِسطًا، لِأنَّهُ يصوِّر العدْلَ في الوَزْن حَتَّى يُرَى ظاهرًا؛ وتَقَسَّطَ القَوْمُ الشَّيْءَ تقاسموا بِالقِسْطِ، ورأوْه بأعينهم، وأمّا العدل فقد يكون منه ما يخفى بخلاف القسْط، فالقسط إنّما هو النَّصيبُ الَّذي بُيّنت وجوهُه؛ فالعدل أعمُّ، والقسط أخصُّ، ولمّا كانت الدعوةُ للآباء عدلًا بيّنًا، وحقًّا ظاهرًا: ناسب اختيار لفظ (القسط).

الدعاء والنسبة:

الدعاء يُقصد به النسبة في الكلام، والنسبة تكون في الحقيقة وفي الكلام

الدعاء هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[3]، والمراد به في الآية: أن يُنسَب الابنُ إلى أبيه الحقيقيّ في كلام الناس، وأنْ يَشيعَ ذكرُه بينهم به.

(1) أبوحيان، البحر المحيط: 8/ 453.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

أمّا النسبة فتعني اتِّصالَ شَيْءٍ بِشَيْءٍ؛ ومِنْهُ النَّسَبُ، سُمّيَ لاتِّصالِهِ ولِلاتِّصالِ بِهِ، تَقولُ: نَسَبْتُ أَنْسُبُ[1]، وفُلان نَسيبُ فلانٍ، أي: قريبُه، وتُستعمَل النّسبةُ في مقدارَيْنِ مُتجانِسَيْنِ بَعْضَ التَّجانُسِ، يختصُّ كُلٌّ واحدٍ منهما بالآخر[2].

فالدعاء يقصد به النسبة الكلاميّة، والنسبة تكون في الحقيقة والكلام، ولمّا كان القصد أنْ يشيعَ في الناس ويتردَّدَ على ألسنتهم ذكرُ الأدعياء منسوبين لآبائهم: آثر التعبيرُ لفظَ (الدعاء) الذي يكون باللسان على لفظ النسب الذي يكون باللّسان وبغيره.

العمد والإصرار:

العمد عزمٌ على إيجاد شيء من عدم، والإصرار تعقُّدٌ في الذّنب وتشدّدٌ فيه

العمد ضد الخطأ، ومعناه: شَدُّ القلب أو جَمع العَزْم على إقامة شيء أو إيجاده؛ قال تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، أي: صَمَّمَت وعزمَت، ومنه ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ [النساء: 93][3].

والإصرار هو العَزْمُ عَلَى الشَّيْءِ والثباتُ فيه، أو التّعقُّد في الذّنب والتّشدّد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه، وأصلُه مِنَ الصَّرِّ أي: الشّدّ؛ والصُّرَّةُ: ما تُعْقد فيه الدّراهمُ[4]، فالعمد هو العزمُ على إيجادِ شيءٍ من عدم، والإصرار مرحلة تالية لذلك؛ واختيار لفظ (العمد) يناسب سياقَ العزم على الخطأ في دعوة الأبناء لغير آبائهم المقابل للخطأ من غير قصد.

الجُناح والإثم والحَرَج:

الجُناحُ: الميل عن الحقِّ، والإثمُ: التأخُّر عن عمل الخير، والحَرجُ: الضّيقُ

الجُناح يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ والعُدْوانِ، والجُناحُ: الإِثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ؛ قال تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: مالوا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسب).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (نسب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عمد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرّ)، والرّاغب، مفردات القرآن: (صرَ).

والإثم يدل على البُطْءِ والتَّأخُّرِ؛ يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أيْ: مُتَأخِّرَةٌ، والإثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، لِأنَّ ذا الإثْمِ بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ، مُتَأخِّرٌ عَنْهُ؛ ويقال: أثِمَ فُلانٌ وقَعَ في الإثْمِ[1].

والحرج معناه تَجَمُّعُ الشَّيْءِ وضيقُهُ، وقيل للإثم حَرَج[2] لما فيه من ضيقِ أُفُقِ الواقع فيه، ولِما يحدُث له من ضيقٍ في الصدر بعد وقوعه فيه، وكلُّ (حَرَج) في القرآن فهو بمعنى الضّيق الشديد أو المنع، كما في ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125][3]، ولمّا كان الخطأُ متنافيًا مع العمد والميلِ والبطءِ أوثر التعبير بالجناح، الذي يعني انتفاءَ الميل والحرجِ الناتج عن الإثم والضّيق في آنٍ واحدٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (حرج).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حرج).

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: 6]

بيان علاقة الرسول وأزواجه بالمؤمنين بعد إبطال نسبة أيٍّ واحدٍ منهم إليه

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ بَيّنَتِ الآيةُ السابقةُ حُرْمَةَ دعوةِ الأبناء لغير آبائهم، وكان الصحابيُّ الجليلُ زيدُ بنُ حارثةَ يُدْعَى زيدَ بن محمّد: نزلت هذه الآيةُ لتُبَيّن علاقةَ النبيّ ﷺ بأتباعه المؤمنين، وأنّها أعمُّ مِنْ حصرها في شخصِ زيد أو غيره؛ وتُبَيِّن كذلك علاقةَ أزواجه رضي الله عنهن بهم، وأنهنَّ أمّهاتٌ لجميع مَنْ أسلم مع الرسول وخالطَ الإيمانُ بشاشةَ قلبه؛ كما نزلت الآيةُ لتضبط عَلاقةَ المؤمنين ببعضِهم، وفْقَ ما أمَرَ به ربُّ العالمين في كِتابه الكريم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلَىٰ﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ؛ يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أَيْ قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أَيْ يُقارِبُني، وفُلانٌ أَوْلَى بكذا، أَيْ: أَحْرَى بِهِ وأَجْدَرُ[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: 68]، وقال هنا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

2) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: (رحم) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ؛ يُقالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ لَهُ وتَعَطَّفَ عليه؛ والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ: بِمَعْنًى، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ؛ ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذا، لِأَنَّ مِنْها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ لَهُ مِنْ ولَدٍ[2]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (رحم).

وأصله خروجهم من رَحِمِ أمٍّ واحدة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6] وقال هنا: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(1).

3) ﴿مَّعْرُوفًا﴾: (عرف) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى السُّكونِ والطُّمَأْنينَةِ، والعُرْفُ: المَعْروفُ؛ وسَمّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ النُّفوسَ تَسْكُنُ إلَيْهِ(2)، والمَعْروفُ: اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل أو بالشّرعِ حُسْنُهُ، والمنكر: ما يُنْكَرُ بهما؛ قال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، وقال: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: 17]، ولهذا قيل للاقتصاد في الجود: مَعْروفٌ، لمّا كان مستحسنًا في العقول وبالشّرع، نحو: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6](3).

4) ﴿مَسْطُورًا﴾: (سطر) أَصْلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلَى اصْطِفافِ الشَّيْءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ، وكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ(4)، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصّفّ من الكتابة، ومن الشّجر المغروس، ومن القوم الوقوف؛ وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]، وقال: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: 1 - 2]، وقال هنا: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾، أي: مُثْبَتًا مَحفوظًا(5).

المَعْنى الإجْماليّ:

ضوابطُ علاقة النّبيِّ وأزواجِه والمؤمنين ببعضهم مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ

بيَّنَت الآيةُ الكريمةُ أنّ النَّبيَّ ﷺ أحقُّ بالمؤمنين مِنْ أنفسهم وأولى منها في المحبّة والطاعة؛ فإذا دعاهم إلى أمرٍ، ودعتْهم أنفسُهم إلى خلافه: وجب عليهم أنْ يُؤْثِروا ما دعاهم إليه على ما تدعوهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (سطر).

إليه أنفسُهم، لأنّه لا يدعوهم إلّا إلى ما ينفعهم، أمّا أنفسُهُم فقد تدعوهم إلى ما يضرُّهم، ثم بيَّنتِ الآيةُ منزلةَ أزواجه ﷺ بالنسبة للمؤمنين، وأنّهنَّ بمنزلة أمّهاتهم في الاحترام والإكرام، وفي حرمة الزواج بهنّ، وبَيّنَتْ كذلك أنَّ الأقارب بعضُهم أولى ببعضٍ في التوارث، وفي تبادُل المنافع، وبيّنت أنَّ هذه الأولويّةَ ثابتةٌ مسطورةٌ في اللوح المحفوظ، وفي آياتِ القرآنِ التي سبق نزولُها على رسول اللّه، وأنَّ عليهم جميعًا أنْ يَعمَلوا بما هو مِن عند اللّه، ويتركوا ما هو مِن عند أنفسهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

تعليمُ المؤمنين حقوقَ النّبيِّ ﷺ وحُرْمَتَه

جاءت جملةُ مُفتَتَحِ الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال، الذي تُجيب فيه الآيةُ الثانيةُ عن سؤال أثارتْه الآيةُ السابقةُ في نفس المتلقّي بعدَ إبطال نسبة زيد بن حارثة إلى الرسول، عَنْ "مَدَى صِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ، وهل علاقَة الأجانبِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ سَواءٌ؟ فَلِأَجْلِ تَعْليمِ الْمُؤْمِنينَ حُقوقَ النَّبيِّ وحُرْمَتَهُ جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ مُبَيِّنَةً أنَّ النَّبيَّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

المقصودُ رسولُ اللّه، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين

(أل) في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ لتعريف العهد، فالمقصود به سيّدُنا محمّدٌ ﷺ، وليس جنسَ الأنبياء والمرسلين، إذِ الآية تهدفُ في المقام الأول إلى توضيح علاقة الرسول بأتّباعه، بعد النّهي القرآنيّ عن نسبة أحدٍ منهم إليه بصفة خاصّة، وعن نسبة أحدٍ من الأبناء إلى غير أبيه الحقيقيّ بصفة عامّة.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 175 وما بعدها بتصرف.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

دلالة التعبير بوصف النبوّة دونَ الرِّسالة:

اصطفى النظمُ الكريمُ التعبيرَ بوصف النُّبُوَّةِ في الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لِما يدلّ عليه من أنّ الله تعالى يُنَبِّئُ المصطفى بعظيم الأخبار، ويُنَبِّئُه كذلك بدقائقِ الأحوال التي تَخُصُّ شؤونَ الناس، وتخصُّ شؤونَ الدنيا والآخرة، ووجهُ التعبير به هو الإشارة إلى ما يجب على المؤمنين من الالتزام بأوامر النَّبي ﷺ ونواهيه بصفة عامّة، وأوامرِه ونواهيه فيما يَخُصُّ الظّهار والتَّبنّي بصفة خاصّة، وإنْ لم يُفصِح لهم عن السبب الكامن وراء الأمر أو النهي، ثقةً فيما يُنَبَّأُ به من أخبار، وثقةً في حبّه لهم، وحِرصِه عليهم؛ وبذلك تكون طاعتُه أتمَّ وتوقيرُه أعلى[1].

على المؤمنين التزامُ أوامر النبي واجتنابُ نواهيه وإن لم يعرفوا أسبابَها وأسرارَها

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة:

في بيان علاقة النّبيّ بالمؤمنين عبّر النظمُ الكريمُ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لِما تُفيده الاسميّة من ثبوت المعنى ودوامه، وليتأكّد من خلال التعبير بها أنَّ ولايةَ النّبيّ ﷺ وأُبوَّتَه وحبَّه وحرصَه يعمُّ جَميعَ المؤمنين، ولا يقتصرُ على مَنْ نُسبوا إليه، أو دُعوا بأولاده وبنيه دون غيرهم، لأن لا يتشكّك أحدٌ في ذلك، ويَقْبَلَ الجميعُ ما أوحيَ إليه وأبْلَغَهُم به بثقةٍ واطمئنانٍ.

أُبوَّةُ النّبيّ تَعُمُّ جميعَ المؤمنين، ولا تقتصرُ على مَنْ دُعوا أولادَه أو سُمّوا بنيه

دلالة التّعبير بصيغة المفاضلة ﴿أَوْلَىٰ﴾:

التعبير باسم التفضيل ﴿أَوْلَىٰ﴾ في قول الله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ أشَدُّ ولايَةً - أيْ: قُرْبًا - لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ قُرْبِ نَفْسِهِ إلَيْهِ؛ وهوَ قُرْبٌ مَعْنَوِيٌّ، يُرادُ بِهِ: آثارُ القُرْبِ مِنْ مَحَبَّةٍ ونُصْرَةٍ وحرص على ما ينفع...، وهَذا الِاسْمُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الأحَقِّيَّةِ بِالشَّيْءِ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ متعلّقه بِبِناء المُصاحَبَةِ والمُلابَسَةِ[2].

النّبيُّ أقربُ لكلِّ مُؤمنٍ من نفسه التي بين جنبيه

---

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 360 وما بعدها، بتصرف.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

معنى باءِ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

صلةُ الرسول بالمؤمنين شديدةُ الإحساس، وثيقةُ الرّباط

في قول اللّه تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ باءٌ جارّة ومجرورٌ بها، يتعلّقان باسم التفضيل؛ وفي تعليقه بالباء التي تفيد الإلصاق إشارةٌ إلى شدّة القرب الذي يصل إلى حدِّ المعرفة الدقيقة والإحساس الصادق بما يضرّ المؤمنين وما ينفعهم، وهو دالٌّ على قوَّة الترابُط ووثيق الصلة بين النَّبيِّ ﷺ وأتباعه.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حبُّ الرسولِ وولايتُه تشملُ جنسَ مَنْ آمنَ به في حياتِه وبعد وفاتِه

(أَلْ) الدّاخلةُ على ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ هي التي للجنس؛ وفي التعريف بها دلالة على أنّ التعبير يشمَلُ كلَّ مَنْ أسلم مع الرسول ﷺ وخالط الإيمانُ بشاشةَ قلبه، سواءً أكان ذلك في حياة النبي أم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، إلى أنْ تقومَ السّاعةُ.

دلالة التّعبير بـ﴿أَنفُسِهِمۡۖ﴾ جمعًا:

النّبيَّ أوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ المُؤْمِنِ

التَّعبيرُ بـ﴿أَنفُسِهِمۡۖ﴾ جمعًا في قول اللّه تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ يَدُلُّ عَلَى أنَّ حُبَّ النّبيّ ﷺ لأفراد أمَّته أقْوى مِنْ حُبِّ كل فرد لنفسه، وحرصَه على كل واحد فيهم أكثرُ من حرص كل واحد على نفسه، وخوفَه على كل مؤمن منهم أشدُّ من خوف كل مؤمن على نفسه، فـ"الأَنْفُسُ مُرادٌ بها جَمْعُ النَّفْسِ، والجَمْعُ لِلتَّوْزيع عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ آيِلٍ إلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الأَنْفُسِ، أيْ أنَّ النّبيَّ أوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِ ذَلِكَ المُؤْمِنِ"(1).

بلاغة الإيجاز بالحذف:

ولايةُ النبيّ بالمؤمنين تشمل كلَّ شؤونهم

جاء التعبيرُ في قول اللّه تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ مُطلَقًا غيرَ مُقيَّدٍ بما يبيِّن حُدودَ الولاية ومداها، لأنّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.

الكَلامَ على تَقْدِيرِ مُضافٍ محذوف، أيْ: (أَوْلَى بِمَنَافِعِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ بِمَصالِحِ المُؤْمِنينَ)؛ واكتُفِيَ بالمذكور وحُذِفَ المُضافُ قصدًا إلى تَعْمِيمِ كُلِّ شَأْنٍ من شؤون المُؤْمِنينَ الصّالِحَةِ[1]، وفي الإطلاق أيضًا ما يوجبُ على المسلمين ضرورةَ أنْ يكونَ الرسولُ "أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمُه أنفذَ عليهم من حكمها، وحقُّه آثرَ لديهم من حقوقها، وشفقتُهم عليه أقدمَ من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خَطبٌ، ووقاءَه إذا لَقَحَتْ حربٌ"[2].

معنى واوِ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾:

أزواجُ النَّبي يدخلن معه في التكريم والتوقير وبيان الحقوق دخولًا أوّليًّا

قول اللّه تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ للتوسُّط بين الكمالَين، ووجهُ العطف هنا أنّه لمّا جرى ذكرُ منزلته وحقوقه على المؤمنين، جرَى أيضًا ذكرُ منزلة أزواجه وحقوقهنّ، لدخولهنَّ معه دخولًا بَدَهيًّا أوليًّا، ولأنَّهُنَّ أمّهاتٌ للمؤمنين كما أنّ النبيَّ ﷺ أبٌ لهم؛ فـ"عَطَفَ عَلَى حُقوقِ النَّبي ﷺ حُقوقَ أزْواجِهِ عَلَى المُسْلمينَ، لِمُناسَبَةِ جَرَيانِ ذِكْرِ حَقِّ النَّبي، فَجَعَلَ اللّه لَهُنَّ ما لِلأُمَّهاتِ مِنْ تَحْريمِ التَّزَوُّجِ بِهِنَّ، بِقَرينَةِ ما تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾"[3].

دلالة التعبير بالأزواج مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ:

تـوقـيرُ أزواجِ النَّبي فيه توقيرٌ واحـترامٌ للنَّبي نفسِه

المراد بـ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾: اللّائى تزوّجَهُنَّ رسولُ اللّه ﷺ بنكاحٍ وبَنَى بهنَّ، وصِرن يُعرفن بين المسلمين بأمّهات المؤمنين؛ فلا يدخل فيهنَّ مِلكُ اليمين، ولا التى لم يدخلْ بها الرسولُ، فـ"إضافة كلمة (أَزْواج) إلى الضمير العائد إلى النَّبيِّ فيه تشريف وتكريم لهن، وبيانٌ للسبب في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 266.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 523.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 268.

إنزالهنّ هذه المنزلة، ودلالةٌ على أنَّ توقيرَهن واحترامَهن من توقير النبي ﷺ واحترامه"[1].

فائدة التعبير بالأسلوب الخبريّ:

توقيرُ النَّبيِّ واحترامُ أزواجِه من البدهيّات التي لا مِراءَ فيها ولا جدالَ

أوثر التعبير عن حقوق النَّبي ﷺ ومنزلته، وحقوق أزواجه ومنزلتهن بالأسلوب الخبري في قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾، دون الأمر أو النهي أو غيرِهما مِنْ أساليب الإنشاء: للدلالة على أنَّ ما يتضمَّنُه الخبر من أوامرَ ونواهٍ يُعَدُّ مِنَ البدهيّات والمُسلَّمات التي لا مِراءَ فيها ولا جدالَ، وأنّ على الجميعِ أنْ يعلموا ذلك ويلتزموا به.

بلاغة التّشبيه في الآية:

أزواجُ النَّبي أُمَّهاتٌ في التقدير والتوقير وحرمة الزَّواج منهن

في قول الله تعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، حُذف منه الوجهُ والأداةُ لقصد المبالغة؛ فيه شُبِّهتْ أزواجُ النَّبي بالأُمَّهات في استحقاق الاحترام والتقدير وفي حرمة زواج الرجال منهنّ. "ولأنَّ الأمر في الآية على التشبيه: لم يكنْ أزواجُ النبى كالأمَّهات في جواز الخُلوة بهنّ والنظر إليهن، وإنما كنَّ في ذلك كالأجنبيات"[2]؛ "والمعنى: أنّ ما أُمِرَ به رجالُ المؤمنين في حق نساء النّبىّ هو إنزالُهن منزلة الأمَّهات في التوقير والاحترام، وقضاءِ الحاجات، والحرص على راحتهن، وإنزالُهن منزلةَ الأجنبيّاتِ في الاختلاطِ والنظر، وعدمِ الإساءةِ إليهنَّ بقولٍ أو فعلٍ"[3].

معنى واوِ ﴿وَأُوْلُواْ﴾:

القرابةُ والرَّحِمُ هما سببُ الإرث لا الانتسابُ الجَعْليّ

الواو في قول الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ لعطف ما بعدها على ما سبقه عطفَ تشريعٍ على تشريع، حيث جاءت هذه الجملةُ لإبطال ما كان سائدًا من ميراث الناس بعضهم بغير معيار الرحم، كما أبطلت الجملُ السابقةُ الظِّهارَ والتَّبنّي؛ فهو "أعْقَبَ نَسْخَ

(1) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 361.
(2) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 82.
(3) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الحديث عن تكريم الرسول وتوقيره، ص: 361.

أَحكام التَّبَنّي الَّتي مِنها ميراثُ المُتَبَنّي مَنْ تَبَنّاهُ والعَكْسُ: بِإبْطالِ نَظيرِه وهوَ المواخاةُ الَّتي كانَتْ بَيْنَ رِجالٍ مِنَ المُهاجِرينَ مَعَ رِجالٍ مِنَ الأَنْصارِ، وذَلِكَ أَنَّ النَّبي ﷺ لَمّا نَزَلَ بِالمَدينَةِ مَعَ مَنْ هاجَرَ مَعَهُ، جَعَلَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَ المُهاجِرينَ رَجُلًا أَخًا لَهُ مِنَ الأَنْصارِ... فَتَوارَثَ المُتَآخونَ مِنْهُمْ بِتِلْكَ المُؤاخاةِ زَمانًا كَما يَرِثُ الإِخْوَةُ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَةِ، كَما نُسِخَ التَّوارُثُ بِالتَّبَنّي بِآيَةِ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾؛ فَبَيَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَنَّ القَرابَةَ هيَ سَبَبُ الإِرْثِ لا الاِنْتِساب الجَعْلِيّ"(1).

دلالة التعبير بأولي الأرحام:

إذا انقطعت الأرحامُ فإنَّ غيرَها من العلاقات أوْلَى بالانقطاع وأجْدَرُ

المُرادُ بِأولي الأرْحام في قول اللّه تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾: الإِخْوَةُ الحَقيقيّونَ؛ وفي هذا التعبير بيانٌ للسبب الذي جعل بَعْضَهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ في الميراثِ مِنْ وِلايَةِ المُتَآخينَ من المُهاجِرينَ والأَنْصارِ، وهو ما يربطُهم من أواصرِ القربى ومظاهر الرحمة، التي يحرص الإسلام على أنْ تبلغ مداها فيما بينهم، وألا يتفوّق عليها ما يوجد بينهم وبين غيرهم، لأنَّه إذا انقطعت الأرحامُ فإنَّ غيرَها من العلاقات أوْلَى بالانقطاع وأجدرُ.

دلالة الموقع الإعرابيّ للجملة:

مِن أولويّات الإسلام أنْ تَبلُغَ الصِّلةُ والرَّحمةُ مداها بين ذوي القُربى

قولُ اللّه تعالى ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾ جملةٌ مكوَّنة مِنْ مبتدأ وخبر في محلّ رفع خبرٍ لقوله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، وقيل: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ بدلٌ من المبتدأ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، والخبرُ ﴿أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾؛ والأول أرجح، لأنّ الإخبار بالجملة الاسميّة يفيد قوّةَ الكلام وتأكيدَه، ولأنّ المعنى حينئذ الإخبارُ عن أولي الأرحام بأنّه ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وفرقٌ بين هذا وبين الإخبار بأنّ بعضَ أولي الأرحام أوْلَى من بعض، فالمحكومُ عليه في الأوّل: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، والمحكوم به: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾، والمحكوم عليه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 270.

الثاني: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾، والمحكوم به: ﴿أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾؛ وهذه فروقٌ دقيقةٌ في وجوه الإعراب[1].

دلالة التّعبير بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾:

في التعبير باسم التفضيل ﴿أَوۡلَىٰ﴾ خبرًا لقوله ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾: دلالةٌ على أنّ رابطةَ الرَّحِم والقربى أوْلى بالاعتبار في الإرث، وأشدُّ في استحقاقِ الميراث من روابطِ الهجرة أو النصرة أو الإيمان أو غيرها، لأنّ آصرةَ الرحم والقربى لها أثرٌ كبيرٌ في تقوية علاقات الأُسَر، وزيادةِ ترابُطِ المجتمع وتماسُكِه، وبقائها وامتدادها عبر الزمن.

رابطةُ الرحم أوْلَى بالاعتبار في الإرث من رابطة الهجرة أو النصرة أو غيرهما

معنى باءِ ﴿بِبَعۡضٖ﴾:

الباءُ في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وفي التعبير به دلالةٌ على ما يجب أنْ تكونَ عليه - أو تصيرَ إليه - علاقةُ الأقاربِ وأولِي الأرحام ببعضهم، وأنَّ الواجبَ أنْ تكون علاقتُهم ببعضهم كعلاقة الجزء بالجزء، والعضو بالعضو في الشعور والإحساس والمساعدة والنصرة؛ وكذلك في الميراث، فلا يرث أحدًا غيرُ ذي رحم منه، لأنَّه غيرُ لصيقٍ به ولا قريبٌ منه، والمعنى: (بَعۡضُهُمۡ أوْلَى بحقِّ القرابة بِبَعۡضٍ في جميعِ المنافع العامّة للدعوة والإرث والنصرة والصلة)[2].

علاقة الأقارب والأرحام يجب أن تكون كعلاقة الجزء بالجزء والعضو بالعضو

نكتة تنكير (بَعۡضٍ):

جيء بالمجرور (بَعۡضٍ) نكرةً منوَّنةً في قول الله ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ لِما يفيده التنكيرُ والتنوينُ من العموم والشمول والدلالةِ على افتقار جميع الأقاربِ لبعضهم، وشدّةِ احتياج الواحدِ منهم إلى أنْ يشعر به أهلُه وعشيرتُه، الَّذين هم أحبُّ الناسِ إليه،

كلٌّ مفتقرٌ إلى مساندةِ أقاربِه، المطَّلِعون على أحوالِه أكثرَ مِن غيرِهم

(1) أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ص: 79.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 291.

وأكثرُهم اطِّلاعًا وحرصًا عليه، وأشدُّهُم رحمةً به مِن غيرهم؛ ومِن ثمَّ كانوا أوْلَى وأجدرَ بأنْ يرثوه ويرثَهم.

معنى الظّرفيّة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

الجارّ والمجرور ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ باسم التفضيل ﴿أَوۡلَىٰ﴾، وفيه دلالةٌ على أنّ هذه الأولويّةَ مثبَتَةٌ مكتوبةٌ "في اللوح المحفوظ، أو فيما أوْحَى اللّهُ إلى نبيِّه في هذه الآية، أو في آية المواريث"[1]، وأنَّها ليست مِنَ اخْتلاقِ أحدٍ أو مِن بنات أفكاره؛ فهي من ثوابتِ الدّين وأصولِه، ومن تشريعاته التي يجب العملُ بمقتضاها، وعدمُ الحَيْدَةِ عنها.

ما أوحيَ به إلى الرَّسولِ تشريعٌ إلهيّ، يجبُ الأخذُ به وعدمُ الحَيْدَةِ عنه

نكتة إضافة الكتاب إلى اسم الجلالة:

في إضافة الكتاب إلى اسم الجلالة العَلَم في قول اللّه تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: تشريفٌ للكتاب، وتقديسٌ لِما فيه، وحثٌّ على تعظيم تشريعاته بصفةٍ عامّة، وتشريع أولويّةِ ذوي الأرحام في ميراثِ بعضهم بخاصّة، ودعوةٌ إلى ضرورة العمل بمقتضاه، والعدولِ إليه وتركِ ما عداه؛ لِما يجمعه اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ الجليل من معاني التقديس والطاعة والعِلْم والإحاطة بما يُحَقّق مصالحَ خلقِه، ويزيدُ ترابطَهم وتماسُكَهم.

تشريعُ الله تعالى يراعي مصالحَ خلقِه، ويزيدُ ترابُطَهم وتماسُكَهم

معنى ﴿مِنَ﴾:

يجوز أن يكونَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ في الآية الكريمة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾، وتكونَ ﴿مِنَ﴾ تفضيليّةً، موضّحةً أحَقّيةَ أولي الأرحام في ميراث ذويهم من الأجانب الذين لا تربطُهُم بهم صلةُ قرابة؛ والمعنى: (الأقرباءُ بعضُهم أوْلَى ببعضٍ في الميراث من المؤمنين والمهاجرين)، ويجوز أنْ يتعلّق الجارّ والمجرور

الأقاربُ من أهل الإيمان أوْلَى بالميراث من الأجانب

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 524.

بقوله أوّلَ الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾، وتكونَ ﴿مِنَ﴾ بيانيّةً لأولي الأرحام؛ والمعنى: (الأقرباء من هؤلاء أَوْلَى بأن يرثوا بعضا من الأجانب)[1]، وكان المؤمنون يتوارثون بِحَقِّ الدين، وكان المهاجرون يتوارثون بِحَقِّ الهجرة، فنُسخ ذلك بهذه الآية.

معنى (ألْ) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾:

تشريعُ الله لا يستثني أحدًا من الّذين يَتَوارثون على أساس الدّين والهجرة

(ألْ) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ من قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ هي التي لتعريف الجنس؛ وهي تدلّ - على جَعلِ ﴿مِنَ﴾ تفضيليّةً - بأنَّ هذا التشريعَ لا يَسْتَثْني أحدًا مِنَ الذين يتوارثون على أساس الدّين والهجرة، وأنَّ عليهم أن يتركوا ذلك المنهجَ إلى ما أمَرت به الآيةُ الكريمة من التَّوارث على أساس الرحم والقُربى، لامتداد هذا السببِ وبقائه عبرَ الزمن، ولأنّه أشدُّ وأقوى في تماسُكِ علاقات المسلمين وزيادة ترابطهم وتلاحمهم.

نكتة تقديم ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تشريفُ الأنصار والتنويهُ بسَبقِهم إلى الإيمان

المؤمنون في قول الله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أُريدَ بهم خُصوصُ الأنْصارِ، بقَرينَةِ مُقابَلَتِهم بالمُهاجرينَ، والمقصودُ بهم: أصْحابُ الإيمانِ الكامِلِ. "وفي تقديمِهم تَشْرِيفٌ لهم، وتَنْويهٌ بإيمانهم، لِأنَّهُمْ سَبَقوا بإيمانِهِمْ قَبْلَ كَثيرٍ مِنَ المُهاجرينَ الَّذينَ آمَنوا بَعْدَهُمْ؛ فَإنَّ الأنْصارَ آمَنوا دُفْعَةً واحِدَةً لَمّا أبْلَغَهُمْ نُقَباؤُهُمْ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ إيّاهُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الثّانيَةِ، فالمَعْنَى: (كُلُّ ذي رَحِمٍ أوْلَى بِإرْثِ قَريبِهِ مِنْ أنْ يَرِثَهُ أنْصاريٌّ إنْ كانَ المَيِّتُ مُهاجِرًا، أوْ أنْ يَرِثَهُ مُهاجِرٌ إنْ كانَ المَيِّتُ مِنَ الأنْصارِ)؛ فَيَكونُ هَذا ناسِخًا لِلتَّوارُثِ بِالهِجْرَةِ"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 524.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 271 بتصرف.

الأجانب لا يأخذون شيئًا من الميراث إلا بوصيّة

معنى ﴿إِلَّآ﴾:

﴿إِلَّآ﴾ حرفُ استثناءٍ، وقولُه تعالى ﴿أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ مصدرٌ مُؤَوّلٌ مستثنًى، والاستثناءُ فيه يجوز أن يكون متّصلًا، والمستثنى منه هو الشّيءُ، وهو أعمُّ العامِّ، المفهومُ من قول اللّه تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، بمعنى النفع والإحسان، كما تقول: القريب أولى من الأجنبيّ إلا في الوصيّة، تريد: أنّه أحقُّ منه في كلِّ نفعٍ من ميراثٍ وهبَةٍ وهديّة وصدقة وغير ذلك، إلّا في الوصية؛ والمراد بفعل المعروف: التوصية، لأنّه لا وصيّةَ لوارث[1]، ويجوز أن يكونَ الاستثناءُ منقطِعًا، وحينئذ تكون ﴿إِلَّآ﴾ بمعنى: لكن، وكأنّه قيل: (لا تورِّثوا غيرَ أولي الأرحام؛ لكنّ فعلَكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفًا - بأن توصوا لمن أحببتم منهم بشيءٍ - أمرٌ جائزٌ)؛ ويكون ذلك بالوصيّة لا بالميراث[2].

نكتة التّعبير بـ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

استحضار صورة الموصي وهو يؤكّد إعطاءَ بعض الأجانب شيئا من تركته

عبَّر النظمُ الكريمُ في قوله ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ عنِ التوصية للأجانب بشيءٍ من التركَة بقوله ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾، الموضوعِ مادّتُه "لإحداث الشيء من عملٍ وغيره"[3]، للدلالة على أنّ حصولَ الأجانبِ على شيءٍ من تركَةِ المُتَوَفَّى صار - بعد هذا التشريع - أمرًا غيرَ إلزاميّ، ولا يمكن حصوله وتنفيذه إلّا بوصيّةٍ مستحدَثةٍ بخصوصه من صاحب المال قبل وفاته؛ بجانب ما تُفيدُه صيغةُ المضارع التي جاء عليها من استحضار حالة الوصيّة التي تمَّتْ، وكأنَّها ماثلةٌ حاضرةٌ، يبدو فيها الموصي وهو يؤكّد ضرورةَ إعطاءِ فلانٍ وفلانٍ من الأجانب شيئًا من المال الذي سيتركه.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 524.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).

بلاغة الالتفات في ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾:

التنبيهُ إلى أنّ الوصيةَ للأجانب بشيءٍ من المال برهانُ الإيمان ودليلُه

كان مقتضى الظاهر في قول اللّه تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أن يأتيَ التعبيرُ بصيغة الغائب، فيقال جَرْيًا على ما سبق: (إلّا أن يَفعلوا إلى أوليائهم معروفًا)؛ إلّا أنّ النظم الكريم عَدَل عن صيغة الغائب إلى صيغة الخطاب في قوله ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾ لما يفيده هذا الأسلوبُ مِنْ تنبيه المخاطَبين ولَفْتِ أنظارهم إلى أهمّيَّةِ المعنى الذي تمّ التعبيرُ عنه بصيغةٍ مختلِفة، فيفهمون أنّ أمرَ التوصية للأجانب بشيءٍ من المال داخلٌ في حقيقة الإيمان الذي سبق التعبيرُ عنهم به، ودليلٌ وبرهانٌ على تَغَلْغُلِه في قلوبهم؛ فقد جاء النظم لافتًا إلى أسلوب الخطاب ليأخذ المخاطبون منه أنّهم مُتَّصِفون بالرسوخ في الإيمان الذي مضى ما دل عليه في آية الأولويّة من التعبير بالوصف: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، فيحُثّهم ذلك على فعل المعروف[1].

نكتة تعدية الفعل بـ﴿إِلَىٰٓ﴾:

إيصالُ المال الموصَى به إلى الأولياءِ تكريمٌ لهم

عُدّي الفعل ﴿تَفۡعَلُوٓاْ﴾ إلى مفعولِه ﴿أَوۡلِيَآئِكُم﴾ بحرفِ انتهاءِ الغاية ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ لتضمُّنِه معنى الإيصال والإسداء؛ وفيه نوعٌ من تكريم الأولياء والشعور بالسعادة والرضا عن المعروف الذي أوصِل إليهم.

غرضُ تقديم شِبه الجملة ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾:

إذا كان إرثُ الأولياء قد أُبطِل، فإنّ مواساتِهم وإسداءَ المعروفِ إليهم قائمٌ باقٍ

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم﴾ على المفعول ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾: هو لفتُ أنظارِ المخاطَبين والاهتمام بالإحسان إلى أصْحابِ الوِلايَةِ بالإخاءِ والحِلْفِ، وبيانُ أنِ الَّذي أُبْطِلَ ونُسِخَ هوَ انْتِفاعُ الإرْثِ، وبَقِيَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 292.

حُكْمُ المواساةِ وإسْداءُ المَعْروفِ بِمِثْلِ الإنْفاقِ والإهْداءِ والإيصاءِ[1] قائمًا موجودًا.

نكتة تنكيرِ ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾:

جيء بالمفعول ﴿مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ نكرةً لما يُفيده التنكيرُ من العموم والشمول؛ فالمعروفُ الموصَى به للأولياء لا يُشترط فيه العِظمُ والضَّخامةُ، إذْ من الممكن أنْ يكون قدرًا يسيرًا، ولكنّ الحثَّ عليه والتنبيهَ إليه من باب زيادة الترابط وتأليفِ القلوبِ وجمعِ الكلمة.

ما يُخصَّصُ للأولياء من التَّرِكة يزيدُ في الترابط ويجمعُ القلوب

نكتة الفصل في جملة الفاصلة:

جاءت جملةُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ مفصولةً عمّا قبلها لأنّها بمثابة التوكيد والتقرير للتشريعات التي تقدّم ذكرُها في الجُمَل السابقة؛ فَفُصِلَت عنها كما يُفصل التّابعُ عن متبوعه، فيما يُعرف بكمال الاتّصال، الذي يشتد فيه اتّصال الجمل ببعضها من ناحية المعنى، لدرجةٍ تغنيها عن الواصل الحرفيّ.

نكتة التّعبير بـ﴿كَانَ﴾:

في التعبير بفعل التكوين ﴿كَانَ﴾ ماضيًا في قول اللّه تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ دلالةٌ على وجود هذه التشريعات، وتأكيدٌ لثبوتها مُسَطَّرَةً في كتاب اللّه سبحانه من قديم الأزل، وأنها ليست مستحدثةً ولا مفتعَلَة، وأنّ ما سبقها من تشريعاتٍ أو اجتهاداتٍ تمَّ الأخذُ بها في أوقاتٍ معيَّنةٍ كان بمثابة التمهيد لها، أوالتَدَرُّج بالنّاس للوصول إليها، أو لارتباط ذلك بمصالحَ مؤقَّتة تعود عليهم في تلك الأزمنة.

التشريعاتُ التي ورد ذكرُها في السورة الكريمةِ أزليّةٌ غيرُ مستحدثةٍ

دلالة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

عبَّر النظمُ عن المشار إليه من الأحكام التي تمَّ تشريعها باسم الإشارة الموضوع للبعيد في قول اللّه تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ

تشريعاتُ السورة لها عظيمُ الأثر في تماسكِ المجتمعِ وترابطِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.

﴿مَسۡطُورٗا﴾ لتعظيم تلك التشريعات، وتفخيمها بإنزالها منزلةَ الشيء البعيد الذي لا يُتوصَّل إليه بنوعٍ من السهولة واليسر؛ ويُمكن أن يكونَ فيه أيضًا إشارةٌ إلى عِظَم ما يترتَّبُ عليها من نتائجَ وآثارٍ في تماسك المجتمع المسلم وترابطه.

تشريعاتُ القرآنِ ليست من اختلاقِ أحدٍ، أو من بناتِ أفكارِ بشر

معنى الظرفيّة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

جي بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مجرورًا بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ المفيدِ للظرفيّة في قول اللّه تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ لتأكيد كَونِ هذه التشريعات مثبتةً في اللَّوح المحفوظ، ومكتوبةً فيما أَوۡحَى اللّهُ إلى نبيّه، وأنَّها ليست مِنَ اخۡتلاق أحدٍ أو مِن بنات أفكاره، بل هي من ثوابتِ الدّين وأصولِه، ومن تشريعاته التي يجب العمل بمقتضاها وعدمُ الحَيۡدَةِ عنها.

شـرعُ اللّه مفروضٌ على النّاس، مسطورٌ في القرآن، محفوظٌ في اللّوح

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

(أل) الدّاخلةُ على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ لتعريف العهد، والمقصود: كتاب اللّه المعهود المعروف؛ وهو القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ[1]، أو ما كَتَبَهُ اللّه تعالى عَلَى النّاسِ وفَرَضَهُ، كَقَوۡلِهِ تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء: 24][2].

تشريعاتُ القرآن محفوظةٌ في السطورِ وفي الصدورِ

دلالة التعبير بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

جاء في قول اللّه تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ التعبيرُ عن الوحي النازلِ إلى رسول اللّه ﷺ، المتضَمِّنِ هذه التشريعات وغيرها بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي هذا التعبيرُ ما يدعو إلى الثقة في هذه التشريعات، ويدعم تلقّيَها والعملَ بها بنوعٍ من الراحة والاطمئنان؛ لأنَّ ما نطق به الرسولُ وأبلغَه إلى الناس بصفة عامّة، وما أبلغه إليهم بخصوص الظهار والتبنّي والميراث والوصيّة: كلُّ ذلك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 272.

يتوافق مع المكتوب في كتاب الله تعالى المحفوظِ عنده، من غير شكٍّ أو افتراء.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

التشريعُ القرآنيُّ لا يخضعُ لهوى أحدٍ ولا لمصالِحه

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على خبر الفعل الناسخ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾: هو تقوية وتأكيدُ ثبوتِ هذه التشريعات في كتاب الله تعالى ووحيِه الذي أنزله على رسوله من قديمِ الأزل، لئلّا يظُنَّ أحدٌ أنَّها تخضعُ للأهواء والمصالحِ الخاصّة بأحد دون أحد، أو بفريق دون فريق.

دلالة التّعبير بـ﴿مَسۡطُورٗا﴾ مادّةً وصيغةً:

تشريعاتُ القرآنِ والسورة تتطابق تمامًا مع ما هو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ

التعبيرُ عن خبر الفعل الناسخ باسم المفعول ﴿مَسۡطُورٗا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ فيه تصريحٌ بثبوت أحكام الظِّهار والتَّبنّي والميراث والوصيّة في مواضعَ متعددةٍ في كتاب الله تعالى، وتأكيدٌ لقيام الملائكة أو كُتّاب الوحي بكتابتها وتسطيرها، حفظًا لها ومحافظةً عليها من التبديل والتحريف من قِبَل ذوي الأغراض ومتَّبعي الأهواء.

نكتة تنكير ﴿مَسۡطُورٗا﴾:

جاء الاسم المشتقُّ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ في قول الله تعالى ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ منكَّرًا ومُنَوَّنًا، وفيه نوعٌ من تفخيم المكتوب وتعظيمه، وإشارةٌ إلى أنَّ الآمرَ بتسطيره معروفٌ، وهو الله ﷻ، وهو ما يُضْفي عليه نوعًا مِنَ القداسةِ والثِّقَة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أولو وآل وأهْل:

(أولو) يدلُّ على قربٍ، ويُخَصَّص بما يُضافُ إليه

(أولو) يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، ويشمَل كلَّ من كان قريبًا بأيِّ شكل من الأشكال، فيشمل الرحِمَ والصداقة والصحبة؛ ويُخَصَّصُ بما تتمُّ

إضافته إليه، فيقال: أولو الأرحام، لذوي القرابة من جهة الرحم، ويقال: أولو العزم لذوي القرابة من جهة العزم، وهكذا.

و(الآل) خاصَّة الرجل من جِهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، ويضاف للأشرَف الأفضل، تَقول: آل الرجل لأهله وأصحابه، ولا تَقول: آل البَصْرَة، وآل العلم؛ وقالوا: آل فِرْعَوْن أتباعه، وكَذَلِكَ آل لوط، وقالَ المبرد: إذا صغرت العَرَب الآل قالَت: أهل، فَيدلّ على أنّ أصل الآل الأهْل؛ وقالَ بَعضُهم: الآل عيدان الخَيْمَة وأعمدتها، وآل الرجل مشبَّهون بذلك، لأنّهم مُعْتَمَدُه؛ والَّذي يرْتَفع في الصحارى آل، لِأنَّهُ يرْتَفع كَما ترْتَفع عيدان الخَيْمَة، والشخص آل لِأَنَّهُ كَذَلِك[1].

و(الأهْل) يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، ويضاف للزمان والمكان: فَمن جِهَة النّسَب قَوْلُك: أهل الرجل لِقَرابَتِهِ الأدنَين، ومن جِهَة الِاخْتِصاص تقول: أهل البَصْرَة، وأهل العلم، وأهل الزمان، وأهل الخياط[2]، ولكون الحديث عن ذوي القرابة من جهة الرّحم اختير لفظ (أولو).

(أزْواج النَّبيّ) و(نِساء النَّبيّ):

الأول في سياق التكريم والتخيير، والثاني في سياق اختلافهنّ عن غيرهنَّ

التعبيران وردا في الذكر الحكيم، مقصودًا بهما: اللائى تزوجَهُنَّ رسولُ اللّه ﷺ بنكاح، وبَنَى بهنَّ، وصِرن يُعرفن بين المسلمين بـ"أمّهات المؤمنين"؛ فلا يدخل فيهنَّ مِلكُ اليمين، ولا اللاتى لم يدخلْ بهنّ الرسولُ.

ولكلٍّ منهما السياقُ الذي يناسبُه: فإذا كان السياق لبيان المكانة والمنزلة والتخيير والنصيحة عُبِّر بمصطلح الأزواج، كما في سورة الأحزاب [59، 53، 52]، لِما تحمِلُه كلمة الزوج من معنى المزاوجة والاقتراب والاقتران الحاصل بينهنَّ وبين رسول اللّه ﷺ في هذه

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

(2) الراغب، مفردات اللغة: (آل)، العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.

السياقات؛ وكذلك الأمر في هذه الآية، فالحديث عن تشريف الزوجات بجعلهنّ أمّهاتٍ للمؤمنين.

وإذا كان السياق لبيان اختلافِهنَّ عن عامّة النساء عُبِّر بالثاني، كما في آيات سورة الأحزاب [32، 30]؛ لما يوحي به لفظُ النساء من الدلالة على الطبائعِ الأنثويّة التي فَطَر اللّٰه تعالى النساءَ جميعًا عليها.

الفعل والصُّنع والعمل:

الفعلُ إحداث شيءٍ من عدم، والصُّنعُ ممّا له أصلٌ، والعمل إيجاد أثرٍ فيه

الفعل يدلّ على إِحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ؛ تقول: فَعَلْتُ كَذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا، وكانَتْ مِنْ فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أَوْ قَبيحَةٌ[1]، والصُّنع يدلّ على عَمَلِ الشَّيْءِ صُنْعًا؛ يقال: امْرَأةٌ صَناعٌ ورَجُلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذِقَيْنِ فيما يَصْنَعانِه[2]، والعمل يدلّ على إيجاد الأثر في الشَّيْء؛ يُقال: فلان يعْمل الطين خَزَفًا، ويعْمل الخوص زنبيلا، والأديمَ سقاء، ولا يُقال يفعل ذَلِك لِأَن فعل الشَّيْء هوَ إيجاده[3].

فالفعلُ إحداث شيءٍ من عدم، والصُّنعُ ممّا له أصلٌ موجود، والعمل إيجاد أثرٍ فيه، ولمّا كان الأولياء من غير الأقارب لا حظَّ لهم في الميراث أو التركة، أوثر التعبير بالفعل، لأنه بمثابة إحداث شيء وإيجاده.

التّسطير والكتابة والذّكر:

الكتابة جمعُ الحروف، والتّسطيرُ اصطفافُ المكتوب، والذّكر حفظٌ من النسيان

يدلّ التسطير عَلَى اصْطِفافِ الشَّيْءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ، وكُلِّ شَيْءٍ اصْطَفَّ، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، وتدلّ الكتابة على جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ؛ يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، ويَقولونَ: كَتَبْتُ البَغْلَةَ، إذا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِها بِحَلْقَةٍ[4]، أمّا الذّكر فيدلّ على خلافِ النسيان، يُقال: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أيْ لا تَنْسَهُ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).

فالتسطير يُعبَّر به عن شكلِ المكتوبِ وهَيْأتِه، والكتابةُ تعني ضَمَّ الحروف إلى بعضها للدلالة على المعاني، والذِّكر يُطلق على ما سبقه جهلٌ وعدم معرفة أو نسيان، ومن ثمَّ، فاصطفاء لفظ (مسطور) يناسب سياق الآية من حيث تأكيدها حفظَ التشريعات المذكورة فيها بكتابتها سطرًا سطرًا، حفظًا لها من التّبديل والتّحريف.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧
لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾

[الأحزاب: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

كُلُّ شيءٍ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ

لما ذكرَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ بعضَ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالنَّبيِّ ﷺ وأزواجِه أمَّهاتِ المؤمنين، وموقِعَهم مِنَ الأمَّة، وذكرَ بعضَ الأحكامِ المتعلِّقة بأولي الأرحام؛ بيَّن أنَّ كلَّ ذلكَ مسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظ، ومسطورٌ كذلكَ في القرآنِ الكريمِ، وعقَّب ذلك بأنَّ الميثاقَ الذي أخذَهُ اللّه مِنَ الأنبياءِ، وما يترتَّب عليه من سؤالٍ، وثوابٍ وعقابٍ، مسطورٌ كذلك في الكتابَيْن.

ومن المناسبةِ أيضًا أنَّ اللّهَ تعالى بيَّنَ بعضَ العلائقِ بين الأنبياءِ وربِّهم ﷻ، بعدما بيَّن بعضَ العلائقِ بين النَّبيِّ ﷺ وأزواجِه رضي الله عنهن بآحاد هذه الأمَّة.

لا ينبغي للنَّبيِّ ﷺ أن يخافَ غيرَ الله تعالى

وقيل: لَمّا أمر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بالاتِّقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وأكَّده بالحكايةِ الَّتي خشيَ فيها النّاس، لكي لا يخشى فيها أحدًا غيرَهُ، وبيَّن أنَّه لم يرتكِبْ أمرًا يوجِبُ الخشيةَ بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: 6]؛ أكَّدهُ بوجهٍ آخَرَ، فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، كأنَّه قال: اتَّقِ اللّهَ، ولا تَخَفْ أحدًا، واذْكُرْ أنَّ اللّهَ أخذَ ميثاقَ النَّبيّين في أنَّهم يُبلِّغونَ رسالاتِ اللّه، ولا يمنَعُهم مِن ذلك خوفٌ ولا طمعٌ، وأكَّدَ ذلك في حقِّ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ مخصِّصًا إيّاه مِنَ العموم، مُبتدئًا به بيانًا لتشريفِه، فقال: ﴿وَمِنكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾

الَّذين هم أولو العزم مِنَ الرُّسُل معه ﷺ، وهم أصحابُ الكتُبِ ومشاهيرُ أربابِ الشَّعائر؛ تأكيدًا للأمرِ وتعظيمًا للمقام(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾: (وثق) كلمةٌ تدُلُّ على عَقْدٍ وإحكام، يقالُ: وثِقَ به يَثِقُ بكسرِ الثّاءِ فيهما ثقةً؛ إذا ائْتمنَه، وهو ثقةٌ، والميثاقُ: العَهدُ المُحْكَم، والجمعُ: المواثيقُ، والمَوثِقُ: الميثاقُ، والمواثقةُ: المعاهدةُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ: أحكمتُه(2)، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، أي: يُصدِّقُ بعضُهم بعضًا، ويتبعُ بعضُهم بعضًا(3)، أو بعبادةِ اللهِ وحدَه، وهم في ظهرِ آدمَ(4)، أو حيثُ أُخرِجوا من صُلْبِ آدمَ كالذَّرِّ(5)، والأوَّلُ أوْلى بالسّياق(6).

2) ﴿غَلِيظًا﴾: (غلظ) الغِلظُ: عظمُ الجِرمِ، وجسامتُهُ مع صلابةٍ، وما يتبع ذلك من شدَّةٍ وقوَّةٍ وحدَّةٍ، كلُّ ذلك في المادّيّات، ويُستعارُ كذلك للمعاني، غَلُظَ الشَّيءُ بالضَّمِّ غِلَظًا: صارَ غليظًا، ورَجلٌ فيه غِلْظَةٌ بكسرِ الغَيْنِ وضمِّها وفَتْحِها، وغِلاظةٌ بالكسرِ، أي: فَظاظةٌ، والغِلْظَةُ: ضدُّ الرِّقَّةِ، وأصلُهُ أن يُستعمَلَ في الأجسامِ لكن قد يُستعارُ للمعاني كالكبيرِ والكثيرِ، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التّوبة: 123]، أي: خُشونَةً(7)، ومِنَ الغِلظِ المعنويِّ قولُهُ تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، أي: عهدًا شديدًا عظيمًا على الوفاءِ بما حُمِّلوا(8).

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبرًا عن كلِّ الأنبياء أنَّه أخذَ عليهمُ العهدَ والميثاقَ في إقامةِ دينِ اللّهِ تعالى، وإبلاغِ رسالتِه والتَّعاونِ والتَّناصُرِ والاتِّفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، ونصَّ من بينهم على هؤلاءِ الخمسةِ، وهم أولو العَزْم، وهو مِن بابِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (وثق).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 125.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 126، والنَّحّاس، معاني القرآن: 5/ 327، ومجاهد، تفسير مجاهد، ص: 514.

(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 216.

(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 347.

(7) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (غلظ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).

(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 355، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 347.

عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وقد صرَّحَ بذكرِهم في هذه الآية، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّه سيسألُ الصّادقين المبلِّغين المؤدّينَ عَنِ الرُّسل أنَّ الرُّسُلَ قد بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم، ونَصَحوا الأُمَمَ، وأفْصحوا لهم عنِ الحقِّ المبينِ الواضحِ الجَليِّ الَّذي لا لَبْس فيه ولا امْتراءَ، وإنْ كذَّبهم مَنْ كذَّبهم مِن الجَهَلةِ والمعاندين الكافرين الَّذين سينالونَ من ربِّهم يومَ القيامةِ عذابًا موجِعًا[1].

أخْـذُ العـهـدِ مِـنَ الأنـبـيـاءِ بالبلاغ والصَّبر والنُّصرة، وما يترتَّب عليه مِن ثواب وعقاب

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1] إلى قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب: 3]، وفي هذا العطفِ تضمينٌ للأمرِ بإقامةِ الدّين على ما أرادَه اللَّهُ تعالى، وأوْحَى به إلى رسولِه ﷺ، وعلى نبذِ سُنَنِ الكافرينَ الصُّرحاءِ والمنافقينَ مِن أحكامِ الهوى والأوهام، فالواوُ مع آيتِها لها معنَى التَّذييل لآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، مع آياتِها الثَّلاث، ولكنَّها جاءتْ معطوفةً بالواو لبُعدِ ما بينَها وما بين الآياتِ الثَّلاثِ المتقدِّمة[2].

الأمـرُ بتبليغِ الـرِّسـالـة ونبذِ طاعة الكافرين

ويجوزُ أن يكون معطوفًا على محلِّ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الأحزاب: 6]، فيعمل فيه ﴿مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: 6]، أي: كان هذا الحكمُ مَسْطورًا في الكتابِ ووقتِ أخْذِنا[3].

سرُّ التَّعبير بـ(إذ) في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾:

موضعُ (إذْ) النَّصبُ على أنَّه اسمٌ للزَّمانِ مجرَّدٌ عن معنى الظَّرفيَّة، بمعنى (حين) أو (وقت)، والمعنى: واذكُرْ وقتَ أخْذِنا ميثاقًا مِنَ النَّبيّين[4]، وهذا يجوزُ أن يكون تذكيرًا للنَّبيِّ ﷺ ذلك

استحضارُ الماضي في ذهنِ السّامعِ أيًّا كان هو

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 438.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 273.
(3) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 95.
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 216، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 401.

الميثاق، ويجوزُ أن يكونَ المعنَى: واذْكُرْ لقومِكَ ذلك، أي: فيما أُمِرتَ في تبليغِه عنِ اللّهِ شريعتَه، فلستَ بِدْعًا في تبليغِكَ عنِ اللّه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالأخذِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾:

التَّعبيرُ بالأخذِ دونَ غيرِه مِنَ الألفاظ، فيه معنى حوزِ الشَّيءِ وجمْعِه بقوَّة[2]، وفي هذا توثيقٌ له، ولذلك عدّي أَخْذُ الميثاق بـ﴿مِنَ﴾ وليس بـ(على).

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَخَذۡنَا﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أَخْذَ الميثاق من النَّبيّين أمرٌ قد مضى، وانقضى، فلا شكَّ فيه ولا ارتياب، ويجب أن يترتَّبَ عليه آثاره مِنَ الوفاء به، والعمل بمقتضاه.

نكتةُ إسنادِ الأَخْذِ إلى ضميرِ العَظَمة:

إظهارُ عظمةِ الآخذِ أدعى للوفاء بعهدِه والعملِ بمقتضاهُ

جاءَ إسنادُ الأَخْذِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿أَخَذۡنَا﴾؛ للدِّلالة على عظم آخذِ هذا الميثاقِ، أي: أخذْنا هذا الميثاقَ بما لنا مِنَ الكبرياء والعظمةِ، ليكونَ هذا أدعى إلى الوفاءِ بالميثاق وقبولِ الأوامرِ، وخاصَّةً في أعلى المواثيقِ وأشرفِها، وهو الميثاقُ الَّذي أخذَهُ اللّهُ تعالى على النَّبيّين في إقامة الدّين وتبليغِ شرائعِ ربِّهم ورسالاتِه إلى أُمَمِهم[3].

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم:

تعظيمُ الميثاقِ وأهميَّةُ ما احتواهُ

انْتقلَ النَّظمُ الكريمُ في الضَّمائرِ المسوقةِ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم تعظيمًا للميثاق، وإشارةً إلى أهميَّة ما احتواهُ، وتأكيدًا لإظهارِ العظمةِ بقوله: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم﴾ بعد قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، ولما لأخذِ الميثاقِ من أهمّيَّةٍ قُصوى، وخاصَّةً أنَّ الَّذي أخذَ الميثاقَ منهم هو اللّهُ بعظمتِه وكبريائه بقوله: ﴿أَخَذۡنَا﴾[4].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 455.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 293.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالأخْذِ:

استيفاءُ العهدِ الأكيدِ بالأخذِ العتيدِ

الأخْذُ للميثاقِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ استعارةٌ عنِ الاستيفاءِ الكاملِ لمضمونِ الميثاقِ وتحقُّقِه، وهو تبليغُ الشَّرائع، والدُّعاءُ إلى الإيمانِ باللهِ الأحد، وتصديقُ الأنبياءِ بعضِهم بعضًا، وهذا الاستيفاءُ مجازٌ؛ إذِ الميثاقُ ليس شيئًا مادّيًّا محسوسًا يُؤخَذ، والآخذُ لهذا العهدِ الأكيدِ الموثَّقِ هو اللهُ ﷻ - وله المثَلُ الأعلى - والآخِذُ يقتضي الإعطاءَ مِنَ الطَّرفِ الآخر، وهمُ الأنبياءُ، وهو مجازٌ عن التزامِهم بهذا الميثاقِ[1].

سرُّ تعديةِ الفِعل بـ﴿مِنَ﴾:

عظمةُ الآخذِ ومكانةُ المأخوذِ منه، وشرفُ مضمونِ الميثاقِ

عُدّي الفعل (أخذ) بـ﴿مِنَ﴾ دون (على) أو غيرها مِنَ الحروف؛ لأنَّ المواثقة عقدٌ يقتضي الإيجابَ والقبول بين الطَّرفين، فالمواثقةُ مفاعلةٌ بين طرفين، أي: مشاركة، فاللّٰهُ تعالى لم يأخذْ عليهم شيئًا، وإنَّما أخذَ مِنهم القَبولَ، كأنَّ اللهَ سبحانه آخذٌ منهم القبولَ والإيجابَ على العقد، حين اصطفائِهم واختيارهم رسلًا لتبليغ رسالتِه.

كما أنَّ في الأخذِ دلالةً على قدرةِ الآخذِ وقوَّته على ضبط الميثاقِ المأخوذ، وفي الأخذِ أيضًا دلالةٌ على شرفِ ما احتواهُ الميثاق.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿مِنَ﴾:

مبدأُ الميثاق مِنَ النَّبيّين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ابتدائيَّةٌ بيانيَّة، أي: مبتدأُ هذا الميثاقِ مِن النَّبيّين، كأنَّ اللهَ ﷻ عرض عليهم اصطفاءَ النُّبوَّة، وما يتطلَّبه هذا الاصطفاءُ من واجباتٍ وتكاليفَ منهم، فقبلوا ذلك، وأوجبَها اللّه عليهم، وأخذَ مِنهم العهدَ والميثاقَ بذلك، فكان منهم القبولُ، ومِن اللّه الإيجابُ.

معنَى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

عمومُ النَّبيّينَ عاهدوا اللهَ تبليغَ رسالتِه

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للجِنْس، أي: جنسُ النَّبيّين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 274.

دون استثْناءِ أحدِهم، أو للاستغراق بما فيه من شمولِ أفرادِهم، أي: مِن كلِّ النَّبيّين، وقد تفيدُ الاستحقاقَ، أي: مَن استحقّوا النُّبوَّة باصطفاءِ اللّهِ لهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75].

نكتةُ العدولِ عن (الأنبياء) إلى ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

مقامُ النَّبيّين متوافقٌ مع الميثاقِ الَّذي أخذَه اللهُ منهم

الأنبياءُ: جمعُ تكسير، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمعُ المذكَّر السّالم، وهو أشْرفُ وأكرمُ وأعلى مقامًا من جمع التَّكسير، والسّياقُ هنا والمقامُ معه، مقامُ أخذِ العهدِ الأكيدِ الموثَّق، وهو أشرفُ عهدٍ وأعظمُ ميثاقٍ، وهو تبليغُ رسالةِ التَّوحيدِ إلى العباد، والشَّرائعِ الَّتي ارتضاها ﷻ، وحمَّل النَّبيّين مهمَّةَ بيانِها لأممِهم بوحيِ اللّهِ ﷻ، ولذلك أُسنِدَ الأخذُ إلى اللّهِ تعالى بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾.

مِن سننِ اللهِ في خَلقِهِ أنَّ الكرامَ قليلٌ

وجمْعُ الأنبياءِ جمْعُ كثرةٍ، وجمْعُ النَّبيّين جمعُ قلَّةٍ، والنَّبيّون وإن كانوا كثيرينَ في أنفسِهم، إلّا أنَّهم بالنِّسبة لعموم الخلقِ قلَّةٌ، فأشار بجمع النَّبيّين إلى قلَّةِ هؤلاء، وتلك سُنَّةٌ من سنَنِ اللّه في خَلْقِهِ أنَّ الكرامَ قليلٌ.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عنِ العهدِ بالميثاق:

الميثاقُ: اسمُ العَهدِ وتحقيقِ الوعد، وهو مُشتقٌّ من وثِقَ؛ إذا أيقنَ، وتحقَّق، فهو منقولٌ من اسم آلةٍ مجازًا غَلَبَ على المصدرِ[1]، فهو عهدٌ موثَّقٌ بين المُلزِم والمُلتزِم، وهو كائنٌ قائمٌ لا يتخلَّف.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

اختصاصُ النَّبيّين بالميثاق وحصْرُهُ فيهم

تقديمُ قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على المفعول ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ لمزيدِ الاهتمام بالنَّبيّين الَّذين همُ المعوَّلُ عليهم في التزام ميثاقِ ربِّهم وتبليغ دينه لأُمَمِهم، وهو ما يتضمَّنُ بيانَ الإيمانِ باللّهِ وشرائعِه، وشدَّ أَزْرِ بعضِهم لبعض، كما يفيد تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ الحصرَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

والاختصاص، أي: أخَذْنا منهم دونَ غيرِهم، أو أخَذْنا منهم وحدَهم لا مِن غيرِهم، أو اختَصَصْناهُم بهذا الميثاقِ دون سائرِ الخلق.

نكتةُ إضافةِ الميثاقِ إلى ضميرِ النَّبيّين:

اختِصاصُ الميثاقِ بالنَّبيّينَ باعْتبارِ الإلْزامِ والالتزام

إضافةُ الميثاقِ إلى ضميرِ النَّبيّين من إضافةِ المصدرِ إلى معموله، على معنَى اختصاصِ الميثاقِ بهم، فيما أُلزموا به، وما وعدَهمُ اللّهُ على الوفاءِ به، ويُضافُ أيضًا إلى ضميرِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7](1)، بإضافة المصدرِ إلى فاعله.

نكتةُ عَطْفِ الأنبياءِ المذكورين على ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

تعظيمُ المقامِ بذِكْرِ أصحابِ الكتُبِ وأربابِ الشَّرائع

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الأنبياءَ المذكورين بأسمائِهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ على قوله من قبلُ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، أي: ذِكرُ بعضِ أفرادِ العامِّ دون غيرِهم للاهْتِمام بهم، فهُم أصحابُ الكتبِ ومشاهيرُ أربابِ الشَّرائع؛ تأكيدًا للأمرِ وتعظيمًا للمقام(2).

نكتةُ تخصيصِ هؤلاءِ الأنبياءِ بالذِّكرِ دون غيرِهم:

الأنبياءُ الخمسةُ هم أولو العزمِ مِنَ الرُّسلِ وأعظمهم شرفًا وفضلًا

تخصيصُ الأنبياءِ بالذِّكر دون غيرِهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾؛ لأنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ هم أولو العَزْمِ مِن الرُّسُلِ لشرفِهم وفَضلِهم على غيرِهم، فالعلَّةُ هي التَّأسيةُ بالمتقدِّمين والمتأخِّرين، فقال: ﴿وَمِن نُّوحٖ﴾ أوَّلِ الرُّسُلِ إلى المخالفين، ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أبي الأنبياء، ﴿وَمُوسَىٰ﴾ أوَّلِ أصحابِ الكُتُبِ من أنبياءِ بني إسرائيل، ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ خاتمِهم، نسبَهُ إلى أُمِّه مناداةً على مَنْ ضلَّ فيه بالتَّوبيخِ والتَّسجيلِ بالفضيحة(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 455.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

نكتةُ تقديمِ ذِكْرِه ﷺ على الأنبياءِ المذكورين:

رسولُ الله ﷺ أفضلُ المفضَّلين مِنَ الأنبياء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ النَّبيِّ ﷺ على الأنبياءِ المذكورين مع تأخُّرِه في الزَّمان؛ لبيانِ أفضليَّتِه ﷺ على هؤلاءِ الأنبياءِ المذكورين المفضَّلين، فقُدِّم عليهم؛ للدَّلالةِ على أنَّه أفضلُهم، ولولا ذلك؛ لَقدَّمَ مَن قدَّمَهُ زمانُه[1]، ولأنَّه المقصودُ بالذّاتِ بالأمرِ بالتَّقوى، واتِّباعِ الوحيِ لأجلِ التَّبنّي وغيرِه[2].

معنَى (مِنْ) في قولِه: ﴿وَمِنكَ﴾:

الابتداءُ به ﷺ وتخصيصُهُ لأفضليَّتِه

قال تعالى: ﴿وَمِنكَ﴾، أي: ابتداءً وبيانًا وتخصيصًا لك يا رسولَ اللّهِ، فقد أخذَ اللّهُ عليه العهدَ في التَّبليغِ في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [الأحزاب: 2]، وقولِه تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: 67][3].

سرُّ الالتفاتِ مِن الغيبةِ إلى الخطاب:

شرفُ الخطابِ والمواجهة

كان ظاهرُ السّياقِ أن يُقال: (وإذ أخَذْنا مِنَ النَّبيِّين ميثاقَهم ومن رسولِ اللّه ومن نوح وإبراهيم)؛ لكنَّه عدلَ مِنَ الغيبةِ إلى الخطاب لفوائدَ، منها: إثباتُ شرفِ الخطاب والمواجهة، وهذا لا يحظى به إلّا القليلُ، وكذلك بيانُ استقلالِ النَّبيِّ ﷺ بابتداءِ الميثاقِ وحدَهُ، وجمْعُ الأنبياءِ الأربعةِ في ابتداءٍ واحدٍ، لعطفِ الأسماءِ الظاهرةِ دون الاحتياجِ إلى إعادةِ (من)، فلم يقل: (ومن نوحٍ ومن إبراهيمَ ومن موسى ومن عيسى)، فكأنَّه ﷺ وحدَهُ في كفَّة، وبقيَّة أولي العزم مِنَ الرُّسل مجتمعين في كفَّة.

محمَّد ﷺ أشرفُ الأنبياءِ وأسبقُهم في الفضل

ومن فوائدِ العدولِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطاب الدِّلالةُ على تعدُّد هذا الميثاق، فقد أُخذ في عالم الغيب (عالم الذر)، وهو ﷺ فيه أشرفُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 252.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

الأنبياء، وأسبقهم في الفضل والمنزلةِ، وقد أُخِذَ في عالم الشهادة، وهو فيه آخرُهم في الزَّمان، وأوَّلُهم في الفضل والمنزلة، ومن هذه الفوائدِ أيضًا إظهارُ أنَّ الميثاقَ المأخوذَ منه ﷺ أشملُ المواثيق؛ لأنَّ سؤالَهُ أعظمُ مِن سؤال غيرهِ من الأنبياءِ، بدليل أنَّه يُسأل عن الأنبياءِ، وأمَّته تُسأل عنِ الأُمم، وهذا إنَّما يكون تبعًا لشمولِ الميثاقِ له ﷺ واتِّساعه لجملةٍ من الأمور، بعضُها لا يكون موجودًا في ميثاقِ الأنبياء السّابقينَ، ولو كانوا مِن أولي العزم مِن الرُّسل، وبعضُ هذهِ الفوائدِ تُقال هنا، وتُقال في سرِّ تقديمهِ ﷺ في الذِّكر على بقيَّة أولي العزم مِنَ الرُّسل.

نكتةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾:

خصَّ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ نبيَّ اللّهِ نوحًا عليه السلام في عطفهِ على النَّبيِّ ﷺ بعد عطْفِه على الأنبياءِ لمزيدِ اخْتصاصِه في إفرادِه؛ لأنَّه كان عليه السلام أوَّلَ الرُّسُلِ إلى المخالفين(1).

معنَى (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾:

اخْتصاصُ نوحٍ عليه السلام بمزيدِ الأهمّيَّةِ والأثَر

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ تفيد معنَى الاخْتصاصِ بعد إفادتِهِ السَّبقَ في الزَّمان على من بعده، وفي ذلك دلالةٌ على الاهتمامِ بهذا التَّقديمِ في حقِّ نبيِّ اللّهِ نوحٍ عليه السلام الَّذي كان لرسالتِهِ شأنٌ خطيرٌ في وقتِ حدوثِ الشِّرك، فكان أَخْذُ الميثاقِ منه عليه السلام مع هذا الشَّأنِ عظيمَ الأهمّيَّةِ والأثَرِ المُترتِّبِ عليه(2).

دلالةُ التَّرتيبِ في ذِكرِ هذه الكَوْكبةِ مِنَ الأنبياء:

في ترتيبِ إيرادِ الأنبياءِ بأسمائِهم عليهم السلام مراعاةٌ لترتيبِهم في الوجود، مع ما امتازوا بهِ مِن عظيمِ الفَضْلِ في كُتبِهم وشرائعِهم الَّتي أُسندَ إليهم تبليغُها لأممهم(3).

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 274.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 15/ 295.

نكتةُ إضافةِ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ:

عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام عبدُ اللهِ ورسولُه

أضافَ النَّظمُ الكريمُ عيسى عليه السلام إلى أُمِّه في قوله تعالى: ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ مناداةً على مَنْ ضلَّ فيه بالتَّوبيخِ والتَّسجيلِ بالفضيحة[1] على مَن اتَّخذوه وأمَّه إلهَيْن من دون اللّه، فيما حكاه القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116]، والقولُ الحقُّ جاء في قوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: 117]، وعلى مَن اتَّخذوه إلهًا: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: 72]، وعلى مَن جعلوهُ ثالثَ ثلاثةٍ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [المائدة: 73].

نكتةُ ذِكرِ الأنبياءِ بذِكرِ أسمائهم دون النَّبيِّ ﷺ:

لبعضِ الأنبياءِ ميّزاتٌ ذُكِرَتْ بها أسماؤهم دونَ غيرِهم

ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أسماءَ أنبياء دون النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم له صفةٌ تميَّزَ بها عن غيرِه مِنَ الأنبياء، فقولُه تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٖ﴾؛ لأنَّه أوَّلُ الرُّسلِ إلى المخالفين المشركين، و﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ هو أبو الأنبياءِ، و﴿وَمُوسَىٰ﴾ أوَّلُ أصحابِ الكتُبِ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، و﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ ختامُهم نسبَهُ إلى أمِّه توبيخًا وتسجيلًا بالفضيحةِ على مَنِ اتَّخذوه إلهًا من دونِ اللّه[2].

سرُّ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم﴾:

تأكيدُ مضمونِ أخـذِ الميثـاقِ وتفخيمُ شأنِه

جاء العطفُ بالواوِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ على مضمونِ جملة ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ لزيادةِ تأكيدِها، وليُبنَى عليها وصفُ الميثاقِ الغليظ[3]، فالميثاقُ الثّاني هو الميثاقُ الأوَّلُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

بعَيْنِه، وأَخْذُهُ هو أَخْذُهُ، والعطفُ مبنيٌّ على تنزيلِ التَّغايُرِ العنوانيِّ منزلةَ التَّغايرِ الذّاتيِّ تفخيمًا لشأنِه[1].

الغَرَضُ من إعادةِ ذِكْرِ الأَخْذ:

تأكيدُ أخذِ الميثاق أو اختلافه

إعادةُ ذِكْرِ الأَخْذِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ تأكيدٌ للأَخْذ، أيْ: أَخْذِ الميثاقِ، والَّذي أخذَ الميثاقَ هو اللّهُ ﷻ، أخذَه من صَفْوةِ خَلْقِه وأنبيائه ورُسُلِه، فهو آخذٌ في كلِّ أحوالِه من مبدئِه إلى منتهاهُ إلى مضمونِه، وهو ميثاقٌ قائمٌ على تبليغِ توحيدِ اللّهِ وشرائِعِه ورسائِلِه إلى خَلْقِه[2]، والظّاهر أنَّ الميثاقَ الثاني المأخوذَ على أولي العزم مِنَ الرُّسلِ غيرِ الميثاق الأوَّلِ المأخوذِ على عموم الأنبياءِ، ويُرجِّح ذلك وصفُ الميثاقِ الثاني بكونِه ﴿غَلِيظًا﴾، وعدم نسبةِ الميثاقِ إليهم، كما في الأوَّل ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾.

دلالةُ إعادةِ إسنادِ الأخذِ إلى ضميرِ العَظَمَة:

بعظمةِ اللهِ ﷻ أخذَ اللهُ الميثاقَ مِنَ النَّبيّين عليهم السلام

إسنادُ الأخذِ إلى ضميرِ العَظَمةِ مرَّةً ثانيةً في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ تأكيدٌ لإظهارِ عظمةِ اللّه، وأهمّيَّةِ هذا الأخذِ ومضمونِه، وهو الميثاقُ الَّذي أخذَه اللّهُ، أي: بعظمتِنا في ذلك أَخَذْنا الميثاقَ مِن أنبيائِنا ورُسُلِنا لتبليغِه للأُمم على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور[3]، وفي إسنادِ الفعل إلى ضميرِ العظمةِ قبلَ ذِكر الأنبياء وبعدَهُ إشارةٌ إلى دوامِ عظمةِ اللّه وامتدادها قبلَ الأنبياءِ وبعدهم.

سِرُّ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِنْهُم﴾:

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ تفيدُ الاهتمامَ والتَّخصيص من جهتَين: اهْتمام التَّقديم، واهْتمام إظهارِ اقْترانِ الابْتداءِ بضميرٍ بخصوصِه غيرِ مُندمجٍ في بقيَّتِهم عليهم السلام[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

مزيدُ الاهْتمامِ بالأنبياءِ ومهمَّتِهم في تبليغِ الميثاق

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

الأصلُ في تقديم ما حقُّه التَّأخيرُ الحصْرُ والاختصاص، والمعنى: (وقد أخَذْنا الميثاقَ الغليظَ منهم لا مِن غيرِهم، واختصَصْنا أولي العزمِ مِنَ الرُّسل بذلك لعلوِّ منزلتهم على سائر الأنبياء)، وتقدَّمتْ شِبهُ الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾ كذلك على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا﴾، والأصلُ أنْ يُقال: (وأخَذْنا ميثاقًا منهم) لمزيدِ الاهتمامِ بالأنبياء، وبيانِ تفخيمِ شأنِهم عندَ اللّهِ تعالى، ومهمَّتِهم العظيمةِ في تبليغِ أممِهم ميثاقَ ربِّهم في الدَّعوةِ إلى الحقِّ الَّذي ارتضاهُ اللّهُ لهم، وأمرَهم به[1].

زيادةُ الاهْتمامِ والتَّعظيمِ والتَّفخيمِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿مِّيثَٰقًا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا﴾ بالتَّنكير دلالةٌ على تفخيم شأنِ الميثاقِ الَّذي أخذَه اللّهُ من أنبيائه، وأنَّ هذا الميثاقَ قائمٌ على عموم ما احْتَوَتْهُ دعوةُ الرُّسُلِ ورسالتُهم إلى أُممِهم مِن وجوبِ عبادةِ اللّهِ وحدَهُ دونَ سواه، والتزامِ شرائعِه وما ضمَّتْهُ مِن أحكامٍ وأخلاقٍ[2].

شـدَّةُ الاهتمامِ بـه أو تباين ما بين الميثاقين

علَّةُ إعادةِ ذِكرِ الميثاق:

أُعيدَ ذِكْرُ الميثاقِ في الآية: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ أهميَّةِ هذا الميثاق، وليُبنَى على هذا التَّأكيدِ وصفُ الميثاقِ بالغليظ، فالميثاقُ الثّاني هو عَيْنُ الأوَّل[3]، وقد يكونُ في إعادة ذكرِ الميثاقِ تنويهٌ على أنَّ الأوَّلَ ميثاقٌ أخذَه اللّهُ تعالى من النَّبيّين بتبليغِ الرِّسالة، والثّاني هو اليمينُ باللّهِ تعالى، أكَّدَ الأوَّلَ بهذا اليمينِ على الوفاءِ بما حُمِّلوا، فالميثاقانِ متغايرانِ بالذّات، وإن كانَ الثّاني تأكيدًا للأوَّل[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.

أو يكونُ الميثاقُ الثّاني مختلفًا، فالأوَّل مأخوذٌ من عموم الأنبياء، ولم يوصف بكونِهِ غليظًا، والميثاقُ الثاني مأخوذٌ من خواصِّهم وهم أولو العزم مِنَ الرُّسل، فناسب اختصاصُ الميثاقِ بالغليظِ اختصاصَ أولي العزم مِن سائرِ الرُّسل، فالميثاقان مختلفان.

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الميثاقِ بالغِلَظ:

ميثاقُ اللهِ المأخوذُ مِنَ الأنبياء عظيمٌ رفيعٌ في جنسه لا ينبغي لأحدٍ نقضه

جاء وصفُ الميثاقِ بالغِلَظِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ اسْتعارةً لمعنَى الغليظِ للعظيم الرَّفيعِ في جِنْسِه؛ لأنَّ الغليظَ من كلِّ صِنْفٍ هو أمْكَنُه في صفاتِ جِنْسِه، حيث إنَّ الغليظَ هو: القويُّ المتينُ الخَلْقِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][1].

ويمكنُ أن تكونَ الاستعارةُ هنا من وصفِ الأجرامِ العظام؛ كنايةً على أنَّه ميثاقٌ لا يمكنُ قطعُه لمن أرادَ الوصلةَ بنا، أي: بعظَمتِنا، أي: أخَذْنا منهم بعظمتِنا في ذلك ميثاقًا غليظًا لا يمكنُ قطْعُه لقوَّتِه وعظمتِه[2].

بلاغةُ المتشابِه اللَّفظيِّ بين آيتي النِّساء والأحزاب:

قيامُ الأنبياءِ على أمورِ أممِهم، والرِّجالِ على أمورِ النِّساء، فكلاهما مسؤوليَّةٌ وأداءُ حقوق

في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ وصفٌ للميثاقِ بالغِلَظ، وذلك أنَّ المُرْسَلَ بالميثاقِ إذا أعلَمَهُ بأنَّه يسألُ عن حالِه في أفعالِه وأقوالِه وفي قيامِه على أمرِ ميثاقِه والتزامِ مضمونِه وتبليغِه؛ يكونُ ذلك تغليظًا للميثاقِ عليه حتَّى لا يزيدَ، ولا ينقُصَ في الرِّسالة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النِّساء: 21]، كذلك إخبارٌ وإعلامٌ بأنَّ ميثاقَ الزَّوجيَّةِ موصوفٌ بالغِلَظ؛ لأنَّ الزَّوجَ مسؤولٌ عن زوجِه، فهو راعٍ لها، أخذَها بحقِّ اللّه، وإذا أراد أن يُفارقَها، فيفارقها بأداءِ حقِّ اللّه، فهو مسؤولٌ عنها وعن أداءِ حقِّ ذلك الميثاقِ الغليظِ القائمِ بينهما بعُرَى الزَّوجيَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

(2) البقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 294 - 295.

وكما أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ الرِّجالَ قوّامينَ على النِّساء، جعلَ الأنبياءَ قائمين بأمورِ أمَّتِهم وإرشادِهم إلى سبيلِ الرَّشاد[1].

سرُّ التَّعبيرِ باللّامِ في: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾:

ذِكرُ علَّةِ أخْذِ الميثاق

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لامُ (كي)، أي: أخَذْنا منهم ميثاقًا غليظًا؛ لِنُعْظِمَ جزاءً للَّذين يوفونَ بعهدِ اللّه، ولا ينقُضونَ الميثاق، ولِنُشدِّدَ العذابَ جزاءً للَّذين يكفرون بما جاءَتْهم رُسُلُ اللّه[2].

سرُّ حذفِ فاعل ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾:

وضوحُ المعنى؛ لأنَّه لا يملكُ، ولا يسألُ في ذلك اليوم إلّا الله

لمّا كان أخْذُ العهدِ على الأنبياء - وهم صفوةُ اللّه من خلقِه - في عالم الذَّرِّ أو في كتبِهم وشرائعِهم لا يكونُ إلّا ممَّن هو أعلى منهم وأرفعُ، وهو اللّهُ الملك؛ عُرِفَ بداهةً أنَّه لا يجازي على الوفاء بهذا العهدِ والميثاقِ في يوم تعنوا فيه جباهُ الملوكِ للّه إلّا اللّهُ الملك سبحانه.

بلاغةُ العدولِ إلى الغَيْبة في ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾:

تعظيمُ الهيبةِ في النُّفوس عند معرفةِ علَّة الميثاق وغايته

ضميرُ ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾ عائدٌ إلى اللّهِ تعالى، وهو التفاتٌ عمّا سبقَ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبة، لتعظيم الهَيْبة؛ لأنَّ الخطابَ إذا طالَ: اسْتأنسَ المخاطَبُ[3]، ولبيانِ علَّةِ أخذِ الميثاقِ وغايتِه بيانًا قصديًّا لتحقيقِ ما وراءه من معرفةِ الصّادقين والكافرين[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالسُّؤالِ في: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾:

السُّؤال: كنايةٌ عنِ المؤاخذة؛ لأنَّها من ثوابِ جوابِ السُّؤال، يعني: إسداءَ الثَّوابِ للصّادقين الَّذين صَدَقوا في تبليغِ الميثاق، بعد إعلان صِدقِهم بالسُّؤال والجواب، وصِدقِ النِّيَّة فيه بالإخلاص وعلى رأسِهمُ الأنبياء[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

دلالة التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

إظهارُ مكانةِ الصّادقين بسؤالهم جميعًا في هذا المشهدِ العظيم

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ بكافَّة أنواعِهِ يفيد العمومَ، أي: ليسأل كلَّ الذين صدقوا، أي: الَّذين عُهِدَ منهم الصِّدْقُ في الوفاءِ بالعهد، وعلى رأسِهِمُ الأنبياءَ، ولذلك أسندَ إليهم صفةَ الصِّدقِ بعد ذلك؛ تأكيدًا لهذا المعنى، فقال: ﴿عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾[1].

نكتةُ تعديةِ سؤالِ الصّادقين بـ﴿عَن﴾:

الإيذانُ بصدقِ الأنبياءِ ومَنْ صدَّقهم عمّا أخذ في الميثاق

السُّؤالُ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وتعديتُه بـ﴿عَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمرِ بأنَّهم صدقوا فيما سُئِلوا عنه، والمرادُ بهم النَّبيّون الَّذين أُخِذَ ميثاقُهم، ومَنْ صدقَهم من أقوامِهم، فيقالُ لهم: هل صدقتُم في ميثاقِكم؟ وهل كان تصديقُكم لوجهِ اللّهِ تعالى[2]؟ وفي ذلك تشريفٌ لهم.

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿صِدۡقِهِمۡۚ﴾:

جزاءُ الصّادقين بإسداءِ الثَّوابِ إليهم

التَّعبيرُ بالمصدر في ﴿صِدۡقِهِمۡۚ﴾ يفيد المبالغةَ في الفعل، فإذا أُضيفَ المصدرُ إلى ضميرِهم، وكانت الإضافةُ بمعنى (من)؛ دلَّ ذلك على المبالغةِ في وصْفِهم بالصِّدق، كأنَّ الصِّدقَ كلَّه خارجٌ منهم وناشئ عنهم، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا على عدلِ اللّهِ ﷻ في السُّؤال والجزاء يوم القيامة.

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾:

تحقيقُ عذابِ الكافرين المقدَّرِ المعدِّ لهم

قولُه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وفيها دلالةٌ على تحقيقِ عذابِ الكافرين حتَّى لا يُتوهَّمَ أنَّهم يُسألون سؤالَ مَن يُسمَعُ جوابُهم أو معذرتُهم، ولإفادةِ أنَّ إعدادَ عذابِهم أمرٌ مضى، وتقرَّرَ في علمِ اللّهِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 152.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

ويجوزُ أن يكونَ عطفًا معنويًّا على ﴿أَخَذْنَا﴾، ويكون المعنى: أكَّدَ على الأنبياءِ الدَّعوةَ إلى دينِه؛ ليُثيبَ المؤمنين، وأعدَّ للكافرين[1].

معنَى اللّامِ في قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

اختـصاصُ الـكافـرين بالعذابِ الأليمِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ لامُ التعديةِ الَّتي تفيد اختصاصَ المجرورِ بها للفعل، كأنَّه قال: نخصُّ الكافرين بالعذابِ الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، أيْ: خصَّتهنَّ بالمُتَّكأ، فهو معدٌّ لهنَّ دونَ غيرِهنَّ، فيكون المعنى هنا: خصَّصنا الكافرينَ بالعذابِ الأليم.

دلالةُ (أل) في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

شمـولُ العقوبةِ كلَّ أنواعِ الكافرين وأفرادهم

(أل) في قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ بكلِّ ألفاظهِ مِن صيغِ العُموم، والعمومُ والشُّمول هنا لاستغراق أنواعِ الكافرين مُجاهرين أو مُستترين، ولشمول أصنافِ كلٍّ مِنهما، وشمول أوصافِهم، فهي في الجملة تفيدُ هنا شمولَ الأجناس والأنواعِ والأفراد والصِّفات، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما هم عليهِ مِنَ الكفرِ المؤذنِ لاستحقاقِهم العقوبةَ.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

إهانةُ الكافرين وازْدراؤُهم

تقديمُ شِبْهِ الجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿عَذَابًا﴾ - والأصلُ أن يتأخَّرَ - للإشارة إلى العلَّةِ في إعدادِ العذابِ الأليم لهم، فكأنَّه إنَّما أعُدَّ العذابَ الأليم لأجل كفرِهم، وفيه أيضًا حصرٌ واختصاصٌ؛ لأنَّه تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، والمعنى: أعُدَّ العذابَ الأليم لهم دون غيرِهم، وهو مختصٌّ بهِم لا يتجاوزُهم، ولمزيدِ الإهانةِ والتَّبكيتِ لهم على كفرِهم وعنادِهم للحقِّ مع وضوحِ دلالاتِه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابًا﴾:

جاءَ تنكيرُ ﴿عَذَابًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 153، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 347.

عِظَمُ عذابِ الكافرينَ وقوَّتُه وشدَّتُه وتنوُّعُه وتجدُّدُه

﴿أَلِيمًا﴾؛ للدَّلالةِ على عِظَم هذا العذابِ وشدَّته وقوَّته وفظاعتهِ وهوله وإهانتهِ وتنوُّعه، وهذا هو السِّرُّ في وصفِ لفظِ (عذاب) النَّكرة في القرآنِ بالأليم والعظيم والمهينِ والشَّديد وغير ذلك مِنَ الأوصافِ الكثيرةِ الَّتي أكثر منها القرآنُ الكريمُ، وأمّا تنوُّعُهُ؛ فقد أتى القرآنُ الكريمُ على ذِكر بعضِ أنواعِ عذابِ الكافرين في طعامِهم وشرابِهم وفي حرقِ أجسادِهم وجلودهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، وقولِه تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥﴾ [محمَّد: 15]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النِّساء: 56].

نكتةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

زيادةُ التَّنفيرِ مِنَ الكفرِ وطرائقِهِ

العذابُ لا يكون إلّا أليمًا، فلا يُتصوَّر عذابٌ بلا ألَم، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أراد أن يؤكِّدَ وقوعَ هذا الألمِ في عذابِ الكافرين مع كونِهِ واقعًا - لا محالةَ - لزيادةِ التَّنفيرِ مِن اتِّباعِ السُّبُلِ الَّتي تودي بصاحبِها إلى الكفرِ وعذابه الأليم يومَ الدِّين.

بلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ:

الدَّلالةُ على معانٍ كثيرةٍ بألفاظٍ قليلةٍ

في قوله تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ احتباكٌ، وهو ما يُعرَفُ بالحذفِ المتقابل، بل يُعدُّ من محاسنِ رياض الاحتباك؛ لأنَّه يدلُّ بالمذكورِ على المحذوف، فيفيد المعاني الكثيرةَ بالألفاظِ القليلةِ، والتَّقديرُ: ليسألَ المؤمنين الصّادقينَ عن صِدْقِهم، وأعدَّ لهم ثوابًا عظيمًا، ويسألَ الكافرين الكاذبينَ عن كفرهم وكذبِهم، وأعدَّ لهم عذابًا أليمًا، فحذفَ مِن كلٍّ منهما ما ثبتَ في الآخر[1]، أو ما دلَّ عليه الآخرُ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 153.

بلاغةُ التَّصريحِ بالصّادقين والكافرين:

الـصِّـدقُ مِـن لـوازمِ الإيـمانِ، والـكـذبُ مِـن لوازم الكفر

أصلُ الكلام: (ليسألَ المؤمنين الصّادقين المخلصينَ في صدقِهم)، فذكرَ الصّادقين، ولم يذكرِ المؤمنين؛ لأنَّ الصِّدقَ والإخلاص لازمٌ من لوازمِ الإيمانِ، فذِكْرُ الصِّدق دالٌّ على الإيمان بداهةً، وذِكرُ الكافرين دالٌّ على الكاذبين؛ لأنَّ الكفرَ والكذب متلازمان: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 105].

نكتةُ التَّصريحِ بسؤالِ الصّادقين:

المـبـالـغـةُ في تكريمِ الصّادقين وإهانةُ الكافرين

صرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بسؤالِ الصّادقين في قولِه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ بشارةً لهم بتشريفِهم في ذلك الموقفِ العظيم، وطوَى سؤالَ الكافرين؛ إشارةً إلى اسْتهانتِهم بفضيحةِ الكذب[1]؛ إذِ السُّؤالُ يكون لكلٍّ منهما، لكنَّ سؤالَ المؤمنين الصّادقين سؤالُ إعلاءٍ ورفعة بين أهل الموقفِ، وإشارةٌ إلى ما يتبعه مِنَ الثّواب العظيمِ والنَّعيم المقيم، وأمّا سؤالُ الكافرين؛ فليس لأجل إجابتِهم؛ بل لإقامة الحُجَّة عليهم، وللإشارة إلى ما يتبعُ ذلك من العذابِ الأليمِ الَّذي صرَّحت به الآية.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من آثارِ الالتزامِ بالميثاق تحقيقُ نصرِ الله للمؤمنين

لَمّا أكَّدَ سبحانه وجوبَ الصَّدْعِ بكلِّ أمرِه، وإن عَظُمَتْ مشقَّتُه؛ أوجزَ كلَّ ذلك في أخذ الميثاق؛ إذ هو متضمِّنٌ كلَّ الأوامرِ والنَّواهي، فذكَّرَهم بدليلٍ شُهوديٍّ هو أعْظمُ وقائِعهم في حروبِهم، وأشدُّ ما دهمَتْهم من كُروب، فقال معلِّمًا بأنَّ المقصودَ بالذّاتِ ما مضَى مِنَ الأوامرِ للأُمَّة، وإنَّما وجَّه الأمرَ إلى الإمام؛ ليكونَ أدْعَى لهم إلى الامتثال، فإنَّ الأمرَ للنَّبيِّ ﷺ تكوينيٌّ بمنزلةِ ما يقولُ اللّهُ تعالى له: (كُنْ)، فحقيقةُ الإرادةِ لا الأمر، والأمرُ للَّذين آمنوا تكليفيٌّ، وقد يُرادُ منهم ما يُؤمرون به، وقد لا يُراد، وللنّاسِ احتجاجيٌّ، أي: تُقامُ به عليهمُ الحُجَّة، ومن المحقَّقِ أنَّ بعضَهم يُراد منه خلافُ المأمورِ به، فقال تعالى بيانًا شافيًا كافيًا لما تقدَّم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جُنُودٌ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّعِ والنُّصرة[2]، والجُنْدُ: الأرضُ الغليظةُ الَّتي فيها حجارة، ويقالُ للعسكرِ: الجُنْدُ اعْتبارًا بالغِلظة، ثمَّ يقالُ لكلِّ مجتمعٍ: جُندٌ، نحو قوله ﷺ: (الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ)[3]، وجمعُ الجُند: أجنادٌ وجُنود، ويُطلَقُ الجندُ على الأعوانِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295 - 296.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).
(3) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: 6/ 263، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2638).

والأنصار(1)، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، فالجنودُ الأولى من الكفّار، وهم جنودُ الأحزابِ، والجنودُ الثّانيةُ الّتي لم يروها: الملائكة(2).

2) ﴿رِيحٗا﴾: (روح) أصلٌ كبيرٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على سَعَةٍ وفُسْحةٍ واطِّراد، وأصلُ ذلك كلِّه الرّيحُ، وأصلُ الياء في الرّيح الواوُ، وإنَّما قُلِبتْ ياءً لكسر ما قبلَها، والرّيحُ: الهواءُ المتحرِّك، وقد يُستعارُ الرّيحُ للغَلَبةِ والقوَّة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46](3)، وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ هي ريحُ: الصَّبا، أكفأتْ قدورَهم، ونزعَتْ فساطيطَهم حتَّى أظعنَتْهم من مكانِهم(4).

3) ﴿بَصِيرًا﴾: (بصر) أصلان صحيحان: أحدُهما - وهو ما يعنينا هنا - العلمُ بالشَّيء، يُقال: هو بصيرٌ به، ومن هذه البصيرةُ، والبَصيرةُ: البُرهان، وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشَّيء، يُقال: بَصُرْتُ بالشَّيء: إذا صِرْتَ به بصيرًا عالِمًا، وأبصرتُه: إذا رأيتَه، وأمّا الأصلُ الآخَرُ؛ فبُصْرُ الشَّيء: غِلظُه، ويُقالُ لقوَّةِ القلبِ المُدرِكة: بصيرةٌ، وجمعُ البَصَرِ: أبصارٌ، وجمعُ البصيرةِ: بصائرُ(5)، ويمكن أن يقال: البصرُ عِلْمٌ مبنيٌّ على رؤية شيءٍ واضحٍ، كالشيءِ الثَّخين الغليظ، والحجارة الرخوة(6).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التَّذكيرُ بِنِعَمِ اللهِ مقصدٌ من مقاصدِ الشَّرائع

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن نعمتِه وفضلِه وإحسانِه إلى عبادِه المؤمنين في صَرْفِه أعداءهم وهَزْمِه إيّاهم يومَ تألَّبوا عليهم، وتحزَّبوا يومَ

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جند).
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 515، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (روح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 1291، والنَّحّاس، معاني القرآن: 5/ 328، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 217.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (بصر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بصر).

الخندق، وذلك في شوّال سنة خمسٍ من الهجرةِ على الصَّحيح المشهور، ثمَّ أرسلَ اللّهُ ﷻ على الأحزابِ ريحًا شديدةَ الهُبوب قويَّةً حتَّى لم يبقَ لهم خَيْمةٌ ولا شيءٌ، ولا توقدُ لهم نارٌ، ولا يقرُّ لهم قَرار، وأنزل عليهم ملائكةً زَلْزلَتْهم، وألقتَ في قلوبهمُ الرُّعبَ والخَوْف، فارْتحلوا خائبينَ خاسرين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ نداءِ القريب بـ(يا):

حرفُ (يا) لنداء البعيدِ، والمؤمنون قريبونَ مِنَ اللّهِ بإيمانِهم به ومصابرتِهم على الجهادِ في سبيلِه[2]، وإنَّما نُزِّلوا في النِّداء منزلةَ البعيدِ؛ للدِّلالة على أنَّ ما بعد النِّداء أمرٌ يحتاج إلى شدَّةِ وعيٍ وتدبُّر، وتذكُّر وتذكير.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أيّ):

(أيُّ) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: لفظٌ مبهمٌ، لاستثارة السّامعِ، وجذب انتباهِه، بما يزيل الإبهامَ ويجلي البيان بعده.

بلاغةُ التعبير بـ(الهاء) في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

(الهاءُ) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ للتَّنبيه، أي: تنبيهِ المخاطَبين بأهمّيَّةِ ما وراءَ النِّداءِ من أمرٍ جَلَل، فهو إمّا أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن مُنكَرٍ، أو تذكيرٌ بنعمةٍ من نِعَم اللّهِ على عبادِه، كما هنا في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية.

تنبيهُ المؤمنين لتذكُّرِ نعمةِ اللهِ عليهم في نصرِهم وهزيمةِ أعدائهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

الاسمُ الموصولُ من صيغ العموم، وهو مِنَ الألفاظِ المبهمةِ الَّتي تحتاجُ إلى بيانهِ وبيانِ صلتهِ، فكأنَّ المعنى: يا كُلَّ أهلِ الإيمانِ مَن قوي إيمانُهُ أو ضعف، مَن هو حديثُ عهدٍ بالإيمان أو مَن رسخت

إفادةُ عموم المنادى الموضَّح بالصِّلة في تذكُّر نعمةِ الله

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 439.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

قدمُهُ فيه، مَن خالط إيمانَهُ شكٌّ ومَن هو من أهل اليقين، اذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم.

سرُّ إيثارِ الإيمان في صلة الموصول:

تهييجُ المخاطَبين بوصفِ الإيمان لتحقُّق الثَّمرة المرجوَّة ممّا بعدَ النِّداء

جاءت صلةُ الموصولِ بلفظ الإيمان ﴿ءَامَنُواْ﴾، دون الإسلام أو التَّقوى أو اليقين أو غير ذلك؛ لبيانِ أنَّ أهلَ الإيمانِ هم المُرادُ منهم تذكُّرُ نعمةِ اللّه عليهم؛ إذ لولا إيمانُهم وجهادُهم لما استحقّوا نصْرَ اللّه لهم، ولطفه بهم، وتخليدَ ذِكرِهم وكرامتهم في كتابه المعجزِ، وليخرج بذلك المنافقونَ الَّذين أسلموا، ولم يؤمِنوا، والكافرون المُعْلنونَ للكفرِ، فإنَّ كُلًّا منهما ليس محلًّا لشرف نداءِ الخالقِ سبحانه، ولا خطابِهِ لهم بذلكَ، وليسوا كذلكَ أهلًا لتذكُّر النِّعم، وليكونَ وصفُ الإيمان دافعًا لهم، ومهيِّجًا لتذكُّر تلك النِّعم، وكأنَّه قال لهم: يا مَن ادَّعيتم الإيمانَ؛ حقِّقوا ذلك واقعًا بتذكُّر نعمِهِ عليكم، حتى يعينَكم ذلك على شكرِ نِعمِهِ.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

النِّعَمُ العظيمةُ ينبغي أنْ يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النُّفوسَ لتذكُّرها وشكرها

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالنِّداءِ، واستُعمِلَتْ فيه (يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ، وجيءَ بعدها بـ(أي) المبهمةِ الشَّديدة الإبهام؛ لتشدَّ انتباهَ المنادى، ثم جيء معَها بهاءِ التَّنبيه؛ ليزدادَ بذلك جذبُ المنادى بتعيينه، وبالاسم الموصول المبهم ليزدادَ الشَّوقُ لمعرفةِ مَن هو المنادى، وبيانُ كلِّ هذا الإبهام أنَّ المنادى هم أهلُ الإيمان؛ إشارةً إلى شدَّةِ الاهتمام بمُناداةِ المؤمنينَ، ولَفْتِ انتباهِهم للنِّعمة الَّتي أُمِروا أن يتذكَّروها؛ فإنَّها نعمةٌ جليلةٌ، وشأنُ النِّعم العظيمةِ الَّتي تَهولُ المخاطَبَ أن يُقدَّمَ قبلَها ما يُهيِّئُ النُّفوسَ؛ لتذكُّرها والانتفاع لذلك في شكرِها.

نكتةُ مجيءِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا:

جاءتْ صلةُ الموصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيانِ تحقُّق الإيمان عند مَن أقرّوا بهِ، وعبَّر به؛ ليعمَّ المنافقين، وإن كانوا في حقيقتِهم كافرين[1]، وقد تحقَّقَ الإيمانُ في قلوبِهم، وتحقَّقوا بالإيمانِ، واصْطَبغوا به.

تحقُّقُ الإيمانِ في قلوبِ المؤمنينَ واصْطباغِهم به

بلاغةُ تعدُّدِ المؤكِّداتِ والمنُبِّهاتِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تعدَّدتِ المؤكِّداتُ في أسلوبِ النِّداءِ بأداتِه وتنبيهِه، واسْمِ الموصولِ وصلتِه؛ لقصدِ أنَّ ما يُؤمَرُ به المؤمنونَ مِن وجوبِ ذِكرِ نعمةِ اللّهِ عليهم في نصْرِهم على أعدائِهم دون قتالٍ إنَّما هو لِما تحقَّقوا به مِنَ الإيمان، وإذا كان ذلك كذلك؛ فلا بدَّ لهم مِن ذكرِ مِنَّةِ اللّهِ عليهم بنصرٍ لا تبعةَ عليهم فيه مِن تقديمِ تضحياتٍ من قتلٍ أو أسْرٍ، وإنْ كان في إيرادِ صفةِ الإيمانِ إقامةُ الحُجَّةِ على مَنْ آمنوا بألسنتِهم، ولم يؤمنوا بقلوبِهم، وهمُ المنافقون الّذين كانوا يتآمرونَ مع اليهودِ والكافرين[2].

المـؤمنـونَ أهـلٌ للتَّذكيرِ بنعمةِ اللهِ بنصرِهم

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ دون غيرِه:

لفظُ الذِّكْر شاملٌ لذِكْر اللِّسان والقلب، ولذِكْر السِّرِّ والعلن، ولذكر الحاضرِ والغائب، والإنسانُ مجبولٌ على ذِكرِ ما يحبُّ حبًّا لازمًا جبليًّا كذكر الآباء، أو حبًّا عارضًا منتقلًا كذكر النِّعم الخاصَّة، وكلُّ ذلك دليلٌ على شدَّة تعلُّقهِ بما يذكرهُ وحبِّه له؛ إذِ الإنسانُ لا يحبُّ أن يذكرَ، أو يتذكَّر مواطنَ الألم والشدَّة، إلّا لسبب آخرَ كيفيَّة النَّجاة منها، ومن ألمها وشدَّتها، فالأمرُ بالذِّكر دافعٌ إلى الشُّكر ومانع مِنَ النِّسيان الذي يُعين على الجحود والكفران، فمِن فوائدِ ذِكره للنِّعمة: استحضارُها أمامَ عينيهِ وبين يديهِ، وإن طالَ العهدُ بها.

حضورُ النِّعمةِ بين يدي الذّاكرِ وأمامَ عينهِ مع بُعدِ العهدِ بها

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾:

الأمرُ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ﴾ ترغيبٌ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.

في الشُّكر بذكر الإحسانِ الَّذي أسْداهُ اللّهُ إلى المؤمنينَ في هزيمةِ أعدائهم يومَ الخندق ونصرهم عليهم دون قتالٍ[1].

نكتةُ إفرادِ النِّعمةِ:

جاء في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ إفرادُ النِّعمة؛ لأنَّها المقصودةُ بالذّات، وهي نعمةُ تأييدِ اللّهِ للمؤمنين وهزيمةِ أعدائِهم، في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾.

نكتةُ إضافة النِّعمة إلى المعرفة:

النِّعمُ العظيمةُ تـحـوي نـعـمًـا كثيرةً

النَّكرةُ المفردة إذا أُضيفت إلى معرفةٍ؛ أفادَت العمومَ، فكأنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾: (اذكروا نِعَمَ اللّه الكثيرةَ العظيمةَ التي حلَّت بكم، ونزلَت عليكم، وتجلَّت آثارُها على الأمَّة من بعدكم مِن خلالِ ما حدث في هذه الغزوةِ)، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الذّاكرَ في كلِّ نعمةٍ والمتأمِّل فيها، والمتدبِّر لها، يدركُ بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّها تحوي نعمًا كثيرةً عظيمةً، كلُّ جزءٍ منها يستحقُّ الذِّكرَ.

سرُّ إضافةِ النِّعمة إلى لفظ الجلالة:

أُضيفتِ النِّعمةُ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المرادَ إنعامُ الملك الأعلَى الَّذي لا كُفُؤَ له، ولا أحَدَ سواه، وهو اللّهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاء في: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تـمـكُّـنُ نـعـمـةِ اللّه وإحاطتُها بعبادِه المسلمين

في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ بعد ذِكْرِ النِّعمة وإسنادِها إلى اللّهِ المُنعِم بها؛ للدَّلالة على أنَّ تلك النِّعمةَ كائنةٌ عليكم، أي: نزلت عليكم بإحسانٍ مِنَ اللّهِ الأعلى، فالرّيحُ الَّتي أيَّدكم اللّهُ بها - فاقتلعَتْ خيامَ المتحزِّبين عليكم، وأكفأَتْ قدورَهم، واختلَّ أمرهم - جاءتْكُم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296.

من فوقِكم، والملائكةُ الَّتي كبَّرتْ في جوانبِ عَسكرِهم، فقذفَتِ الرُّعبَ في قلوبهِم، وقد جاءت مِنَ الأعلى، فأنتُم بهذا لا حولَ لكم ولا قوَّة، إنَّما هو تأييدُ اللهِ لكم بهذه النِّعمةِ الَّتي نزلَتْ عليكم من عَلٍ، فأصابت أعداءَكم وهزمَتْهم بقدرةِ اللهِ الأعلى[1].

المؤمنُ في معيَّةِ اللهِ دومًا

كما أنَّ الاستعلاءَ بـ(على) يفيد علوًّا معنويًّا بعد إفادةِ العلوِّ الحسّيِّ، أي: (اذكروا نعمةَ اللهِ العليَّةَ المنزلة السامقةَ القدرِ البعيدةَ عن قدرةِ البشرِ)، ثم إنَّ حرفَ الاستعلاءِ (على) بما فيه مِن معنى الإحاطةِ، يُشعرُ بإحاطة النِّعمةِ بهم مِن كلِّ جانبٍ، فقد شملتْهُم هذه النِّعمة من كلِّ جهةٍ، وحفَّتهم من كلِّ جانبٍ، حتى لا يأتيَهم العدوُّ في تلك الغزوةِ مِن أيِّ مكانٍ وفي أيِّ وقتٍ.

نكتةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾:

جنودُ اللهِ نعمةٌ على المؤمنين، وبلاءٌ على الكافرين

على كون ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ منصوبةً بـ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾، فهي بدلُ اشتمالٍ من ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، والبدلُ والمبدلُ منه واحدٌ في المعنى، وكأنَّ التَّقدير: (اذكروا إذ جاءتْكُم جنودٌ، فأرسلْنا عليهم ريحًا)، وعلى هذا تتَّحد الجملتان في المعنى، فلا يحتاجُ الكلامُ إلى فصلٍ بواو العطف ولا بغيرها؛ لأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، والكلامُ مُتَّحدٌ لا مُتغايرٌ.

وعلى أنَّ ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ استدعاهُ الكلام السابق (اذكروا نعمة الله عليكم)، تقديره: ما هي هذه النِّعمةُ يا ربِّ؟ فكان الجواب: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾، والاستئنافُ البيانيُّ لابدَّ فيه مِن الفصل[2].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 296، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 438.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 403.

سرُّ التعبير بـ﴿إِذۡ﴾ في ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾:

تحقُّقُ وقوع النِّعمة واستحضارها بماضيها

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لما مضى مِنَ الزَّمان، وتأكّد مضيّه بمجيء الفعلِ الماضي بعدَهُ، وهذا هو الأصلُ فيها، وقد يأتي بعدَها الفعلُ مضارعًا، كقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ [التّوبة: 40]، وإنَّما جاءت على الأصلِ بفعلِها الماضي لتحقُّق وجود النِّعمة؛ إذ الفعلُ الذي مضى، وانقضى، لا يُشَكُّ في وقوعهِ ولا وجودهِ، فكأنَّه لمّا أمرهم بذِكْر النِّعمة؛ بيَّن لهم أنَّهم لا يذكرون أمرًا مشكوكًا فيه، كما يحدث عند البعضِ إنَّما يذكرون نعمةً واقعةً متيقَّنةً، أدركَها الذين نزلَ القرآنُ فيهم، وشهدوها، وعاينوها، وصدَّقها مَن جاء بعدَهم بيقين؛ لأنَّها كلامُ الله ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: 122].

سرُّ التَّعبيرِ بالمجيء بدل الإتيان:

المجيءُ يدلُّ على الشدَّة والقوَّة والصُّعوبة

الإتيانُ فيه سهولةٌ ويسرٌ، والمجيءُ فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ، ولا يكون إلّا في الأمور الشديدةِ حسًّا أو معنًى، كالافتراء على اللهِ ، أو الإتيانِ بأمر لا يُصدَّق عقلًا، وبالتفحُّص في القرآن نجدُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا﴾ [مريم: 27]، فإتيانُها به لهم فيه سهولةٌ، لكن إنكارهم لها جاء بالتَّعبير بـ﴿جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، فالأمرُ كان عسيرًا عليهم، صعبًا على قلوبهم وعقولهم.

نكتةُ تأنيثِ الضَّمير في ﴿جَآءَتۡكُمۡ﴾:

اجْتماعُ القبائلِ على غَزْوِ المدينة مع ضعفِهم في الجهاد لكفرهم

قولُه تعالى: ﴿جَآءَتۡكُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ فصلَ بينه وبين فاعلهِ فاصلٌ، فجاز فيه التَّذكيرُ والتَّأنيث، لكنَّ القرآنَ آثر فيه التأنيثَ، فاتَّصلَتْ به تاءُ التَّأنيثِ السّاكنة لأمور؛ منها الدِّلالة على تنوُّع الجنود، وأنَّها وإن اجتمعَتْ في الهدف، فإنَّها ليست على قلبِ رجل واحدٍ، وهذا واضحٌ من تنوُّع تلك القبائلِ الَّتي اجْتَمَعَتْ مُتساندةً لغزوِ المسلمين في المدينة[1]، ومِن دواعي إيثارِ التَّأنيث أيضًا في الفعل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

﴿جَآءَتۡكُمۡ﴾ ضعفُ تلك الجنودِ، وإن كان الظاهرُ عليها القوَّةَ والشدَّةَ والمنعةَ، فإنَّها في الحقيقة ضعيفةٌ، لضعف المعتقدِ الدّافع لها على القتالِ، والعربُ تستعمل التَّذكير في معنى القوَّة، والتَّأنيث في معنى الضَّعف.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ الجنود:

خـــروجُ جميعِ جنـودِ القبائلِ متساندةً لغَزْوِ المسلمين

الجنودُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ جمعُ: جُنْدٍ، وهو الجمعُ المتَّحِدُ المتناصرُ، ولذلك غَلبَ على الجمعِ المجتَمِعِ لأجلِ القتال، فشاعَ الجندُ بمعنَى الجيشِ، وذكرَ ﴿جُنُودٞ﴾ هنا بلفظِ الجمعِ؛ لأنَّ مفردَه مُؤذِنٌ بالجماعة، مثل قوله تعالى: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ [ص: 11]، فجمعَهُ هنا؛ لأنَّهم كانوا متجمِّعين من عدَّةِ قبائلَ، لكلِّ قبيلةٍ جيشٌ خَرجوا مُتساندينَ لغَزْوِ المسلمين في المدينة، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ [البقرة: 249][(1)].

نكتةُ تنكيرِ ﴿جُنُودٞ﴾:

كثرةُ أعدادِ جنودِ الأحزاب وحقارةُ شأنِهم عند اللهِ تعالى

جاءَ لفظُ ﴿جُنُودٞ﴾ نكرةً؛ لأنَّه يُعبِّرُ عن كثرةِ أعدادِ جنودِ القبائلِ الَّتي تحزَّبتْ على المسلمين، فقريشٌ قد أقبلتْ في عشرةِ آلافٍ مِنَ الأحابيش وبني كنانةَ وأهلِ تهامةَ، وقائدُهم أبو سفيان، وخرجَتْ غطفانُ في ألفٍ ومَن تابعهم من أهلِ نجد، وقائدُهم عُيَيْنَةُ بنُ حِصن، وقبيلةُ هوازن وقائدُهم عامرُ بنُ الطُّفَيْل، وقبيلتا بني سُليم، وبني أسد، وانضمَّ إليهما يهودُ بني قُريظة[(2)].

ومع هذه الكَثْرةِ الكاثرةِ جاء أيضًا تنكيرُ ﴿جُنُودٞ﴾ في السّياق؛ تعبيرًا عنِ الاستهانةِ والازدراءِ لتلك الجنود، واحْتقارِ عددِهم وعُدَّتِهم وزَحْفِهمُ الفاجرِ وغَزوِهمُ الظّالم، ولا أدَلَّ على ذلك أنَّ اللَّهَ كفَى المسلمين مؤونةَ القتالِ بريحٍ أَرْبكتْ جيوشَهم، وملائكةٍ أرعبتهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 253، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 403.

مجيءُ الأحزابِ سببٌ في إرسالِ الرِّيحِ والملائكةِ

بلاغةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ تفيدُ التَّعقيبَ والسَّببيَّة، أي: لَمّا كان مجيءُ الجنودِ مُرهبًا؛ سبَّبَ عنه أنّنا أرسَلْنا - بما لنا مِن العظَمة - عليهم ريحًا، وهي ريحُ الصَّبا الباردة، وملائكةً قذفتِ الرُّعبَ في قلوبِهم، وكلُّ ذلك بأمرِ اللّهِ وقدرتِه سبَّبَ هزيمتَهم وعودتَهم مقهورينَ مرعوبين[1].

مـقـامُ إظـهـارِ النِّعمةِ الرَّبّانيَّةِ يحتاجُ إلى ضميرِ الـتَّـكـلُّـم مِـنَ المُنعِم

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم في ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

انتقلَ الكلامُ مِن ضمائرِ الغيبةِ في الآيةِ السّابقة، إلى ضميرِ التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ المِنَّةِ الرَّبّانيَّةِ في بيانِ النِّعمةِ الَّتي أسْبلَها تعالى على المسلمينَ في ذلك اليوم العصيبِ من إرسالِ الرِّيحِ والملائكةِ لمساندتِهم وتأييدِهم وهزيمةِ أعدائِهم من غيرِ قتال[2]، ناهيك عن كون ضميرِ التَّكلُّم قد جاء بأسلوب التَّعظيم.

إظهارُ العظَمةِ الإلـهـيَّـةِ في وقـتِ الأزمـاتِ والشَّدائدِ

نكتةُ إسنادِ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ إلى ضميرِ العظَمة:

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الإرسالَ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ هَلَعٍ ورُعْبٍ شَديدٍ، فقد كان في تحزُّبِ بعضِ قبائلِ العربِ واليهودِ على المسلمين بأعدادِهمُ الكثيرةِ وعُدَدِهم الكبيرةِ مثارَ رَهْبةٍ وخوفٍ شديدٍ في قلوبِ المسلمين بحكمِ الطَّبيعةِ البشريَّة، فسبَّبَ عن ذلك كلِّه عَوْدُ البيانِ القرآنيِّ إلى مظهرِ العظمةِ الإلهيَّةِ والتَّأييدِ الرَّبّانيِّ، فقال ﷻ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾، أي: (بعظمتِنا وقوَّتِنا وقَهرِنا أرْسَلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تَرَوْها مِنَ الملائكة، فدبَّ فيهم الرُّعبُ، وزُلْزِلوا حتَّى عادوا خائبينَ ذليلين)[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 297 - 298.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 153.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 297.

نكتةُ تعديةِ الإرسالِ بـ (على):

استعلاءُ الإرسالِ على الأحزابِ، وتمكُّنُه منهم وإحاطته بهم

تعدَّى الفعلُ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ بحرفِ (على)؛ للدَّلالةِ على استعلاءِ ذلك الإرسالِ على مَنْ كان محلَّهُ، وهمُ الأحزاب، فقد تلبَّسَ فيهم إرسالُ الرّيحِ والملائكةِ مُستعليًا عليهم محيطًا بهم، فَشُلَّتْ قدرتُهم، وعجزَتْ أعدادُهم وعُدَّتُهم عن مجابهةِ جنودِ اللهِ فضلًا عن أن يغلبوها.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

حصْرُ الإرسالِ على الأحزابِ وحدَهُم واختصاصه بهم

تقدَّمَ الجارُّ ومجروره ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ والأصلُ أن يُقال: (فأرسَلْنا ريحًا عليهم)، وذلك لتخصيصِهم بهذا الإرسال، وقصره عليهم، أي: (أرسَلْنا بما لنا مِنَ العظمةِ على أولئك الأحزابِ دون غيرِهم ريحًا وملائكة)[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿رِيحٗا﴾:

تفخيمُ أمرِ هذه الريحِ وبيانُ شدَّتها

جاءَ تنكيرُ ﴿رِيحٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ ماهيَّةِ هذه الرّيح، فهي ريحُ الصَّبا شديدةٌ باردةٌ أزالَتْ خيامَهم، وأكْفأتْ قُدورَهم، وأطفأتْ نيرانَهم، وسَفَّتِ التُّرابَ في عيونِهم، ومادت الخيلُ بعضُها في بعض، وهلكَ كثيرٌ منها، فاختَلَّ أمرُهم، وهلكَ كُراعُهم وخُفُّهم، وأحْدَث ذلك كلُّه تخاذلٌ بينهم، فارتحَلوا عن المدينة، يجرّونَ وراءهمُ الذُّلَّ والخُسران[2]، وبالجملة فمِن شدَّة هذه الريحِ وعِظمها اختلَّ أمرُ الأحزاب، وانفضَّ جندهم.

نكتةُ عطفِ الجنودِ على الرِّيح:

اشتراكُ الملائكةِ مع الرّيحِ في رُعبِ المشركين وفضِّ جندهم

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجنودَ على الرّيحِ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾؛ للجَمعِ بين السَّببَيْنِ في هزيمةِ المشركين ومَنْ مَعهم مِنَ اليهودِ بأمرِ اللّهِ ﷻ: ريحُ الصَّبا الَّتي هي من جُندِ اللّه، يعذِّبُ بها مَن يشاءُ مِن أهلِ الكفرِ والطُّغيان، كما قال

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 298.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.

تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: 31]، والملائكة التي تقذفُ الرُّعبَ في قلوب الكفار، وتفعلُ نحو فعلِ الريح[1].

بلاغةُ الإبهامِ والتَّصريح في الآية:

العقلُ البشريُّ يدركُ الرّيحَ، ولا يدركُ الملائكةَ

إنَّما صرَّحَ بالرّيح، ولم يقلْ: جندًا؛ لأنَّ النّاسَ ترى الرّيحَ تقتلُ، وتدمِّرُ، وهو مألوفٌ لدى الناسِ، يعيه عقلُهُم البشريُّ، ويستوعبُ آثارَهُ، لكنَّهم لم يروا الملائكةَ تقتل، ولذلك قال ﷻ في الملائكة: ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، أيْ: (لم تَروها، ولم تدركوها، ولم تعقلوها بعقولكم، ولم تتعوَّدوا على مِثلها)؛ لذا جاءتْ مُبْهمةً؛ عبَّر عنها بالتَّعبير العامِّ ﴿وَجُنُودٗا﴾، ولا مانع من كونِ هذه الجنودِ الملائكةَ وغيرَ الملائكةِ، فكلُّ شيءٍ ينصرُ اللّٰه به عبادَهُ جندًا مستقلًّا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَجُنُودٗا﴾ وجمعِها:

كثرةُ الملائكةِ وعظمُ خلقتهم، وعظيمُ فعلِها في إرجافِ المتحزِّبين

الجنودُ جمعُ: جُنْد، بمعنى الجماعةِ من صنفٍ واحدٍ، وجاءتْ نكرةً؛ لتدلَّ بهذا على كثرةِ أعدادِ الملائكةِ وعظمِ خِلقتهم وبأسِهم، فهُم أصنافٌ كثيرون، ولتدلَّ على المبالغةِ في بيانِ المهمَّةِ العظيمةِ الَّتي أُرسِلوا بها لنصرِ المؤمنين، وإلقاءِ الرُّعبِ والخوفِ في قلوبِ المشركين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالصِّفة في: ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾:

جملةُ ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ صفةٌ لـ ﴿وَجُنُودٗا﴾، أي: جنودًا غيرَ مرئيَّةٍ[3]، ومن صفاتِ الملائكةِ أنَّهم جنودٌ للّٰهِ غيرُ مرئيَّةٍ، ودخولُ قتالٍ أو حرب مع عدوٍّ غير مرئيٍّ، أو مرئيٍّ على هيئةٍ غيرِ معتادة مما يبثُّ الرُّعبَ في صفوف الجنود.

فائدةُ وصفِ الجنودِ بأنَّها لا تُرى:

جاءَ وصفُ الجنود، وهم الملائكةُ في قوله تعالى: ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 457.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.
(3) درويش، إعراب القرآن: 7/ 606.

﴿تَرَوۡهَاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الرُّؤيةِ البصريَّة، وكونُ الملائكةِ لا تُرى، وهي تفعلُ هذا الفعلَ في معسكرِ المشركين والمتحزّبين ضدَّ المسلمين من بثِّ الرُّعبِ في قلوبِهم، وزلزلتِهم بالتَّكبير، واضْمحلالِ قيلهم وقالهم، فكان في ذلك رحيلُهم، كلُّ ذلك يكون أنْكَى بهم، وأرْجفَ لقلوبِهم وزلزلةِ أركانِهم، ممَّن يفعلُ ذلك كُلَّه، وهو لا يُرى، وإنَّما يُرى أثَرُ فعلِه وعظيمُ خَطَرِه(1).

عـــدمُ رؤيـــةِ الملائكة بالرُّغم من رؤيةِ عظيم فعلِها وخطير أثرِها

بلاغةُ المقابلةِ بين جنودِهم وجنودِ الله:

الحربُ في الحقيقة ليستْ كما نفهمُ نحن أنَّها بين المسلمين والكفّارِ، إنَّما الحربُ في الحقيقة بينَ اللّهِ والكفّارِ، والَّذي يُؤكّد ذلك آياتٌ كثيرةٌ تدلُّ على أنَّهم لا يُعجزون اللّهَ في الأرض ولا في السَّماء، فلو أنَّ اللّه ﷻ أرادَ الانتقامَ منهم بنفسِه لأهلكم.

الـــحـــربُ في الـحـقـيـقـة بين الله والكفار

وهذه سُنَّةٌ مُضطَّردة في كلِّ الأمم السّابقة أنَّه يُنزِّل عذابًا يُهلك بِه هذه الأممَ، ويستأصلُ شأفتَها مِن لدن آدمَ إلى زمنِ موسى عليه السلام، ثم جعلَ هذهِ الخصوصيَّةَ من خصوصيّاتِ هذهِ الأمَّة بأن جعلَ اللّهُ له جنودًا ينتصرُ بِهم على عدوِّه، وعلى هذا نفهمُ المقابلةَ ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾، لم يقلْ: (فقاتلتموها)، إنَّما قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾، فجنودُ اللّهِ مِنَ الرّيحِ والملائكةِ والنَّصرِ بالرُّعب وغير ذلك من الجنودِ الكثيرةِ الَّتي ذُكِرَت في القرآنِ، هي الجنود الَّتي ينتصرُ بها اللّه ﷻ على الكفّار في مقابلةِ جنودِهم.

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها حالٌ من لفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾(2)؛ للدِّلالة على أنَّ عِلمَ اللّهِ محيطٌ بمكرِ الكافرين، فيعلمُ ما يمكرون

عِلمُ الله محيطٌ بـمـكـرِ الـكـفّـارِ وإعداد المؤمنين

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 298 - 299.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.

بِهِ، وما يخطِّطون له، ويعملونَهُ في مواجهة المسلمين، ومحيطٌ كذلك بما يعدُّه المسلمونَ لهم، فينصرُ أولياءَهُ، ويخذلُ أعداءَهُ، بدعم أوليائِهِ بجندِهِ لنصرتِهم، وإضعاف أعدائِهِ وخذلانهم بجندِهِ أيضًا.

نكتةُ دخولِ (كان) على الجملة:

تحقُّق علمِ اللهِ بأعمالِ المسلمين والكافرين في سائرِ الأزمان

(كان) يدلُّ على الزَّمنِ الماضي، ولكنَّهُ في حقِّ اللّهِ يدلُّ على الدَّيمومة والاستمراريَّة، فاللّهُ تعالى كان يعلمُ، وهو كذلك في الحاضرِ وفي المستقبل، بل لا يوجدُ في حقِّ اللّهِ زمنٌ، كما هو الحالُ في حقِّ النّاس؛ لأنَّ اللّهَ تعالى كان قبل الزَّمانِ، وهو خالقُ السَّلام، ولكنَّ ورودَ الفعلِ (كان) هنا بارْتباطِه بما وراءَهُ يدلُّ على التَّحقُّق الجازمِ الَّذي لا رَيْبَ فيه، أي: الحالُ أنَّ اللّهَ تعالى عليمٌ تمامَ العلم بأحوالِ المسلمين، وبما يُكابدونَه من مشقَّةٍ اسْتعدادًا لردِّ عدوانِ المتحزِّبينَ ضدَّهم[1]، وهو عليمٌ كذلك بأحوال الكافرين وما يعملونه مِنَ التحرُّز والمحاربة وإغراء بعضِهم بعضًا.

نكتةُ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الصِّدقُ في الإيمانِ والأخذُ بالأسباب سببانِ لنصرة الله

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾، أي: جعَلْنا ما أنتم عليه - أيُّها المسلمونَ - من مكابدةِ المشاقِّ في حفرِ الخندقِ وغيرِه مِن الصِّدقِ في الإيمانِ وغيرِه أنْ دبَّرْنا في هذه الحربِ ما جعلَكم تنتصرونَ دونَ قتالٍ، وجعَلْنا ذلك كذلك سببًا لإغنائِكم بأموالِ بني قُريْظةَ ونسائهم وأبنائهم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(ما) وموقعُ الجملةِ بعدَها:

(ما) اسْمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي) والجملةُ بعدها ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلةُ الموصول، لا محلَّ لها من الإعراب، أي: وكانَ اللّهُ بالَّذي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

تعملونه بصيرًا[1]، ويمكنُ أن تكونَ (ما) مصدريَّة، أي: وكان اللّهُ بعملِكم بصيرًا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الفعلُ المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يدلُّ على التَّجدُّدِ والاسْتمرار، أي: بما تعملونه من أعمالِ الإيمان، وبأخذِكم الأسبابَ المترتِّبة على الإيمان، وبما تستعدّونَ بهِ لملاقاةِ عدوِّكم مِن حفرِ الخندق، والتَّضرُّعِ إلى اللّهِ لنُصرتِكم وهزيمةِ أعدائكم، فأنتم دائبونَ مستمرّون على ذلك، لا تتوانَون، ولا تُقصِّرون.

اسْتمرارُ المسلمينَ في اجْتهادِهم في أعمالِ الإيمان، والاسْتعدادِ لقتالِ الأعداء

بلاغةُ القراءاتِ المتواترة في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ قراءتان متواترتان[3]:

الأولى: قراءةُ أبي عمرو، فيقرأُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بياء الغَيبة، أي: بما يعملُه الكفّارُ من التَّحرُّزِ والمحاربة، وإغراءِ بعضِهم بعضًا عليها، حرصًا على إبطالِ حقِّكم، أو بما يعملونَه مِنَ الكفرِ والمعاصي.

اللّهُ تعالى بصيرٌ بما يعملُهُ الخلق جميعًا

والثّانيةُ: قراءة بقيَّةِ القرّاء، فيقرَؤونَ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ، أي: بما تعملونَ - أيُّها المسلمون - مِن حفرِ الخندق، وترتيبِ مبادئ الحربِ إعلاءً لكلمةِ اللّهِ تعالى، أو: بما تعملونَ مِنِ التجائكم إليه تعالى ورجائِكم مِن فضلِه ﷻ[4]، أو: بما تَعملونَ أيُّها المسلمونَ والكافرون[5]، أو أيُّها المخاطَبونَ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حذْفُ مفعولِ الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ مع الاخْتصارِ[6]،

الدّلالةُ على العمومِ في أفعالِ المسلمينَ والكافرينَ

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 606.
(2) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20.
(3) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 518، وابن الجزري، تحبير التَّيسير في القراءات العشر، ص: 510.
(4) مكّي ابن أبي طالب: 2/ 193، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 404.
(5) وهذا التَّوجيه رجَّحه مكّي، الكشف: 2/ 193، وقال: "فالجميع داخلون في المخاطبة فهو أبلغ، وهو الاختيار، لأنَّ الأكثر عليه".
(6) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 135، 137.

فحذْفُ المفعولِ هنا يفيدُ جميعَ ما يعملُهُ المسلمون مِن حفرِ الخندقِ والإعدادِ الإيمانيِّ، والإعدادِ الحربيِّ بالعَددِ والعَتاد، والاسْتنصارِ باللّهِ، والتَّوكُّلِ عليه، وجميع ما يتوفَّرُ ويتوافرُ عندهم من وسائلَ تُحقِّقُ لهم النَّصرَ بإذنِ اللّه، وكذلك فإنَّ في حذفِ المفعولِ تعظيمًا لشأنِه[1]، فإنَّ ما يعملُهُ المسلمون ممّا سبقَ ذكرُهُ له شأنٌ عظيمٌ عندَ اللّهِ؛ لأنَّه كلَّهُ مِنَ الإعدادِ العمليِّ للجهادِ في سبيلِ اللّهِ ونُصرةِ دينِه تعالى.

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

تخصيصُ أعمالِ المسلمين وأهميَّتُها، واتِّساع علمِ الله لسائر الأعمال

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرًا﴾، والأصلُ أن يؤخَّر؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ أعمالِهم الَّتي يقومون بها؛ إعدادًا لقتالِ أعدائهم كونها محلَّ إبصارِ اللّهِ لها، ولأهميَّتِها في جانبِ الجهادِ في سبيلِه، وعظيمِ شأنِها عند اللّهِ تعالى[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿بَصِيرًا﴾:

الوصولُ بالعلمِ إلى درجة اليقينِ المُفضي إلى نصرةِ المسلمين والانتقام مِن الكافرين

أقوى أنواعِ العلم من حيثُ الحواسُّ، هو العلم المبنيُّ على الإبصارِ والرُّؤيةِ، فليس بعد العينِ أَيْنٌ، وما راءٍ كمَن سَمِعَ، ولذلك يكادُ يُجمعُ اللُّغويّون على أنَّ مادة (بصر) بالشّيء، بمعنى: عَلِمَ بِهِ عِلمًا مبنيًّا عن بصرٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة فعيل: ﴿بَصِيرًا﴾:

تَمكُّنُ الصِّفةِ مِنَ الموصوف والمبالغةُ في متعلِّق صفةِ العِلمِ لله تعالى

صيغةُ فعيلٍ (بصير) يحتمل أنْ تكون صفةً مُشبَّهةً باسم الفاعلِ مِن الفعلِ (بَصُرَ) الدالِّ على لصوق الصِّفة بالموصوفِ، وعدم انفكاكِها عنه على أيَّة حالٍ، ويحتمل أن تكونَ صيغةَ مبالغةٍ على وزن (فعيل)[3]، والمبالغةُ لا تكونُ في ذات الصِّفة؛ لأنَّ صفاتِ اللّه في أعلى درجاتِ الكمالِ، لا تفاضُلَ فيها باعتبار ذواتِها، فالمبالغةُ

---

(1) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 137.

(2) فضل عبَّاس، أساليب البيان، ص: 107.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 41.

فيها باعتبارِ متعلّقاتها، فوصفُ (فعيل) هاهنا أعمُّ في المتعلّق؛ لأنَّ البصرَ الَّذي يترتَّب عليه العلمُ واسعُ التَّعلُّق، لا يحتاجُ إلى سببٍ كالمغفرةِ مثلًا، فإنَّها تحتاجُ إلى ذنبٍ يُغفَرُ وإلى مُذنبٍ مخلوق يُغفر له، وهي ومتعلّقاتها موجودةٌ قبل الخلقِ، ثم إنَّ في احتمال الصيغة للصِّفة المُشبَّهة والمبالغة زيادةً في اتِّساع المعنى.

تـذيـيـلٌ جـارٍ مجرى المثل

موقعُ جملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾:

موقعُ جملةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ في موقعِ الحالِ من اسمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وتذييلُ الآية بصفةِ ﴿بَصِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللّهَ نصرَهم على أعدائِهم؛ لأنَّه عليمٌ بما لقيَه المسلمونَ مِنَ المشقَّةِ والمصابرةِ في حفرِ الخندق، والخروجِ من ديارِهم إلى معسكرِهم خارجَ المدينةِ، وبَذْلهمُ النُّفوسَ في نصرِ دينِ اللّه، فجازاهُم بالنَّصرِ المبين، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [الحَجّ: 40][1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَصِيرًا﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾؛ للدَّلالة على بالغِ إبصارِه ﷻ وعِلمِهِ الواسع[2].

غرضُ المبالغةِ في ﴿بَصِيرًا﴾:

تدبيرُ اللهِ ما فيه عـزَّةُ المسلمين وهوانُ المشركين

المبالغةُ في إظهارِ صفةِ البصرِ للّهِ تعالى في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّه ﷻ دبَّرَ في هذه الحربِ ما كان المسلمون به الأعْلَيْنَ، والمشركونَ بهِ الأسْفلين الذَّليلين، ولم تنفع أهلَ الشِّرك قوَّتُهم شيئًا[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 279.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ
ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠
هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ [الأحزاب: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبلَهُما:

إظهارُ النِّعمةِ بتفصيلِ كيفيَّة مجيءِ الأحزاب بعد ذِكْر مجيئهم مُجملًا

لَمّا دبَّر اللهُ تعالى في هذه الحربِ ما كان المسلمونَ بِه الأعْلَيْن، ولم ينفعْ أهلَ الشِّرك قوَّتُهم، وجعَلْنا ذلك سببًا لإغنائِهم بأموالِ بني قُريْظةَ ونسائهم وأبنائهم وشفاءً لأدواتِهم بإراقةِ دمائهم؛ ذكَّرهمُ الشِّدَّةَ الَّتي حصلَتْ بتمالُئِهم، فقال مُبدِّلًا من ﴿إِذۡ﴾ الأولى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم﴾، أي: الجنودُ المذكورونَ بادئًا بالأقْربِ إليهم؛ لأنَّ الأقربَ أبْصرُ بالعَورةِ، وأخبرُ بالمضرَّة، وهم بنو قُريظةَ وأسدُ وغطفانُ، فقال: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، أي: أسفلَ مِن جهةِ الأرض.

الخوفُ فطرةٌ إنسانيَّة

ولَمّا ذكَّرهم بالمجيءِ الَّذي هو سببُ الخوف؛ ذكَّرهم بالخوفِ بذكرِ ظرفِه أيضًا مفخِّمًا لأمرِه بالعَطْف، فقال: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ من شدَّةِ الرُّعب، ولَمّا نشأ عن ذلك تقلُّبُ القلوبِ، وتفاوتُ الإيمانِ فيها، قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، ولَمّا كانت الشِّدَّةُ في الحقيقةِ إنَّما هي للثّابت؛ لأنَّه ما عندَه إلّا الهلاكُ أوِ النُّصرة، قال: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَاغَتِ﴾: (زيغ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الشَّيْءِ[2]، والزَّيغ: مُطلقُ المَيْل، وكَثُرَ استعمالُهُ في المَيْلِ عنِ الاستقامةِ والاعتدال،

(1) البقاعي، نظمُ الدُّرر: 15/ 300 - 303.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).

والتَّزايُغُ: التَّمايلُ، وزاغتِ الشَّمسُ: مالت، ورَجُلٌ زائغٌ، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: 5]، وذلك لمّا فارقوا الاستقامة؛ عاملَهم بذلك[1].

2) ﴿ٱلۡحَنَاجِرَ﴾: (حنجر) الحَناجِرُ: جمعُ حَنْجرَة، وحُنْجور، والحُنجورُ: الحُلْقومُ، والحَنْجرةُ: رأسُ الغَلْصَمة مِن خارج، والغَلْصمَةُ: رأسُ الحُلْقوم، وهي الموضعُ النّاتِئَ في الحَلْق[2]، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾، أيْ: رفعتِ الرِّئةُ القلبَ، وانتفخَتْ حتَّى صارَتْ عند الحنْجرة؛ فلم ترجِعْ، ولم تخرُجْ[3].

3) ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾: (زلّ) زَلَّ فلانٌ عن مكانِه وزَلْزَلَهُ غيرُه يُزَلزِلُهُ، والزِّلزالُ: الشِّدَّةُ، والزَّلازل: الشَّدائدُ، وأصلُها مِنَ التَّحريك، أي: وزَلْزَلَ عليهم، أي: شدَّدَ عَليهم، وهوَّل[4]، والزلزلةُ: الحركةُ الشَّديدةُ، أو شدَّة الحركةِ، وتكونُ في الأشْخاصِ والأحوالِ والأماكِنِ[5]، والزِّلزالُ بالكسرِ: المصدرُ، والزَّلزالُ بالفتحِ: الاسْمُ[6]، وقولُه تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾، أي: أُزْعِجوا بالخَوْفِ إزعاجًا شديدًا[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرٌ دقيقٌ للشَّدائد في غزوة الخندق

يُخبِرُ اللّهُ تعالى أنَّ الأحزابَ جاؤوا المدينةَ لقتالِ المسلمين مِن أعلَى الوادي، وهو من جهةِ المشرق، وهم غطفانُ، وهوازنُ، وأهلُ نَجْدٍ، وبنو النَّضير، وجاؤوا كذلك مِن أسْفلِ الوادي مِن جهةِ المغرب مِن ناحيةِ مكَّةَ، وهم قُريشٌ ومَنْ معهم من الأحابيش، ويهود بني قُرَيْظةَ مِن وجهِ الخندق، وفي هذه الحالِ مالتِ الأبصارُ، وبلغَتِ

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفردات: (زيغ).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حنجر)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (حجر).
(3) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 336.
(4) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 348، والرَّاغب، المفردات: (زلزل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زل - زلزل).
(6) الفرَّاء، معاني القرآن: 3/ 283.
(7) الفرَّاء، معاني القرآن: 4/ 219، والزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254.

القلوبُ الحناجرَ مِن شدَّة الخَوْفِ والفَزَع، وهنا ظنَّ بعضُ مَنْ كان مع رسولِ اللّه ﷺ أنَّ الدّائرة على المؤمنينَ، وأنَّ اللّهَ سيفعلُ ذلك، وظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ، ونَجمَ النِّفاق، وفي هذه الحالِ الصَّعبِ الشَّديد، ابْتُلِيَ المؤمنون، واخْتُبِروا، وزلْزِلوا زلزالًا شديدًا، حيثُ المسلمونَ - وهم محصورونَ - في غايةِ الجَهْدِ والضّيق، ورسولُ اللّهِ ﷺ بين أظهُرِهم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾:

بيانٌ وتفصيلٌ لنعمةِ اللهِ على المؤمنين بعد ما كانوا فيه مِنَ الشَّدائدِ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ مُبدَلًا مِنَ ﴿إِذْ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، وذلك للتذكيرِ للمُسلمين بالشِّدَّةِ الَّتي حصلَتْ لهم بِتَمالُئِ أعدائِهم وتحزُّبهم ضدَّهم(2)، وقوبِلَتْ بنعمةِ تأييدِهم ونصرِهم مِنَ اللّهِ ﷻ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِذْ﴾:

تذكُّرُ زمانِ مجيءِ الأحزابِ مِن جميعِ الجهاتِ

قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ في الآيةِ السّابقة بدل كلٍّ من كُلٍّ(3)، أو مفصَّلٍ من مُجمَل، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ للزَّمن الماضي، وهي متعلِّقةٌ بما تعلَّقت به ﴿إِذْ﴾ الأولى، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ زمانَ جاؤوكم مِن فوقِكم ومِن أسفلَ منكم، فهزمَهمُ اللّهُ، وردَّهم خائبين(4)، وفي هذا التفصيلِ زيادةُ إدراكٍ ومعرفةٌ بقيمةِ هذه النِّعمة على المؤمنينَ.

نكتةُ العدولِ عن ﴿جَآءَتْكُمْ﴾ إلى ﴿جَآءُوكُم﴾:

نزولُ جيوشِ الكفّارِ في أماكنَ مختلفةٍ بقصدِ الإحاطةِ بالمسلمين

قوله: ﴿جَآءَتْكُمْ﴾ إشارةٌ إلى المفردِ المؤذنِ بالجماعةِ، حيث أُسنِدَ إلى ﴿جُنُودٌ﴾، وفي قوله: ﴿جَآءُوكُم﴾ جمعٌ أُسنِد إلى ضميرِ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 439، 441، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 348 - 349.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.
(3) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 154.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 277، 280.

الغائبينَ، أي: جاؤوكُم هم، والمرادُ: الجنودُ المجموعونَ من قبائلَ عديدة، ولكلِّ قبيلةٍ جيشٌ، خرجوا متساندين لغَزوِ المسلمينَ في المدينةِ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّهم جيوشٌ كثيرةٌ مختلفةٌ، ونزلوا أماكن عدَّةً بقصد الإحاطةِ بالمسلمين، ثم إنَّ واوَ الجماعة تشيرُ إلى كثرة عدد هذه الجيوشِ، ولكلِّ جيشٍ منها قائدٌ.

بلاغةُ عودِ الضَّمائر في ﴿جَآءُوكُم﴾:

الضَّمائرُ في قوله تعالى: ﴿جَآءُوكُم﴾ تعودُ إلى الجنودِ المذكورين، بادئًا في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾، وكافُ الخطابِ للمسلمين؛ للدِّلالة على أنَّ مجيءَ الأحزابِ لقتالِكم هو هدفُهم الأوَّلُ وقصدُهم الأصيل، وهنا تعبيرٌ عن الأقْربِ منهم فالأقْرب؛ لأنَّ الأقربَ أبصرُ بالعوْرةِ وأخبرُ بالمضرَّةِ[2]، وفيه تحذيرٌ للمسلمينَ؛ ليكونوا على أهُبَّةِ الاسْتعدادِ لملاقاتِهم بادئَ ذي بدءٍ.

المجيءُ لقتالِكم هو هدفُ الأحزاب الأصيل

بلاغةُ التعبير بـ(مِنْ): ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ و﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ و﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ تفيدُ التَّبعيضَ، وذلك أنَّه لمّا كان من المعلومِ أنَّهم لم يحيطوا بالمؤمنينَ مِن كلِّ الجهات، ولم يُطْبِقوا ما عَلا، وما سَفل، بل هو بعضُ كلٍّ منهما؛ أدْخلَ أداةَ التَّبعيضِ؛ تصويرًا لتمامِ الوصفِ والحالِ بدقَّةٍ تامَّة[3].

جنودُ الأحزابِ لم يحيطوا بالمسلمينَ من كلِّ الجهات

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفوقيَّة بدل العلوِّ:

قال اللّهُ ﷻ: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ ولم يقلْ: مِن أعلاكم في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾، حتى يقابلَ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾؛ إذِ الأسفلُ يقابلُه الأعلى، حتى لا يثبتَ للأحزابِ وصْفُ العلوِّ؛ لأنَّ الكافرَ لا يعلو المسلم أبدًا.

عدمُ وصفِ الأحزاب بالعلوِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

دلالةُ الفوقيَّةِ والسُّفليَّةِ بين الحقيقةِ والمجاز:

إحاطةُ الجنودِ بالمسلمين من جميعِ جهاتِ المدينة

إيرادُ جهتَي الفوقيَّةِ والسُّفليَّةِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ على وجهِه الظّاهر، أي: جاؤوكم مِن فوقِكم، أي: مِن أعَلَى الوادي من جهةِ المشرق، ومن أسفلَ منكم، أي: مِن أسفل الوادي مِن قِبَلِ المغرب[1]، ويحتملُ أن يكونَ من فوق ومن أسفلَ على جهةِ المجازِ، أي: كنايةً عن الإحاطةِ من جميعِ الجوانب، كأنَّه قيل: إذْ جاؤوكم محيطينَ بكم، كقوله تعالى: ﴿يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55][2].

نكتةُ التَّرتيبِ في: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾:

مَنْ كان فوقَ هو أقربُ لمن تحتَهُ بإيقاعِ المضرَّة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الفوقيَّةَ على السُّفليَّةِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾؛ للبدءِ بالأقْربِ مِن جنودِ الأحزابِ إلى المسلمين؛ لأنَّ الأقْربَ أبْصَرُ بالعَورةِ وأخبرُ بالمضرَّة، وفي تقديم الفوقيَّةِ تحذيرٌ لجيشِ المسلمينَ مِن أن يُؤْخَذوا على حينِ غِرَّةٍ، فإنَّ مَن فوقَهم ألْصَقُ بهم، وأمكَنُ بهم ممَّن هم أسفل منهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّسفُّلِ بدل التَّحتيَّةِ المقابلة للفوقيَّة:

إثباتُ صفةِ التحتيَّةِ الحسيَّة وصفةِ التَّسفُّلِ المعنويَّة

ذكر ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ في مقابلِ ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾، وكان مِن المتبادرِ أن يقول: من تحتكم؛ للدِّلالة على أنَّهم جمعوا بينَ التَّحتيَّة المكانيَّة الحسيَّة التي نتجت عن وجودِهم بالفعل، مع التَّسفُّل المعنويِّ الذي كان نتاجًا لكفرِهم.

نكتةُ العدولِ إلى قولِه: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾:

مقابلةُ جهةِ السُّفلِ من الأرضِ لجهةِ العُلوِّ منها

لَمّا كانَ المُرادُ الفوقيَّةَ من جهةِ عُلوِّ الأرض؛ أوْضحَها النَّظمُ الكريمُ بقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ دون أن يقولَ:

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 404، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 348 - 349.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 154.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 300.

أسْفلَكم، وأفادَ ذلك أيضًا أنَّ مَنْ في أسفلَ إنَّما أحاطوا ببعضِ جهةِ الرِّجال فقط[1].

معنَى (مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ للتَّبعيضِ، أي: مَنْ كانوا أسفلَ بعضِ مِن جنودِ المسلمين، فإنَّ مَن كانوا أسفلَ منكم إنَّما أحاطوا ببعضِ جهتِكم لا جميعِها[2].

بلاغةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

تفخيمُ أمرِ الخوفِ بذكرِ ظرفِه بأداةِ العطف

لَمّا ذكَّرَ النَّظمُ الكريمُ المسلمينَ بمجيءِ الجيوشِ المُتحزِّبةِ ضدَّهم الَّذي هو سببُ الخوفِ؛ ذكَّرَهم بالخوفِ بذِكْرِ ظَرفِه أيضًا، فاختصَّهم مِن ذِكْرِ الخوفِ العامِّ بذِكْرِ ظرفٍ خاصٍّ منه مُفخِّمًا لأمرِه بالعطفِ بأداتِه (الواو)، فقال: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3]، فهو عطفٌ على ما قبلَهُ داخلٌ معه في حُكْمِ التَّذكير[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(إذْ) في: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾:

اذْكروا نعمةَ اللهِ عليكم بالتَّأييدِ والنَّصرِ حين تحقَّقَ زَيَغانُ الأبصار

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ صُدِّرَ بـ(إذْ) الَّتي تعني: الظَّرفيَّةَ الزَّمانيَّةَ الماضيةَ، أي: واذْكروا حينَ زاغتِ الأبصارُ[5]، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿نِعْمَةَ﴾ لما فيها مِن معنى الإنعام، أي: اذْكروا ما أنْعَمَ اللّٰهُ بهِ عليكم زمانَ إذْ زاغتِ الأبصارُ في ذاكَ الموقفِ العصيب، فأيَّدَكُمُ اللّٰهُ بالرّيحِ والملائكةِ[6]، وصلةُ (إذْ) بالفعلِ الماضي بيانٌ لحالةٍ عرَضَتْ، وتحقَّقتْ، ثمَّ كانَ مِن أمرِها أنَّها زالَتْ، وثبتَتْ إلى انْقضاءِ الأمرِ؛ فعبَّر عنها بالماضي لذلك[7].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 301.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 301.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 301.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 404.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 301.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 277، 280.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 302.

بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

قوله تعالى: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ كنايةٌ عن شدَّةِ الدَّهشةِ والحَيْرةِ النّاتجةِ عن شدَّةِ الهَلَعِ والرُّعبِ، وهو تمثيلٌ للمَيْلِ عنِ الاسْتواءِ إلى الانحرافِ، فَزَيْغُ البصرِ ألّا يرى ما يتوجَّهُ إليه، أو أن يريدَ التَّوجُّهَ إلى صَوْبٍ، فيقعَ في صوبٍ آخرَ مِن شدَّةِ الرُّعبِ والانْذعارِ[1].

ميلُ الأبصارِ عن وِجْهتِها من شدَّةِ الرُّعبِ والهَلَع

دلالةُ (أل) التعريفيَّة في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ و﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ و﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

(أل) التَّعريفُ في الأبصارِ والقلوبِ والحناجرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ للعهدِ، أي: أبصارُ المسلمينَ وقلوبُهم وحناجرُهم، ولذلك يجعلُها بعضُ العلماءِ عِوضًا عنِ المضافاتِ إليها، أي: زاغَتْ أبصارُكم، وبلغَتْ قلوبُكم حناجرَكم[2].

أبصارُ المسلمين وقلوبُهم وحناجرُهم أصابَها ما أصابَها من شدَّةِ الخوف

بلاغةُ المجاز: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

بلوغُ القلوبِ الحناجرَ في قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ تمثيلٌ لشدَّةِ اضطرابِ القلوبِ مِنَ الفَزَعِ والهَلَعِ حتَّى كأنَّها لاضْطرابِها تتجاوزُ مقارَّها، وترتفعُ طالبةً الخروجَ مِنَ الصُّدورِ، فإذا بلغَتِ الحناجِرَ؛ لم تستطِعْ تجاوزَها مِنَ الضّيقِ، فشُبِّهَتْ هيئةُ قلبِ الهَلوعِ المرعودِ بهيئةِ قلبٍ تجاوزَ موضعَهُ، وذهبَ مُتصاعدًا طالبًا الخُروجَ، فالمُشبَّهُ القلبُ نفسُه باعْتبارِ اخْتلافِ الهيئَتَيْنِ[3].

تصويرُ شدَّةِ الهلعِ والخوفِ

نكتةُ التَّقديمِ على بلوغِ القلوبِ الحناجرَ:

لَمّا ذكَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالمجيءِ في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الَّذي هو سببُ الخوفِ، ذكَّرَهم بالخوفِ بذكرِ ظرفِه أيضًا مُفخِّمًا لأمرِه بالعطفِ، فقال: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لأنَّ الغفلةَ النّاشئةَ عنِ الدَّهشةِ الحاصلةِ مِنَ

الخوفُ يتجلَّى أوَّلًا في زَيغانِ الأبصارِ، ثمَّ في بلوغِ القلوبِ الحناجرَ

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 253، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 20، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 280.

الرُّعب، إنَّما تظهرُ جليَّةً أوَّلَ ما تظهرُ على الأبصارِ؛ إذْ تميلُ عن سدادِ القصدِ فعلَ الوالِهِ الجَزِعِ، ثمَّ يحدثُ بعد ذلك بلوغُ القلوبِ الحناجرَ؛ كنايةً عن شدَّةِ الرُّعبِ والخَفقان[1].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ للحال، أيْ: والحالُ أنَّكم - وفي هذا الوقت العَصيب، وقد جاءكم أعداؤكم مِن فوقِكم ومِن أسفلَ منكم، وزاغتِ الأبصارُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ - تظنّون باللهِ الظُّنونَ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

تجدُّدُ الظُّنونِ واستمرارها لطولِ مدَّة البلاء

جيءَ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ تلك الظُّنونِ بتجدُّدِ أسبابها؛ كنايةً عن طولِ مدَّة هذا البلاء[3] وشدَّته، وكذلك فإنَّ فيها استحضارَ الصّورة، والدَّلالة على الاسْتمرارِ[4] مع التَّجدُّد.

نكتةُ حذفِ مفعولَي الظَّنِّ:

الحذفُ اقْتصارًا يدعو السّامعَ إلى تقدير ما يناسبُ السّياق

حُذِف مفعولا ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ بدونِ وجودِ دليلٍ يدُلُّ على تقديرِهما، فهو حذْفٌ لتنزيلِ الفعلِ منزلةَ اللّازم، ويُسمَّى هذا الحذفُ عند النُّحاةِ الحذفَ اقْتصارًا، أي: للاقْتِصارِ على نسبةِ فعلِ الظَّنِّ لفاعلِه، والمقصودُ مِن هذا الحذفِ أن تذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكِن، وهو حذفٌ مستعملٌ كثيرًا في الكلام الفصيح، وعلى جوازِهِ أكثرُ النَّحويّين، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾ [النَّجم: 35][5].

بلاغةُ الإدْماجِ في الظَّنِّ:

إدْماجُ العتابِ بالامتِنانِ مُظهرُ التَّعجيبِ مِنَ الظُّنون، وتفاوت أنظارِ أهلِها

في صيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معنَى التَّعجيبِ مِن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 281.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 281.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 155.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 281.

ظنونِهم لإدماجِ العتابِ بالامْتِنان، فإنَّ شدَّةَ الهَلَعِ الَّذي أزاغَ الأبصارَ، وجعلَ القلوبَ بمثلِ حالة أن تبلُغَ الحناجرَ، دلَّ على أنَّهم أشْفقوا من أن يُهزَموا؛ لِما رأوا من قوَّةِ الأحزابِ وضيقِ الحصارِ، أو خافوا طولَ مدَّةِ الحربِ وفناءَ الأنفُسِ، أو أشْفقوا مِن أن تكونَ مِن الهزيمةِ جراءةٌ للمشركين على المسلمين، أو نحو ذلك مِن أنواعِ الظُّنون، وتفاوُتِ درجاتِ أهلِها[1].

بلاغةُ التَّضمينِ في ﴿وَتَظُنُّونَ﴾:

ضُمِّنَ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معنَى تُلحِقون، أي: تُلحِقونَ باللهِ الظُّنونَ، وقولُهم: ظننْتُ به، معناه: جعلتُه موضعَ ظنّي، فعُدّي لذلك بالباء[2].

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الدِّلالةُ على الفعلِ المحذوفِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ للمُلابَسَة، وليسَتِ الباءُ هنا بمنزلتِها في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النِّساء: 6]، أي: ليستْ داخلةً على الفاعلِ، والتَّقديرُ: وتُلحقونَ باللهِ الظُّنون.

وقيل: إنَّ الباءَ بمعنَى (في)، فمجرورُها معمولٌ للفعلِ قبلَها، كأنَّك قلت: ظننتُ في الدّار، ومثلُه: شَكَكْتُ فيه، أي: فالباءُ بمعنَى (في).

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

اللهُ أجلُّ وأعظمُ من أن يُخلِفَ وعدَه بالنَّصرِ لمَنْ تحقَّقَ بأسبابِه

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ شِبْهَ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ للدَّلالةِ على مزيدِ اللَّومِ والإنكارِ؛ لِما وصلَ إليه حالُ بعضِ المسلمين وحالُ المنافقين واليهودِ من سوءِ الظَّنِّ بالله، أي: في تحقُّقِ وعدِه بالنَّصرِ للمسلمين، فقُدِّمَ لفظُ الجلالةِ ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ رعايةً واهتمامًا كبيرًا بمَنْ له صفاتُ الكمال، فلا يلمُّ نقصٌ ما بساحةِ عظمتِه، ولا يدنو شيءٌ من شيءٍ إلى جنابِ عزَّتِه ﷻ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 281.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 281.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 302.

بلاغةُ (أل) في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾:

شمولُ أجناسِ الظُّنون الكثيرة كلَّ أنواعِ النّاس وأفرادهم

(أل) في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ للجنس أو الاستغراق، فأمّا على الجنسِ؛ فهي جِنْسٌ لأنواعِ الظَّنِّ، إمّا بالنِّسبةِ إلى الأشخاصِ؛ فواضحٌ، وذلك بحسبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِه، وإمّا بالنِّسبةِ إلى الشَّخصِ الواحدِ؛ فبحسَب تغيُّرِ الأحوال، فتارةً يظنُّ الهلاك للضَّعف، وتارةً النَّجاة؛ لأنَّ اللّهَ قادرٌ على ذلك، وتارةً يظنُّ المنافقون أنَّ المسلمين يُستأصَلون، ويظنُّ المؤمنون أنَّهم يُبتَلون[1]، وأمّا على الاستغراقِ؛ فتكونُ الظُّنون على اختلاف أجناسِها شاملةً كلَّ أنواعِ الناس وأفرادهم.

بلاغةُ ذِكْرِ المفعول المُطلق: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ انْتصبَتْ على المفعولِ المطلَقِ المؤكِّدِ المبيِّنِ للعددِ أو النَّوعِ، فهو جمعُ ظنٍّ يفيدُ أعدادًا وأنواعًا مِنَ الظُّنون[2].

بلاغةُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾:

الإشــــارةُ إلى قــوَّةِ الـظُّـنـونِ وضعفِها

في قولِه تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ أربعُ قراءاتٍ متواترةٍ[3]، **الأولى**: بإثباتِ الألفِ في الوصلِ والوقف، وفيها إشارةٌ إلى اتِّساعِ الأفكار، وتشعُّبِ تلك الخواطر، **والثّانية**: بحذفِ الألفِ وصلًا ووقفًا، وفيها إشارةٌ إلى ضعفِ الخواطر في هذا الشَّأن، وعدم اتِّساعِ الأفكارِ في هذه الحال، أمّا **القراءةُ الثّالثة**؛ فبإثباتِ الألفِ وقفًا، وحذفِها وصلًا، وفيها إشارةٌ إلى اخْتلافِ الحالِ تارةً بالقوَّة، وتارةً بالضَّعف، **والقراءةُ الرّابعة**: بحذفِ الألفِ في الوصلِ، وإثباتِها في الوقفِ، وفيها إشارةٌ إلى اخْتلافِ الحالِ تارةً بالضَّعف، وتارةً بالقوَّة[4].

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 253، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 282.

(3) الأولى قراءة نافع، وابن عامر، وشعبة أبي بكر عن عاصم، وأبي جعفر، والثَّانية قراءة أبي عمرو، وحمزة، ويعقوب، والثَّالثة قراءة خلف، والرَّابعة قراءة ابن كثير وحفص عن عاصم، والكسائي، يُنظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 519 - 520، وأبو عمرو، التّيسير، ص: 178، وابن الجزري، تحبير التَّيسير، ص: 511.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303، ومكّي ابن أبي طالب، الكشف: 2/ 195، وابن خالويه، الحجّة، ص: 289، وابن زنجلة، حجَّة القراءات، ص: 572 - 574، والعكبري، إملاء ما مَنَّ به الرَّحمن: 2/ 191.

نكتةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾:

فصلَ ما بين حالِ العامَّة الذين يختلفون في إيمانِهم وحال المؤمنين

جاء قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ ترجمةً لحالِ المؤمنين في تلك الدّاهيةِ الشَّديدةِ والواقعةِ المرعِبة، بعد ترجمةِ حالِ الجميع مِنَ المؤمنين والمنافقين على اختلافِ درجات المؤمنين في إيمانِهم، لذلك اختلفَتْ ظنونُهم فجُمِعَت، فالشِّدَّةُ في الحقيقةِ إنَّما هي للثّابتِ على دينِه؛ لأنَّهُ ما عنده إلّا الهلاكُ أو النُّصرة، وأمّا المنافقُ فيُلْقي السَّلَمَ، ويُدخِلُ دارَه الذُّل بالموافقة على جميع ما يُرادُ منه[1].

نكتةُ الإشارةِ باسمِ الإشارةِ البعيد ﴿هُنَالِكَ﴾:

بُعْدُ رتبةِ ما حدثَ بالزَّمانِ والمكان

الإشارةُ بالظَّرفِ في قولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ للمكانِ البعيد، أي: في ذلك المكانِ الدَّحْض، وهو الخَنْدق، ويمكنُ أن يكونَ ظرفَ زمانٍ لما حدثَ مِن ابتلاءٍ شديدٍ في ذاك الوقتِ العصيبِ على المسلمين وأعدائِهم[2]، وأيًّا كانت هذه الإشارةُ للمكانِ أو الزَّمان، فإنَّها تعبيرٌ عن بُعدِ الرُّتبةِ في كليهما[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱبۡتُلِيَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في الابتلاءِ ثبت المؤمنون، وظهرَ إخلاصُهم لله

الابْتلاءُ: أصلُه الاخْتبارُ الَّذي فيه بليَّةٌ وشدَّةٌ، ويُطلَقُ كنايةً عن إصابةِ الشِّدَّة؛ لأنَّ اخْتبارَ حالِ الثَّباتِ والصَّبرِ لازمٌ لها، وجاءَ بصيغةِ البناءِ للمجهولِ؛ تعبيرًا عمّا حدَث ومضَى، وإشارةً إلى أنَّ ذاك الابتلاءَ مع شدَّتِه، لم يُزَعْزِع إيمانَ المسلمين، بل زادَهم إيمانًا[4]، وتأدُّبًا مع اللّه تعالى في عدمِ نسبةِ الابتلاءات والشَّدائد إليه سبحانه، على حدِّ قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]، وللدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ إنَّما هو معرفةُ المخلِصِ من غيرِه، مع العلمِ أنَّ فاعلَ ذلك

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 99.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 283.

هو الَّذي له الأمرُ كلُّه ﷻ(1)، وذِكرُ الابْتلاءِ مِن بابِ التَّمثيل، والمُرادُ: عامَلَهم ﷻ معاملةَ المختبِر، فظهرَ المخلِصُ مِنَ المنافق، والرّاسخُ مِنَ المُتَزَلْزِل(2).

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أل) الموصولة في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

كـلُّ المـؤمـنـينَ المخلصينَ الثّابتين في الابتلاءِ يستحقّون نصرَ اللهِ

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ مِن صيغ العُموم، وإن خصَّص السّياقُ في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ هذا العمومَ، فقد بقي هذا العمومُ إلى يوم القيامةِ بابتلاء المؤمنين في الشَّدائد، واستحقاقِ أهل الثَّبات والصَّبرِ والظَّنِّ الحسن باللّه منهم نصْرَ اللّهِ تعالى بجنودٍ من عنده، فالمؤمنونَ كلُّ المؤمنين الَّذين عُهِدَ منهم الإيمانُ، واسْتحقّوا هذه الرُّتبةَ العالية، وخاصَّةً زمنَ الشَّدائدِ والأزَمات، همُ الرّاسخونَ في الإيمانِ بما شأْنُه أن يُعرَفَ بهِ إخلاصُهم عندما يُخالِطُه ما يُميلُه برَوْنَقِه وعُنفوانِه(3).

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الابْتلاءِ:

الابتلاءُ بالذُّعرِ مِن تفوُّقِ الأعداء لا يُعكِّر إيمانَ الأصْفياء دائمًا

حُذِفَ متعلِّقُ الابْتلاءِ في قوله تعالى: ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لمعرفتِه مِنَ السّياقِ فيما تقدَّمَهُ من قولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: في الزَّمنِ الماضي القريبِ ابتُليَ المؤمنون بالذُّعرِ والانْزعاجِ من أحزابِ العدوِّ الَّذين فاقوهم عَدَدًا وعُدَّة، فلم يُزعزِعْ ذلك إيمانَهم(4)، ثمَّ إنَّ حذْفَ متعلِّقات الأفعال دالٌّ على العمومِ، أي: إنَّهم ابتلوا بما سبق ذِكرُهُ، وبألوان متعدِّدة مِنَ الابتلاء.

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾:

المبالغةُ في وصف الابتلاءِ بذِكر نوعٍ من أنواعِه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ عاطفةٌ لفعلها على ما تقدَّمه مِن فعلٍ في قوله تعالى: ﴿ٱبْتُلِيَ﴾، أكَّدت معنَى الابْتلاء وبالغَتْ في

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 283.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.

وصفِه بالزَّلزَلة، فأفادَتْ قوَّةَ الحركة وشدَّةَ الدَّفعِ والقلق من تظافرِ الأعداءِ مع كثرتِهم وتطاير الأراجيف[1]، وفي ذلك كلِّه مبالغةٌ في وصف الابتلاءِ بذكر نوعٍ من أنواعه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الزَّلزلةِ:

الزِّلزالُ: اضْطرابُ الأرضِ وتحرُّكُها تحرُّكًا شديدًا، وهو مضاعفُ الفعلِ (زلَّ) تضعيفًا يفيدُ المبالغةَ بالتَّكرار، والاسْتبحارَ في تصوُّرِ حقيقة هذه الزَّلزلةِ في واقعِ الحالِ من شدَّةِ الهَوْلِ والفَزَعِ.

بلاغةُ الاسْتعارةِ: ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾:

زلزلةُ المؤمنين كاضطراب الأرضِ واخْتلالِ حالِها

ما وقع بالمؤمنين في ذلك الزَّمنِ العصيبِ المشحونِ بالذُّعرِ والانْزعاجِ الشَّديد، عبَّرَ عنه النَّظمُ الكريمُ بفعلِ الزَّلزلةِ مع وصفِها بالشِّدَّة في قولِه تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾، وهذا التَّعبيرُ اسْتعارةٌ لاخْتلالِ الحالِ اخْتلالًا شديدًا بحيثُ تُخْتَلُّ مضطربةً اضْطرابًا شديدًا كاضْطرابِ الأرض، وهو أشدُّ اضْطرابًا لِلحاقِه أعظمَ جسمٍ في هذا العالم[2].

دلالةُ تنكير ﴿زِلۡزَالٗا﴾:

العِظَمُ والقوَّةُ والشِّدَّة

ساق النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿زِلۡزَالٗا﴾ بصيغة النَّكرةِ للمبالغةِ في الوصف، فهو مصدرٌ مفعولٌ مُطلقٌ مُؤكِّدٌ للفعل ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ مبيِّنٌ للنَّوعِ بالوصف[3]، أي: زلزالًا عظيمًا قويًّا شديدًا بالغَ العظمِ والقوَّة يزيل القلوبَ عن أماكنِها.

نكتةُ وصفِ الزِّلزالِ بالشِّدَّةِ دون الابْتلاءِ:

الافْتعالُ في الابْتلاءِ دليلٌ على الشِّدَّة بذاتِه

لم يؤكِّدِ النَّظمُ الكريمُ الابتلاءَ بالشِّدَّة، فلم يقل: ابْتلاءً شديدًا، كما قاله في ﴿زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾؛ لدلالةِ الافْتعال عليها،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 155.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 283.

(3) السَّمين، الدُّر المصون: 9/ 99.

فصيغتُها الابْتلاء، وهي الافْتعالُ، عبَّرتْ عن معنى الشِّدَّة دون حاجةٍ لوصفِه بها(1).

نكتةُ تقديمِ الابتلاءِ على الزِّلزال:

الابتلاءُ لم يُزعزِعْ إيمانَ المؤمنين وإن كان قد أصابَهم القَلَقُ

سمَّى اللّٰهُ تعالى ما أصابَ المؤمنينَ ابْتلاءً، وقدَّمَهُ على الزِّلزال في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لم يُزَعزِعْ إيمانهم، ولم يؤثِّر فيهم مثل ما فعلَ الزِّلزال، بل ثبتوا عند الابتلاءِ بتثبيتِ اللّٰهِ لهم على عهدِهم، أمّا الزلزالُ الشَّديد؛ فقد فتَّ في عضد كثيرٍ منهم، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾؛ فإشارةٌ إلى شدَّةِ الانْزعاجِ والذُّعرِ والقَلَقِ بحكم الجِبِلَّةِ البشريَّة، وهم يَرَوْنَ أحزابَ العدوِّ تفوقُهم عَدَدًا وعُدَّة، وقد تضافروا يُريدونَ إنهاءَ وجودِهم واسْتئصالَ شأفتِهم(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزَّيغ والمَيْل والانحراف والعِوَج:

تشتركُ في معنى الميلِ عمومًا، ويختصُّ كلُّ واحدٍ منها بمعنًى، أو بقيد، أو بوصف

الزَّيغ: الميلُ عنِ الاسْتقامة، وغالبًا لا يكونُ إلّا بالميل عنِ الحقِّ، يقال: فلانٌ من أهلِ الزَّيْغ، ويُقال أيضًا: زاغَ عنِ الحقِّ، ولا يُعرفُ زاغَ عنِ الباطل؛ لأنَّ الزَّيغَ اسْمٌ لميْلٍ مكروه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّفّ: 5]، وأمّا الميْلُ؛ فهو عامٌّ في المحبوب والمكروه(3).

وحرْفُ الشَّيءِ: طرَفُهُ، يقال: حرْفُ السَّيفِ، وحرفُ السَّفينة، وانْحرفَ عن كذا، وتحرَّفَ، واحْترَفَ، وتحريفُ الكلام: إمالتُه، قال ﷻ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: 46]، والانحرافُ عنِ الشَّيء: الميلُ والعُدولُ عنِ الشَّيءِ(4)، بالوصول إلى حرفِه، وهذا أدعى إلى الميلِ والوقوع، ويكون في المعاني والأعيانِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 304، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 283.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 269، والرَّاغب، المفردات: (زيغ).
(4) الرَّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (حرف).

والعَوَجُ: العَطْفُ عن حالِ الانْتصابِ، يقال: عُجْتُ البعيرَ بزمامِه، والعَوَجُ يقال فيما يُدرَكُ بالبصرِ إدراكًا سهلًا كالخشبِ المنتصبِ ونحوِه.

والعِوَجُ يقال فيما يُدرَكُ بالفكرِ والبصيرة، كالدّينِ والمعاش والكلام، قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ [الزُّمر: 28]، فالعِوَجُ بالكسرِ في المعاني، والعَوَجُ بالفتحِ في الأعيان، والأعْوَجُ يُكنى به عن سيِّئَ الخُلُقِ(1).

الابتلاءُ والامتحانُ والفتنةُ:

الابتلاءُ: اختبارٌ فيه بليَّة، والامتحان: اختبارٌ فيه محنةٌ، والفتنةُ: اختبارٌ فيه عذابٌ

الابْتلاءُ: الاخْتبارُ الَّذي يصحبُ بالبليَّة، ويُطلقَ كنايةً عن إصابةِ الشِّدَّة؛ لأنَّ اخْتبارَ حالِ الثَّباتِ والصَّبرِ لازمٌ لها، والابْتلاءُ لا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارِه والمشاقِّ، وبَلَوْتُه: اخْتبرتُه، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30].

والمَحْنُ والامْتحانُ نحو الابْتلاءِ، قال تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [الممتحنة: 10]، والامْتحانُ: اختبارٌ فيه محنةٌ، وهو ما يُمتحَنُ به الإنسانُ من بَليَّةٍ، وامْتحنَهُ: اخْتبرَه، والاسْمُ: المِحنةُ(2).

الفتنةُ: أشدُّ الاخْتبارِ وأبْلَغُه، فهي أعلى درجةٍ منَ الامتحانِ والاختبار، وأصْلُهُ: عَرْضُ الذَّهبِ على النّارِ لِتَبَيُّنِ صلاحِهِ مِن فسادِهِ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15]، فجعلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّه قصدَ بها المبالغةَ في اخْتبارِ المنعَمِ عليه بها، كالذَّهبِ إذا أُريدَ المبالغةُ في تعرُّفِ حالِهِ، واللّهُ تعالى لا يختبرُ العبدَ لتغييرِ حالِه في الخيرِ والشَّرِّ، وإنَّما المُرادُ بذلك شدَّةُ التَّكليفِ(3).

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 379، والرَّاغب، المفردات: (عوج)، والكفوي، الكُلّيَّات: 3/ 185.
(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (محن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396 - 397، والرَّاغب، المفردات: (فتن).

المجيءُ والإتْيانُ:

المجيءُ أعمُّ مِنَ الإتيان، ويشتركان في الأعْراضِ والأغْراض

المجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتْيانُ قد يُقالُ باعْتبارِ القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقالُ اعْتبارًا بالحصول، ويُقال: جاءَ وأتى في الأعيان والمعاني، وفي الخيرِ والشَّرِّ، ولما يكونُ مجيئُهُ بذاتِه وبأمره، ولِمَنْ قصدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال اللهُ ﷻ: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ [الفرقان: 4]، أيْ: قصَدوا الكلامَ وتعدّوه، فاسْتُعمِلَ فيه المجيءُ، كما اسْتُعمِلَ فيه القصدُ، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1]، والإتيانُ يكون من قريبٍ في الزَّمان والمكانِ، والمجيءُ يكون مِن بعيدٍ في الزمان والمكان.

والمجيءُ يأتي بمعنَى الاسْتحضار، وجاءَ بكذا: اسْتَحْضَرَهُ، نحو: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النّور: 13].

وقولُك: جاء فُلانٌ، كلامٌ تامٌّ لا يحتاجُ إلى صِلة، وقولُك: أتَى فُلان، يقتضي مجيئُه بشيءٍ، ولهذا يُقال: جاء فُلانٌ نفسُه، ولا يقال: أتى فلانٌ نفسُه، ثمَّ كَثُرَ ذلك حتَّى اسْتُعمِلَ أحدُ اللَّفظَيْنِ في موضعِ الآخر[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 152، والرّاغب، المفردات: (أتى) و(جاء)، والفيروزابادي، البصائر: 1/ 412.

﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]

ذِكْرُ أقوالِ المنافقين وضعافِ الإيمان بعد ذِكْر أحوالِ المؤمنين

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا عُلِمَ ممّا سبقَ بأنَّ الحالَ المزلزِلَ لهم كان في غايةِ الهَوْلِ؛ أشارَ إلى أنَّهم لم يُزَلْزِلهم بأنْ حكى أقوالَ المزلزِلين، ولم يذكر أقوالَهم، وسيذكرُها بعدُ ليكونَ الثَّناءُ عليهم بالثَّباتِ مع عظيم الزِّلزالِ مذكورًا مرَّتين إشارةً وعبارة، فقال: وإذْ يقولُ الرّاسخونَ في النِّفاق والَّذين في قلوبِهم مَرَضٌ لِضَعفِ الاعْتقادِ في قلوبِهم، فهُم على حَرْف، وكلاهما قال ما عبَّر به عمّا في قلبِه مِنَ النِّفاقِ وضعفِ الإيمان: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِنَ النَّصر إلّا غُرورًا وخداعًا باطلًا لا وجودَ له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٞ﴾: (مرض) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ما يَخرُجُ بهِ الإنسانُ عَن حَدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شَيْءٍ كانَ، والمرَضُ: السُّقْمُ، وهو الخروجُ عنِ الاعْتدالِ الخاصِّ بالإنسان، أو ثقلٌ يغشى الشَّيء، فتحجب عنه حدَّته واعتداله وقوَّته[2]، والمرضُ ضربان: الأوَّل: مرضٌ جسميٌّ، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النّور: 61]، والثّاني: الرَّذائل كالجَهْل والجُبْن والبُخْل والنِّفاق وغيرِها، نحو قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10][3]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: ضَعْفُ اعْتقاد، وهم أهلُ الشَّك والاضطراب[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(3) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (مرض).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 405، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 350.

2) ﴿غُرُورًا﴾: (غرر) غَرَّهُ غَرًّا وغُرورًا وغِرَّةً بالكسر، فهو مَغْرورٌ وغَريرٌ، كأمير: خَدَعَه، وأطمَعَهُ بالباطل، فاغْتَرَّ هو، والغَرور: الدُّنيا، أو يُخَصُّ بالشَّيطان، والغرور عيبٌ مستترٌ[1].

وغرَّه كذا غُرورًا، كأنَّما طواهُ على غَرِّه، قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6][2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾، أيْ: باطلًا من القول لا وجود له[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في وقتِ الأزَماتِ تظهرُ معادِنُ الرِّجال وتتكشَّفُ السَوْءات

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن ذلك الحالِ حين نزلت الأحزابُ حولَ المدينة - والمسلمونَ محاصرونَ في غايةِ الجَهْدِ والضّيق، ورسولُ اللّه ﷺ بين أظْهُرِهم - أنَّهم حين ابْتُلوا، واخْتُبِروا، وزُلْزِلوا زِلْزالًا شديدًا، ظهرَ النِّفاقُ، وتكلَّم الَّذين في قلوبهم مرضٌ بما في أنفُسِهم، أمّا المنافقُ؛ فنجمَ نفاقُه، والَّذي في قلبِه شُبهةٌ لضَعْفِ حالِه، فتنفَّسَ بما يجدُه مِنَ الوسواسِ في نفسِه لضَعفِ إيمانِه وشدَّةِ ما هو فيه من ضيقِ الحال، فقال: ما وعدَنا اللّهُ ورسولُه من إعلاءِ الدّين والظَّفَرِ إلّا باطلًا[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قولِه: ﴿وَإِذْ﴾:

تأكيدُ حالِ الرُّعبِ الَّذي فضَحَ المنافقين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[5]، وهي تأكيدٌ له، فَزَيغانُ الأبصارِ أكثرُ ما يظهرُ جليًّا لدى المنافقين، فأبرزَتْ هذه الحالُ مِنَ الرُّعبِ المستورِ في قلوبِ المنافقين من حقيقةِ نفاقِهم وكُفرهم مقولةً فضحَتْهم ومَنْ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غر) و(غرر).
(2) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غرر).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 405، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 350.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 441 - 442.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 405.

في قلبِهم شكٌّ وضعفٌ، فإنَّ ذلك كُلَّه ممّا ألحقَ بالمسلمين ابْتلاءً، فبعضُه من حالِ الحرب، وبعضُه مِن أذَى المنافقين، ليحذروا المنافقين فيما يحدثُ من بعدُ، ولئلّا يَخْشَوا كيدَهم، فإنَّ اللّهَ يصرفُه كما صرفَ أشدَّه يومَ الأحزاب[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(إذْ) في قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ﴾:

استحضارُ قولِ المنافقين في زمن الشِّدَّة

موضعُ (إذْ) نصبٌ على الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، أي: واذْكر حين يقولُ المنافقون[2]، فإنَّ هذا القولَ وما عُطِفَ عليه حدثَ في زمنٍ عصيب، وهو وقتُ حصارِ الأحزابِ للمسلمين، والقصدُ من ذلك هو ذِكرُ ما حدث واستحضاره لاستشعارِ نعمةِ اللّهِ على المسلمين.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾:

تجدُّدُ قولِ المنافقين واستمرارهم على ذلك في كلِّ زمانٍ ومكان

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ إشارةٌ واضحةٌ إلى تكريرِهم لدليل النِّفاق، واسْتحضارِ صورته، أي: يقولُ المنافقون مرَّةً بعدَ أُخرى[3]، فيتجدَّدُ قولُهم، ويستمرُّ نفاقُهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

صدورُ ذلك القولِ من كلِّ المنافقين

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ من صيغ العموم، وكأنَّ المعنى: وإذ يقولُ كلُّ واحدٍ مِنَ المنافقين، وكلُّ واحدٍ من الذين في قلوبهم مرضٌ؛ لأنَّ الأولى (أل) موصولةٌ، والثانية (الذي) اسمٌ موصول، فكأنَّ هذا التعبيرَ بالموصول مرَّتين يدلُّ على صدور ذلك الكلامِ مِن كلِّ منافقٍ في ذلك الوقت، وصدوره من كلِّ منافقٍ في الموقف المشابهِ بما عبَّر عنه الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ قبل الموصولين.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

رسوخُ النِّفاقِ فيهم وأثرُ ذلك في قولهم

التَّعبيرُ باسم الفاعلِ المجموع ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾؛ للدِّلالةِ على

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 283.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 219.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 304، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 156.

رسوخ النِّفاق في ذواتِهم وقلوبِهم، فكأنَّهم استحقّوا هذا الوصفَ، فاصطبغَتْ بِهِ أقوالُهُم وأفعالُهُم، وكأنَّ المعنى: وإذ يقولُ الرّاسخون في النِّفاق، أصحابُ القلوبِ المريضة، أو الممتلئة قلوبُهم مرضًا.

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

مَـن وافـق المنافقين في شيءٍ؛ عُدَّ منهم

ظاهرُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على المنافقينَ أنَّ الَّذين في قلوبِهم مرضٌ قومٌ لم يكونوا منافقين، فقيلَ: هم قومٌ كان المنافقونَ يستميلونَهم بإدخالِ الشُّبهةِ عليهم، أو أنَّهم قومٌ كانوا ضِعاف الاعْتقادِ لقُربِ عهدِهم بالإسلام، وهذا على على أنَّ التغايرَ في العطفِ هنا تغايرُ ذواتٍ، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ بهم المنافقينَ أنفسَهم على أنَّ العطفَ هاهنا تغايرُ صفاتٍ لا تغاير ذوات، ونُبِّه عليهم على جهةِ الذَّمِّ[1]، وهو بعيدٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه:

التَّقابلُ بينَ الوصفين للموصوفِ الواحد

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية، للدَّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ لم يصلوا إلى الجزم بالنِّفاق، ولا الإخلاصِ في الإيمان، بل هم على حَرْفٍ، فعندَهم نوعُ نفاقٍ، فالسّياقُ مِنَ الاحْتباكِ الَّذي يدلُّ على بلاغةٍ فائقةٍ، حيث ذِكرُ النِّفاقِ أوَّلًا دالٌّ عليه ثانيًا، وذِكرُ المرضِ ثانيًا دليلٌ عليه أوَّلًا[2]، وذلك على أنَّ المقصودَ مِنَ العطفِ تغايُر الصِّفات لا تغاير الذوات.

نكتةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ المجازيَّة ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾:

تشبيهُ المرضِ المعنويِّ في القلوب بالمرضِ الحسّي

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظَّرفيَّةِ المجازيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾؛ للدِّلالة على تَغلغُلِ هذا المرضِ وتمكُّنِه في قلوبِهم، وهو الشَّكُّ والاضْطرابُ في أمورِ الاعْتقادِ، يعني: ليس فيها ثبوتُ الإيمانِ وقوَّتُه عند الشَّدائدِ، بل أصبحتِ القلوبُ وعاءً للرّيبة

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 459، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 156.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 304.

والقَلَق؛ تشبيهًا للأشياءِ المعنويَّةِ بالأشياءِ الحسّيَّة على سبيلِ المبالغةِ في الوصفِ[1].

نكتةُ إسنادِ المرضِ إلى القلوبِ:

مرضُ القلوبِ أشدُّ فتكًا مِنَ المرض الحسّي

المرضُ إذا أصابَ الجسدَ؛ أحْدثَ نقصًا في صحَّتِه وخَلَلًا في اعْتدالِه، فكيف إذا كان هذا المرضُ معنويًّا، وقد أصابَ القلبَ، وهو سيِّدُ الأعضاء والحواسِّ؟ لذا كان إسنادُ المرضِ إلى القلوبِ مجازيًّا، وهو أشدُّ فتكًا بالقلبِ مِنَ المرضِ الحسّيِّ.

نكتةُ تقديمِ ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على المُسنَدِ إليه:

أهميَّةُ القلوبِ واختصاصها بنفع صاحبها أو ضرِّه

تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على قولِه: ﴿مَّرَضٌ﴾، مع أنَّ الأصلَ أن يُقال: مرضٌ في قلوبهم؛ وذلك للدَّلالةِ على أهمّيَّةِ القلوبِ واختصاصِها بما ينفعُ صاحبَها، أو يضرُّه، مصداقًا لقولِ رسولِ اللّهِ ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلُحتْ؛ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ؛ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ»[2]، وأنَّ النِّفاق مرضٌ يهلك صاحبَه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

قـوَّةُ أمـراضِ الاعْتقادِ في قلوب أصحابِها وعظم خطرها

جاءتْ كلمةُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على كثرةِ أمراضِ القلوب المتعلِّقة بالإيمانِ وعِظم خطرِها، فهناك أمراضٌ كثيرةٌ عظيمةٌ من أمراضِ الاعتقاد قائمةٌ في قلوبِ أهلِها على الشَّكِّ والقلقِ والرّيبة في أعظم قضيَّة، وهي قضيَّةُ الإيمان[3]، بحيث تُضعِفُ الاعْتقادَ والثَّباتَ في مواطنِ اللِّقاء، وفي كلّ معنى جليل.

نكتةُ عطفِ الرَّسولِ على لفظِ الجلالة:

عدمُ اعتقادِ المنافقين برسالة رسولِ الله ﷺ

عطْفُ الرَّسولِ ﷺ على لفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مَّا وَعَدَنَا

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 304.

(2) البخاري، الصّحيح، حديث رقم: (52)، ومسلم، الصَّحيح، حديث رقم: (1599).

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 304.

﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ هو على سبيلِ الهُزءِ من المنافقين والَّذين في قلوبِهم مرضٌ؛ إذ لو اعتقدوا أنَّه رسولٌ حقيقةً ما قالوا هذه المقالة، فالمعنى: ورسولُه على زَعْمِكم وزَعْمِه(1).

بلاغةُ الاسْتثناءِ في: ﴿إِلَّا غُرُورٗا﴾:

إرادةُ المنافقين الطَّعنُ في وعود الله تعالى

الاسْتثناءُ في قوله تعالى: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ اسْتثناءٌ مُفرَّغ، و﴿إِلَّآ﴾ تكون هنا أداةَ حَصْرٍ، أي: ما وعدَنا اللهُ ورسولُه إلّا وعْدَ غُرورٍ(2)، أو: ما وعدنا اللهُ ورسولُهُ وعْدَ صدقٍ أبدًا، بل وعْدَ غرورٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الغُرور:

هُـزءُ المنافقينَ ومرضَى القلوبِ بـوعـدِ الـلـهِ ورسـولِـه أنَّـه باطلٌ ولا طاقةَ لهم به

اسْتعمالُ المنافقينَ والَّذين في قلوبِهم مرضٌ للفظِ الغُرور في قوله تعالى: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾، أنَّهم يعتقدونَ أنَّ ما وعدَهُم اللهُ ورسولُه مِنَ النَّصر على الأحزابِ ما هو إلّا غُرورٌ، أي: أمرًا يغرُّنا، ويوقعُنا فيما لا طاقةَ لنا به، وقولُهم هذا هو على سبيلِ التَّهكُّمِ والهُزء(3)، وقولُه: ﴿غُرُورٗا﴾ صفةٌ لمفعولٍ مُطلقٍ محذوف، تقديرُه: ما وعدَنا اللهُ ورسولُه إلّا وعدَ غُرورٍ(4)، ويجوزُ أن يكونَ ﴿غُرُورٗا﴾ مفعولًا به ثانيًا للفعلِ ﴿وَعَدَنَا﴾(5).

نكتةُ تنكيرِ ﴿غُرُورٗا﴾:

المبالغةُ في ادِّعاءِ بُطلانِ وعْدِ اللهِ ورسولِه

تنكيرُ قولِه: ﴿غُرُورٗا﴾ على سبيلِ المبالغةِ مِنَ المنافقينَ ومرضَى القلوبِ في ادِّعائهم أنَّ ما وعدَهُمُ اللهُ ورسولُه به مِن النَّصرِ على الأحزابِ باطلٌ، فكأنَّهم يقولون: إنَّ ما أصابَنا من البلاءِ والشِّدَّة دليلٌ - في زعمهم - على بُطلانِ دَعْوى رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وما هي

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 460.
(2) درويش، إعراب القرآن: 7/ 606.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 460.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 21، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 606.
(5) الدَّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 44.

إلّا باطلٌ استَدرَجَنا به إلى الانْسلاخِ عمّا كنّا عليه من دينِ آبائنا، وإلى الثَّباتِ على ما صِرْنا إليه بعد ذلك الانْسلاخِ، بما وعدَنا به من ظهورِ هذا الدّين على الدّين كلِّه، والتَّمكينِ في البلادِ حتَّى في حفرِ الخندق[1]، وها نحنُ إلى الآن لم نرَ شيئًا مِن ذلكَ الوعدِ.

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه وغَرَضُه:

إرادةُ المنافقينَ إدخالَ الشَّكِّ في قلوبِ المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ عَرْضٌ لقولِ المنافقينَ والَّذين في قلوبِهم مرضٌ، أمّا الفريقُ الأوَّلُ - وهم المنافقونَ - فقولُهم: ما وعدَنا اللّهُ ورسولُهُ إلّا غرورًا يُحتملُ أن يكونَ قالوهُ علَنًا بين المسلمين، قصدوا بهِ إدخالَ الشَّكِّ في قلوبِ المؤمنين، لعلَّهم يَردّونَهم عن دينِهم، فأوْهَموا بقولِهم: ما وعدَنا اللّهُ ورسولُه إلّا غرورًا: أنَّهم ممَّن يؤمنُ باللّهِ ورسولِه، فنسبةُ الغُرورِ إلى اللّهِ ورسولِه ﷺ في هذا القَصْرِ الادِّعائي إمّا على معنى التَّشبيهِ البليغ، وإمّا لأنَّهم بجَهلِهم يُجوِّزون على اللّهِ أن يَغُرَّ عبادَه.

المؤمنون واثقون بنصر الله والمنافقون يتشكَّكون

ويَحْتَمِلُ أنَّهم قالوا ذلكَ بين أهلِ مِلَّتِهم، فيكونُ نسبةُ الوعدِ إلى اللّهِ ورسولِه تهكُّمًا، على سبيلِ الهُزْءِ، كقولِ فرعونَ ممّا حكاه القرآنُ الكريم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧﴾ [الشُّعراء: 27]، والغُرورُ هو ظهورُ الشَّيءِ المكروه في صورةِ المحبوب، وهذا يعني حَسَبَ وهمِهم: أنَّ اللّهَ وعدَهُمُ النَّصر، فكان الأمرُ هزيمةً، وهم يَعْنُون الوعدَ العامَّ، وإلّا فإنَّ وقعةَ الخندقِ جاءت بغتةً، ولم يُرْوَ أنَّهم وُعِدوا فيها بنصرٍ.

المنافقون ومرضى القلوبِ بعضُهم مِن بعضٍ

وأمّا قولُ الَّذين في قلوبِهم مرضٌ - وهم نفسُ قولِ المنافقين - فإنَّ أولئكَ الَّذين في قلوبِهم مرضٌ هم الَّذين كانوا مُتردِّدين بين الإيمانِ والكفرِ، وقولُهم ذاكَ يدلُّ على أنَّهم أخْلصوا يومئذٍ النِّفاقَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.

وصمَّموا عليه، وخاصَّة أنَّهم أظهروه بين صفوفِ المسلمين، وبذلك يشتركون مع المنافقين في أنَّ هذا القَصْرَ في مقولتِهم يُثيرُ حسَبَ ادِّعائِهم الشَّكَّ في قلوبِ المؤمنين، ويوهِنُها في قتالِ الأعداءِ وردِّهم، وهذا غرضُ قولهِم ومُبتغاه(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النِّفاق ومرض القلب:

مـرضُ القـلوبِ أعمُّ مِنَ النِّفاقِ، والإرجـــافُ والتَّعويقُ أثرانِ مِن آثارِ النِّفاقِ

النِّفاقُ: إظهارُ الإيمانِ مع إسرارِ الكفر، وسُمّيَ بذلك تشبيهًا بما يفعلُه اليَرْبوع، يُقال: نافقَ اليَربوع، وهو أن يجعلَ بجُحرِه بابًا ظاهرًا، وبابًا باطنًا يخرج منه، ولا يقعُ هذا الاسْمُ على مَنْ يُظهرُ شيئًا، ويُخفي غيرَهُ إلّا الكفر والإيمان، والنِّفاقُ هو الدُّخولُ في الشّرعِ من بابٍ، والخروجُ عنه مِن بابٍ، وعلى ذلك نبَّهَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [التّوبة: 67]، أي: الخارجونَ مِنَ الشَّرع، وجعل المنافقين شرًّا مِنَ الكافرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّساء: 145](2).

والمرضُ خروجٌ عن حدِّ الاعْتدالِ الخاصِّ بالإنسان، ومنه المرضُ الَّذي هو عبارةٌ عنِ الرَّذائل، وهي أمراضُ القلوب: كالجُبن والبُخل وغيرها من الرَّذائلِ الخُلُقيَّة، ومن هذه الأمراض: النِّفاقُ، وهو أخطرُها؛ لأنَّ فيه خروجًا من دينِ الإسلام، قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: 10]، ويُشبَّه النِّفاقُ والكُفرُ ونحوُهما من الرَّذائلِ بالمرض، إمّا لكونِها مانعةً عن إدراكِ الفضائلِ كالمرضِ المانع للبَدَنِ عنِ التَّصرُّفِ الكامل، وإمّا لكونِها مانعةً عن تحصيلِ الحياةِ الأُخْرويَّةِ المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وإمّا لميلِ النَّفْسِ بها إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 460، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 284.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 547، والرَّاغب، المفردات: (نفق).

الاعْتقاداتِ الرَّديئة ميلَ البَدَنِ المريضِ إلى الأشياءِ المُضِرَّة[1]، وأمراضُ القلوبِ كثيرةٌ أشدُّها وأخطرها النِّفاق.

المَرَض والسُّقْم:

المرضُ: عامٌّ في البَدَنِ والقلب، والسُّقْم: مرضٌ مستعصٍ أو طويل الأمد

المرضُ: هو ما يخرج به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان في الأشياءِ الحسّيَّةِ الجسديَّة، والأشياءِ المعنويَّةِ القلبيَّة، فيما طال وجودُهُ أو قصر، فيما له علاجٌ أو لا علاجَ له، والسُّقم غالبًا يكون في الأمراض التي يطول عهدُها أو الَّتي لا علاج لها.

والسَّقَمُ والسُّقْمُ: المرضُ المختصُّ بالبدن، قال تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩﴾ [الصّافّات: 89]، ويُقالُ: هو ما كان لخَلَلٍ يعتري الإنسانَ لا ينفكُّ منه، وإن كان لا يحسُّ به، ويُقال: مكانٌ سقيم؛ إذا كان فيه خَوف[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (مرض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (سقم).

﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾ [الأحزاب: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ قولِ بعضِ المنافقين وفِعلِهم بعد ذِكْرِ ما قاله المنافقونَ جميعًا

لَمّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ ما هو الأصلُ في نفاقِهم، وهو التَّكذيبُ؛ أتبعَهُ بما تفرَّع عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: المنافقونَ مَوْتى القلوب، والمُرتابون مرضَى القلوب ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ الآية[1]، ولَمّا ظنَّ المنافقون أنَّ ما قاله اللّهُ ورسولُه ﷺ كان زورًا، ووَعْدُهما كان غُرورًا، حيث قطعوا بأنَّ الغَلَبَةَ واقعةٌ، حين ذلك قالوا مقالتَهم الفاجرة: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَّآئِفَةٞ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على دورانِ الشَّيءِ على الشَّيء، وأن يُحَفَّ بِه، ثمَّ يُحمَلَ عليه، يُقالُ: طافَ به وبالبيتِ يَطوفُهُ طَوْفًا وطَوافًا، واطّافَ به، واسْتَطافَ، أمّا الطّائفةُ من النّاس؛ فكأنَّها جماعةٌ تُطيفُ بالواحدِ أو بالشَّيء، والطّائفةُ من النّاسِ كالفِرْقَةِ والقطعةِ منهم[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾، أيْ: مِنَ المنافقين، وهم عبدُ اللّهِ بنُ أُبَيٍّ وأصحابُه[4].

2) ﴿يَثۡرِبَ﴾: (ثرب) كلمتان مُتبايِنَتا الأصل، لا فروعَ لهما، فالتَّثريبُ: التَّقريعُ والتَّقريرُ بالذَّنب، قال تعالى: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 161.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (طوف).
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 359، والماوردي، النُّكت والعيون: 4/ 381.

﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: 92]، فهذا أصلٌ واحد، والآخَرُ: الثَّرْب، وهو شَحْمٌ قد غشّى الكِرشَ والأمعاءَ رقيقٌ، والجمعُ ثُروبٌ[1]، ويقالُ: ثَرِبَ وأثْرَبَ وثَرِبَ؛ إذا وسَّخَ، وأفْسد[2]، وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾، أيْ: أهلَ المدينةِ[3].

3) ﴿مُقَامَ﴾: (قوم) أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدهُما عَلَى جَماعَةِ ناسٍ، ورُبَّما اسْتُعِيرَ في غَيْرِهِمْ، والآخَرُ عَلَى انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ[4]، وقيامُ الشَّيءِ انتصابُهُ إلى أعلى مع ثباته واعتدالِه، ومنه: القومُ، وهم الذين يُتصوَّرُ فيهم الانتصابُ والارتفاعُ والثَّباتُ والاعتدالُ، وهم جماعةُ الرِّجال، يُقال: قامَ يقومُ قيامًا، فهو قائمٌ، وجمعُه: قيام، وأقامه غيره، وأقام بالمكان إقامةً، والمَقامُ يكون مصدرًا، واسْمَ مكانِ القيام وزمانه، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي﴾ [يونس: 71]، فالمَقامُ: المقعدُ، ويُسمَّى المكانُ الواحدُ مرَّةً مَقامًا؛ إذا اعْتُبِرَ بقيامِه، ومقعدًا؛ إذا اعْتُبِرَ بقعودِه، وقولُه تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾، من: قام، أي: لا مُستقرَّ لكم، ومن: أقامَ في قراءة ﴿مُقَامَ لَكُمۡ﴾[5].

4) ﴿فَرِيقٌ﴾: (فرق) أُصَيْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى فصل وتمييز بين شَيئَين أو أشياءَ فصلًا واضحًا[6] يَفْرُقُ فَرْقًا وفُرْقانًا، وفرَّقَ الشَّيءَ تَفريقًا وتَفرِقةً فانفرَقَ وافترَقَ وتفرَّقَ، وفرَّقتُ بين الشَّيئَين: فصلتُ بينهما، قال تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، والفِرقُ: القطعةُ المُنفصلةُ، ومنه: الفِرْقةُ للجماعةِ المتفرِّدةِ من النّاس، وقيل: فَرَقُ الصُّبح، وفَلَقُ الصُّبح، ومنهُ الفريقُ: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخَرين، وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: جماعةٌ منهم، وهُم بنو حارثةَ وبنو سلمَةَ[7].

5) ﴿عَوۡرَةٞ﴾: (عور) أصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى تَداوُلِ الشَّيْءِ، والآخَرُ يَدُلُّ عَلَى مَرَضٍ في إحْدَى عَيْنَي الإنْسانِ وكُلِّ ذي عَيْنَيْنِ[8]، عَوِرَ، يَعوَرُ، وعَوِرَتْ عينُه عَوَرًا، وعارتْ عينُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (ثرب).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 350.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 134.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(5) الرَّاغب، المفردات: (قوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 350.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عور).

عَوَرًا وأعورَت، أي: ذهَبَ بصرُها، وعارَ عينَ الرَّجُلِ عَوَرًا، وأعورَها: فَقَأها[1]، والعَوْرةُ: سَوْءَةُ الإنسان، وذلك كنايةٌ، وأصلُها مِنَ العارِ، وذلكَ لما يلحقُ في ظهورِه مِنَ العار، أي: المذمَّة، وأصلُ العَوْرَةِ ما ذهبَ عنه السَّتْرُ والحفظ، وكأنَّ الرِّجال سِترٌ وحفظٌ للبُيوت، فإذا ذهبوا عنها؛ أعْوَرتِ البُيوت[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾، أي: مُتخرِّقةٌ مُمكِنةٌ لِمَنْ أرادَها[3]، أي: ضائعةٌ نخشى عليها السُّرّاق[4]، خلاءٌ من الرِّجال[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكذبُ وسيلةٌ إلى التولّي يوم الزَّحف، وكلاهما من صفاتِ المنافقين

يقولُ اللّهُ تعالى مُخبرًا عن جماعةٍ مِنَ المنافقين بزعامةِ عبدِ اللّه بن أُبَيٍّ بن سَلول بأنَّهم خاطبوا أهلَ المدينةِ بأنَّه لا مكانَ لكم عند النَّبيِّ ﷺ في مُقامِ المرابطة، فارْجِعوا إلى بيوتِكم ومنازِلكم، ومِن هؤلاء جماعةٌ مِنَ المنافقين، وهم بنو حارثةَ، اسْتأذنوا رسولَ اللّه ﷺ للعَوْدِ إلى بيوتِهم، قالوا: إنَّ بيوتَنا نخافُ عليها السُّرّاق، فهي عورةٌ ليس دونها ما يحجبُها مِنَ العدوِّ، فهم يخشَوْنَ عليها مِنهم، ويفضحُ اللّهُ تعالى كذبَهم، فيقول تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾، أي: ليسَتْ كما يزعُمونَ، ولكنَّهم ما ادَّعوا ذلك إلّا هربًا من الزَّحفِ والتَّولّي عن قتالِ الأحزاب[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَإِذۡ﴾:

التَّكذيبُ أصلُ النِّفاق، والتَّولّي مِنَ الزَّحفِ فرعٌ عنه

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾ عاطفةُ الفرعَ على

---

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (عور)، والسَّرقسطي، الأفعال: 1/ 201، 203.
(2) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 348.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عور).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 136.
(5) الماوردي، النّكت والعيون: 4/ 383.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 442.

الأصل؛ لإظهارِ المعنَى المقصودِ وتأكيدِه في حقِّ المنافقين، وذلك أنَّه لَمّا ذَكَرَ ما هو الأصلُ في نفاقِهم، وهو التَّكذيب؛ أتبعَه ما تفرَّعَ عليه، وما هو لازمٌ له، فإنَّ مِن شأنِ المُكذِّبين أن يفرّوا مِن الزَّحف؛ لأنَّه لا إيمانَ في قلوبِهم(1).

التَّذكيرُ بدعوةِ المنافقين للمسلمين للتّولّي من الزحف

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إذْ) في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾:

(إذْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾، تعني: الظَّرفيَّةَ الزَّمانيَّةَ الماضيةَ في محلِّ نصبٍ بـ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾، أي: واذكُروا حين قالَتْ طائفةٌ من المنافقين(2) للمؤمنين هذا القولَ ليوهنوهم، ويُثبِّطوهم، ويُخوِّفوهم مِن قتالِ الأحزاب.

تحقُّقُ المنافقين في التَّخذيل، والدَّعوةِ للتَّولّي عن الجهاد

نكتةُ العدولِ إلى الماضي ﴿قَالَت﴾:

لَمّا كان تخذيلُ المنافقينَ لأهلِ المدينةِ بالتَّرجيعِ مرَّةً في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾؛ عبَّر عنه بالماضي، فقد كانوا مُتحقِّقين بالتَّخذيل في مقولتِهم تلك، حريصين على تثبيطِ الهِمَمِ والتَّولّي عنِ الجهادِ وقتالِ الأعداء(3)، ولأنَّ قولَهم هذا خاصٌّ بواقعة عين لا تتكرَّر - يوم الأحزاب - بخلاف قولهم السابق: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾، فإنَّه عامٌّ يصلح لكلِّ موقفٍ مُشابهٍ.

فائدةُ العدولِ عنِ التَّذكيرِ في قولِه: ﴿قَالَت﴾:

أنَّثَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ مع فاعلِه، فقال: ﴿قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾؛ ولم يقلْ: (قال فريق)؛ إشارةً إلى رَخاوتِهم وتأنُّثهم في الأقوالِ والأفعال(4).

الدِّلالةُ على النَّشاط في الباطل والسَّعي الحثيث لتثبيط المؤمنين

سِرُّ التَّعبيرِ بالطّائفة دون الجماعة أو الفريق:

قال ﷻ: ﴿قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾، ولم يقلْ: جماعةٌ أو فريقٌ للدِّلالة على أنَّ هؤلاء الذين يقولونَ عندَهم حركةٌ سريعةٌ ونشاطٌ وسعيٌ حثيثٌ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 9/ 97، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.

يطوفون بالمؤمنين لا يألون جهدًا في ذلك، حتى يحدثَ تثبيطُ المؤمنين، وإبعادهم عن ساحة القتال.

نكتةُ تنكيرِ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾:

في تنكيرِ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ إشارةٌ إلى الكَثْرة، أيْ: وإذ قالَ قومٌ كثيرٌ[1]، وفيه دلالةٌ على انْتهازِ كثيرٍ مِنَ العابثِينَ الَّذين لا يَأْلونَ في المؤمنين خَبالًا أن يشقّوا الصُّفوفَ، ويُثبِّطوا المقاتلين عنِ القتالِ والدِّفاع عن الدّينِ الحقِّ.

دلالةُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

في إسنادِ حرفِ (مِنْ) إلى ضميرِ الغائبينَ في قوله تعالى: ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ بيانٌ وتفسيرٌ لأصحابِ هذا القولِ بأنَّهمُ المذكورون سابقًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[2].

فائدةُ تقييدِ الطّائفةِ بأنَّها منهم:

المنافقونَ يطوفونَ بين الصُّفوفِ للتَّخذيلِ والإرجاف

في تقييدِ الطّائفة بأنَّها منهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ هذه الطّائفةَ قومٌ كثيرٌ مِن مَوْتى القلوبِ ومَرْضاها، اصْطَبَغتْ قلوبُهم بالنِّفاقِ حتَّى اسوَدَّتْ، فلا تعرفُ معروفًا، ولا تُنكرُ باطلًا، بل هي الباطلُ بعينِه، يطوفُ بعضُهم ببعضٍ، ويطوفُ بعضُهم على المؤمنين لإشاعةِ الفَوْضى وإحداثِ التَّخذيلِ والتَّثبيطِ في صفوفِ المسلمين[3].

نكتةُ النِّداءِ بـ(يا):

تنبيهٌ وتأكيدٌ على ضرورةِ الرُّجوعِ عنِ القتال

(يا) التي للنِّداء، إنَّما تأتي لنداء البعيدِ ومَن في حكمِه، كالنائم والغافل، وفي النِّداء بـ(يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ تنبيهٌ لهم من غَفْلَتهم عمّا هم عليه من شدَّةٍ وكَرْبٍ عظيم، فإنَّ الأحزابَ سيُهلكونَكم إن لم تَستجيبوا، وترجعوا، وفيه كذلك تأكيدٌ لدعوتِهمُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 11/ 156.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 11/ 156.

المقاتلينَ للرُّجوعِ إلى موطنِهم دونَ قتالٍ، ومبالغَةٌ في ضرورةِ المسارعةِ في الاسْتجابةِ لندائِهم، لما في أسلوبِ النِّداء بـ(يا) خاصَّةً من اسْتثارةِ المُنادَى وتحريكِ همَّتِه وتنبيهِه إلى أهمّيَّة ما يُنادى به، وما يُنادى مِن أجلِه، وتحفيزِ اسْتعدادِه لتقبُّلِه[1].

نكتةُ تخصيصِ المُنادَى بكونِهِ مِن أهلِ يَثْرِب:

إغـراءُ المنافقين لأضـرابِـهـم بالرُّجوعِ وتركِ الجهاد

في تخصيصِ المنافقين في ندائِهم بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ فيه دَلالتان: أولاهما أنَّهم ليسوا من أهلِ المدينةِ، أو طَيْبة أو طابة بما سمّاها به رسول اللّه ﷺ، وفي ذلك إظهارُ المخالفةِ لرسولِ اللّه ﷺ، وثانيتُهما في ندائهم إيّاهم بعنوانِ أهليَّتهم لها ترشيحٌ لما بعدَه مِنَ الأمر بالرُّجوعِ إليها في قولهم: ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾[2].

نكتةُ ذِكْرِهم ﴿يَثۡرِبَ﴾ دون المدينةِ:

إظهارُ المنافقين عـدولَـهـم عـنِ الإسـلامِ والدَّعوةِ للتَّخلّي عنه

عدلَ المنافقون عنِ الاسْمِ الَّذي وسمَها به النَّبيُّ ﷺ مِنَ المدينةِ وطَيْبَةَ مع حُسْنِه إلى الاسْمِ الَّذي كانت تُدْعَى به قديمًا مع احْتمالِ قُبحِه باشْتقاقِه من الثَّرَبِ الَّذي هو اللَّوْمُ والتَّعنيف؛ إظهارًا للعدولِ عن الإسلام، وتوهينًا للإيمانِ في قلوبِ المؤمنين، ودعوةً للانْقضاضِ على هذا الدّين[3].

دلالةُ ﴿لَا﴾ في قولِهِ: ﴿لَا مُقَامَ﴾:

نـفـيُ جـنـسِ الـمـنـفـعـةِ مِـنَ الإقـامـةِ لقتالِ الأعداء

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ﴾ نافيةٌ للجنس، وجيءَ بها لتأكيدِ نفيِ جنسِ أيِّ مُقام لكثرةِ مخالفتِهم في ذلك[4]، أيْ: نفيُ جنسِ المنفعةِ المترتِّبة على إقامتهم، وذلك أنَّه لّما رأى هذا الفريق مِنَ المنافقين قِلَّةَ جَدْوى وجودِهم؛ جعلَها كالعَدَم، أيْ: لا فائدةَ لكم في حَوْمةِ القتالِ والمُمانعة[5].

(1) الزَّمخشريّ، شرح المفصّل، لابن يعيش: 1/ 119 - 121، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 85.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 285.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 306.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 460، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 284.

بلاغةُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿مُقَامَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مُقَامَ﴾ قراءتانِ متواترتانِ[1]، **الأولى**: ﴿مُقَامَ﴾ بضمِّ الميم الأولى، أي: محلُّ الإقامة، والمعنَى: لا إقامةَ لكم، يُقال: أقمتُ إقامةً ومُقامًا، ويجوزُ أن يكونَ المعنَى: لا مَوْضعَ إقامةٍ لكم، والمُقامُ بضمِّ الميمِ يكونُ مصدرًا، ويكونُ اسْمًا لموضعِ الإقامة، **والثّانيةُ**: ﴿مَقَامَ﴾ بفتحِ الميمِ الأولى، وهو اسْمٌ لمكانِ القيام، أي: الوجود، أي: لا مكانَ لكم تقيمونَ فيه[2].

ففي مجموعِ القراءتَيْن جملةٌ مِنَ المعاني لا تُفيدها إحدى القراءتَيْن، أي: لا إقامةَ لكم في هذا المكانِ، ولا وجودَ لكم، ولا قيامَ لكم فيه، وغير ذلك من المعاني التي يمكنُ أن تُفهم من الصّيغةِ بين فتح الميم وضمِّها.

نفيُ المنافقين لأيِّ إقامةٍ وجودًا ومكانًا هروبًا من القتال

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

اللّامُ في ﴿لَكُمۡ﴾ للتَّخصيص، أي: تخصيصُ عدمِ وجودِ أيِّ فائدةٍ قائمةٍ، أو حاصلةٍ لكم منهُ الإقامة في معسكرِ المسلمينَ لقتالِ الأعداء[3]، أيْ: لا إقامةَ لكم ولا منفعةَ من هذهِ الإقامة.

لا فائدةَ لكم في مقامكم، ولا منفعةَ تعود عليكم

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لَكُمۡ﴾ في ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾:

﴿لَكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو خبر ﴿لَا﴾، والتَّقديرُ: لا مقامَ نافعٌ لكم، ولا مقامَ مفيدٌ لكم، وفي قولِه تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ نفيُ المنفعةِ والفائدة، وذلك أنَّه لمّا رأى فريقُ المنافقين قلَّةَ جَدْوَى وجودِهم؛ جعلَها كالعَدم، أيْ: لا فائدةَ لكم في ذلك، وهو يَرومُ تخذيلَ النّاسِ، كما فعلَ يومَ أُحدٍ[4].

وجودُ المنافقينَ في ساحةِ الجهادِ وعدمُه سواء

---

(1) القراءة الأولى لحفص عن عاصم، والثّانية للباقين من العشرة، يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 520، وأبو عمرو، التّيسير، ص: 178، وابن الجزري، تحبير التّيسير، ص: 511.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 337، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 219، ومكّي، الكشف: 2/ 195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 284.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 284.

إفصاحُ المنافقينَ عن تركِ القتالِ وخذلانِ المسلمين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ فصيحةٌ، أي: إنْ سمعتُم نُصحي؛ فارْجِعوا، على أنَّ القائلَ هو أوْسُ بنُ قيظي من رؤساء المنافقين[1]، أو إنْ سمعتُم نُصحَنا؛ فارجعوا على أنَّه جماعةٌ من المنافقين برئاسةِ عبدِ اللّهِ بن أُبيٍّ بن سلول[2]، لظاهر قوله: طائفةٌ، والطائفة تُطْلَقُ على الواحد فما فوقَهُ.

سرُّ اختيارِ لفظ الرُّجوع في ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾:

كلمةُ (ارجع) تدلُّ على أنَّه يطلبُ منهُ العودَ إلى مكانٍ كان فيه، فكأنَّه قال: ارجعْ إلى المكانِ الَّذي كنتَ تسكنُهُ، والمعنى: أي: ارجعوا إلى يثربَ، إلى أماكنكم وبيوتِكم الَّتي كنتم تسكنونها.

دلالةُ الأمر في ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾:

الأمرُ مِنَ الطّائفة في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ يدُلُّ على أنَّ مرادَهم الأمرُ بالفِرار، لكنَّهم عبَّروا عن الفرارِ بالرُّجوع؛ ترويجًا لمقالِهم وإيذانًا بأنَّه ليس مِن قبيلِ الفِرار المذموم[3].

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ الرُّجوع:

العمومُ لقصدِ النُّكوصِ عنِ القتالِ دونَ تحديدِ غرضِهم الخبيثِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ أمرٌ صدرَ من المنافقينَ لأهلِ يثربَ - على ظاهرِ كلامِهم - بالهرَب من عَسْكرِ رسولِ اللّه ﷺ، أو هو أمرٌ لهم أن يرجعوا كفّارًا، ويُسلِّموا محمَّدًا ﷺ إلى أعدائِه، وإلّا فليسَتْ يثربُ لكم بمكانِ إقامةٍ، وسواء كان مرادُهم من الأمرِ هذا أو ذاك، فإنَّ فيه إثارةً للفتنةِ وتهييجًا للنُّفوسِ للتَّولّي عنِ الجهاد[4]، دون تعيينِ قصدِهم الخبيث في هذا الأمر، ويجوزُ أن يكونَ مُرادُ الأمرِ بالرُّجوع ضمانَ سلامتِهم مِنَ القتل، وليكونَ لهم عند هذه الأحزابِ يدٌ[5].

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 607.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 460.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 405.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 157.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالواوِ في: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ﴾:

تـركُ الـجـهـادِ بـلـسـانِ المـقـالِ والحال

الواوُ استئنافيَّةٌ[1] لاستئنافِ لسانِ مقالِ المنافقينَ وحالِهم في أسلوبٍ جديدٍ من أساليبِ تركِ القتالِ مع المسلمين، وهو الاستئذانُ من رسولِ اللّٰه ﷺ، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عطفًا على قوله تعالى: ﴿قَالَت طَّآئِفَةٞ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الاستئذانِ:

لما كان الاستئذانُ إنَّما يكونُ مِن بابِ الأدبِ على المُستأذَن منهُ؛ استأذنوا رسول اللّٰه ﷺ حتى يشعروهُ بأنَّهم تحت كنفِه، وأنَّ ولاءهم له، وأنَّهم لم يخرجوا عن طوعِهِ وإن كانت الحقيقةُ عكسَ ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ﴾:

تجدُّدُ الاسْتئذانِ لـلـتَّـخـلّي عن عظيمِ المكرُمات

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ﴾ فيه دلالةٌ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ لما هم عليه من النُّكوصِ على أعقابِهم، وذلك بطلبِ الإذنِ في كلِّ وقتٍ؛ لأجلِ الرُّجوعِ إلى البيوت، والكَوْنِ مع النِّساء، والخلودِ إلى الدَّعَةِ والخُمولِ والتَّخلّي عن مكرُمات الأمور[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (الفريق) دون غيرِه:

عدمُ اجتماعِهِم مـعًـا وعـدمُ اجـتـمـاعِ أمـرِ الواحد منهم

عبَّر بالفريق دون الجماعةِ أو الطّائفة في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم انفرطوا من عقدِ الجماعة، وخرجوا عليهِم، وتفرَّقوا منهم، فهم ليسوا مع الجماعة من جهة، ثم إنَّهم ليسوا جميعًا على قلبِ رجلٍ واحدٍ، بل هم أيضًا متفرِّقون بين ذواتِهم مع اتِّفاقهم في النِّفاق، بل إنَّ الواحدَ منهم لا يجتمع له أمره، فأمورُهم متفرِّقةٌ في أنفسِهم، وذواتهم متفرِّقة في جماعتهم، وجماعتهم متفرِّقةٌ عن جماعة المسلمين.

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 607.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 157.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 307.

طائفةٌ مِنَ المنافقين قليلةٌ حقيرةٌ قصدتِ الفُرقةَ بين المسلمين

نكتةُ تنكيرِ ﴿فَرِيقٌ﴾:

تنكيرُ قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾، أي: طائفةٌ منهم - لا على التَّعيين - شأنُهمُ الفُرقة وشقُّ عصا الطّاعةِ ومخالفةِ الجماعة[1]، وللدِّلالة كذلك على التَّحقير والتَّقليل، أيْ: طائفةٌ منهم مِن شأنهم تفرُّقهم في أنفسِهم، وهم في أنفسِهم أحقرُ مِن أن يكونَ لهم وجودٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُمُ﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: بعضُ المنافقين، وهم مَن كان شأنُهم زرْعَ التَّفرقةِ بين صفوفِ المسلمين، ولبيانِ ما هم عليهِ مِن قصدِ إحداثِ الخَلَلِ والفُرقة[2].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

التَّعريفُ بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على ما عُهِدَ به هذا النَّبيُّ الكريمُ ﷺ من حُسْنِ الخَلْقِ والخُلُق، وما لديْهِ من جلالةِ الشَّمائلِ وكريمِ الخِصال[3].

كثرةُ المعاني واتِّساعُها تبعًا للتقديرات المبنيَّة على احتمالاتِ الإعراب

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

في فصلِ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ على أنَّها معترضةٌ بين جملةِ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ وجملة: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ [الأحزاب: 16]؛ للدَّلالةِ على أنَّ اسْتئذانَهم وتعليلَهم له - بقولهم: إنَّ بيوتَنا عورةٌ - حُجَّةٌ داحِضة؛ لأنَّها قائمةٌ على الكَذِب، فإنَّ المدينةَ كانتْ محصَّنةً يومئذٍ بخَنْدَقٍ، وكان جيشُ المسلمين حارسَها[4]، وفي فصلِه على أنَّها بدلٌ من ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، أو استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤال عن كيفيَّة الاستئذان، أو حال، ولكلٍّ واحدةٍ منها معنًى، فإن كانت

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 307.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 460، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 307، وقال النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 21: "أي: بنو حارثة".

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 307.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 286.

استئنافًا؛ فالكلامُ جديدٌ جاء بناءً على كلام مقدَّرٍ، وتقديرُه: كيف استأذنوا؟ قالوا: إنَّ بيوتَنا عورةٌ، وهذا تعليلٌ للاستئذانِ، أو بدل من ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، فكأنَّه قال: يستأذنونَ، ماذا يقولونَ في الاستئذانِ؟ يقولون: إنَّ بيوتنا عورةٌ، أو أنَّها حالٌ، أي: يستأذنون حالَ قولهم: إنَّ بيوتنا عورةٌ، وفي كلٍّ تقديرٌ جديد.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ وموقعه:

تكرارُ استئذانِ المنافقينِ حالَ كونِهم كاذبين

جيءَ بالفعلِ المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يَلحّون في الاستئذانِ، ويُكرِّرونه، ويُجدِّدونَه[1]، وجملةُ ﴿يَقُولُونَ﴾ بدلٌ من ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، أوِ استئنافٌ مبنيٌّ على السُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستئذانِ أو حال، أي: حالَ كونِهم يقولون في كلِّ قليلٍ مؤكِّدينَ لعلمِهم بكذبِهم وتكذيبِ المؤمنينَ لهم في قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[2].

نكتةُ توكيدِهم القول: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾:

معرفةُ المنافقينَ بأنَّهم كاذبونَ وإظهارهم لكذبِهم في صورة الصِّدق

التَّأكيدُ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهم: إنَّ بيوتَنا عَوْرةٌ، تَمْويهٌ لإظهارِ قولِهم: بيوتُنا عورةٌ في صورةِ الصِّدق، ولَمّا علموا أنَّهم كاذبونَ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلمُ كذِبَهم؛ جعلوا تكذيبَه إيّاهم في صورةِ أنَّه يشُكُّ في صِدقِهم، فأكَّدوا الخَبَرَ[3]، بأداة تأكيدٍ واحدةٍ على أنَّهم يخاطبون مَن يشكُّ في كلامهم.

بلاغةُ التعبير بـ﴿عَوْرَةٌ﴾:

جاءَ وصفُ البيوت بلفظ العورةِ للمبالغةِ؛ إذ هو الأنسبُ في مقامِ الاعْتذار، كما يُفصِحُ عنه تصديرُ مقالتِهم بحرفِ التَّحقيق[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَوْرَةٌ﴾ في المرَّتَيْن:

جاءَ تنكيرُ ﴿عَوْرَةٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 285.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 307، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 406.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 286.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.

﴿بِعَوۡرَةٍۖ﴾ مبالغةً في وصفِها بهذا الوصف، فهي غيرُ حصينةٍ مُعرَّضةٌ للعدوِّ والسُّرّاق[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ للبيوتِ بالعَوْرة:

تشبيهُ البيوتِ في انْكشافِها بعورةِ الإنسانِ

العَوْرةُ: سَوْءَةُ الإنسانِ، وكلُّ أمرٍ يُستَحْيا منه؛ فهو عَوْرة[2]، والعَوْرَةُ في الأصلِ: الخَلَل، أُطلِقَتْ على المختلِّ مبالغةً، فكما أنَّ المختلَّ قدِ انْكشفَ حالُه في أقوالِه وأفعالِه عن ذهابِ عقلِه أو نقصانِه، فكذلك بيوتُ المنافقين - كما زعموا كاذبينَ - منكشفةٌ للعدوِّ، خاليةٌ للسُّرّاق، فهي ذاتُ عَوْرة، أي: ذاتُ خللٍ جعلَها عُرضةً لنهبِ السُّرّاقِ وتسلُّطِ الأعداءِ على سبيلِ التَّشبيهِ البليغ[3].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾:

بيانُ سببِ استئذانِهم وكذبِهم في قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾

قولُه تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ أو اعتراضيَّةٌ تبيِّنُ سببَ اسْتئذانِهم وما يريدونَهُ به، ممّا أغْفلوه تحايُلًا للهروبِ من عَسكرِ المسلمين، وخوفًا من القتل، وفي فصلِ هذه الجملةِ تأكيدٌ لكذِبِهم ودَحضٌ لحُجَّتِهم الواهية[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾:

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ نافيةٌ بمعنَى (ما) الَّتي تفيدُ المبالغةَ في النَّفي، أي: ما يريدون بالاسْتئذانِ إلّا فرارًا مِنَ القتال، أو فرارًا من الدّين[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾:

استعمالُ النَّظمِ الكريمِ لصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى اسْتمرارِ إرادتِهم وتجدُّدِها مع اسْتمرارِ ما هم عليه من النِّفاق، فإرادةُ المنافقين قائمةٌ على الكذبِ الواضحِ الفاضح[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 406.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 461، والسّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 9/ 101.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 4/ 254، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 406.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 286، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 351.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 406، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 285.

دلالةُ الاستثناءِ في ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾:

دلَّ الاسْتثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أنَّه لَمّا كانتْ عنايتُهم مشتدَّةً بملازمةِ دورِهم؛ أظهروا اشْتدادَ العنايةِ بحمايتِها زورًا، وما كان قصدُهم إلّا الفرارَ مِنَ القتال، وفيه ما فيه من حصرِ قصدِهم في هذا القصدِ دون سواه؛ مبالغةً في إظهارِ النَّظمِ القرآنيِّ له، وتأكيدًا على كذبِهم الواضح[1].

المبالغةُ في حصرِ قصدِ الفرارِ دون سواه

نكتةُ تنكير ﴿فِرَارًا﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِرَارًا﴾ نكرةً لقصدِ المبالغةِ في إظهارِ قصدِهمُ الحقيقيِّ من قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وتأكيدِ النَّفيِ في قوله تعالى في حقِّهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، وذلك كلُّه لتكذيبِهم في إظهارِهمُ التَّخوُّفَ على بيوتِهم، وأنَّ مرادَهم خَذْلُ المسلمين[2].

فضْحُ المنافقين في تأكيدِ قصدِهم خذْلَ المسلمين

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ قصْرُ قلْبٍ، أي: ما يريدُ المنافقون مِن دعواهم أنَّ بيوتَهم عورةٌ إلّا فرارًا مِن القتال، وغرضُه المبالغةُ في تأكيدِ كَذِبهم، وأنَّ حجَّتَهم داحضةٌ ليس لها أيَّةُ مصداقيَّةٍ في الواقع[3].

الرَّدُّ على دعوى المنافقينَ على عكس ادِّعائِهم وتأكيد كذبِهم في دعواهم

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطّائفة والفريق والفئة والحزب:

الطّائفةُ في الأصلِ الجماعةُ الَّتي من شأنِها الطَّوْفُ في البلادِ للسَّفر، ويجوزُ أن يكونَ أصلُها الجماعةَ الَّتي تستوي بها حَلْقةٌ يُطافُ عليها، ثمَّ كَثُر ذلك حتَّى سُمّيتْ كلُّ جماعةٍ طائفةً، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرات:

ألفاظٌ تتقاربُ في الدّلالة ولكلٍّ منها ما يميّزها

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 219، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 286.
(3) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 23 - 24.

9]، ويمكنُ أن يكونَ المُرادُ بالطّائفةِ واحدًا، قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2][1].

والفَريقُ: الجماعةُ الثّانيةُ من جماعةٍ أكثرَ منها، تقول: جاءني فريقٌ مِنَ القومِ[2]، فالفريقُ هو الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخَرين، قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشّورى: 7].

والفئةُ: هي الجماعةُ المتفرِّقةُ من غيرِها، المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد، من قولك: فَأَوْتُ رأسَه، أي: فلَقْتَهُ، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 249]، والفئةُ في الحربِ القومُ يكونون رِدْءَ المحاربينَ يَعْنون إليهم؛ إذا حالوا، ومنه قولُه ﷻ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16]، ثمَّ قيل لجمعِ كلِّ مَن يمنعُ أحدًا، وينصرُه: فئةٌ، والفئةُ: الأعوان[3].

والحزبُ: الجماعةُ تتحزَّبُ على الأمرِ، أي: تتعاونُ، والأصلُ أنَّها جماعةٌ فيها غِلَظٌ، قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: 19]، وحزبُ الرَّجُلِ: الجماعةُ الَّتي تعينُه، فيقوَى أمرُه بهم، وهو مِن قولك: حزَبَني الأمرُ؛ إذا اشْتدَّ عليَّ[4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 334، والرَّاغب، المفردات: (طوف).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165، والرَّاغب، المفردات: (فرق).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396، والرَّاغب، المفردات: (فيأ).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 415، والرَّاغب، المفردات: (حزب).

﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ [الأحزاب: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أظهرَ المنافقون بالِغَ عنايتِهم بدورِهم؛ فرّوا منها خوفًا مِنَ القتل

لَمّا كانت عنايةُ المنافقين مَشتدَّةٌ بملازمةِ دورهم، فأظْهروا اشْتدادَ العنايةِ بحمايتِها زورًا؛ بيَّن اللهُ ذلك، ودلَّ عليه بالإسنادِ إلى الدّور؛ تنبيهًا على أنّها ربَّةُ الحمايةِ والعُمدةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾، أي: من جوانبِ بيوتِهم، ثمَّ سُئِلوا الخروجَ منها فارّين بأنفُسِهم؛ لَخرجوا دونَ تَرَيُّثٍ خوفًا من القتل(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡطَارِهَا﴾: (قطر) هَذا بابٌ غَيْرُ مَوْضوعٍ عَلَى قياسٍ، وكَلِمُهُ مُتَبايِنَةُ الأُصولِ(2)، والقطر: الناحيةُ والجانبُ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرَّحمن: 33]، أي: نواحيها وجوانبها، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾، أي: جوانبِ المدينة(3)، أو جوانبِ البيوت(4).

2) ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾: (فتن) أَصْلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ابْتلاءٍ واخْتبار، من ذلك الفِتْنةُ، يقالُ: فَتَنْتُ أفْتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهبَ بالنّار؛ إذا امْتحنتَهُ لتظهرَ جودته من رَداءتِه، واسْتُعمل في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، والفَتْنُ: الإحراقُ، ومنه إحراقُ الذَّهبِ بالنّار، ويُقالُ للحَرَّةِ: فتينٌ، كأنَّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308 - 309.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطر).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 337.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 220.

حجارتَها مَحْرَقةٌ، وجُعلَتِ الفتنةُ كالبلاءِ في أنَّهما يُستعمَلانِ فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من شدَّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشِّدَّةِ أظهرُ معنًى وأكثرُ اسْتعمالًا، وقد قال اللهُ تعالى فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35](1).

3) ﴿تَلَبَّثُوٓاْ﴾: (لبث) حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّثٍ(2)، لَبِثَ بالمكانِ: أقامَ به مُلازِمًا له، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14](3)، وتلَبَّثوا بمعنى: أقاموا(4)، واللُّبث: ملازمةٌ للمكان ممتدَّة، أو المكثُ في المكان لزمان ما، فيُقال: لبث طويلًا، أو لبث في بلد كذا، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾، أي: ما أُحْبِسوا مِنَ الإجابةِ إلى الكفرِ(5)، أو: ما أقاموا بالمدينةِ إلّا يسيرًا بعد إعطاءِ الكفرِ حتَّى يهلكوا(6).

4) ﴿يَسِيرٗا﴾: (يسر) أصلانِ يدلُّ أحدهُما علَى انفِتاحِ شَيءٍ وخفَّتِه، والآخَرُ علَى عُضوٍ مِنَ الأعضاءِ(7)، واليُسْرُ بسكونِ السّين وضمِّها: السُّهولةُ، وهو ضدُّ العُسْر، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ثم استُعْمِلَ في القليل لسهولتِه، واليَسيرُ: الشَّيء السَّهل الهيِّنُ القليلُ، وتيسَّرَ كذا، واسْتَيْسَرَ، أي: تسهَّلَ، كما قال تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزّمّل: 20]، و(اليسيرُ) يقال في الشَّيءِ الهيِّن السَّهل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحجّ: 70]، و(اليسيرُ) يقالُ في الشَّيءِ القليل(8)، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ أي: قليلًا(9).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن هؤلاءِ الَّذين يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ أنَّهم لو دخلَ عليهمُ الأعداءُ من كلِّ جانبٍ من جوانبِ المدينة، وقُطْرٍ مِن أقْطارِها، ثمَّ سُئِلوا الفتنةَ، وهي

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (فتن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(3) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (لبث).
(4) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 337، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 349.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 136.
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 150.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(8) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 337، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 349، وابن جرير، جامع البيان: 11/ 136، وابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 361.
(9) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (يسر).

الدُّخولُ في الكفر؛ لكفروا سريعًا، وهم لا يُحافِظون على الإيمان، ولا يَستمسِكونَ به مع أدْنَى خَوْفٍ وفزَع، وهذا ذمٌّ لهم في غايةِ الذَّمِّ[1].

مَن اغتنى بالإيمانِ في قلبِهِ؛ كُفيَ همَّ داره، ومَن نافق؛ خسر إيمانَهُ ودارَهُ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَلَوْ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ عاطفةٌ، وهي تفيدُ زيادةَ تقريرِ الجملةِ الَّتي قبلَها وتأكيدِها: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، فإنَّها لتكذيبِهم في إظهارِهمُ التَّخوُّفَ على بيوتِهم، ومُرادُهم خَذْلُ المسلمين[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

تأكيدُ كذبِ المنافقين وحرصِهم على الكَيْدِ للمسلمين

(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ أداةُ الشَّرط، و﴿سُئِلُوا۟﴾ فعلُ الشَّرط، و﴿لَآتَوْهَا﴾ اللّامُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ (أتَوْها)[3]، والتَّعبيرُ بهذه الجملةِ بدءًا بأداتِها (لو) - الَّتي تفيدُ امْتناعَ تحقُّقِ الجوابِ لامْتناعِ وجودِ فعلِه - يفيدُ أنَّ ما نُسبَ إليهم من قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ما هو إلّا مَحضُ كَذِبٍ وزور، وأنَّهم يدفعونَ بحُجَّةٍ واهية، وأنَّ مدارَ أمرِهم قائمٌ على إتْيانِ الفتنة، أيْ: فتنتِهم للمسلمين بالكَيْدِ لهم وإلقاءِ التَّخاذلِ في جيشِهم[4].

سرُّ مجيءِ (لو) دون بقيَّةِ أدواتِ الشَّرط:

امتناعُ إتيانِ السُّرّاقِ بيوتَ المنافقين لامتناعِ دخولِ الأحزابِ المدينةَ

(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ تفيدُ امْتناعَ تحقُّقِ الجوابِ ﴿لَآتَوْهَا﴾؛ لامتناعِ وجودِ فعلِه، وهو الدُّخولُ، وهي هنا تعني: تأكيدَ أنَّ ما يدَّعيه المنافقون من انْكشافِ بيوتِهم وخوفِهم عليها من السُّرّاقِ إن هو إلّا كذبٌ وزورٌ، حيث لم يدخلِ الأعداءُ المدينةَ، وأنَّ إرادتَهم متوجِّهةٌ لإثارةِ الفتنةِ في جيشِ المسلمين[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 442.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 286.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 614.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287 - 288.

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿دُخِلَتْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

المجهولُ في حقِّ المنافقين مناسبٌ لجهالةِ حُجَّتِهم في حمايةِ دورِهم

بناءُ ﴿دُخِلَتْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه مُقتضٍ فاعلًا محذوفًا، فالمُرادُ: دخولُ الدّاخلينَ على أهلِ المدينة، كما جاءَ على الأصلِ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [المائدة: 23]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لَمّا أظهروا اشْتدادَ العنايةِ بحمايةِ دورِهم - كذِبًا - بيَّن اللّهُ ذلك، ودلَّ عليه بالإسنادِ إلى الدّور تنبيهًا على أنَّها ربَّةُ الحماية والعُمدة[1]، وأُسنِدَ فعلُ ﴿دُخِلَتْ﴾ إلى ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لظهورِ أنَّ فاعلَ الدُّخولِ قومٌ غُزاة[2]، وهذا معلوم بدلالةِ الحالِ.

نكتةُ تأنيثِ الفعل ﴿دُخِلَتْ﴾:

أنَّثَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿دُخِلَتْ﴾؛ نصًّا على الدُّخولِ إلى الدّورِ، وإشارةً إلى أنَّ ما يُنسَبَ إليهم جَديرٌ بالضَّعف[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ حججَهم الَّتي قالوها واهيةٌ.

نكتةُ تعديةِ الدُّخولِ بحرفِ الاسْتعلاء:

دخولُ الأعداءِ دخولُ غَلَبةٍ وتَسَلُّط

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بأداةِ الاسْتعلاءِ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾ إشارةً إلى أنَّه دخولُ غَلَبَةٍ وقهرٍ وتسلُّط[4]، فهو يُعدَّى غالبًا إلى المغزوّين، فهو ليس دخولَ ضيافةٍ أو تجوُّلٍ أو تجسُّس[5]، وفيه كذلك إشارةٌ إلى فرضِ وجودِهم في تلكَ البيوت[6]، أي: عليهم، وهم في دورِهم.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ على قوله: ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾:

الاهتمامُ بدخولِ دورِهم، وهم فيها

في تقديمِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قولِه تعالى: ﴿دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ إشارةٌ جَليَّةٌ على أنَّ الاهتمامَ مُنْصَبٌّ في حُجَّتِهم الكاذبةِ على تلك

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.

البيوتِ في خلوِّها ممَّن يدافعُ عن أهلِها وعَنْها، وفيه إشارةٌ كذلكَ إلى أنَّ المُرادَ فَرضُ دخولِها، وهم فيها، لا فرضُ دخولِها مُطلقًا(1).

بلاغةُ الضَّميرِ في ﴿دُخِلَتْ﴾:

في عَودِ الضميرِ المُستترِ في قولِه تعالى: ﴿دُخِلَتْ﴾ قولان: **أحدُهما:** أنَّ المُرادَ المدينة، أي: ولو دُخِلَتِ المدينةُ مِن أقْطارِها(2)؛ لأنَّ لفظَ الأقطارِ يُناسبُ المُدُنَ والمواطنَ، ولا يُناسبُ البُيوت، فيصيرُ المعنَى: لو دخلَ الغُزاةُ عليهمُ المدينةَ، وهم قاطنونَ فيها(3)، **والثّاني:** البيوتُ، كما هو الظّاهرُ؛ إذْ هو أقربُ مذكورٍ، أي: لو دخلَ كلُّ مَن أرادَ الدُّخولَ مِن أهلِ الدَّعارةِ والفسادِ بيوتَهم، وهم فيها من أقطارِها(4)، والقولانِ سائغانِ في بيانِ المعنَى المراد، فالجمعُ بينهما أَوْلى مِن إفرادِ أحدِهما دونَ الآخرِ، ولأنَّ دخولَ البيوتِ دخولٌ للمدينةِ؛ لأنَّها واقعةٌ فيها.

الجمعُ بينَ دخولِ البيوتِ ودخولِ المدينة

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِّنْ﴾:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ بيانيَّةٌ، أيْ: ولو دُخِلَتِ المدينةُ أو بيوتُهم من أيِّ داخلٍ من كلِّ وجهاتها(5).

دلالةُ جمعِ القلَّةِ في (الأقطار):

حظيتِ المدينةُ بالحماية الرَّبّانيَّةِ من خلال الجبالِ البركانيَّةِ التي تحيط بأكثرِها، ولا يمكنُ دخولُ المدينةِ إلّا من جهتين: جهةِ الشَّمال الغربيِّ الَّذي هو طريقُ القوافل والجيوش، وطريقٌ ضيِّقةٌ من جهة الجنوبِ التي كان يسيطر عليها اليهودُ، وما عدا ذلك لا يستطيعُ راكبٌ ولا راجل أن يدخلَ المدينة، لوجودِ حجارةِ الجبالِ الحارَّة المدبَّبة التي لا يستطيع رَجلٌ ولا دابَّةٌ المشي عليها.

قلَّةُ الجهاتِ الَّتي يمكنُ دخولُ العدوِّ منها إلى المدينة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 337، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 374.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287.
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 220، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 461، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308.

دلالةُ إضافةِ الجمع إلى الضَّمير: ﴿أَقۡطَارِهَا﴾:

بيـانُ مدى خوفِ المنافقين وذُعرهم

مِن صيغِ العموم إضافةُ الجمعِ إلى المعرفة، فكأنَّ المدينةَ لو كان لها مئةُ ناحيةٍ وجانبٍ وطريقٍ يمكن أن يدلَّ منها، ودخلت عليهم من كلِّ أقطارِها، وإنَّما جيءَ بلفظ العموم هكذا ليصوِّرَ الخوفَ والفزع في قلوبِ المنافقينَ؛ إذ لا يمكنُ لجيش أن يدخلَ المدينةَ إلّا مِن جهةٍ واحدة كبيرةٍ وجهةٍ أخرى صغيرةٍ، ومع ذلك تصوَّروا أنَّ المدينةَ لها جوانبُ كثيرةٌ ونواحٍ متعدِّدةٌ يمكن أن يدخلَ المشركون إليها منها، فالعمومُ هاهنا مع قلَّة الطُّرق المؤدّية إلى داخلِ المدينةِ هو في خيال المنافقينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأقطارِ وإضافتِها إلى ضميرِ المدينة:

اشْـتـدادُ خـوفِ المـنـافـقـين مِـن دخـولِ الأحـزابِ المدينة

جاءَ التَّعبيرُ بالأقطارِ وإضافتِها إلى ضميرِ المدينةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾؛ لإفادة العموم، وللدَّلالةِ على اشْتدادِ الخوفِ الحقيقيِّ في قلوبِ المنافقين[1]، وأنَّ هذا الخوفَ - بسبب ضعفِ الإيمانِ المُسْتشري في قلوبهم - وصلَ إلى درجةِ اعتقادِهم أنَّ الأحزابَ سيلتَهمونَ المدينةَ، وكأنَّها لقمةٌ سائغةٌ، وسيُدمِّرون بيوتَهم، ويسرِقون أموالهم، ويحصدون زروعَهم، كأنَّها لم تَغْنَ بالأمْسِ.

بلاغةُ التعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾:

لَمّا كان قصدُ الفرارِ مع الإحاطةِ بالدّارِ من جميعِ الأقطار دون الاسْتقتالِ؛ للدَّفعِ عنِ الأهلِ والمال بعيدًا عن أفعالِ الرِّجال؛ عبَّرَ بـ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ التَّراخي مع التَّرتيبِ الرُّتَبي[2]، فقال: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾.

نكتةُ العدولِ عنِ الواوِ إلى ﴿ثُمَّ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ ما بعد (ثمَّ) أهمُّ ممّا قبلَها

كان مقتضى الظّاهرِ أن يُعطفَ بالواوِ لا بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ المذكورَ بعد ﴿ثُمَّ﴾ هنا داخلٌ في فعلِ شرطِ (لو)، ووارِدٌ عليه جوابُها، فعدَلَ عن

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 374.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 287.

الواوِ إلى ﴿ثُمَّ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ ما بعدَ ﴿ثُمَّ﴾ أهمُّ مِنَ الَّذي قبلَها كشأنِ ﴿ثُمَّ﴾ في عطفِ الجُمل، أيّ: إنَّهم مع ذلك يأتونَ الفتنةَ[1].

بلاغةُ القصرِ بالسُّؤال دون الطَّلب: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾:

السّائلُ ضعيفٌ محتاج

عبَّر السياق القرآنيُّ بالسؤال دون غيرهِ في قوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾، دون غيرهِ من الأفعال مثل: طلبَ مِنهم، أو أُمروا بالفتنة؛ للدِّلالة على شدَّة ضعفهم؛ إذ إنَّ السّائل ضعيفٌ محتاجٌ، ومع ذلك لو سألَهُم ضعيفٌ؛ لانصاعوا له، وتبعوا أمرَهُ، مع أنَّهم يقدرون صدَّهُ ومنْعَهُ وقتْلَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الذي لم يُسمَّ فاعلُهُ ﴿سُئِلُواْ﴾:

اسْـتـعـدادُ المنافقينَ التّامُّ لإجابةِ أي داعٍ للفتنةِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المبنيِّ للمجهول ﴿سُئِلُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المنافقينَ على اسْتعدادٍ تامٍّ أنَّه لو دخلَتْ جيوشُ الأحزابِ المدينةَ، وبقيَ جيشُ المسلمين خارجَها - أيّ: مثلًا؛ لأنَّ الكلامَ على الفَرضِ والتَّقدير - وسألَ الجيشُ الدّاخلُ الفريقَ المُسْتأذِنينَ أن يُلْقوا الفتنةَ في المسلمينَ بالتَّفريقِ والتَّخذيلِ؛ لخرَجوا لذلك القصدِ مُسرعين، ولم يُثبِّطْهمُ الخوفُ على بيوتِهم أن يدخُلَها اللُّصوصُ، أو يَنْهَبَها الجيشُ[2]، ولو سألوهم إعلانَ الكفرِ الصَّريح؛ لأجابوهم في الحال دونَ أن يدافعوا عنِ الأعراضِ والأموال الَّتي في البيوتِ.

بلاغةُ (أل) في ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾:

اتِّسـاعُ المعاني الَّتي تـدلُّ على ضعفِ المنافقين

(أل) التَّعريف في ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ للعهد، وتفيدُ الدِّلالةَ على ما عُهِدَ من حرصِ المنافقين على القيامِ بالفتنةِ في صفوفِ المسلمين، وخاصَّةً في الغزوات، وذلك بالكيدِ لهم وإلقاءِ التَّخاذلِ في جيشِهم[3]، أو للجنس أو للاستغراق، أي: لو سُئِلوا أيَّ فتنةٍ من جنس الفتنِ؛ لآتَوها، أو سُئِلوا كلَّ أفرادِ الفتن؛ لآتَوها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.

بلاغةُ اللّام في ﴿لَآتَوۡهَا﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿لَآتَوۡهَا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشرط، وتفيدُ تحقُّقَ إتيانِهم للفتنة، بل مسارعتَهم للقيامِ بها، وإتيانِها في أيِّ مكانٍ وأيِّ مَظِنَّة(1).

بلاغةُ الاسْتعارةِ في إتيانِ الفتنة:

المسارعةُ في طاعةِ مَنْ يطلبُ الفتنةَ والقيامَ بها

الإتيانُ: القدومُ إلى مكانٍ ما، والفتنةُ ليست أمرًا حسّيًا يُؤتَى، وإنَّما هو اسْتعارةُ الإتيانِ للفتنة - وهي أمرٌ معنويٌّ - يفيدُ المبالغةَ في التَّشبيه، وقد أشعرَ هذا الفعلُ ﴿لَآتَوۡهَا﴾ بأنَّهم يخرجونَ من المدينةِ الَّتي كانوا فيها؛ ليفتِنوا المسلمين، ويَكيدوا لهم بإلقاءِ التَّخاذلِ في قلوبهم، وتثبيطِهم عمّا هُم بصددِه مِنَ الاسْتعدادِ لقتالِ الأعداء(2)، أو يخرجون من الدين ظاهرًا وباطنًا، ويعلنون الظَّفرَ الصَّريح، وفي هذا التَّعبيرِ في إتيانِ الفتنةِ كنايةٌ عن إطاعتِهم واتِّباعهم في المسارعةِ في بذلِ ما يحقِّقُ قيامَ الفتنةِ بين المسلمين(3)، بإلقاءِ التَّخاذلِ في قلوبِهم أو بإعلانِهم الكفرَ.

بلاغةُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿لَآتَوۡهَا﴾:

لو سُئِلَ المنافقون الفتنةَ لَأَعْطَوْها وفعلوها

في قولِه تعالى: ﴿لَآتَوۡهَا﴾ قراءتانِ متواترتان(4)، الأولى: ﴿لَآتَوۡهَا﴾ بالمدِّ، والثّانية: ﴿لَأَتَوۡهَا﴾ بالقَصْر، وقولُه: ﴿لَآتَوۡهَا﴾، أي: لَما امْتنعوا منها، ولأَعْطَوْها، وقولُه: ﴿لَأَتَوۡهَا﴾، أي: لجاؤوها وفعلوها أو قصدوها، وحُجَّتُهم أنَّ الإعطاءَ مع السُّؤال حَسَنٌ، أي: لو قيلَ لهم: كونوا على المسلمين مع المشركين؛ لفعلوا ذلك، ولو دُعوا إلى الشِّرك؛ لَأجابوا، وأَعْطَوْها(5)، قال أهلُ المعاني: هذا إخبارٌ عن ظهورِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 158.
(4) الثانية قراءة نافع، وابن كثير، وأبي جعفر، والأولى قراءة الباقين، يُنظر: ابن زنجلة، الحجّة، ص: 574، والداني، التَّيسير، ص: 178.
(5) ابن زنجلة، الحُجّة، ص: 574 - 575، والفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 337، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 220، ومكّيّ، الكشف: 2/ 196.

فضيحتِهم، وعدمِ نُصرَتِهم عند وقوعِ الشِّدَّةِ بإبداءِ المكتوم، وإعطاءِ الفتنة، وإظهارِ الرِّدَّة[1].

بلاغةُ العطفِ بالواو في ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾:

تأكيدُ إتيانِ المنافقين للفتنةِ وخُلوِّهم عن أفعالِ الرِّجال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾ عاطفةٌ جُملتَها على جملة ﴿لَآتَوْهَا﴾، وهي تفيدُ تأكيدَ إتيانِ المنافقين للفتنةِ ومسارعتِهم إليها مع ما وقعوا فيه من شرٍّ وبيلٍ - ممّا يُعدُّ عارًا في أخلاقِ العربِ وعُرفِهم الأصيل - وهو الفرارُ من القتالِ للدَّفعِ عن الأهلِ والمالِ والدّيار؛ بعيدًا عن أفعالِ الرِّجال، وهي أشدُّ فتنةً، حيث لا يُخرِجُ الإنسانَ من بيتِه إلّا الموتُ، أو ما يقاربُه كان كأنَّه لا فتنةَ سواهُ، فكيفَ بالمسارعةِ لإتيانِ ذلك؟![2].

بلاغةُ القَصْرِ في: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾:

قصْرُ المنافقين على صفةِ إتيانِ الفتنةِ دون تأخُّرٍ ألْبتة

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ قَصَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّلبُّثَ بالفتنةِ على الوقتِ القليلِ، كما دلَّتْ عليه ﴿إِلَّا﴾ الَّتي هي أداةُ حَصْرٍ بعد النَّفي، وهذا القَصْرُ إضافيٌّ لوجودِ صفاتٍ أُخْرَى في المنافقين غيرِ هذه الصِّفة، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة، فصفةُ التَّعجُّل في إتيانِ الفتنةِ وفعلِها وإعطائها من صفاتِ المنافقين وحدهم[3]، وذلك لبيانِ أنَّهم مسرعونَ إلى الفتنةِ راغبونَ فيها، لا يقفونَ عنها إلّا مجرَّد وقوعِ السُّؤالِ لهم، وكذلك فيه إظهارُ ما قام عليه نفاقُهم، وهو أنَّهم إذا دُعوا إلى الحقِّ؛ تعلَّلوا بشيءٍ يسيرٍ هرَبًا منه، وإن دُعوا إلى الباطلِ؛ سارعوا إليه من غيرِ صارفٍ يَلْويهم ولا عاطفٍ يُثنيهم[4]، وما ذلك إلّا لمَقْتِهمُ الإسلامَ وشدَّةِ بغضِهم لأهله، وحبِّهمُ الكفرَ وتهالُكِهم على حزبه[5].

---

(1) النَّحاس، معاني القرآن: 5/ 334، والفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 337، والزَّجَّاج، معاني القرآن: 4/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 308 - 309.
(3) فضل، أساليب البيان، ص: 172 - 173.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 406 - 407، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 351.
(5) الكشَّاف، الزَّمخشري: 3/ 254.

المنافقون مذعورون لا يمكنهم أن يتلبَّثوا

وكذلكَ فإنَّ هذا القَصْرَ تهكُّمٌ بهم، فيكون المقصودُ تأكيدَ النَّفيِ بصورةِ الحصر، ويُحتمَلُ أنَّه على ظاهرِه، أيْ: ريثما يتأمَّلونَ، فلا يُطيلونَ التَّأمُّلَ، فيكونُ المقصودُ من ذكرِه تأكيدَ قلَّةِ التَّلبُّث(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَلَبَّثُواْ﴾:

التَّلبُّثُ: اللُّبْثُ، أي: الاسْتقرارُ في المكان، والتَّعبيرُ به بصيغةِ المبالغةِ؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ مُسارعتِهم وعدمِ تأخُّرِهم في تلبيةِ طلبِ الفتنةِ وإتْيانِها، ريثما يكون السُّؤالُ والجوابُ من غيرِ توقُّف(2).

بلاغةُ الاسْتعارةِ في التَّلبُّث:

عدمُ إبطاءِ المنافقين بالسَّعي في الفتنة

التَّلبُّثُ هنا مستعارٌ للإبطاء، أي: ما أبطَؤوا بالسَّعيِ في الفتنةِ، ولا خافوا أن تُؤخَذَ بيوتُهم، والمعنَى: لو دخَلَتْ جيوشُ الأحزابِ المدينةَ، وبقيَ جيشُ المسلمين خارجَها - أيْ: مثلًا؛ لأنَّ الكلامَ على الفرض والتَّقدير - وسألَ الجيشُ الدّاخلُ فريقَ المُستأذِنين أن يُلْقوا الفتنةَ في المسلمينَ بالتَّفريقِ والتَّخذيل؛ لخَرجوا لذلك القصدِ مُسرعين، ولم يثبِّطْهمُ الخوفُ على بيوتِهم أن يدخلَها اللُّصوصُ أو يَنْهَبَها الجيش، إمّا لأنَّهم آمنون من أن يَلْقَوا سوءًا من الجيشِ الدّاخل؛ لأنَّهم أولياءُ له ومعاونون، فهُم منهم وإليهم، وإمّا لأنَّ كراهتَهم للإسلامِ تجعلُهم لا يكْترثونَ بِنَهْبِ بُيوتِهم(3).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِهَآ﴾:

كثرةُ المعاني تَبَعٌ لتعدُّدِ معاني الباء

الباءُ في قوله: ﴿بِهَآ﴾ للتَّعديَةِ، أيْ: ما لبثوها، وما أخَّروها إلّا يسيرًا، أي: إلّا تلبُّثًا يسيرًا، أو إلّا زمانًا يسيرًا، وهو مقدارُ ما يأخذونَ به سلاحَهم، أو مقدارُ ما يُجيبون السُّؤالَ فيه، وكلاهما من بابِ التَّمثيل، والمُرادُ أنَّهم لو سألَهم غيرُك القتال، وهم في أشدِّ حال،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.

وأعظمِ البال؛ لَأسرعوا جدًّا، فضلًا عنِ التَّعلُّلِ باخْتلالِ البيوتِ مع سلامتها، كما فعلوا الآن.

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ في ﴿بِهَآ﴾ للظَّرفيَّة على أنَّ ضميرَ ﴿دُخِلَتْ﴾ للمدينة، كما يجوزُ أن تكونَ الباءُ سببيَّة، والمعنَى على تقدير مضاف، أي: ولم يتلبَّثوا بسبب حفظها، ويجوزُ أن تكونَ الباءُ للمُلابسة، والضَّميرُ على كلِّ تقديرٍ للبيوت[1]، وجميعُ المعاني سائغةٌ؛ لأنَّها تُقوّي المعنى الأصل المُراد.

نكتة ذِكْر الضَّمير في ﴿بِهَآ﴾:

تنوُّعُ المعاني، واللفظ واحدٌ

الضَّميرُ في قوله: ﴿بِهَآ﴾ أي: بالفتنة[2]، أي: ما تلبَّثوا في فعلِ الفتنةِ، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ للمدينة، أي: وما لبثوا بعد ارْتدادهِم إلّا يسيرًا، فإنَّ اللهَ يُهلكُهم، ويُخرِجُهم بالمؤمنين[3]، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ للبيوت، أي: ولم يتلبَّثوا في بيوتِهم لحفظِها إلّا يسيرًا[4].

بلاغةُ الاستثناء في: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾:

الاسْتثناءُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ مفرَّغٌ، يُظهرُ أنَّه تهكُّمٌ بهم، فيكونُ المقصودُ تأكيدَ النَّفي بصورةِ الاسْتثناءِ، ويُحتمَلُ أنَّه على ظاهرِه، أي: إلّا ريثما يتأمَّلونَ، فلا يُطيلونَ التَّأمُّل[5].

بلاغةُ حذفِ الموصوفِ في: ﴿يَسِيرًا﴾:

قصدُ العمومِ إلى كلِّ المعاني الممكنةِ

قولُه تعالى: ﴿يَسِيرًا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، ويُقدَّر هذا المحذوفُ بتقديراتٍ كثيرة، إما باعتبار الزَّمان، أيّ: ما تلبَّثوا بها إلّا زمنًا كثيرًا، وإما باعتبار المصدرِ، أيّ: ما تلبَّثوا بها إلا تلبُّسًا يسيرًا، وإمّا باعتبار الفاعل، أيّ: ما تلبَّثوا بها إلّا عددًا يسيرًا، وكلُّ هذه حاصلةٌ موجودةٌ في المنافقين.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 158.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 461.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 374.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.

نكتةُ تنكيرِ ﴿يَسِيرًا﴾:

جاء لفظُ ﴿يَسِيرًا﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يتأمَّلونَ، فلا يُطيلونَ التَّأمُّل، فيكونُ المقصودُ من ذكرِ ﴿يَسِيرًا﴾ تأكيدَ قلَّةِ التَّلبُّث[1]، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يقصدونَ إلّا الفرارَ، لا حفظَ البيوتِ من المضارِّ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 288.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 309.

﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ذِكرُ نقْضِ المنافقين العهدَ بعد ذِكْرِ مسارعتِهم في الفتنة

لَمّا بيَّنَ ﷻ حالَ المنافقين في إتيانِهمُ الفتنةَ والمسارعةِ في فعلِها، وكان قد أظهرَ في موضعِ المذمَّةِ لهم إجابتَهم إلى الفرارِ من ملاقاة الأعداء، حتَّى إنَّهم في ذلك كمَنْ أعطى ما كان في يدِه منه غلبةً وجُبْنًا - وقد كان لهذا عند العربِ مع ما لهم من النَّجدةِ والخوفِ من السُّبَّةِ ما لا يكادُ يُصدَّق - أتبعَ ذلك مؤكِّدًا سوءَ ما هم عليه لأجلِ ما لهم من الإنكارِ والحَلفِ بالكذِب، ممّا يُضيفُ إلى سجلِّ مثالبِهم ما هو أشدُّ سوءًا، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ﴾ هؤلاء الَّذين أسرعوا الإجابةَ إلى الفرارِ ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ الَّذي لا أجلَّ منه مِن قبل هذه الحالةِ وهذه الغزوة، لا يولّونَ أدبارَهم أبدًا لشيءٍ من الأشياءِ خاصَّةً في أرضِ المعركة، وكانَ الوفاءُ بعهدِ الله أوْلَى من غيرِه وألْزم[1].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُوَلُّونَ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ عن قُرْبٍ، من ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقال: جَلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربني، ووَلَّيْتُ وجْهي كذا: أقبلتُ به عليه، وإذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقْتضَى معنَى الإعراضِ وترك القُربِ، وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾: (دبر) تدلُّ تصريفاتُهُ على آخرِ الشَّيءِ وخَلْفِه[2]، ومنه الدُّبر، وهو نقيضُ القُبُل مِن كلِّ شيءٍ[3]، ومنه أدبارُ السُّجود،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 309 - 310.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) الحميري، شمس العلوم: (دبر).

وهي أواخرُ الصَّلوات، وإدْبارُ النُّجوم: عند الصُّبْحِ في آخرِ اللَّيْلِ[1]، ومن ذلك يُقال: ولّاهُ دُبُرَه؛ إذا انْهزَم، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ﴾، أيْ: لا يَفرّون من قتالِ الأعداء، ولا ينهزمونَ بسببٍ منهم[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ عاهدَ اللهَ؛ وجــبَ عليـه الوفاءُ بعهدِه

يذكِّرهمُ اللّهُ ﷻ بما كانوا عاهَدوهُ ﷻ عليه من قبلِ هذا الخوفِ ألّا يولّوا الأدبارَ، ولا يَفرّوا مِنَ الزَّحْف، ولا جرم أنَّ اللّه ﷻ سيسألُهم عن ذلك العهدِ سؤالًا حتمًا[3]، هل وفَّوا به أم أضاعوه؟

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ﴾ عاطفةٌ لجملتِها على ما تقدَّمها، في قولهم: إنَّ بيوتَنا عورةٌ، وفي إتيانِهمُ الفتنةَ، وهي تفيدُ القسمَ وتأكيدَ أنَّهم همُ الَّذين تقدَّم ذكرُهم من قبل[4].

دلالةُ اللّامِ و(قدْ) في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لام القسَم، و(قدْ) حرفُ تحقيقٍ، وكلاهما يفيدُ تأكيدَ هذا الخبرِ في قوله تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية[5].

غرضُ التَّوكيدِ مع أنَّ الخطابَ للمؤمنين:

تنزيلُ السّامعين منزلةَ المتردِّدين في ثباتِهم على عهدهم

وتأكيدُ هذا الخبر - مع أنَّه موجَّهٌ إلى المؤمنين - تنزيلٌ للسّامعين منزلةَ مَنْ يتردَّدُ في أنَّهم عاهدوا اللّهَ عَلى الثَّبات[6]، وفيه إشارةٌ عامَّةٌ للمسلمين وغيرهم، أنَّ كلَّ صاحبِ عهدٍ سيُسأل يومَ القيامةِ عن عهدِه، هل وفَّى بما عاهد عليه؟

---

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 4/ 374، والزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 422.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 3/ 22، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 407.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

نكتةُ دخولِ (كان) على الماضي ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

دخولُ (كان) على الفعلِ الماضي ﴿عَٰهَدُواْ﴾ لتأكيدِ هذا الخبر، وتأكيدِ تحقُّقِ عهدِهم الَّذي ضربوه على أنفُسِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قوله: ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

العهدُ قديمٌ، وهو بمعنَى القَسَم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بقوله تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك العهدَ قديمٌ مستقرٌّ، وهو عهدُ يوم أُحُدٍ، حيث كانوا يومَ أُحُدٍ قد جَبُنوا، ثمَّ تابوا، وعاهدوا النَّبيَّ ﷺ أنَّهم لا يولّونَ الأدبارَ في غزوةٍ بعدها، وهم بنو حارثةَ وبنو سَلَمة[2]، وفيه كذلك إشارةٌ إلى أنَّ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ هنا بمعنَى: أقْسَموا، وفيه تأكيدٌ للخَبَرِ بعهدِهم ذاك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بمعاهدتِهمُ اللهَ مباشرة:

تذكيرُهم بعهدِهم، وزجرُهم على نَقضِه

أُسنِدَ عهدُهم إلى اللهِ مباشرةً في قولِه تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما تقدَّمَ منهم في غزوةِ أُحدٍ، حيث جَبُنوا، ثمَّ تابوا إلى اللهِ، وعاهدوه في حينِها أنَّهم لا يولّونَ الأدبارَ في غَزْوةٍ بعدَها، وهمُ الَّذينَ نزلَ فيهم قولُه تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران: 122]، فطرأ على نفرٍ من بني حارثةَ نفاقٌ وضَعفٌ في الإيمان، فذكَّرهمُ القرآن بعهدِهم مع اللهِ الَّذي لا أحدَ أجلُّ منه ﷻ، فقال: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾، وأراهم أنَّ منهم فريقًا قُلَّبًا لا يَرْعى عهدًا، ولا يستقرُّ لهمُ اعْتقاد، وأنَّ ذلك لضَعفِ يقينِهم وغَلَبةِ الجُبْنِ عليهم حتَّى يَدْعوهم إلى نَبْذِ عهدِ اللهِ، وهذا تنبيهٌ للقبيلتَيْن - بني حارثةَ وبني سَلَمة - ليَزجُروا مَن نكثَ العهدَ منهم[4].

معنَى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ بيانيَّةٌ، تفيدُ كشفَ الوقتِ الَّذي أبْرموا فيه عهدَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(3) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 191.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 309، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

فائدةُ الظَّرفِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مع كَوْنِ الأفعالِ ماضية:

لَمّا كان العهدُ ربَّما طال زمنُه، فَنُسي، فكانَ ذلك عُذرًا لصاحبِه؛ بيَّن قُرْبَ زمنِه بعد بيانِ عظمةِ المعاهَدِ اللّازم منه ذِكْرُه، فقال مُعبِّرًا عن هذه الحالة، والزَّمن الَّذي حدثَتْ فيه: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾[1].

موقعُ جملة ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ وفائدتُها:

جملةُ: ﴿يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ جوابٌ للقَسَم[2]، وهي بيانٌ لجملةِ: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾[3]، كأنَّه قال: واللّه لقد كانوا عاهدوا اللّهَ العظيمَ منذُ زمنٍ قريبٍ ألّا يولّوا الأدبارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يُوَلُّونَ﴾:

تـجـدُّدُ تـولّي المـنـافـقـين عـنِ الـجـهـاد واستمرارُه

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارِع في قوله تعالى: ﴿يُوَلُّونَ﴾ على تجدُّدِ تولّيهم عنِ الجهادِ في سبيلِ اللّه ومقارعةِ الأعداء، فهو دَيْدَنُهُمُ المستمرّون عليه، والفعلُ المضارع يدعوهم إلى تذكُّرِ هذا العهدِ وتجدُّدِه؛ كلَّما تجدَّدت عندهم إرادةُ تولّي الأدبار.

نكتة ذِكْرِ(أل) في ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾:

عمومُ الأدبار لا سيَّما ما عهد منهم من تولّي الأدبار قبل ذلك

(أل) في قولِه: ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ للاستغراق، باعتبار أنَّ العهد أُخِذَ عَليهم وعلى مَنْ بعدهم منهم، كأنَّه قال: لا يولّون أيَّ تولٍّ لكلِّ الأدبار، وهي للعهدِ أو لجنسٍ مخصوصٍ، أي: لا يولّون أدبارَهم أبدًا لأيِّ شيءٍ مِنَ الأشياء[4].

بلاغةُ جمعِ الأدبارِ على هذا الوزن:

قـلَّـةُ عـددِهـم وضعف أثرهم

(أل) في ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ قد تكون عوضًا عن المضاف إليه، أيْ: لا يولّون العدوَّ أدبارَهم، وإذا كان الجمعُ الَّذي يضاف إلى المعرفة يفيد العموم؛ فمرجع الضَّمير إليهم - الذي هو (أل) في الحقيقة - إشارة إلى أنَّهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(2) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 191.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.

قلَّة، لا قيمةَ لهم، كما أنَّ الأدبار جمعُ قلَّة، وإذا كانوا قليلًا وولّوا الأدبارَ، فإنَّ أثرَهُم ضعيفٌ، لا يفتُّ في عضدِ المسلمين، ولا يوهنُ مِن قوَّتِهم.

بلاغةُ الكنايةِ في تَوْليةِ الأدْبار:

مَنْ ولَّى دُبُرَه؛ فرَّ مِنَ الزَّحْفِ، وانْهزم

توليةُ الأدْبارِ في قوله تعالى: ﴿يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ كنايةٌ عنِ الفرارِ والانْهزام، فإنَّ الفارَّ يولّي دُبُرَه ممَّن فرَّ منهُ[1]، فلا يكونُ لهؤلاء المُدبِرينَ عَمَلٌ إذا حَميَ البَأْس، وتخالطَ النّاس، واحْمرَّتِ الحُدُق، وتَداعسَ الرِّجال، وتعانقَ الحُماةُ الأبطالُ إلى الظَّفرِ أوِ الموت[2].

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ﴾:

تأكيدُ وجوبِ الوفاءِ بعهدِ الله

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ عاطفةٌ لجُملتِها على ما تقدَّمها؛ تذييلًا لجملةِ: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾؛ تأكيدًا لضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ مع اللّهِ، وهو خيرُ العهودِ وأوْثقُها، فلا بدَّ من إنفاذِه وإنْجازِه[3].

نكتةُ دخولِ (كان):

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: (كانَ) لتحقُّقِ الوقوع، أي: كان عندَ اللّهِ تعالى مسؤولًا عنِ الوفاءِ به، أو مسؤولًا مقتضًى حتَّى يوفَّى به[4].

غرضُ إضافةِ العهدِ إلى لفظِ الجلالةِ:

أهميَّةُ العهدِ مع اللهِ، وضرورةُ الوفاءِ به

إضافةُ العهدِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿عَهۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على أهميَّةِ هذا العهد، فهو ليس كأيِّ عهدٍ من العهود، وذلك أنَّ الإنسانَ قد يتهاونُ بالعهدِ لإعراضِ المعاهَدِ عنه، لكنَّ هذا لا يكونُ مع اللّهِ الَّذي هو محيطٌ بصفاتِ الكمال، وفي هذا الإسنادِ للفظِ الجلالة تنبيهٌ على ضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ معه جل جلاله[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 159.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾:

اسْمُ مفعولٍ وصاحبُ العهدِ مطلوبٌ للحساب

﴿مَسۡـُٔولٗا﴾: اسْمُ مفعولٍ من (سأل)، وهو مَنْ يقعُ عليه تَبِعةُ عمل أو وفاءٍ بعهد، فهو مطلوبٌ لإنجازِ عملِه والوفاءِ بعهدِه[1]، وبهذا تتحقَّقُ المسؤوليَّةُ على عاتقِ مَن عاهدَ بضرورةِ الوفاءِ بما أبرَمَه من عهدٍ، وبهذا - كذلك - يكونُ المسؤولُ مطلوبًا للحساب، هل وفَّى بعهدِه، أمْ لم يوفِّه؟[2].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾:

المسؤولُ محاسَبٌ فمُثابٌ أو مُعاقَبٌ

﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ كنايةٌ عن المحاسَبِ عليه[3]، كقولِ النَّبيِّ ﷺ: «وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه»[4]، وهو كقولِه تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ المسؤولَ سيُحاسب على ما سُئِلَ عنه، ويُثاب على ذلك، أو يُعاقب، وفي هذه الكنايةِ تهديدٌ ووعيدٌ لمن غدَرَ بوعدِه مع الله، ولم يوفِّهِ[5]، أيْ: سيسألُ عن عدمِ الوفاءِ بعهدِه، ويعاقب على ذلك.

نكتةُ تقديمِ العهدِ أوَّلًا وجعلُه مسؤولًا ثانيًا:

العنايةُ بالعهدِ، ومسؤوليَّةُ الوفاءِ به

لَمّا كان العهدُ فَضْلةً في الكلامِ لكونِه مفعولًا، واشْتدَّتِ العنايةُ به هنا؛ بيَّن ذلك بتقديمِه أوَّلًا، أيْ: في قوله: ﴿عَهۡدُ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ بجعلِه العُمدةَ، وإسنادِ الفعلِ إليه ثانيًا، فقال: ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾، أي: في أنْ يوفّي به ذلك الَّذي وقعَ منه[6].

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ تذييلٌ لجملة: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ يُخبِرُ بضرورةِ الوفاءِ بالعهدِ مع الله، ويوحي بالتَّهديدِ والوعيدِ لمن لم يلتزمْ بالعَهد، ولم يوفِّ بالوَعد[7].

(1) أحمد عمر، معجم اللُّغة العربيَّة: 2/ 1020.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 254، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 407.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.
(4) البخاري، الصَّحيح، حديث رقم: (2554)، ومسلم، الصَّحيح، حديث رقم: (1829).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 462.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 310.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 462، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 289.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ [الأحزاب: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الفرارُ لا يُقدِّمُ في أجلِ الإنسانِ ولا يُؤَخِّرُ

لَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة ما قام به المنافقون من محاولات الفرار البائسة، باستِئْذانِهم للرُّجوعِ إلى بُيوتِهم؛ ناسبَ أن يذكرَ الواقع الفعليَّ الذي سيصيرُ إليه أولئك إن فرّوا من الموتِ أو القتل، وهو عدمُ انتفاعِهم به على التَّحقيق؛ لأنَّ المآل الحقيقيَّ بيدِ الله تعالى، فكانَ الجوابُ: أنَّه لا نفعَ في تأْخيرِ آجالِكم في وقْتٍ مِنَ الأوْقات؛ لِأنَّ الأجَلَ إنْ كانَ قَدْ حَضَرَ، لَمْ يَتَأخَّرْ بالفرارِ وإلّا لَمْ يُقْصِرْهُ الثَّباتُ، فَإنْ كانَ الأجَلُ قَدْ أتى؛ لَمْ يَنْقُصْكم ذَلِكَ شَيْئًا، ومُتُّمْ أعِزَّةً كِرامًا، وإلّا فُزْتُمْ بِالنَّصْرِ، وحُزْتُمُ الأجْرَ، وعِشْتُمْ بِأتَمِّ نِعْمَةٍ إلى تَمامِ العُمَرِ، فالثَّباتُ أبْقى لِلْمُهَجِ، وأحْفَظُ لِلْعَيْشِ البَهِجِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعَكُمُ﴾: (نفع) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضَّرِّ، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعًا ومَنْفَعَةً[2]، ورجل نفّاعٌ؛ إذا كانَ ينفع النّاس، ولا يضرُّهم[3]، والنّافِعُ في أسماء اللّه تَعالَى: هوَ الَّذي يوصِّلُ النَّفْعَ إلى مَن يَشاءُ مِنْ خَلْقِه، حَيْثُ هوَ خالِقُ النَّفْعِ والضَّرِّ والخيرِ والشَّرِّ[4]، والنَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ؛ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).

﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3][1]، والمُرادُ بنفي النَّفعِ هَهُنا عدمُ استِطاعَتِهم الفرارَ مِنْ نزولِ آجالِهم الَّتي قدَّرَها اللهُ لَهُم.

2) ﴿ٱلْفِرَارُ﴾: (فرر) أُصولٌ ثلاثَةٌ: فالأوَّلُ الانكشافُ وما يُقارِبُهُ مِنَ الكَشفِ عَنِ الشَّيْءِ، والثّاني جِنْسٌ مِنَ الحَيَوانِ، والثّالِثُ دالٌّ عَلَى خِفَّةٍ وطَيْشٍ، والفِرارُ، الانْكِشافُ، يُقالُ: فَرَّ يَفِرُّ، والمَفَرُّ المَصدَرُ، والمَفَرُّ: المَوْضِعُ يُفَرُّ إلَيْه، والفَرُّ: القَوْمُ الفارّونَ، يُقالُ: فَرٌّ جَمْعُ فارٍّ، كَما يُقالُ: صَحْبٌ جَمْعُ صاحِبٍ[2]، والمعنَى المِحْوَرِيُّ مباعدةٌ بِخِفَّةٍ مَعَ اسْتِرْسالٍ في تكرارٍ أو دوامٍ[3]، والفَرُّ والفِرارُ: الرَّوَغانُ والهَرَبُ، وفَرَّ يَفِرُّ فِرارًا: هَرَبَ[4]، والمرادُ بالفرارِ هَهُنا: استِئْذانُ المنافقينَ رسولَ اللهِ للعودةِ إلى بُيوتِهم أثناءَ حصارِ الكفّارِ للمدينةِ.

3) ﴿تُمَتَّعُونَ﴾: (متع) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ، مِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بالشَّيْءِ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنْفَعَةُ[5]، ومَتَعَ النَّهارُ مُتوعًا: طالَ، وذلكَ قَبْلَ الزَّوالِ، ومَتَعَ الضُّحَى؛ إذا بَلَغَ غايَتَهُ، والمَتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حَوائِجِه مِنْ أَمْتِعَةِ البيتِ ونحوه مِنْ كُلِّ شيءٍ[6]، والمعنَى المِحْوَرِيُّ امتدادُ الشَّيءِ مَعَ قوَّتِه وكمالِ حالِه، حيثُ يُلحظُ فيها الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَوْدةٍ وكمالِ حالٍ، والتركيبُ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإبقاءِ دهرًا مع الزّادِ ومُستلزماتِ المَعيشةِ[7]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ (تمتَّعوا) في الدُّنيا، فعلى طريقِ التَّهديدِ، واسْتَمْتَعَ: طلب التَّمتُّعِ[8]، والمقصودُ بالتَّمَتُّعِ هَهُنا: الانتفاعُ بِما بَقِيَ مِن أَعْمارِهِم إنْ كانَ بَقِيَ مِنها شَيْءٌ في سابقِ علمِ اللهِ[9].

❁ المَعْنَى الإجْماليُّ:

يقولُ تَعالَى ذِكرُه لِنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المُسْتَأْذِنينَ الفارّينَ مِنْ قِتالِ العدوِّ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (نفع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(6) الخليل، العين: (متع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (متع).
(9) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 311.

ومُنازَلَتِه في المَيْدانِ: لنْ يَنْفَعَكُم الهَرَبُ، ولا يَدْفَعُ عَنْكُم ما أُبْرِمَ في الأزلِ مِنْ موتِ أحدِكُم حَتْفَ أَنْفِه، أو قَتْلِه بِسَيفٍ ونَحْوِه، فإنَّ المُقَدَّرَ كائنٌ - لا محالةَ - والأجَلُ إنْ حَضَرَ؛ لمْ يَتَأَخَّرْ بالفرارِ، وإنْ نَفَعَكُم الفرارُ بأنْ دَفَعَ عنْكُم الموتَ - مِنْ بابِ فَرْضِ المُحالِ والمُماشاةِ في ظُنونِكم القاصرةِ وعقولِكم الكاسدةِ - فَمُتِّعْتُم لمْ يَكُنْ ذلك التَّمتُّعُ إلّا قَليلًا؛ فإنَّ أيّامَ الحياةِ - وإنْ طالتْ - قَصيرةٌ[1].

الحَذَرُ لا يُنْجي مِنَ القَدَرِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

أُسلوبُ المحاورةِ يَقْتَضي فَصْلَ الجُمَلِ إظْهارًا لبلاغةِ النَّظْمِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾، فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ هذه الآية؛ وذلك لأنَّها جوابٌ عَنْ قَوْلِ المنافقين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ [الأحزاب: 13]، فجَرَتْ على أُسْلوبِ التَّقاوُلِ والتَّجاوُبِ، وما بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ مِن قَوْلِه: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم﴾ [الأحزاب: 14]، إلى قَوْلِه: ﴿مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15] اعْتِراضٌ[2]. فالآيةُ مقطوعةٌ عمّا قبلَها قطعَ الإنشاءِ عن الخبرِ، وهذا القطعُ ليس فصْلًا بالمعنَى اللُّغوي، وإنْ كانَ فَصْلًا بالمعنَى البلاغيِّ، أي: إنَّ هناكَ علاقةً قويَّةً مُنْسَجِمَةً بينَ أنَّ الفرارَ مِنْ ساحةِ المعركةِ لا يُطيلُ العُمُرَ، ولا يَنْسَأُ في الأجَلِ، وليسَ فيه نفْعٌ، وبَيْنَ الكلامِ السّابِقِ الَّذي يَذْكُرُ فرارَهُم ونَكْثَهُم للعهْدِ الَّذي التَزَموا فيه بألّا يَفِرّوا[3].

غرضُ التَّعْبيرِ بصيغةِ الأمْرِ:

بيانُ العقائدِ في أوقاتِ الشَّدائدِ أقوى في الأثرِ وأبينُ في الحجَّةِ

جاء الخطابُ بصيغةِ الأمرِ ﴿قُل﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ لتكليفِ النَّبيِّ ﷺ ومَن على هديه بإبلاغِ المنافقين على طَريقةِ المقاولَةِ بأمرِ اللّه تعالى؛ إقامةً للحجَّةِ، وردعًا لخوفهم، وفيهِ كَذلكَ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 290.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 122.

إشارةٌ إلى وجوبِ الصَّدْعِ بالجوابِ جَهارًا في وجوهِ النّاكثينَ الخائِنينَ للعهدِ خاصَّةً في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحربِ، وفي التصريحِ بالفعلِ كَذَلِكَ فَضْحٌ لأخلاقِهِم الذَّميمَةِ وصفاتِهِم الرديئَةِ على رؤوسِ الأشهادِ، ومِن هُنا فقدَ أفادَ الأمْرُ أسلوبَ الخطابِ قوَّةً ونصاعةً.

فائدةُ النَّفْيِ بأداةِ ﴿لَّن﴾:

نفيُ الانتفاعِ من الـفـرارِ المذمومِ وتـأكـيـدُ وقـوعِ الأجلِ المحتومِ

آثر النَّظم الحكيمُ اختيارَ أداة النَّفي ﴿لَّن﴾ في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾، وهي تَدْخُلُ على الفعلِ المضارعِ، فَتُخَلِّصُه للاستقبالِ، وتَنْفيه نفيًا مُؤَكَّدًا مشدَّدًا، كما أنَّ نفيَ المضارعِ بها يكونُ نفيًا مُمْتدًّا مُتطاولًا، فجمع لهم نفيَ الانتفاعِ في المستقبلِ، مع تأكيدِ عدمِ انتفاعِ المُنافقينَ بتَسَلُّلِهم من ميدانِ الشَّرَفِ وفِرارِهم من الجهادِ، وإثباتِ حَتْميَّةِ الأجلِ المَقْدورِ والنَّصيبِ المَحْتومِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ النَّفْعِ:

النَّفْعُ لفظٌ يعمُّ كـلَّ مـا يُتصوَّرُ الانتفاعُ به

آثر النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مفردةِ النَّفعِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ لأنَّ النَّفْعَ ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ؛ فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ لفظٌ عامٌّ يشملُ كلَّ ما يُتصوَّرُ نفْعُهُ قلَّ أو كثر، ولمّا كانَ هؤلاءِ المُنافِقونَ قدْ بَلَغَ بِهِمُ الهلعُ والجُبْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ، فَهُم يَسْعَوْنَ للفرارِ حِرْصًا على الانتفاعِ بِكُلِّ ما يُمَكِّنُهُم الوصولُ إليْهِ مِن خيراتٍ، فكانَ استعمالُ النَّفعِ في هذا السّياقِ هو الأنسب.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ:

نـفـيُ الـنَّـفـعِ في المستقبلِ حثٌّ عــلـى الـعـمـلِ وطردٌ للكسلِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ المنفيِّ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ للدِّلالةِ على نفيِ تَجَدُّدِ النَّفعِ وحُدوثِه في المستقبلِ القريبِ أو البعيدِ على ما ظنَّه المنافقون، فلا يتوقَّفُ نفيُ النَّفْعِ على الوقتِ الحاليِّ، بلْ نفيُ النَّفعِ متجدِّدٌ على الدوامِ، وفي ذلك تنبيهٌ وحثٌّ لِمَنْ في قَلْبِه ذَرَّةُ إيمانٍ ومسْكَةٌ من جرأةٍ وشجاعَةٍ أنْ يُعيدَ

النَّظَرَ في هذا السُّلوكِ المُخْزي والمَسْلَكِ المُشينِ، وأنْ ينهضَ للدِّفاعِ عنْ مدينةِ رسولِ اللّه ﷺ بيضةِ الإسلامِ ومَعْقَلِه آنذاك، فلا يرضَى لنفْسِه الدَّنيَّة بالتَّسَلُّلِ، وقدْ أحدقَ الكُفَّارُ واليهودُ بالمدينةِ منْ كُلِّ حَدَبٍ وصوبٍ.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ:

تقريعُ المنافقينَ وتوبيخُهم كفاحًا

التَّعبيرُ بالخطابِ في قولِه تعالى: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾ ضربٌ من الالتفاتِ؛ لتوجيهِ الخِطابِ مباشرةً لهؤلاءِ الَّذينَ يَتَسَلَّلون لِواذًا؛ تَقْريعًا لَهُم وتَوْبيخًا على سوءِ صَنيعِهم، فكأنَّه قدْ أحْضَرَهُم، وواجَهَهُم بهذا اللَّوم، وكفحَ وجوههم بهذا التعنيفِ، وفي الالتفاتِ كذلكَ تَهديدٌ وتخْويفٌ ووعيدٌ منْ مَغَبَّةِ الفرارِ والتَّوَلي، وقدْ زادَ هذا الأسلوبُ البَليغُ الكلامَ تطريةً وحُسنًا، وقدرةً على إيقاظِ القارئِ وتنبيهِ حواسِّه كلِّها، حتى يتلقَّى منَ الأسلوبِ كلَّ همسٍ فيه[1].

فائدةُ حذف مُتَعَلِّقِ الفعل:

اتِّساعُ المعنى آكدُ في دلالةِ النَّفي

حُذِف مُتَعَلِّق ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ وذلكَ لإرادةِ العُموم والشُّمولِ، فلم يقل: (لنْ يَنْفعَكم الفرارُ شيئًا)، فآثر الحذفَ؛ ليتَّسعَ المعنَى لنفي أيِّ نفعٍ قد يَظُنّون أنَّهُم واصِلونَ إلَيه بِالفِرارِ، فلنْ يَنْفَعَهُم الفرارُ بنجاةٍ من قَدَرِ اللّهِ، ولن يُنيلَهُم عُمرًا زائدًا على أجَلِهِم المحتوم شيئًا، بلْ إنَّ الفرارَ قدْ لوَّث سُمعَتَهم، ولَطَّخَ شرفَهم، وكشَفَ عن سوءِ طَويَّتِهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلۡفِرَارُ﴾:

الفرارُ يومئ إلى جبنٍ أصيلٍ وخفَّةٍ في السُّلوك

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مفردة ﴿ٱلۡفِرَارُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ لبيانِ ملمحِ الجُبْنِ وقِلَّةِ البأسِ والثِّقَةِ في النَّفْسِ، مع الإيماءِ إلى أنَّ هؤلاءِ المنافقينَ قد اشتدَّ بهم الخوفُ حينَ دَهَمَهُم العدوُّ، فأسقطَ الغشاءَ الرَّقيقَ من ادِّعاءاتِهم الكاذبةِ

---

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 122.

بالإيمانِ والتصديقِ، فبادروا إلى الحركةِ السريعةِ دون تفكيرٍ في حفظِ ماءِ وجوهِهم.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡفِرَارُ﴾:

جبنُ الأشقياءِ تُظهره إشاراتُ الألفاظ

جاء التَّعريفُ بمفردةِ ﴿ٱلۡفِرَارُ﴾ بـ(أل) دونَ الإضافةِ بأن يُقال: (فراركم) بضمير المخاطَبِ الَّذي يفيدُ توكيدَ نسبةِ الفرارِ إليهم؛ لأنَّ المرادَ العهدُ الذِّكْريُّ إشارةً إلى الفرارِ المذكورِ في قولِه ﷻ: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾ [الأحزاب: 13]، وذلكَ لأنَّ فرارَهُم أصبحَ شيئًا معروفًا لكلِّ الناسِ، فليسَ ثمَّةَ حاجةٌ لتأكيدِ نسبتِه إليهم؛ إذ إنَّ فرارَهُم مشهورٌ لا تَحْتاجُ نِسْبَتُهُ إليهم إلى ضميرٍ يؤكِّدُ هذهِ النِّسبَةَ، وفيهِ دلالةٌ بيِّنَةٌ على افتضاحِ أَمْرِهم.

دلالةُ نَفيِ النَّفْعِ عن الفَرارِ:

الفرارُ إثمٌ مذمومٌ والأجلُ قَدَرٌ محتومٌ

نُفي النَّفعُ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾ مطلقًا، مَعَ أنَّه في ظاهرِ ما يحسبه النّاس قدْ يُعدُّ نافعًا، وذلكَ لأنَّ هَذا السَّبَبَ غَيْرُ مَأذونٍ فيهِ لِوُجوبِ الثَّباتِ في وجْهِ العَدوِّ مَعَ النَّبيِّ ﷺ، والنَّفع فيما يكون في المآلِ للمؤمنين في الدُّنيا، وفي الآخرة، فإذا فاتَ الإنسانَ الخيرُ في الدُّنيا والآخرة؛ فقد فاته النَّفع الحقيقيُّ، وخسِر الخسارة الكبيرةَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى أيْضًا: أنَّكم إنْ فَرَرْتُمْ، فَنَجَوْتُمْ مِنَ القَتْلِ؛ لا يَنْفَعُكُمُ الفرارُ مِنَ المَوْتِ بِالأجَلِ، وعَسى أنْ تَكونَ آجالُكم قَريبَةً[1].

فائدةُ استعمالِ أداةِ ﴿إِن﴾:

الإيماءُ إلى ترك التَّفكيرِ في الفرارِ وطلبِ حقائق الأقدار

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ استعمالَ أداةِ الشرطِ ﴿إِن﴾ دونَ الظرفِ (إذا) الَّذي يُفيدُ معنَى الشرطِ؛ وذلكَ لأنَّ ﴿إِن﴾ إنَّما تُستَعملُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، على النقيضِ من (إذا) الَّتي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 290.

تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، ولذا فقدْ أفادَ استعمالُ ﴿إِن﴾ الدِّلالة على عدمِ يقينيَّة الفرارِ؛ إذْ إنَّ قدَرَ اللّهِ غالبٌ، ولا مُعقِّبَ لحكمِه وقَضائِه؛ ففيها إيماءٌ إلى الحثِّ على تركِ التَّفكيرِ في الفرارِ والإقدامِ عليه.

نكتةُ استعمالِ الألفاظِ الواحدةِ في سياقٍ واحدٍ:

إلصاقُ الأوصافِ بأصحابِها تنبيهٌ على سجاياهم

أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ استعمالَ مادة (الفرارِ) في الفعلِ ﴿فَرَرۡتُم﴾ في الآيةِ نفسِها بعد ذكرِها في قولِه: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ تأكيدًا على وصْمِهم بهذا الفعلِ الشائنِ، الَّذي وقَعوا فيه، وسَمَّوْهُ - كَذِبًا - بغيرِ اسمِه، فدَعَوْه (استِئْذانًا)؛ ليُلصقَ بهم وصفُ الفرارِ، فهوَ فرارٌ بسببِ رِقَّةِ دينِهم وفسادِ قلوبِهم وكبيرِ جُبنهم، وفي تسميةِ الأفعالِ الشائنَةِ بأسمائِها تنْبيهٌ للمؤمنينَ على عدوِّهم الخفيِّ الَّذي يحاولُ خِداعَهُم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ الماضي:

المُنافقُ على بابِ الخذلانِ ينتظرُ فرجةً لينسلَّ

جاء التَّعْبيرُ بصيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ الدالَّة على انتهاءِ زَمَنِ الفعلِ إشارةً إلى عَزْمِهم على الفرارِ، وقد اقترنت بأداة ﴿إِن﴾؛ لبيانِ أنَّهم يتَحيَّنونَ الفرصةَ للفِرارِ والتَّنَصُّلِ من عَهْدِهِم الَّذي عاهَدوا علَيْه رسولَ اللّه ﷺ، ففرارُهم مسألةُ وقتٍ لا رجْعَةَ فيه، ولا ينْقُصُه سوى الفرصَةِ السانحةِ لخذلانِ المؤمنينَ.

علَّةُ حَذْفِ جَوابِ الشرط:

الإيجازُ والاختصارُ من سِماتِ النَّظْمِ الحَكيمِ

في قولِ اللّهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾، حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ جَوابَ ﴿إِن فَرَرۡتُم﴾؛ لدَلالةِ ما سَبَقَ عليه، أي: إنْ فَرَرْتُم؛ لنْ يَنْفَعكُم فِرارُكم[1]، ولتحقيقِ سمةٍ أساسيَّةٍ للذِّكْرِ الحكيم، وهيَ الإيجازُ والاختصارُ.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 187.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ ابتدائيَّةٌ، وذلك لتحديد ابتداء غايتهم من الفرارِ، وهو الموتُ؛ إذ هوَ بدايةُ غايتِهم مِنَ الفرارِ.

نكتةُ تَقْديمِ ذكرِ ﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾ على ﴿ٱلۡقَتۡلِ﴾:

المنافقُ يفرُّ من المـوتِ فكيف فرارُه من القتلِ؟

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ الموتَ في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾؛ لأنَّ الآيَةَ تُنبِّه المنافقين على أنَّ الموتَ لا يختلف عن القتل في إنهاءِ الآجال، وأنَّ الموتَ سيأتي، فلا فرار منه كالقتلِ إن تحقَّق؛ فلا فرار منه، فكَشَفَ هذا التَّقْديمُ عنْ دَخيلةِ نُفوسِهم؛ إذ هُم قومٌ مُتَشَبِّثونَ بالدُّنيا، كما أنَّ في تقديمِ الموتِ إشارةً إلى أنَّ المنافقينَ ليسوا من أهلِ القتالِ والذي يُسارع فيهم هو الموتُ، كما أنَّ المَوتَ أمرٌ عامٌّ؛ إذْ هوَ مصيرُ جميعِ الخلائقِ الَّذينَ يَتَوَفَّى اللّٰهُ أكثرَهُم مَوتًا حَتْفَ أُنوفِهم، لا قتلًا في ساحاتِ الجهادِ، فبدأ بالعامِ الذي هوَ الأصلُ، ثمَّ ذكرَ الخاصَّ بعده، وهوَ القتلُ.

نوعُ ﴿أَوِ﴾ ودلالتها:

أفاد حرف العطف ﴿أَوِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ التقسيمَ، والمعنَى: لَنْ يَدْفَعَ عَنْكم ما أُبْرِمَ في الأزَلِ مِن مَوْتِ أحدِكم حَتْفَ أنْفِه، أوْ قَتْلِه بِسَيْفٍ ونَحْوِهِ[1].

دلالةُ تَعْريفِ لفظَي الموتِ والقَتْلِ:

جنسُ المـوتِ والقتلِ بدلالة المقابلة بينهما

جاء تعريفُ لفظَي الموت والقتل في قولِه تعالى: ﴿إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ بالألفِ واللام دونَ الإضافةِ، فلم يقل: (موتكُم) و(قتلِكُم)، والتَّعريفُ للجنسِ، أي: جنسِ الموتِ، وهو المَوْتُ الزُّؤامُ، وهو المَوتُ حتْفَ أنْفِهِ؛ لأنَّهُ قوبِلَ بالقَتْلِ الذي يكون بالسَّيفِ ونحوِه،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 21/ 224.

والمَعْنى: أنَّ الفِرارَ لا يَدْفَعُ المَوْتَ الَّذي عَلِمَ اللّه أنَّهُ يَقَعُ بِالفارِّ في الوَقْتِ الَّذي عَلِمَ أنَّ الفارَّ يَموتُ فيه، ويُقْتَلُ، فَإذا خُيِّلَ إلى الفارِّ أنَّ الفِرارَ قَدْ دَفَعَ عَنْهُ خَطَرًا؛ فَإنَّما ذَلِكَ في الأحْوالِ الَّتي عَلِمَ اللّه أنَّها لا يُصيبُ الفارَّ فيها أذًى، ولا بُدَّ لَهُ مِن موت (حَتْفَ أنْفِه) أوْ قَتْلٍ في الإبّانِ الَّذي عَلِمَ اللّه أنَّهُ يَموتُ فيه، أوْ يُقْتَلُ[1].

معنى (إذًا) بعدَ الواوِ العاطفة ودلالَتُها:

مهما طالتِ الأعمارُ؛ فمتاعُ الدُّنيا قليلٌ

جاءتْ ﴿وَإِذًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، حَرفَ جوابٍ وجزاءٍ، وهو مهمل؛ لأنَّه وقع بعد عاطفٍ، فجاءت على الأغلب، وهو عدمُ إعْمالِها[2]؛ لأنَّه إذا كانت الواو مع (إذًا)؛ كان في الواوِ فعلٌ مُضْمَرٌ، وكانَ معنى (إذن) التَّأخيرَ[3]، والأكْثَرُ إنْ وقَعَتْ (إذَنْ) بَعْدَ الواوِ والفاءِ العاطِفَتَيْنِ ألّا يُنْصَبَ المُضارِعُ بَعْدَها، ووَرَدَ نَصْبُهُ نادرًا، وتقدير الكلام: وإذا فررتم، فتمتَّعتم؛ لم يكن ذلك التَّمتيع إلّا تمتيعًا قليلًا أو زمانًا قليلًا[4].

والمقصودُ مِنَ الآيَةِ تَخْليقُ المُسْلِمينَ بِخُلُقِ اسْتِضْعافِ الحَياةِ الدُّنْيا، وصَرْفُ هِمَمِهِمْ إلى السَّعْيِ نَحْوَ الكَمالِ الَّذي بِهِ السَّعادَةُ الأبَديَّةُ سَيْرًا وراءَ تَعاليمِ الدّينِ الَّتي تَقودُ النُّفوسَ إلى أوْجِ المَلَكيَّةِ[5].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿تُمَتَّعُونَ﴾:

كُلُّ تَمَتُّعٍ عَيشٌ، وليسَ كلُّ عيشٍ تَمَتُّعًا

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بفعل ﴿تُمَتَّعُونَ﴾ دون (تعيشون) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لما في معنَى التَّمَتُّعِ مِن امتداد الشَّيءِ مَعَ قوَّته وكمالِ حالِه، فالتركيبُ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإبقاءِ دهرًا مع الزّادِ ومُستلزماتِ المَعيشةِ، بخلافِ العيشِ، الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 291.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 246.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 337.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 160.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 291.

يدلُّ على ما تَقْتَضيه الحياةُ مِن اغتذاءٍ ونُموٍّ وحركةٍ وسعيٍ[1]، فكُلُّ تَمَتُّعٍ فيه عَيشٌ، وليسَ في كلِّ عيشٍ تَمَتُّعٌ بما في الحياةِ منْ مباهِجَ، ولمّا كانت غايةُ المنافقينَ التَّمَتُّعَ لا مجرَّدَ العيشِ، فقدِ استعمله القرآن لبيانِ دخيلةِ نفوسِهم؛ إظهارًا لِشِدَّةِ حرصِهم على مباهجِ الدُّنيا وزَهْرَتِها.

بلاغةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

المتاعُ الحقيقيُّ في طاعةِ الله ورسوله

جاء أسلوبُ القصر في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ باستعمالِ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ، و﴿إِلَّا﴾ الدالَّةِ على الاستثناءِ، وهوَ استثناءٌ مُفَرَّغٌ، والمَعْنَى: على فَرضِ أنَّكُم فررتُم من المَوتِ أو القتلِ - وهوَ محالٌ - فإنَّكُم تُمَتَّعون قليلًا، فهو نفيٌ لجميع أشكال التَّمتُّع وصوره، وإثبات للقليل منه، فهو قطعٌ لنفسِ الأملِ، واللَّهو الباطل.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الفعل:

غايةُ المنافقِ محصورةٌ في التَّمَتُّعِ دونَ المعالي العالية

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ مُتَعَلِّقَ ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾، وذلكَ لنكتةٍ بديعةٍ: وهيَ إثباتُ غَرضِهم في فعلِ التَّمَتُّعِ، وقَصْره عليه، فكأنَّ غايةَ القوم من السَّعيِ الحثيثِ للفرارِ إنَّما هيَ محصورةٌ في التَّمَتُّعِ في حدِّ ذاته، "وهكذا كلُّ موضع كان القصدُ فيه أن يُثْبتَ المَعنَى في نفسِه فِعْلًا للشيءِ، وأن يُخْبرَ بأنَّ من شأنِه أنْ يكونَ منه، أو لا يكونَ إلّا منه، أو لا يكونَ منه، فإنَّ الفعلَ لا يُعدَّى هناك؛ لأنَّ تعديته تَنْقُضُ الغرضَ وتُغيِّر المعنَى"[2]، ومن هنا حُذِفَ المفعولُ بيانًا لِسُخْفِ غايَتِهم وتحقيرًا لها؛ إذْ إنَّ حصْرَ الغايةِ من الحياةِ في التَّمَتُّعِ وحدَه أمرٌ لا يليقُ بمَنْ تَسْمو نفسُه للمَعالي.

فائدةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

حُذِفَ الموصوفُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (متع)، و(عيش).

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 177.

توجيهُ الأنظار إلى مدَّة التَّمتُّعِ يضبطُ السُّلوك المنفلت

و﴿قَلِيلٗا﴾ نائبٌ عن مفعولٍ مطلقٍ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: لا تُمَتَّعونَ إلّا متاعًا قليلًا، وقيل: نائبٌ عنِ الظَّرفِ صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: لا تُمَتَّعونَ إلّا وقتًا قليلًا، وقيل: حالٌ مِنَ التَّمتُّعِ[1]، وسواءٌ أكانَ الموصوفُ المحذوفُ مصدرًا أم ظرفًا أم حالًا، فإنَّ الغرضَ من هذا الحذفِ توجيهُ الأنظار إلى كون التَّمتُّع قليلًا، مع إفادةِ العموم والإطلاق، فإنَّ هؤلاءِ الفارّينَ النّاكثينَ لنْ تطولَ مُتْعَتُهُم، ولنْ ينتفِعوا بفرارِهم.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرارُ والهروبُ:

الفـرارُ خـفَّـةٌ ومـبـاعـدةٌ، والهروب تفكيرٌ سـابـقٌ وشـدَّة خوف

الهربُ فيهِ نوعٌ مِنَ الخوفِ والذُّعْر، وممّا يُستأنس به على هذا أنَّ مادَّةَ (هرب) هي مقلوبُ مادة (رهب)، والأصلُ فيها الدلالةُ على الخوفِ، أمّا الفرارُ؛ فهوَ تعبيرٌ عنِ الحركةِ والمباعدة بِخِفَّةٍ مع اسْتِرْسالٍ في تكرارٍ، وقد ذهبَ بعضهم إلى أنَّ الهروبَ مصحوبٌ دائمًا بالخوف الشديد، وأنَّ الفرارَ لا يُشترطُ فيهِ شدَّةُ الفزعِ دائمًا، وإنَّما يَخْتَصُّ بِمَلْمَحِ الانكشاف والهَزيمةِ، واللُّجوءِ إلى مصدرِ الأمنِ[2]، وقد آثرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بالفرارِ دونَ الهربِ؛ إشارةً إلى أنَّ هؤلاءِ اشتدَّ بهم الخوفُ حينَ دَهَمَهُم العدوُّ، فأسقطَ الغشاءَ الرقيقَ من ادِّعاءاتِهم الكاذبةِ بالأيمانِ، فبادروا للحركةِ السريعةِ دون تفكيرٍ في حفظِ ماءِ وجوهِهِم.

الموتُ والقتلُ:

القـتـلُ نَـقْـضٌ لـلبِنْية يتبعُهُ إزهـاقٌ لـلـرّوحِ، أمّـا المـوتُ؛ فـخـروجٌ لـلـروحِ دون نقضٍ للبنيةِ

القَتْلُ نقضُ البِنْيَةِ الحَيوانيَّةِ، ولا يُقالُ لَهُ: قتلٌ في أكثر الحالِ إلّا إذا كانَ من فعل آدَميٍّ، وقالَ بَعضهم: القَتْلُ إماتةُ الحَرَكَة، ومِنْه يُقال: ناقَة مُقَتَّلَةٌ؛ إذا كَثُرَ عَلَيْها الإتعابُ حَتَّى تموتَ حركتُها، والمَوْتُ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 246.
(2) فاضل السامرائي، برنامج لمسات بيانية، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 26.

عَرَضٌ أيْضًا يضادُّ الحَياة مُضادةَ القتلِ، ولا يكون إلّا مِنْ فِعلِ اللّهِ سبحانَه، والميتَةُ الموتُ بعَيْنِه إلّا أنَّه يدلُّ على الحال، والمَوْت يَنْفي الحَياةَ مَعَ سَلامَة البنية، ولا بُدَّ في القَتْل مِن انْتِقاض البنية، ويُقالُ لمن حَبَسَ الإنْسانَ حَتَّى يَموتَ؛ إنَّه قَتله، ولَيْسَ بِقاتِلٍ في الحَقيقَة؛ لأنَّهُ لم ينْقضِ البِنْيَةَ، ويُستعارُ المَوْتُ في أشْياءَ، فَيُقالُ: ماتَ قلبُه؛ إذا صارَ بَليدًا، وماتَ المَتاعُ، أي: كَسَدَ، وماتَ الشيءُ بَينهُم: نَقَصَ، وحظٌّ مَيّتٌ: ضَعيفٌ، ونباتٌ مَيِّتٌ: ذابلٌ، ووَقع في الماشيةِ مَوَتانٌ؛ إذا تَماوَتَتْ، ومَوَتانُ الأرْضِ؛ إذا لَم تعمُرْ[1]، وقدْ عطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ الموتَ على القتلِ لاستيعابِ أشكالِ خروجِ الروحِ من الجسدِ؛ بيانًا لعدمِ قدرتهِم على الفرارِ من قدرِ اللّه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧﴾

[الأحزاب: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتباعُ البيانِ بحجَّته والنَّتيجة بعلَّتها

لَمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة نتيجة الفرار الحتميَّة، وهي إمّا الموت المهلك، وإمّا التَّمتُّعُ القليل ثمَّ الموت المهلك، وكان من شأن المنافقين - حالًا أو مقالًا عند سماع نفي النَّفع - أن يَقولوا: بَلى يَنْفَعُنا؛ لأنّا طالَما رَأيْنا مَن هَرَبَ، فَسَلِمَ، ومَن ثَبَتَ، فاصْطُلِمَ؛ ناسب أن يأتي الجَوابُ عَنْ هَذا بأنَّه لَنْ يَمْنَعَكم شيء مِنَ اللهِ المُحيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرَةً وعِلْمًا إنْ أرادَ بكم سوءًا؛ فَأناخَ بِكم نِقَمَهُ، أو إنْ أرادَ بكم رَحْمَةً؛ فَأفادَكم نِعَمَهُ[1]. فهذهِ الآيةُ معَ ما قبلها تمثِّلانِ نمطًا من أنماطِ المحاججةِ والمقاولةِ التي تهدفُ إلى بيانِ ضَعْفِ عقولِهم وفسادِ تصوُّراتِهم، الَّتي دَفَعَتْهُم للفرارِ طلبًا للنَّجاةِ رغمَ أنَّه لا نجاةَ إلّا باتِّباعِ الحقِّ والسَّمعِ والطاعةِ لله وما جاءَ به نبيُّه الكريمُ ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡصِمُكُم﴾: (عصم) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ، ومِنْ ذَلِكَ العِصْمَةُ: أنْ يَعْصِمَ اللهُ تَعالَى عَبْدَهُ مِنْ سوءٍ يَقَعُ فيهِ، واسْتَعْصَمَ: التَجأ، وتَقولُ العَرَبُ: أعْصَمْتُ فُلانًا، أيْ: هَيَّأْتُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِما نالَتْهُ يَدُهُ، أيْ: يَلْتَجِئُ، ويَتَمَسَّكُ بِهِ[2]، فالعِصْمة في كَلامِ العَرَب: المَنْع، واستعصم؛ إذا امْتنع، وأبى[3]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصم).

والمُرادُ بنفيِ العصمةِ نفيُ القُدرةِ على الامْتِناعِ مِن قدرةِ اللّهِ ومِن إيقاعِ قدرِ اللّهِ بهم الَّذي سبقَ في علمِه تقديرِه لَهم.

2) ﴿أَرَادَ﴾: (رود) مُعْظَمُ بابِهِ يَدُلُّ عَلَى مَجيءٍ وذَهابٍ مِنِ انْطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدَةٍ، تَقولُ: راوَدْتُهُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ كَذا؛ إذا أَرَدْتَهُ عَلَى فِعْلِه، والرَّوْدُ: فِعْلُ الرّائِدِ[1]، وأَرَدْتُه بكلِ ريدَة، أي: بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أنواعِ الإرادةِ، وأرادَه عَلَى الشَّيْءِ: كأدارَه، والرَّودُ والرُّؤْدُ: المُهْلَة في الشَّيْءِ، وقالوا: رُوَيْدًا، أي: مَهلًا[2]، والإرادة: المَشيئةُ، وأصلُه الواو، لِقَوْلِك: راوَدَهُ، أي: أرادَه على أن يفعل كَذا[3]، وهيَ منقولةٌ مِن: رادَ يَرودُ؛ إذا سَعَى في طَلَبِ شَيْءٍ، فمتى قيلَ: أرادَ اللّهُ كذا؛ فمَعْنَاه: حَكَمَ فيهِ أنَّهُ كَذا، وليسَ بِكَذا، نحو: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ﴾، والإرادَةُ قد تكون بحسب القوَّة التَّسخيرية والحسّيَّة، كما تكونُ بحسبِ القوَّةِ الاختياريَّةِ، ولذلك تُسْتَعْمَلُ في الجمادِ، وفي الحيواناتِ نحو: ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][4]، والمرادُ في الآيةِ: إنْ حَكَمَ اللّهُ عليكمْ بالسوءِ أو بالرحمةِ؛ فلا رادَّ لحُكْمِهِ وقَضائِه.

3) ﴿سُوٓءًا﴾: (سوء) مِنْ بابِ القُبْحِ[5]، وساءَهُ يسوؤُه: فَعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ (سَرَّهُ)، والاسْمُ: السّوءُ بالضمِّ[6]، تَقولُ: رَجُلٌ أَسْوَأُ، أيْ: قَبيحٌ، وامْرَأَةٌ سوْءاءُ، أيْ: قَبيحَةٌ، ولِذَلِكَ سُمّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسُمّيَتِ النّارُ سوءَى، لِقُبْحِ مَنْظَرِها، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10][7]، والمُرادُ بالسّوءِ: كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنْيويَّةِ، والأُخرَويَّةِ، ومِنَ الأحوالِ النَّفْسيَّةِ، والبَدَنيَّةِ، والخارجيَّةِ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ اللّهَ آخذٌ بناصيةِ هؤلاءِ المُكَذِّبينَ الفارّينَ، فَلا وجْهَ يَفِرّونَ إليه؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رود).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رود).
(3) الجوهري، الصحاح: (رود).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (رود).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوأ).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (سوأ).

إذ إنَّ فرارَهم سوءُ ظَنٍّ مِنْهُم بسلطانِ اللّهِ، فالإنسانُ لا يَمْلِكُ معَ أمرِ اللّهِ شَيْئًا[1]، ولا يجد هؤلاء المنافقون - إن أرادَ اللّهُ بهم سوءًا في أنفسهم وأموالهم - مِن دونِ اللّه وليًّا يليهم بالكفايةِ، ولا نَصيرًا ينصرُهم مِنَ اللّهِ، فيدفعُ عنهُم ما أرادَ اللّهُ بهم[2]؛ لِأَنَّ قُدْرَةَ اللّه وإرادَتَهُ مُحيطَةٌ بالمَخْلوقاتِ، فَمَتى شاءَ؛ عَطَّلَ تَأْثيرَ الأَسْبابِ، أَوْ عَرْقَلَها بِالمَوانِعِ، فَإِنْ يَشَأْ شَرًّا؛ حَرَمَ الانْتِفاعَ بِالأَسْبابِ أَوِ الاتِّقاءَ بِالمَوانِعِ، فَرُبَّما أَتَتِ الرَّزايا مِن وُجوهِ الفَوائِدِ، ومَتى شاءَ خَيْرًا خاصًّا بِأَحَدٍ؛ لَطَفَ لَهُ بِتَمْهيدِ الأَسْبابِ وتَيْسيرِها حَتّى يُلاقيَ مِنَ التَّيْسيرِ ما لَمْ يَكُنْ مُتَرَقَّبًا، ومَتى لَمْ تَتَعَلَّقْ مَشيئَتُهُ بِخُصوصٍ؛ أَرْسَلَ الأَحْوالَ في مَهْيَعِها، وخَلّى بَيْنَ النّاسِ وبَيْنَ ما سَبَّبَهُ في أَحْوالِ الكائِناتِ، فَنالَ كُلُّ أَحَدٍ نَصيبًا عَلى حَسَبِ فِطْنَتِهِ ومَقْدِرَتِهِ واهْتِدائِهِ، فَإِنَّ اللّه أَوْدَعَ في النُّفوسِ مَراتِبَ التَّفْكيرِ والتَّقْديرِ، فَأَنْتُمْ إذا عَصَيْتُمُ اللّه ورَسولَهُ، وخَذَلْتُمُ المُؤْمِنينَ؛ تَتَعَرَّضونَ لِإرادَتِهِ بِكُمُ السّوءَ، فَلا عاصِمَ لَكم مِن مُرادِهِ[3].

لا مَلْجَأَ لأحدٍ من اللهِ إلّا إلَيْه، ولا مهربَ منه إلّا إليه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

تعليلُ الكلامِ السّابقِ وبيانه من علل الفصل

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة التَّعليل والبيان لجملة: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وذلك لأنَّ هذِه الآيةَ اشْتَمَلَتْ على جوابٍ عن مكابرةٍ ضِمْنيَّةٍ، فقد كانَ هؤلاءِ الفارّونَ من ساحة القتالِ جَديرينَ بأَنْ يَقولوا عن الآيةِ السابقةِ الَّتي نفت نفْعَ الفرارِ: بَلى يَنْفَعُنا الفرارُ، وفي الآيةِ "توكيدٌ للأمرِ الواردِ في قولِه سبحانه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾؛ فإنَّ نَفيَ العِصْمَةِ من اللهِ - إنْ أرادَ خيرًا أو

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 669.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 49.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.

شَرًّا - تأكيدٌ لنَفْي نفعِ الفرارِ، والثاني أوكدُ في الدِّلالةِ على المَعنَى، وهوَ نَفْيُ نفعِ الفرارِ"[1].

فائدةُ تَكْرارِ فعلِ ﴿قُلْ﴾:

التَّلقينُ الإلهيُّ مِن أساليبِ تعليمِ الإرشادِ والتَّوجيه

كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للاهْتِمامِ بِمَضْمونِ الجُمْلَةِ[2]، وهوَ تقريرُ العِصْمَةِ للّهِ وحدَه دون غيرِه من الأسبابِ الَّتي يَظُنُّها النّاكثونَ عاصِمَةً لهُم مِنْ أمْرِه سبحانَه، وفي هذا التكريرِ إرادَةُ التَّوكيدِ، وبيانُ أثرِ تقريراتِ الوحيِ في تلقينِ النَّبيِّ ﷺ ما يجب أن يقولَه للنّاكثين.

غرضُ فعلِ الأمْرِ:

وجوبُ الصَّدْعِ بالحقِّ وفَضْحِ الخائنينَ

في فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ إشارةٌ إلى وجوبِ الصَّدْعِ بالجوابِ جَهارًا في وجوهِ النّاكثينَ الخائنينَ للعهدِ خاصَّةً في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحربِ، وفي التصريحِ بالفعلِ كَذلكَ إشارةٌ بيِّنَةٌ لأهمّيَّةِ بيانِ أصولِ الاعتقادِ السليمِ في قدرةِ اللّهِ وعظيمِ سلطانِه على مقاديرِ الكونِ عامَّةً، والبشرِ خاصَّةً.

دلالةُ الاستفهامِ:

لا حيلةَ مع الأقدارِ ولا فرارَ مِن الموتِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإِنْكارِ، والمرادُ مَعْنَى النَّفْيِ لاعْتِقادِهِمْ أنَّ الحيلَةَ عَلى رَسولِ اللّه ﷺ تَنْفَعُهم، وأنَّ الفرارَ يَعْصِمُهم مِنَ المَوْتِ[3]، وفي استعمالِ ﴿مَن﴾ تَفْخيمٌ لشأنِ المُستَفْهَمِ عَنه، وهوَ العاصمُ مِنْ كُلِّ محنةٍ، فأفادتِ انتفاءَ العاصمِ سواه سبحانَه بطريقِ المبالغةِ ذاتًا وصِفَةً، وفي هذا الاستفْهامِ الإنكاريِّ تنبيهٌ على أنَّ الأمْرَ كُلَّه للّهِ، وترغيبٌ في حسنِ الالتجاءِ إلَيه، وحسنِ التَّوَكُّلِ عليْه، وفيه كذلكَ حثٌّ على خوضِ غمارِ المعاركِ في سبيلِ إعلاءِ دينِه دونَ وجَلٍ أو خَوْفٍ، ودونَ نَكْثٍ أو فرارٍ.

---

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.

نكتةُ النَّفْيِ بأداةِ الاسْتِفْهامِ:

الـنَّـفْـيُ بـالاسـتـفـهـامِ الاسـتِـنْـكـاريِّ دعـوةٌ للتَّفكُّرِ والـبـحـثِ عن الجواب

جاء النَّفي بأداة الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دونَ استعمالِ أداةٍ مِنْ أداوتِ النَّفْيِ؛ وذلكَ لأنَّ النَّفْيَ بالاستفهامِ أبلغُ مِنَ النَّفْيِ المُجَرَّدِ؛ وذلك أنَّ الاستِفْهامَ الإنكاريَّ يَحْمِلُ في طيّاتِه نَفْيَ الأمرِ في ذاتِه، فضلًا عنْ معنَى التَّعَجُّبِ مِنْ هذا الاعتقادِ الخبيثِ، وهوَ الظَّنُّ أنَّ ثَمَّةَ عاصمًا غيرَ اللّهِ سبحانَه، فأفادَ معنَى النَّفْيِ وزيادة، "ففي الاسْتِفْهامِ كأنَّكَ تَطْلُبُ مِنَ المُخاطَبِ أنْ يبحَثَ عمَّن يعصِمُهُ مِنَ اللّهِ، فإذا ما جدَّ، واجتهدَ، ولمْ يَجِدْ عاصِمًا؛ أيقن بالنَّفْيِ، وهذا أبلغُ"[1].

فائدةُ حذفِ هاءِ التَّنبيه من ﴿ذَا﴾:

الإيجازُ في اللفظِ في موضعِهِ نمطٌ مِـنَ الـبـلاغَـةِ العاليةِ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ باستعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَا﴾ مُجرَّدًا مِنْ (ها) الَّتي تفيدُ التَّنبيهَ، وذلك لإرادةِ الإيجازِ في اللفظِ على نمطٍ مِنَ البلاغةِ العاليةِ، فضلًا عنْ أنَّ هذا الموضعَ ليس موضعَ تنبيهٍ بعدَ غفلةٍ؛ إذِ الكلامُ مسوقٌ لهُمْ في هذهِ الآيةِ والآيةِ السابقةِ عليْها، فجرَى البيانُ القرآنيُّ على سنَنِ الإيجازِ والاختصارِ.

بلاغةُ استعمالِ الاسْمِ المَوْصولِ:

تـفـخـيـمُ شـأنِ الـعـاصـمِ سُـبـحـانَـه والإشارةُ إلى عُلوِّ شأنِه

أفادَ استعمالُ اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في قولِه سبحانَه: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفخيمَ شأنِ المُستَفْهَمِ عَنْهُ العاصمِ مِنْ كُلِّ محنةٍ، ومعنَى الفخامَةِ: أنَّ هذا العملَ العظيمَ مِنْ شَأْنِه أنْ يَكونَ فاعِلُه عظيمًا، ولذا فَلا يَتَّصِفُ به سوى اللّهِ سبحانَه، فلم يقل: (مَنْ يَعْصِمُكُم)، ولكنْ ما جاءَ عليه النَّظْمُ القرآنيُّ (بلغَ) مِنَ البَلاغةِ ذروتَها، فَشَتّانَ ما بين قولِه سبحانَه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم﴾ وبين (مَنْ يَعْصِمُكُم)؛ لِما فيه من

---

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 124.

التَّفْخيمِ والرِّفْعَةِ والإشارةِ إلى عُلوِّ شَأْنِه سبحانَه على سائر ما يَظُنّونَه عاصِمًا[1].

فائدةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ:

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ باستعمالِ الفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لإفادةِ نفْيِ دَيْمومَةِ العصمةِ على الدّاوم عن أحدٍ سوى اللّه تعالى.

بلاغةُ الإضمارِ دون الإظهار:

المخاطَبونَ في هذا السياقِ هُم المنافقونَ دونَ غيرِهم

لمّا كانَ البيانُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مستمرًّا في توجيهِ الخطابِ للمنافقينَ؛ آثرَ التَّعبيرَ بضميرِ الخطابِ دون التَّصْريح بصفةِ المخاطَبينَ، وهم (المنافقون)، وذلك لاتِّصالِ الخطابِ، وهو مقتضى الظّاهر، فكُلُّ ما تشيرُ إليهِ هذه الآيةُ والآياتُ السابقة إنَّما قُصِدَ به المنافقونَ حصرًا دونَ غيرِهم، مع ما فيه مِن المواجهةِ المستمرَّة، التي تقتضي إدخالهم في مضمون خطاب اللَّوم والتَّوبيخ.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداءِ، أي: ابتداء مِن قدر اللّه تعالى، والعِصْمَةُ هي من قَدَرِ اللّهِ تعالى بالموتِ أو القتلِ حسبما يَظُنّون.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الجَلالَةِ:

لفظ الجلالةِ يورث المهابة، ويُنزل الطُّمأنينة في قلوبِ المؤمنين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ باسم الجلالةِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى ذاتِه العَليَّةِ المُحيطة بِكُلِّ شَيۡءٖ قُدْرَةً وعِلْمًا، قَبْلَ الفرارِ وفي حالِ الفرارِ وبَعْدَهُ[2]، فهوَ الاسمُ الأنسبُ الذي يورث الهيبة والجلال في هذا

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/ 132.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.

المقام العظيم، الذي لا يكون لأحدٍ إلّا له سبحانه، لبيانِ خطأِ ما وقعَ فيه هؤلاءِ الناكثونَ الفارّون من خلطٍ واضطرابٍ في أُصولِ الاعتقادِ، بظنِّهم الكاسدِ أنَّ الفرارَ مُنْجيهم من قدرِ اللّهِ سبحانَه، فكانَ ذِكْرُ الاسم الأعظمِ تذكيرًا بليغًا بعظَمَتِهِ واتِّساعِ سُلطانِه وقدرتِه عليهم في كُلِّ حالٍ.

قيمُ الهدايةِ مبثوثةٌ في بساتين النَّظم المعجز

دلالةُ استعمالِ ﴿إِنْ﴾:

استُعمِلت أداة ﴿إِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ وذلك لأنَّ ﴿إِنْ﴾ إنَّما تُسْتَعْمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه؛ إذْ إنَّ وقوعَ السوءِ على المنافقينَ أمرٌ غيرُ مقطوعٍ بِهِ في سياقِ سورةِ الأحزابِ، الَّتي أفسحتْ مجالًا واسعًا لتوبتِهم ورجوعِهم إلى حَظيرةِ الحقِّ، وذلكَ لترغيب المنافقينَ في العدولِ عن هذا الموقفِ المخزي، وقدِ اتَّضحَ ذلكَ الترغيبُ في قولِه تعالى من السورة نفسها: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٤﴾ [الأحزاب: 24]، فَخَتَمَ الآيةَ بصفاتِ الرحمةِ، وهي كونُه سبحانَه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٤﴾ [الأحزاب: 24]، وليسَ بصفاتِ العذابِ كقولِه في آلِ فرعونَ ومَنْ سَبَقَهُم من المكذِّبينَ الضالّينَ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وفي ذلكَ إشارةٌ بيِّنةٌ لفتحِ بابِ الأوبةِ لهؤلاءِ المنافقينَ، ولذا كانَ التَّعبيرُ بـ﴿إِنْ﴾ أنسبَ للسياقِ ولمقاصد السورةِ الكريمةِ.

الإرادةُ تَكونُ لِما يَتَراخَى وقْتُهُ، ولِما لا يَتَراخَى، والمَشيئَةُ لِما لَمْ يَتَراخَ وقْتُه

نكتةُ التَّعْبيرِ بفعلِ الإرادةِ:

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة الإرادةِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ دونَ المشيئة؛ وذلك لأنَّ الإرادةَ تَكونُ لِما يَتَراخَى وقْتُه، ولِما لا يَتَراخَى، والمَشيئَةُ لِما لا يتراخى وقتُه، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: فعلتُ كَذا، شاءَ أو أبَى، فيقابل بها إباه، وذَلِكَ يكون عِنْدَ محاولة الفِعْلِ

وكَذَلِك المَشيئَةُ إنَّما تكونُ بَدَلًا من ذَلِكَ في حاله[1]، والسياقُ في سورةِ الأحزابِ عامَّةً، وفي هذِه الآيةِ خاصةً يفيدُ التراخي والإمهالَ في عقابِ المنافقينَ، ويفسحُ لهُم الطريقَ واسعًا رغبةً في أَوْبَتِهم ورجوعِهم للحقِّ؛ ليكونوا عدَّةً للإسلامِ في الدُّنيا، وليكونوا من أهلِ النَّجاةِ في الآخرةِ.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِالماضي:

الحضُّ على المسارعةِ إلى الهدايةِ والفرار من الضلالة

جاء التَّعبير بصيغة الماضي لفعل الإرادة في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾؛ للدلالةِ على إحاطةِ علم اللّهِ الأزَليِّ بكلِّ شيءٍ سَيقعُ في مُلْكِه، فهوَ قد انتهَى، وتَحَقَّقَ في عِلْمِه سبحانَه، ولَمَّا كانَ صنيعُهُم يوحي بشَكِّهِم في عِلْمِ اللّهِ وقَدْرَتِه؛ كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ المُضيِّ تذكيرًا لَهُم بإحاطَتِه سبحانَه بكلِّ شيءٍ، أي: إن أراد بكم السّوء، أو أراد الرَّحمة، فإنَّ أحدَ الأمرين متحقِّقٌ - لا محالة - ففيه حثٌّ على المسارعة إلى الهداية.

نوعُ الباءِ ودَلالَتُها:

إرادةُ الله محيطةٌ بالمنافقين نافذةٌ فيهم

حرفُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ للإلصاقِ، فأفادتِ الباءُ إحاطةَ الإرادةِ الإلهيةِ بِهِم على أيِّ حالٍ مِنْ حالَي السوءِ أو الرَّحْمَةِ، فهيَ محيطةٌ بِهِم لا يَنْفَكّون عنَها، مُلْتَصِقَةٌ بِهِم، على نقيضِ تَصَوُّرِهِم الفاسدِ بِظَنِّهِم الخروجَ عن إرادتِه سبحانَه.

دَلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الإيماءُ إلى العنايةِ بالمخاطَبين ترغيبًا وترهيبًا

قدَّمَ النَّظْمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾، فلم يقل: (إنْ أرادَ سوءًا بِكُم)؛ للاهتمام، إذِ المقصودُ الأوَّلُ بيانُ لُصوقِ الإرادةِ الإلهيَّةِ بهِم متى

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

أرادُ اللّهُ تعالى ذلكَ، ففيه لفتٌ إلى أنَّهم موضع الإرادة، ومحلُّ الحكمة، فهو جامعٌ للترغيب والترهيبِ.

نكتةُ تَقْديمِ جَوابِ الشَّرطِ على فِعْلِه:

إظهارُ المقصدِ الأساسِ للسّياقِ في إثباتِ العصمةِ للهِ وحدَه

عندَ مَنْ يرى جوازَ تقديمِ جوابِ الشَّرطِ على فِعلِه، فإنَّ جوابَ الشَّرْطِ مقدَّمٌ في قولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾؛ إذ الأصل: (إنْ أرادَ اللّهُ بكُمْ سوءًا، أوْ أرادَ بكُمْ رَحْمَةً؛ فمَنْ ذا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنْهُ)، ونكتةُ تقديم الجوابِ على شرْطِه الاهتمام بِهِ، لِتَضَمُّنِ الجَوابِ معنَى الإتيانِ بالدَّليلِ الفِعْليِّ على شرْطِهِ المُتَضَمِّنِ معنَى الادِّعاءِ، والدَّليلُ الواقِعيُّ أهمُّ من الدَّليلِ القوليِّ[1]، فلَمّا كانَ إثباتُ العصمةِ للّهِ وحدَه، ونفيُها عنْ أيِّ أحدٍ سواه، هوَ المقصد الأساس للآية الكريمةِ؛ قدَّمَ الجوابَ على شرطه.

غرضُ تنكير لفظ ﴿سُوٓءًا﴾:

اشتمالُ اللّفظِ على جميعِ أنواعِ السّوءِ المتوقَّعةِ

جاءتْ كلمةُ ﴿سُوٓءًا﴾ نكرةً للدِّلالةِ على العموم، فيشمل كلَّ ما يتوقَّعه الذِّهنُ من السّوءِ، فقد يصيبُهم السوءُ بالموتِ أو القتلِ في خاصَّةِ أنفُسِهم الَّتي فَرّوا من ساحةِ المعركةِ نجاةً بها، وقدْ يصيبُهم السوءُ في أبدانِهم بالجرحِ، أو في أحوالِهم النَّفْسيَّة، أو غيرِ ذَلك مِمّا قدْ يَحُلُّ بهم من صُروفِ السّوءِ وضروبِ المَكروه.

دَلالَةُ تكرارِ الفِعلِ ﴿أَرَادَ﴾:

عندَ اختلافِ الأسبابِ والأحكامِ تختلف أنواعُ الإرادةِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿أَرَادَ﴾؛ لاختلاف مضمونِ الإرادة في الأمرينِ؛ إذ الإرادةُ الأولَى بالسوءِ، والأخرى بالرحمة، فكرَّر الفعلَ للمغايرة بين المَعْنَيَيْن، وفيه حثٌّ على الإقبال بعد الإدبار، والإيمان بعد الضَّلال، فعند اختلافِ الأسبابِ والأحكامِ تختلف أنواعُ الإرادة.

(1) عبد الجبار زيدان، تقديم الجواب على شرطه في النحو العربي، ص: 16.

بلاغةُ المُقابَلَةِ والاحتباك:

إرادةُ اللهِ سبحانَه محيطةٌ بكلِّ خلقِه لاحقَةٌ بِهِم في كُلِّ أحوالِهِم

قابلَ النَّظْمُ الحكيمُ بَيْنَ لفظَي السوءِ والرَّحمةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ إرادةَ اللّهِ سبحانَه لاحقةٌ بهم؛ إنْ أرادَ بهم سوءًا؛ فَأناخَ بهم نِقمَهُ، أو إنْ أرادَ بهم رَحْمَةً؛ فَأفادَهم نِعَمَهُ، والمراد بهذه المقابلة، أي: قيسوا هَذا المَعْنى عَلى مَقاييسِ عُقولِكم مُعْتَبِرينَ لَهُ بِما وجَدْتُمْ مِنَ الشِّقَّيْنِ في جَميعِ أعْمارِكُمْ، هَلِ احْتَرَزْتُمْ عَنْ سوءِ إرادَةٍ، فَنَفَعَكُمُ الاحْتِرازُ، أوِ اجْتَهَدَ غَيْرُهُ في مَنعِكم رَحْمَةً مِنهُ، فَتَمَّ لَهُ أمْرُهُ، أوْ أوْقَعَ اللّه بِكم شَيْئًا مِن ذَلِكَ، فَقَدَرَ أحَدٌ مَعَ بَذْلِ الجُهْدِ عَلى كَشْفِهِ؟[1].

ويمكن أن تكون هذه المقابلة من الاحتباك؛ إذ ذِكرُ السوء أوَّلًا دليلٌ على حذف ضدِّه ثانيًا، وذِكرُ الرحمة ثانيًا دليلٌ على حذْفِ ضدِّها أوَّلًا، فيجمع بذلك بين معانٍ كثيرة في ألفاظ وجيزة، بما يوقع في النَّفس المعنى المراد من السياق ترغيبًا وترهيبًا أتمَّ الوقوع.

علَّةُ تَقْديمِ ذكرِ السّوءِ عَلَى الرَّحْمِةِ:

تقديمُ ذِكرِ العقوبةِ هو الأليقُ بطالبي الفرارِ من الكرامة

قُدِّمَ ذِكرُ لفظِ السّوء على الرَّحمة في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾؛ وذلك لأنَّ هؤلاءِ الفارّين من ساحةِ المعركة، إن عامَلَهم اللّهُ بِعَدْلِه؛ فلن يُجازيَهُم إلّا بالسّوءِ والعِقابِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهديدٍ، ولكنَّه سبحانَه فتحَ لَهُم بابَ الرجاءِ والأوبةِ بِذِكْرِ الرَّحمَةِ بعده؛ ترغيبًا لهم بالتوبة والرجوع، بعد الترهيب والتخويف بسوء المآل إن استمروا على فِعلهم الشنيع.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

مَن فقدَ العاصمَ؛ فقدْ فقدَ الوليَّ والنَّصير

عَطَفَتِ الواوُ قولَ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ على قولِه سبحانه: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾، فوصلتْ بينَ الجملتين، فكانتْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 312.

هذه الجملةُ عطفًا عَلى جُمْلَةِ: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾، وتحتمل الواو أن تكون مُعْتَرِضَةً بَيْنَ أجْزاءِ القَوْلِ، والتَّقْديرانِ مُتَقارِبانِ؛ لِأنَّ الواوَ الاعْتِراضيَّةَ تَرْجِعُ إلى العاطِفَةِ، والكَلامُ موَجَّهٌ إلى النَّبي ﷺ، ولَيْسَ هو من قَبيلِ الالتِفات، والمَقْصودُ لازِمُ الخَبَرِ، وهو إعْلامُ النَّبيِّ ﷺ بِبُطْلانِ تَحَيُّلاتِهِمْ، وأنَّهم لا يَجِدونَ نَصيرًا غَيْرَ اللّه، وقَدْ حَرَمَهُمُ اللّه النَّصْرَ؛ لِأنَّهم لَمْ يَعْقِدوا ضَمائِرَهم عَلى نَصْرِ دينِهِ ورَسولِهِ[1]، فالجملةُ إذًا معطوفَةٌ على الإنشاءِ السابقِ من الاستفهام بحسب المعنَى، ووَجْهُ المناسبةِ أنَّ هذه تنفي الوليَّ والنَّصيرَ لهؤلاء، والَّتي قبلها تنفي أنْ يكونَ لَهُم عاصمٌ يَمْنَعُهُم منَ اللّهِ[2].

نكتةُ النَّفْيِ بِأداةِ (لا) دونَ (لنْ):

نفيُ الولايةِ والنُّصرة من دون الله حالًا واستقبالًا

آثرَ النظم الكريم استعمال أداة النفي (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دون (لن)، رُغْمَ تقاربِ عَمَلِهما حتى إنَّ كثيرًا من النُّحاةِ قدْ ساووا بينهما في الدِّلالة، وذلك أنَّ (لا) تَنْفي الحالَ والمُستقْبَلَ معًا، و(لَنْ) تَنْفي المُسْتَقْبَلَ فقطْ، كما أنَّ (لا) - عند كثير من النُّحاةِ - تَكونُ لِنَفْيِ ما طالَ وبَعُدَ، و(لنْ) تكونُ لِنَفي ما قَصُرَ وقَرُبَ، فَلا يَمْتَدُّ النَّفْيُ بِها امْتِدادَهُ في (لا)، والسِّرُّ في ذَلِكَ أنَّ الألفاظَ مُشاكلةٌ للمَعاني، و(لا) آخِرُها الألِفُ، والألَفُ يَكْمُنُ امتدادُ الصوتِ بها، بخلافِ النّونِ، فطابَقَ كُلُّ لَفْظٍ مَعْناه[3]، وما جاء عليه النَّظْمُ هو الأنسب بالسّياقِ؛ لأنَّ المرادَ نَفْيُ الوَليِّ والنّاصرِ من دونِ اللّهِ حالًا واستقبالًا، أي: في تلك اللحظاتِ العصيبةِ الَّتي أحدقَ فيها المشركونَ واليهودُ بالمدينةِ - على ساكنِها أفضلُ الصلاةُ والتَّسْليم - فَلَن يأمنَ المنافقونَ غَدْرَهُم إن ظَفَروا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 125.

(3) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 100، والسيوطي، همع الهوامع: 2/ 366، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 360.

بالمسلمينَ، ولنْ يَجِدوا ناصرًا أو وليًّا في المستقبلِ كذلك، فكانَ النَّفْيُ بـ(لا) أنسبَ للسياقِ، وأدقَّ في المعنَى.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ:

المنافقُ متروكٌ غيرُ موصولٍ بأسبابِ الولايةِ والنُّصرةِ

جاء التَّعبير بصيغةِ المضارعِ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وذلك لإفادةِ نَفْيِ وجودِ الوليِّ والنَّصيرِ في كلِّ وقتٍ، وللتَّعبيرِ عنِ استمرارِ حَيْرَتِهم وهَوانِهم على اللّهِ، فأينما بحثوا عن وليٍّ يتولّى نفعهم؛ لم يجدوا، وأينما طرقوا باب ناصرٍ ينصرهم؛ ما وجدوا إلّا الخزي والهوان.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

مدارُ المصلحةِ الكبرى لكلِّ عاقلٍ في التزامِ شرعِ الله تعالى

قُدِّم ذِكرُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فلم يقل: (ولا يجدونَ وليًّا من دون اللّه لَهُم) للاهتمام؛ إذ المقصودُ الأوَّلُ بيانُ فَقْدِهم لوليٍّ أو نصيرٍ يكونُ لَهُم عاصِمًا من بَأسِ اللّهِ وقَدَرِه بِهِم، وذلك أنَّ المنافقين كان يعنيهم من أمرِ الفرارِ أن يجدوا لأنفسِهم وليًّا أو نصيرًا، فهم يبحثون عن نجاتِهم بالدَّرجةِ الأولى، فكان نفيُ ذلك عنهم بصورةٍ مباشرةٍ بتقديم ﴿لَهُم﴾ هو الأولى بالمقام، لما فيه من الإيماءِ إلى مدى اعتنائهم بأنفسِهم، وأنَّهم لن يصلوا إلى نفعِ أنفسِهم مهما جرَّبوا من سبيلٍ من دون سبيل اللّه تعالى.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لابتداءِ الغاية، أي: لا يجدون وليًّا ولا ناصرًا ابتداءً من دون اللّه تعالى؛ فَلا عاصمَ سِواه، ولا ناصِرَ غيرُه.

بلاغةُ تقييدِ الفعل:

كلُّ وليٍّ ونصيرٍ غير الله فدونٌ حقير

آثر النَّظم الكريم ذِكرَ قيد: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لفعل: ﴿يَجِدُونَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دون

أن يقول: (ولا يجدون لهم وليًّا ولا نصيرًا)؛ لبيانِ أنَّ أيَّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِن دون اللهِ حقيرةٌ صغيرةٌ مُهانَةٌ؛ وذلكَ أنَّ ﴿دُونِ﴾ ظَرْفُ مكانٍ، يُعَبَّرُ به عنِ المَنْزِلَةِ الدَّنيَّة[1]، وهوَ نقيضُ (فوقَ)، وهوَ تَقْصيرٌ عَنِ الغايَةِ، والدّونُ: الحَقيرُ الخَسيسُ[2]، فالمادَّةُ تدور حولَ عدمِ الرِّفْعَةِ وهبوطِ المكانَةِ، وفي ذلكَ ذمٌّ لكُلِّ ولايَةٍ أو نُصْرَةٍ مِنْ دونِ اللهِ سبحانَه.

دَلالةُ التَّصْريحِ بِلفْظِ الجلالةِ:

التَّعبيرُ بالاسْمِ العَلَمِ إشارَةٌ إلى إحاطَتِهِ بِكُلِّ وصْفٍ جَميلٍ

آثر النَّظمُ التَّصريحَ بلفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ دونَ أن يقول: (منْ دونِه)، وهو مقتضى الظاهر لتقدُّم ذِكر لفظ الجلالة؛ لأنَّ اللّهَ وحدَه هوَ النّاصِرُ والوَليُّ حقيقةً، فجاءَ التَّصريحُ بالاسمِ الأعظم تذكيرًا بهذهِ الحقيقةِ الخالِدَةِ، كَيْ يتنَبَّه هؤلاءِ النّاكثونَ الفارّونَ إلى سوءِ ظنِّهم باللّهِ سبحانَه إذا كان في الآيةِ التفاتٌ، وأمّا إنْ كانَ الحديثُ موجَّهًا لرسولِ اللّه ﷺ - كما أشارَ ابن عاشور[3] - فإنَّ التصريحَ بلفظِ الجلالةِ تسليةٌ لرسولِ اللّه، وتثبيتٌ لقلبِه الكريم، وكذلكَ فإنَّ في التَّعبيرِ بالاسْمِ العَلَمِ إشارَةً إلى إحاطَتِهِ بِكُلِّ وصْفٍ جَميلٍ، فَمِن أيْنَ يَكونُ لِغَيْرِهِ الإلْمامُ بشَيْءٍ مِنها إلّا بإذْنِه سبحانه[4].

نكتةُ استعمال مفردة ﴿وَلِيًّا﴾:

كثرةُ المعاني التي يحتملها لفظُ وليٍّ تنفي كلَّ وليٍّ

أفادَ استعمالُ مفردةِ ﴿وَلِيًّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الدِّلالةَ على عموم معنى الولايةِ؛ إذِ الوَلاءُ والتَّوالي أن يَحْصُلَ شيئانِ فَصاعَدًا حُصولًا لَيْسَ بيْنَهُما ما لَيْسَ مِنْهُما، ويُسْتَعارُ ذلكَ للقُربِ مِنْ حيثُ المكانُ، ومِنْ حَيثُ النِّسْبَةُ،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دون).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (دون).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 313.

ومِنْ حيثُ الدّينُ، ومِنْ حيثُ الصَّداقَةُ والنُّصرَةُ والاعتقادُ[1]، ففي التعبيرِ بالوَلِيِّ من كثافةِ المعاني ما ليسَ في غيرِه من الألفاظِ، ولذلكَ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ هذا اللفْظَ لبيانِ شدَّةِ خسرانِ المنافقينَ الفارّينَ من ساحةِ الجهادِ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ والمُؤْمنينَ.

نكتةُ اقترانِ الوليِّ والنَّصيرِ:

نـصْـرُ الـلـهِ لِـعـبـاده هو حسنُ مَعونَتهم وتَمْكينهم مِنَ الظَّفَرِ بأعدائِهم

جَمَعَ النَّظْمُ الحكيمُ بينَ نَفْيِ الولايةِ ونَفْيِ النُّصْرَةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ وذلكَ لقطعِ الأطْماعِ في الانتفاعِ بالولايَةِ أو النُّصْرَةِ كِلَيْهما مُجْتَمِعَتينِ أو مُنْفَرِدَتين مِنْ غيرِ اللّهِ تعالى، حتَّى يَتَرَسَّخَ في عقولِ المسلمين عامَّةً - إن كان الخطابُ للرسول ﷺ - والناسِ كافَّةً - إن كان الخطابُ للمنافقين - أنَّه لا سبيلَ إلى أيِّ شَكْلٍ من أشكالِ العونِ أو النَّصرِ إلّا مِنْ عِنْدِ اللّهِ؛ إذْ إنَّ نُصْرَةَ اللّهِ لِعبادِه هيَ حسنُ المَعونَةِ والتأييدِ والحفظِ، وتَمْكينِهِم مِنَ الظَّفَرِ بأعدائِهم.

بَلاغةُ الاحتراسِ في لفظِ النَّصير:

بـذهـابِ الـوليِّ والنَّصيرِ يتكامل عجزُ المنافقين

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ على ذِكْرِ الوَلِيِّ بذِكْرِ النَّصيرِ لإفادةِ الاحْتِراسِ، فالوَلِيُّ قَدْ يَضْعُفُ عنِ النُّصْرَةِ، والنَّصيرُ قدْ يكونُ أجْنَبِيًّا مِنَ المنصورِ، فَلِحُصولِ التَّكامُلِ بينَ وِلايَةِ الوَلِيِّ ونُصْرَةِ النَّصيرِ عَطَفَ الواحِدَ على الآخَرِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَلِيِّ لا يَقْتَضي نَفْيَ كُلِّ نَصيرٍ؛ إذْ قدْ لا يَكونُ لأحَدٍ وليٌّ لِكَوْنِه دَخيلًا في قَبيلَةٍ، ويَكونُ أنْصارُهُ مِنْ جيرَتِه[2]، فكَمَنَتْ بَلاغَةُ الاحتراسِ في اكْتِمالِ المعاني ونَفْيِ أيِّ ظَنٍّ يَرِدُ على الأذْهانِ في نُصْرَةِ أحدٍ مِنْ دونِ اللّهِ ﷻ.

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 695.

دلالةُ التَّعْبيرِ بصيغة فعيل:

لفظُ نصيرٍ أوسعُ دلالةً مِنْ لفظ ناصرٍ وأبلغُ منه

آثَرَ النظمُ الكريم التعبيرَ بصيغة (فعيل) دون (فاعل) في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ وذلك لأنَّ ما تُضفيه صيغة (فعيل) أوسعُ مِنْ حيثُ إنَّ فَعيلًا مِنْ أَبْنيَةِ المُبالَغَة، فيُعْطي كثرةً[1] في المعنَى المرادِ، ولمّا كان القومُ في موقفٍ شديدٍ عصيبٍ؛ فإنَّهُم أحوجُ ما يكونون للنَّصير بما فيه من معاني المُبالَغَةِ في النُّصرَةِ دونَ الناصرِ فحسب.

سِرُّ تَقْديمِ ذكرِ الوَلِيِّ على النَّصيرِ:

الوليُّ أقربُ مِنَ النَّصيرِ وأسْهَلُ منالًا

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ الوَلِيِّ على النَّصيرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لأمرينِ اثنين: **الأوَّلُ**: القُرْبُ؛ إذِ الوَلِي أقربُ مِنَ النَّصيرِ؛ إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثُمَّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصرَةِ والتأْييدِ في ساعاتِ الشِّدَّةِ والحرب والعُسْرَةِ، **والآخر**: السُّهولَةُ؛ لأنَّ الرُّكْنَ الشَّديدَ الَّذي يُسْتَنَدُ إلَيْه: إمّا وليٌّ يَشْفعُ، أوْ ناصِرٌ يَدْفَعُ، والأوَّلُ أسْهَلُ الطَّريقَينِ؛ فلِذَلِكَ قَدَّمَ الوَلِيَّ على النَّصيرِ[2].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظَي ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾:

نفي الولاية والنُّصرة عن كُلِّ مدَّعيهما مِنْ دونِ اللهِ

نُكِّرَ لفظا ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وذلكَ للدِّلالَةِ على العُموم مِنْ حيث اللَّفْظُ، والتَّحْقير مِنْ حيثُ المعْنَى، فَكُلُّ وليٍّ أوْ نَصيرٍ اتُّخِذَ مِنْ دونِ اللّه تعالى - بقطع النظر عن نعته ووسمه، وفي أيِّ زمانٍ كانَ - لا تَكْمُلُ وِلايَتُه، ولا تُسْتَكْمَلُ نُصْرَتُهُ لِمَنْ والاه، ونَصَرَه، بَلْ كُلُّ وِلايَةٍ أو نُصْرةٍ دونَ وِلايَةِ اللّهِ ونُصْرَتِه ناقصةٌ غيرُ تامَّةٍ.

فائدةُ توسُّطِ (لا) بينَ المعطوفَين:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾،

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 48.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 380.

تَوَسَّطَتْ (لا) بينَ المَعْطوفَيْنِ لتأكيدِ النَّفْي، ولإقامةِ نفي وجدان النَّصير إقامةً مستقلَّةً عن نفي وجدان الوليِّ، فيتحقَّق نفيان.

بلاغةُ الالتِفاتِ:

إن لم ينفع الخطابُ في الإقناعِ ففي الإخبارِ رفعٌ للملام

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ اخْتَلَفَتْ صيغةُ النَّظْم، فجاءت بأسلوبِ الخطابِ في قولِه سُبحانَه: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، ثُمَّ انتقلَ إلى أسلوبِ الغَيْبَةِ، عندَ مَنْ ذهَبَ إلى أنَّ الجملة خطابٌ للمنافقينَ، والسِّرُّ في ذَلِكَ هوَ حُضورُ هؤلاءِ المنافقينَ معَ المُؤْمنينَ في مَيدانِ القِتالِ، يَعيشونَ بِتِلْكَ الخَواطِرِ المَريضَةِ، والمَشاعِرِ الكاذِبَةِ، ويُديرونَ في كَيانِهِم وُجوهَ الأعْذارِ الَّتي يَعْتَذِرونَ بها للفِرارِ مِنْ هذا المَوْقِفِ، فَهَذا هوَ حالُهُم قَبْلَ أنْ يَفِرّوا؛ فَلَمّا اجْتَمَعَ لَهُمُ الرَّأْيُ عَلَى الفِرارِ، وفَرّوا؛ كانَ الحُكْمُ عليهم غيابيًّا في مواجَهَةِ المُؤْمنينَ، فَلا يَسْتَمِعونَ هُمْ إلى هذا الحُكْمِ، ولا يَدْرونَ ماذا يُريدُ اللّهُ بِهِم، حتَّى يفجَأهم العذابُ، وينزلَ بهم البلاءُ، وهُمْ في غَفْلَةٍ عنه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العصمة والمنعة:

العِصْمَة منعةٌ ووِقايةٌ وملازمةٌ للحِفْظِ

لَفظُ العِصْمَةِ يَدُلُّ عَلَى إِمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ[2]، والعِصْمَةُ الوِقايَةُ والمَنْعُ مِمّا يَكْرَهُهُ المَعْصومُ[3]، أمّا المَنْعُ؛ فهوَ تَحْجيرُ الشَّيْءِ والحَيْلولَةُ دونَ الوصولِ إلَيْهِ[4]، وقد آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالعِصْمَةِ؛ لأنَّ فيها معنًى زائدًا على المنعِ، وهوَ الوِقايةُ وملازمةُ الحفظِ، لما فيه من المبالغةِ في نفي فائدةِ الفرارِ.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 671.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 292.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (منع).

﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ [الأحزاب: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِنَ الخطابِ بالإقناعِ المباشرِ إلى التَّهديدِ الإشاريِّ

لَمّا أخبَرَتِ الآياتُ السّابقة عن عِلمه سُبْحانَهُ بما أَوْقَعه المنافقون مِن أسْرارِهِمْ، وأمرهُ ﷺ بوَعْظِهِمْ؛ حَذَّرَهم بدَوام عِلْمِه سبحانه لِمَن يَخونُ مِنهُمْ، وإذا كانوا يُخْفون مَقاصِدَهُمْ عَنْ رَسول اللّه ﷺ، فَلا يَشْعُرُ بِمُرادِهِمْ مِنَ الاسْتِئْذانِ، فإنَّ اللّه مطَّلعٌ على كلِّ ذلك(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾: (عوق) عاقَهُ عَنِ الشَّيْءِ يَعوقه عَوْقًا: صَرَفَهُ، وحَبَسَهُ، ومِنْهُ التَّعْويقُ والاعْتياق، وذَلِكَ إذا أراد أمرًا، فَصَرَفَهُ عَنْهُ صارفٌ، والتَّعْويقُ: تَرْبيثُ النّاسِ عَنِ الخَيْرِ، وعَوَّقَه وتَعَوَّقه واعْتاقه كُلُّهُ: صَرَفَهُ وحَبَسَهُ، ورَجُلٌ عوَقَة وعوَق وعوق، أي: ذو تَعْويقٍ لِلنّاسِ عَنِ الخَيْرِ وتَرْبيثٍ لأصحابه(2)، والتَعَوُّقُ: التَّثبُّطُ، والتَّعْويقُ: التَّثبيطُ(3)، والعائِقُ: الصّارِفُ عَمّا يُرادُ مِنْ خَيْرٍ، ومِنْهُ: عَوائِقُ الدَّهْرِ(4)، و﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ في الآية: قومٌ مِنَ المُنافِقينَ كانوا يُثَبِّطون أنصارَ النَّبيِّ ﷺ، وذَلِكَ أنَّهم قالوا لَهُمْ: ما محمَّدٌ وأصحابه إلّا أُكْلَةُ رأسٍ، ولَوْ كانوا لَحْمًا؛ لالتَقَمَهُمْ أبو سُفْيانَ وحِزْبُه، فخلّوهم، وتَعالَوا إلينا(5).

2) ﴿هَلُمَّ﴾: (هلم) لَيْسَ فيهِ إلّا قَوْلُهُمْ: هَلُمَّ: كَلِمَةُ دَعْوَةٍ إلَى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عوق).
(3) الجوهري، الصحاح: (عوق).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عوق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عوق).

شَيْءٍ، أي: أَقْبِلْ[1]، وهَلُمَّ اسمُ فعلِ أمرٍ للحضورِ أو الإحضارِ، فتكونُ قاصرةً كقوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، وتكونُ مُتَعَدِّيَةً، وهيَ في لُغَةِ أهل الحِجازِ تكونُ للواحِدِ والاثنَيْنِ والجَمْعِ والذَّكَرِ والأُنْثى بلفظٍ واحِدٍ، وأهلُ نَجْدٍ يُصَرِّفونَها، وأمّا في لُغَةِ بَني تَميم وأهل نَجْدٍ؛ فإنَّهم يَقولونَ لِلْواحِدِ: هَلُمَّ، ولِلاثْنَيْنِ هَلُمّا، ولِلْجَمْعِ هَلُمّوا[2]، وأصل هَلُمَّ: (ها اُلْمُمْ)، فـ(ها) للتَّنْبيه، و(اُلْمُمْ) مَعْناهُ: اقصد إلينا، وأقْبل إلينا، لَكِن كَثُرَ الاسْتِعْمال فيها، فَحُذِفَت ألفُ الوَصْلِ من (اُلْمُمْ) لمّا تَحَرَّكَتِ اللّامُ بضمَّةِ الميم الأولَى عِنْد الإدْغام، فَصارَت (ها لُمّ)، فحذفت ألف (ها)؛ لسُكونِها وسُكون اللّام بعْدها؛ لِأَنَّ حركَتَها عارضةٌ؛ فَلم يُعْتَدّ بحركتها؛ لأنَّها عارضة، فاتَّصلت الهاء باللّامِ، فَصارَت (هَلُمَّ)، وفتحت الميم لالتقاء السّاكِنَيْنِ[3]، والمرادُ بِها في الآية: أقْبلوا إلينا.

3) ﴿ٱلْبَأْسَ﴾: (بأس) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيسٌ، أيْ: شُجاعٌ[4]، والبَأْساءُ من البُؤْس: ضِدُّ النُّعْمَى والنَّعْماء[5]، يُقالُ: لا بَأْسَ عَلَيْكَ في هَذا، أيْ: لا شِدَّةَ، وتُسَمَّى الحَرْبُ بَأْسًا؛ لِما فيها مِنَ الشِّدَّةِ والعذابِ[6]، وفي حَديثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه: "كُنّا إذا احْمَرَّ البَأْسُ، ولَقيَ القَوْمُ القَوْمَ؛ اتَّقَيْنا بِرَسولِ اللهِ ﷺ، فَما يَكونُ مِنّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى القَوْمِ مِنْهُ"[7]، يُريدُ الخَوْفَ، ولا يَكونُ إلّا مَعَ الشدَّة[8]، والمُرادُ بالبأس هَهُنا: القتالُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُحذِّر الآيةُ الكريمةُ المنافقينَ بدوامِ عِلْمِ اللهِ تعالى بالخائِنينَ منهم، ووَبَّخَهُم بإخْبارِ نَبيِّهِ ﷺ أنَّ اللهُ يَعْلَمُ الَّذينَ يُعَوِّقونَ النّاسَ عنْ نُصْرَتِهِ ﷺ، ويَمْنَعونَهُم بالأَقْوالِ والأفْعالِ، ويَعلَمُ القائِلينَ لإخْوانِهِم وأصْحابِهِم مِنْ أَهْلِ المَدينة: تَعالَوا إلَى ما نَحْنُ فيه مِنَ الإقامَةِ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هلم).
(3) مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 2/ 575.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (بأس).
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/ 220.
(7) مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث رقم: (1364).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (بأس).

البَساتينِ تحتَ الظِّلالِ والثِّمارِ، واتْرُكوا مُحَمَّدًا والحربَ مَعَه، فإنَّ القومَ ظافرونَ بهم - لا محالةَ - لكثرةِ عَدَدِهم، ولا يأْتي المنافقونَ الحربَ أو القتالَ، إلّا زَمَنًا قليلًا أو شيئًا يَسيرًا؛ إذا اضطرّوا إليه، خوفًا منَ الموتِ أو القتلِ، فَهُم لا يَحْضُرون القتالَ إلّا رياءً وسُمْعَةً.

من علامة المنافقين التَّخذيلُ عن المؤمنين

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

فُصِل قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ قَوْلِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لِأنَّ ذَلِكَ يُثيرُ سُؤالًا يَهْجِسُ في نُفوسِهِمْ أنَّهم يُخْفونَ مَقاصِدَهم عَنْ رَسولِ اللّه ﷺ، فَلا يَشْعُرُ بِمُرادِهِمْ مِنَ الاسْتِئْذانِ، فَأُمِرَ أنْ يَقولَ لَهم: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾، أيْ: فاللّه يُنَبِّئُ رَسولَهُ بِكم بِأنَّ فِعْلَ أولَئِكَ تَعْويقٌ لِلْمُؤْمِنينَ، وقَدْ جُعِلَ هَذا الاسْتِئْنافُ تَخَلُّصًا لِذِكْرِ فَريقٍ آخَرَ مِنَ المُعَوِّقينَ[1].

هواجسُ النُّفوسِ لا تَخْفَى عَلَى علّامِ الغُيوبِ

دلالَةُ دُخولِ ﴿قَدۡ﴾ عَلَى الفِعْلِ المُضارِعِ:

في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ ابتدأ النَّظْمُ الحكيمُ بالحرف ﴿قَدۡ﴾، وقدْ تعدَّدتْ أقوالُ العلماءِ في توجيه معناها في الآيةِ الكريمةِ، فذهبَ أغْلَبُ المُعربينَ والمُفَسِّرينَ إلى أنَّ ﴿قَدۡ﴾ هَهُنا حرفُ تحقيقٍ؛ لأنَّ عِلمَ اللّهِ محقَّقٌ مؤكَّدٌ في كُلِّ زَمَنٍ[2]، ولِأنَّ المنافقين لمَرَضِ قُلوبِهِمْ يَشُكّونَ في لازِمِ هَذا الخَبَرِ، وهو إنْباءُ اللّه رَسولَهُ ﵊ بِهِمْ، أوْ لِأنَّهم لِجَهْلِهِم النّاشِئِ عَنِ الكُفْرِ يَظُنّونَ أنَّ اللّه لا يَعْلَمُ خَفايا القُلوبِ، وذَلِكَ لَيْسَ بِعَجيبٍ في عَقائِدِ أهْلِ الكُفْرِ، فَلِلتَّوْكيدِ بِحَرْفِ التَّحْقيقِ مَوْقِعٌ، ودُخولُ (قَدْ) على المُضارِعِ لا يُخْرِجُها عَنْ مَعْنى التَّحْقيقِ عِنْدَ المُحَقِّقينَ من أهْلِ العَرَبيَّةِ، وأنَّ

يجتمع لمعنى (قد) التَّحقيق والتعليل والتَّهكُّم بالمنافقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 248.

ما تَوَهَّموهُ مِنَ التَّقْليلِ إنَّما دَلَّ عليه المَقامُ في بَعْضِ المَواضِعِ لا مِن دَلالَةِ (قَدْ)، ومِثْلُهُ إفادَةُ التَّكْثيرِ، وذهبَ ابنُ جُزيٍّ إلى أنَّ (قد) دخلتْ على الفعلِ المضارعِ بمعنى التهديد، وقيل: للتَّعليل على وجه التهكُّم[1]، وأثبتَ البقاعيُّ أنَّها للتحقيق وتقريب الماضي، والإيذان بدَوامِ هَذا الوَصْفِ لَهُ سُبحانَه، ووجَّه الرأي القائلَ: إنَّها تفيدُ التَّقليلَ، فقال: ولَعَلَّهُ عَبَّرَ بـ﴿قَدْ﴾ الَّتي رُبَّما أفْهَمَتْ في هَذِهِ العِبارَةِ التَّقْليلَ؛ إشارَةً إلى أنَّهُ يَكْفي مَن لَهُ أدْنى عَقْلٍ في الخَوْفِ مِن سَطْوَةِ المُتَهَدِّدِ احْتِمالَ عِلْمِهِ[2]، والظاهرُ أنَّها للتَّحقيقِ، وإنْ كانَ سياقُ الآيةِ يُرَشِّحُ لِمَعاني التَّهْديدِ والتَّهكُّمِ والتَّعْليلِ والتَّقْليلِ في حقِّهم، لا في حقِّ اللّهِ سُبحانَه، فَإنَّ عِلمَه سُبْحانَه كاملٌ تامٌّ لا يتغيَّر، ولا ينقصُ، وفي جمْعِ النَّظْمِ لهذه المعاني الكثيفةِ في هذا اللفظ وحده دليلٌ باهرٌ على إعجازِ القرآنِ.

بلاغةُ الكنايةِ في اسْتعمالِ مفردةِ العلِمِ:

الإخبارُ بالعِلْمِ تهديدٌ ضمنيٌّ وتحذيرٌ ربّانيٌّ

دلَّ استعمالُ مفردة العلم في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ على أنَّه سُبحانَه يعلمُ دَخائِلَ نُفوسِهم، كما يعلم ظواهِرَها، وقدْ عَلِمَ اللّهُ بعلمِه الأزليِّ حقيقةَ نفوسِ المُنافقينَ وما يدورُ فيها من عدَمِ التَّصديقِ باللّهِ ورسولِه الكريم ﷺ، وهو كنايةٌ عن تهديدهم تهديدًا غير مباشر، فإنَّ العِلمَ يُطلَقُ على لازمه، وهو تعذيبُهم وهلاكهم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارعِ:

تهديدُهم باستمرار علم الله تعالى بكلِّ أحوالهم

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ المُضارعَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ دونَ الماضي، وذلك لإقامةِ الحجَّة على المنافقين، وديمومة تحذيرهم بأنَّ اللّه عالمٌ مطَّلع على كلِّ ما

---

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 293.

يحدث منهم، ويتجدَّد، سواء في قلوبهم أم بأفعالهم، فلا يخفون شيئًا إلّا وقد علمه اللّه، ولا يكيدون كيدًا إلّا وهو مطَّلع عليهم.

فائدةُ إسْنادِ العِلْمِ إلى لَفْظِ الجَلالةِ:

ذِكْرُ الاسْمِ الجليلِ أدعَى لإيقاعِ الرَّهْبَةِ في قلوبِ المنافقينَ

أَسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، دون أن يُبنى للمفعول؛ لتفخيم الموقف، وتعظيم شأنِ المخالفةِ، وتحذير المنافقين، ولإظْهارِ عظيم سلطانِه واقتدارِه عليهم، والتَّذكير ببأسِه الَّذي لا يُرَدُّ، ولإيقاع المَهابةِ في نُفوسِهم الَّتي ضلَّتْ، وأضَلَّتْ، وأمْعَنَتْ في الاستِخْفافِ بقدرَتِه وعلمِه، فكان إظْهارُ الاسم الجليلِ بمنزلة التَّنبيهِ والتَّذْكيرِ لهؤلاءِ العصاةِ لعلَّهم يرجِعونَ إلى رُشْدِهِم.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾:

التَّعويقُ من صفاتِ المنافقينَ الرّاسخةِ فيهم

التَّعريفُ في كلمةِ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، فهي صفةٌ أخرى من صفاتِ أولئكَ النّاكثينَ للعهدِ الفارّينَ مِنْ ساحةِ المعركةِ، فذَكَرَهُمُ النَّظْمُ الحكيمُ بهذِه الصِّفةِ، وهيَ صفةُ التَّعويقِ عن الجهادِ في سبيل اللّهِ بعدَ أنْ فَرّوا مِنْ ساحةِ المعركة، فلَمْ يكتفوا بمَعَرَّةِ الفِرارِ حتَّى أضافوا لَهُ معرَّةً أُخْرى، هي مَعَرَّةُ التَّعويقِ والتَّثبيطِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

تعويقُ المنافقين كثيرٌ متجدِّدُ الحدوث

استعمل النَّظمُ الكريم صيغةَ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾، والمُعَوِّقُ: اسْمُ فاعِلٍ مِن: عَوَّقَ، الدالُّ عَلى شِدَّةِ حُصولِ العَوْقِ، فالتَّضْعيفُ فيه لِلشِّدَّةِ والتَّكْثيرِ، مِثْلَ: قَطَّعَ الحَبْلَ؛ إذا قَطَعَهُ قِطَعًا كَبيرَةً، ويَكونُ لِلتَّكْثيرِ في الفِعْلِ القاصِرِ، مِثْلَ: مَوَّتَ المالُ؛ إذا كَثُرَ المَوْتُ في الإبِلِ، والمَعْنى: يَعْلَمُ اللّه الَّذينَ يَحْرِصونَ عَلى تَثْبيطِ النّاسِ عَنِ القِتالِ[1]، ولأنَّ اسمَ الفاعلِ إنَّما يفيدُ ثَباتَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 294.

الصِّفَةِ ودوامَها، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى تصميم هؤلاءِ المنافقينَ وشدَّةِ عزْمِهم على تعويقِ المسلمينَ عنِ الجهادِ نكولًا عن مؤازَرةِ الحقِّ، وإيثارًا للباطلِ وحِزْبِه.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾:

النُّفوسُ المريضةُ تدعو إلى الأفعالِ الشنيعة

جاء اختيار مفردة ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ في بيان وصفِ فعلِ المنافقينَ وصَدِّهِم عن الجهادِ، والمرادُ بالتَّعْويق تَرْبيثُ النّاسِ عَنِ الخَيْرِ، والمُعَوِّقون قَوْمٌ مِنَ المُنافِقينَ كانوا يُثَبِّطون أنصارَ النَّبيِّ ﷺ، وذَلِكَ أنَّهم قالوا لَهُمْ: ما محمَّدٌ وأصحابُه إلّا أُكْلَةُ رأسٍ[1]، وقدْ عَدَلَ النَّظمُ الحكيمُ عنِ استعمالِ ألفاظٍ أخرى كلَفْظِ (المُثَبِّطينَ)؛ لأنَّ التَّثبيطَ هوَ ثِقَلُ الشَّيءِ في مَكانه بحيثُ لا يكادُ يُفارِقُهُ، ورَدُّكَ الإنسانَ عَنِ الشَّيْءِ يَفْعَلُهُ[2]، أمّا التعويقُ؛ فهوَ اعتراضُ الاطِّرادِ والاستقامةِ بالتواءٍ أو حُيودٍ، فالتَّعويقُ يتضمَّنُ معنًى زائدًا عنِ التَّثْبيطِ، وهوَ الالتواءُ والحُيودُ عنِ القصْدِ، فهُم مثبِّطونَ تَثْبيطَ تَكْريهٍ وعُقوقٍ، يُسارِعونَ فيه إسْراعَ الواقِعِ بِغَيْرِ اخْتيارِهِ[3]، بخلافِ التَّثبيطِ الَّذي هوَ بطءٌ وتثقيلٌ.

نوعُ (من) ودلالَتُها:

المنافقون في دركاتِ النِّفاقِ متفاوتون ما بين جبانٍ ومعوِّقٍ

حرف (من) الدّاخل على كاف الخطابِ ﴿مِنكُمْ﴾ بيانٌ للمُعَوِّقينَ[4]، فيكون الخطابُ لِلْمُنافِقينَ جميعًا، وهم الَّذينَ خوطِبوا بِقَوْلِه: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾[5]، وقد يكون حرف (من) للتبعيض، وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ مِنَ المُنافقينَ مَن اكتفى بالفرارِ، ومنْهُم مَنْ زادَ على ذلكَ، فعوَّقَ بعضَ المسلمينَ عن اللَّحاقِ برسولِ اللّه ﷺ ونُصْرَتِه.

نوعُ واوِ العطفِ ودلالتها:

عَطَفَ النَّظْمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عوق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ثبط).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 314.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 161.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 294.

على ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾، وقد اختلفتِ الأَنْظارُ في المرادِ بهذه الصفة ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾؛ إذْ يَجوزُ أنْ يَكونَ القائلونَ لإخْوانِهِمْ: هَلُمَّ إلَيْنا، المُعَوِّقينَ أنْفُسهم، فَيَكونَ من عَطْفِ صِفاتِ المَوْصوفِ الواحِدِ، ويَجوزُ أنْ يَكونوا طائِفَةً أُخْرى، وإخْوانُهُمْ هُمُ الموافِقونَ لَهُمْ في النِّفاقِ[1]، وسواءٌ أكان عطفَ صفاتٍ أم عطفَ أشخاصٍ، فإنَّ في العطفِ مزيدَ بيانٍ لحال هؤلاءِ المنافقينَ.

احتمالُ الواوِ لأنواعٍ من العطفِ من سعةِ النَّظمِ وكثرة معانيه

دلالة تعريفِ لفظِ ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾:

التَّعريفُ في كلمةِ ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، فهي إمّا صفةٌ أخرى للنّاكثينَ للعهدِ الفارّينَ مِنْ ساحةِ المعركةِ، أوْ هي دالّةٌ على فريقٍ آخرَ غيرِهم كانوا يعوِّقونَ الناس عن الجهادِ مع رسول الله ﷺ، وقيلَ: هَؤُلاءِ اليَهودُ كانوا يَقولونَ لِأَهْلِ المَدينَةِ: تَعالَوا إلَيْنا، وكونوا مَعَنا، وكَأنَّ المُرادَ من أهْلِ المَدينَةِ المُنافِقونَ، مِنهُمُ المَعْلومُ نِفاقُهم عِنْدَ اليَهودِ[2]، ويمكن الجمعُ بينَ هذه الأقوالِ بأنَّهُم جميعًا من المتآمرينَ على المسلمينَ، وفي ذلكَ دلالةٌ ظاهرةٌ على شدَّةِ التآمرِ والمكرِ بالمُسلمينَ في غزوةِ الأحزابِ.

ما أكثرَ القائلين للباطلِ المتوارين بأستارِ الحقِّ!

نكتةُ استعمال لفظ ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾:

استعمل النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾، دونَ غيرِه من أوصافِ المنافقين؛ لصدورِ القولِ عنهم، ولبيانِ خطورةِ الأقوالِ والشائعاتِ عامَّةً، وفي أزمنَةِ الحربِ خاصَّةً؛ إذ إنَّ لَها أثرًا هدّامًا في نفوسِ المتردِّدينَ، ولإثباتِ أنَّ هؤلاء القومَ إنَّما قُصاراهُم القولُ دونَ الفعلِ، فليسوا برجالِ حربٍ ومُعارَكةٍ ومسايفةٍ.

الشّائعاتُ من أكثرِ وسائلِ النِّفاقِ في الحربِ النَّفسيَّة

فائدةُ التَّعبير باسم الفاعل:

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بصيغةِ اسم الفاعل ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ﴾؛

إصرارُ المنافقينَ وشدَّةُ عَزْمِهم على الشّائِعاتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 294.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 161.

وذلكَ لأنَّ اسمَ الفاعلِ يفيدُ ثَباتَ الصِّفَةِ ودوامَها، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى إصرارِ هؤلاءِ المنافقينَ وشدَّةِ عزْمِهم على إثارةِ الشائعاتِ وتخذيلِ المسلمينَ عنِ الجهادِ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ ودَفْعِ غائِلَةِ المشركينَ.

نكتةُ الجمعِ بصيغةِ ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ دونَ (إخوتهم):

الإخوةُ تُستَعْمَلُ فـي النَّسـبِ، والإخـــوانُ في الصَّداقةِ وعمومِ المشاركة

جاء التَّعبير بلفظ ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ دون (إخوتهم) في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ﴾؛ وذلكَ لأنَّ لَفْظَ (الأخ)، وإن كانَ يُجْمَعُ على (إخوة) و(إخوان)، فإنَّ أكثرَ ما يُستَعْمَلُ (الإخوانُ) في الأصدقاءِ، و(الإخوةُ) في أُخوَّة النَّسبِ؛ إذا كانوا لأبٍ، كما أنَّ الإخوةَ جَمْعُ قِلَّةٍ، والإخوانُ جَمْعُ كَثْرَةٍ فهيَ أنسبُ بالسِّياقِ، وقدْ وردتِ (الإخوةُ) في القرآنِ الكريمِ بمعنَى إخوةِ النَّسبِ كقولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 58]، وقولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: 11]، إلّا في موطنٍ واحدٍ، وهوَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، ويُمْكِنُ تَخْريجُهُ على أنَّهُم بمنْزِلَةِ الإخْوةِ في النَّسَبِ؛ تَأكيدًا للأمرِ ﴿فَأَصْلِحُوا۟﴾ [الحجرات: 10]، وإشارةً إلى أنَّ بَيْنَهُم ما بينَ الإخوةِ مِنَ النَّسَبِ، والإسلامُ كالأبِ[1]، فالمُرادُ بالأخوَّة هنا: الأُخوَّةُ في الرَّأيِ والدّينِ[2]، أي: التَّشارُكُ في الصِّفَةِ، وهو النِّفاقُ، أو الكُفْرُ بالنَّبيِّ صَلّى اللّه تَعالى عليه وسَلَّمَ، أو الصُّحْبَةُ والجِوارُ وسُكْنى المَدينَةِ، فَإنَّ ذَلكَ يُجامِعُ الأُخوَّة في النَّسَبِ[3]، فجاءت صيغة (إخوان) لبيانِ اجتماعِهم في الفكرِ والسلوكِ والمصالحِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأُخوَّةِ دونَ الصُّحْبَةِ:

مــن عـلامـات المـنـافـقـين اجتماعهم على خذلان المؤمنين

آثر النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بعنوانِ الأُخوَّةِ دونَ الصُّحبةِ؛ لأنَّ في التعبيرِ بالأُخوَّةِ مِنَ المعاني ما ليسَ في الصُّحبَةِ؛ إذِ الأُخوَّةُ أقوى مِنَ

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية العربية، ص: 120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 294.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 161.

الصُّحبةِ وأمْتَنُ، فالأُخوَّةُ أشدُّ تشابهًا وانسجامًا مِنَ الأصحابِ، وهم أدْعَى للعصبيَّةِ والمؤازرةِ والتناصرِ، حتَّى إنَّ الصاحب إذا اشتدَّت صحبتُه، وقويتِ العلاقةُ بينَه وبينَ صاحبه؛ شُبِّهَتِ العلاقةُ بالأُخوَّة لا العكس، ولمّا كانَ هؤلاءِ القومُ في اجتماعِهم على التكذيبِ والكيدِ للمسلمين كأشدِّ ما يكونُ؛ فقدْ عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الأُخوَّةِ دونَ لفظِ الصُّحبةِ.

فائدة استعمال ﴿هَلُمَّ﴾ دونَ مقارباتها:

أسماءُ الأفعالِ تعملُ على تقويةِ المعنى وإثرائه، وهيَ أوسع دلالةً من الفعلِ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿هَلُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ دونَ لفظِ (أقْبِلوا) أوْ (تعالَوا) أوِ (احْضُروا) ونحوها؛ وذَلِكَ لأنَّ دلالةَ ﴿هَلُمَّ﴾ على الأمرِ بالإقبالِ أشدُّ من فعلِ الأمرِ (أقبلْ) ومرادفاته؛ إذْ هيَ اسْمُ فِعْلِ أمْرٍ بِمَعْنى: أَقْبِلْ في لُغَةِ أَهْلِ الحِجازِ، وهي الفُصْحى، فَلِذَلِكَ تَلْزَمُ هَذِهِ الكَلِمَةُ حالَةً واحِدَةً عِنْدَهم لا تَتَغَيَّرُ عَنْها، وهي فِعْلٌ عِنْدَ بَني تَميم، فَلِذَلِكَ يُلْحِقونَها العَلاماتِ، فيَقولونَ: هَلُمَّ وهَلُمّي وهَلُمّا وهَلُمّوا وهَلْمُمْنَ[1]، وقدْ أشارَ بعضهم إلى أنَّ اسمَ الفعلِ يَخْتَلِفُ عنِ الفعلِ من حيثُ الدلالاتُ والاستعمالاتُ؛ إذ الفعلُ يحتملُ دلالةً واحدةً، أمّا دلالةُ اسم الفعلِ؛ فهيَ أوسعُ منهُ؛ إذ يحتملُ أكثرَ من دلالَةٍ، كما أنَّها تعملُ على تقويةِ المعنى وإثرائه[2]، كما أنَّ تخصيص اسم الفعل هَهُنا للأمرِ يجعل دلالَته أقوَى وأشدَّ، ومعنى ﴿هَلُمَّ﴾ هَهُنا: انخذلوا عَنْ جَيْشِ المُسْلِمينَ، وأقْبِلوا إلَيْنا، فهيَ تعطي من المعاني ما لا يوجد في الفعلِ (أقبل)، كما أنَّ وجودَ هاء التنبيهِ في اسم الفعل ﴿هَلُمَّ﴾ تُقَرِّبُ اللفظ إلى استعمالِ المنادى، ففيه استعطافٌ للمأمورِ واستدعاءٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 294.

(2) أحمد نجم الدين فتح الله، الفرق بين اسم الفعل والفعل: دراسة دلالية، وزهير محمد العرود، أسماء الأفعال في الاستعمال القرآني.

لإقباله على الأمر[1]، وهوَ ما يشيرُ إلى إصرارِ المنافقينَ وشدَّةِ حرصِهم على تعويقِ الناس عن نُصرَةِ رسول اللّه ﷺ والمؤمنين.

دَلالَةُ تَعْدِيَةِ ﴿هَلُمَّ﴾ بحرفِ (إلى):

تصويرُ المعاني وتقريبها من دلالات اختيار الحروف

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الفعلِ ﴿هَلُمَّ﴾ بحرفِ الجرِّ (إلى) دون الظرفِ (مع)؛ وذلكَ لأنَّ (إلى) تكونُ لانتهاءِ الغاية، أي: إنَّ الغايةَ مِنْ وراءِ هذه الدعوةِ الخبيثةِ انضمامُ بقيةِ الناس إلى المنافقينَ التاركينَ لساحةِ المعركة، وعدلَ عن استعمالِ الظرفِ (مع) الَّذي يَدُلُّ على المُصاحبةِ؛ لأنَّ القصدَ من اسم الفعلِ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أن يلحقَ بِهم آخرونَ غيرُهم، فكأنَّ المنافقينَ منحازونَ إلى جهةٍ مُعيَّنَةٍ، وهم يدعونَ الناسَ للالتحاقِ بِهم، ففيها تصويرٌ للمعنى، وتقريبٌ للغائب.

دَلالَةُ نونِ الجمعِ في ﴿إِلَيْنَا﴾:

الاجتماعُ على الباطلِ قد يودي بأهل الخيرِ

دخل حرفُ الجرِّ (إلى) على نون الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ وذلكَ للدِّلالةِ على أنَّ المُحَرِّضينَ على التَّخَلّي عن رسول اللّه ﷺ في ساحة المعركةِ كانوا جماعةً متحزِّبينَ متآلبينَ على المسلمينَ، فَهُم يدعونَ غيرهم لترك رسول اللّه ﷺ كما فعلوا، ففيه دلالةٌ على أنَّ الاجتماعَ على الباطلِ من شيم أهل النِّفاق والشقاق.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

المنافقونَ أجبنُ النّاسِ عندَ القتالِ، يَروغونَ منهُ رَوَغانَ الثَّعالِبِ

الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ للحالِ، أي: والحالُ أنَّهُم لا يقاتلون إلّا قتالًا هَيِّنًا لا يُغني في الحربِ شَيئًا ذا نَفعٍ، ولا يَدفَعُ عَدوًّا، ويَجوزُ أنْ تَكونَ عَطفًا عَلى المُعَوِّقينَ والقائلينَ؛ لأنَّ الفِعلَ يُعطَفُ عَلى المُشتَقِّ كَقَولِهِ تَعالى: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 8/ 519.

﴿فَأَثَرۡنَ﴾ [العاديات: 3 - 4] وقَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحديد: 18]، فالتَّقْديرُ هُنا: (قَدْ يَعْلَمُ اللّٰه المُعَوِّقِينَ والقائلِينَ وغَيْرَ الآتينَ البَأْسَ)، أوْ (والَّذينَ لا يَأْتونَ البَأْسَ)، ولَيْسَ في تَعْدِيَةِ فِعْلِ (العِلْم) إلى ﴿وَلَا يَأۡتُونَ﴾ إشْكالٌ؛ لِأنَّهُ عَلى تَأْويلٍ، كَما أنَّ عَمَلَ النّاسِخِ في قَوْلِه: ﴿وَأَقۡرَضُواْ﴾ [الحديد: 18] عَلى تَأْويلٍ، أيْ: يَعْلَمُ اللّٰه أنَّهم لا يَأْتونَ البَأْسَ إلّا قَليلًا، أيْ: يَعْلَمُ أنَّهم لا يَقْصِدونَ بِجَمْعِ إخْوانِهِمْ مَعَهُمُ الاعْتِضادَ بِهِمْ في الحَرْبِ، ولَكِنْ عَزْلَهم عَنِ القِتالِ[1].

براعةُ المجازِ في استعمالِ مفردةِ الإتيان:

اسمُ القتالِ في سبيل الله شرفٌ وكرامةٌ لا يُعطى إلّا لأهله

آثر النَّظْمُ الكريمُ استعمالَ فعلِ الإتيان في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عن القتالِ دونَ فعل (يُقاتلونَ) الصَّريح، وذلك للإشارةِ إلى أنَّهُم لا يقومونَ بأيِّ فعلٍ من أفعالِ الحربِ، فضلًا عن القتالِ المباشرِ، فعَبَّرَ عن القتالِ بالإتيانِ باعتبارِه سببَ القتالِ، فإن لم يأتوا؛ فلن يُقاتلوا على طريق المجاز المرسل، وفيه تجنُّبُ تشريفِهم بإسنادِ القتالِ إليهم، فإنَّ القتالَ في صُفوفِ المسلمينَ شرفٌ وكرامةٌ، والقتالُ يُعطيهم قوَّةً ومهابةً، وفيه كذلك أنَّهُم إنْ شَهِدوا اللقاءَ؛ فكأنَّهُم يأتونَ الحربَ فقط زائرين مُشاهِدينَ، ولا يُقاتِلونَ، وكأنَّ هَدَفَهُم يتحقَّقُ بمجرَّد الإتيانِ؛ لأنَّهُم يراؤونَ[2]، فكانَ استعمالُ فعلِ (الإتيانِ) أوقعَ في الدِّلالةِ على ما في نفوسِهم من رياءٍ وما في قلوبِهم من خداعٍ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ:

تصويرُ إتيانِ المنافقين بأنَّه قليلُ الجدوى حقيرُ الأثر

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن نُكولِ المنافقينَ عن الجهادِ معَ رسولِ اللّٰهِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ باستعمالِ المضارعِ المنفيِّ ﴿وَلَا يَأۡتُونَ﴾؛ للدلالةِ على نَفْيِ الإتيانِ أصلًا في الحالِ، ونَفْيِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 295.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 129 - 130.

تجدُّدِه في المستقبلِ، فالنَّظْمُ يبيِّنُ أنَّ هؤلاء القومَ لنْ يدفعوا معَ المسلمينَ اعتداءَ الكُفّارِ واليَهودِ؛ ما داموا على هذه الحالِ مِنَ النِّفاقِ والكفرِ، ولو جاءَ الفعلُ على صيغةِ المُضيِّ؛ لاحتملَ أن يدافعوا معهم في المستقبلِ، ولكنَّهُم قومٌ غادرونَ ناكثونَ للعهد، كما أنَّ في استعمالِ المضارعِ استحضارًا للصّورةِ، فكأنَّ المتلقّي يشاهدُ هؤلاءِ المنافقينَ، وهم يروغونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ دونَ أنْ يشاركوا في المعركةِ الدائرةِ حولَ المدينةِ، ودليله الاستثناء: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

براعةُ الاسْتِثْناءِ في بيانِ الحقائق:

الاحــترازُ بإتيانِ البأسِ قليلًا مكرٌ يُرادُ منه تغطيةُ سوءَةِ النُّكوث

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عن موقفِ المنافقينَ مِنَ الحرب باستعمالِ أداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾؛ إشارةً إلى مكرِ هؤلاءِ المنافقينَ وخداعِهم؛ إذْ لو اعتزلوا القتالَ اعتزالًا تامًّا؛ لتَيَقَّنَ المسلمونَ مِنْ خيانَتِهم، ونابذوهمُ السيفَ، فعبَّرَ الاستثناءُ عن حالِ خِداعِهم ومكرِهم، فَهُم يوهِمونَ المسلمينَ باشتراكِهم في القتالِ، ولكِنَّهم يشتركونَ اشتراكًا لا يُسْمِنُ، ولا يُغني لسترِ حالِهم.

دَلالَةُ حَذْفِ المَوْصوفِ:

كــثرةُ المَـعـاني الَّـتـي أشـارَ إليها الحـذفُ دليلٌ على شدَّةِ مكرِ المنافقينَ وخداعِهم

حذَفَ النَّظْمُ الحكيمُ الموصوفَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقدْ تعدَّدتْ أقوالُ المعربينَ في إعرابِ ﴿قَلِيلًا﴾ وتقديرِ الموصوفِ قبْلَها، فقيل: إنَّها نائبٌ عن المفعولِ المطلقِ، صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: إتيانًا قليلًا، وقيل: إنَّها نائبٌ عن الظرفِ، صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: وقتًا قليلًا، وقيل: إنَّها حالٌ، وفي هذا الحذفِ دلالةٌ على كثرةِ المعاني التي أرادَ النَّظْمُ الحكيمُ الإشارةَ إليها بيانًا لفعلِ المنافقينَ المخادعينَ، فَقَدْ كانوا لا يَأْتونَ العَسْكَرَ إلّا ألّا يَجِدوا بُدًّا من إتْيانِه، فيَأْتونَ؛ ليَرى النّاسُ وُجوهَهُمْ، فَإذا غَفَلوا عَنْهم؛ عادوا إلى بُيوتِهِمْ.

وإتْيانُ البَأْسِ عَلى هَذِهِ الأَوْجُهِ عَلى ظاهِرِهِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايَةً عَنِ القِتالِ، والمَعْنى: ولا يُقاتِلونَ إلّا قِتالًا قليلًا، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿مَّا قَتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقِلَّتُهُ إمّا لِقِصَرِ زَمانِهِ، وإمّا لِقِلَّةِ غِنائِهِ.

﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾ [الأحزاب: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ حالِ المُعوِّقين ناسب بيانُ أوصافِهم

لَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ المنافقين في التَّعويقِ عن الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنين بسببِ ضعفِ إيمانِهم باللهِ تعالى؛ ناسبَ بعدَ ذلك بيانُ نعوتِهم وصفاتِهم في التَّعامل مع المؤمنين، فجمعَ لهم وصفين في حالِ الخوفِ وحالِ الأمن، فهُم يخاطبونَ المُسْلمينَ بِأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ قاطِعَةٍ فَصيحَةٍ بَعْدَ أَنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ، ولَمّا كانَ العَمَلُ لا يَصِحُّ بِدونِ الإيمانِ؛ سَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ حبوطَ أعْمالِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشِحَّةً﴾: (شحّ) الأصْلُ فيهِ المَنْعُ، ثُمَّ يَكونُ مَنْعًا مَعَ حِرْصٍ، ومِنْ ذَلِكَ الشُّحُّ، وهوَ البُخْلُ مَعَ حِرْصٍ، ويُقالُ: تَشاحَّ الرَّجُلانِ عَلَى الأمْرِ، إذا أرادَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما الفَوْزَ بِهِ، ومَنْعَهُ مِنْ صاحِبِهِ[2]، وقَدْ شَحَحْتَ تَشُحُّ، وشَحِحْتَ بِالكَسْرِ، ورَجُلٌ شَحيحٌ وشَحاحٌ مِنْ قومٍ أشِحَّةٍ وأشِحّاءَ وشِحاحٍ[3]، والمَعْنَى المِحْوَرِيُّ: تماسُكُ ظاهِرِ الشَّيءِ العريضِ تماسُكًا شَديدًا جافًّا لا يَنْفَتِحُ، ولا يَنْفَذُ فيهِ أو مِنْهُ شيءٌ، فالمَعْنَى هَهُنا: أنَّهُم شِدادٌ جُفاةٌ غِلاظٌ عَلَيْكُم مَعَ أنَّهُم في غايَةِ الخَوَرِ في ساعةِ الجِدِّ، وبِهَذا تَتَّضِحُ المقابلةُ بَيْنَ حالتَيهِم في الآيةِ، أمّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 314 - 315.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شحح).

الشُّحُّ بمعنَى البُخْلِ؛ فقدَ وصَفَهُم بِهِ في آخرِ الآيةِ: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ﴾[1]، وغالبُ المُفَسِّرين على أنَّ المُرادَ بالشُّحِّ هَهُنا البخلُ بالمالِ إنفاقًا أو غنيمةً، وبالنَّفْسِ قتالًا وجهادًا[2].

2) ﴿يُغْشَىٰ﴾: (غشى) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشّيه، والغِشاءُ: الغطاءُ، والغاشيَةُ: القيامَةُ؛ لأَنَّها تَغْشَى الخَلْقَ بِإفْزاعِها، ويُقالُ: رَماهُ اللّه بِغاشيَة، وهوَ داءٌ يَأْخُذُ كَأَنَّهُ يَغْشاهُ، والغِشْيانُ: غِشْيانُ الرَّجُلِ المَرْأَةَ[3]، وغُشيَ غَشْيًا وغَشَيانًا: أُغْميَ، فهو مَغْشيٌّ عليه، والاسم: الغَشْيَةُ، وغَشَّى اللّهُ على بَصَرِهِ تَغْشيَةً، وأَغْشَى وغَشيَهُ الأمرُ، وتَغَشّاهُ، وأَغْشَيْتُه إيّاهُ، وغَشَّيْتُه[4]، والمَعْنَى المِحْوَريُّ: تَغَطّي الشَّيءِ بِكَثيفٍ يَعُمُّهُ[5]، وغُشيَ على فُلانٍ؛ إذا نابَهُ ما غَشيَ فَهْمَهُ، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ﴾[6]، والمَعْنَى: يَنْظُرونَ نَظَرًا كائِنًا كَنَظَرِ المَغْشيِّ عليه مِن مُعالَجَةِ سَكَراتِ المَوْتِ حَذَرًا وخَورًا، ولِواذًا بِكَ[7].

3) ﴿سَلَقُوكُم﴾: (سلق) تدور حول مَعْنَى تأَثُّرِ باطِنِ الشَّيءِ بِحِدَّةٍ تنالُ ظاهِرَهُ، فتُذْهِبُ صلادَتَه، ويَلينُ[8]، وسَلَقْتُ اللَّحْمَ عنِ العَظْمِ: قَشَرْتُه، ورَكِبْتُ الدّابةَ، فَسَلَقَتْني؛ إذا سَحَجَتْ باطِنَ الفَخِذَيْنِ والأَليةِ[9]، والمرادُ هَهُنا: ما هوَ بِمَعْنَى صاح، فالسَّلْقُ: شِدَّةُ الصَّوْتِ، وسَلَقَ لُغَةٌ في صَلَقَ، أيْ: صاحَ، ورويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قالَ: (لَيْسَ مِنّا مَنْ حَلَقَ، ومَنْ سَلَقَ، ومَنْ خَرَقَ)[10]، يَعْني: رفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ مَوْتِ إنسان أو عِنْدَ المُصيبَةِ، ومِنَ السَّلْقِ رَفْعُ الصَّوْتِ، قولُهم: لِسانٌ مِسْلَقٌ: حديدٌ ذَلِقٌ، وقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أي: بالَغوا فيكُمْ بِالكَلامِ، وخاصَموكم في الغَنيمَةِ أشَدَّ مخاصمةٍ وأَبْلَغها، وآذوكُم بِالكَلامِ في الأمر بِأَلْسِنَةٍ سَليطَةٍ ذَرِبَةٍ[11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شحح).
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 385.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غشي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشى).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (غشي).
(7) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 398.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سلق).
(9) الزمخشري، أساس البلاغة: (سلق).
(10) رواه أبو داوود في سننه، كتاب الجنائز، باب في النوح، حديث رقم: (3132).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (سلق).

4) ﴿حِدَادٍ﴾: (حدّ) أصْلانِ: الأَوَّلُ المَنْعُ، والثّاني طَرَفُ الشَّيْءِ، فالحَدُّ: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وفُلانٌ مَحْدودٌ؛ إذا كانَ مَمْنوعًا[1]، وحَدَّ الشيءَ مِنْ غَيْرِهِ يَحُدُّه حَدًّا، وحدَّدَه: مَيَّزَهُ، وحَدُّ كُلِّ شيءٍ: مُنْتَهاهُ[2]، والحَديدُ: هَذا الجَوْهَرُ المَعْروفُ؛ لأَنَّه مَنيعٌ، وحَدَّ السَّيفُ يَحِدُّ حِدَّةً واحْتَدَّ، فَهوَ حادٌّ، وسيوفٌ حِدادٌ وأَلْسِنَةٌ حِدادٌ، ورَجُلٌ حَديدٌ وحُدادٌ مِنْ قَوْمِ أحِدّاءَ، وأحِدَّةٍ وحِدادٍ: يَكونُ في اللَّسَنِ والفَهمِ والغَضَبِ[3]، ويُعَبَّرُ عنِ الحَديدِ بالشَّيْءِ المُتَناهي في بابِه كقولِه تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22]، أي: ثابتٌ نافِذٌ، وفُلانٌ حديدُ الفَهْمِ، أي: ذَكيُّ القلبِ صافي الذِّهْنِ، وأصْلُها مِنَ الحَديدِ؛ لأَنَّه تَثْبُتُ به الأشياءُ، وفيهِ: لسانٌ حديدٌ، أي: مُصْلَتٌ كَحِدَّةِ السَّيْفِ[4]، والمرادُ بالأَلْسِنَةِ الحداد أنَّها ألسنةٌ ذَرِبَةٌ قاطِعَةٌ فَصيحَةٌ بَعْدَ أنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ لا تَقْدِرُ عَلى الحَرَكَةِ من قِلَّةِ الرّيقِ، ويبسِ الشِّفاهِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المنافقون مَجْمَعُ صفات السّوءِ ومنبعُ خِلالِ الشَّرِّ

بيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ مجموعةً من صفاتِ المُنافِقينَ تتَّسِمُ بالقُبحِ والرَّداءةِ، فَهُم قومٌ بُخَلاءُ أشِحَّةٌ بأنْفُسِهم وأمْوالِهم وجميعِ أحْوالِهم، لا يُقَدِّمون منفعةً للمُؤمنين، وهم جُبناءُ، فإذا ظهرَتْ أماراتُ الخَوفِ مِنَ العَدوِّ في بدءِ المَعركةِ والقِتالِ؛ لاذوا بِكَ أيُّها النَّبيُّ، ورأيْتَهُم ينْظُرون إليكَ، كَما يَنْظُرُ المغشيُّ عَلَيه من مُعالجةِ سَكَراتِ الموتِ، حَذَرًا وخورًا وضَعْفًا، فَإذا ذَهَبَ الخوفُ؛ بَدَتْ مِنْهُم سَلاطةُ اللِّسانِ، وتَفاخَروا بِأنَّهُم أهلُ النَّجْدةِ والشَّجاعَةِ، وهُم في

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدد).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

ذلكَ كاذِبونَ مُراوِغونَ، فقدْ جَمَعوا بينَ الجُبنِ والكَذِبِ ونضوبِ الخيرِ، وقد كَشَفَتِ الآيةُ عنْ سَبَبِ مرضِهِم الشَّديدِ الَّذي ينخرُ العظامَ، وهوَ أنَّهُم فاقِدو الإيمانِ، فَهُم غيرُ مُصَدِّقينَ باللّهِ ورسولهِ ﷺ، وإنْ لَمْ يُظهروا الكفرَ لَفظًا، فأبطلَ اللّهُ أعْمالَهم الَّتي كانوا يأتونَ بِها في الظّاهِرِ معَ المُسْلمينَ، وكانَ ذلكَ الإحباطُ أو الإبطالُ لِثمرةِ الأعمالِ سَهلًا هَيِّنًا عِندَ اللّهِ تعالى، بِمُقْتَضى عَدْلِهِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ استعمال مفردةِ الشُّحّ:

الشُّحُّ هوَ شدَّةُ البخلِ مع شدَّةِ الحرصِ وهوَ طبعٌ متأصِّلٌ في النَّفْسِ

استعمل النظم الكريم مفردة الشُّحِّ دون البخلِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ وذلك لأنَّ الشُّحَّ هوَ البُخْلُ مَعَ شدَّةِ الحِرْصِ، وهوَ يتميَّزُ عنِ البُخلِ بالشِّدَّةِ والحرصِ، وكونه عادةً وطبعًا مُتَأصِّلًا في النُّفوسِ لا تَكادُ تحيدُ عنه، ويشملُ المالَ وغيرَه من الخيرِ والمعروفِ[1]، وقدْ دلَّ التَّعبيرُ بها على أنَّهم بُخَلاءُ بالنَّفَقةِ والنُّصْرَةِ، وبِأَنْفُسِهِمْ، أو بالغَنيمَةِ عِنْدَ القَسْمِ، وقيلَ: بِكُلِّ ما فيهِ مَنفَعَةٌ لِلمؤمنين.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِالجَمْعِ ﴿أَشِحَّةً﴾ دونَ (أشِحّاءَ):

خطرُ النِّفاقِ وإن بدا كثيرًا لكنَّه بعونِ الله ضعيفٌ لا يُخشى

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بجمعِ ﴿أَشِحَّةً﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وهوَ جَمْعُ (شَحيح) عَلى غَيْرِ القياسِ؛ إذْ قياسُ (فَعيل) الوَصْفُ المُضَعَّفُ عَيْنُهُ ولامُهُ أنْ يُجْمَعَ عَلى (أفْعِلاءَ) كَضَنينٍ وأضِنّاءَ، وخَليلٍ وأخِلّاءَ، فالقياسُ أشِحّاءُ، وهو مَسْموعٌ أيْضًا، وذلك لأنَّها جمعُ قِلَّةٍ، في مقابلِ (أشِّحاءَ) الَّتي هيَ جَمْعُ كثرةٍ، وذلكَ للدلالةِ عَلى قِلَّةِ خطرِ هذِه الفئةِ في الأثرِ، حتّى وإنْ كانوا كَثْرَةً في العددِ، وفي ذلكَ طمأنَةٌ للمسلمينَ وتثبيتٌ لَهُم بأنَّ هؤلاءِ المنافقينَ

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 109.

المخادعينَ ليسوا ذوي خطرٍ على وجودِهم، وأنَّ اللّٰهَ ناصرُ عباده على هؤلاءِ الأحزابِ الَّذينَ تألَّبوا عليهم، وأحْدَقوا بهم من كُلِّ جانبٍ يَبْغونَ هلاكَهم واستئْصالَهم.

بلاغةُ مجيءِ الحالِ اسمًا لا جملة:

الاسميَّةُ الحاليَّةُ أفادَت ثباتَ الشُّحِ ودوامَه في نفوسِ المنافقينَ

آثرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿أَشِحَّةً﴾ بالصّيغةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ، دونَ التَّعبيرِ بالصّيغةِ الفِعْليَّةِ (يَشِحّون)؛ للدلالةِ على ثباتِ صِفَةِ الشُّحِّ في نفوسِ هؤلاءِ المنافقينَ ودوامِها وتأصُّلِها، وقد ذهب قومٌ إلى أنَّها حالٌ من فاعِلِ ﴿يَأْتُونَ﴾ عَلى مَعْنى: (تَرَكوا الإتْيانَ أشِحَّةً)، وقالَ آخرون: هيَ منصوبةٌ عَلى الذَّمِّ، وقيلَ: عَلى الحالِ مِن ضَميرِ ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أوْ مِن ضَميرِ يُعَوِّقونَ مُضْمَرًا، وقيلَ: مِنَ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ أوْ مِنَ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾[1]، وعلى أيِّ هذه التقديراتِ فإنَّ المرادَ إثباتُ الشُّحِّ ودوامُه في نفوسِ المنافقينَ.

نكتةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿أَشِحَّةً﴾:

تصويرُ حقيقةِ شُحِّ المُنافِقينَ وأنَّه بلغَ ما لا يُتصوَّر من الحقدِ الدَّفين

تعدَّدتْ أقوالُ المفسِّرين والمعربين في تقديرِ متعلِّقِ كلمةِ ﴿أَشِحَّةً﴾، فقيل: بخلاءُ عليكم بالنَّفَقَةِ والنُّصْرَةِ، وقيلَ: بأنْفُسِهِمْ، وقيلَ: بالغَنيمَةِ عِنْدَ القَسمِ، وقيلَ: بكُلِّ ما فيهِ مَنفَعَةٌ لَكُمْ، فالمفعولُ محذوفٌ؛ ليتناولَ كلَّ ما يتناولُهُ البُخْلُ، وهوَ أحسنُ من التصريحِ بالمفعولِ؛ لتذهبَ النَّفْسُ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ؛ بيانًا لخِسَّةِ هؤلاءِ المُنافقينَ وإظهارًا لسوءِ خُلُقِهم، وهوَ كذلكَ أبلغُ في تصويرِ طبيعةِ الشُّحِّ في نفوسِ هؤلاءِ، وحِقْدِهم على المؤمنينَ حِقدًا يَجْعَلُهم يَضِنّونَ عليهم بكلِّ ما فيه خيرٌ ومَنْفَعَةٌ لهم، سواء أكان ذلكَ نُصرةً أم غنيمةً ونفقةً أم غيرَ ذلكَ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 464.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 134.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

مَنْعُ المنافقينَ ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ

عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الشُّحَّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾، بحرف الجرِّ (على)؛ ذلك أن الشُّحَّ يَتَعَدّى إلى الشَّيْءِ المَبْخولِ بِهِ بالباءِ وبـ(عَلى)، قالَ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾، ويَتَعَدّى إلى الشَّخْصِ المَمْنوعِ بـ(عَلى) أيْضًا؛ لِما في الشُّحِّ مِن مَعْنى الاعْتِداءِ، فَتَعْدِيَتُهُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ مِنَ التَّعْدِيَةِ إلى المَمْنوعِ، والمَعْنى: يَمْنَعونَكم ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ، أيْ: إذا حَضَروا البَأْسَ؛ مَنَعوا فائِدَتَهم عَنِ المُسْلِمينَ ما اسْتَطاعوا، ومِن ذَلِكَ شُحُّهم بِأنْفُسِهِمْ وكُلِّ ما يُشَحُّ بِهِ، ويَجوزُ جَعْلُ (عَلى) هُنا مُتَعَدِّيَةً إلى المَضنونِ بِهِ، والمَعْنى: أشِحَّةً في الظّاهِرِ، أيْ: يُظْهِرونَ أنَّهم يَخافونَ عَلَيْكُمُ الهَلاكَ، فَيَصُدّونَكم عَنِ القِتالِ، ويُحَسِّنونَ إلَيْكُمُ الرُّجوعَ عَنِ القِتالِ[1].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الـشُّحُّ متفرِّعٌ عن الامتناعِ عن إتيانِ البأسِ

فرَّع النَّظْمُ الحكيمُ بين قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ بفاءِ التَّفْريعِ؛ لِتَرَتُّبِ ما بَعْدَها عَلى ما قَبْلَها، فهِيَ تَفريعٌ عَلى وَصْفِهِمْ بِالشُّحِّ عَلى المُسْلِمينَ[2]، فقدْ ترتَّبَ عنْ شُحِّهم بالمالِ والنَّفْسِ سيطرةُ الخوفِ على قلوبِهم؛ وذلكَ لأنَّهم لَمْ يَذوقوا للإيمانِ طَعْمًا، فكانَتْ قلوبُهم خاويةً فارغةً مِنْ كُلِّ يقينٍ مِنْ شأْنِه أنْ يُرْسيَ فيها الثَّباتَ والإقدامَ.

فائدةُ التَّعْبيرِ بِأداةِ (إذا) دونَ (إنْ):

تـصـويـرُ شـدَّةِ هـلـعِ المنافِقينَ وما أصابَهُم من يأسٍ قاتلٍ

آثر النظم الكريمُ استعمالَ أداة (إذا) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ دون (إن)؛ وذلكَ لأنَّ (إذا) تفيدُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.

القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستعمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ تصويرٌ دقيقٌ لهذا الظَّرْفِ الخطيرِ الَّذي واجَهَهُ المسلمونَ في غَزْوَةِ الأحزابِ؛ إذْ أحدقَ بِهِم المشركونَ واليهود من كُلِّ جانبٍ، كما أنَّه يشيرُ إلى شدَّة هَلَعِ المنافقينَ حين جاء الخوف، وما وقعَ في قلوبِهم من يأسٍ قاتلٍ يُصَوِّرُ لَهُم أنَّهُم مقتولونَ - لا محالةَ - وفيه أيضًا بيانٌ لقلَّةِ إيمانِهم وشدَّةِ قنوطِهم، فَهُم بسببِ فقدِهم للإيمانِ مَهْزومونَ عَقْليًّا، ومأْزومونَ نفْسيًّا، حتَّى قبل وقوع المعركَةِ.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

تمكُّنُ الخوفِ من قُلوبِ المنافقين كتمكُّنِ الأسدِ من فريستِه

شبَّه النَّظمُ الكريم وقوعَ الخوفِ في القلوبِ وحصوله فيها في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ بمجيءِ شخصٍ، ثم حذف المشبَّه، وصرَّح بالمُشبَّه به، واشتقَّ من المجيءِ فِعلَ ﴿جَآءَ﴾ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وتكمن بلاغتُها في تأكيد وقوعِ الخوفِ في القلوبِ، وتمكُّنه منها، كتمكُّنِ الأسد من فريسته.

بَلاغَةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تصويرُ الخوفِ بصورةِ كائنٍ حيٍّ مُخيفٍ يتحرَّكُ ويجيءُ

في استعمالِ مفردةِ الخوفِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ مَجازٌ؛ لأنَّ فيه تَجْسيدًا للخوفِ، كَأنَّهُ شَيءٌ عَيْنِيٌّ شاخِصٌ للأبصارِ، ففيه تشبيهُ الخوفِ بشخصٍ يجيءُ، ورمز له بلازمٍ من لوازمِه، وهو المجيءُ، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، ففيه تصويرٌ للخوفِ في صورةِ كائنٍ حيٍّ مُخيفٍ يتحرَّكُ، ويجيءُ، ولهُ مَوقعٌ آخرُ مِن الحُسْنِ، هو مقابلتُه لقولِه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾، وهكذا يُريكَ المنافِقينَ بينَ حالينِ متبايِنَينِ في مدَى هذينِ الطَّرَفينِ: مجيءِ الخوفِ وذهابِه[1].

فائدةُ استعمالِ مفردةِ الرُّؤيَةِ:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

تصويرُ حالِ المنافقين واقعًا في أرْضِ المَعْرَكَة

﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ بفعلِ الرؤيةِ ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ دون النَّظر؛ لأنَّ الخِطابَ في ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ لِلنَّبي ﷺ، وهو يَقْتَضي أنَّ هَذا هو حِكايَةُ حالٍ وقَعَتْ، لا فَرْضُ وُقوعِها، ولِهَذا أُتيَ بِفِعْلِ ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ ولَمْ يقل: (فَإذا جاءَ الخَوْفُ يَنْظُرونَ إلَيْكَ)[1]، أو (فَإذا جاءَ الخَوْفُ؛ نَظَروا إلَيْك)، فأفادَ فِعلُ الرؤيةِ هَهُنا تصويرَ حالِهم واقعًا في أرْضِ المَعْرَكَةِ، وإدْراكَ النَّبيِّ ﷺ لِما يدورُ في نُفوسِهم.

بلاغةُ الإضمارِ:

الإضمارُ إيجازٌ مقصودٌ يشملُ جماعاتِ المُنافِقينَ وصفاتِهم

أضمرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ صِفَةَ الَّذينَ نزلَ الخطابُ بشأنِهم، وهُمُ المُنافِقونَ؛ وذلك أنَّ السّياق فيهم، فلا ينْصَرِفُ الخِطابُ لغَيْرِهم، وأمرٌ آخرُ: وهو أنَّ المنافقينَ يَنْقَسِمونَ إلى جماعاتٍ: فَمِنْهُم المُعَوِّقونَ، ومِنْهُم القائلونَ، ومِنْهُم مَنِ اجتمعتْ فيه كُلُّ الخصالِ السَّيِّئَةِ والفِعالِ الذَّميمَة، فكانَ التَّعبيرُ بالضميرِ مناسِبًا؛ ليعودَ الضميرُ على هؤلاءِ جميعًا.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

حالُ المنافقين أوضحُ من البحثِ عن حقائقهم

جاء الفعلُ بصيغَةِ الماضي دونَ المضارعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، فلم يَقُلْ (فإذا جاءَ الخوفُ تراهُم ينْظُرونَ إليك)؛ لتأكيدِ إدراكِ النَّبيِّ ﷺ، لخوْفِهِم واضطِرابِ نُفوسِهم إدراكًا يقينيًّا مُتَحَقِّقًا، ففيه إشعارٌ بأنَّ الأمرَ أوضحُ من أن يحتاج إلى تدقيقٍ في النَّظرِ، فبمجرَّد مجيءِ الخوفِ رأيتهم على هذه الحال.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

اضطرابُ المنافقينَ وفَزَعُهم ومحاولتُهم إدراكَ مدَى سوءِ موقِفِهم

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ باستعمالِ مادةِ (النَّظَرِ)؛ إذ النَّظَرُ هو تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورؤيَتِهِ[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى نَظَرهم إلَيْهِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.

(2) الراغب، مفردات القرآن: (نظر).

نَظَرَ المُتَفَرِّسِ في الذي يَصْنَعُ، ولِسانُ حالِهِمْ يَقولُ: أَلَسْنا قَدْ قُلْنا لَكم: إنَّكم لا قِبَلَ لَكم بِقِتالِ الأَحْزاب، فارْجِعوا؟ وهم يرَونَه أنَّهم كانوا عَلى حَقٍّ حينَ يُحَذِّرونَهُ قِتالَ الأَحْزابِ، ولِذَلِكَ خَصَّ نَظَرَهم بأنَّهُ لِلنَّبي ﷺ، ولَمْ يقلْ: يَنْظُرونَ إلَيْكم، وجيءَ بِصيغَةِ المُضارِعِ؛ ليَدُلَّ عَلى تَكَرُّرِ هَذا النَّظَرِ وتَجَدُّدِه[1]، وفي ذلك كُلِّه دلالةٌ على ما أصابَهم من خوفٍ وفزَعٍ وهلَعٍ، لمّا دَهَمتْ جيوشُ الكفارِ المدينةَ المنوَّرةَ.

بلاغةُ اسْتِعمالِ حرفِ (إلى):

نظرُ المنافقين ينتهي إلى غاياتٍ كثيرةٍ بحسبِ كلِّ ناظرٍ منهم

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بحرفِ الجر (إلى)، الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ، ذلكَ أنَّ غايةَ نَظَرِهم التَّطَلُّعُ إلى رسولِ اللّه ﷺ كأنَّهُم يُحَمِّلونَه ما هُم فيه من بؤسٍ وشقاءٍ واضطرابٍ، أو كأنَّهُم يتطلَّعونَ إليه؛ ليعرِفوا هل يدركُ ما يدورُ في أَنْفُسِهم من اضطرابٍ وخديعةٍ، أو أنَّهم لشدَّة خوفِهم وهلعِهم ينظرون إليه، ينتظرونَ منهُ الأملَ في النَّجاةِ، والأولى اجتماع هذه المعاني وغيرِها ممّا يحتمله المعنى.

نكتةُ إفراد ضمير الخطابِ دون جمعه:

النَّبيُّ ﷺ عياذُ كلِّ خائفٍ وملجأُ كلِّ مستغيثٍ حتى لو كانَ منافقًا

آثر النَّظْمُ الحكيمُ خطابَ الإفراد على خطابِ الجمع في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه عند وقوع المدلهمّات، فإنَّ الأنظار تتَّجه إليك على وجه الخصوص، تطلبُ اللواذَ بِكَ، والحمايةَ مِنْكَ، فأنتَ مأْمَنُ المُسْتَغيث، ومَلْجَأُ الخائفِ، ومنْها أنَّ مُروءَتَكَ وعَظَمَةَ نَفْسِكَ ورَحْمَتَكَ بالناسِ أجمعينَ خَليقَةٌ فيكَ، عَرَفَها مَنْ حولَكَ، حتَّى عَدوُّك اللَّدودُ تراه يندَفِعُ نَحْوَكَ؛ إذا حَزَبَهُ الأَمْرُ لائِذًا ومُستَجيرًا، وهوَ يَعْلَمُ في قرارةِ نَفْسِهِ أنَّه لائذٌ بأكرمِ الرِّجالِ نَفْسًا، وأَبَرِّ بني الإنسانِ بالإنسانِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 297.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141.

فائدةُ جملةِ الحالِ:

جاءت جملةُ الحالِ ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لِتَصْويرِ هَيْئَةِ نَظَرِهِمْ نَظَرَ الخائِفِ المَذْعورِ الَّذي يُحْدِقُ بِعَيْنَيْهِ إلى جِهاتٍ يَحْذَرُ أنْ تَأْتيَهُ المَصائِبُ مِن إحْداها[1].

بَلاغَةُ استعمال مفردةِ ﴿تَدُورُ﴾:

تـصـويـرُ حـالِ المُنافقينَ بسبب قِـلَّـةِ يقينِهـم وفَراغِ قلوبِهِم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ فعل (دَوَرانِ الأَعْيُنِ) للتَّعبيرِ عنْ حالِ المنافقينَ وبيانِ ما أصابَهم من هَلَعٍ وخوفٍ عندَما ابتدأتْ بوادرُ المَعْرَكَة، دونَ استعمالِ فعلِ (التَّلَفُّت) أوِ (التَّقَلُّب)؛ وذلكَ لأنَّ المُرادَ بالدَّوَرانِ تصويرُ ارتباكِ حَركةِ عُيونِهم واضطرابِها حَتَّى لا يَصِحَّ مِنْهُمُ النَّظَرُ إلَى جِهَةٍ، لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ حَذَرًا أنْ يَأْتِيَهُمُ القَتْلُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ[2]؛ إذِ المنافِقونَ قومٌ شاكّونَ في نصرِ اللّهِ لنَبيِّه ﷺ، وفي (الدوران) من حَيَوِيَّةِ التصوير ما لا يوجَدُ في (التَّلَفُّت)، إذِ (التَّلَفُّتُ) لَيُّ الشَّيْءِ أوْ تَحْويلُه عن حالٍ أو وجْهٍ إلى آخَرَ، أو حَوْلَ شَيْءٍ فيَمتسكُ[3]، فليسَ فيه ما في (الدَّوَرانِ) مِنَ الحَرَكة السريعة الدّائِبةِ والاضْطِراب القَلِق، وأمّا (التَّقَلُّبُ)؛ فهوَ يَدُلُّ عَلَى تغْييرِ الأَحْوالِ إلى عكْسِ ما كانَتْ عَلَيْه، فلَيْسَ فيهِ ما في الدَّوَرانِ مِنَ الاضْطِرابِ والدَّأبِ والسُّرْعَةِ، ومِنْ هُنا كانَ التَّعبيرُ بـ(الدَّوَرانِ) أنسبَ لتصويرِ الحالةِ الَّتي اعترتْ هؤلاء المنافقين بسبب قِلَّةِ يقينِهم وفَراغِ قلوبِهم وفَسادِ قُلوبِهم.

دَلالَةُ وصْفِ الأعينِ بالدَّورانِ:

الـدَّورانُ حركةٌ يَـنْـتَـهـي فيها الشَّيءُ إلى حَيْثُ ابْتَدَأَ

التعبيرُ بلفظِ (الدَّورانِ) أبلَغُ مِنَ التعبيرِ بلفظ (الزَّوغانِ)، وذلكَ لأنَّ الزَّيْغَ إنَّما يَدُلُّ على المَيْلِ أو الانْحِرافِ بِشِدَّةٍ عَنِ الاطِّرادِ في الاتِّجاهِ المُسْتَقيم إلى جِهَةٍ أُخْرَى[4]، أمّا الـ(دوْرُ) و(والدَّوَران)؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 297.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 153.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لفت).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زيغ).

فَهوَ حَرَكَةُ جِسْمٍ رَحَويَّةٌ، أيْ: كَحَرَكَةِ الرَّحى، مُنْتَقِلٌ مِن مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، فَيَنْتَهي إلى حَيْثُ ابْتَدَأ، فَمَعْنى ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: أنَّها تَضْطَرِبُ في أجْفانِها كَحَرَكَةِ الجِسْمِ الدّائِرَةِ مِن سُرْعَةِ تَنَقُّلِها مُحَمْلِقَةً إلى الجِهاتِ المُحيطَةِ[1]؛ بحثًا عنْ مَلْجَأ يلجؤون إليه، وملاذٍ يَلوذون به.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بصيغة المُضارِعِ:

تَـجَـدُّدُ حركةِ الأعـينِ الفَزِعَةِ تَـصْـويـرٌ لِـهَلَعِ النُّفوسِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارعِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ للتَّعبيرِ عنْ حالِ المنافقينَ؛ وذلكَ لقوَّةِ الحَرَكَةِ الدّائِبَةِ، فَإنَّ (الدَّوران) مِنَ الكَلماتِ المُصَوِّرَةِ لِمَعْناها بِهَيئَتِها، فأفادَ التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ الكَشْفَ عنْ تجَدُّدِ الحَدَثِ وتَكْرارِه واسْتِمْرارِه، واستحضاره، فَإنَّ المُتَلَقّيَ يكادُ يبْصِرُ هذه العيونَ في حَرَكَتِها الدّائِبَةِ اللّاهِثَةِ، تَدورُ وتدورُ، وهذا الدَّورانُ مُسْتَمِرٌّ لا يَزولُ، ما دامَ الخَوْفُ قدْ جاءَ إلى أنْ يَزولَ، فلنْ تَهْدَأ هذه الحركةُ إلّا إذا ذهَبَ الخَوْفُ، وحينَئِذٍ يَنْتَهي دورُ العيونِ الشّاخِصَةِ؛ ليبدَأ دورُ الألسنةِ الحدادِ[2].

فائدةُ ذِكرِ الأعينِ دون الأبصار:

تـصـويـرُ حَـرَكَـةِ الـعَـيْـنِ ومـا تكشفُه من خورٍ نفسيٍّ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾، آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بـ(الأعينِ) دونَ (الأبصارِ)؛ لأنَّ العَيْنَ هي آلةُ البَصرِ، وهيَ الحَدَقَةُ، أمّا البَصَرُ؛ فهوَ اسمٌ للرُّؤْيَةِ، ولهذا يُقالُ: إحْدى عَيْنَيْهِ عَمْياءُ، ولا يُقالُ: أحَدُ بَصَرَيْهِ أعْمَى[3]، ولمّا كانَ المرادُ في الآيةِ تصويرَ حركةِ العينِ بما هي جارحةٌ جسديَّةٌ بوصفِها آلةً للنَّظَرِ، لا فِعْلَ البصرِ والرُّؤْيَةِ؛ كانَ استعمالُ الأعينِ في هذا السياقِ أنسبَ وأدقَّ لبيانِ شدَّةِ اضطرابِهم وفَزَعِهم،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زيع).

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 82.

فَكَأَنَّ العينَ وكلَّ ما تَراه أصبحَ يَدور في حركةٍ لا تنْتَهي من جرّاءِ هَلَعِهم وخوفِهم.

معنى الإضافَةِ ودلالتُها:

تَـخـصـيـصُ الـدورانِ بأعينِ المنافقينَ دونَ غَيْرِهم

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ إضافَةَ الأعينِ إلى الضمير (هُم) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ دونَ أن يُقال: (تَدورُ الأعينُ) كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأحزاب: 10]؛ وذلكَ لأنَّ إضافةَ الأعينِ إلى المنافقينَ يُقْصَدُ به تخصيصُ الدورانِ بأعْيُنِهم وإظهارُ ذلك؛ فَهُمُ الَّذينَ تبدَّلتْ أحوالُهم، وطاشَتْ عقولُهم، فاضطربَتْ نفوسُهم، ففيها معنى لامِ الاختصاص، وأنَّ ذلك لم يكن لغيرِهم.

بَلاغَةُ المَجازِ المرسلِ:

لَـيْـسَ الـدَّوَرانُ دَوَرانَ الأحْداقِ، لَـكِـنَّـهُ دَوَرانُ الـعـيـونِ حتَّى الجُفونِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ عنْ فَزَعِ المنافقينَ وهَلَعِهم، وأصلُه: تَدورُ أحداقُهُم في أعْيُنِهم، ولَكِن لِشدَّةِ هذا الدَّوَرانِ وسُرْعَةِ هذا التَّقلُّبِ خُيِّلَ أنَّ العُيونَ كُلَّها تَدورُ، فَلَيْسَ الدَّوَرانُ دَوَرانَ المَحاجِرِ والأحْداقِ، ولَكِنَّهُ دَوَرانُ العيونِ حتَّى الجُفونِ والأهْدابِ، فهو من إطلاقِ المَحَلِّ على الحالِّ، وهوَ ضربٌ مِنَ المَجازِ المُرْسَلِ[1].

بلاغةُ التشبيهِ:

اكْـتِـنـازُ حـرفِ الـكـافِ معاني عدَّةٍ بيانًا لشدَّةِ فزعِ المُنافِقينَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بحرفِ الكافِ الَّذي يفيدُ التَّشبيهَ، فشَبَّهَ نظرهُم بِنَظَرِ الَّذي يُغْشى عليه بِسَبَبِ النَّزْعِ عِنْدَ المَوْتِ، فَإنَّ عَيْنَيْهِ تَضْطَرِبانِ، وعلى هذا الوجْهِ تكونُ الكافُ في محلِّ نصبٍ، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ينْظُرونَ إليكَ نَظَرًا مِثْلَ نظرِ الَّذي يُغْشَى عليه من المَوتِ، أو تكونُ عائدةً على الدَّورانِ، فتكونُ أيضًا في محلِّ نَصْبِ صِفَةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تَدورُ أعينُهم دَورًا أو دَوَرانًا مثلَ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

دوَرانِ عينِ الَّذي يُغْشَى عليه من الموت، وذهب بعضُ المعربينَ إلى أنَّها حالٌ مِنْ ﴿أَعۡيُنُهُمۡ﴾، أي: تَدورُ أعْيُنُهم حالَ كوْنِها مُشْبِهَةً عينَ الَّذي يُغشى عليه من الموتِ، أو هيَ حالٌ من الفاعلِ في ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: رَأيْتَهُم ناظِرينَ إليكَ، دائرةً أعْيُنُهم مُشْبِهينَ لِلْمَغْشيِّ عليه من الموتِ[1]، وعلى أيِّ وجْهٍ من هذِه الوجوهِ، فإنَّ التشبيهَ قد أفادَ شدَّةَ هَلَعِهِم وخَوفِهِم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ (الذي):

الــذي يُـغشى عليه من الموتِ مـعـهـودٌ وهـو مـثـالُ الـهـالـكِ المأزوم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بِالاسْمِ المَوْصولِ (الَّذي) دونَ (مَنْ) رغْمَ أنَّ كليهما اسمٌ مَوْصولٌ؛ وذَلِكَ لأنَّ (الَّذي) اسْمٌ مَوْصولٌ مُخْتَصٌّ، وهوُ نصٌّ؛ لِأَنَّهُ يَخْتَصُّ بِالْمُفْرَدِ المُذَكَّرِ تَحْديدًا دونَ غَيْرِه، وأمّا (مَنْ) وكَذَلِكَ (ما)؛ فهي من الأسْماءِ الموصولةِ المشتركةِ، الَّتي تُسْتَعْمَلُ للمُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، ويُسْتَعْمَلُ للمُفْرَدِ والمُثَنَّى والجَمْعِ، والفَرْقُ اللُّغَويُّ بَيْنَهُما أنَّ (الَّذي) مختصٌّ أو نَصٌّ، أيْ: في مِعْنًى مُعيَّنٍ، وهوَ المفردُ المُذكَّرُ، و(مَنْ) مُشْتَرَكٌ، ومِنْ هُنا فإنَّ (الَّذي) أعْرَفُ وأخَصُّ مِنْ (مَنْ)؛ لأنَّ المُخْتَصَّ أعْرَفُ وأخَصُّ في التَّعبيرِ عن بعضِ المعاني[2]، ومِنْ هُنا فقد آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ استعمالَ الاسم الموصولِ (الَّذي)؛ للإشارةِ إلى حالةٍ معروفةٍ بَينَهُم، قدْ خبروها بأُمِّ أعْيُنِهِم مرّاتٍ عدَّةً، فهوَ ليس أمرًا نادِرًا، بلْ يعْرِفونَ هذه الحالةَ جيِّدًا، ومِنْ ثَمَّ كانَ التصويرُ بها أبلغَ في بيانِ حالِهم وما اعْتراهُم مِنْ هَلَعٍ وخوفٍ.

بلاغةُ اتِّساقِ مفردةِ الغَشَيانِ بالدَّورانِ:

النِّفاقُ يُمْرِضُ الـقُـلـوبَ حتَّى تُـعـانـي مـن سَكَراتِ الموتِ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة الغشيانِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ لِتَصْويرِ ما دهَمَ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 252.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 139.

المنافِقينَ مِنْ شِدَّةِ الخَورِ والجُبْنِ؛ إذِ الغشيانُ هوَ تَغْطيَةُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، فَهُم يَنْظُرونَ نَظرًا كَمَن يعالِجُ سَكَراتِ المَوْتِ حَذَرًا وخورًا، ولِواذًا بِكَ[1]، فقد أَضْفى استِعْمالُ الغَشَيانِ على الدَّورانِ اللاهِثِ الَّذي أصابَهُم وصْفَ الضَّعْفِ والتَّخاذُلِ والفُتورِ والهَوانِ، فَلَيْسَ هذا الدَّوَرانُ والدَّأبُ مِنَ العُيونِ أمارةَ الحَيَوِيَّةِ والحياةِ، وإنَّما هو مَظْهَرُ المَوْتِ والاسْتِسلامِ، وما أَرْوَعَ كلمةَ ﴿يُغۡشَىٰ﴾! حيثُ غُشِيَتْ حَرَكَةُ عُيونِهِم بِغِشاءِ المُسَجَّى الَّذي خَذَلَته قواه، وهَمَّ بِفِراقِه نبضُ القوَّةِ والحياةِ، انْظُر إلى حُسنِ هذا التَّشْبيه؛ إذِ اخْتارَ نَظَرَ المَغْشيِّ عَلَيْه مِن المَوْتِ، صورَةً صادِقَةً لِهَؤُلاءِ الخَوّارينَ الَّذينَ يَمْلَأُ قُلوبَهم الجُمودُ والمَوْتُ، والَّذينَ وصَفَهُم في أكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ بِمَرَضِ القُلوبِ، وإذا طالَ زَمَنُ مرَضِ القُلوبِ؛ استَشْرَى فيها داؤُها، وماتَ كُلُّ معنًى من معاني الحياةِ، الَّتي لا تَجِدُ لَها مقرًّا إلّا في صِحاحِ القُلوبِ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ مَبْنيًّا للمَفْعولِ:

استحضارُ شدَّةِ سَكَراتِ المَوْتِ، والعنايةُ ببيانِ فَظاعَتِها إشارةً لِهَلَعِهِم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ ﴿يُغۡشَىٰ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ للدَّلالةِ على استحضارِ صورةِ الَّذي يُعالِجُ سكراتِ الموتِ، فَهو يعالِجُ السَّكْرَةَ تِلْوَ الأُخْرى، وذلكَ لبيانِ شدَّةِ خَورِهِم وجُبْنِهِم، وقدْ جاء الفِعْلُ كذلكَ في صيغةِ المَبْنيِّ للمَفْعولِ؛ لبيانِ "شِدَّةِ العِنايَةِ بِتَصْويرِ ذَلِكَ بِجَعْلِ المَفْعولِ عُمْدَةً بِبِناءِ الفِعْلِ لَهُ"[3]؛ إذ المَقْصودُ بيانُ شدَّةِ سكَراتِ الموتِ، وليسَ الفاعلَ، وهوَ اللّهُ ﷻ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

غَشَيانُ المَوْتِ فعلٌ ثقيلٌ يأتي من أعلى

عَدَّى النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿يُغۡشَىٰ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ بحرف الجرِّ (على) الَّذي يُفيدُ الاستعلاءَ،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 398.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

الَّذي يُستعمَلُ للأفعالِ الشّاقَّةِ المُسْتَثْقَلَةِ[1]، فلَمّا كانَ غَشَيانُ الموتِ بسَكراتِه مِنَ الأفعالِ الشّاقَّةِ الَّتي تُعَبِّرُ عنْ أصْعَبِ ما يَعْتَري الإنسانَ في هذِه الحياةِ الدُّنْيا؛ كانَ استعمالُه في هذا الموضِعِ أنسبَ وأدَقَّ في بيانِ حالِهِم، وهُم يستَعْطِفونَ المسلمينَ؛ ليَذُبّوا عنهم إنْ حَضَروا اللِّقاءَ، مع ما فيه مِن تصويرِ حالةِ الغشيانِ، وتأكيدِها بحرف الاستعلاءِ، فإنَّ الغشيان يكون من أعلى.

دلالَةُ استعمالِ مفردة الموت دون القَتْلِ:

الْمَوْتُ هوَ النِّهايةُ الغالبةُ لِكُلِّ البَشَرِ بخلافِ القَتْلِ

آثرَ النَّظْمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ﴾ استعمالَ لفظةِ ﴿ٱلْمَوْتِۖ﴾ دونَ لَفْظَةِ (القَتْلِ)؛ لأنَّ وُقوعَ المَوْتِ هوَ النِّهايةُ الغالبَةُ لكلِّ البَشَرِ، أمّا القَتْلُ؛ فَهو أمرٌ عارضٌ؛ إذ إنَّ رُؤْيةَ المَيِّتِ، وهوَ يعالِجُ سَكَراتِ الموتِ أمْرٌ معتادٌ مُشاهَدٌ في حياةِ النّاسِ، بِخِلافِ القَتْلِ، الَّذي هوَ أمرٌ نادرُ الحُدوثِ، وإن حدث؛ فلا يراه إلّا القليلُ، ويكون موتُ المقتولِ في العادة سريعًا، لا كالميِّت الذي قد يُصارع الموتَ زمنًا أطول؛ فلذلكَ كانَ التَّعْبيرُ بالموتِ أنسبَ وأدقَّ في هذا السياق للدلالةِ على التَّصويرِ المَقْصودِ، وهو حالُ المُنافقينَ وما أصابَهم مِنْ هَلَعٍ بحالِ المَغْشيِّ عليه مِنَ المَوْتِ.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

الجبانُ إن تلاشتْ أسبابُ جُبنِه؛ نطقَ بالسّوءِ، وأتى بالمنكرِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، رَبَطَ النَّظْمُ الحكيمُ بين هذه الجملةِ والجملةِ السابقةِ عليها، وهيَ قولُه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ﴾، بفاءِ التَّفْريعِ؛ لتفرُّعِ ما بَعْدَها عَلَى ما قَبْلَها، فهيَ تَفريعٌ عَلى وصْفِهِمْ بالخَورِ والجُبْنِ وشدَّةِ الفَزَعِ من الحربِ، فإذا انتصَرَ المسلمونَ؛ فإنَّهُم يُحاوِلونَ

(1) ابن جني، الخصائص: 2/ 273.

مداراةَ مواقفِهم المُخْزِيَةِ بالباطلِ وسوءِ الأدبِ والأذَى، وهوَ دَليلٌ على لؤمِ نُفوسِهم وخِسَّةِ طباعِهم.

دلالةُ استعمالِ أداةِ (إذا):

بُشْرَى المُسْلِمينَ بالانتصارِ وغمُّ المنافقين بالانكسارِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنِ انْتهاءِ الحَرْبِ وانتصارِ المُسلمينَ بالظَّرفِ (إذا)، دونَ حرفِ الشَّرْطِ (إن)، وذلكَ لأنَّ (إذا) تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستعمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ بُشْرى للمُسْلِمينَ بانتصارِهم على عدوِّهم الَّذي أحْدَق بِهِم، وهيَ في الوقْتِ ذاتِه تحذيرٌ وغمٌّ للمنافقينَ بانكِشافِ ما يَعْتَورُ في نفوسِهم من خيانَةٍ، وما تَمورُ به قُلوبُهم من مَكْرٍ، فإذا هُم يُحاوِلونَ المُماراةَ بالباطِلِ والجدَلِ الفارِغِ؛ مداراةً لنُكولِهم وخَورِهم.

بَلاغَةُ المَجازِ بالحذفِ:

إذا ذهبت أسبابُ الخوفِ؛ انطلقتْ ألسُنُ الخائفين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عن انتصارِ المُسلمينَ وزَوالِ الخَطَرِ بذهابِ الخوفِ، وهوَ مَجازٌ مَشْهورٌ في الانْقِضاءِ، أيْ: زَوالِ أسْبابِهِ بأنْ يُتْرَكَ القتالُ، أوْ يَتَبَيَّنَ ألّا يَقَعَ قِتالٌ، وذَلِكَ عِنْدَ انْصِرافِ الأحْزابِ عَنْ مُحاصَرَةِ المَدِينَةِ كَما سَيَدُلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾[1]، فهو مجازٌ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه، أي: ذهبت أسبابُ الخوفِ، وهي هنا الأحزاب.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

الخوفُ مانعٌ من الكلامِ يلجِمُ القلوبَ الضَّعيفةَ

شبَّه النَّظمُ الكريم لفظَ الخوفِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾، بشخصٍ عاقلٍ قادرٍ على الذَّهابِ، وحذف المشبَّه به، وذكر لازمًا من لوازمِه، وهو فعل ﴿ذَهَبَ﴾، على سبيل الاستعارة المكنيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

الأصليَّة، وتكمن بلاغةُ الاستعارةِ في تجسيد معنى الخوفِ، وأثره الكبير في النُّفوس، فكأنَّه ثِقَلٌ جاثمٌ فوق الخائفين، مانع من القيل والقال، فبمجرَّد ذهابِه نطق المنافقون بما لم يستطيعوا قولَهُ عند وجود الخوف.

خِسَّةُ المنافقينَ تظهر في الجمعِ بين هَلَعِهم، وسلاطةِ لسانهم

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ بَيْنَ مجيءِ الخوفِ وذهابِه:

بَيْنَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ وقولِه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ مُقابَلَةٌ تُبَيِّنُ موقفَ المنافِقينَ بينَ حالينِ متبايِنَينِ في مدَى هذينِ الطَّرَفينِ: مجيءِ الخوفِ وذهابِه[1]، فَهُم بينَ خَورٍ وخوفٍ وهَلَعٍ في الحالِ الأولى: ﴿رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، وسلاطةِ لسانٍ وسوءِ أدبٍ في الأخرى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، فلا ينْفَكّونَ عنْ خُلُقٍ ذميمٍ وفعلٍ مشينٍ بسببِ خِسَّةِ نُفوسِهم.

الامْتِنانُ بِذَهابِ الخَوفِ الَّذي اعْتَرَى المُؤْمِنينَ بِحِصارِ الأحْزابِ

نكتةُ تكرارِ لفظِ ﴿ٱلۡخَوۡفُ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ أعادَ البيانُ القُرآنيُّ ذِكرَ لفظِ ﴿ٱلۡخَوۡفُ﴾؛ تأكيدًا لِشدَّةِ ما تَعَرَّضَ له المسلمونَ من هولِ الأحزابِ وتكالُبِهم على المؤمنينَ مِن كلِّ جانبٍ، وفي إعادةِ ذكرِ الخوفِ كذلكَ امتنانٌ على المؤمنين بِذِكْرِ ما أنْجاهُم اللّهُ تعالى من شَرِّ الأحْزابِ، فحسُنَ في هذا المقامِ التَّذْكيرُ بسببِ الفَزَعِ مرَّةً أُخْرَى.

بَيانُ شديدِ ما تجمعُه ألسنةُ المُنافِقينَ من الحقدِ والحسدِ والغيظِ

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿سَلَقُوكُم﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنْ وقاحَةِ المُنافِقينَ وسوءِ أدَبِهم وجشَعِهم بعدَ بيانِ خَورِهِم وجُبْنِهم بفِعْلِ (السَّلْقِ)، دونَ فعل (الأذى)، وذلكَ لأنَّ أصْلَ السَّلْقِ بَسْطُ العُضْوِ، ومَدُّهُ لِلْقَهْرِ، سَواءٌ كانَ يَدًا أم لِسانًا، فَسَلْقُ اللِّسانِ بإعْلانِ الطَّعْنِ والذَّمِّ، وفُسِّرَ السَّلْقُ هُنا بالضَّرْبِ مَجازًا،

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 138.

كَما قيلَ لِلذَّمِّ: طَعْنٌ، أيْ: آذَوْكم بِالكَلامِ، وخاصَموكم بِأَلْسِنَةٍ سَلِطَةٍ ذَرِبَةٍ، واعْتَبَرَ بَعْضُهم في السَّلْقِ رَفْعَ الصَّوْتِ، والمرادُ بالسلق هَهُنا: أَنَّهُم بالَغوا فيكُمْ بِالكَلامِ، وخاصَموكم في الغَنيمَةِ أشَدَّ مخاصمةٍ، وأَبْلَغَها، وآذوكُم بِالكَلامِ في الأمرِ بِأَلْسِنةِ سَليطة ذَرِبَة، وبَسَطوا أَلْسِنَتَهم فيكُمْ، وقْتَ قِسْمَةِ الغَنيمَةِ، يَقولونَ: أعْطونا أعْطونا، فَلَسْتُمْ بِأَحَقَّ بها مِنّا[1]، وكذلكَ فإنَّ من مَعاني السَّلقِ قَشْرَ اللَّحْمِ عنِ العَظْمِ، واستعمالَ الماءِ في إزالةِ اللَّحمِ المطبوخِ[2]، فكأنَّ سوءَ أدَبِهم وسلاطةَ ألسنَتِهم قد أثَّرَ في أبدانِ الصحابةِ رضوانُ اللّٰه تعالى عليهم، ولذا فإنَّ في التَّعْبيرِ بـ﴿سَلَقُوكُم﴾ من المعاني ما ليسَ يوجَدُ في (آذوكُم)؛ لأنَّ الأذى هوَ الشَّيْءُ تَتَكَرَّهُهُ، ولا تَقرُّ عليه، يلحقُكَ منه ضرَرٌ[3]، وهوَ ضررٌ يَسيرٌ في أغلبِ الأحْوالِ، وكَوْنُ الأذى البدنيِّ غيرَ مُبَرِّح يُناسِبُ التَّهْوينَ مِنْ شَأْنِ مَكْروهِهِ بِالنِّسبَةِ للضَّررِ، كما قَدْ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِه تعالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]، ولذا فقد أشارَ بعْضُهم إلى أنَّ الأذَى هوَ المَكْروهُ اليَسيرُ أو الشَّرُّ الخَفيفُ[4].

نكتةُ جمعِ الضَّميرِ دون إفرادِه:

الـنَّـأيُ بِـمـقـامِ الـنَّـبـيِّ ﷺ أن يَـتَـسَـلَّـطَ عَـليه فِـعـلُ (الـسَّـلـقِ) تَـكْـريـمًـا لَـه وتشريفًا لِقَدْرِه

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عن توجيهِ الخطابِ بكافِ الخطابِ للمفردِ، وآثَرَ التَّعبيرَ بالكافِ والميم الدالةِ على الجمعِ، فعَبَّرَ بِخطابِ الجمعِ دونَ خطابِ الواحدِ، بعدَ أَنْ قالَ قبلَ ذلكَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بضميرِ المفردِ؛ تَكْريمًا له ﷺ حَتَّى لا يَتَسَلَّطَ هذا الفعلُ الَّذي هوَ (السَّلْقُ) قَصْدًا إليه، وإشارةً إلى أنَّ عَيْبَهُم لنْ ينالَ مِنه ﷺ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُم لمْ يَجْرؤوا أنْ يُفْرِدوه بالعيبِ والشَّتْمِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سلق)، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذى).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أذى).

وقدْ كانوا كذلكَ أبدًا يَهابونَه دائمًا، وواجَهوه بالكُفْرِ، وما واجَهه أحدٌ بكلماتِ الشَّتْمِ والعيبِ، وإنَّما كانوا يلوون ألسِنَتَهم بالسوء(1).

نوعُ الباءِ ودلالَتُها:

المنافقُ يُسرع في تسليطِ لسانِه على المؤمنين ويُبطئه على الكافرين

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، عَدَّى النَّظْمُ الحَكيمُ فعلَ ﴿سَلَقُوكُم﴾ بِحَرفِ الباءِ، الَّتي تُفيدُ الاستعانة هنا، فَكَأَنَّ لسانهم هو آلة فِعْلِ السَّلْقِ، وفيه إشارة إلى أنَّ أذاهم لم يكن إلّا بالكلام واللسان، وإلّا فهُم أجبنُ عن شيء آخر غيرِ القول باللَّسان، كما في قَوْلِه تعالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: 111]، وفي هذا أيضًا تصويرُ ألسنتِهم بأنَّها سياطٌ تنزل على الأبدانِ، وهي حاميةُ الوطيس، فهو تعريضٌ بهم؛ إذ لم يُحسنوا إلّا أن يُسلِّطوا ألسنتَهم على المؤمنين، دون أن يُسلِّطوا سهامهم في نحورِ الغاصبين.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظِ الألسنة:

الألسنةُ سلاحُ المنافقِ على المؤمنِ

في بيانِ حالِ المنافِقينَ وإيضاحِ لُؤْمِهم استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ ﴿بِأَلۡسِنَةٍ﴾ دونَ غيرِها، فلم يأتِ بـ(سَلَقوكُم بأقوالِهم الخبيثة) أو (بِكَلامِهم السَّليطِ)، وإنَّما عبَّرَ بالألْسِنَةِ لإرادةِ الإطلاقِ؛ إذ اللسانُ مجازٌ مُرسَلٌ عن الأقوالِ، عَلاقَتُه الآليَّة، فَأَطْلَقَ الآلةَ، وهيَ اللِّسانُ، وأراد الكلماتِ والأقوالَ، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ القومَ كانوا يَلْهَجونَ بالطَّعنِ والذَّمّ والتَّكالبِ على الغَنائِم في كلِّ ما ينطقونَ به من أقوالٍ، فكأنَّ أَلْسِنَتَهم وكلَّ ما تَنْطِقُ به يدورُ في مجال الذَّمِّ والطَّعنِ على المسلمين، فكانَ التَّعْبيرُ بالألسنة أبلغَ وأشْمَلَ، وهوَ كذلك دليلٌ على تَبَدُّلِ حالِهم بعد ذَهابِ الخَوفِ حتّى أصبحتْ ألسنَتُهم ذَرِبَةً قاطِعَةً فصيحةً بَعْدَ أنْ كانَتْ عِنْدَ الخَوْفِ في غايَةِ اللَّجْلَجَةِ لا تَقْدِرُ عَلى الحَرَكَةِ من قِلَّةِ الرّيقِ، ويُبْسِ الشِّفاهِ، وهَذا لِطَلَبِ العَرَضِ الفاني مِنَ الغَنيمَةِ أَوْ غَيْرِها(2).

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

غرضُ جمعِ لفظ ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾:

بعد ذهابِ أسنَّة الكافرين تبدأ ألسنةُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالجمع ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ دونَ المفردِ (لِسانٍ)، وذلكَ للإشارةِ إلى أنَّ المُنافِقينَ كُلَّهُم قدِ اشتَدّوا في مخاصَمَةِ المسلمينَ في الغَنائم، والتَّعَرُّضِ لَهُم بالهمزِ واللَّمْز، فَهُم لا يَنْفَكّونَ يُؤْذونَ المُسْلمينَ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى تنوُّع تلك الألسن، وتعدُّد أنواع خصوماتِهم، وأنَّ كلًّا منهم سلك مسلكًا في سلقِ المؤمنين، فألسنةُ المنافقين تأتي بعد أسنَّة الكافرين.

براعةُ وصفِ الألسنة بِقَوْلِه: ﴿حِدَادٍ﴾:

معاملةُ اللئيم بالحُسنى تقودُه لشراسةِ الطَّبعِ وذرابةِ اللِّسان

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وصَفَ النَّظْمُ الحكيمُ الأَلْسِنَةَ بِأَنَّها ﴿حِدَادٍ﴾، وهوَ وصْفٌ مأخوذٌ مِنْ: حَدَّ السيفُ يَحِدُّ حِدَّةً واحْتَدَّ، فَهوَ حادٌّ حديدٌ، وأحددته، وسيوفٌ حِدادٌ وأَلْسِنَةٌ حِدادٌ، ورَجُلٌ حَديدٌ وحُدادٌ مِنْ قَوْمٍ أحِدّاءَ وأَحِدَّةٍ وحِداد: يَكونُ في اللَّسَنِ والفَهمِ والغَضَبِ[1]، ويُعَبَّرُ عنِ الحَديدِ بالشَّيْءِ المُتَناهي في بابِه، واللسانُ الحديدُ، أي: مُصْلَتٌ كَحِدَّةِ السَّيْفِ[2]، والمعنى هَهُنا: أنَّ المنافقينَ تَعَرَّضوا للمسلمين بأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ قاطِعَةٍ فَصيحَةٍ[3]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى مَبْلَغِ ما أصابَ المسلمينَ مِن أذاهُم وسوءِ أدَبِهم، وبيانِ قوَّة جرأتِهم على المؤمنين، وشدَّة ضعفِهم أمام الكافرين، وهو ما يُبيِّن أنَّ معاملةَ المؤمنين لهم كانت حسنةً، فأغرت ألسنتَهم بالسّوءِ.

بَلاغَةُ الاستعارَة:

ألْسِنَةُ المنافِقينَ كالسُّيوفِ السَّليطَةِ الَّتي تَنوشُ المُؤْمِنينَ وتُمَزِّقُ أديمَهُم

اُستُعيرَ لفظُ السَّلْقِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الَّذي هوَ التَّقطيعُ والتَّمزيقُ، للإيذاءِ والعَيْبِ والإهانَةِ بالقَوْلِ، فقدْ شُبِّهَ الإيذاءُ والعَيْبُ بالسَّلقِ الَّذي هوَ التَّمزيقُ بِجامِعِ قوَّةِ التَّأْثيرِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حدد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدد).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

والإيذاءِ، وهوَ شائعٌ في بيانِهم، يَسْتَعيرونَ تَمْزيقَ اللَّحْمِ والأديمِ للإهانةِ والسَّبِّ والعَيْبِ، وكُلِّ ما هوَ مِنْ أعمالِ اللِّسانِ، فالمرادُ بقولِه: ﴿سَلَقُوكُم﴾، أي: آذوكُم إيذاءً بِأَلْسِنَتِهم بَيِّنًا واضحًا، كأنَّه تَمزيقٌ وتَقْطيعٌ، وعلى هذا يكونُ وصفُ الألسنةِ بالحدادِ في الآيةِ من قَبيلِ التَّرشيحِ لاسْتِعارةِ السَّلْقِ، الَّذي هوَ التَّمْزيقُ للعيبِ والإيذاءِ، ويَجوزُ أَنْ يكونَ قولُه: ﴿حِدَادٍ﴾ قرينةً لاسْتِعارةٍ أُخرى جَرَتْ في الأَلْسِنَةِ، أي: عابوكُم بِأَلْسِنَةٍ ذَرِبَةٍ كالسيوفِ المُحَدَّدَةِ الماضيةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ من بابِ الاستعارةِ المَكْنيَّةِ على وجْهٍ آخرَ، وذلكَ بِتَشْبيهِ اللِّسانِ بالسَّيْفِ، والرَّمْزُ إلى هذا التَّشبيهِ بالسَّلْقِ المُسْتَعارِ للضَّرْبِ، وبهذا تكونُ قرينَةُ الاستعارةِ المَكْنيَّةِ (السلق) استعارةً أَصْليَّةً، وسواءٌ أكانَ مَوْطِنُ التَّجَوُّزِ هو (السَّلْقُ) أم (أَلْسِنَةٌ)، فإنَّ التَّرْكيبَ يُفيدُ أنَّ أَلْسِنَةَ هؤلاءِ المنافقينَ بعدَ ذَهابِ الخَوْفِ كالسُّيوفِ السَّليطَةِ الَّتي تَنوشُ المُؤْمنينَ، وتُمَزِّقُ أديمَهُم[1].

نكتةُ تكرارِ لفظِ ﴿أَشِحَّةً﴾:

معاني الألفاظِ تتحدَّدُ بمتعلِّقاتِها وتتعيَّنُ بنوعِ إيرادِها

جاء ذكرُ لفظِ ﴿أَشِحَّةً﴾ مرَّةً أُخْرَى في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾، بعدَ أنْ صَدَّرَ بها الآيةَ في قولِ اللّهِ جلَّ اسمُه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وذلِكَ على مغايرةِ المَعْنَى المرادِ بالشُّحِّ في الموضعينِ، فَهو هُنا مُقَيَّدٌ بِالخيرِ المُرادِ بِهِ مالُ الغَنيمَةِ، وما مَرَّ مُقَيَّدٌ بِمُعاوَنَةِ المُؤْمنينَ ونُصْرَتِهِمْ، أَوْ بالإِنْفاقِ في سَبيلِ اللّهِ تَعالى، فَلا يَتَكَرَّرُ هَذا مَعَ ما سَبَقَ، ويُمْكِنُ أَنْ يُقالَ في الفَرْقِ بَيْنَهما: إنَّ المُرادَ ممّا سَبَقَ في قولِه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ذَمُّهم بِالبُخْلِ بِكُلِّ ما فيهِ مَنْفَعَةٌ أَوْ بِنَوْعٍ مِنْهُ عَلى المُؤْمنينَ، والمرادُ هنا في قولِه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ ذَمُّهم بِالحِرْصِ عَلى المالِ، أَوْ ما فيهِ مَنْفَعَةٌ مُطْلَقًا من غَيْرِ نَظَرٍ إلى كَوْنِ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 140.

ذَلِكَ عَلى المُؤْمنينَ، أَوْ غَيْرِهِمْ، وهو أَبْلَغُ في ذَمِّهِمْ مِنَ الأَوَّلِ[1]، وعلى ذَلِكَ فالكلمةُ هُنا ليستْ تَكْرارًا دلاليًّا، وإنْ بدتْ في صورةِ التَّكْرارِ، كذلكَ فإنَّ الشُّحَّ هُنا شُحٌّ على النّاس أجمعين، والشُّحُّ هناك على المؤمنين فقط بمعنييه السابقينِ، فليسَ الثاني عَيْنَ الأَوَّلِ حتّى يكونَ تَكْرارًا له، ويُمكنُ أن يقالَ: إنَّه ضَرْبٌ من ضروب التَّكرارِ الَّذي يأتي فيه الكلامُ المكرَّرُ بفائدةٍ جديدةٍ، وقد قالوا: إنَّ التَّكْرارَ الَّذي يفيدُ معْنًى جديدًا أَدْخَلُ في صَنْعَةِ البيانِ، وأَرْسَخُ قَدَمًا في بابِ البلاغةِ منْ غيرِه[2].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

عُدّيَ لَفْظُ ﴿أَشِحَّةً﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾؛ لأنَّ الشُّحَّ يَتَعَدّى إلى الشَّيْءِ المَبْخولِ بِه بالباءِ وبـ(عَلى)، قالَ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، ويَتَعَدّى إلى الشَّخْصِ المَمْنوعِ بـ(عَلى) أيْضًا لما في الشُّحِّ من مَعْنى الاعْتِداءِ، فَتَعْديَتُهُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ﴾ مِنَ التَّعْدِيَةِ إلى المَمْنوعِ، والمَعْنَى: يَمْنَعونَكم ما في وُسْعِهِمْ مِنَ المالِ أوِ المَعونَةِ[3]، ويُفيد هذا الحرفُ الاستعلاءَ، أي: إنَّ بِهِم شُحًّا مستعليًا[4]، فَهوَ لا يَنْفَكُّ عَنْهُم، ولا يَنْفَكّونَ عَنْهُ، فَهوَ جِبِلَّةٌ متأصِّلةٌ فيهم.

الشَّحيحُ يستعلي بما عندَه على غيرِه فيأنسُ بالموجودِ ويخشى فقدَه

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بلفظ ﴿ٱلْخَيْرِ﴾، والمُرادُ حسب الظاهرِ الغنائمُ، كما أشارَ أَغْلَبُ المُفَسِّرينَ، والغنائمُ مالٌ، وقد عُبِّر به عنه بذلك، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، وقَوْلِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، أيْ:

المُنافِقونَ يرون الخيرَ في المالِ ومجمعَ القوَّةِ في الاستزادةِ منه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 141 - 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 296.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.

هُم في حالَةِ السِّلْم يُسْرِعونَ إلى مَلامِكم، ولا يواسونَكم بِأَمْوالِهِمْ لِلتَّجْهيزِ لِلْعَدوِّ إنْ عادَ إلَيْكم[1]، وأشارَ البقاعيُّ إلى أنَّ التَّعبيرَ بالخيرِ عن المالِ، إنَّما هوَ لاعْتِقادِهِمْ أنَّهُ لا خَيْرَ غَيْرُهُ، فَبِسَبَبِ شُحِّهم لا يُريدونَ أنْ يَصِلَ شَيْءٌ منهُ إلَيْكم، ولا يَفوتَهم شَيْءٌ منهُ، وهَذِهِ سُنَّةٌ أُخْرى في أنَّ مَن كانَ صُلْبًا في الرَّخاءِ؛ كانَ رِخْوًا حالَ الشِّدَّةِ وعِنْدَ اللِّقاءِ[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالحالِ:

لا يثقُ بالمنافقِ إلّا مثيلُه أو صاحبُ غفلةٍ

ذهبَ المُعربونَ إلى أنَّ كلمةَ ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوبَةٌ عَلى الحالِ مِن ضَميرِ الرَّفْعِ في ﴿سَلَقُوكُم﴾[3]، أي: خاصَموكم ولاموكم، وهم في حالِ كَوْنِهِمْ أشِحَّةً عَلى ما فيهِ الخَيْرُ لِلْمُسْلمينَ، أيْ: إنَّ خِصامَهم إيّاهم لَيْسَ كَما يَبْدو خَوْفًا عَلى المُسْلمينَ، واسْتِبْقاءً عليهمْ، ولَكِنَّهُ عَنْ بُغْضٍ وحِقْدٍ، فَإنَّ بَعْضَ اللَّوْمِ والخِصامِ يَكونُ الدّافِعُ إلَيْهِ حُبَّ المَلومِ وإبْداءَ النَّصيحَةِ لَه[4]، ففيها احتراسٌ عن توهُّم الخيرِ في أهلِ النِّفاقِ، فلا يثقُ بمنافقٍ إلّا مثله أو صاحب غفلةٍ وجهالة.

علَّة فصل الجملةِ عن السّابقة:

محاربةُ المؤمنين وخذلانهم دليل انعدام الإيمان

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ عنِ الجملةِ السّابِقة، وهي قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾، وذلك لِشِبْهِ كمالِ الاتصال بينَ الجملتين؛ إذْ جاءَ قَوْلُه سُبْحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ مُتَضَمِّنًا إجابةَ السؤالِ الَّذي قدْ يخْطُرُ ببالِ كثيرٍ مِنَ المُتَلَقّينَ، وهوَ: لِماذا وقعَ المُنافقونَ في هذه الأفعالِ الشائِنَةِ بِسَبِّ المسلمينَ والانتقاصِ مِنْهُم؟ ولِماذا امْتَلَأَتْ قُلوبُهم بالبُغْضِ والكراهيَةِ للمُسْلمينَ؟ فكانتِ الإجابةُ بأنَّ هؤلاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 315.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 163.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

القومَ لم يدْخُلِ الإيمانُ إلى قُلوبِهم، فالجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ، لِذلكَ كان الفَصْلُ ههُنا أليقَ بالسّياقِ، وأدلَّ على المعنى المرادِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تمييزُ المنافقين عن الجماعةِ الإنسانيةِ والحكمُ بِبُعْدِهِم وانحطاطِهم

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، الَّذي يُستَعْمَلُ للإشارةِ إلى البعيدِ، ويرادُ بِهِ في هذا السّياقِ الإشارةُ إلَى انْحِطاطِ مَنْزِلَةِ المُنافِقينَ المُشارِ إليهم، لِقَصْدِ تَمْييزِهِمْ بِتِلْكَ الصِّفاتِ الذَّميمَةِ الَّتي أُجْرِيَتْ عليهِمْ مِن قَبْلُ، ولِلتَّنْبيهِ عَلى أنَّهم أحْرياءُ بما سَيَرِدُ مِنَ الحُكْمِ بَعْدَ اسْمِ الإشارَةِ، وبِذَلِكَ فقدْ أسهمَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في تحديدِ مكانِهِم المُتَمَيِّزِ في الجماعةِ الإنسانيةِ، وأشارَ إلَى نَبْذِهِم وإهانَتِهم وطَرْحِهِم والاسْتِخْافِ بِهِم وبأفعالِهِم الشائنةِ[1].

بلاغةُ استعمالِ أداةِ النَّفيِ ﴿لَمۡ﴾ دونَ (لَمّا):

أداةُ (لم) تُستعمَلُ في نفيِ ما لا يُرجى وقوعُه، و(لمّا) لما يُرجى وقوعُه

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ أداةَ النَّفْيِ ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِها من أدَواتِ النَّفْيِ كـ(لَمّا)؛ وذلكَ لأنَّ من خصائصِ النَّفْيِ بـ(لَمْ) أنَّها تقلبُ زَمَنَ المضارعِ ماضيًا، فهي حرفُ نَفْيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ، والمنفيُّ بها قَدْ يَكونُ مُنْقَطِعًا، وقدْ يَكونُ مُتَّصِلًا بالحالِ، وقَدْ يَكونُ مُسْتَمِرًّا، في حين أنَّ المَنْفيَّ بـ(لَمّا) مُسْتَمِرُّ النَّفْيِ إلَى حينِ التَّكَلُّمِ، كَما أنَّ منفيَّ (لَمّا) لا يَكونُ إلّا قريبًا مِنَ الحالِ، ولا يُشْتَرَطُ ذَلِكَ في منفيِّ (لَمْ)، فَقَدْ يَكونُ مَنْفيُّها قَريبًا أَوْ بَعيدًا[2]، ولَمّا كانَ المُرادُ في هذا السّياقِ نَفْيَ إيمانِهِم في الماضي، واستمرارَ نَفيِهِ حتى الوقتِ الحاليِّ، مَعَ عَدَمِ تَوَقُّعِ إيمانِهم في القريبِ العاجلِ؛ كانَ استعمالُ ﴿لَمۡ﴾ لِنَفْيِ إيمانِهِم هوَ الأليقَ بالسياقِ، مع الإيماءِ إلى أنَّهم ممّا لا يُرجى إيمانُهم في المستقبل، وبهذا يختلفُ الحكمُ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 143.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 9.

عليهم عن الحكم على الأعرابِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]؛ لأنَّه ممّا يُرجى تحقُّقُه.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

حُبوطُ العَمَلِ ناشِئٌ ومتسبِّبٌ عنْ عَدَمِ الإيمانِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جاءتِ الفاءُ سَبَبِيَّةً، فتسبَّبَ عنْ عَدَمِ إيمانِهم حُبوطُ عَمَلِهم؛ لأنَّ الأعمال لا تصِحُّ بِدونِ الإيمان؛ لِأنَّها باطِلَةٌ مُنْذُ عُمِلَتْ؛ إذْ صِحَّتُها مَشْروطَةٌ بالإيمانِ والإخْلاصِ، وهم مُبْطِنونَ الكُفْرَ، وذَهَبَ بعْضُهم إلى أنَّها حَبِطتْ؛ لأنَّ اللّهَ سُبْحانَه لَمْ يَقْبَلْها، فَكانَتْ كالمُحْبَطَةِ، وعَلى الوَجْهَيْنِ فالمُرادُ بالأعْمالِ العِباداتُ المَأْمورُ بها، وجوِّزَ أنْ يَكونَ المُرادُ بِها ما عَمِلوهُ نِفاقًا وتَصَنُّعًا، وإنْ لَمْ يَكُنْ عِبادَةً، والمَعْنى: فَأَبْطَلَ ﷻ صُنْعَهم ونِفاقَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مُسْتَتْبِعًا لِمَنفعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَصْلًا[1].

براعةُ استعمالِ مفردةِ الإحباطِ:

الإحباطُ بُطلانُ العملِ بعد أن كان مقبولًا في الظّاهر

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالإحباطِ دونَ مرادفات هذا اللفظ؛ وذلك لأنَّ الإحْباطَ هو جَعْلُ شَيْءٍ حابِطًا، فالهَمْزَةُ فيهِ لِلْجَعْلِ مِثْلَ الإذْهابِ، وحقيقةُ الحَبْطِ: فَسادُ ما يُرادُ بِهِ الصَّلاحُ والنَّفْعُ، ويُطْلَقُ مَجازًا عَلى إفْسادِ ما كانَ نافِعًا أوْ عَلى كَوْنِ الشَّيْءِ فاسِدًا، ويُظَنُّ أنَّهُ يَنْفَعُ، يُقالُ: حَبِطَ حَقُّ فُلانٍ؛ إذا بَطَلَ، والإطْلاقُ المَجازيُّ ورَدَ كَثيرًا في القُرْآنِ، فَإحْباطُ الأعْمالِ: إبْطالُ الاعْتِدادِ بِالأعْمالِ المَقْصودِ بِها القُرْبَةُ والمَظْنونِ بِها أنَّها أعْمالٌ صالِحَةٌ لِمانِعٍ مَنَعَ مِنَ الاعْتِدادِ بِها في الدّينِ[2]، والمرادُ بإحباطِ اللّهِ لأعمالِهم أنَّه أبْطَلَ أرْواحَها، فَصارَتْ أجْسادًا لا أرْواحَ لَها، فَلا نَفْعَ لَهم بِشَيْءٍ مِنها؛ لِأنَّها كانَتْ في الدُّنْيا صوَرًا مُجَرَّدَةً عَنِ الأرْواحِ الَّتي هي القُصودُ الصّالِحَةُ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 298.

فَإنَّهم لا قَصْدَ لَهم بِها إلّا التَّوَصُّلُ إلى الأغْراضِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وهَذا إعْلامٌ بِأنَّ مَن كانَتِ الدُّنْيا أكْبَرَ هَمِّهِ؛ فَهو غَيْرُ مُؤْمِنٍ[1].

نكتةُ التَّعْبِيرِ بصيغةِ الماضي:

إحباطُ الأعمالِ متحقِّقٌ بتحقُّقِ عدمِ الإيمان

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكِيمُ عَنْ حُبوطِ أعمالِ المُنافِقِينَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ باسْتِعْمالِ صيغَةِ المُضيِّ ﴿فَأَحۡبَطَ﴾ دونَ صيغَةِ المضارِع (يُحْبِطُ)، وذلكَ لإرادَةِ معْنَى التحقيقِ والثباتِ، أي: قدْ تَحَقَّقَ حُبوطُ أعمالِهم، وثَبَتَ عَدَمُ قَبولِها، وفيه تَخْويفٌ ووعيدٌ لهؤلاءِ المنافقينَ المُخادعينَ.

سِرُّ إسْنادِ الإحْباطِ إلَى لَفْظِ الجَلالَةِ:

أُسْنِدَ الإحباطُ لِـلّـهِ إبْــرازًا لقُدْرَتِه، وتَذْكيرًا بِنَصْرِه، وتأكيدًا لمقاصدِ السّورَةِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإحباطِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ للّهِ تعالى، على الرَّغْمِ مِن ورودِه مَرّاتٍ عديدةً مُسْنَدًا إلى الأعمالِ، فقد وردَ فِعلُ الحبوطِ والإحباطِ ست عشرةَ مرَّةً في القرآنِ الكريمِ، أُسندَ للأعمالِ في اثني عشَرَ موضعًا، وجاءَ الإسنادُ للّه ﷻ في أربعة مواضع فحسب، منها هذا الموضع، وثلاثةٌ منها في سورة محمَّدٍ ﷺ، الّتي هي صِنْوُ سورة الأحزابِ وقَرينَتها، ولعلَّ النَّظْمَ الحَكيمَ قد آثَرَ إسنادَ الحبوطِ لفِعْلِ اللّهِ سُبْحانَه في هذا المَوضِعِ؛ إبْرازًا لقُدْرَتِه على كَشْفِ سرائرِ المُنافقينَ في أشدِّ لحظاتِ المؤمنينَ حرجًا، أي: تلكَ اللَّحَظاتُ الّتي كادوا يُستأصَلونَ فيها، وتَذْكيرًا بأنَّه سُبحانَه كما أنَّه وحْدَه النّاصِرُ، فإنَّه سُبْحانَه هوَ مَنْ سَيُحبِطُ عَملَ هؤلاءِ المُخادِعينَ، وفيه كذلكَ مَزيدُ تأكيدٍ لمقاصدِ السّورَةِ الكريمةِ في حفْظِ جنابِ النُّبوَّةِ من أيِّ أذًى.

نكتةُ استعمالِ العمل دون الفعل:

قـامَ المُنافقونَ بأعمالِهم عن قصدٍ في إيذاء المؤمنين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بـ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ دونَ (أفْعالِهم)؛ إذِ الفِعلُ هوَ التَّأثيرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 320.

مِنْ جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ بإجادَةٍ أَوْ غَيْرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بِعِلْمٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أَوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنْسانِ والحَيَوانِ والجَماداتِ، وأمّا العَمَلُ؛ فَهوَ كُلُّ فِعْلٍ يَكونُ مِنَ الحَيَوانِ بِقَصْدٍ، فَهوَ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ لأَنَّ الفِعلَ قَدْ يُنْسبُ إِلَى الحَيَواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنْها فِعْلٌ بِغَيْرِ قَصْدٍ، وقَدْ يُنْسَبُ إِلَى الجماداتِ، والعَمَلُ قَلَّما يُنْسَبُ إِلى ذَلكَ[1]، ولا يُقالُ العمل إلّا لِما كانَ عَنْ فِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، ولا يَكونُ إلّا مِنَ الإنْسانِ مَصْحوبًا بِقَصْدٍ[2]، وعَلَى هذا فَإنَّ اسْتِعْمالَ مادَّةِ (العمل) يوحي بالرَّوِيَّةِ والقَصْدِ الأكيد، ولذا فقدْ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ المُعْجِزُ كلمةَ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ دونَ كلمةِ (أفعالِهم)؛ لأَنَّهُم قاموا بكلِّ ما أتوه عامِدينَ مُتَعَمِّدينَ، وكانوا حريصين على إتقان أعمالهم في الظّاهر كي لا يُشَكَّ فيهم، ومع ذلك فقد أحبط اللّه أعمالَهم؛ لأنَّها لم تَقُمْ على ركنِها القويم.

دَلالةُ الإضافةِ وحذفِ الصفة في ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾:

تأكيدُ نسبةِ الأعمالِ لَهُم، وانتفاءُ مَكْرِهِم عن الله سُبْحانَه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ الأعمالَ إلى الضَّميرِ (هُم) العائدِ إلى المُنافِقينَ، وذلكَ للتأكيد على نِسْبَةِ هذه الأعمالِ لَهُم، فلا مجالَ لَهُم لِكي يَتَنَصَّلوا مِنْ أَفْعالِهم الشائنة وأعمالِهم الدَّنيئةِ، وحَذَفَ النَّظْمُ صِفَةَ الأعمالِ لِكي تشتملَ على كلِّ ما عَمِلوه.

نكتةُ حذفِ المتعلِّق الزّمانيِّ:

الأملُ في قبولِ التَّوبةِ لا يُسدُّ أمام أحدٍ

أَطْلَقَ البيانُ القُرْآنيُّ الحبوطَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾، فَلَمْ يُقَيِّدْهُ بزمانٍ مُحَدَّدٍ، في حين أَنَّ النَّظْمَ الحكيمَ قَيَّدَه في آياتٍ أُخْرى بأنَّه في الدُّنْيا والآخِرَةِ، ولَعَلَّ في إطلاقِ النَّظْمِ للحبوطِ وعدَمِ تقييدِه بزمانٍ مُعَيَّنٍ إشارةً خفيَّةً لهؤلاءِ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عمل) و(فعل).

(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 616.

المُنافقينَ كيْ يُحَقِّقوا معنى الإيمانِ في قُلوبِهم، فلا تُحبَطُ أعمالُهم في الآخرةِ، وفيهِ كذلكَ فتحٌ لبصيصِ أمَلٍ بقَبولِ تَوْبَتِهم؛ إنْ أحسنوا التَّوبةَ والإنابةَ للّهِ سُبْحانَه.

نكتةُ ذكرِ فعل (كان):

قدرةُ اللهِ تعالى كاملة مطلقة منذ الأزل

ذكرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فِعْلَ (كان)، فلم يقل: (وهوَ يَسيرٌ عَلَى اللّهِ)؛ وذلك لِما في التَّعْبيرِ بهذا الفعلِ تَأْكيدٌ ومُبالَغَةٌ عَلَى قُدْرَتِه سُبْحانَه؛ ليَسْتَقِرَّ هذا المَفْهومُ في عُقولِ المُنافِقينَ خاصَّةً، والمُسْلِمينَ وسائِرِ الخلق كُلِّهِم عامَّةً، حتّى يتيقَّنوا منْ طَلاقَةِ قُدْرَتِه سبْحانَه مُنذُ الأزَلِ.

دلالةُ استعمالِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استحقاقُ المُنافِقينَ لإحباطِ أعمالِهم أمرٌ ظاهِرٌ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ باسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العائِدِ على الإحباطِ؛ للدّلالة على هوانِ تلكَ الأَعْمالِ على اللّهِ ﷻ، و"اسْمُ الإشارَةِ يوضِّحُ المُشارَ إلَيْه أكْمَلَ تَوْضيحٍ، ويُبْرِزُهُ في صورَةٍ حِسّيَّةٍ، تَقَعُ عَلَيْها الإشارَةُ، وتَقولُ فيها كأنَّكَ تراهُ، وذلِكَ لأَهَمِّيَّةِ الإحْباطِ وكَمالِ العِنايَةِ به"[1].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

اللهُ غالبٌ على كلِّ شيءٍ، وإحباطُ أعمالِهم يسيرٌ إلى جِوارِ قُدْرَتِه

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الَّذي يفيدُ الاستعلاءَ المجازيَّ؛ لبيانِ أنَّ اللّهَ سُبْحانَه غالبٌ على كُلِّ شيءٍ، وأنَّ إحباطَ أعْمالِهم أمرٌ لا حُسبانَ له إلى جِوارِ قُدْرَتِه المُطْلَقَةِ وإرادتِه الشّامِلَة.

نكتةُ إظهارِ لَفْظِ الجَلالَةِ:

إظْهارُ الاسْمِ الجَليلِ إشْعارٌ بالهَيْمَنَةِ للهِ القادِرِ الغالِبِ

أظْهَرَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ الجلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إضمارِه، مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وذَلِكَ للإشْعارِ بالهَيْمَنَةِ والسَّيْطَرَةِ، ولَمْ يَخْلُ ذِكْرُ لَفْظِ الجلالةِ مِنْ دلالَةٍ عَلَى هذه

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 145.

المعاني، والمَقامُ مَقامُ ذِكْرِ إِحْباطٍ لأَعْمالِ فئةٍ باغيةٍ، تُعادي اللّهَ ورسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ، والإحباطُ لا يكونُ إلّا مِنْ إلَهٍ قادرٍ غالبٍ[1].

دَلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ:

إبطالُ الأعمالِ مِن خصائص الألوهيَّة لا من أحكام البشر

قَدَّمَ البيانُ القُرْآنيُّ شِبْهَ الجُمْلَةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ على خبرِ (كان)؛ إيذانًا بالاخْتِصاص، وإفادَةً لِحصْرِ القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ عَلَى فعلِ أيِّ شيءٍ فيهِ وحدَه سُبْحانَه، "بِما لَهُ مِن صِفاتِ العَظَمَةِ الَّتي تَخْشَعُ لَها الأَصْواتُ، وتَخْرَسُ الأَلْسُنُ الذَّرِباتُ"[2]، وفيه أنَّه ليس لأحدٍ أن يحكمَ على بطلانِ عملِ أحدٍ إلّا بإذنِ اللّه تعالى.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿يَسِيرًا﴾:

اليُسْرُ سُهولَةٌ مع عِزَّةٍ وتمكُّن

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ اليسيرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ دونَ الألفاظِ المرادفةِ؛ لأَنَّ اليُسْرَ توصَفُ بِهِ الأَحْوالُ والأَعْمالُ، وفي إيثارِ هذا اللَّفْظِ على غيرِه إشارةٌ إلى أَنَّ هؤلاءِ - لمّا كانَ مِنْهُم ما كانَ - لمْ تكنْ لَهُم مَنْزِلَةٌ عِنْدَه سُبْحانَه، فكانَ إِحْباطُ أَعْمالِهم وبِرِّهِم يَسيرًا عليه، لِهَوانِهم عنده سبحانه[3].

وتَخْصيصُ يُسْرِ إحباطِ هَذِهِ الأعمالِ بالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عليه تَعالى يَسيرٌ؛ لِبَيانِ اسْتِحقاقِ أَعْمالِهم للإِحْباطِ المَذْكورِ لِكَمالِ تَعاضُدِ الحِكَمِ المُقْتَضِيَةِ لَهُ، وعَدَمِ مانعٍ عَنْهُ بِالكُلِّيَّةِ[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليَسيرُ والهَيِّنُ:

اليُسْرُ سُهولَةٌ مع عِزَّةٍ، والهَيِّنُ أمرٌ سَهلٌ مع إيحاءٍ بالخِفَّة

اليُسْرُ توصَفُ بِهِ الأَحْوالُ والأَعْمالُ، والسُّهولَةُ توصَفُ بها الأعمالُ والأشياءُ، تقولُ: نَحْنُ في حالِ يُسْرٍ، ولا يُقالُ: حالٌ سَهْلٌ، ولِذَلكَ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 320.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.

يُعَبَّرُ عَنْهُ بِالسَّعَةِ والغِنَى والرَّخاءِ، وأَيْسَرتَ؛ إذا صِرتَ ذا سَعَةٍ وغِنًى، وتقول: سَهُلَ، ويَسُرَ عَلَيَّ القيامُ بِهَذا العَمَلِ، ويَأْتي اليُسْرُ بِمَعْنَى القِلَّة؛ لأنَّ شَأْنَ الشَّيْءِ القَليلِ أنْ يَكونَ يَسيرًا تَحَمُّلُهُ، والهَونُ توصَفُ بِهِ الأعْمالُ والعَوارِضُ الَّتي تَعْرِضُ لِحَياةِ الإنسانِ، فَإذا وُصِفَتْ بِهِ الأعمالُ؛ فَهوَ كالسُّهولةِ، إلّا أنَّكَ لَوْ قُلتَ: هذا العملُ عَلَيَّ هَيِّنٌ، فَقَدْ عَدَدْتَهُ سَهْلًا، وجعلْتَه لا شيءَ بجانِبِ قوَّتِكَ واسْتِطاعَتِكَ؛ وذَلِكَ لأنَّ في لفظِ هيِّنٍ نوعًا من الاستخفافِ[1].

(1) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، وتاج العروس: (سهل) و(هون) و(يسر).

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾ [الأحزاب: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المنافقون يزدادون جبنًا وخسّةً وذهابُ الأحزابِ لا يُغيِّر من حالهم

لَمّا ذكرتِ الآيات السّابقةُ مواصفات المُنافِقينَ والَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ مِن فِتْنَتِهِمْ في المُسْلِمينَ، وقارنت الآياتُ بين حاليهم عند مجيءِ الخوفِ وذهابِه؛ ناسب أن يذكرَ حقيقةَ حالِ الأحزابِ في هذه اللحظات، وهي تومِئ إلى أنَّ القومَ قد أصابهم الشُّعور بالأمانِ، فانطلقت ألسنتهم بسوءِ المقال، فأخبرت الآيةُ عن انْكِشافِ جُنودِ الأحْزابِ عَنْهم، فَأفادَ بِأنَّ انْكِشافَ الأحْزابِ حَصَلَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ المُنافِقينَ؛ فَلِذَلِكَ كانوا يَشْتَدّونَ في مَلامِ المُسْلِمينَ، ويَسْلُقونَهم بِألْسِنَةٍ حِدادٍ عَلى أنْ تَعَرَّضوا لِلْعَدوِّ الكَثيرِ، وكانَ اللّه ساعَتَئِذٍ قَدْ هَزَمَ الأحْزابَ، فانْصَرَفوا، وكَفى اللّه المُؤْمِنينَ شَرَّهم، ولَيْسَ لِلْمُنافِقينَ وساطَةٌ في ذَلِكَ، ولَعَلَّهم كانوا لا يَوَدّونَ رُجوعَ الأحْزابِ دونَ أنْ يَأْخُذوا المَدِينَةَ[1]، فَفي الآية بيانٌ لشِدَّةِ خوْفِهم وجُبْنِهم وهَلَعِهم وسوءِ طَويَّتِهم، وأنَّه لو رجعَ الأحزابُ؛ لرجعوا إلى سابق عهدِهم بل أشدَّ منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾: (حزب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ، فَمِنْ ذَلِكَ الحِزْبُ الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حِزْبٌ، يُقالُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 300.

قَرَأ حِزْبَهُ مِنَ القُرْآنِ[1]، وحَزَبَ الأمرُ، فَهوَ يَحْزُبُ حَزْبًا؛ إذا نابَكَ؛ فَقَدْ حَزَبَك، والحِزْبُ: أصحابُ الرجل مَعَهُ على رَأْيه، وكُلُّ قوم تَشاكلت قُلوبُهم وأعْمالُهم؛ فَهُمْ أحْزابٌ، وتَحَزَّبَ القومُ؛ إذا تَجَمَّعوا؛ فصاروا أحْزابًا، والحِزْبُ: النَّصيبُ، يُقال: أعْطِني حِزْبي مِنَ المالِ، أي: حَظّي ونَصيبي[2]، وحَزَبَ قَوْمَهُ، فَتَحَزَّبوا، أي: صاروا طَوائِفَ، وفُلانٌ يُحازِبُ فُلانًا: يَنْصُرُهُ، ويُعاضِدُهُ[3]، والأحْزابُ: جُنودُ الكُفّار، تألَّبوا، وتَظاهَروا عَلَى حزبِ النَّبيِّ ﷺ، وهُمْ: قُرَيْشٌ وغَطَفانُ وبَنو قُرَيْظَةَ[4].

2) ﴿يَوَدُّواْ﴾: (ودّ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ودِدْتُه: أحْبَبْتُهُ، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تَمَنَّيْتَهُ، وفي المَحَبَّةِ الوُدُّ[5]، فالوُدُّ مَصدرٌ للمَوَدَّةِ، وكَذَلِكَ الوِدادُ، والودادة مصدر ودِدْتُ أوَدُّ، وهوَ مِن الأُمْنيَّة، وفلانٌ وِدُّكَ ووَديدُك، كَما تَقول: حِبُّك وحَبيبُك، ويُقال في الحُبِّ: الوُدُّ والوَدُّ والمَوَدَّةُ والمَوْدَدَةُ[6]، والمَعْنَى المِحْوَريُّ التَّلازُمُ والتَّماسُكُ المُمْتَدُّ، مَعَ رِفْقٍ أوْ لينٍ، للاحْتِواءِ على مادَّة ذلك[7]، والوُدُّ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ، وتَمَنّي كوْنِه، ويُسْتَعْمَلُ في كُلِّ واحدٍ مِنَ المَعْنَيَيْنِ، عَلَى أنَّ التَّمَنّيَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الوُدِّ؛ لأنَّ التَّمَنّيَ هوَ تَشَهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ[8]، وثَمَّةَ فَرقٌ بينَ الودِّ والتَّمنّي، وهوَ أنَّ الودَّ للمُمْكنِ وغيرِ الممكنِ، والتَّمنّي غالبًا للمُحالِ والمُسْتَبْعَدِ.

3) ﴿بَادُونَ﴾: (بدو) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ظُهورُ الشَّيْءِ، يُقالُ: بَدا الشَّيْءُ يَبْدو؛ إذا ظَهَرَ، فَهوَ بادٍ، وسُمّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لأنَّهُمْ في بَرازٍ مِنَ الأرْضِ، ولَيْسوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أبْنيَتُها، والباديَةُ خِلافُ الحاضِرَةِ[9]، أي: تظهرُ فيها الأشياءُ، أو يكونُ عَلَى النَّسَبِ، أي: ذاتُ بَدْوٍ[10]، والمعنى: أن يكونَ هؤلاء المنافِقون فاعِلينَ لِلْبَدْوِ، وهو الإقامَةُ في الباديَةِ عَلى حالَةِ الحَلِّ والارْتِحالِ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حزب).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: (حزب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حزب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ودد).
(8) الراغب، مفردات القرآن: (ودد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بدو).
(11) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 321.

4) ﴿أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾: (نبأ) قياسُهُ الإتْيانُ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ مِنْ أرْضٍ إلَى أرْضٍ نابِئٌ، وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ، ومِنْ هَذا القياس النَّبَأ: الخَبَرُ؛ لِأنَّهُ يَأْتي مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ، والمُنْبِئُ: المُخْبِرُ، وأنْبَأْتُه ونَبَّأْتُهُ، والنَّبْأةُ: الصَّوْتُ، وهَذا هوَ القياسُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ مِنْ مَكانٍ إلَى مَكانٍ[1]، وجَمْعُ النَّبأ: أنْباءٌ، وإنَّ لِفُلانٍ نَبَأً، أي: خَبَرًا[2]، والنَّبأ خبرٌ ذو فائِدةٍ عَظيمَةٍ، يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبَرِ في الأصلِ: نَبَأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحَقُّ الخبرِ - الَّذي يُقال فيه: نَبَأٌ - أنْ يَتَعَرَّى عنِ الكَذِبِ، كالتَّواتر، وخَبَرِ اللهِ تعالَى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، ولتضمُّن النَّبأِ معنى الخبر يقالُ: أنْبَأْتُهُ بِكَذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمُّنه مَعْنَى العلم؛ قيل: أنْبَأْتُه، والمرادُ بالأنباءِ: أخْبارُ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِهِ، فهُم يسألون: أما هَلَكَ مُحَمَّدٌ وأصْحابُهُ؟ أما غَلَبَ أبو سُفْيانَ وأحْزابُهُ[3]؟.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الأخلاقِ الملازمةِ للمنافقين بما يصدرُ عنهم من الأفعال

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ صِفاتِ المنافقين القبيحةَ في الجُبنِ والبُخْلِ والخَوْفِ المُلازِمة لَهُم عَلَى الدَّوام، فهي لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أمرٍ عارِضٍ مؤقَّتٍ، فقال: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواۖ﴾، أي: يَظُنّونَ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ والفَزَعِ أنَّ أحْزابَ الكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وغَطَفانَ وبَني قُرَيْظَةَ لَمْ يَرْحَلوا، ولَمْ يَنْهَزِموا، وأنَّ لَهُم عودةً إلَى الحِصارِ والحربِ، فَكَأنَّهُم عِنْدَ حضورِهم غائِبونَ عنِ السّاحَةِ حيثُ لا يُقاتِلونَ، مع أنَّ الأحزابَ رَحَلوا، وانْهَزَموا، ولَنْ يَعودوا، وإنْ يَعُدِ الأحْزابُ إلَى قِتالِكُم؛ يتمنَّوا أنَّهُم لا يكونونَ حاضِرينَ مَعَكُم في المَدينَةِ وبَينَ المُقاتِلينَ، بَلَ يَكونونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(3) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 387.

في الباديةِ يَسْألونَ عنْ أخْبارِكُم، وما كان مِنْ أمْرِكُم مَعَ عدوِّكم للشَّماتَةِ بِكُم، وانتظارِ وُقوعِ السّوءِ بِكُم، جُبْنًا وخَورًا في العَزائِم، ولَوْ كانَ هؤلاءِ المُنافِقونَ مَعَكُم في ساحةِ المَعْرَكةِ؛ لما قاتَلوا إلّا قِتالًا يَسيرًا وزَمَنًا قَليلًا؛ لاسْتيلاءِ الجُبْنِ والضَّعْفِ عليهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيةِ عَمّا قَبْلَها:

ارتباطُ النَّصْرِ بمنَّةِ اللهِ على المؤمنينَ بنجاتِهم من كيدِ الأحزابِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جملةَ: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ عَمّا قَبْلَها، وهوَ قوْلُه سبحانَه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ تُعدُّ اسْتِئْنافًا ابْتدائيًّا مُرْتَبطًا بقَوْلِه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ [الأحزاب: 9]، جاءَ عَوْدًا عَلى بَدْءٍ بِمُناسَبَةِ ذِكْرِ أحْوالِ المُنافِقينَ، فَإنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾، يُؤْذِنُ بانْهِزامِ الأحْزابِ ورُجوعِهِمْ عَلى أعْقابِهِمْ، أيْ: وقَعَ ذَلِكَ، ولَمْ يَشْعُرْ بِهِ المُنافِقونَ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى: أنَّهم كانوا يَسْلُقونَ المُؤْمِنينَ اعْتِزازًا بِالأحْزابِ؛ لِأنَّ الأحْزابَ حُلَفاءُ لِقُرَيْظَةَ، وكانَ المُنافِقونَ أخِلّاءَ لِلْيَهودِ، فَكانَ سَلْقُهُمُ المُسْلِمينَ في وقْتِ ذَهابِ الأحْزابِ، وهم لا يَعْلَمونَ ذَلِكَ، ولَوْ عَلِموهُ؛ لَخَفَّضوا من شِدَّتِهِمْ عَلى المُسْلِمينَ، فَتَكونُ جُمْلَةُ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ حالًا من ضَميرِ الرَّفْعِ في ﴿سَلَقُوكُم﴾، أيْ: فَعَلوا ذَلِكَ حاسِبِينَ الأحْزابَ مُحيطِينَ بِالمَدينَةِ ومُعْتَزّينَ بِهِمْ، فَظَهَرَتْ خَيْبَتُهم فيما قَدَّروا[1]، وعليه فجملةُ الحال تابعةٌ لفعل ﴿سَلَقُوكُم﴾، فلا فصل.

نكتةُ استعمال مفردة ﴿يَحۡسَبُونَ﴾:

الحُسْبانُ ظنٌّ ممزوجٌ بحسابٍ وجمعٍ للأدلَّةِ

جاءَ استعمالُ مفردة الحسبان في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾؛ لأنَّ الحُسْبان هوَ الظَّنُّ القائمُ عَلَى حِسابٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

حِسّيٍّ، وقَلْبيٍّ، أو الاعْتِقادُ القائِمُ عَلَى النَّظَرِ والتَّجْرِبَةِ[1]، فالحسبان ظنٌّ مع جمعِ المظنونِ كلِّه، كأنَّه جمع كما يجمع العادُّ، ثم يأتي الظَّنُّ الذي هو ممزوج بالحساب، فهو أدقُّ من الظَّنِّ وأشمل، فالحُسْبانُ قائِمٌ عَلَى الحِسابِ والنَّظَرِ العَقْليِّ، بِخِلافِ الظَّنِّ الَّذي يَدْخُلُ الذِّهْنَ ويُلابِسُهُ لأَدْنَى سَبَبٍ[2]، ومِنْ هُنا فقدْ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى حِرْصِ المُنافقينَ على هَزيمةِ المسلمينَ، فَهُم يُراجعونَ حساباتِ القوَّةِ في عُقولِهم المرَّةَ تِلوَ المَرَّةِ، راغبينَ في انكسارِ المسلِمينَ وهَزيمَتِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

خوفُ المنافقين متجدِّدٌ في الواقع والأوهام

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواۖ﴾ بصيغَةِ المُضارَعةِ، دونَ صيغَةِ المُضيِّ؛ إشارَةً إلى تجدُّدِ فِعْلِ الحُسبانِ في عقولِ المُنافقينَ المرَّةَ تِلْوَ الأخرى، فأشعَرتِ المُتلَقّي بأنَّ القومَ كأنَّهُم لا يَزالونَ إلى اليوم خائفينَ، تتوارَدُ على خَواطِرِهم الأوهامُ، تُريهُم الأحزابَ حولَ الخَنْدَقِ رابضينَ، فالمضارعُ يُحضِرُ هذا الحدثَ الأهمَّ الدالَّ على انْخِلاعِ القُلوبِ، ويُصَوِّرُهُم في حُسْبانِهم وظُنونِهم وأوْهامِهم، كأنَّهُم يَعُدّونَ هذِه الخواطِرَ والظُّنونَ على أصابِعِهم في عَتَهٍ وخَنَقٍ وجُنونٍ[3].

نكتةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ دونَ الظّاهِرِ:

الإشارةُ إلى المنافقين تهوينٌ لشأنِهم وتصغيرٌ لواقعهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواۖ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالضميرِ في فعلِ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ دونَ إظْهارِ الاسم (المنافقين)؛ وذَلِكَ لأنَّ السِّياقَ كُلَّه حديثٌ مُتَّصِلٌ عنِ المُنافِقينَ، فلا مجالَ لانصرافِ الضَّميرِ إلى غَيْرِهم، فآثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعْبيرَ بالضَّميرِ للإيْجازِ والاخْتِصارِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بالضَّميرِ في

(1) محمد الهلال، تفسير الثري الجامع: 8/ 85.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 23 - 24.
(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 148.

هذا السّياقِ يوحي بأنَّهم لِهَوانِهم على اللّهِ لا يَسْتَحِقّونَ الذِّكْرَ، وإن ذُكِروا؛ فلذمِّهم.

غرضُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ عَنِ الكُفّارِ:

خطورةُ الكفرِ كانت في تحزُّبِه على المؤمنين

آثر النَّظْمُ استعْمالَ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ دون الكفار في قوْلِه تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾؛ إظْهارًا لما تَعَرَّضَ لَه المسلمونَ من تألُّبِ ظالمٍ وجَمْعٍ غادرٍ تَوَجَّه نَحْوَهُم؛ لِيَسْتأصِلَ وُجودَهم في المدينةِ المُنَوَّرَة، فالمُحاصِرونَ للمدينةِ قوم تَشاكلت قُلوبُهم وأعْمالُهم، فَهُمْ أحْزابٌ يَبْغونَ هلاكَ الإسلامِ والمسلمين، ومِنْ ثَمَّ فَإنَّ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ (الكُفّارِ) لا يُناسبُ خصوصيَّةَ السورةِ، وما عَرَضَتْ لهُ من تفاصيلِ غَزْوَةِ الأحزابِ، وما وقعَ فيها من أحْداثٍ هائِلَةٍ وخوفٍ شديدٍ على استئصالِ بَيضَةِ الإسلامِ ومَعْقِلِ الإيمان، ولبيانِ أنَّ الخطورةَ كانت في تحزُّبِ الكفّارِ على المؤمنين، وأنَّ اللّه وحدَه هو القادرُ على كسرِ شوكتِهم، وتمزيقِ وحدتِهم.

دلالَةُ جَمْعِ لفظِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾:

الأحزابُ جموعٌ هائلة، تَشَكَّلَتْ من طوائفَ مختلفةٍ، وأماكن متفرِّقة

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ جَمْعًا؛ لتدلَّ على تلكَ الجُموعِ الهائِلَةِ الَّتي جَمَعها أبو سفيانَ لحربِ المسلمين، فقدْ كانَ جَيشُه مُؤَلَّفًا من أحزابٍ عدَّةٍ، فَقَدْ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ في أحابيشِها، ومَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ العَرَبِ مِنْ كِنانَةَ وأهْلِ تِهامَةَ، فَكانوا أرْبَعَةَ آلافٍ، وخَرَجوا يَقودُهُمْ أبو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ، ووافَقَهُمْ بَنو سُلَيْم بِمَرِّ الظَّهْرانِ، وهُمْ سبعُمئَة يَقودُهُمْ سُفْيانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ حَليفُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وخَرَجَتْ مَعَهُمْ بَنو أسَدٍ، يَقودُهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خوَيْلِدٍ، وخَرَجَتْ قَبائِلُ غَطفانَ: بَنو فزارَةَ، وهُمْ ألْفٌ يَقودُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وبَنو مُرَّةَ، وهُمْ أربعُمئةٍ، يقودهمُ الحارثُ بْنُ عَوْفٍ، وبَنو أشْجَعَ، وهُمْ أربعُمئةٍ، يَقودُهُمْ مِسْعَرُ بْنُ رُخَيلة، وخَرَجَ مَعَهُمْ قَوْمٌ آخَرون، فَكانَ جَميعُ الذينَ وافَوْا الخَنْدَقَ عَشَرَةَ

آلافٍ[1]، فجاءت الكلمةُ جمعًا؛ لِتُعَبِّرَ عن هذه الجموعِ الكثيفةِ الَّتي تآلَبَتْ على حرب المسلمينَ، فهُم طوائفُ متعدِّدَةٌ، اجتمعتْ لهدَفٍ واحدٍ، فهيَ أحْزابٌ كثيرةٌ لا حزبٌ واحدٌ.

نكتةُ النَّفْي بأداةِ ﴿لَمۡ﴾:

غيابُ الإيمانِ عن قلوبِ المنافِقينَ لم يجعلهم يرجون ذهابَ الأحزابِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ أداةَ النَّفْي ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِها من أدواتِ النَّفْيِ؛ وذلكَ لأنَّ من خصائص النَّفْي بـ(لمْ) أنَّها تَقْلِبُ زمنَ المضارعِ ماضيًا، فَهيَ حرفُ نَفْيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ، والمَنْفيُّ بها قَدْ يَكونُ مُنْقَطِعًا، وقدْ يَكونُ مُتَّصِلًا بالحالِ، وقدْ يكونُ مُسْتَمِرًّا[2]، ولمّا كانَ المُرادُ في هذا السّياقِ التَّعبيرَ عنْ مدى شَكِّ المنافِقينَ وسوءِ ظَنِّهم باللهِ، فهُم يَنْفونَ ذَهابَ الأحزابِ في الماضي القريبِ، أو في الوقتِ الحاليِّ، وهوَ تلك اللحظاتُ القريبةُ من المناوشاتِ الَّتي جَرتْ، وبعدَ هبوب الرياحِ عَلَى جيوشِ الأحزابِ، فكانَ استعمالُ ﴿لَمۡ﴾ لِلتَّعبيرِ عن الأليقِ بالسياقِ، والتَّعبيرِ عن سَيْطَرةِ الشَّكِّ في انتِصارِ المسلمينَ على عقولِ المُنافقينَ وقُلوبِهم، ولو قال: (لمّا يذهبوا)؛ لكان هناك رجاءٌ عند المنافقين بذهابهم، لكنَّ الآية تُبيِّن أنَّ المنافقين لم يرجوا ذهاب الكفّار، بل لم يحسبوا ذلك، وهو دالٌّ على أنَّ قاعدة الإيمان والثِّقة بالله تعالى غائبةٌ عن وعيهم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ المَنْفيِّ:

شِدَّةُ خوفِ المُنافِقينَ دعتهم إلى عَدَمِ تَصَوُّرِ إمكانِ هَزيمةِ الأحزابِ

دَلَّ التَّعْبيرُ بالمُضارعِ المَنْفيِّ ﴿لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الخوْفِ من نُفوسِ هؤلاءِ المنافِقينَ، فَهُم مِنَ الجَزَعِ والدَّهْشَةِ لِمَزيدِ جُبْنِهِمْ وخَوْفِهِمْ بِحَيْثُ هَزَمَ اللهُ الأحْزابَ، فَرَحَلوا، وهم يَظُنّونَ أنَّهم لَمْ يَرْحَلوا، وقيلَ: المُرادُ أنَّ هَؤُلاءِ لِجُبْنِهِمْ يَحْسَبونَ الأحْزابَ لَمْ يَنْهَزِموا

(1) ابن كثير، البداية والنهاية: 3/ 278.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 9.

- وقَدِ انْهَزَموا - فانْصَرفوا عَنِ الخَنْدَقِ راجعينَ إلى المَدينَةِ لِذلك، فالظّاهِرُ أنَّهُ مَأْخوذٌ من قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ لِدلالَتِه ظاهِرًا عَلى أنَّهم خارِجونَ عَنْ مُعَسْكَرِ رَسولِ اللّه ﷺ يَحُثّونَ إخْوانَهم عَلى اللَّحاقِ بِهِمْ، وكَوْنُ المُرادِ هَلُمّوا إلى رَأْينا، أوْ إلى مَكانِنا الَّذي هو في طَرَفٍ لا يَصِلُ إلَيْهِ السَّهْمُ خِلافُ الظّاهِرِ، وكَذا مِن قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ عَلى ما هو الظّاهِرُ أيْضًا؛ إذْ يَبْعُدُ حَمْلُهُ عَلى اتِّحادِ المَكانِ، ولَوْ في الخَنْدَقِ[1]، والتَّعبيرُ دالٌّ كذلكَ على هزيمَتِهم النَّفْسيَّةِ لعدَمِ إيمانِهم، فَهُم لا يتصوَّرون إمكانَ هَزيمَةِ الأحزابِ بقوَّةِ اللّهِ ومَنِّه وكرَمِه.

نكتةُ استعمالِ أداةِ (إن):

نُفوسُ المنافقينَ مُهَيَّأةٌ للتَّولّي والفِرارِ وتَركِ مجابهةِ الكُفّارِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بأداةِ الشَّرْطِ (إنْ) - دونَ الظَّرْفِ المُفيدِ للشَّرْطِ (إذا) - الَّتي تفيدُ القطعَ بوقوعِ شرطِها غالبًا، أمّا (إنْ)؛ فإنَّها إنَّما تُستَعْمَلُ لغيرِ المقطوعِ بوقوعِه، الَّذي يحتملُ الشَّكَّ، وفي ذلكَ بُشْرى للمُسْلِمينَ بانْتِصارِهِم عَلَى عدوِّهم الَّذي أحْدَقَ بِهِم، وأفادَت كَذَلِكَ أنَّ عَوْدَةَ الأحْزابِ - وإنْ كانَ أمْرًا غيرَ مقْطوعٍ به - يكونُ مبعَثًا لِهذِه الوِدادَةِ مِنَ المُنافقينَ، فَنُفوسُهم مُهَيَّأةٌ دائمًا للتَّولّي والفِرارِ، والاسْتِقْبالُ في (إن) يُفيدُ أنَّ ما كانَ مِنْهُم في الماضي هوَ الكائِنُ مِنْهُم الآن، والَّذي سيَكونُ مِنْهُم في المُسْتَقْبَلِ، وهوَ المُتَجَدِّدُ مَعَ تَجَدُّدِ هذا الزَّمانِ، فالجُبْنُ فيهم جِبلَّةٌ لا تَزولُ[2].

نُكتةُ تَكرارِ لفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾:

تـكـرارُ ذكـرِ المـخـوفِ منه إيماءٌ إلى تردّي الخائفِ منه

آثر النَّظم الكريمُ إظهارَ لفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ دون إضمارِه احتراسًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.

عن تداخُل الضَّمائرِ بينَ المنافِقينَ والأحزاب، كما أنَّ الإتيانَ بكلمةِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مُظْهَرةً تعبيرٌ عن السَّبَبِ الأوَّلِ في هَلَعِ المُنافِقينَ وخَوْفِهم، فأبانَ النَّظْمُ عنْ مَكْمَنِ خَوْفِهم وفقَ حُسْبانِهم وظَنِّهم.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بِلفظِ (الوُدِّ):

رغبةُ المنافقين أن يكونوا في الباديةِ اختيارُ العقل والقلب

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بلفظِ الوُدِّ دونَ التَّمَنّي؛ لأنَّ الوُدَّ أعَمُّ مِنَ التَّمَنّي، إذِ التَّمَنّي غالبًا ما يكونُ فيما يُظَنُّ أنَّه مِنْ قَبيلِ المُحالِ أوِ المُسْتَبْعَدِ، ولمّا كانَ فِرارُ المُنافِقينَ مِنَ الأُمورِ المُمْكِنَةِ بالنِّسْبَةِ لَهُم؛ ناسب ذكر الودِّ، فالفِرارُ أَمْرٌ في مَقْدورِهم، بل همْ مُعتادونَ عليه، بالإضافةِ إلى أنَّ الوُدَّ هوَ مَحَبَّةُ الشَّيْءِ، وتَمَنّي حُدوثِه[1]، فقدَ يتمنَّى الإنسانُ الشَّيْءَ، ولا يُحِبُّه، كتَمَنّي الموتِ لِمَنْ بَلَغَ بِه المَرَضُ مَبلغَهُ، أمّا الوُدُّ؛ فهو تَمَنّي الشَّيءِ مَعَ مَحَبَّتِه، وهَؤلاءِ المُنافِقونَ لِفَرْطِ جُبْنِهم وهَلَعِهم يُحِبّونَ الفِرارَ، ويَتَمَنَّونَه؛ ضيقًا بالمُسْلِمينَ ورَغْبَةً في هَزيمَتِهم، وإنَّ تأمُّلَ وقْعِ كلمةِ ﴿يَوَدُّواْ﴾ يَكْشِفُ بِجَلاءٍ عنْ أنَّ هذِه الرَّغْبَةَ قدْ خالَطَتْ قُلوبَهم، ومَسَّتْ شِغافَها، فَقدْ عَظُمَتْ فيها رَغْبَتُهم، وتَمَنَّتْها أرْواحُهم، وجاشَتْ بِها سَرائِرُهم[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ:

ودُّ المُنافِقينَ الذَّهابَ في الباديةِ سجيَّةٌ نابعةٌ من حميَّة

جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المضارِعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ رَغْبَةِ المُنافِقينَ في الذَّهابِ إلى الباديةِ واسْتِمْرارِها في حالِ إتْيانِ الأحزابِ مرَّةً أُخْرى إلى حَصارِ المَدينةِ، أيْ: "يَتَجَدَّدُ لَهم غايَةُ الرَّغْبَةِ مِنَ الجُبْنِ وشِدَّةِ الخَوْفِ"[3]، فليسَ الأمْرُ تفكيرًا عارضًا، إنَّما هيَ رَغْبَةٌ مستَمِرَّةٌ لا

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ودد).

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

تَنْقَطِعُ، وذَلِكَ لجِبِلَّةِ الخَوْفِ الَّذي تَمَكَّن من قُلوبِهم، بل إنَّ الفعل لَيدُلُّ على أنَّهم فكَّروا بذلك مرارًا حتَّى أصبح ودُّهم لهذه القضيَّة سجيَّة لهم.

دَلالَةُ الإضمارِ بِواوِ الجَماعَةِ:

النَّظمُ القرآنيُّ يقتصدُ في ذكرِ المعرَضِ عنهم

أعْرَضَ النَّظْمُ الحكيمُ مَرَّةً أُخْرى عنْ ذِكْرِ اسمِ المُنافِقينَ مُظْهَرًا في النَّصِّ الكريم، وآثَر التَّعبيرَ عَنْهُم بالضَّميرِ (واوِ الجَماعَةِ)، رغْمَ بُعدِ المَسافَةِ عن أقربِ إظهارٍ لاسمِهم وصِفَتِهم في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب: 12]، وقَوْلِه: ﴿۞قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وذَلِك لِأمرين: **الأوَّل**: أنَّ السّياقَ كُلَّهُ يَدورُ حول بيانِ مَوْقِفِهم، فَلا حاجةَ للإطنابِ بإعادَةِ ذِكْرِهم، ولأنَّ الضَّمائِرَ مِنَ الوضوحِ بحَيثُ لا تتَداخل مع غَيْرِهم، خاصَّةً معَ التَّصْريحِ باسمِ الأحْزابِ مُظْهَرًا في الآيةِ نَفْسِها، **والآخر**: أنَّ النَّظْمَ الحَكيمَ يُعْرِضُ عَنْ ذِكْرِهم للتَّقليل من اسمِهم في مواطنِ الشَّرف.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِأداةِ ﴿لَوْ﴾:

حملتْ أداةُ (لو) معنى التَّمنّي من سياقِ الكلام

استعمل النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ حرف ﴿لَوْ﴾، وقدْ حَمَلَتْ ﴿لَوْ﴾ هَهُنا مَعْنَى التَّمَنّي[1]؛ لأنَّها ورَدَت بَعْدَ الفعل ﴿يَوَدُّواْ﴾[2]، فَأكَّدَتْ شِدَّةَ رَغْبَتِهم في الفِرارِ خَورًا وجُبْنًا، فَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أيَّ مَخرَجٍ للهَرَبِ مِنَ القِتالِ والفِرارِ من مُعَسكَرِ المُؤمنينَ.

دَلالَةُ التَّأْكيدِ وغرضِه:

التَّأكيدُ يكونُ لبيانِ شدَّةِ الرَّغبةِ والحرصِ

أكَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ شِدَّةَ رَغْبَةِ المُنافقينَ في الفِرارِ إنْ عاوَدَ الأحْزابُ الكَرَّةَ مَرَّةً أخرى، باسْتِعمالِ الجُمْلَةِ الاسميَّةِ المُؤَكَّدَةِ بـ(أنَّ)

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 301.

في قولِه تعالى: ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، وعَدَلَ عنِ استِعمال الجملةِ غيرِ المُؤَكَّدَةِ، فَلَمْ يقل: (يَوَدّوا لَوْ هُمْ بادونَ في الأَعْرابِ)، وفي هذا العُدولِ دَليلٌ على شِدَّةِ رَغْبَتِهم في الفرارِ خَوْفًا مِنَ الأحزاب.

دَلالَةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

المنافقون يودّون الانغماسَ في الأعرابِ دون القلقِ من الأحزابِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ التَّعْبيرَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾، دونَ الظَّرْفِ (مع)، فلمْ يَقُلْ: (بادونَ معَ الأعرابِ)؛ لأنَّ ﴿فِي﴾ هَهُنا دالَّةٌ على الظَّرْفيَّةِ المَكانيَّةِ، فَكأنَّ الأعرابَ أَصْبَحوا بمنزلة وعاءٍ يَحْتَويهم؛ "ليَكونَ أكثرَ تصويرًا للمُخالطةِ، حتَّى لكأنَّهُم يعيشونَ في خيامِهم، يَوَدّونَ ذلكَ معَ ما يَعْرِفونَه مِنْ غِلْظَتِهم"[1].

براعةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

تفضيلُ المنافقين لأصعبِ أنواعِ الحياةِ على البقاءِ في الخطرِ

آثَرَ النَّظْمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عنْ سُكّانِ الباديَةِ بالأعراب في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾؛ إذِ الأَعْرابُ: هم سُكّانُ البَوادي بالأصالَةِ، وذلكَ لأنَّ الأعرابَ عِنْدَ المُنافقينَ في مَحَلِّ النَّقْصِ، ومِمَّنْ تُكْرَهُ مُخالَطَتُهُ[2]، أيْ: إنَّهم يَوَدّون الالتِحاقَ بِمَنازِلِ الأَعْرابِ لشدَّة هَلَعِهم وجُبْنِهم، حتَّى إنَّهم يرغبونَ في مخالطة هؤلاءِ الأعرابِ الَّذينَ هُم أغلظُ النّاس قُلوبًا وأَجْفاهُم طبْعًا؛ خَوْفًا مِنَ القَتلِ، وتَخذيلًا عن المؤمنينَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَة المُضارع:

استقرارُ الخوف والاضطراب في قلوب المنافقين

آثَرَ النَّظْمُ التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لتصوير حالهم المتجدِّدة في السُّؤالِ عن أخبارِ المؤمنين في كلِّ وقت، مع استحضارٍ لِلَهفَتِهم وقَلَقِهم واضْطِرابِهم وخوفهم، فهُم يبحثون عن أخبار النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين بالاستخبار لا بالمشاهدة فرقًا وجبنًا.

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 149.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 321.

توجيهُ القِراءات القرآنيّة:

المنافقون يسألون النّاس عن المؤمنين ويتساءلون فيما بينهم

وَرَدَت في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ قراءتان، فَقَرَأ الجُمْهورُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ عَلى (يَفْعَلون)؛ لأنَّهم كانوا يَسألونَ عَنِ الأَخْبارِ مَنْ قَدِمَ عليهم، وقَرَأ رويس ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾ بتَشديدِ السّينِ وألف بعدها[1]، فمَنْ قَرَأ ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾: فالأصْل: (يَتَساءلون)، فَأُدْغِمَتِ التاءُ في السّينِ، وشُدِّدَت، والمَعْنَى: يَسْأَلُ بَعْضُهُم بَعْضًا، أيْ: يَقولُ بَعْضُهم لِبَعْضٍ: ماذا سَمِعْتَ؟ وماذا بَلَغَكَ؟ أوْ يَتَساءَلونَ الأَعْرابَ، كَما تَقولُ: تَراءَيْنا الهِلالَ[2].

والقِراءَتانِ من حيثُ المَعْنَى مُتَكامِلتانِ؛ إذ مِنَ الوارِدِ جدًّا أنَّهُم يسألونَ الضّارِبينَ في الصَّحراءِ عن أنْباءِ المُسْلِمينَ، فَكُلُّ واحدٍ مِنْهُم يَسْأَلُ مَنْ لَقيَه في جِهَةٍ مِنَ الجِهاتِ، ثُمَّ هُم بَعْدَ ذلك يَسْأَلُ بَعْضُهُم بَعْضًا، لِيَسْتَوْثِقوا مِمّا سَمِعوه، فَهُم يَتباحثونَ في أَمْرِ المُسْلِمينَ كأشَدِّ ما يكونُ التَّباحُث؛ لأنَّ مصيرَهُم مُعَلَّقٌ على نَتيجَةِ المَعْرَكَةِ الَّتي فَرّوا منها، وتَرَكوها جُبْنًا وجَزَعًا.

نكتةُ التَّعْبيرِ بِالنَّبَأِ دونَ الخَبَرِ:

شِدَّةُ تَحَرّي المُنافقينَ للأخبارِ بسبَبِ شَكِّهم لا بسببِ طلبِ الصِّدق

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾ التَّعْبيرَ بمادةِ (النَّبأ) دونَ مادَّةِ (الخَبَر)؛ لأنَّ النَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عَظيمَةٍ، يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ[3]، والمرادُ بالأنباءِ هَهُنا، أيْ: أخْبارُ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِه، يَتَحَدَّثونَ: أما هَلَكَ مُحَمَّدٌ وأصحابُهُ؟ أما غَلَبَ أبو سُفْيانَ وأحْزابُهُ[4]؟ فأفادَ التَّعبيرُ بالأنْباءِ الإشارةَ إلَى

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 348، وقال الداني: "وفي الأحزاب في بعض المصاحف ﴿يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ﴾: بغير ألف، وفي بعضها ﴿يَسَّآءَلُونَ﴾: بالألف"، يُنظر: الداني، المقنع، ص: 100، ولذا رسمناه هنا بالألف موافقته لرسمه وقراءته.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 280، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 465، والخطيب، معجم القراءات: 7/ 267.

(3) الراغب، مفردات القرآن: (نبأ).

(4) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 387.

شِدَّةِ تَحرّي المُنافقينَ لأخبارِ المُسلِمينَ، لِشِدَّةِ رُعْبِهِمْ وخوفِهم، فَأمْرُ المَعركةِ عِندَهُم عَظيمٌ خَطيرٌ، ما جَعَلَهُم يَوَدّونَ لو أنَّهمْ يَفِرّونَ، فَيكونونَ مُقيمينَ في الأعرابِ حتَّى لا يَشْهَدوا تِلْكَ المعركَةَ.

الفضولُ طبعٌ في المُنافِقينَ لبلوغِ مآربِهم

غرضُ جمعِ الأنباء:

جُمِعَ النَّبأُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ﴾؛ للدِّلالَةِ على شِدَّةِ تَحَرُّقِ المُنافِقينَ لِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بالمُسْلِمينَ، فَهُم لا يَكْتَفونَ بِنَبَأٍ أوْ بِنَبأينِ، بل لا بُدَّ لَهُم مِنْ أنْباءٍ كَثيفَةٍ تُزيلُ شَكَّهُم واضْطِرابَهم، لِتأصُّلِ عادَةِ الشَّكِ في نُفوسِهم، فالجمعُ دليلُ النَّهمةِ في طلب الأنباءِ، وفيهِ دَلالةٌ على حِقْدِهم؛ إذْ يَبحثونَ عن كلِّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ مِن أحوالِ المُؤمنينَ راجينَ لَهُمُ الضُّرَّ والشَّرَّ.

الدّافعُ لاهتمامِ المنافقين بأخبارِ المؤمنين هو حسدُهم وحقدهم

نوعُ الإضافَةِ ودلالتُها:

أُضيفَ لفظُ الأنباءِ إلى الضميرِ العائدِ على المؤمنينَ في قولِه تَعالَى: ﴿أَنۢبَآئِكُمْۖ﴾، والإضافة هنا بمعنى اللّامِ، فهي دالَّةٌ على تَخْصيصِ الأنْباءِ بالمُسْلِمينَ دونَ غَيْرِهِم، فَلا يَسْألُ المُنافِقونَ عن أنباءِ المَعْرَكَةِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ، بل إنَّ اهْتِمامَهم الأكيدَ هوَ أخْبارُ المُسْلِمينَ وحْدَهم، كَأنَّ النِّكايَةَ في المُسْلِمينَ والشَّماتَةَ بهِم هوَ غَرَضُهم الأوَّلُ، ولو كانَ تَخْصيصُ الأنباءِ بالمسلمينَ للاهْتِمامِ بأمْرِهم ما تَطَلَّعوا لِمُفارَقَةِ المدينَةِ والتَّخلّي عنِ النَّبيِّ ﷺ ومَنْ مَعَهُ من المُؤمنين.

امتلأت قلوب المنافقين حقدًا على المؤمنين

بلاغةُ تقييد الفعل:

قَيَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ فعلَ السؤالِ ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ بِشِبهِ الجُمْلَةِ ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ﴾، دون إطلاق الفعل، وذلك لبيان خصوصيَّة السُّؤالِ، وأنَّه عن أنباءِ المؤمنين دون غيرِهم؛ دلالةً على حقدهم على المؤمنين ورغبتهم في نزول الأذى بهم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِأداةِ (لو):

بَعْدَ أنْ صوَّرَ حالَ المنافقين إذا دَهَمَ الأحْزابُ المدينةَ كَرَّةً أُخرى،

اسـتِـقْـصـاءُ أوْصافِ المنافقين في أحْوالِهِم كُلِّها بادين ومُقيمين

وما سَيَوَدّونه من الفرارِ؛ عَرجَ عَلَى بيانِ حالِهِم لَوْ لَمْ يَتَمكَّنوا من الفِرارِ، واضْطُرّوا لخَوضِ غِمارِ المَعْرَكَة، فأتى بأداةِ الشَّرْطِ (لو) في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لبيانِ أنّهم لو كانوا مع المؤمنين؛ لامتنعوا عن قتالِ الكافرين إلّا قليلًا؛ فاسْتَكْمَلَ النَّظْمُ التَّعبيرَ عنْ حالِهِم مُقيمينَ بَعْدَ أنْ أبانَ عَنْ حالِهِم بادينَ، فالجملة لاسْتِقْصاءِ أوْصافِهِم في أحْوالِهِم كُلِّها[1].

دَلالَةُ النَّفْيِ بِـ﴿مَّا﴾ واستعمال ﴿إِلَّا﴾:

بـيـانُ مَـبْـلَـغِ ضَعْفِ المُنافِقينَ وقِلَّةِ غَناهُم في الحربِ

في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ نَفَى البيانُ القُرْآنيُّ نَجاعَةَ قِتالِهِم معَهُم إنْ عادَ الأحْزابُ لِغَزْوِ المدينة مرَّةً أُخْرى، باسْتِعْمالِ ﴿مَّا﴾ النّافية، وأداةِ الحَصْرِ ﴿إِلَّا﴾؛ للدَّلالَةِ على مَبْلَغِ ضَعْفِهِم، وقِلَّةِ غَناهُم في الحربِ، فَهُم على فَرضِ عَدَمِ ذَهابِهِم في البادية، وبَقائِهِم في صُفوفِ المُسْلِمينَ، فإنَّهُم لا يُقاتِلونَ إلّا قِتالًا قَليلًا لا يصُدُّ كيدَ العَدوِّ، ولا يَشُدُّ مِنْ عَضُدِ المؤْمنينَ، وإنَّما قِتالُهُم رياءٌ وخَوْفٌ منَ التَّعْييرِ، فلا خيرَ في قِتالِهِم[2]، "فَهُم عِنْدَ حُضورِهِمْ كَأنَّهم غائِبونَ حَيْثُ لا يُقاتِلونَ"[3].

بلاغةُ استعمال مفردة القتال دون الجهادِ:

الـجِـهـادُ عَـلَـمٌ عـلـى الـفـريـضـةِ الـعـظـيـمـةِ والقتالُ أشدُّ ما فيها

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ نفى النَّظْمُ الحكيمُ عنِ المُنافقينَ القِتالَ إلّا قَليلًا، وقد آثرَ التعبيرَ بِنَفْيِ (القِتالِ) دونَ نَفْيِ (الجهادِ)، ونكتةُ ذلك أنَّ الجِهادَ هو اسمُ عَلَمٌ على هذه الفريضة، وأمّا القتالُ؛ فهو أداة هذه الفريضة، والقتال قد يقع من المنافقين قليلًا كما أخبرَتِ الآية، لكنَّ عبادةَ الجهاد لا تكون منهم البتَّة؛ لأنَّ قلوبهم قد ملأها النِّفاقُ والخوف، فلا يَرجون بعملهم وجهَ اللّه تعالى وموعوده.

---

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 150.

(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 150.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 163.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاستثناءِ:

قتالُ المنافقين له حكم النّادر والشّاذ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عن موقفِ المنافقينَ مِنَ الحرب باستعمالِ أداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾، دون أن يأتي التَّعبيرُ: (لقاتلوا قليلًا)، وذلك للإشارَة إلَى مَكْرِ هؤلاءِ المنافقينَ وخداعِهم، وأنَّهُم لا يقاتِلونَ إلّا خَوْفًا من التَّعييرِ والاتِّهام بالجُبْنِ والتَّخاذُلِ، فعبَّرَ الاستثناءُ عن حالِ خِداعِهم ومكرِهم، فَهُم يوهِمونَ المسلمينَ باشْتِراكِهِم في القِتالِ، ولكِنَّهم يشتركونَ اشتراكًا لا يُسْمِنُ، ولا يُغني، لسترِ حالِهم، فقتال المنافقين قتال استثناءٍ لا قتالُ أصالةٍ وإصرار؛ فله حكم الشّاذ.

دلالَةُ حَذْفِ المَوْصوفِ:

أفعالُ المنافقين في الخير لا تتعدّى وصفَ القليلِ

حُذِفَ الموصوفُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وقدْ تعدَّدتْ أقوالُ المعربينَ في إعرابِ ﴿قَلِيلٗا﴾ وتقديرِ الموصوفِ قبْلَها، فمِنْها: إنَّها نائبٌ عن المفعولِ المطلقِ، صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذوفٍ، أي: قِتالًا قليلًا، أو إنَّها نائبٌ عن الظرفِ، صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: وقتًا قليلًا، أو إنَّها حالٌ[1]، وفي هذا الحذفِ دلالةٌ على كثرةِ المعاني التي أرادَ النَّظْمُ الحكيمُ الإشارةَ إليها بيانًا لفعلِ المنافقينَ، والحاصل أنَّ هؤلاء المنافقينَ لن يقع منهم قتال إلّا ما يتَّصف بأنَّه قليلٌ، فهو رياءٌ وسُمْعَةٌ من غير احتسابٍ، ولو كانَ ذلكَ القليلُ للّهِ؛ لكانَ كثيرًا، وهذا كقولِ اللّهِ تعالى في صفتهم أيضًا: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142][2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُسبان والظَّنُّ:

الظنُّ: هوَ رُجْحانُ كفَّةِ الإثْباتِ عَلَى كفَّةِ النَّفْي، والحُسْبانُ:

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 255.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 206.

الظَّنُّ: رُجْحانُ كفَّةٍ عَلَى أُخرى، والحُسْبانُ: ظَنٌّ قائِمٌ عَلَى حِسابٍ حِسّيٍّ وقَلْبيٍّ

هوَ الظَّنُّ القائِمُ عَلَى حِسابٍ حِسّيٍّ وقَلْبيٍّ، أو الاعْتِقادُ القائِمُ عَلَى النَّظَرِ والتَّجْرِبَة[1]، فَهُناكَ فَرْقٌ بينَ قَوْلِكَ: (تَحْسَبُهُم جميعًا)، و(تَظُنُّهُم جميعًا)، فَإنَّ قَوْلَكَ: (تَحْسَبُهُم جميعًا) إنَّما يَكونُ بَعْدَ مُراقَبَةِ أحْوالِهِم، فَكَأنَّكَ أجْرَيْتَ عَمَليَّةً حِسابيَّةً، فَأدَّى حِسابُك إلَى ذَلِكَ، بِخِلافِ قولِكَ: (أظنُّهم)، فالحُسْبانُ قائِمٌ عَلَى الحِسابِ والنَّظَرِ العَقْليِّ، بِخِلافِ الظَّنِّ الَّذي يَدْخُلُ الذِّهْنَ، ويُلابِسُهُ لأَدْنَى سَبَبٍ[2]، ومنْ هُنا فقدْ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَحْسَبُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى حرْصِ المُنافقينَ على هَزيمةِ المسلمينَ، فَهُم يُراجِعونَ حساباتِ القوَّةِ في عُقولِهم المرَّةَ تِلوَ المرَّةِ، راغِبينَ في انكسارِ المسلِمينَ وهَزيمَتِهم.

(1) محمد الهلال، تفسير الثري الجامع: 8/ 85.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 23 - 24.

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النَّجاةُ من النِّفاقِ لا يكون إلّا بالتَّأسّي بسيِّد الخلقِ

بَعْدَ أنْ أفاضَتِ الآياتُ الكريماتُ السّابِقاتُ في شَرْحِ الأحْوالِ القَبيحَةِ الَّتي كانَ عَلَيْها المُنافِقونَ عِنْدَما هاجَمَتْ جُيوشُ الأحْزابِ المَدينَةَ، ووَصَفَتْهُم بِأبْشَعِ الصِّفاتِ وأبْغَضِها إلَى كُلِّ نَفْسٍ كريمَةٍ[1]؛ ناسبَ الانتقالُ للحَديثِ عنْ مَوْقِفِ المُسْلِمينَ وما يجب عليهم، فَجاءَتِ الآيةُ بَيانًا لِما يَنْبَغي أنْ يلتَزِمَهُ المُؤْمِنونَ في ساعاتِ الشِّدَّةِ والعُسْرَةِ خُصوصًا، وسائِرِ الأوقاتِ عمومًا، فأقْبَلَ الكَلامُ عَلى خِطابِ المُؤْمِنينَ في عُمومِ جَماعَتِهِمْ؛ ثَناءً عَلى ثَباتِهِمْ وتَأسّيهِمْ بِالرَّسولِ ﷺ عَلى تَفاوُتِ دَرَجاتِهِمْ في ذَلِكَ الائْتِساءِ برسولِ اللّهِ ﷺ[2]، الَّذي جاءَ لإنْقاذِهِم من كُلِّ ما يسوؤُهم، ونَبَّهَت عَلى أنَّ الَّذي يحْمِلُ عَلى التَّأسّي بِهِ ﷺ إنَّما هو الصِّدْقُ في الإيمانِ ولا سيَّما الإيمانُ بالقيامَةِ، فَمَن كانَ كَذَلِكَ؛ حَمَلَهُ رَجاؤُهُ عَلى كُلِّ خَيْرٍ، ومَنَعَهُ من كُلِّ شَرٍّ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُسۡوَةٌ﴾: (أسو) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى المُداواةِ والإصْلاحِ، يُقالُ: أَسَوْتُ الجُرْحَ؛ إذا داوَيْتُهُ، ولِذَلِكَ يُسَمَّى الطَّبيبُ الآسي، ويُقالُ: أَسَوْتُ بَيْنَ القَوْمِ؛ إذا أَصْلَحْتَ بَيْنَهُمْ، ومِنْ هَذا البابِ: لي في فُلانٍ أُسْوَةٌ، بضَمِّ الهَمْزَةِ وكَسْرِها، أَيْ: قُدْوَةٌ، بتَثْليثِ القافِ، أَيْ: إنّي أَقْتَدي بِهِ، ومِنْ هَذا البابِ: آسَيْتُهُ بِنَفْسي[4]، وفُلانٌ يَأْتَسي

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 302.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 324.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسو).

بِفُلانٍ، أي: يَرْضَى لِنَفْسِهِ ما رَضِيَه، ويَقْتَدي بِهِ، وكانَ في مِثْلِ حالِهِ، والقَوْمُ أُسْوَةٌ في هَذا الأمر، أي: حالُهم فيهِ واحِدَةٌ[1]، والأُسْوَةُ والإِسْوَةُ: هيَ الحالَةُ الَّتي يَكونُ الإنْسانُ عَلَيْها في اتِّباعِ غَيْرِه إنْ حَسَنًا وإنْ قَبيحًا، وإنْ سارًّا وإنْ ضارًّا، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾، فَوَصَفَها بِالحَسَنَةِ[2]، لِما فيهِ ﷺ مِنَ الكَمالاتِ الإنسانيَّةِ الَّتي تَهْدي إلى خيرَيِ الدُّنْيا والآخِرَة.

2) ﴿يَرۡجُواْ﴾: (رجو) أصل يَدُلُّ عَلَى الأمَلِ، يُقالُ: رَجَوْتُ الأمْرَ أرْجوهُ رَجاءً، ثُمَّ يُتَّسَعُ في ذَلِك، فَرُبَّما عُبِّرَ عَنِ الخَوْفِ بِالرَّجاءِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، أي: لا تَخافونَ لَهُ عَظَمَةً، ويُقالُ لِلْفَرَسِ؛ إذا دَنا نِتاجُها: قَدْ أرْجَتْ تُرْجي إرْجاءً[3]، ورَجاهُ يَرْجوهُ رَجْوًا ورَجاءً ورَجاوَةً ومَرْجاةً ورَجاةً، وهمزَتُه مُنْقَلِبَةٌ عَنْ واوٍ بِدَليلِ ظُهورِها في رَجاوةٍ[4]، والمَعْنَى المِحْوَريُّ إشْرافُ الجِسْمِ القائِمِ عَلَى مَهْواةٍ فيها مادَّةٌ نافِعَةٌ - كَجَوانِبِ البِئْرِ والوادي - وهذا هوَ الرَّجاءُ بِمَعْنَى الأمَلِ والطَّمَعِ؛ لأنَّ الرّاجي لَيْسَ مُطْمَئِنًّا مُتَيَقِّنًا بِحُصولِ ما يَرْجو، بَلْ تُخالِجُهُ دَرَجَةٌ مِنْ تَوَقُّعِ الحِرْمانِ، وذَلِكَ واضِحٌ في تَفْسيرِ قَوْلِه تَعالَى عَنِ المُؤْمِنِ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: 9][5]، والرَّجاءُ ظَنٌّ يَقْتَضي حُصولَ ما فيهِ مَسَرَّةٌ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّأسّي برَسولِ اللهِ ﷺ بابُ النَّجاةِ وطريقُ الخَلاصِ في الأمورِ كلِّها

تُؤَسِّسُ الآيةُ لأعظم مبادئ النَّجاةِ في القرآن، وهو التزام التَّأسّي برسولِ اللهِ ﷺ، فَهَذا أمْرٌ مِنَ اللهِ تعالَى بالتَّأسّي بِالنَّبيِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أسو).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أسو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رجو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (رجو).

ﷺ في كلِّ الأوقات، يَوْمَ الأحْزابِ وغَيْرَهُ، في أقْوالِه وأفْعالِه وأحْوالِه، وصَبْرِهِ ومُصابَرَتِه ومُجاهَدَتِه وانْتِظارِ الفَرَجِ مِنْ رَبِّه؛ إذْ هوَ ﷺ القُدْوَةُ الصّالِحَةُ والمَثَلُ الأعْلَى الّذي يُحْتَذَى به، إذا كُنْتُم تُريدونَ ثَوابَ اللّهِ وفَضْلَه، وتَخْشَوْنَ اللّهَ وحِسابَهُ، وتَذْكُرونَهُ ذِكْرًا كَثيرًا في اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ حُبًّا وتَعْظيمًا لَهُ، وخَوْفًا مِنْ عِقابِه، وطَمَعًا في ثَوابِهِ وجَزائِه، فَإنَّ ذِكْرَهُ دافِعٌ إلَى طاعَتِه، والتَّأسّي بِرَسولِه، وهَذا عِتابٌ لِلْمُتَخَلِّفينَ، وإرْشادٌ لِلنّاسِ جَميعًا أنْ يَتَأسّوا بِرَسولِ اللّهِ ﷺ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ وحينَ البَأْسِ ولِقاءِ الشُّجْعانِ ونِزالِ الأبْطالِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

استئنافٌ سيقَ لعتابِ المتخلِّفين وتوبيخهم والتَّمهيد لمدحِ المؤمنين

قَوْله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ مفصولٌ عمّا قبله؛ لأنَّه كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لعتابِ المتخلِّفين عن القتال[1]، أو لتوبيخهم وتقريعهم؛ إذ كان الحَديثُ في الآيَةِ السّابِقَةِ حولَ رَغْبَةِ المُنافقينَ في البُدوِّ بينَ الأعرابِ فِرارًا مِنْ مواجَهَةِ الأحزابِ، ودارَ في هذِه الآيةِ حولَ التَّمْهيدِ لِذِكْرِ ثَباتِ المُؤْمنينَ مَعَ رسولِ اللّهِ ﷺ في غَزْوَةِ الأحزابِ، أوْ حَولَ العِتابِ والمُلاطَفَةِ واللَّفْتِ إلَى ما كانَ يَنْبَغي أنْ يَكونَ مِنْهُم مَعَ رَسولِ اللّهِ ﷺ، فانقَطَعَتِ الصِّلَةُ المُباشِرَةُ بينَ الآيتينَ، وإنْ ظَلَّ الجامِعُ العامُّ للآياتِ مُتَّصِلًا أشَدَّ الاتِّصالِ وأحْكَمَه.

بلاغةُ التَّوكيدِ وغرضُه:

توبيخُ تاركي التَّأسّي برسول اللهِ ﷺ ومدحُ المتأسّين

أكَّدَ النَّظْمُ الحَكيمُ أهَمّيَّةَ التَّأسّي بِرَسولِ اللّهِ ﷺ، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فَصَدَّرَ الآيةَ بلامِ التَّوكيدِ، الّتي هيَ لامُ الابْتِداءِ، جيءَ بِهِ عَلَى سَبيلِ التَّوْكيدِ، أوْ هيَ جَوابُ قَسَمٍ مَحْذوفٍ[2]، كما هو المشهورُ عِنْدَ غالبِ النُّحاةِ،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 622.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 179.

و(قد) الَّذي هوَ حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى ثُبوتِ الأمرِ وتَحَقُّقِه[1]، وذَلِكَ للمُبالَغةِ في تَوْكيدِ هذِهِ القَضيَّةِ المِحْوَريَّةِ في حياةِ المُسْلمينَ عامَّةً، وأصحابِ غَزْوَةِ الأحْزابِ على وجْهِ الخُصوصِ، كَما أنَّ الكَلامَ وإنْ كانَ خَبَرًا، فإنَّ اقْترانَهُ بِحَرْفَي التَّوْكيدِ في ﴿لَّقَدۡ﴾ يومِئُ إلى تَعْريضٍ بالتَّوْبيخِ لِلَّذينَ لَمْ يَنْتَفِعوا بالأُسْوَةِ الحَسَنَةِ مِنَ المُنافِقينَ والَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ[2]، والمعنَى: واللّه لَقَدْ كانَ لَكم في رَسولِ اللّه خَصْلَةٌ حَسَنَةٌ من حَقِّها أنْ يُؤْتَسَى، ويُقْتَدَى بِها كالثَّباتِ في الحَرْبِ، ومُقاساةِ الشَّدائِدِ[3].

نكتةُ ذِكر فعل ﴿كَانَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ قُدْوَةٌ لِلمُسْلِمينَ بِما أوتي مِنَ الصِّفاتِ العَليَّةِ والسِّماتِ السَّنيَّةِ

ذُكِر فعل ﴿كَانَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه ﷺ أُسْوَةٌ في نَفْسِه وفي حَدِّ ذاتِه الشَّريفَة، "فحيث أخْبَرَ بـ(كانَ) عَنْ صِفاتِ الآدميّينَ، فالمرادُ التَّنْبيهُ عَلَى أنَّها فيهِ غريزَةٌ وطَبيعَةٌ مَرْكوزَةٌ في نَفْسِه"[4]، فَهو ﷺ قُدْوَةٌ للمُسْلِمينَ بِما حَباه به رَبُّه تَعَالَىٰ مِنَ الصِّفاتِ العَليَّةِ والسِّماتِ السَّنيَّة، وقَدْ عَدَلَ البَيانُ القُرْآنيُّ عنْ مُقْتَضَى الظّاهِر، فَلَمْ يقل: (رسول اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لكم)، إذا كان المُرادُ مُجَرَّدَ الدِّلالةِ على أنَّه ﷺ أُسْوَةٌ، وإنَّما ذكرَ فِعْلَ الكَوْنِ، لما فيه منْ شِدَّةِ التَّأْكيدِ؛ فأتَى بذكرِ ﴿كَانَ﴾ على أصلِ المعنى؛ لِيَسْتَقِرَّ هذا المَفْهومُ في أفهامِ المخاطَبين.

غرضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

التَّعريضُ بشأنِ المنافقين بتركِ التَّأسّي واقترافِ التَّجنّي

قُدِّمَ ذكرُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ تَبارَكَتْ آلاؤه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾؛ للاهْتِمامِ ولفتِ الأنظارِ لخصوصيَّة تأسّي المؤمنين بِرَسولِ اللّهِ ﷺ، ففيه مدحٌ للمتأسّين

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 305.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 302.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 215.

وتعريضٌ بالمخالفين من المنافقين ومَن على شاكلتِهم، فَهوَ وإنْ كانَ أُسْوَةً للخَلْقِ أجْمَعينَ لِما فيهِ من الكَمالاتِ الإنْسانيَّةِ والفَضائلِ البَشَرِيَّةِ، فإنَّ المُسلمينَ يَجِبُ أنْ يَكونوا أشدَّ الخلقِ تأسّيًا به ﷺ .

بلاغةُ فنِّ التَّجريدِ في استعمالِ حرفِ الظَّرْفيّةِ:

رَســـولُ الـلـهِ ﷺ ذاتُـه قُـدْوَةٌ فكأنَّه تجرَّد من كـلِّ صفة لهذه الصِّفةِ

جاء استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّةِ أخّاذًا في قَوْلِه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾، فَلَمْ يَقل: (لَقَدْ كانَ رَسولُ اللّه أُسْوَةً حَسَنَةً لَكُمْ)، فآثَرَ النَّظْمُ استعمالَ حرفِ الظَّرْفيَّةِ؛ للدِّلالَةِ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ هوَ في نَفْسِه قُدْوَة، وهَذا يُعْطي ضَرْبًا مِنَ المُبالَغَةِ في وصْفِه ﷺ بهَذِهِ الصِّفَةِ، أيْ: كَوْنُه أهْلًا لأنْ يُقْتَدى بِهِ، فقَد بَلَغَ في هذا الوَصْفِ مَبْلَغًا صَحَّ مَعَهُ أنْ يُنْزَعَ مِنْهُ قُدْوَةٌ، كَقَوْلِهم: لي مِنْ فُلانٍ صَديقٌ حَميمٌ، فَتُفيدُ أنَّهُ بَلَغَ مِنَ الصَّداقَةِ مَبْلَغًا صَحَّ مَعَه أنَّهُ يُسْتَخْلَصُ مِنْهُ صَديقٌ آخَرُ، وهذا لَوْنٌ مِنْ ألْوانِ البَديعِ يُسَمَّى (التَّجْريدَ)، وهوَ أنْ يَنْتَزِعَ مِنْ أمْرٍ ذي صِفَةٍ أمرًا آخَرَ مِثْلَهُ، في تلكَ الصِّفَةِ مُبالَغَةً في كَمالِها فيه، نَحْوَ: لَقيتُ مِنهُ أسَدًا، وهو كَما يَكونُ بِمَعْنى (مِنْ) يَكونُ بِمَعْنى (في)؛ إذْ يُجَرَّدُ مِنَ المَوْصوفِ بصِفة مَوْصوفٍ مِثْلِه؛ ليَكونَ كَذاتَيْنِ، فأفادتْ صَنْعَةُ التَّجْريدِ أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ لِخُصوبَةِ نفسه، ولِوَفْرَةِ الخَيْرِ في مَعْدنه، ولِفَرْطِ كَرَمِ شَمائِله، يَصِحُّ في الخَيالِ أنْ يَكونَ في ذاتِه ذَواتًا، كلٌّ مِنْها صالحٌ؛ لأنْ يُقْتَدَى بها[1]، والآيَةُ وإنْ سيقَتْ لِلاقْتِداءِ بِهِ عليه السلام في أمْرِ الحَرْبِ مِنَ الثَّباتِ ونَحْوِه، فَهي عامَّةٌ في كُلِّ أفْعالِه صَلّى اللّه تَعالى عليه وسَلَّمَ إذا لَمْ يُعْلَمْ أنَّها مِن خُصوصيّاتِه ﷺ[2].

نكتةُ إيثارِ لفظِ الرِّسالةِ على النُّبوّةِ:

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ إظهارَ نعتِ الرِّسالة دون نعتِ النُّبوَّةِ عِنْدَ ذِكْرِ

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 157 - 158.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 164.

خاصيَّةِ التَّأسّي في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وذَلِكَ لما اختصَّ به وصفُ الرِّسالة من تبليغ الدَّعوة والأمر بالعملِ بها، ولّما كانَ مَقامُ الرِّسالَةِ أَخصَّ مِنْ مَقامِ النُّبوَّة؛ فقَدْ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بِمقامِ الرِّسالة؛ إذْ هوَ أَوْلَى بالذِّكْرِ في مَقامِ ائْتِساءِ الخلقِ بِهِ ﷺ، وبه يتبيَّن أنَّ الأسوة تكون لما فيه جانب التَّبليغِ والعمل بالرِّسالة.

سِياقُ الأمرِ بالتَّكاليفِ يُناسبُه مَقامُ الرِّسالَةِ لا سيَّما في مَقامِ الأسوةِ

فائدةُ إضافَةِ لفظِ ﴿رَسُولِ﴾ إلَى لَفْظِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أضافَ النَّظْمُ لفظَ ﴿رَسُولِ﴾ إلى لَفْظِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وعَدَلَ عنْ تعريفِه بـ(أل)، كأن يقول: (لَقَدْ كانَ لَكُمْ في الرَّسولِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)؛ وذَلِكَ لِما في الإضافَةِ إلَى لَفْظِ الجَلالَةِ مِنْ مَعْنَى التَّشْريفِ والتَّوقيرِ والتَّكْريمِ والتَّنْويهِ بِمَكانَتِه ﷺ، وما في ذَلِكَ مِنَ البَعْثِ على الائتِساءِ بهِ في كُلِّ أقْوالِه وأفْعالِه وتَقْريراته، وسائِرِ أُمورِه، فإنَّما يُؤتسى به؛ لأنَّه رسولٌ من اللّه تعالى للنّاس، يحمل رسالة ربِّه للعالمين.

تعليلُ الأمرِ بالائتساءِ والاقتداءِ في كونه رسولًا من الله تعالى

سِرُّ التَّعْبيرِ بِ﴿أُسْوَةٌ﴾ دونَ القُدْوَةِ:

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ استعمالَ مفردة الأُسْوَةِ دونَ القُدْوَة؛ وذلك لأنَّ التَّأسّيَ أشَدُّ في بابِهِ مِنَ الاقْتِداءِ، كَما أنَّ التَّأسّي يَجْعَلُ مَعْنَى الالتِزامِ مِنَ الآخر بِشَكْلٍ أقْوَى، ومِنَ الفُروقِ الدَّقيقَةِ أنَّ الأُسْوَةَ عَوْدَةٌ مِنْ ضَعْفٍ بِطَريقِ المُماثَلَة؛ إذِ الأُسْوَةُ أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى المُداواةِ والإصْلاحِ، فَبِذَلِكَ يُفْتَرَضُ في المُتأسّي نَوْعٌ مِنَ الضَّعْفِ، وهو بحاجَةٍ إلى المُداواةِ والإصْلاحِ، وهوَ مُلاحَظٌ في المَواضِعِ الَّتي وَرَدَ فيها ذِكْرُ الأُسْوَةِ في القرآنِ الكريم، وهيَ ثَلاثَةُ مَواضِع، المَوْضِعُ الأَوَّلُ في سورَةِ الأحْزاب، وهوَ قولُ اللهِ تبارَكَتْ آلاؤه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، والمَوْضِعانَ الآخرانِ

الأمرُ بالأُسْوَةِ يكون في الأمور الَّتي تُخشى معها المخالفةُ بخلافِ القدوة

في سورةِ المُمْتَحنَةِ، وهُما قول اللّهِ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4]، وقَوْلُه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الممتحنة: 6]، وفي السَّورتينَ تَوجيهٌ لِخَلَلٍ وقَعَ مِنْ بعْضِ المُسْلمينَ، ففي سورةِ الأحزابِ تَخَلَّفَ بَعْضُ المُسْلمينَ عن القتالِ معَ رسول اللّه ﷺ، وفي سورةِ المُمْتَحَنَةِ والَى بَعْضُ المُسلمينَ بعْضَ الكُفّارِ موالاةً حَرْبيَّةً، فكانَ التَّوْجيهُ في السّورَتَينِ بضَرورَةِ الائْتِساءِ بالأمْثِلَةِ العُلْيا، وهُمُ النَّبيُّ ﷺ في سورةِ الأحْزابِ، وإبراهيمُ عليه السلام ومنْ بَعْدَه منَ الأنبياءِ في سورةِ المُمْتَحَنَةِ، فالأُسْوَةُ تُقالُ لِمَنْ ظَهَرَ مِنْهُم ضَعْفٌ أوْ تَقْصيرٌ في سُلوكٍ ما.

وأمّا الاقتداءُ؛ فَلا يَقْتَضي الضَّعْفَ، ويُعَبِّرُ عن الاتِّصالِ والارتِباطِ والامْتِدادِ لِأُناسٍ سابِقينَ يُعَدّونَ أصْلًا، كَما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فالمَأْمورُ بالاقْتِداءِ هوَ النَّبيُّ ﷺ، وهوَ أفْضَلُ الخَلْقِ جَميعًا، فجاءَ النَّظْمُ هُنالِكَ بالاقْتِداءِ، بَعْدَ ذِكْرِ سَبْعَةَ عَشَرَ نَبيًّا من أنْبياءِ اللّهِ صَلَواتُ اللّهِ وسَلامُه علَيْهِم أجْمَعينَ، الَّذينَ هُمْ مَعالِمُ الهُدى للخَلْقِ أجْمَعينَ؛ للدَّلالَةِ على المَنْهَجِ والسُّلوكِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿أُسْوَةٌ﴾:

تَعْظيمُ مقامِ التَّأسّي بِرَسولِ اللهِ ﷺ، وعَدَمُ حَصْرِه في مَلْمَحٍ دونَ غَيْرِه

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿أُسْوَةٌ﴾ نَكِرَةً في قولِ اللّهِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وذَلِكَ لِما في التَّنْكيرِ في هذا المَقامِ مِنَ التَّعْظيمِ والمُبالَغَةِ، فَهوَ ﷺ أعْلى النّاسِ قَدْرًا، كَما أنَّ في التَّنْكيرِ إفادَةً للإطْلاقِ ولِعَدَمِ انْحِصارِ مَقامِ الاقتِداءِ به ﷺ في مَلْمَحٍ بِعَيْنِه مِنْ مَلامِحِ حَياتِه وصِفاتِه، فَإنَّه ﷺ تجْسيدٌ للمُثُلِ العاليةِ، والقُدْوَةِ الحَسَنَةِ، فَهيَ ماثِلَةٌ أمامَكُم لَوْ شِئْتُم، فَتَحْتَذون بالرَّسولِ في أعْمالِه[1].

(1) أحمد المراغي، تفسير المراغي: 21/ 136.

دلالةُ وصْفِ الأُسْوَةِ بِـ﴿حَسَنَةٌ﴾:

من تَمامِ الأُسْوَةِ أنْ تكونَ نَقيَّةً رَقيقَةً شَفّافَةً تُرغِّبُ المؤتَسي بها

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ وصْفَ الأُسْوَةِ بالحُسْنِ دونَ مرادفاتِها كالطَّيّبةِ؛ لأنَّ حُسْنَ الشَّيءِ هوَ نَقاؤُهُ ورِقَّتُه بِخُروجِ الخَشِنِ أوِ الغَليظِ، الَّذي يُخالِطُهُ، فَيَشوبُ رِقَّتَهُ[1]، ويُعْرَفُ بأنَّه عِبارَةٌ عَنْ كُلِّ مُبْهِجٍ مَرْغوبٍ فيهِ[2]، ولذلك فاختيارُ هذا الوصفِ هو الأنْسَبُ لِلمرادِ منَ الآيةِ بأنْ توصَفَ الأسوة بالحُسْنِ؛ إذْ مِنْ تَمامِ الأُسْوَةِ أنْ تَكونَ نَقيَّةً رَقيقَةً شَفّافَةً، بحيثُ يُمكِنُ لِلْمُؤتسي أنْ يَتَّبِعَها دونَ شَطَطٍ أوْ خطأٍ، والمُرادُ بالأُسْوَةِ الحَسَنَةِ القُدْوَةُ العَظيمَةُ برَسولِ اللّهِ ﷺ بأنْ يَجْتَهِدَ المؤمِنُ في أنْ يُسَوّيَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، فَيَكونَ مَعَهُ في كُلِّ أمْرٍ يَكونُ فيهِ، لا يَخْتَلِفُ عَنْهُ أصْلًا، وذلِكَ بالصَّبْرِ عَلى الجِراحِ في نَفْسِهِ، وجَميعِ ما كانَ يَفْعَلُ في مُقاساةِ الشَّدائِدِ، ولِقاءِ الأقْرانِ، والنَّصيحَةِ للّهِ، ولِنَفْسِهِ، ولِلْمُؤْمِنينَ[3].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

التَّأسّي بِرَسولِ اللّهِ ﷺ لا يَتَأتَّى إلّا لِفِئَةٍ مَخْصوصَةٍ مرضيَّةٍ

جاءتِ اللامُ في قَوْلِ اللّهِ تبارك وتعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ دالَّةً على الاختِصاصِ بالشَّيْءِ عَلَى نَحْوٍ مُسْتَحَقٍّ؛ لأنَّ حُسْنَ التَّأسّي بِرَسولِ اللّهِ ﷺ لا يَتَأتّى لأيِّ أحَدٍ، وإنَّما هوَ لِفِئَةٍ مَخْصوصَةٍ مِنَ النّاسِ عامَّةً، ومِنَ المُسْلِمينَ خاصَّةً، وهُمُ الَّذينَ يَرْجونَ لِقاءَ اللّهِ، ويَخافونَ عِقابَهُ[4].

الموقعُ الإعرابيُّ لـ(مَن):

مِن خصائصِ نظمِ القرآنِ الإجمالُ قبلَ البيانِ

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ اسم موصول، بَدَلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿لَكُمۡ﴾ بَدَلَ بَعْضٍ مِن كُلٍّ، أوْ بدلَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (حسن).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 324.
(4) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 156.

شِبْهِ الاشْتِمالِ؛ لِأَنَّ المُخاطَبينَ بِضَميرِ ﴿لَكُمۡ﴾ يَشْتَمِلونَ عَلى مَن يَرْجونَ اللّٰه واليَوْمَ الآخِرَ، أَوْ هو بَدَلٌ مُطابِقٌ إِنْ كانَ المُرادُ بِضَميرِ ﴿لَكُمۡ﴾ خُصوصَ المُؤْمِنينَ(1)، والفائِدَةُ فيهِ الحَثُّ عَلى التَّأَسّي، أو أَنْ يَكونَ ﴿لِّمَن﴾ مُتَعَلِّقًا بصفة ﴿حَسَنَةٌ﴾، أَوْ بِمَحْذوفٍ وقَعَ صِفَةً لَها؛ لِأَنَّهُ وقَعَ بَعْدَ نَكِرَةٍ، وقيلَ: يَجوزُ أَنْ يَكونَ صِفَةً لـ﴿أُسۡوَةٌ﴾(2).

دَلالَةُ إِعادَةِ ذِكرِ اللّامِ:

تـوكـيـدُ مـدحِ المُـؤمـنـين وذمِّ المنافقين بصفاتِ الاعتقادِ

أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ اللام في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، بعدَ أَنْ سَبقَ ذِكْرُها في قولِه تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾؛ تَوْكيدًا لِلّامِ الَّتي في المُبْدَلِ منهُ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: 114]، وفي إعادَةِ اللّامِ في البَدَلِ تَكْثيرٌ لِلْمَعاني المَذْكورَةِ بِكَثْرَةِ الاحْتِمالاتِ، وكُلٌّ يَأْخُذُ حَظَّهُ منها، فالَّذينَ ائْتَسَوا بِالرَّسولِ ﷺ يَوْمَئِذٍ ثَبَتَ لَهم أَنَّهم مِمَّنْ يَرْجونَ اللّٰه واليَوْمَ الآخِرَ، وذَكَروا اللّٰه كَثيرًا، وفيهِ تَعْريضٌ بِفَريقٍ مِنَ الَّذينَ صَدَّهم عَنِ الائْتِساءِ بِهِ مِمَّنْ كانوا مُنافِقينَ، أَوْ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ مِنَ الشَّكِّ في الدّينِ(3).

غرضُ ذِكرِ ﴿كَانَ﴾:

تـوكـيـدُ المعنى المذكورِ بتشييدِ الوصفِ المزبورِ

ذُكِرَ فعلُ ﴿كَانَ﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾؛ لِما في التَّعْبيرِ به مِنْ شِدَّةِ التَّأْكيدِ عَلَى المَعْنَى؛ إذِ الأَصْلُ في (كانَ) أَنْ يَكونَ دالًّا على المُضيِّ والانْقِطاعِ، ولَكِنَّه قَدْ يأْتي لِغَيرِ الدَّلالَةِ على المُضيِّ، فَيَكونُ دالًّا على الأَزْمِنَةِ الثَّلاثَةِ، فَيَكونُ بِمَعْنَى الأَزَلِ والأَبَدِ، وحينَئِذٍ يَأْتي لِتَوكيدِ المَعْنى المُرادِ(4)، فأَتَى البيانُ القرآنيُّ بِالفِعْلِ ﴿كَانَ﴾ زيادَةً على أصلِ المَعْنَى المُرادِ، وهو (لمن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 303.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 165.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 303.
(4) محمد أبو الفتوح، أسلوب التوكيد في القرآن الكريم، ص: 226.

يرجو اللّهَ واليومَ الآخر)؛ للدَّلالة على إخلاصِ المُتأسّي في خَشْيَتِه لِلّهِ تعالى، وأنَّه لا يَصِلُ العَبْدُ إلى مَرحَلَةِ التَّأسّي بالنَّبيِّ ﷺ إلّا إذا أخلَصَ في إيمانِه باللّه ورَجائِه الدّارَ الآخِرَةَ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الرَّجاء:

اختيارُ الألفاظِ تابعٌ لمقتضياتِ السّياقِ

أتى استعمالُ مفردةِ الرَّجاءِ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ دون الخوفِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ في القرآنِ غالبًا ما يَكونُ في الطَّمَعِ في الفَضْلِ والعَفْوِ والرَّحْمَةِ، فَهوَ طَلَبُ أمْرٍ مَحْبوبٍ، ويَقومُ عَلَى غَلَبَةِ الظَّنِّ لا الوَهْمِ، وهذا هوَ الرَّجاءُ بِمَعْنَى الأمَلِ والطَّمَعِ؛ لأنَّ الراجي لَيْسَ مُطْمَئِنًّا مُتَيَقِّنًا بِحُصولِ ما يَرْجو، بَلْ تُخالِجُهُ دَرَجَةٌ مِنْ تَوَقُّعِ الحِرْمانِ[1]، وهوَ مَعْنَى قَوْلِهِم: (المؤمنُ بين الخَوْفِ والرَّجاء)، فَهوَ لا يَنْفَكُّ عَنْ إحدَى الحالتين، وقَدْ آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعْبيرَ بالرَّجاءِ لِما يَحمِلُه الخَوفُ من مَعاني الهَمِّ والقَلَقِ والحُزْنِ، والمَقامُ في الآيةِ الكَريمَةِ مَقامُ مَدْحٍ بالإيمانِ واسْتِبْشارٍ بالتَّأسّي برسولِ اللّهِ ﷺ، فَناسَبَهُ التَّعبيرُ بالرَّجاءِ دونَ الخوفِ، فالآيةُ في التَّرغيبِ الظّاهرِ للمؤمنين.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغةِ المُضارِعِ:

تَجَدُّدُ رجاءِ المُؤمِنِ واسْتِمْرارُ أمَلِهِ دليلُ الإيمانِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بالفِعْلِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ في صيغَةِ المُضارَعةِ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ رجاءِ المُؤمِنِ، واسْتِمْرارِ أمَلِه في عَطاءِ اللّهِ وفَضْلِه، فليسَ المُؤمِنُ يَرْجو مَرَّةً واحِدةً، ثُمَّ يَنْقَطِعُ عنِ الرَّجاءِ، بَلْ هوَ مُسْتَمِرٌّ في التَّوَجُّهِ إلى اللّهِ سُبْحانَه بالضَّراعَةِ أنْ يَكونَ مِنَ الفائِزينَ في الدُّنْيا والآخرة، فَهوَ لا يَنْفَكُّ عَنْ مَقامِ الرَّجاءِ بالاعْتِقادِ الصحيحِ والعَمَلِ الصالحِ، وسلوكِ الصِّراطِ المُسْتَقيم.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ (الرَّبّ):

التّأسّي هو البرهانُ الواضحُ على التزامِ معالم العبوديَّة

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ الأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّة؛ لمناسبَةِ لَفْظِ الأُلوهيَّةِ لِهَذا السّياق؛ إذِ الرَّبُّ هوَ المُرَبّي، والمالكُ، والسَّيِّدُ، والمدبِّر، والقيِّم، والمُنْعِم، وهيَ صِفاتٌ عَظيمَةٌ، ولَكِنَّ ذكرَ صِفاتِ الأُلوهيَّة - وهوَ الانفرادُ بالعُبوديَّة - أَنْسَبُ في هذا السّياقِ من التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّة، فالآيَةُ إنَّما تَحُثُّ المُؤْمِنينَ على التَّأسّي برسولِ اللّهِ في حُسنِ تَعَبُّدِه للّهِ سُبْحانَه بإخلاصِ الجهادِ لهُ والصَّبْرِ على مَشاقِّ الدَّعْوَة، فَكانَ التَّعبيرُ بالأُلوهيَّةِ أنسبَ وأقْرَبَ في التَّعبيرِ عنِ المُرادِ.

غرضُ ذكرِ (اليومِ الآخر):

النّجاةُ يومَ القيامةِ الغايَةُ القُصوى وهي مِعيارُ الفَوْزِ والفَلاحِ

بعْدَ ذِكرِ التَّأسّي برسولِ اللّه ﷺ، أناطَ النَّظمُ الحكيمُ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ إرادَةَ التَّأسّي بالرَّجاءِ في ثوابِ اللّه تعالى، واقْتَصَرَ على ذكرِ اليوم الآخرِ؛ لأنَّ النَّجاةَ في هذا اليومِ العَظيمِ هيَ الغايَةُ القُصوى لِكُلِّ مؤْمِنٍ، وهي مِعيارُ الفَوْزِ والفَلاحِ، فَكُلُّ فِعْلٍ مِن أفعالِه وقولٍ مِن أقْوالِه إنَّما هوَ مَقْصودٌ لهذا اليومِ، ولذا كانَ الاقْتِصارُ على ذِكْرِه كافيًا للحثِّ على حُسنِ التَّأسّي برسولِ اللّه ﷺ.

دَلالَةُ الواوِ في قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾:

ذِكْرُ اللهِ تعالى يُعينُ راجي الله واليوم الآخر على التّأسّي والاقتداءِ

جاءتِ الواوُ عاطِفَةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾، فوَصَلَ النَّظْمُ بها بينَ الجُمْلَتينِ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ لفظًا ومَعْنًى، فَكِلتاهما حثٌّ على التَّمسُّك بإحدَى خَصائصِ الإيمانِ، وقدْ قَرَنَ البيانُ القُرْآنيُّ بالرَّجاءِ ذِكْرَ اللّه؛ لما فيه مِنَ الإشارةِ إلى ما يُعينُ على التَّأسّي والاقتداء؛ لأنَّ ذِكْرَ اللّهِ استحْضارٌ لجلالِه سُبحانَه، بحيثُ يَمْتَلِئُ القلْبُ بهيبَتِه وسُلْطانِه، وقدْ عقَّبَ النَّظْمُ الحَكيمُ على ذكرِ الرَّجاءِ بِذِكْرِ اللّهِ؛ لأنَّ المُثابَرَةَ

عَلى ذِكْرِهِ تَعالى تُؤَدّي إلى مُلازَمَةِ الطّاعَةِ، وبِها يَتَحَقَّقُ الائْتِساءُ بِرَسولِ اللّه ﷺ، فالذِّكْرُ يَمْلَأُ القلبَ بِهيبَةِ اللّهِ، حتَّى لا يَبْقَى مَكانٌ في القَلْبِ لغيرِه، فلا هَيْبَةَ إلّا هيبتُهُ، ولا سُلْطانَ إلّا سلطانُهُ، وبهذا تتكوَّنُ الطاقةُ الكُبْرى في نفسِ الذّاكِرِ الحنيفِ[1].

دلالةُ التَّعبير بالذِّكر:

الــذِّكْــرُ أعــمُّ الــعــبــاداتِ وأشملها فبذكرِه تُستحضرُ سائرُ العباداتِ

عَبَّرَ النَّظْمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالذِّكرِ عُمومًا دونَ التَّسْبيحِ أو التَّهْليلِ ونحوهما؛ لأنَّ في لفظِ الذِّكْرِ مِنَ العموم ما يقوم مقام كلِّ ذلكَ، كما أنَّ الذِّكْرَ يَكونُ مُنْفَرِدًا ويَكونُ في كثيرٍ من العباداتِ، فالمُصَلّي ذاكِرٌ، والحاجُّ ذاكِرٌ، وقارئُ القرآنِ ذاكِرٌ، وذِكر اللّه تعالى يدلُّ على استحضار الذّاكر عَظَمَةَ ربِّه ورَجاءَ ثَوابِه، فَلا يَغفَل عن التَّقرُّب إليه، والعمل الصّالح الذي به يرجو الدّار الآخرة.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

ذِكْرُ اللهِ تعالى صِــفَــةٌ ثــابِــتَــةٌ مُــتَــحَــقِّــقَــةٌ في المؤمنِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ المُضيِّ في الفِعْلِ ﴿وَذَكَرَ﴾ دونَ صيغةِ المُضارَعَةِ (يَذْكُرُ)، وذلكَ للدَّلالَةِ على ثُبوتِ فعلِ الذِّكرِ وتَحَقُّقِه في المؤمن، وعلى كَوْنِه صِفَةً ثابِتَةً مُتَحَقِّقَةً فيه، فَهوَ قَدْ ذَكَرَ اللّهَ في الماضي، وداوم على ذِكْرِه في الحالِ، وهو ذاكِرٌ له في المُسْتَقْبَلِ، فَهو أنيسُه وسميرُهُ على الدَّوامِ.

دلالَةُ استعمالِ عنوانِ الألوهيَّةِ مَعَ مقامِ الذِّكْرِ:

الــذِّكــرُ أعــظــمُ الــعــبــاداتِ، والعبادةُ أخصُّ صِفاتِ الأُلوهيّةِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ الأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ، لمناسبَةِ لَفْظِ الألوهيَّةِ لِهَذا السّياقِ، فالآيَةُ إنَّما تَمْتَدِحُ المُتأسّينَ بِرَسولِ اللّهِ بأنَّهُم أهلُ الذِّكرِ للّه، "والذِّكْرُ هوَ الغَرَضُ المَقْصودُ مِنَ العِباداتِ كُلِّها، فَإنَّها ما شُرِعَتْ إلّا لِتُعينَ على ذكرِ اللّهِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]، وقَدْ وعَدَ اللّهُ بِذِكرِ مَنْ يَذْكُرُهُ كما تَوَعَّدَ بِنِسْيانِ من ينْساه، نحو

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 158 - 160.

قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: 152]"[1]، ولِذَلِكَ كانَ التَّعبيرُ بالأُلوهيَّةِ أنسبَ لِمقامِ التَّعَبُّدِ.

دلالَةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

تـعـدُّدُ الإعـراب دلـيــلُ سـعـةِ المعنى

في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ الموصوفَ المرادَ بـ﴿كَثِيرٗا﴾، وقدْ ذَكَر المُعْرِبونَ في إعرابِ ﴿كَثِيرٗا﴾ عددًا من الوجوهِ، **الأوَّل**: أنَّها نائبٌ عن مفعولٍ مطلقٍ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ذَكَرَ اللّهَ ذِكْرًا كَثيرًا، **والثاني**: أنَّها نائبٌ عنِ الظَّرفِ صفةٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: ذَكَرَ اللّهَ وقتًا كثيرًا، والثالثُ: أنَّها حالٌ مِنَ الذِّكْرِ[2]، وسواءٌ أكانَ الموصوفُ المحذوفُ مصدرًا أم ظرفًا أم حالًا؛ فإنَّ الغرضَ من هذا الحذفِ إفادةُ العمومِ، والدَّلالة على كَثْرَةِ الذِّكْرِ وتطاولِ وقْتِه وحسنِ حالِه، "وقَرَنَ سُبْحانَهُ بالرَّجاءِ كَثْرَةَ الذِّكْرِ؛ لأَنَّ المُثابَرَةَ عَلى كَثْرَةِ ذِكْرِهِ ﷻ تُؤَدّي إلى مُلازَمَةِ الطّاعَةِ، وبِها يَتَحَقَّقُ الائْتِساءُ بِرَسولِ اللّهِ ﷺ "[3]، فالذّاكر يذكر اللّه ذكرًا كثيرًا في الوقتِ كلِّه، وفي الأحوالِ كلِّها، فتعدُّدُ الإعراب دليلُ سَعة المعنى.

(1) حمد الحريقي، التوحيد وأثره في حياة المسلم، ص: 56.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 246.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 165.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزاب: 22]

بعدَ ذِكرِ فضيلةِ التأسّي يأتي بيانُ صفاتِ المتأسّين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذُكِرَتْ أقوالُ المُنافقينَ والَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ المُؤْذِنَةُ بِما يُداخِلُ قُلوبَهُمْ مِنَ الخَوْفِ وقِلَّةِ الإيمانِ والشَّكِّ فيما وعَدَ اللّه بِهِ رَسولَهُ ﷺ والمُؤْمِنينَ مِنَ النَّصرِ ابْتداءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: 12]، قوبِلَتْ أقْوالُ أولَئِكَ بِأقْوالِ المُؤْمنينَ حينَما نَزَلَتْ بِهِمُ الأحْزابُ، ورَأوا كَثْرَتَهُمْ وعددهُم، وكانوا عَلَى بَصيرَةٍ مِنْ تَفَوُّقِهِمْ عليهِمْ في القوَّةِ والعَدَدِ أضْعافًا، وعَلِموا أنَّهُمْ قَدِ ابْتُلوا، وزُلْزِلوا، كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يُخِرْ عَزائِمَهُمْ، ولا أدْخَلَ عليهِمْ شَكًّا فيما وعَدَهُمُ اللّه مِنَ النَّصرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَنَا﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ[2]، يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا، ومَوْعِدًا، وميعادًا[3]، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، وممّا يتضمَّنُ الأمْرَيْنِ قولُ اللّه ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [يونس: 55]، فهذا وعْدٌ بالقيامة، وجزاء العباد إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، والمَوْعِدُ والميعادُ يكونان مصدرًا واسمًا، فَأمّا الوَعيدُ؛ فَلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ، يَقولونَ: أوْعَدْتُهُ بِكَذا، وكذلك الإيعادُ يكونُ في الشَّرِّ وحدَه[4]، والمَعْنَى المِحْوَرِيُّ الاحْتِواءُ عَلَى ما يوجَدُ مُسْتَقْبَلًا زائدًا عن الحال[5]، واخْتُلِفَ في المرادِ بِوَعْدِ اللّهِ ورَسولِهِ، فَقالَتْ فِرْقَةٌ: أرادوا ما أعْلَمَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (وعد).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (وعد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).

بِهِ رَسولُ اللهِ ﷺ حينَ أمَرَ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ، فَإنَّهُ أعْلَمَهم بِأنَّهم سَيُحْصَرونَ، وأمَرَهم بالاسْتِعْدادِ لِذَلِكَ، وبِأنَّهم سَيُنْصَرونَ بَعْدَ ذَلِكَ، وقالَتْ فِرْقَةٌ: أرادوا بِوَعْدِ اللهِ ما نَزَلَ في سورَةِ البَقَرَةِ، مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾ [البقرة: 214]، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ المُؤْمِنونَ نَظَروا في هَذِهِ الآيَةِ، وفي قَوْلِ رَسولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ أمْرِهِمْ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ، وأشاروا بِالوَعْدِ إلى جَميعِ ذَلِكَ، وهي مَقالَتانِ، إحْداهُما مِنَ اللهِ تَعالى، والأُخْرى مِن رَسولِهِ ﷺ [1].

2) ﴿زَادَهُمْ﴾: (زيد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الفَضْلِ، يَقولونَ: زادَ الشَّيْءُ يَزيدُ، فَهوَ زائِدٌ، وهَؤُلاءِ قَوْمٌ زَيْدٌ عَلَى كَذا، أي: يَزيدونَ[2]، والزِّيادة: النُّموُّ، وكَذَلِكَ الزَّوَادَةُ، والزِّيادَةُ: خِلافُ النُّقْصانِ، وزاد الشيءُ يزيدُ زَيْدًا وزيدًا وزيادَةً وزيادًا ومَزيدًا ومَزادًا، والزَّيْدُ والزِّيدُ: الزِّيادَةُ[3]، والزِّيادَةُ: أنْ يَنْضَمَّ إلَى ما عليه الشَّيْءُ في نَفْسِه شَيْءٌ آخَرُ، والمَقْصودُ هُنا زيادَةُ الإيمانِ في حدِّ ذاتِه، أوْ زيادَةُ أوْصافِه وما يُؤْمِنُ به المُسلِمُ[4].

3) ﴿وَتَسْلِيمًا﴾: (سلم) مُعْظَمُ بابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، فالسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإنْسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هوَ السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ[5]، والتَّسْليم عامٌّ في القلبِ واللِّسان والجوارح، فَإنَّ كُلَّ تَصْديقٍ بِالقَلْبِ فَهوَ تَسْليمٌ وتَرْكٌ للإباءِ والجُحودِ، وكَذَلِكَ الاعْتِرافُ بِاللِّسانِ، وكَذَلِكَ الطّاعَةُ والانقيادُ بالجَوارِحِ[6]، والتَّسْليمُ نوعانِ: تَسْليمٌ لِحُكْمِ اللهِ الدّينيِّ الأمْريِّ، وتَسْليمٌ لِحُكمِهِ الكَوْنيِّ القدَريِّ، فأمّا الأوَّلُ؛ فَهوَ تسليمُ المؤمنينَ العارفينَ، وأمّا التسليمُ للحُكْمِ الكَونيِّ؛ فالرِّضا بِالقَضاءِ، والتَّسْليمُ هو الخَلاصُ من شُبهةٍ تُعارِضُ الخَبَرَ، أو شَهْوَةٍ تُعارِضُ الأمرَ، أوْ إرادةٍ تُعارِضُ الإخلاصَ، أو اعتراضٍ يُعارِضُ القَدَرَ والشَّرْعَ، ومَنْ فَعَلَ ذلكَ؛ فَهوَ صاحِب

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 377.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زيد).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(6) الغزالي، قواعد العقائد، ص: 236 - 237.

القَلْبِ السَّليم الَّذي لا يَنْجو إلّا مَن أتى اللّهَ به، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ التَّسْليمَ ضِدُّ المُنازَعَةِ، وهوَ مَحْضُ الصِّدّيقيَّةِ[1]، وهوَ المُرادُ هَهُنا.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

أهَمُّ سِماتِ المُؤمنينَ الصّادِقينَ التَّسليمُ والانقيادُ للهِ ولرسولِهِ ﷺ

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ حالَ المُؤْمنينَ عِنْدَ لِقاءِ الأعداءِ، فأوْضَحَت أنَّه لَمّا شاهَدَ المُؤْمنونَ - المُصَدِّقونَ بمَوْعودِ اللّهِ لَهُم، المُخْلِصونَ في القَوْلِ والعَمَلِ - الأحْزابَ المُتَجمِّعَةَ حولَ المَدينةِ، قالوا: هذا ما وعَدَنا اللّهُ ورَسولُه مِنَ الابتلاءِ والاخْتِبارِ بمُجابَهةِ الأعداءِ ثُمَّ النَّصرِ القَريبِ، وصَدَقَ اللّهُ ورَسولُه الوعدَ بالنَّصْرِ، وما زادَهُم تَجَمُّعُ الأعداءِ وتِلْكَ الحالُ مِنَ الشِّدَّةِ والضّيقِ إلّا إيمانًا باللّهِ، وتَصْديقًا لِرَسولِه ﷺ، وتَسْليمًا لِقَضائه وقَدَرِه وانْقيادًا لأوامِرِه وطاعةً لرَسولِه ﷺ، واعتِقادًا جازِمًا أنَّ النَّصْرَ مِنْ عندِ اللّهِ تَعالَى.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الواوِ العاطفة:

التَّقابلُ بين المنافقين والمؤمنين يكشفُ مواقفَهم ويُبيِّن حقائقَهم

الواوُ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ عاطِفَةٌ الآيةَ على قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ [الأحزاب: 12]؛ لبيانِ التَّقابل بين الفريقين، فكلٌّ منهم صدرَ قولُه عن إيمانِه وموقفه من وعدِ اللّه تعالى ووعدِ رسولِه، ففيها مزيدُ مدحٍ للمؤمنين، وتعيينٌ للمتأسّين برسولِ اللّه ﷺ، فلهذا ناسب تأخيرُ ذِكرِ موقفِ المؤمنين بعد الأمر بالتَّأسّي.

فائدةُ استعمالِ (لمّا):

سُرْعَةُ الاستجابةِ بلا رَيثٍ ولا إبطاءٍ دليلٌ على قوَّةِ الثَّباتِ والرَّجاء

(لمّا) في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ ظرفيَّةٌ حينيَّةٌ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾، أو رابطةٌ مُتضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ[2]، أي: قال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ عند رؤية

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (سلم).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 622.

الأحزابِ، وقدْ عَلَّقَ النَّظْمُ قَولَ المؤمنينَ برؤيةِ الأحزابِ؛ للدَّلالَةِ عَلَى أنَّ هذا القولَ مِنْهُم كانَ بِلا رَيثٍ ولا إبطاءٍ، أي: ما إنْ رأَوْهُم حَتَّى قالوا مَقالَتَهُم الَّتي تَدُلُّ على ثباتِهم وصُمودِهم، وذَلكَ دليلٌ على فَرْطِ اليَقينِ، وقوَّةِ الثِّقَةِ، ومَتانَةِ الإيمانِ، وهذا لا يُنافي أنَّ القَوْمَ رُعِبوا، وفَزِعوا كَما بيَّنتِ الآياتُ الأولى مِنَ السّورَةِ، فالخَوفُ مِنَ الهَولِ تابِعٌ للفِطْرَةِ، بل هوَ مُحَفِّزٌ شَديد القوَّةِ لشَحْذِ القوى للدِّفاعِ والاسْتِبْسالِ، وقدْ يكونُ التَّعبيرُ بِهذا الأُسلوبِ طَلَبًا لِتَثْبيتِ القُلوبِ واستِشْعارِها الأمْنَ بتذكُّرِ وعْدِ اللّه، أوْ لَفْتًا إلى ما يوجِبُه التَّسْليمُ للّهِ من القرارِ والاطمئنانِ[1].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ برؤية الأحزابِ لا مجيئهم:

إظْهارُ ثباتِ المؤمنينَ وصُمودِهم عندَ الرَّؤيةِ الفِعْليَّةِ العَيْنيَّةِ

جاء التَّعبير القرآنيُّ كاشفًا لأخلاق المؤمنين في قوْله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾، فلَمْ يَقُل: (ولَمّا جاءَ الأحزابُ) مثلًا، وذلك لبيانِ أنَّ قولَهم هذا كانَ بمجرَّدِ رؤيةِ الأحزابِ، ففيه إظْهارٌ لاستحضارِ المؤمنينَ موعودَ ربِّهم تعالى ونبيِّه ﷺ، فإنَّهم بادروا القولَ بمجرَّدِ الرَّؤيةِ الفِعْليَّةِ العَيْنيَّةِ.

بلاغةُ التَّعريض باختيارِ لفظ الإيمان:

نعتُ المؤمنين بهذا الوصفِ تعريضٌ بالمنافقين الذين لم يُؤمنوا

آثَر النَّظْمُ الحكيمُ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ لَفْظِ (المُسْلمينَ)؛ لأنَّ لَفْظَ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أخَصُّ في الدَّلالَةِ مِنْ لَفْظِ (المُسْلمينَ)، وهوَ في هذا السياقِ أشَدُّ إبْرازًا لأهَمِّ خصائصِ المُسلم، وهو أنْ يَتَمَكَّنَ الإيمانُ مِنْ قَلْبِه تَمكُّنًا تامًّا، فلا يكْتَفي بالإذْعانِ والتَّسْليم، بلْ ينْطَلِقُ؛ ليُفَعِّلَ خصائصَ الإيمانِ على نَحْوٍ عَمَليٍّ بنّاءٍ، يَدْفَعُ به غائِلَةَ العَدوِّ، ويَحْمي بِه بيضَةَ الإسلامِ، ويذود عن أهْلِه بنفْسِه ومالِه،

(1) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 167.

كما أنَّ التَّعبيرَ بصِفَةِ الإيمانِ تَمْييزٌ لهذهِ الفِئَةِ المُخْلِصَةِ المُتفانيَةِ، عنْ كلِّ من ادَّعى الإسلامَ ظاهِرًا، دونَ أن يتَغَلغَلَ الإيمانُ في قلبِه واقعًا، وهُم المنافقونَ، ففيها التَّعريضُ بالمنافقين الذين قيل فيهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾.

نكتةُ التَّعْبيرِ بالاسمِ الظَّاهرِ دون الموصول:

المؤمنونَ اسمٌ عَلَمٌ يُطلقُ على الثَّابتين في مواجهةِ الباطلِ

في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ باسْمِ الفاعِل من غير الثلاثي ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، دونَ التَّعْبيرِ بالاسم الموصولِ (الَّذينَ آمنوا)؛ وذلكَ لِما في التَّعبيرِ باسم الفاعِلِ من إفادَةِ الثَّباتِ والدَّوام على الصِّفَةِ، فَهَذِه الفِئَةُ المُخْلِصَةُ المُتفانيَةُ قدْ تحقَّق الإيمانُ في نُفوسِهم في الماضي، وهُم مُسْتَمْسِكونَ به في الحالِ والاستقبالِ، على النَّقيضِ مِنَ المُنافِقينَ الَّذينَ لَمْ يَتَحَقَّقوا به في الماضي ولا في الحالِ، ولذا كانَ التَّعبيرُ باسم الفاعلِ أشدَّ في الدِّلالَةِ على استمساكِهم بإيمانِهم، خاصَّةً أنَّ الآيَةَ واردَةٌ عَقِبَ ذِكْرِ المُنافِقينَ، وليكونَ هذا النَّعتُ كالاسمِ العلَمِ على الذين يثبتون في أوقات الفتن والبلاء.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

أفاد تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معنى الكمال، "أي: الكامِلونَ في الإيمانِ"(1)، فهم الذين تغلغلَ الإيمانُ في قلوبِهم، فكان منهم ذلك الجهادُ، وذلك الثَّبات، ولا يكون ذلك إلّا للكُمَّلِ.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾:

بيانُ سببِ مقالِ المؤمنين الذي استحقّوا به مفارقةَ المنافقين

أظهر النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ الأحزابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾، لأمن لبس الاحتمالِ، وإعادةُ ذكْرِ الأحزاب كانَ بيانًا للسَّبَبِ الَّذي لأجلِه قال المؤمنونَ مقالَتَهم، وإيضاحًا للامتنانِ في قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 324.

عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: 9]، وكذلك فإنَّ في التَّصْريح بذكْرِ الأحزابِ إظْهارًا للمفارقةِ بين استجابَةِ المؤمنينَ، وخَورِ المُنافقينَ وهَلَعِهم الَّذي كَشَفَهُ قولُ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلفظِ القَوْلِ:

قــولُ الـخـيـر نعمةٌ يمنُّ بها الله على عبادِه المؤمنين

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفِعْلِ القولِ ﴿قَالُواْ﴾؛ جوابًا للشَّرْطِ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ وذلِكَ لِما في التَّعبيرِ بالقَولِ مِنْ قوَّةِ التَّصْريحِ عَمّا في نُفوسِهم من الثباتِ والصُّمودِ، فَهُم لمْ يَكْتَفوا باعْتِقادِهم الصّادِقِ الرّاسِخِ، وإنَّما آثَروا الإبانَةَ الواضِحَةَ عنْه بالقولِ البليغِ؛ تشجيعًا لِغَيْرِهم وحَثًّا لهُم وشدًّا من أزْرِهِم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الوعدِ:

التَّعبيرُ بالوعدِ يـفـيـدُ مَـعْـنَـى البِشارَةِ والخبرِ

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ التَّعبيرَ بمادَّةِ الوعدِ، دونَ مادَّةِ الإخبارِ؛ لأنَّ الوعدَ هو الإخْبارُ بإيصالِ الخَيْرِ في المُسْتَقْبَلِ[1]، ففيه بِشارَةٌ وإخبارٌ في الآنِ نفْسِه، أمّا الخبرُ؛ فَهوَ العلمُ بالأشْياءِ المَعْلومَةِ مِنْ جِهَةِ الخَبَرِ، فلا يَتَضَمَّنُ ما يتضَمَّنُه الوعدُ مِنَ البِشارَةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغةِ الماضي:

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ في قوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ الماضي؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ الوعدِ وثباتِه، فوعدُ اللّهِ سواء بالنَّصرِ أم الابتلاء أَمْرٌ ثابتٌ لا محيدَ عَنْهُ.

دَلالَةُ إسْنادِ الوَعْدِ إلَى لَفْظِ الجَلالَةِ:

أَسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ الوعدِ في قوْلِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا

(1) الكرماني، الكواكب الدراري: 1/ 147.

﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لله ﷻ؛ للدِّلالةِ على شرفِ الوعدِ وعظيمِ مكانتِه، فإذا كانَ الوعَدُ من قِبَلِ اللّهِ؛ فلا شكَّ أنَّهُ وعْدٌ عظيمٌ شريفٌ، لا يُدانيه وعدٌ، وفيه أيضًا دلالةٌ على صِدقِ تحققِه؛ لأنَّه وعد اللّه العظيم الذي لا يخلف وعده، ومَن أصدقُ من اللّه قيلًا وحديثًا ووعدًا؟

إذا كـانُ الـوعَـدُ مِـنْ قِـبَـلِ اللهِ؛ فلا شكَّ أنَّهُ وعْدٌ عظيمٌ شريف، لا يدانيه وعدٌ

غرضُ عَطْفِ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على لَفْظِ الجلالَةِ:

عطَفَ البيانُ القرآنيُّ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لفظَ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على لفْظِ الجلالَةِ لبيانِ عظيمِ مكانتِه ﷺ وشريفِ منْزِلَتِه عند اللّهِ، فالوعدُ ابتداءً من اللّهِ سُبحانَه، وما رسولُ اللّه ﷺ سوى مُبَلِّغٍ لَه عنْ رَبِّه، إلّا أنَّ النَّظْمَ الحَكيمَ عطَفَهُ؛ ليَلفِتَ أنظارَ النّاسِ عامَّةً والمسلمينَ خاصَّةً إلى عظيمِ مكانةِ رسولِ اللّه ﷺ، لتتحقَّقَ الأُسْوَةُ والقدْوَةُ على أكْمَلِ درجاتها.

عظيمُ مكانتِهِ ﷺ وشريفُ منْزِلَتِهِ عند اللهِ تعالى

نكتةُ استعمالِ نعت الرسول دون النَّبيِّ:

في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ جاء التَّعبيرُ باستعمالِ نعتِ الرِّسالَةِ دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ نعتَ الرِّسالَةِ يقْتَضي التَّبْليغَ عن اللّهِ سبحانه، ولمّا كانَ الوعدُ يتَضمَّنُ التَّبْليغَ بالضَّرورة، فكانَ الأنْسَبُ للسياقِ التَّعبيرَ بالرِّسالةِ دون النُّبوَّةِ.

اختيارُ الألفاظِ لمناسبةِ السياقِ

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالماضي ﴿وَصَدَقَ﴾:

حَكَى النَّظْمُ الحكيمُ قولَ المُؤْمنينَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾، فالكلامُ مُسْتَعْمَلٌ في الخَبَرِ عَنْ صِدْقٍ مَضى وعَنْ صِدْقٍ سَيَقَعُ في المُسْتَقْبَلِ، وهو ما وُعِدوا به من الشِّدَّة والنَّصرِ بَعدَ ذلك، فَهوَ وعدٌ مُحَقَّقٌ وُقوعُهُ بِحَيْثُ يُجْعَلُ اسْتِقْبالُهُ كالمُضيِّ مِثْلَ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، فَهو مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنى التَّحَقُّقِ، أَوْ هو اسْتِعْمالُ اللَّفْظِ في حَقيقَتِهِ ومَجازِه، ولا شَكَّ أنَّ مَحْمَلَ الفِعْلِ عَلى الصِّدْقِ في المُسْتَقْبَلِ أنْسَبُ بِمَقامِ الثَّناءِ عَلى المُؤْمنينَ وأعْلَقُ بِإناطَةِ قَوْلِهِمْ

الكلامُ مُسْتَعْمَلٌ في خَـبَرِ المـاضي والمستقبلِ

بِفِعْلِ: ﴿رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: ولَمّا جاءَتِ الأحْزابُ، فَإنْ أبَيْتَ اسْتِعْمالَ اللَّفْظِ في حَقيقَتِهِ ومَجازِه، فاقْصُرْهُ عَلى المَجازِ، واطْرَحِ احْتِمالَ الإخْبارِ عنِ الصِّدْقِ الماضي[1]، وفي ذلكَ دلالَةٌ على ثباتِ المؤمنينَ وحُسنِ توكُّلِهم على اللّهِ وصحَّةِ اعتقادِهم.

فائدةُ إظهارِ لفظِ: ﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ دونَ الإضْمارِ:

ما نطقتِ الألسنُ ولا سمعتِ الآذانُ أعظمَ من اسميهما

أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الجلالةِ واسمَ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ مُظهرينِ مَعَ سَبْقِ الذِّكْرِ لهما في الآيةِ نفسِها؛ لِكَمالِ تَعْظيمِهما وتَشْريفِهما، ولِأنَّهُ لَوْ أُضْمِرَ، فقيلَ: (وصَدَقا)؛ لجاءَ الجَمْعُ بَيْنَ اللّهِ تعالى وغَيْرِهِ في ضَميرٍ واحِدٍ، والأَوْلى تَرْكُهُ، أوْ قيلَ: (وصَدَقَ هوورَسولُهُ)؛ لبَقيَ الإظْهارُ في مَقامِ الإضْمارِ[2]، كَما أنَّ في ذِكْرِ الألوهيَّةِ والرِّسالةِ مددًا أيَّ مَدَدٍ لهَذه القلوبِ الشَّفّافَةِ الَّتي لا ترى أحبَّ إليها مِنَ اللّهِ ورسولِه[3]، ثمَّ إنَّ إعادةَ ذكرِ هذين اللَّفظين نطقًا وسماعًا يتركُ في القلبِ لُطفَ المأخذِ، وجمالَ الرّوحِ.

غرضُ حذفِ مُتَعَلِّقِ فعلِ ﴿وَصَدَقَ﴾:

إرادةُ عمومِ ما أخبرا بوقوعِهِ في الدُّنيا والآخرة

حذَفَ النَّظْمُ الكريمُ مُتَعَلِّقَ فعلِ الصِّدْقِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لإرادةِ العمومِ والإطلاقِ، فإنَّ اللّهَ تباركتْ آلاؤه هو الصّادِقُ البَرُّ الرحيمُ الَّذي اتَّصفَ كُلُّ ما أخبرَ به، أو وعدَ به بالصِّدقِ من أمورِ الدُّنيا، سواءٌ أكانَ وعْدًا أم ابتلاءً، أم نَصْرًا، أو كانَ في الآخرةِ بعثًا وحسابًا وجزاءً، كما أنَّ رسولَه الكريمَ ﷺ صادقٌ أبلغ الصِّدقِ وأوفاه في كُلِّ ما أخْبَرَ به عن ربِّهِ في وعدِه ووعيدِه، وفي كلِّ ما أتى به من أمْرٍ، فإرادةُ العمومِ باديةٌ واضحةٌ، بل لا يُفْهَمُ من النَّصِّ الكريمِ سواهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 305.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 166.

(3) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 172.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالزّيادَةِ مادَّةً وصيغَةً:

المِحَنُ والشَّدائدُ لا تزيدُ المؤمنينَ إلّا صلابَةً وعِزَّةً وثوابًا

عَبَّرَ النَّظْمُ الكريمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ عن مدى ثباتِ المؤمنينَ وحُسْنِ تَوَكُّلِهم على اللّه سبحانه بتقرير الإيمان وتوكيدِ التَّسليم، واستعملَ مادة الزّيادَة؛ لأنَّ الزّيادَةَ: أنْ يَنْضَمَّ إلَى ما عليه الشَّيْءُ في نَفْسِه شَيْءٌ آخَرُ، والمَقْصودُ هُنا زيادَةُ الإيمانِ في حدِّ ذاته، أوْ زيادَةُ أوْصافِه وما يُؤْمِنُ به المُسلمُ[1]، فدلَّ التَّعبيرُ بِلَفظِ الزّيادة عَلى أنَّ أصلَ الإيمانِ والتَّسليم مُتَحَقِّقٌ في قُلوبِهمْ قَبلَ أن يَرَوا الأحزابَ، فَلَمّا رَأوهمْ؛ زادَهم ذَلكَ إيمانًا عَلَى إيمانِهم وتَسليمًا على تَسْليمِهم، وقدْ آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي؛ للدِّلالَةِ على التَّحَقُّقِ والدَّوام؛ تأكيدًا لثباتِ المؤمنينَ، وأنَّهُم لا تزيدُهم المِحَنُ والشَّدائدُ إلّا صلابَةً وعزَّةً في دينِ اللّهِ سبحانَه، وهوَ ثَمَرَةٌ من ثمارِ رسوخِ العقيدةِ وثباتِ الإيمانِ، وتَأْنيثُ الرُّؤيَةِ غَيْرُ حَقيقيٍّ، والمَعْنَى: ما زادَتهُمُ الرُّؤيَةُ إلّا إيمانًا بالرَّبِّ وتسليمًا للقضاء، وقال بعضُهم: وما زادَهُمُ النَّظَرُ إلَى الأحزاب[2]، وهو تَفَنُّنٌ في التَّعبير من ضروب النَّظمِ الكريم.

دلالةُ الضَّميرِ المستتِرِ:

الابتلاءُ العظيمُ لا يزيدُ المؤمنين إلّا استِبْشارًا وإقبالًا

الضَّميرُ المُستَتِرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ عائِدٌ إلى ما عادَ إلَيْهِ اسْمُ الإشارَةِ، أيْ: وما زادَهم ما رَأوا إلّا إيمانًا وتَسْليمًا، فالمؤمنون بِعَكْسِ حالِ المُنافِقينَ الذين زادَهم شَكًّا في تَحقُّقِ الوَعْدِ، والمَعْنى: وما زادَ ذَلِك المُؤمِنينَ إلّا إيمانًا، أيْ: ما زادَ في خَواطِرِ نُفوسِهِمْ إلّا إيمانًا، أيْ: لَمْ يَزِدْهم خَوْفًا عَلى الخَوْفِ الَّذي مِن شَأْنِه أنْ يَحْصُلَ لِكُلِّ مُتَرَقِّبٍ أنْ يُنازِلَهُ العَدُوُّ الشَّديدُ، بَلْ شَغَلَهم عَنِ الخَوْفِ والهَلَعِ شاغِلُ الاسْتِدْلالِ بِذَلِك عَلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 167.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 157.

صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ فيما أخْبَرَهم بِهِ، وفيما وعَدَهُمُ اللهُ عَلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ مِنَ النَّصرِ، فَأعْرَضَتْ نُفوسُهم عَنْ خَواطِرِ الخَوْفِ إلى الاسْتِبْشارِ بِالنَّصرِ المُتَرَقَّبِ(1).

بلاغةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

تقريرُ حقيقةِ الإيمانِ في نفوسِ المؤمنين، وتمكينُهُ من قلوبِهِم

دلَّ أسلوبُ القصرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ على تقريرِ حقيقةِ الإيمانِ في نفوسِ المؤْمنينَ، وعلى تَمْكينِهِ من قلوبِهم، ولِدَفْعِ أيِّ شُبْهَةٍ مِنْ إنكارٍ أو شكٍّ قد تعتري قلبَ أحدٍ مِنَ النّاسِ، ودلَّ كذلكَ على شدَّةِ المُقابَلَةِ بينَ ثباتِ هؤلاءِ المُخلِصينَ على إيمانِهم في مقابلِ شدَّةِ الخَورِ والجُبْنِ وفسادِ الاعتقادِ في قلوبِ المنافقينَ، فدلَّ القصر هنا باستعمال (ما) النّافية والاستثناء بـ﴿إِلَّآ﴾ على أنَّ نُفوس أهل الإيمان لم يداخلها شيءٌ غير الاطمئنان بموعود اللهِ تعالى ورسوله ﷺ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿إِيمَٰنًا﴾:

الإيمانُ العظيمُ يولدُ من رَحِمِ الشَّدائِدِ والأهْوالِ

جاءت كلمةُ ﴿إِيمَٰنًا﴾ نَكِرَةً في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ لتعْظيمِ الإيمانِ، فَهوَ إيمان عامٌّ شامِلٌ، يسعُ الدُّنْيا بأسرِها، وما ذاكَ إلّا لأنَّه إيمانٌ جاء بعد تصديقٍ بموعودِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ، ثمَّ زادَ تحقُّقه بِمُعاينةِ هذا الموعودِ رأْيَ العينِ، فجمع بين الإيمان بالغيب وطمأنينة القلب برؤية الوعد، كمال قال خليل اللهِ تعالى إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260].

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ وتنكيره:

الانْقِيادُ والطّاعَةُ والرِّضا أبينُ علاماتِ التَّسليمِ

وجاءت كلمةُ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ نَكِرَةً في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ للمُبالَغَةِ في ذَلِكَ الإيمانِ، فَهوَ تَسْليمُ الرِّضا واليقينِ بنصرِ اللهِ، فلا يكادُ يتَلَجْلَجُ في قلب الواحدِ مِنْهم شكٌّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 305.

أو تَعْتَملُ في نَفسِه شُبْهَةٌ؛ إذ التَّسْليمُ الحَقُّ هوَ الخَلاصُ من شُبهةٍ تُعارِضُ الخَبَر، أو شَهْوَةٍ تُعارِضُ الأمرَ، أوْ إرادةٍ تُعارِضُ الإخلاصَ، أوِ اعتراضٍ يُعارِضُ القَدَرَ والشَّرْعَ، ومَنْ فَعَلَ ذلك؛ فَهوَ صاحِب القَلْبِ السَّليم الَّذي لا يَنْجو إلّا مَن أتى اللهَ به، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ التَّسْليمَ ضِدُّ المُنازَعَة، وهوَ مَحْضُ الصِّدّيقيَّة[1]، وهوَ عينُ المرادِ من المُبالَغَة بالتَّنْكير هَهُنا.

نكتةُ عَطْفِ ﴿وَتَسۡلِيمٗا﴾ على ﴿إِيمَٰنٗا﴾:

التَّسْليمُ مَرْتَبَةٌ صاعِدَةٌ في مَراتِبِ الإيمانِ فهو من عطفِ النَّتيجةِ على السَّبب

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّسْليمَ على الإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾؛ لأنَّ التَّسْليمَ مَرْتَبَةٌ صاعِدَةٌ في مراتِب الإيمانِ؛ إذْ إنَّ زيادَةَ الإيمانِ تَقودُ إلى التَّسليم، فالتَّسْليمُ ثَمَرَةُ قوَّة الإيمانِ وعنْوان رُسوخِ القَدَم في بابِ اليقينِ، فَهو يوجَدُ عندَ المَرتَبَة الأعلى من مَراتِب الإيمانِ، ويُرْشِدُنا إلى ذلكَ وقوعُه بعدَ الإيمانِ في الآيةِ، وهَذا التَّسْليمُ والاستسلامُ للمَعْبودِ تعالى - الَّذي هوَ مرتبةٌ عليا في مراتبِ الإيمانِ - ضَرْبٌ قويٌّ من ضروبِ الإيجابيَّةِ الفعّالة، وطاقَةٌ هائلَةٌ تدفعُ المؤمنَ إلى اقتحامِ الأهوالِ في سبيل نُصرةِ الحقِّ[2]، فهو هنا من عطفِ النتيجةِ على السَّبب.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيَةُ والنَّظَرُ:

الرُّؤيةُ: إدراكُ الشيءِ إدْراكًا حَقيقيًّا، والنَّظَرُ طلبُ ظُهورِه أو التَّفَكُّرُ فيه

النَّظرُ طلب الهدى، والشّاهِد قَوْلهم: نظرت فَلم أرَ شَيْئًا، كما أنَّه طلب ظُهور الشَّيْء، والنّاظِرُ الطّالِبُ لِظُهورِ الشَّيْء، واللهُ ناظرٌ لِعبادِهِ بِظُهورِ رَحمته إيّاهُم، ويكون النّاظِرُ الطّالِبُ لظُهورِ الشَّيْءِ بِإدْراكِهِ من جِهَة حاسَّة بصره أو غَيرها من حواسِّه، ويكونُ النّاظرُ إلَى لين هَذا الثَّوب مِنْ لِينِ غَيره، والنَّظر بِالقَلْبِ ومن جِهَة التَّفَكُّر،

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (سلم).
(2) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 174.

والانتظارُ التَّوَقُّف لِطَلَبِ وقتِ الشَّيْءِ الَّذي يصلح فيه، والنَّظَرُ أيضًا هوَ الفِكْرُ والتَّأمُّلُ لأحوالِ الأشْياءِ ألا ترى أن النّاظرَ على هَذا الوَجْه لا بُدَّ أن يكونَ مُفَكِّرًا، والمُفَكِّرُ عَلَى هَذا الوَجْهِ يُسمَّى ناظرًا، وهوَ مَعْنًى غيرُ النّاظرِ وغيرُ المنظورِ فيهِ ألا ترى أنَّ الإنْسان يفصل بَين كَونه ناظرًا وكَونه غير ناظر، ولا يوصف القَديم بالنَّظرِ؛ لأنَّ النَّظر لا يكون إلّا مَعَ فقْدِ العلم، ومَعْلوم أنَّه لا يصلح النَّظر في الشَّيْء ليُعلم إلّا وهوَ مَجْهول، والنَّظَر يُشاهد بالعينِ، فَيُفرق بَين نظر الغضبان والراضي، وأُخْرَى فَإِنَّهُ لَو طلب جماعَة الهلال، ليُعلم من رآه مِنْهُم مِمَّن لم يره، مَعَ أنَّهم مِمَّن لم يره رغم أنَّهم جَميعًا ناظرون؛ لصَحَّ بِهَذا أن النَّظر تقليب العين حيال مَكان المرئي طلبًا لرُؤْيَته، والرؤية هيَ إدْراك المرئي، ولمّا كانَ اللّه تَعالَى يرى الأشْياء من حَيْثُ لا يطْلب رؤيتها؛ صَحَّ أنَّه لا يوصف بالنَّظرِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الثَّناءُ على المجاهدين الصّادقين بعد الثّناء العامِّ على المؤمنين

لمّا أثنى اللّه سبحانه على جميع المؤمنين الخُلَّصِ على ثباتهم ويقينهم واستعدادهم للقاء العَدوِّ الكثير يومئذٍ، وعزمهم على بذل أنفسهم، ولم يُقَدَّرْ لهم لقاؤُهُ؛ أعقبه بالثَّناء على فريق منهم، كانوا وفَّوا بما عاهدوا اللّه عليه وفاء بالعمل والنِّيَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَدَقُواْ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّة في الشَّيء قولًا وغيره، مِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ خِلافُ الكَذِبِ، سُمّيَ لقوَّته في نفسه، ولأنَّ الكذب لا قوَّة له، هو باطل، وأصل هذا من قولهم: شَيْءٌ صَدْقٌ، أيْ: صُلْبٌ، ورُمْحٌ صَدْقٌ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[2]، وقيل: بل يقال لمن لا يكذب قَطُّ، وقيل: بل لمن لا يتأتّى منه الكذب لتعوُّده الصِّدقَ، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده وحقَّق صدقه بفعله[3]، فالمرادُ من قوله: ﴿صَدَقُواْ﴾: أنَّهم وفَوا بما عاهدوا عليه رسوله ﷺ من الثَّبات معه، والمقاتلة لمن قاتله[4].

2) ﴿عَٰهَدُواْ﴾: (عهد) أصلٌ يدلُّ على حفظ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حال[5]، وعبَّر عنه الخليل بقوله: الاحتفاظ بالشَّيء وإحداث العهد به، وكذلك التَّعَهُّدُ والاعْتِهاد[6]، فمن ذلك قولهم: عَهِدَ الرَّجُل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 307.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 313.
(5) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(6) الخليل، العين: (عهد).

يعهد عهدًا، وهو من الوصيَّة، وإنَّما سُميت بذلك؛ لأنَّ العهد ممّا ينبغي الاحتفاظ به، وسُمّي المَوْثِقُ الذي يلزم مراعاته عهدًا، وللعهد معانٍ كثيرة جدًّا، منها: اليمين والذِّمَّة ورعاية الحقِّ والأمان... إلخ، وكلُّها راجعة إلى الأصل المذكور[1].

ومعناه في الآية: أنَّ الصَّحابة صدقوا ما نذروا على أنفسهم مِنَ الثَّبات مع الرَّسول ﷺ، والمقاتلة لإعلاء الدّين، والصَّبر في البأساء والضَّرّاء وحين البأس[2].

3) ﴿قَضَىٰ﴾: (قضى) تدور تصاريفها على إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه[3]، ومِنْهُ القضاءُ بمعنى: الأداء والإنهاء[4]، ومِنَ البابِ: قضاءُ الدَّينِ؛ لأنَّه أداؤُهُ وإيصالُهُ إلى صاحبِه[5]، ولذلك سُمّي القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يحكم الأحكامَ، وينفِّذها، وسُمّيت المَنِيَّة قضاء؛ لأنّه أمرٌ يَنفُذُ في ابن آدم وغيرِه من الخلق، ومعناه في الآية الوفاء وإدراك الحاجة والأمنية[6].

4) ﴿نَحْبَهُۥ﴾: (نحب) أصلٌ يدلُّ على نَذرٍ وما أشبهه من خطرٍ أو إخطار شيء[7]، ومنه النَّحب: النَّذْر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نَحْبَهُ، أي: وفَى بنذره، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، كما يُعبِّر بذلك عمَّن مات، كقولهم: قضى أجله، واستوفى أُكْله، وقضى من الدُّنيا حاجته[8].

5) ﴿بَدَّلُواْ﴾: (بدل) أصل واحد، وهو قيام الشَّيء مقام الشَّيء الذّاهب، يقال: هذا بَدل الشَّيء وبديله[9]، والبَدلُ الخَلَفُ من الشَّيء[10]، ويقال: بَدَلٌ وبِدْلٌ لغتان، وأبدَلْت الشَّيء بغيره، وبدَّله اللّه من الخوف أمنًا، والمُبادَلَةُ: التَّبادُلُ[11]، ومعناه أَعطاهُ مِثْلَ ما أخَذَ منه[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد)، والأزهري، تهذيب اللغة: (عهد).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 475.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(4) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة: (قضي).
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (قضي).
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 313.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحب).
(8) الرّاغب، المفردات: (نحب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(10) الخليل، العين: (بدل)، والأزهري، تهذيب اللغة: (بدل).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (بدل).
(12) الفيروزابادي، القاموس: (بدل).

ومعنى نفي التبديل عن الصّادقين في الآية: أنَّهم ما غيَّروا عهدهم الَّذي عاهدوا اللّه ورسوله عليه، كما غيَّر المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتًا مستمرًّا[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ثناءُ الله على الصّادقين من المؤمنين المستشهدين منهم والمنتظرين

يخبر ربُّنا سبحانه أنَّ مِنَ المؤمنين رجالًا أوفَوا بعهودهم مع اللّه تعالى، وصبروا على البأساء والضَّرّاء وحين البأس، فمِنهم مَن وفَّى بنذره؛ فاستُشهِدَ في سبيل اللّه، أو مات على الصِّدق والوفاء، ومنهم مَن ينتظر إحدى الحُسنيين: النَّصر أو الشَّهادة، وما غيَّروا عهد اللّه، ولا نقضوه، ولا بدَّلوه، كما غيَّر المنافقون[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الاستئنافُ بالثَّناء الجميل على المجاهدين الصادقين

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه واقع استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه لمّا أثنى اللّه سبحانه على جميع المؤمنين الخُلَّص على ثباتهم ويقينهم واستعدادهم للقاء العدوِّ الكثير يومئذ، وعزْمِهم على بذل أنفسهم، ولم يُقَدَّرْ لهم لقاؤه؛ كأنَّ سائلًا سأل: وماذا فعلوا حينئذٍ؟ أو إلامَ صار أمرهم؟ أو هل كانوا جميعًا على درجة واحدة في الإيمان واليقين؟ أو هل ثبتوا جميعًا في الجهاد؟ أو هل كلُّهم بذلوا أرواحهم للّه؟ أو هل استُشهدوا جميعًا؟ فكانت الإجابة بالثَّناء على فريقٍ منهم، صَدَقوا ما عاهَدوا اللّه عليه مِنَ الثَّبات مع الرَّسول صلّى اللّه تعالى عليه وسلم والمقاتلة للأعداء[3].

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور:

تقدَّم في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الجارُّ والمجرورُ:

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 313.

(2) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 307.

الإيمانُ بربّ العباد أعظمُ دافع للجهاد والاستشهاد

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على المسند إليه؛ لغرض الاهتمام بشأن الإيمان والتَّفخيم من قدره، فالإيمان باللّه سبحانه وما أعدَّه للمجاهدين الصّادقين من النَّعيم المقيم هو أعظم دافع للجهاد والاستشهاد، وقد يكون الغرضُ من التَّقديم الحصرَ، أي: هؤلاء الرِّجال من المؤمنين لا من غيرهم.

سرُّ التعبير بـ(أل) الموصولة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الدّلالةُ على تفاوت المؤمنين في درجات الإيمان

لمّا أخبر عن ثبات المؤمنين حين رأوا الأحزاب، وقولهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [الأحزاب: 22]؛ بيَّن أنَّهم مع ثباتهم وزيادة إيمانهم وتسليمهم، لم يكونوا على درجة واحدة من الإيمان، فمِنهم من انطلق بكلِّ ما يملك، وهو يشمُّ ريح الجنَّة، فاستشهد، ومنهم مَن جاهد بكلِّ ما أوتي من قوَّة، فأبلى بلاءً حسنًا، وبقي، وثبت.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

التَّصديق الجازم بما وعد به سبحانه من الأجر العظيم وجنّات النَّعيم

ورد في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ﴾ التَّعبيرُ بوصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون (المسلمين) مثلًا؛ لمناسبة سياق الجهاد في سبيل اللّه الذي يتطلَّب إيمانًا راسخًا، فالإيمان باللّه سبحانه معناه التَّصديق الجازم بما وعد به سبحانه من الأجر العظيم وجنّات النَّعيم للمجاهدين في سبيله، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: 169 - 170].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل المجموع:

دلالةُ اسم الفاعل على رسوخ الصِّفة في الموصوف

آثر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ﴾ استعمالَ اسم الفاعل المجموع ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دون الصِّلة (من الذين آمنوا)؛ لما في اسم الفاعل من الدِّلالة على ثبوت صفة الإيمان في الممدوحين به ورسوخ هذه الصِّفة فيهم.

دلالةُ الإخبار بوصف ﴿رِجَالٌ﴾:

مدحُ المجاهدين الصادقين بالرُّجولة التّامّة

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الإخبارُ عن فريق من المؤمنين بأنَّهم ﴿رِجَالٌ﴾ زيادة في الثَّناء عليهم؛ لأنَّ الرَّجُلَ مشتقٌّ من الرِّجْلِ، وهي قوَّةُ اعتمادِ الإنسان، والمقصود بهم رجالٌ مِن المؤمنين ثبتوا في وجه العدوِّ يوم أحدٍ، وهم: عثمان بن عفان، وأنس بن النَّضر، وطلحة بن عبيد اللّه، وحمزة، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير وغيرهم[1].

دلالةُ التَّنكير في ﴿رِجَالٌ﴾:

تفخيمُ قدر الرِّجال الذين صدقوا بالأقوال والأفعال

وَرَدَ لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ نكرةً، والنُّكتة البلاغية في ذلك أنَّ التَّنكير يدلُّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ مَن أراد أن يعظِّم شيئًا؛ أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهبٍ، فهؤلاء المجاهدون الصّادقون رجالٌ وأيُّ رجالٍ، لا يضرُّهم عدمُ علمِ النّاس بهم وبرجولتهم؛ إذ يكفيهم أنَّ اللّه يعلمهم.

دلالةُ الوصف بالصِّدق:

وصفُ الأقوالِ بالصِّدق أو الكذب حسب مطابقتها الواقع

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾ التَّعبيرُ بالفعل ﴿صَدَقُواْ﴾؛ لتعلُّقِ السّياق بالعهود مع اللّه سبحانه، والعهد من الأقوال، وكلُّ قولٍ لابدَّ أن يوصفَ بصدق أو كذب لذاته، لا يخلو الكلام مِن أحدهما، والصِّدق أن يكون مدلول الكلام مطابقًا ومماثلًا للواقع في الخارج، والكذب عكسه[2]، فهؤلاء المؤمنون طابقت أفعالهم أقوالَهم، فكانوا صادقين فيما عاهدوا اللّه عليه من الثَّبات في الجهاد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿صَدَقُواْ﴾:

ثبوتُ صِدقِ الصَّحابة رضوان اللهِ عليهم مع الله ﷻ

جاء الفعل ﴿صَدَقُواْ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقُّق الحدث، فصِدْقُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 307.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 341.

هؤلاء الرِّجال قد تحقَّق في الواقع بتقديمهم مُهَجَهم في سبيل اللّه، وقد صحَّ عن أنس في سبب نزول هذه الآية أنَّه قال: "غاب عمّي أنس بن النَّضر عن بدر، فشقَّ عليه، وقال: أوَّلُ مشهد شهده رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم غِبتُ عنه، لئن أراني اللّه تعالى مشهدًا مع رسول اللّه ﷺ فيما بعد؛ ليَرَيَنَّ اللّه تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ رضي اللّه تعالى عنه، فقال: يا أبا عمروٍ أين؟ قال: واهًا لريح الجنَّة، أجدها دون أُحد، فقاتل حتى قُتِل، فوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وكانوا يرون أنَّها نزلت فيه وأصحابه"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَا﴾:

عودُ الضَّميرِ على (مـا) الاسميَّة دون المصدريَّة:

﴿مَا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، اسم موصول بمعنى (الَّذي) على الرّاجح، ولذلك عاد عليه الضَّمير في ﴿عَلَيْهِ﴾، وقال بعضهم: إنَّها حرف مصدريٌّ، وتكوِّنُ مع الفعل مصدرًا، تقديره: صدقوا العهد، أي: وفَّوا به، والنُّكتة في استعمال المصدر المؤوَّل الدِّلالة على زمن الفعل، فإنَّ المصدر قد يكون فيما مضى، وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع الحرف؛ ليجتمعَ لهم الإخبارُ عن الحدث مع الدِّلالة على الزَّمان[2].

بلاغةُ وصف النكرة ﴿رِجَالٌ﴾:

مَـن صـدق مع اللّه؛ صدق اللّه معه

إنَّما وصفهم اللّه بأنَّهم: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم لا يضُرُّهم، ولا يضيرُهُم عدمُ علمِ النّاس بهم، أو بما بينهم وبين ربِّهم، وإن ظهرت شواهد على ذلك، فلئن كانوا غيرَ

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: (2805)، ومسلم، الحديث رقم: (1903).
(2) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 9/ 111.

معلومين بذواتهم، أو بما في قلوبهم، فهم معلومون عند اللّه بذواتهم وبصدق إيمانهم، ووفاء عهودهم والثَّبات على ذلك، حتى لقوا اللّه تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

سرُّ تعدية الفعل ﴿صَدَقُواْ﴾:

تــعــدّي فعـل الصِّدق لفعل أو مفعولين

جاء في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ التَّعبيرُ بالفعل (صدق)، وهو يتعدّى في الأصل لمفعولين ثانيهما بحرف الجر، ويجوز حذفه، ومنه المثل: (صدَقَني سِنَّ بَكْرِهِ)، أي: في سنِّ بَكْرِهِ، والآية يجوز أن تكون من هذا، فيكون تعديته إلى: ﴿مَا عَٰهَدُواْ﴾ على نزع الخافض، وهو لفظة (في) والمفعول محذوف، أي: صدقوا اللّه فيما عاهدوه، ويجوز أن يتعدّى لواحد، كقولك: صدَّقني زيد، وكذَّبني عمرو، أي: قال لي: الصدقَ، وقال لي: الكذبَ[1].

بلاغةُ المجاز في الآية:

إثــراءُ المـعـاني بـالـمـجـازات الـلُّـغـويَّـة والعقليَّة

يتضمَّن قَوْلُهُ تَعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ مجازًا، فتعدية الفعل ﴿صَدَقُواْ﴾ إلى ﴿مَا عَٰهَدُواْ﴾ يحتمل فيها أن يكون المعاهد عليه مصدوقًا على المجاز العقليِّ، أو الاستعارة بالكناية، وذلك بأن يشبِّه ما عاهدوا اللّه برجل عظيم قائم تجاههم، كأنَّهم قالوا للمعاهد عليه: سنفي بك، وجعْلُهُ مصدوقًا تخييلٌ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

ثـبـوتُ صـدق الصَّحابة رضوان الله عليهم مع الله ﷻ

جاء الفعل ﴿عَٰهَدُواْ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ بصيغة الماضي؛ للدِّلالة على تحقُّق الحدث، فقد سبق أن عاهد الصَّحابة الكرام اللّه ورسوله على الجهاد، ونذروا على أنفسهم من الثَّبات مع الرَّسول، والمقاتلة لإعلاء الدّين، والصَّبر في البأساء وحين البأس، كما تذكر كُتُبُ التَّفسير أنَّ رجالًا من الصَّحابة

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 9/ 111، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 337.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 337.

نذروا أنَّهم إذا لقوا حربًا مع رسول اللّه ﷺ؛ ثبتوا، وقاتلوا حتى يستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد اللّه، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النَّضر وغيرهم، رضي الله عنهم [1].

وقد يكون المعنى: أنَّ الصَّحابة وفَّوا بما عاهدوا عليه رسوله ﷺ ليلةَ العقبة من الثَّبات معه، والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وهم المنافقون[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الأعظم:

تعظيمُ توحيدِ الألـوهـيَّـة واسـتـحـضـار صفات الكمال

أُظهِرَ في قَوْله تعالى: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ اسمُ اللّه الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وتقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة للّه سبحانه،[3] وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحده سبحانه، فَيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لاستحضارِ القارئ والسّامع المَعْنى الجامِعَ لِصِفاتِ الكمالِ[4].

ومن فوائد ذِكرِ لفظ الجلالة تربيةُ المهابة في القلوب ممّا يدفع العبد دفعًا إلى الثَّبات على الإيمان، والوفاء بالعهود، وفي المقابل يكون من عظمته سبحانه أن يجزي الصّادقين بصِدقهم، وألّا يضيع أجر المؤمنين.

نكتةُ تأخيرِ الجارِّ والمجرور:

الـعـهـدُ مع العظيم عظيمٌ وموجب لجنّات النَّعيم

تأخَّرَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِۖ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾؛ لنكتة الاهتمام بتقديم الاسم الكريم ﴿ٱللَّهَ﴾؛ إشعارًا بأهمّيَّة العهد والمعاهَدِ سبحانه، فأولئك الصَّحابة الكرام عاهدوا اللّه ﷻ على الجهاد والصبر في سبيله، وهو عهدٌ عظيم مع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 03/ 532، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 07/ 98.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 136.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

العظيم سبحانه، ولهذا أوجب اللّهُ لمن أوفى به الجزاءَ العظيم في النَّعيم المقيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ [الأحزاب: 15].

دلالةُ تعدية الفعل ﴿عَٰهَدُواْ﴾:

دقّـةُ البيان القرآنيّ في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل ﴿عَٰهَدُواْ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ بـ(على)؛ للإشارة إلى وجوب الوفاء بالعهد[1]، فإيرادُ حرف الجرِّ (على) في النَّظم من الأساليب الخبريَّة الدالَّة على الوجوب: كالأمر، والتَّصريح بالإيجاب، والفرض، والكَتْب، وألفاظ: (حقٌّ على العباد، وعلى المؤمنين...) [2]، بل هو من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربيُّ: لفلانٍ عليَّ كذا، فقد وكَّده، وأوجبه، ولهذا ذكر اللّه سبحانه الحجَّ بأبلغ ألفاظ الوجوب؛ تأكيدًا لحقِّه، وتعظيمًا لحرمته، وتقوية لفرضه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: 97][3].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

تفصيلُ حالِ الصّادقين إلى مُستشهَدين ومنتظِرين

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ بحرف الفاء الدّالَّة على التَّفريع والتَّقسيم، بمعنى: تفصيل حال الصّادقين من المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول اللّه ﷺ، وتقسيمهم إلى قسمين: قسم وفَّى بنذره، واستُشهِدَ في سبيل اللّه، وقسم ينتظر قضاءَ حاجته، وحصولَ أمنيته بالقتل وإدراك فضل الشَّهادة[4].

نكتةُ التَّعبير بـ(مِنْ):

أثـرُ حروف المعاني في توجيه السّياق القرآنيّ

دلَّ حرف الجرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ على التَّبعيض، فبعض الصّادقين مَن خرجَ عن العُهدةِ كحمزة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 39.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 374.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 136.

ومصعب بن عمير وأنس بنِ النَّضرِ عمِّ أنسِ بن مالكٍ وغيرِهم، فإنَّهم قد قضَوا نذورَهم، وبعضٌ منهم من يَنتَظِرُ قضاء نحبه؛ لكونه موقَّتًا كعثمانَ وطلحةَ وغيرِهما ممَّن استُشهِد بعد ذلك، رضوانُ اللّٰه تعالَى عليهم أجمعين[1].

ويجوز أن يدلَّ السّياق على جعلها (مِن) للتَّقسيم، أي: قسمٌ مِنهم فعل كذا، أو كان منه كذا، وقسمٌ ثابت باقٍ على الدَّرب ينتظر أن يتمَّ وفاء نذرِه، ويثبت صدق إيمانه.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿نَحۡبَهُۥ﴾:

كلُّ حيٍّ لا بدَّ له من أن يموتَ، ويقضي نحبه

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ التَّعبيرُ بلفظ (النَّحب)، وهو في كلام العرب النَّذر المحكوم بوجوبه[2]، أو هو الشَّيء الذي يلتزمه الإنسان، ويعتقد الوفاء به، ومن العلماء أيضًا من قال: إنَّ النَّحب هو الموت؛ لأنَّ كلَّ حيٍّ لا بدَّ له من أن يموت، فكأنَّه نذرٌ لازم في رقبته، فإذا مات؛ فقد قضى نحبه، أي: نذره[3]، ويؤكِّد ذلك ما يصاحب الموت من البكاء والنَّحيب المشتقِّ من المادة، ولكن يُشكِل على القول بأنَّ النَّحب من أسماء الموت ما ورد في حديث التِّرمذيِّ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في طلحة بن عبيد اللّٰه: «إنَّه ممَّن قضى نحبه»[4]، وهو لم يمت في حياة رسول اللّٰه ﷺ، فهذا أدلُّ دليل على أنَّ النَّحب ليس من شروطه الموت[5].

بلاغةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَّن﴾:

مقاصدُ إبهام الـذوات في الخطاب

عُبِّرَ بالاسم الموصول المشترك المبهم ﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على إبهام أهل هذا الوصف، وأنَّهم في الغالب لا يعرفون، ولا يطَّلع أحد على ما في قلوبهم، ثم إنَّه لفظ مشترك،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 07/ 98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحب)، والرّاغب، المفردات: (نحب).
(3) الواحديّ، البسيط: 18/ 216، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 626.
(4) أخرجه التّرمذي برقم (3739).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 178، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 39.

فيصلح للتَّعبير عن الرَّجل والمرأة، والمفرد والجمع من كليهما، حتى يشمل الصّادقين منفردين ومجتمعين، رجالًا كانوا أو نساء.

سرُّ إفراد الفعل ﴿قَضَىٰ﴾:

لا يلزم في أهل الصِّدق أن يموتوا جملة ولو كانوا في ساح القتال

يجوز أن يعود الضَّمير في صلة الموصول المشترك جمعًا على معناه أو مفردًا على لفظه، وإنَّما آثر القرآن إفراد الفعل وضميره ﴿قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الأصل في أهل الصِّدق أن يموتوا فرادى متتابعين لا مجتمعين، ولئن ماتت جماعة منهم في قتال الأعداء، فهذا خارج عن الأصل، ثمَّ إنَّ من بقي منهم أكثر ممَّن استُشهِدَ، ويتزايد من بقي منهم شيئًا فشيئًا؛ ولذلك قدَّم من قضى نحبه على مَن ينتظر.

ثمَّ إنَّه عبَّر بالاسم الموصول المشترك (مِن)، الدالِّ في الأصل على العاقل؛ لأنَّ السّياق في مخاطبة العقلاء المكلَّفين شرعًا بالجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدّين، والذين استُشْهِدوا في القتال.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

استعارة النَّحب للموت، والقضاء ترشيح

وردت في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ عبارة ﴿قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾، وقضاء النَّحب الفراغ منه والوفاءُ به، يقال: قضى فلانٌ نحبَهُ، أي: وفّى بنذره، وشاع (قضى فلانٌ نحبَهُ) بمعنى: مات، إمّا على الكناية، كقولهم: قضى أجَلَهُ، واستوفى أُكُلَهُ، وقضى من الدُّنيا حاجته؛ وذلك لأنَّ الموت كنذر لازم في عنق كلِّ حيوان، وقد يكون قضاء النَّحب مستعارًا استعارة تصريحية للموت؛ لأنَّه كنذر لازم في رقبة كلِّ إنسان، والقرينة حالية، والقضاء ترشيح، ويجوز أن يكون مستعارًا لالتزام الموت شهيدًا إمّا بتنزيل التزام أسبابه الَّتي هي أفعال اختيارية للنّاذر منزلة التزام نفسه، وإمّا بتنزيل نفسه منزلةَ أسبابه[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 07/ 98، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 167.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾:

تتميمُ التَّفصيل بذكر القسم الثّاني من الصّادقين

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فبعد أن ذكر النَّظم القسم الأوَّل بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، عطف عليه القسم الثّاني؛ تتميمًا للتَّفصيل بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَّن﴾:

مخاطبةُ العقلاءِ المكلَّفين بالجهاد لإعلاء كلمة الدّين

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ بالاسم الموصول المشترك ﴿مَّن﴾ الدالِّ في الأصل على العاقل، وذلك لأنَّ السّياق في مخاطبة العقلاء المكلَّفين شرعًا بالجهاد في سبيل اللّه وإعلاء كلمة الدّين، وهم الذين صدقوا فيما عاهدوا اللّه عليه من الثَّبات، وما بدَّلوا تبديلًا.

دلالةُ التَّعبير بالانتظار:

تشوُّقُ الصّادقين للاستشهاد في سبيل ربِّ العالمين

عُبِّرَ بلفظ الانتظار في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾، ومعناه مرتبط بما قبله، فإذا فُسِّرَ قضاء النَّحب بالشَّهادة؛ كان التَّقدير: ومنهم من ينتظر الشَّهادة، وإذا فُسِّر بالوفاء لعهود الإسلام؛ كان التَّقدير: ومنهم مَن ينتظر الحصول على أعلى مراتب الإيمان والصَّلاح، وقال مجاهد: ينتظر يومًا فيه جهاد، فيقضي نحبه[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَنتَظِرُۖ﴾:

استمرارُ كمال الاشتياق إلى الشِّهادة والفوز بالسَّعادة

جاء الفعل ﴿يَنتَظِرُۖ﴾ في الآية بصيغة المضارع دون غيرها؛ للدّلالة على استمرار اشتياقهم للوفاء بما عاهدوا عليه اللّه سبحانه من الشَّهادة في سبيله، فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم قد أوفوا نذورهم، وقد قضوا بعضها، وهو الثَّبات مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة، وهم منتظرون قضاء بعضها الباقي، وهو القتال إلى الموت شهيدًا، وفي وصفهم بالانتظار إشارةٌ إلى كمال اشتياقهم إلى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 468.

الشَّهادة[1]، وإلى أنَّهم يعدّون العدَّة لذلك؛ لأنَّ من ينتظر شيئًا يعدُّ له عدَّته، فمن ينتظر ضيفًا؛ يعدُّ له الضّيافة من الطَّعام والشَّراب ومكان النَّوم وهكذا.

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿يَنتَظِرُ﴾ وضميره:

كلُّ حيٍّ له بينه وبين الله حال لا يطَّلع عليها أحد

أُفرِدَ الفعلُ وضميره؛ مراعاةً للفظ الاسم الموصول (مِن)، وللدِّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء يعدُّ العدَّة حال انتظاره دون أن يعلم به غيره، وإن اشتركوا في الصِّدق مع اللّه والوفاء بالعهود؛ دفعًا للرّياء والسُّمعة.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾:

نفي التَّبديلِ عن المنتظرين الصّادقين

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ على ما قبله بحرف الواو؛ تتميمًا لوصف القسم الثّاني من التَّفصيل، والمعنى: أنَّ الَّذين ينتظرون قضاء نحبهم قد استمرّوا على صِدقهم وثباتهم مع الرَّسول ﷺ حتّى فارقوا الدُّنيا، ولم يغيِّروا، ولم يبدِّلوا، فيشهد به انتظارهم أصدق الشَّهادة.

دلالةُ النَّفي بـ(ما):

المبالغةُ في توكيد نفي التَّبديل

جاء النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ بحرف (ما) النّافية؛ للتَّأكيد على نفي التَّبديل من الصَّحابة رضوان اللّه عليهم، وهذا من المبالغة العذبة العالية، أي: وما بدَّلوا أيَّ تبديلٍ في أيِّ شيءٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، ثم إنَّ الألف المديَّة في (ما النّافية) تشير إلى امتداد النَّفي إلى زمن التَّكلُّم، وإن كان الحديث عن الماضي، فكلُّ قارئٍ وسامع يستشعر ثبات أهل الصِّدق على الإيمان، وأهل العهود على الوفاء، إلى زمن تلاوته أو سماعه، وكلَّما كان السّياق القرآنيُّ يحتاج إلى مبالغة في توكيد النَّفي؛ جيء به منفيًّا بـ(ما) النّافية لما

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 22/ 476.

تتميَّزُ به عن سائر حروف النَّفي من خصائص: كنفي الحال، ونفي الجنس متَّصلة بمنفيِّها أو منفصلة عنه، واقتران اسمها بـ(من) الزّائدة الدّالة في الغالب على الاستغراق والتَّوكيد ... الخ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمفعول المطلق ﴿تَبۡدِيلٗا﴾:

الإمعانُ في نفي التَّبديل بالمصدر المؤكِّد للعامل

دلَّ استعمال المصدر في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ على تأكيد نفي التَّبديل، فالتَّوكيد متوجِّه للنَّفي في حدِّ ذاته لا للمنفيِّ، وذلك بأن لوحِظَ النَّفي أوَّلًا، ثمَّ التَّأكيد ثانيًا، ولو عُكِسَ؛ لاختلَّ المعنى[2]، ثم إنَّ المصدر هاهنا نكرة في سياق النَّفي، فأفاد العموم، بنفي كلِّ أنواع التَّبديل، أي: وما بدَّلوا أيَّ تبديل.

دلالةُ التَّنكير في قوله: ﴿تَبۡدِيلٗا﴾:

دلالـة التَّنكير عـلى التَّقليل مبالغة في نفي التَّبديل

دلَّ تنكيرُ لفظ ﴿تَبۡدِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ على التَّقليل مبالغة في تأكيد نفي التَّبديل، بمعنى: أنَّ الصّادقين الثّابتين مع رسول الله ﷺ المنتظرين لوفاء نذورهم ما أوقعوا شيئًا من تبديل عهدهم بفترة أو توانٍ عن الجهاد في سبيل الله، بل ثبتوا عليهِ راغبينَ فيه مُراعين حقوقَهُ على أحسنِ ما يكون[3].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

ذِكـــرُ حـال الـصّـادقـين تـعـريضٌ بحال المنافقين

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾، بعد قوله تعالى: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾، فنًّا بديعًا من فنون البيان، وهو (التَّعريض)، وهو كون معنى الكلام مفهومًا من عُرضه، أي: جانبه[4]، ففي هذه الآية ذكر الله حال المؤمنين الَّذين صدقوا ما عاهدوا عليه، وأنَّهم ما بدَّلوا تبديلًا، وفيه تعريضٌ بمن بدَّل من المنافقين، فكأنَّه قيل: وما بدَّلوا تبديلًا، كما بدَّل المنافقون حيث ولّوا الأدبار، وكانوا عاهدوا لا

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 253.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 337.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 329.
(4) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.

يولّون الأدبار يوم الخندق، فرجعوا إلى بيوتهم في المدينة، أو بدَّلوا عهد الإيمان لما ظنّوا أنَّ الغلبة تكون للمشركين[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العهد والوعد:

عمومُ العهد وتضمُّنُهُ معنى الشَّرط

يتجلّى الفرقُ بين العهد والوعد: في كون العهد ما كان من الوعد مقرونًا بشرط، نحو قولك: إن فعلتَ كذا؛ فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك؛ فأنا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: 115]، أي: أعلمناه أنَّك لا تخرج من الجنَّة ما لم تأكل مِن هذه الشَّجرة، والعهد يقتضي الوفاء، والوعد يقتضي الإنجاز، ويقال: نقض العهد، وأخلف الوعد[2]، كما أنَّ العهد قد يكون بين الإنسان ونفسه فتقول: عاهدتُ نفسي على كذا، ولا تقول: وعدتُ نفسي، فآثر النَّظم القرآنيُّ لفظَ العهد لعمومِهِ وتضمُّنِهِ الشرط.

التَّبديل والتغيير والتَّعويض:

التَّبديلُ أعمُّ من التَّعويض، والتَّغيير أعمُّ منهما

التَّبديل أصله: بدل، والباء والدّال واللّام أصلٌ واحدٌ، والبدل: قيام الشَّيء مقام الشَّيء الذّاهب[3]، وهو أعمُّ من العوض، فإنَّ العوض: هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول أو في مقابل الأول، والتبديل قد يقال للتَّغيير مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59][4].

أمّا التغيير؛ فمِن (غَيَرَ)، والغين والياء والرّاء أصلان، يدلُّ أحدهما على اختلاف شيئين[5]، والتَّغيير: التَّبديل بالمغاير[6]، فإذا أتيت بثوب أبيض مكان ثوب أسود مختلف في القماش واللّون،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/ 169، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 308.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 379.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غير).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 102/ 13.

قلت: غيَّرتُ الثَّوب، وإذا أتيت بثوب أبيض مكان ثوب أسود، مصنوع من قماش واحد، وكان الثَّوبان لا يختلفان في شيء؛ قلت: بدَّلت الثَّوب، ويدور معنى التَّغيير حول تحوُّل الشَّيء تحوُّلًا تامًّا أو كالتّام، كتحوُّل نفس الغيران من الرِّضا ونحوه إلى الغضب الشَّديد، وكالتحوُّل من القصاص إلى الدّية، ويُرجَّح أنَّ أصل هذا التَّحوُّل يكون من حسن أو خير إلى شرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53][1].

فآثر النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ التَّبديل لدلالتهِ على جعل شيء بدلًا عن شيء آخر، فقد جعل المنافقون الكفر بدل الإيمان، وموالاة الكافرين بدل موالاة المؤمنين.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غير).

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾ [الأحزاب: 24]

جزاءُ ربِّ العالمين للصّادقين ووعيده للمنافقين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أثنى اللّه سبحانه على الصّادقين الَّذين وفَّوا بما عاهدوا اللّه عليه، وعرَّض بالمنافقين المبدِّلين للعقود والنّاكثين للعهود؛ ذَكَرَ في هذه الآية جزاءَ كلِّ فريق؛ لتظهر صفة العزِّ والعظمة والعدل للّه سبحانه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾: (جزى) أصلٌ يدلُّ على قيام الشَّيء مقام غيره ومكافأته إيّاه[2]، وجزى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة[3]، فالجزاء يكون ثوابًا، ويكون عقابًا[4]، وهو الغناء والكفاية، وهو تحصيل شيء مقصود من تناول شيء أو معالجته[5]، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب؛ فهو الجزاء بمعنى: المكافأة على الشَّيء في الخير والشَّرِّ، ويصدق في الثَّواب والعقاب، وهو في هذه الآية خاص بالثَّواب.

2) ﴿وَيُعَذِّبَ﴾: (عذب) أصل صحيح، لكنَّ كلماته لا تكاد تنقاس، وقد اختُلِفَ في أصل العذاب، فناس يقولون: أصلُ العذاب الضَّرب، ثمَّ استُعير ذلك في كلِّ شدَّة[6]، وقيل: أصل التَّعْذيبِ إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، وقيل: هو من قولهم: ماءٌ عَذَبٌ؛ إذا كان فيه قذًى وكدرٌ، فيكون (عَذَّبْتُهُ) كقولك: كدَّرت عيشه[7]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزى).
(3) الخليل، العين: (جزى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزاء).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(7) الرّاغب، المفردات: (عذب).

فيكون معنى التَّعذيب في الآية تكدير عيش المنافقين بما يصيبهم من المصائب والابتلاءات.

3) ﴿يَتُوبَ﴾: (توب) تدور اشتقاقاتها على معنى أصل يدلُّ على الرُّجوع، ومنه قولهم: تاب من ذنبه؛ إذا رجع عنه[1]، وحقيقة التَّوبة شرعًا: ترك الذَّنب مخافة اللّه تعالى، واستشعار قبحه، والنَّدم على ذلك، والعزيمة على ألّا يعود إليه؛ إذا قدر عليه[2]، والتَّوّاب: اسم من أسماء اللّه تعالى، معناه: أنَّه يوفِّق عباده للتَّوبة، ويقبلها منهم[3]، ويختلف معنى هذا الفعل باختلاف تعديته، فقولهم: (تاب إلى اللّه): رجع إليه بالطّاعة بعد المعصية، وأمّا معنى (تاب اللّه على العبد)؛ فهو: رجع إليه بالمغفرة[4]، وهو المقصود في الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

جزاء الله للصادقين ووعيده للمنافقين

يخبر ربُّنا سبحانه أنَّه سيُثيب أهلَ الصِّدق؛ بسبب صِدقهم وبلائهم، وهم المؤمنون، ويعذِّب المنافقين؛ إن شاء تعذيبهم، بألّا يوفِّقهم للتَّوبة النَّصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا النّار، أو يتوب عليهم بأن يوفِّقهم للتَّوبة والإنابة، إنَّ اللّه كان غفورًا لذنوب المسرفين على أنفسهم؛ إذا تابوا، رحيمًا بهم، حيث وفَّقهم للتَّوبة النَّصوح[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ باللّام في ﴿لِّيَجْزِىَ﴾:

كلُّ امرئ مهيَّأٌ لما خُلِقَ له

استُهِلَّ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بحرف اللّام المتَّصلة بالفعل ﴿لِّيَجْزِىَ﴾، وهي إمّا لام العلَّة أو لام

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(2) صالح السّدلان، التوبة إلى الله، ص: 10.
(3) سعيد القحطان، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (توب).
(5) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.

الصَّيرورة، وهي تتعلَّق: بـ﴿زَادَهُمۡ﴾ [الأحزاب: 22] في قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا﴾ [الأحزاب: 22]، أو بـ﴿صَدَقُواْ﴾، أو بـ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾، وعلى هذا قال الزمخشري: "جُعِلَ المنافقون كأنَّهم قصدوا عاقبة السّوء، وأرادوها بتبديلهم، كما قَصَدَ الصّادقون عاقبة الصِّدق بوفائهم؛ لأنَّ كلا الفريقين مسوقٌ إلى عاقبته من الثَّواب والعقاب، فكأنَّهما استويا في طلبهما والسَّعي لتحصيلهما"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ باللام في الفعلين ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ﴾:

عاقبةُ الصِّدق حسن الجزاء وعاقة التَّبديل التَّعذيب

يختلف استعمالُ اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ بين فعلي ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ و﴿وَيُعَذِّبَ﴾، فلامُ التَّعليل بالنِّسبة إلى فعل: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مستعملةٌ في حقيقة معناه، وبالنِّسبة إلى فعل: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ مستعارة لمعنى فاء العاقبة؛ تشبيهًا لعاقبة فعلهم بالعلَّة الباعثة على ما اجترحوه من التَّبديل ونقض العهد تشبيهًا يفيد عنايتهم بما فعلوه من التَّبديل حتى كأنَّهم ساعون إلى طلب ما حقَّ عليهم مِنَ العذاب على فِعلهم، أو تشبيهًا إيّاهم في عنادهم وكيدهم بالعالم بالجزاء السّاعي إليه وإن كان فيه هلاكه[2].

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الجزاء دون غيره:

إبهامُ جزاءِ الصّادقين للتَّعظيم والتَّفخيم

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ التَّعبيرُ بفعل الجزاء: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾، وأصله الغَناء والكِفاية، وما فيه الكِفاية مِن المقابلة، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3]، وهو في هذا السّياق بمعنى: الثَّواب؛ لأنَّ أكثر ما يُستعمل فعل جزى أن يكون في الخير، ولأنَّ ذكر سبب الجزاء، وهو ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾ يدلُّ على أنَّه جزاء إحسان،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 03/ 533، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 9/ 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 308.
(3) الرّاغب، المفردات: (جزأ).

ولم يجِئْ (ليثيب الصادقين)، كما جاء ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لما في الإبهام من التَّفخيم ما لا يخفى[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾:

وعْدُ الصّادقين بالجزاء العظيم يوم الدّين

دلَّت صيغة المضارع للفعل ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ على الاستقبال، فإنَّ محلَّ الجزاء العظيم هو يوم الدّين يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين، ففي ذلك اليوم ينفع الصّادقين صدقهم، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ [المائدة: 119].

نكتةُ التَّعبير بلفظ الجلالة:

تجلّي صفات الكمال في مجازاة العباد على الأعمال

صُرِّحَ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ باسم الله الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وتقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة للّه سبحانه في بعث عباده بعد موتهم ومجازاتهم على أعمالهم، فهو جدير بكلِّ الصِّفات الكاملة.

وحقيقة العظمة مختصَّة به وحده سبحانه، فيذكر اسم الجلالة لاستحضار المعنى الجامع لصفات الكمال[2].

بلاغةُ التَّعبير باسم الفاعل المجموع:

دلالةُ اسم الفاعل على رسوخ الصِّفة في الموصوف

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ استعمالُ اسم الفاعل المجموع ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دون الصِّلة (الذين صدقوا)؛ لما في اسم الفاعل من الدّلالة على ثبوت صفة الصِّدق في الممدوحين به من المؤمنين ورسوخ هذه الصِّفة فيهم، وللدِّلالة على علَّة الحكم من جهة أخرى، أي: إنَّما يجزيهم اللّه الجزاء الحسن لصدقهم؛

---

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 340.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

لأنَّ تعليق الحكم بالمشتقِّ أو التعبير به في سياق الحكم يدلُّ على الحكم وعلَّته معًا.

دلالةُ الباء في ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾:

الصِّدقُ مع الله سبب كلِّ خير

دلَّت الباء في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ على السببيَّة، بمعنى أنَّ جزاء الله للصّادقين كان بسبب صدقهم مع الله، كما أنَّ ذِكر سبب الجزاء، وهو بصدقهم يدلُّ على أنَّه جزاء إحسان، وقد جاء الجزاء في ضدِّ ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: 93].

سرُّ زيادة عبارة ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾:

الصِّدق أشرف الخصال ومبدأ محاسن الأفعال وسبب الفلاح في المآل

كرَّر النَّظمُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ سببَ ثوابِ الصّادقين بعبارة ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾، أي: بسبب صدقهم، وصرَّح بذلك مع أنَّه يقتضيه تعليقُ الحكم بالمشتق ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ اعتناءً بأمر الصِّدق، وتنويهًا بشأنه وفضله، فهو أشرف الخصال ومبدأ محاسن الأفعال وسبب الفلاح في الدُّنيا والآخرة[1].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾:

تتميمُ التَّفصيلِ بذكر جزاء المنافقين بعد جزاء الصّادقين

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ تتميمًا للتَّفصيل السّابق، فبعد أن ذكر جزاء الفريق الأوَّل، وهم ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾، ذكر جزاء الفريق الثّاني المعرض بهم في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بفعل التَّعذيب:

تهديدُ المنافقين بالعذاب الأليم وتكدير العيش

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ التَّعبيرُ بفعل التَّعذيب في حقِّ المنافقين بخلاف التَّعبير بفعل الجزاء في حقِّ الصّادقين مناسبة لأعمال كلِّ فريق، وأصل العذاب الضَّرب، ثمَّ استعير ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 169.

في كلِّ شدَّة (1)، أو هو إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، ولعلَّه أيضًا مِن قولهم: ماءٌ عَذَبٌ؛ إذا زال ما فيه من قذًى وكدر، فيكون عَذَّبْتُهُ كقولك: كدَّرت عيشه (2)، فتوعَّد الله المنافقين بالعيش الشَّديد الكدر في جهنَّم والعياذ بالله.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾:

توعُّد الخطابُ المنافقين بالعذاب الأليم في الدُّنيا وفي يوم الدّين

دلَّت صيغة المضارع للفعل: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على الحال والاستقبال، فقد توعَّد الله المنافقين بأن يعذِّبهم في الدُّنيا بأن يفضحهم فيها، ويسلِّط عليهم المؤمنين، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم يوم الدّين يوم يقوم النّاس لربِّ العالمين، ففي ذلك اليوم ينفع الصّادقين صدقهم، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٦٨﴾ [التّوبة: 68].

سرُّ التَّعبيرِ بالمنافقين مقابلة للصّادقين:

ثباتُ الصّادقين في مجاهدة الكافرين

قوبِلَ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بين وصف الصّادقين ووصف المنافقين، وكان الظّاهر مقابلةَ الصّادقين بالكاذبين؛ لنكتة الدِّلالة على أنَّ الصِّدق المقصود هو الثَّبات على أصل الإيمان ومجاهدة الكفّار بقرينة سبب النُّزول وسياق الآيات، فيكون مقابله التولّي يوم الزَّحف الَّذي هو من خصال المنافقين المظهرين للإيمان المبطنين للكفر.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(أل) الموصولة في ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

إفادة الشمول والعموم

(أل) في قوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ موصولة صلتها اسم الفاعل المجموع، والمعنى: ويعذِّب الله الذين نافقوا حتى ماتوا عليه، وهو يدلُّ على الشُّمول والعموم بنفسه، فيشمل كلَّ منافقٍ ومنافقةٍ في عقاب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).

اللّه لهم، وسواء بقي هذا العموم على بابه، أو أُريد به الخصوصُ في المنافقين الموجودين في ذلك الوقت، والأصل أن يبقى على عمومه، ويدخل فيه هؤلاء دخولًا أوَّليًّا.

دلالةُ التَّعبير باسم ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

ثبوتُ صفة النِّفاق في المذمومين به

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ استعمالُ اسم الفاعل المجموع ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ دون الفعل في الصِّلة (الذين نافقوا)؛ لما في اسم الفاعل من الدِّلالة على ثبوت صفة النِّفاق في المذمومين به من المنافقين ورسوخ هذه الصِّفة فيهم.

بلاغةُ عدمِ ذكر (بنفاقهم) في مقابل قوله: ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾:

ذمُّ المنافقين والتَّنويه بشأن الصِّدق والصّادقين

جاء في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ ذِكْرُ سببِ جزاء الصّادقين ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾ دون ذِكر سبب تعذيب ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ المقدَّر من السّياق بـ(بنفاقهم)، والنُّكتة في ذلك التَّنويهُ بشأن الصِّدق وتفضيل الصّادقين، والاكتفاء في جانب المنافقين بما علم التزامًا مِن التَّعبير بالمشتقِّ على سبيل الإيجاز.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشر في الآية:

مقابلةُ كلِّ فريقٍ بالجزاء المستحقِّ

استُعمل في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فنٌّ من فنون البديع وهو اللَّفُّ والنَّشر التَّقديريُّ، فقد قابل قوله تعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ قوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾، وقابل مفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، فجازى كلَّ فريقٍ بما يستحقُّه[1].

سرُّ تعليقِ تعذيب المنافقين على المشيئة:

استثناءُ المنافقين من التَّوفيق للتَّوبة واستحقاق التَّعذيب

جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ تعليقُ تعذيب المنافقين على المشيئة، والنُّكتة في ذلك أنَّ اللّه يُعَذِّبُ المنافقين

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 170.

بألّا يوفِّقَهم للتَّوبة من نفاقهم حتّى يموتوا على كفرهم؛ إن شاء، فيَستوجِبوا بذلك العذاب، فالاستثناء إنَّما هو توفيق للتوبة من النِّفاق لا من العذاب؛ إن ماتوا على نفاقهم، والدَّليل على هذا قوله: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فيكون معنى الكلام: ويعذِّبَ المنافقين؛ إذ لم يهدِهم للتَّوبة، فيوفِّقَهم لها، أو يتوب عليهم، فلا يعذِّبَهم[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إن﴾ دون (إذا):

الـشَّـكُّ في توبة أكثر المنافقين

ورد في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ اسۡتِعۡمالُ حرف الشَّرط الجازم ﴿إن﴾ دون (إذا)؛ لنكتة بلاغية، وهي مناسبة السّياق، فحرف (إن) يرد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها والموهومة والنّادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى، وأمّا (إذا)؛ فيُستعمل عندما يكون الشَّرط فيها مقطوعًا بوقوعه[2].

فلمّا كان سياقُ الآيةِ الإخبارَ بتعذيب المنافقين حسب مشيئة اللّه، وعدم القطع بمصير أيِّ عبد لا إلى جنَّة ولا إلى نار؛ ناسبه التَّعبير بـ﴿إن﴾ المفيدة لاحتمال الوقوع، وهو أدلُّ على المَعْنى مِن (إذا شاء اللّه)؛ لأنَّ (إن) تُعلِّقُ وُقوع الأمرِ بمشيئةِ اللّه، فقد يشاء ﷻ تحقُّق الأمر، وقد يشاء غير ذلك، وذلك بحسب المصلحة الَّتي يعلمها اللّه ﷻ وحده، وهو أعلم بما ينفع النّاس، أمّا قولك: (إذا شاء اللّه)؛ فكأنَّك تجزمُ بأنَّ اللّهَ ﷻ سيشاءُ، وفي ذلِكَ مُخالفَةٌ صريحةٌ للمقصود.

سرُّ التَّعبيرِ بالمشيئة دون الإرادة:

المشيئةُ الكونيَّة فـــي تـوفـيـق المنافقين للتَّوبة:

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بفعل المشيئة دون فعل الإرادة، لتعلُّقِ النَّظم بقضيَّة توفيق المنافقين للتَّوبة، وهي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 68.

(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 69.

من المشيئة الكونيَّة، ويظهر الفرق بينهما في حقِّ الله ﷻ أنَّ الإرادة أعمُّ من المشيئة، فإنَّ الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونيَّة، وهي المشيئة، وهي لازمة الوقوع، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإرادة دينيَّة لا يلزم منها وقوع المراد، وهي الَّتي بمعنى المحبَّة، فالمشيئة لم ترد مستعملة في الدّينية، إنَّما جاءت مستعملة في الكونيَّة فقط، بخلاف الإرادة[1].

نكتةُ حذفِ مفعول المشيئة:

بلاغةُ الحذفِ والإضمار مقدَّمة على الإظهار

جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ استعمالُ فعل المشيئة في سياق الشَّرط دون ذِكر مفعولِه، والنُّكتة في ذلك أنَّ شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما؛ إذا وقع متَّصلًا بما يصلح لأن يدلَّ على مفعوله حذف المفعول؛ لظهور أنَّ الجواب هو دليل المفعول[2]، وكذلك في هذه الآية فمفعول فعل المشيئة محذوفٌ؛ لأنَّ المراد منه ما يساوي مضمون جواب الشَّرط، فحُذِف إيجازًا، والتَّقدير: ويعذِّب المنافقين؛ إن شاء تعذيبهم بعدم توفيقهم للتَّوبة، إلّا أنَّ البلاغة في أن يجاء بالمفعول محذوفًا؛ لما فيه من دقيق الصَّنعة ومن جليل الفائدة، فهو إضمار على شريطة التَّفسير، فيعطي هذا الحذف النَّظم حسنًا وغرابة، وذلك أنَّ في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التَّحريك له لطفًا ونبلًا؛ لا يكون إذا لم يتقدَّم ما يحرِّك؛ فمتى عَلَّقَ المتكَلِّمُ أمرًا بمشيئة؛ عَلِمَ السّامعُ أنَّه يُعَلِّقُ هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أنَّ هاهنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون أو ألّا يكون، غير أنَّه لا يظهر؛ لأنَّ الواجب في حكم البلاغة ألّا ينطق بالمفعول به المحذوف، وألّا يظهر في السّياق، ومتى ظهر؛ صار الكلام غثًّا يَمُجُّهُ السَّمعُ، وتعافه النَّفسُ[3].

---

(1) ابن أبي العزّ الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 79، محمد بن إبراهيم، الفتاوى والرّسائل، ص: 208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 321.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 163.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَوۡ﴾ في الآية:

تقسيمُ حال المنافقين بين التَّوبة من النِّفاق أو البقاء عليه

ورد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ استعمالُ حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدّال على التَّقسيم، وهو تقسيم يفيد أنَّ مصير المنافقين دائرٌ بين أمرين: الأوَّل تعذيب اللّه لهم؛ إذا أصرّوا على النِّفاق، والثّاني توبة اللّه عليهم، كما تؤذن بأنَّ أحد الأمرين غير معيَّن الحصول؛ لأنَّه مستقبل، ولكن لا يخلو حالهم عن أحدهما، فتعيَّن بذلك أنَّ تعذيب المنافقين باقٍ عند عدم توبتهم(1).

دلالةُ مقابلةِ العذاب بالتَّوبة:

سعةُ رحمة الله بفتح باب التَّوبة والمغفرة

دلَّت مقابلة العذاب بالتَّوبة في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ على سَعة رحمة اللّه بالعباد، وأنَّه لا يقطع رجاء العصاة في السَّعي إلى مغفرة ما أتوه من ذنوب بأن يتوبوا، فيتوبَ اللّه عليهم، والتَّوبة هنا هي التَّوبة من النِّفاق، أي: هي إخلاص الإيمان، وقد تاب بعض المنافقين بعد ذلك، منهم مُعَتِّبُ بن قُشَيْرٍ، كما يدلُّ مقابلة تعذيبه إيّاهم بتوبته على خطورة النِّفاق، وأنَّه يجرُّ على أصحابه العذاب العظيم عند عدم توبتهم؛ لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ [التوبة: 68].

سرُّ تقديم العذاب على التَّوبة:

بيانُ خطر المنافقين على الدّين وكونهم أسوأ من الكافرين

قدَّم النَّظم القرآنيُّ تعذيب المنافقين على توبتهم في قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ تشديدًا في وعيد المنافقين، وتفظيعًا لسوء جزائهم، وتنبيهًا على شناعة حالهم وخطر جنايتهم، ولهذا طوَّل البيان القرآنيُّ في بيان نفاقهم، وكمال خبثهم ومرض قلوبهم؛ لأنَّهم أشدُّ ضررًا على الإسلام من الكافرين(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 309.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 340.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَتُوبَ﴾:

وعْـدُ المنافقين بقبول التَّوبة وغسل الحوبة؛ إذا تابوا

دلَّت صيغة المضارع للفعل ﴿يَتُوبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ على الاستقبال، فقد وعد الله المنافقين والعصاة عمومًا بقبول توبتهم بشرط النَّدم على ما فات، والإصلاح في الأقوال والأعمال، وإخلاص الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النّساء: 145 - 146].

سرُّ تعدية الفعل ﴿يَتُوبَ﴾ بـ(على):

رحـمـةُ الله بعباده، ومنُّهُ عليهم بقبول توبتهم

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تعديةُ الفعل ﴿يَتُوبَ﴾ بـ(على)، والنُّكتة في ذلك أنَّ معنى (تاب): رجع، ونظيره (ثاب) بالمثلَّثة، ولمّا كانت التَّوبةُ رجوعًا من التّائب إلى الطّاعة ونبذًا للعصيان، وكان قبولها رجوعًا من المتوب إليه إلى الرِّضا وحسن المعاملة؛ وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان ورجوع المعصيِّ عن العقاب، فقالوا: تاب فلان لفلان، فتاب عليه؛ لأنَّهم ضمَّنوا الثّاني معنى: (عَطَفَ، ورَضي)، فاختلاف معنى الفعل (تاب) باختلاف الحرف الذي يتعدّى به، فإذا أُريد به قبولُ توبةِ التّائب؛ عُدّيَ بحرف (على) لتضمينه معنى (منَّ)، وإذا كان بمعنى الرجوع عن الذَّنب والنَّدم منه؛ عُدّيَ بما يناسب[1].

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

اشتمال القرآن على أروع فنون البيان

يتضمَّن قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيان، وهو الاحتباك، ومفهومه أن يَجتمع في الكلام متقابِلان، ويُحذف من كلِّ واحدٍ منهما مُقابِلُه؛ لدلالة الآخَر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 438.

عليه [1]، ويتجلّى ذلك في الآية أنَّ تعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النِّفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمرة التَّوبة تركُهم دون عذاب، فهما درجتان: إقامةٌ على نفاق، أو توبة منه، وعنهما ثمرتان: تعذيب أو رحمة، فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين، وواحدة من هاتين، ودلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره، ويدلُّك على أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾: ليديم على النفاق، قولُهُ سبحانه: ﴿إِن شَآءَ﴾، ومعادلته بالتوبة، وهذا يؤوِّل إلى أنَّ التَّقدير: ليقيموا على النِّفاق، فيموتوا عليه إن شاء؛ فيعذِّبهم، أو يتوب عليهم، فيرحمهم، فحذف سببَ التَّعذيب، وأثبت المسبِّب، وهو التَّعذيب، وأثبت سبب الرَّحمة والغفران، وحذف المسبِّب وهو الرَّحمة والغفران، وذلك من قبيل الاحتباك، وهذا من الإيجاز الحسن[2].

سرُّ فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

تعليلُ التَّوبة بأنَّه سبحانه أهل المغفرة والرَّحمة

وردت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مفصولةً عن الجملة قبلها؛ لأنَّ بينهما ما يسمّى في البلاغة بـ(شبه كمال الاتِّصال)، وهو كون الجملة الثانية قويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، فتُفصل عنها، كما يُفصل الجواب عن السُّؤال[3]، فجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعليل لجملة: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ إذ علَّل سبحانه قبولَهُ لتوبة المنافقين بأنَّه شَديدُ الغفرانِ رحيم بعباده[4].

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

مغفرةُ الله ورحمته وسعت كلَّ شيء

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على سبيل الاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّه خرج مخرج التَّذييل لما سبق، وفائدة

(1) الجرجانيّ، التعريفات، ص: 12.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 178، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 170.
(3) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 309.

التَّذييل غالبًا توكيد المذيَّلِ، وإبراز حُكمه في صورة كليَّة[1]، فأكَّد اللّه سبحانه أنَّ رحمته وغفرانه غير مقيَّدين بشيء، بل هما من صفاته، وصفاته مطلقة تليق بكرمه وجلاله.

تبشير التوّابين بسَعةِ رحمة ربّ العالمين

فائدة تتابع المؤكّدات في الآية:

تتابعت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ عدَّةُ مؤكِّدات: التأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية، وتوسُّط الفعل ﴿كَانَ﴾، وكلُّها من مؤكِّدات مضمون جملة الإسناد، وقد جاء الكلام على أسلوب الخبر الإنكاري مبالغةً في التَّأكيد على سَعة رحمة اللّه، وألّا يقطع العصاة الرَّجاء في السَّعي إلى مغفرة ما أتوه بأن يتوبوا، فيتوبَ اللّه عليهم.

صفاتُ الله سبحانه دائمة مطلقة

دلالةُ فعل الكينونة الماضي:

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ استعمالُ الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)[2]، وفائدتها هنا الإشعار بأنَّ اتِّصافه تعالى بهذين الوصفين دائم، فالمغفرة والرَّحمة صفتان ذاتيَّتان له، وهذا المناسب لصفات اللّه سبحانه، فهي دائمة مطلقة، ثمَّ إنَّ ذلك من شأنه وعادته سبحانه أن يغفر، ويرحم[3].

عظمةُ الله سبحانه في مغفرته ورحمته

سرُّ إظهارِ لفظ الجلالة في النَّظم:

أُظهِر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الاسمُ الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّه لمّا كان غفران ذنوب المنافقين ورحمتهم - إذا تابوا - أمرًا عظيمًا، فأُظهِرَ الاسم الأعظم؛ للدِّلالة على أنَّه ذو الجلال والإكرام المختصُّ وحده بصفات العظمة.

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/ 1823.

إيثارُ لفظي ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مادة وصيغة:

ســترُ ذنــوبِ العصاة بتكفير السيئات ورفع الدَّرجات

تضمَّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إثباتَ صفتين مِن صفات اللّه ﷻ، وهي صفةُ المغفرة وصفة الرحمة، فاللّه سبحانه يستر ذنوبَ كلِّ من تاب مِن عباده العصاة، رحيم بهم يعطيهم مكان كلِّ سيِّئة حسنة، ويرفع درجاتهم في الآخرة[1]، ثمَّ إنَّهما مِن صيغ المبالغة التي تدلُّ على أنَّهما في أعلى درجات الكمال، والمبالغة هنا في متعلِّق هاتين الصِّفتين في كثرة من يغفر اللّه لهم، ويرحمهم.

البلاغةُ في ذِكر صفات الله تعالى غير معطوفة بالواو في الآية:

الدِّلالة على أنَّ هـذه الصِّفات في أعلى درجات الصِّفة

جاءت الصِّفتان غيرَ معطوفتين بالواو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فلم يقل: إنَّ اللّه كان غفورًا ورحيمًا، والأصل في ذكر الصِّفات على نمط التَّعديد بالوصف دون العطف، إنَّما يكون حين يدَّعي المتكلِّم أنَّ الموصوف بهذه الصِّفات في أعلى درجات الصِّفة، كأنَّه وصل حدًّا لا يمكن أن يصل إليه فيها غيرُهُ، وكأنَّه نفسه في الصِّفة وصل درجةً لا يمكن أن ينزل عنها إلى ما دونها في ذات الصِّفة.

دلالةُ جملةِ الفاصلة الاعتراضيَّة:

تقريبُ العباد بالغفران وتنجيتهم بالتَّوبة من النّيران

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على سبيل الاعتراض التَّذييلي، فهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثل، لكونهِ مستقلًّا بالإفادة، من غير افتقار إلى ما قبله في بيان المراد منه، وفائدته تقرير ما سبق في الكلام قبله، مذيَّلًا بذكر صفتَي المغفرة والرَّحمة المقتضيتين لتقريب عباده بالغفران والرَّحمة وفتح باب التَّوبة لمن أراد من عباده[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأجْر والثَّواب والجَزاء:

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ - الهمزةُ والجيم والرّاء - على مَعْنَيَيْنِ،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 429.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 230، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5320.

وهُما: الكِراءُ علَى العمَل، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما بأنَّ أجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَهُ من كَدٍّ في عملِهِ[1]، وأمّا الثَّواب؛ فدالٌّ على العَود والرُّجوعِ، والمرادُ به: ما يعود على الإنْسان مِن جَزاء عملِه[2]، وأمّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3].

عمومُ الجزاءِ واختصاص الأجر بالخير والثَّواب بالآخرة

والفَرْقُ بينَها[4]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمّا الأجرُ؛ فلا يُستعمل إلّا في النَّفع دون الضُّرِّ، ويتضمَّن معنَى المعاوضةِ.

فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء؛ فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ.

والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخْرَويَّة.

وقد أوثِرَ في النَّظم استعمال لفظ (الجزاء)؛ لما في الإبهام من التَّفخيم ما لا يخفى، ولأنَّ ذكر سبب الجزاء، وهو بصدقهم يدلُّ على أنَّه جزاء إحسان في الدُّنيا والآخرة[5].

العذاب والعقاب والحساب:

عمومُ العذابِ واختصاص العقاب بالجزاء عن ذنب

يظهر الفرق بين (العذاب)، و(العقاب)، و(الحساب): أنَّ (العذاب) و(العقاب) مترتِّبان عن (الحساب)، و(الحساب) هو

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(2) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(3) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جزا).
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآني، ص: 164 - 166.
(5) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 340.

عدُّ الشَّيء، واللّه سريع الحساب، بمعنى: هو مُحْصٍ أعمالَ عبادِه، وسريع المجازاة على الأعمال، فلا يحتاج إلى عدٍّ ولا إحصاء[1]، أمّا العقاب؛ فهو يقتضي بظاهره الجزاء على فعلِه المعاقَب؛ لأنَّه من التَّعقيب والمعاقَبة، وأصل العقاب التِّلْوُ، وهو تأديَةُ الأوَّلِ إلى الثّاني، يقال: عَقِبَ الثّاني الأوَّل؛ إذا تلاه، وعَقِبَ اللَّيل النَّهار، واللَّيل والنَّهار هما عقيبان، ويرتبط العِقابُ بالذَّنبِ، فإذا عَظُمَ الذَّنبُ؛ عَظُمت العقوبة، وإذا صَغُر؛ كان العقاب على قدره، ويوضِّح ذلك بجلاء قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126]، فيأمر اللّه المؤمنين بألّا يزيدوا عمّا فعلوه بهم[2].

أمّا العذاب؛ فليس كذلك، فقد يكون نتيجة ذنب مرتَكب، وقد لا يكون نتيجة عن ذنب؛ إذ يُقال للظّالم المبتدئ بالظُّلم: إنَّه مُعَذِّبٌ، وليس لذنب، وإنَّما لمجرَّد التَّشَهّي أو غير ذلك، فبينهما عموم وخصوص[3]، وهذا الفرق يستقيم في (عذاب) البشر، أمّا في (عذاب) اللّه؛ فلا يكون (عذابه) سبحانه إلّا عن استحقاق ذنب مرتَكب، وقد أوثِر في الآية لفظُ (العذاب)؛ لأنَّه جزاء كبيرة النِّفاق.

التّوبة والمغفرة:

المغفرةُ نتيجةٌ للتَّوبة النَّصوح

يظهر الفرق بينهما في المعنى الدِّلالي لكلٍّ منهما: فالتَّوبة معناها الرجوع عن الذَّنب والنَّدم عليه والتزام الطاعة، ومنه قولهم: تاب من ذنبه؛ إذا رجع عنه[4]، أمّا المغفرة؛ فهي السَّتر، والغفران والغفْرُ بمعنى، يقال: غفر اللّه ذنبه غفرًا ومغفرة وغفرانًا، وهي ستر الذَّنب على العبد في الدُّنيا وعدم المؤاخذة به في الآخرة[5]، فيظهر بذلك أنَّ جزاء التَّوبة المغفرة، وأنَّ المغفرة شرطها التَّوبة، و(التَّوبة)

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/ 279، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 435.
(2) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 281.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 365.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

و(المغفرة) قرينان متلازمان تدلُّ على ذلك نصوص الوحي من القرآن والسُّنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: 3]، وفي قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: 52]، وفي قول النَّبيِّ ﷺ: «واللّه إنّي لأستغفرُ اللّه، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[1].

(1) مسند الإمام أحمد، الحديث رقم: (8475).

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب: 25]

امتنانُ الكريم هنا بتفصيل ما أجمل سابقًا من النِّعم على المؤمنين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر الله سبحانه فيما سبق قصَّة تحزُّب الأحزاب؛ رجع إلى حكاية بقيَّة القصَّة وتفصيل تتمَّة النِّعمة المشار إليها إجمالًا بقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: 9](1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَدَّ﴾: (ردّ) أصلٌ واحد مطَّرد منقاس، وهو رَجْعُ الشَّيء، تقول: رددتُ الشيء أردُّه ردًّا(2)، وسُمّي بالمرتدِّ؛ لأنَّه ردَّ نفسه إلى كفره، والرَّدُّ: صرف الشَّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147] (3)، ومعنى الردِّ في الآية: صرفُ أحزاب الكفر عن المدينة خائبين خاسرين.

2) ﴿بِغَيۡظِهِمۡ﴾: (غيظ) أصلٌ يدلُّ على كرب يلحق الإنسان من غيره(4)، والغَيْظُ: أشدُّ الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه، قال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 119]، وقد دعا الله الناس إلى إمساك النَّفس عند اعتراء الغيظ، قال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134]، ولا يكون الغيظ إلّا بوصول مكروه إلى المغتاظ(5).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 07/ 99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رد).
(3) الرّاغب، المفردات: (ردد)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ردد)، وابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيظ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

3) ﴿يَنَالُواْ﴾: (نول) تدلُّ اشتقاقاتها على معنى الإعطاء، تقول: نَوَّلْته، أي: أعطيته، والنَّوالُ هو العَطاء[1]، وحقيقته: ما يناله الإنسان من الصِّلة[2]، والمراد بقول الله ﷻ: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾: لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة على المسلمين[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ردُّ أحزاب الكفر خائبين خاسرين مغتاظين

يخبر ربُّنا سبحانه أنَّه ردَّ أحزاب الكفر عن المدينة خائبين خاسرين مغتاظين، لم ينالوا خيرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وكفى الله المؤمنين القتال بما أيَّدهم به من الأسباب، وكان الله قويًّا لا يُغالَب، ولا يُقْهَر، عزيزًا في ملكِه وسلطانه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في الآية:

ردُّ اللهِ الأحزاب وإذهابُهم بإرسال الرّيح

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ بحرف الواو الدّال على الجمع والاقتران، ويمكن أن يكون معطوفًا على جملة: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ [الأحزاب: 9]، وهو الأنسب بسياق الآيات بعدها، أي: أرسل الله عليهم ريحًا وردَّهم، أو حال من ضمير: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ [الأحزاب: 20]، أي: يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وقد ردَّ الله الأحزاب، فذهبوا[5].

سرُّ التَّعبير بالردِّ في الآية:

تمامُ النِّعمة على المسلمين بإرجاع الكافرين

أوثرَ التَّعبير بالفعل ﴿وَرَدَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾، ومعناه الإرجاع إلى المكان الَّذي صُدِرَ منه، فإنَّ ردَّهم إلى ديارهم من تمام النِّعمة على المسلمين بعد نعمة إرسال الرّيح عليهم؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نيل).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 479.
(4) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 421.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 309.

لأنَّ رجوعهم أعمل في اطمئنان المسلمين[1]، ثم إنَّ في الرَّدِّ معنى الإهانة والإذلال من جهة، والقوَّة في الرُّجوع من جهة أخرى.

دلالةُ إظهارِ الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ المهابةِ في قلوب العباد بإظهار الاسم الأعظم في النَّظم

أُظهِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ اسمُ اللّهِ الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى بغرض التَّنبيه على عظمِ شأن هذا الردِّ العجيب، واستحضارِ عظمة اللّه الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ، ومسمّاه جامع كلِّ الصِّفات العلا؛ تقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة القادرة على هزيمة الأحزاب وردِّهم خائبين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول في الآية:

كفْرُ الكافرين سببُ خيبتهم وإرجاعهم خاسرين

أوثِرَ في قوله تَعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ استعمالُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر (الكافرين)؛ لأنَّه يسمح بوصفه بجملة الصِّلة وللتَّنبيه على علَّة الحكم، فعبَّر النَّظم القرآنيُّ عن الأحزاب بالذين كفروا؛ للإيماء إلى أنَّ كفرَهم هو سبب خيبتهم العجيبة الشَّأن[2].

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾:

اتِّساعُ المعاني تبعٌ لتنوُّعِ معاني الباء

دلَّ حرف الباء في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ على المصاحبة والملابسة، فيكون الجارُّ والمجرور في موضع حال، تقديره: (ردَّهم مغتاظين)، وهي نظيرة الباء في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: 20]، أي: تنبت ملابسة للدُّهن[3].

سرُّ التَّعبير بلفظ الغيظ:

غضبُ المشركين بردِّهم خائبين خاسرين

عبَّر النَّظمُ القرآني بلفظ (الغيظ) مناسبةً للسّياق في قوله تَعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾، فالغيظ: الحنقُ والغضب،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 310.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 310.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 08/ 469، وشيخ زاده، الحاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 625.

وقد كان غضبهم عظيمًا يناسب حال خيبتهم؛ لأنَّهم تجشَّموا كلفة التجمُّع والإنفاق وطول المكث حول المدينة بلا طائل وخابت آمالهم في فتح المدينة وأكل ثمارها وإفناء المسلمين، وهم يحسبون أنَّها منازلة أيّام قليلة، ثمَّ غاظهم ما لحقهم من النَّكبة بالرّيح والانهزام الذي لم يعرفوا سببه[1].

سرُّ فصل جملة: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾:

كمالُ الاتِّصال بين الجملتين بتقدير الحال أو البدل

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّل الثّانية من الأولى منزلةَ نفسها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ حالًا ثانية أو حالًا من الحال الأولى، فهي متداخلة، ويجوز أن تكون حالًا من الضَّمير المجرور بالإضافة ﴿بِغَيۡظِهِمۡ﴾، وجوَّز الزمخشريُّ فيها أن تكون بيانًا للحال الأولى أو مستأنفة، ولا يظهر البيان إلّا على البدل، والاستئناف بعيد، ويجوز أن تكون بدلًا من الحال الأولى (بغيظه)، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل: لماذا كانوا مغتاظين؟ فكانت الإجابة؛ لأنَّهم لم ينالوا خيرًا [3].

سرُّ النَّفي بـ﴿لَمۡ﴾ في الآية:

نفيُ نيل الكافرين الخير في الماضي والحاضر

ورد في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ النَّفيُ بـ﴿لَمۡ﴾، وهي أداة لنفي الفعل المضارع وجزمِهِ، وقلْبِ زمنه إلى المضيِّ، وهي لنفي (فَعَلَ)، فإذا قلت: (حضر محمد)؛ فإنَّ نفيه (لم يحضر)، وقد يكون النَّفي بها منقطعًا أو متَّصلًا إلى زمن المتكلِّم، دون التَّعرُّض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 310.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 533، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 9/ 113.

للنَّفي في الحاضر والمستقبل[1]، فنفى النَّظمُ نيلَ الكافرين أيَّ خير في تحزُّبهم على المسلمين.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المنفيّ: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ﴾:

الإشـارةُ إلى امـتـداد نفي نيل الخير عن الأحـزاب في المستقبل

لمّا رجع المشركون المتحزِّبون عن المدينة مدحورين مغتاظين؛ أراد القرآن أن يشير إلى أنَّهم لن يستطيعوا نيلَ شيء من المسلمين بعد ذلك، وفي صحيح البخاريِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال بعد رجوع الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»، وهذا هو السِّرُّ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ﴾، ولم يقل: (ما نالوا)؛ لأنَّ في الثّاني نفيَ الماضي دون النَّظر إلى الحال والاستقبال، بخلاف الأوَّل.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿خَيۡرٗاۚ﴾:

عـدمُ نـيـل الكافرين أيَّ نوع من أنواع الخير

استُعمِل في قَوْلِه تَعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ لفظُ ﴿خَيۡرٗاۚ﴾؛ للدَّلالة على كون الكفّار لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة على المسلمين، وسمّاها خيرًا؛ لأنَّ ذلك كان خيرًا عندهم في اعتقادهم، فجاء على استعمالهم وزعمهم، وفسَّرَ بعضهم الخير بالظَّفر بالنَّبيِّ صلّى الله تعالى عليه وسلَّم والمؤمنين، وفسَّره بعضهم بالمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8]، والأولى أن يُراد به كلُّ خيرٍ عندهم، فالنَّكرة في سياق النَّفي تعمُّ[2].

بلاغةُ التَّنكير في: ﴿خَيۡرٗاۚ﴾:

عـدمُ نيل شيء من الخير لا من الـدّيـن ولا مِـن الدُّنيا

جاء لفظ ﴿خَيۡرٗاۚ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ نكرةً، والغرض من تنكيره التَّقليلُ، فالأحزاب لم ينالوا من الخير شيئًا، ولو يسيرًا لا مِن الدّين ولا مِن الدُّنيا، بل نالوا ذلًّا وندامة وخسارة أموالهم، لم يربحوا إلّا عناء السَّفر وغرم النَّفقة.

---

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 69.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 479، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 171.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾:

إتمامُ النِّعمة على المؤمنين بالكفاية من شرِّ القتال

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ على جملة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ تتميمًا لنعمة النَّصر والظَّفر على الأعداء، والمعنى: أنَّ الله أرسل على الأحزاب ريحًا، وردَّ جيوشهم، وكفى الله المؤمنين قتالهم.

سِرُّ التَّعبير بالكفاية في الآية:

كفاية المؤمنين قتالَ الأحزاب بالرّيح والملائكة

جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ كفايةُ المؤمنين القتال، والمقصود أنَّ الله سبحانه أغناهم عن قتال الأحزاب بما أرسله عليهم من الرّيح الشديدة، والجنود التي لم يروها من الملائكة وغيرهم، ولم يحتجِ المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم، بل كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبدَهُ، وأعزَّ جندَهُ، وهزم الأحزابَ وحدَهُ، فلا شيء بعده.

نكتةُ تعديةِ الفعل ﴿وَكَفَى﴾ في الآية:

(كفى) بمعنى (أغنى) تتعدّى إلى مفعولين

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَكَفَى﴾، وهو في هذا السّياق بمعنى (أغنى)، أي: أغنى الله المؤمنين عن قتال الأحزاب، وكفى - بهذا المعنى - تتعدّى إلى مفعولين، يقال: كفيتُكَ مُهِمَّكَ، وليست هي الَّتي تُزاد الباءُ في مفعولها، فتلك بمعنى: حَسْبٍ، نحو: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب: 3](1).

بلاغةُ الإظهارِ في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ المانع الحقيقيَّ هو الله لا الأسباب

في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾، بدل: (وكفى المؤمنين القتال)؛ لتقدُّم لفظ الجلالة في صدر الآية في قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ دلالةً على أنَّ الَّذي منع الكفّار من قتال المؤمنين، وإن كان في الظّاهر معروفًا، وهو الرّيح والملائكة وغيرهما، إلّا أنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 310.

يريد أن يبيِّن أنَّ هذه أسبابٌ، وأنَّ خالق الأسباب هو الذي سخَّرها، وهو سبحانه إنَّما منعهم بهذه الأسباب؛ لأنَّه الله، بهذا اللَّفظ الذي يورث المهابة في القلوب، بذكر اسمه العلم ﴿ٱللَّهُ﴾، الذي لا يشرَكُهُ فيه أحد غيره، فكذلك لا يستطيع أحد سواه كائنًا من كان أن يفعل فعله من تسخير الرّيح والملائكة وغيرهما؛ لردِّ الكفّار خائبين خاسرين مغتاظين.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّنبيهُ على عِظم شأن كفاية الله لأوليائه المؤمنين

أُظهِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ اسمُ الله الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى؛ بغرض التَّنبيه على عِظَمِ شأنِ كفاية الله لأوليائه المؤمنين، واستحضار عظمة الله الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ، وهو يشير إلى أنَّ مسمّاه جامعٌ كلَّ الصفات العلا؛ تقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة القادرة على هزيمة الأحزاب وردِّهم خائبين.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

التَّصديقُ الجازم بما وعد به سبحانه عبده من النَّصر والتَّمكين

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ التَّعبيرُ بوصف ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون (المسلمين) مثلًا؛ لمناسبة سياق الجهاد في سبيل الله الذي يتطلَّبُ إيمانًا راسخًا، فالإيمان بالله سبحانه معناه التَّصديق الجازم بما وعد به سبحانه من النَّصر والتَّمكين لعباده المؤمنين، ثمَّ إنَّ التَّعبير بالاسم المشتق يشعر بعليَّة ما منه الاشتقاق، أي: إنَّما كفاهم الله شرَّهم؛ لأنَّهم مؤمنون.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل المجموع:

دلالةُ اسم الفاعل على رسوخ الصِّفة في الموصوف

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ استعمالُ اسم الفاعل المجموع ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون الصِّلة (الذين آمنوا)؛ لما في اسم الفاعل من الدِّلالة على ثبوت صفة الإيمان في الممدوحين به ورسوخ هذه الصِّفة فيهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أل) الموصولة في المؤمنين:

تنوُّع المعنى بين قصد العموم أو قصد الخصوص

جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ معرَّفًا، فدلَّ على الاستغراق والعموم في (أل) الموصولة على الأصل من دلالة الموصول على العموم، أي: إنَّ اللّه كفى كلَّ المؤمنين الذين كانوا مع رسول اللّه ﷺ أن يقاتل الأحزاب، وقال بعضهم: إنَّ المرادَ بالْمُؤْمنينَ هنا عليُّ بن أبي طالب وقوم معه عُنوا للقتال، وبرزوا، ودعوا إليه، وقد قتل عليٌّ رجلًا من المشركين اسمه عمرو بن عبد وُدٍّ، فكفاهم اللّه تعالى مداومة ذلك وعودته بأن هُزِمَ الأحزاب بالرّيح والملائكة، وصنع ذلك بقوَّته وعزَّته[1].

بلاغةُ مجازِ الحذف في الآية:

أثــرُ الــحــذفِ الــبــلاغــي في استثارة المعاني وكثرتها

يتضمَّنُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ مجازًا بالحذف، تقديره: وكفى اللّه المؤمنين كلفةَ القتال، أو أرزاء القتال، فإنَّ المؤمنين كانوا يومئذٍ بحاجة إلى توفير عَدَدِهم وعُدَدِهم بعد مصيبة يوم أحد، ولو التقوا مع جيش المشركين؛ لكانت أرزاؤهم كثيرةً، ولو انتصروا على المشركين[2]، وذهب بعضهم إلى أنَّ المراد: كفى اللّه المؤمنين مداومة القتال وعودته، فإنَّ قريشًا هُزموا بقوَّة اللّه تعالى وعزَّته ﷻ وما غزوا المسلمين بعد ذلك، وإلّا فقد وقع قتال في الجملة، وقُتِلَ من المشركين ثلاثة كما ورد في الأخبار[3].

نوعُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡقِتَالَۚ﴾:

بسالةُ عليٍّ رضي الله عنه في غزوة الأحزاب

جاء لفظُ القتال في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ معرَّفًا بـ(أل) الدّالَّةِ على تعريف العهد، فالمرادُ بالقتال - الذي كفاهم اللّه تعالى إيّاه - القتالُ على الوجه المعروف من تعبئة الصُّفوف والرَّمي بالسِّهام والمقارعة بالسّيوف أو القتال الذي

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 379.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 310.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 172.

يقتضيه ذلك التَّحزُّب والاجتماع بحكم العادة، وإلّا فقد وقع قتال من عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه(1).

سرُّ إبهام كيفيَّة الكفاية:

كفايةُ الله عباده بما شاء

ذُكِرَتِ الكفاية في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ مطلقة(2)، فاختلف العلماء في تحديد كيفيَّتها، والظّاهر من الآثار أنَّها كانت بالجنود من عند اللّه، والمقصود بها الملائكة التي كانت تقذف الرُّعب في قلوب المشركين، وكذلك بالرّيح الشَّديدة التي بُعثِت عليهم، والَّتي أجبرتهم على الرُّجوع خائبين.

بلاغةُ توسُّطِ جملة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾:

وضْعُ الحربِ بين المسلمين وبين قريش بعد الأحزاب

يتضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ إشارةً إلى وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، فلم تغزُ قريشٌ بعد ذلك المسلمين، وقال رسول اللّه ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»(3)، فكان كما أخبر ﷺ أنَّه هو الذي يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح اللّه عليه مكَّة(4).

دلالةُ جملة الفاصلة في الآية:

قــدرةُ الـقـويِّ سبحانه على هزيمة الأحزاب وغيرهم، فهو لا يعجزه شيء

خرج قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ مخرجَ التَّذييل لجملة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخرها، فهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثل؛ لكونه مستقلًّا بالإفادة، من غير افتقار إلى ما قبله في بيان المراد منه، وفائدة التَّذييل غالبًا توكيد المذيَّلِ، وإبراز حكمه في صورة كليَّة(5)، فأكَّد اللّه سبحانه أنَّ قوَّته وعزَّته مطلقتان غير مقيَّدتين بشيء، قادر على هزيمة الأحزاب وغيرهم، لا يعجزه شيء.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 172.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 70.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (112)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (20).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 355.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

دلالةُ التَّعبير بفعل (كان):

العـزَّةُ والـقـوَّةُ وصفان دائمان لله تعالى

ورد في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ استعمالُ الفعل الماضي (كان)، الَّذي يأتي في الأصل للاتِّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنَّه يخرج لدلالة الدَّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)[1]، وفائدتها هنا: الدَّلالة على أنَّ العزَّة والقوَّة وصفان دائمان للّه تعالى، ومن تعلُّقات قوَّته وعزَّته أن صرف ذلك الجيش العظيم خائبًا مفتضِحًا، وألقى بينه وبين أحلافه من قريظة الشَّك، وأرسل عليهم الرّيح والقرَّ، وهدى نعيمَ بن مسعود الغطفاني إلى الإسلام دون أن يشعر قومه، فاستطاع النُّصح للمسلمين بالكيد للمشركين، ذلك كلُّه معجزة للنَّبيِّ ﷺ[2].

دلالةُ إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

اسـتـحـضـارُ عـظـمـة الـلـه سبحانه في قوَّته وعزَّته

تكرَّر في قَوْله تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ إظهارُ اسم اللّه الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى بغرض استحضار عظمة اللّه سبحانه في قوَّته وعزَّته وسائر صِفاتِ الكمالِ، فاسم الجلالة اللّه أصله الإله، واشتقاقه مشير إلى أنَّ مسمّاه جامعٌ كلَّ الصفات العلا تقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة القادرة على هزيمة الأحزاب وردِّهم خائبين خاسرين مغتاظين.

سرُّ إيثار الاسمين الكريمين (القويِّ العزيز):

مـــن يـنـصـره الله؛ فلا غالب له، فهو المنفرد بالقوَّة والعزَّة

وَصَفَ اللّه سبحانه نفسه في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ بوصفَيِ القويِّ العزيز، فهو سبحانه قويٌّ على فعل ما يشاء فعله بخَلقِهِ، فينصر مَن شاء منهم على مَن شاء أن يخذلَهُ، لا يغلبه غالبٌ، وهو ﷻ عزيز شديد انتقامه ممَّن انتقم منه من أعدائِهِ[3]، فمن ينصره اللّه؛ فلا غالب له؛ لأنَّه سبحانه المتفرِّد بالعزَّة والقوَّة.

---

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 311.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 70.

البلاغةُ في ذِكرِ صفات الله تعالى غير معطوفة:

الدلالةُ على أنَّ هذه الصفات في أعلى درجات القوَّة

في قولهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ جاءت الصفتان غير معطوفتين بالواو، فلم يقل: (وكان الله قويًّا وعزيزًا)؛ لأنَّ الأصل في ذكر الصِّفات على نمط التَّعديد بالوصف أن يكون الموصوفُ بهذه الصِّفات في أعلى درجات الصِّفة، أو يدَّعي المتكلِّم ذلك، كأنَّه وصل حدًّا لا يمكن أن يصل إليه غيره فيها، وكأنَّه نفسه في ذات الصِّفة وصل درجة لا يمكن أن ينزل عنها إلى ما دونها.

فنُّ المناسبةِ بين الآية وفاصلتها:

الاحتراس من ربط النَّتائج بالأسباب دون النَّظر إلى قوَّة المسبِّب وعزَّته

تتضمَّن هذه الآية الكريمة فنًّا من فنون البلاغة، وهو فنُّ المناسبة، وهذا الفنُّ ضربان: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ، وما ورد في هذه الآية من الضَّرب الأوَّل؛ لأنَّ الكلام لو اقتصر فيه على مادون الفاصلة؛ لأوهم ذلك بعض الضُّعفاء أنَّ هذا الإخبار موافق لاعتقاد الكفّار في أنَّ الرّيح الَّتي حدثت كانت سببًا في رجوعهم خائبين، وكفى المؤمنين قتالهم، والرّيح إنَّما حدثت اتِّفاقًا، كما تحدث في بعض وقائعهم وقتال بعضهم لبعض، وظنّوا أنَّ ذلك لم يكن من عند اللّه، فوقع الاحتراس بمجيء الفاصلة، الَّتي أخبر فيها سبحانه أنَّه قويٌّ عزيز، قادر بقوَّته على كلِّ شيء ممتنع بذاته، وأنَّ حزبه هو الغالب، وأنَّه لقدرته يجعل النَّصر للمؤمنين أفانين متنوِّعة[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الردّ والإرجاع:

عمودُ الردِّ في الإرجاع وغيره

يتجلّى الفرق بين (الردِّ)، و(الإرجاع) في كون الردِّ صرف الشيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147][2]، أمّا الإرجاع؛ فهو

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 152.
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ردد).

العَودُ إلى ما كان منه البَدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله[1].

وقد آثر النَّظمُ القرآنيُّ في الآية لفظ (الردِّ)؛ لأنَّه أنسب وأليق بصرف أحزاب الكفر عن المدينة خائبين خاسرين مغتاظين.

الغيظ والغضب:

الغيظ للعاجز والغضب للقادر

يجوز للإنسان أن يغتاظ من نفسه، ولا يجوز أن يغضب عليها، وذلك أنَّ الغضب إرادة الضَّرر للمغضوب عليه، ولا يجوز أن يريد الإنسان الضَّرر بنفسه، فالغيظ يقرِّب من باب الغمِّ، فيكون كامنًا في النَّفس، ويظهره الغضب[2]، ومن الفروق أيضًا: أنَّ الغيظ أشدُّ من الغضب، والغيظ كامن والغضب ظاهر، والغيظ للعاجز والغضب للقادر[3]، فاختار القرآن لفظ (الغيظ) في الآية؛ لبيان عجز الأحزاب عن نيل ما أرادوه من غلبة المسلمين وتحسُّرهم على ما خسروه.

القتال والجهاد:

القتال لا يكون إلّا بالسِّنان بينما الجهاد يكون به وبالمال والعلم والبيان

بين لفظَيِ الجهاد والقتال عموم وخصوص، فالقتال قد يكون حقًّا، وقد يكون بغيًا بغير حقٍّ، ولا يكون الجهاد إلّا حقًّا ونشْرًا للدّين أو ردًّا للكافرين، وكذلك الجهادُ أعمُّ مِنَ القتال، فهو لا يكون بالسّيف فقط بل قد يكون ببذل المال في نصرة الحقِّ، وقد يكون باللِّسان في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم»[4]، ومن الفروق الواضحة بينهما عمومُ القتال في كلِّ الملل والنِّحل، وخصوص الجهاد بكونه مصطلحًا إسلاميًّا خاصًّا بالحضارة الإسلاميَّة وحدها دون ما سواها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رجع).
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 130.
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (غيظ).
(4) أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (2504)، وأحمد، الحديث رقم: (11837)، والنّسائي، الحديث رقم: (3096) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المحتويات

